الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

مكتبة 526

سْكُوت تُورو
SCOTT TUROW

البريء المفترض
PRESUMED INNOCENT

رواية

الرواية التي احتلت المرتبة الأولى على قائمة «نيويورك تايمز» للروايات الأكثر مبيعاً
وبيع منها أكثر من 9 ملايين نسخة، ثم تحوّلت إلى فيلم سينمائي من بطولة هاريسون فورد.

البريد المفترض

t.me/t_pdf

مكتبة | 526

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Presumed INNOCENT
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Grand Central Publishing
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 1987 by Scott Turow
All rights reserved
Arabic Copyright © 2011 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى
1433 هـ - 2012 م

مكتبة
t.me/t_pdf

٢٠١٩ ١١ ٦

ردمك 978-614-01-0381-8

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

البريء المفترض

رواية

سكوت تورو

ترجمة

حسان البستاني

مكتبة | 526

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

المقدمة

هكذا أبدأ دائماً:

«أنا المدّعي العام.

«أنا أمثّل الولاية. أنا هنا لأقدّم لكم الدليل على جريمة مرتكَبة. سوف نقيّم هذا الدليل معاً، وستتداولون في شأنه، وتقررون ما إذا كان يُثبت ذَنْب المتّهَم.

هذا الرجل -» وهنا أشير إليه.

يجب عليك دائماً أن تشير يا راستي، قال لي جون وايت. حدث ذلك يوم بدأت العمل في مكتب المدعي العام. لقد أخذ العُمدة بصمات أصابعي، وأقسمتُ اليمين أمام رئيس القضاة، وطلب مني جون وايت حضور أول محاكمة رأيتها في حياتي أمام هيئة المحلّفين. كان نِد هالسي يلْقي المرافعة الافتتاحية باسم الولاية. وبينما كان يشير في قاعة المحاكمة، همس جون في أُذُني درسي الأول بطريقته المسترسِلة والودود، وفي نفَسه رائحة كحول عند الساعة العاشرة صباحاً. كان المساعد الأعلى للنائب العام آنذاك. وهو إيرلندي قوي البنية، ذو شعر أبيض. حدث ذلك قبل اثنتَي عشرة سنة تقريباً، وقبل وقت طويل من ظهور طموحي السرّي بشغل منصب جون. إذا لم تكن لديك الشجاعة للإشارة، همس جون وايت، فلا تتوقع منهم أن تكون لديهم الشجاعة لإدانته.

هكذا، أصبحت أشير بيدي عبر قاعة المحكمة، مادًّا إصبعاً واحدة بشكل مستقيم في اتجاه عين المدّعى عليه، وأقول: «هذا الرجل متّهَم».

فيُشيح بنظره، أو يطرف عينيَه، أو لا يُبدي أي رد فعل على الإطلاق.

في البدء، غالباً ما كنت أستغرق في التفكير، وأتخيل ما يكون عليه شعور ذاك الجالس هناك تحت الأنظار المدقّقة والمندّدة لمن يهتمّ بمتابعة المحاكمة، مدركاً أن الامتيازات العادية لحياة لائقة - حق المرء بالاحتفاظ بأسراره، احترام الآخرين له، لا بل التمتع بالحرّية أيضاً - أصبحت كمعطف فضفاض

تخلّيتُ عنه عند باب قاعة المحكمة وقد لا يليق بي ثانيةً. كان باستطاعتي الشعور بالخوف، والإحباط، والعُزلة المسكونة بأشباح التساؤلات.

على غرار احتياطيات المعادن الخام، لقد استقرّت مادة الواجب والالتزام الأكثر قسوة في العروق؛ حيث تتحرك تلك المشاعر الأكثر رقّة. عليّ القيام بعملي. لم أغدُ غير مُبالٍ، صدّقوني، ولكن توجيه الاتهام، والمقاضاة، والمعاقبة أمور تجري باستمرار؛ إنها إحدى العجَلات الأكبر حجماً التي تدور تحت كل ما نقوم به. أنا ألعب دوري، ولست سوى موظفٍ في نظامنا الوحيد المعترَف به عالمياً – والمتمثل بالكشف عن الخطأ والصواب – وبيروقراطيٌ أميّز بين الخير والشر. يجب منع هذا الأمر؛ وليس ذاك. ربما يعتقد أحدهم أنّ الأمور قد اختلطت ببعضها، وفقدت البوصَلة دقّتها بعد كل هذه السنوات من توجيهِ التُهم، والنظرِ في القضايا، ومشاهدة مدّعى عليهم يأتون ويذهبون. بطريقة ما، لم يحدث ذلك.

والتفتُّ إلى هيئة المحلّفين.

«اليوم، تضطلعون كلكم بأحد واجبات المواطنية الأكثر رزانة. يفترض بعملكم العثور على الوقائع؛ الحقيقة. ليست مهمة سهلة، أعرف ذلك. قد تضعف الذاكرة، وتتعسّر عملية تذكّر الأحداث. وقد يشير الدليل إلى اتجاهات مختلفة، وتُضطرون لاتخاذ قرارات في شأن أمور يبدو أن أحداً لا يعلم بها، أو لا يرغب في قولها. وإذا كنتم في المنزل، أو العمل، أو في أي مكان في أثناء حياتكم اليومية، فربما تكونون مستعدّين للتخلي عن مواصلة عمل ما، وقد لا ترغبون في بذل أيّ جهد. هنا، يجب عليكم الاستمرار.

يجب عليكم الاستمرار. دعوني أذكّركم. لقد حدثت جريمة حقيقية. لا أحد يُنكر ذلك. هناك ضحيّة حقيقية، وألم حقيقي. ليس عليكم أن تبيّنوا لنا سبب حدوث ذلك. فبالرغم من كل شيء، قد يحتفظ الناس بدوافعهم لأنفسهم؛ إلى الأبد. ولكن، يجب عليكم على الأقل أن تحاولوا تحديد ما حدث في الواقع. وإذا لم تستطيعوا، فلن نعرف ما إذا كان هذا الرجل يستحق الإفراج عنه أو معاقبته. ولن تكون لدينا أي فكرة عن الشخص الذي يجب علينا اعتباره مسؤولاً عن الجريمة. إذا لم نتمكن من العثور على الحقيقة، فماذا نأمل من العدالة؟».

الربيع

انضم إلى
مكتبة
اضغط اللينك
t.me/t_pdf

1

قال ريموند هورغان: «يُفترض بي أن أشعر بمزيد من الأسف».

لقد تساءلت في بادئ الأمر عما إذا كان يتحدث عن التأبين الذي سيُلقيه. كان قد ألقى نظرة أخرى على ملاحظاته، وقام بإعادة بطاقتَين مفهرَستَين إلى جَيب الصدر في بذلته الزرقاء المضلَّعة. ولكن، عندما فهمتُ عبارته، أدركت أن ملاحظته تتناوله شخصياً. ومن المقعد الخلفي لسيارة البويك الخاصة بالمقاطعة، حدّق عبر زجاج السيارة بحركة المرور التي تزداد احتشاداً كلما اقتربنا من ساوث إند، واتخذت نظرته طابعاً تأمّلياً. وفي أثناء مراقبتي له، خطرت لي فكرة عن وِضعته التي يمكن أن تكون فعّالة في الصورة التي سيتم اعتمادها لحملة هذا العام: قسمات وجه ريموند الوافرة توحي بوقار وشجاعة يُستشَفّ منهما بعض الأسى. ويبدو على وجهه هدوء أمام المصاعب التي يواجهها المرء في هذه الحاضرة، والتي تكون حزينة أحياناً كأحجار الآجرّ المتّسخة والسطوح المكسوّة بالورق المُشبَع بالقطران في هذه الناحية من المدينة.

إنه أمر عادي بالنسبة لأولئك الذين يعملون مع ريموند أن يقولوا إنه لا يبدو بخير. فقد انفصل منذ عشرين شهراً عن آن التي كانت زوجته طوال ثلاثين عاماً. ولكنه استعاد بعض السُّمنة وسمات متجهّمة على الدوام توحي بأنه بلغ أخيراً تلك المرحلة من الحياة، وبات على يقين من عدم تحسّن العديد من الأمور المؤلمة. فقبل عام، كان الرهان على أن ريموند لم يعد يمتلك القوة أو الاهتمام لخوض غمار الانتخابات مجدداً، وأنه انتظر حتى بقيت أربعة أشهر على الانتخابات الأولية ليُعلن عن ترشّحه. ويقول البعض إن إدمانه على السلطة والحياة العامة هو ما حمله على متابعة مسيرته. شخصياً، أعتقد أن الدافع الأكبر هو كره ريموند الصريح لخصمه الرئيس نيكو ديلاي غارديا الذي كان حتى العام

السابق مساعداً آخر للنائب العام في مكتبنا. وأيًا يكن الدافع، فلقد ثبُت أنها حملة شاقة. فالمستشارون الإعلاميون مشاركون ما دامت الأموال متوافرة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الوكالات. وتولّى ثلاثة شبّان مهمة إبداء آرائهم حول مسائل مرتبطة بصورة الحملة الانتخابية، وتدبّر أمر إلصاق صورة ريموند على الجهة الخلفية لكل حافلات المدينة. كانت ابتسامته في الصورة متملّقة، ويُراد منها التعبير عن نزوة قاسية. أظن أن الصورة الفوتوغرافية تجعله يبدو كشخص مغفّل نوعاً ما. إنها دلالة أخرى على أن ريموند فقد مهارته، وهذا ما عناه ربما عندما قال إنه يُفترض به أن يشعر بمزيد من الأسف؛ فهو يعني أن الأحداث تتخطاه مجدداً كما يبدو.

وواصل ريموند حديثه عن وفاة كارولين بوليموس التي حصلت قبل ثلاث ليالٍ، في الأول من نيسان/أبريل.

«يبدو الأمر كما لو أنني لا أستطيع التوصل إلى نتيجة. فنيكو، من جهة، يصف الأمر كما لو أنني أنا من قتلها. وكل مغفّل في العالم يملك بطاقة صحافية يريد أن يعرف متى سنجد القاتل. والسكرتيرات يصِحنَ في بيوت الخلاء. وفي النهاية، عليّ التفكير بهذه المرأة. كنت أعرفها مذ كانت ضابطة مراقَبة قبل تخرّجها من كلّية الحقوق. لقد استخدمتُها وعملتْ لصالحي. كانت امرأة جذّابة وذكية. في النهاية، أنت تفكر بالأمر، ما حدث فعلاً. أظن أنني منهَك. ولكن، يا الله! لقد اقتحم شخص متخلّف عقلياً المكان هناك. وهذا ما انتهت إليه، هل هذا وداعها؟ مع رصاصة مجنونة اخترقت جمجمتها وقذفت بها إلى الوراء! لا يمكنك الشعور بما يكفي من الأسف».

«لم يقتحم أحد المنزل»، قلت أخيراً، ولم تفاجئني نبرتي التأكيدية. فأعاد ريموند رأسه إلى الوراء ورمقني بنظرة كئيبة وفطِنة، وكان قد استأنف تمعّنه آنيًا بمجموعة من الأوراق كان قد أحضرها معه من المكتب ووضعها على حضنه.

«من أين أتيتَ بذلك؟».

فأبطأتُ بالإجابة.

«وجدنا السيدة مغتصَبة ومقيَّدة»، قال ريموند. «بطريقة مرتجَلة بدأتُ تحقيقي مع أصدقائها ومعجَبيها».

«ليس هناك زجاج مكسور»، قلت، «ولا أبواب مفتوحة عُنوَةً».

عندئذٍ، أقحم كودي نفسه في المحادثة من حيث يجلس على المقعد الأمامي، وهو شرطي منذ ثلاثين عاماً يمضي أيامه الأخيرة في سلك الشرطة كسائق لسيارة ريموند التابعة للمقاطعة. كان كودي هادئاً على نحو غير عادي في ذلك اليوم، مجنّباً إيّانا استغراقه في التفكير الحالم بصفقات المتسوّلين والاعتقالات البارعة التي شهدها بأمّ العين في معظم جادّات المدينة. بخلاف ريموند – أو بخلافي أنا في تلك المسألة – لم يكن يجد صعوبة في التعبير عن شعوره بالأسى. لقد بدا كما لو أنه لم ينَم قطّ، وارتسمت على وجهه ملامح حزن شديد. ولسبب ما، لقد أثاره تعليقي حول حالة شقة كارولين فقال:

«لم تكن كل الأبواب والنوافذ في المسكن مُقفَلة، كانت تحب تركها على تلك الصورة. كانت تلك المرأة تعيش في أرض العجائب».

«أظن أن شخصاً حاذقاً كان موجوداً هناك»، قلت لهما. «إنه توجيه خاطئ لمسار التحقيق».

«هيا، يا راستي»، قال ريموند. «نحن نبحث عن متسوّل. لسنا بحاجة إلى شيرلوك هولمز. لا تحاول القفز فوق رجال المباحث. أبقِ رأسك منخفضاً، وسِر في خط مستقيم. اتفقنا؟ هيا، ألقِ القبض على مرتكِب الجريمة، وأنقذ مسيرتي المهنية». وسخر مني، رامقاً إيّاي بنظرة دافئة ومعبّرة. لقد أراد ريموند أن أعرف أنه يتحمّلني، وأنه لا حاجة لمزيد من التشديد على المعاني الضمنية التي يحملها اعتقال قاتل كارولين.

في تعليقاته المرتبطة بوفاة كارولين والتي تناولتها التقارير الإخبارية، كان نيكو دنيئاً واستغلالياً وقاسياً. «إن طريقة النائب العام المتهاونة في تطبيق القانون في السنوات الاثنتَي عشرة الماضية جعلته

شـريكاً للعوامل الإجرامية في المدينة. حتى إن أعضـاء فريقه لم يعودوا ينعمون بالأمان كما توضـح هذه المأسـاة». لم يشـرح نيكو كيف أن قيام ريموند بتعيينه مسـاعداً للنائب العام منذ أكثر من عقد من الزمن يفسِّـر خروج ريموند عن القانون. ولكن مصلحة نيكو الانتخابية لا تخفى على أحد، إضـافةً إلى ما يُظهره من وقاحة في سـلوكه العام باسـتمرار. فهذه الوقاحـة، مـن بيـن أمور أخرى، هي التي تجعله يندفع بقوة للحصـول على مهنة سياسية.

فسـواء أكان اندفاعـه بقـوة أم لا، لـم يكن مـن المتوقع لنيكو على نطاق واسـع أن يفوز بالانتخابات الأولية التي ستحصـل بعد ثمانية عشر يومـاً. لقـد كرّس ريموند هورغان نفسـه، ولأكثر من عقد من الزمن، لمليون ونصف المليون من الناخبين المسجلين في مقاطعة كيندل. ومن المتوقـع لـه أن يفـوز هذا العام أيضـاً بتأييد الحزب. ويعود سـبب ذلك إلـى حـد كبيـر إلى نزاع حزبي قديم مع رئيس البلدية. فمعاونو ريموند السياسيون – وهم عبارة عن مجموعة لم تشملني قطّ – يعتقدون أنه عندما تُنشـر أولى نتائج الاقتراع بعد أسـبوع ونصـف، سيكون بإمكان زعماء أحزاب آخرين إجبار رئيس البلدية على تغيير موقفه الانتخابي، وسيكون ريموند بأمان لمدة أربع سنوات أخرى. ففي مدينة الحزب الواحد هذه، يُعتبر الفوز بالانتخابات الأولية بمثابة فوز بالانتخابات.

واسـتدار كـودي من حيـث يجلس على المقعـد الأمامي وذكر أنه يقترب من ازدحام سَـير. فأومأ ريموند برأسـه تلقائياً، واعتبر كودي الأمـر موافَقـةً. وعندمـا توقفـت السـيارة، أطلق صـفّارة الإنذار على مرحلتين قصـيرتَين كما لو أنهما علامتا ترقيم في حركة المرور، ولكن السيارات والشاحنات انطلقت بشكل طبيعي، وتقدمت سيارة البويك قاتمة اللون ببطء. فالحيّ هناك لا يزال هامشياً؛ فهناك منازل أقدم عهداً تكسو ألواحٌ خشـبية سـقوفَها، ومداخل خارجية مسـقوفة متشقّقة. ويلعب فتيان ذوو وجوه شاحبة بلون البطاطا بِكُرات وحبال في طرف الشارع. لقد نشأتُ على بُعد ثلاثة مجمعات سكنية من هذا المكان، في شقة فوق فرن

والدي، وأتذكر تلك السنوات القاتمة. ففي النهار، كنت ووالدتي نساعد والدي في المتجر، وذلك عندما لا أكون في المدرسة. وفي الليل، كنّا نلازم غرفة واحدة مُقفَلة في أثناء احتساء والدي الشراب. لم يكن لديّ أشقاء وشقيقات. ولم يختلف الحيّ كثيراً عن السابق، ولا يزال مليئاً بأشخاص مماثلين لوالدي: صربيين على غراره، أو أوكرانيين، أو إيطاليين، أو بولنديين؛ مجموعات إثنية تعيش بسلام وتحتفظ بوجهة نظرها الخاصة المتشائمة.

وتسمّرنا في مكاننا في حركة المرور البطيئة التي يشهدها بعد ظهر يوم الجمعة. وتوقف كودي وراء حافلة تنفث أدخنتها المؤذية مع هدير مِعوي. كان هناك أيضاً مُلصق إعلاني كبير خاص بحملة هورغان، ويُطِلّ فيه ريموند من فوق الرؤوس بعرض ست أقدام، وعلى وجهه تعبيرُ مضيفِ سيّئ الطالع في برنامج مقابلات تلفزيوني أو ناطق بلسان طعام معلَّب للهررة. فلم أتمكن من تمالك نفسي؛ إن ريموند هورغان هو مستقبَلي وماضيّ، أرافقه منذ اثنتي عشرة سنة تقريباً زاخرة بالولاء والإعجاب الحقيقيَّين. وأنا نائبه، ويُعتبر سقوطه سقوطاً لي. ولكن لا يمكن إسكات صوت الاستياء؛ فلديه ضروراته الخاصة التي لا يمكن تجاهلها. وتكلّم هذا الاستياء مع الصورة بطريقة صريحة وفجائية، وقال: أنتَ مُنهَك، أنت شخص مغفَّل.

في أثناء سلوكنا الشارع الثالث، أيقنت أن المآتم أصبحت حدثاً هاماً بالنسبة إلى قسم الشرطة. فنصف السيارات المركونة تحمل اللونَين الأسود والأبيض، وهناك رجال شرطة بمجموعات من شخصين أو ثلاثة أشخاص يعبرون الممرات ذهاباً وإياباً. إن قتل مدّعٍ عام على بُعد خطوة واحدة من قتل شرطية. وأيًّا تكن رتبة المتوفّاة، فهناك عدة أصدقاء لكارولين في سِلك الشرطة؛ ذلك النوع من الولاءات المخلصة التي يطوّرها نائب عام صالح من خلال تقدير العمل البارع للشرطة حق قدره، والحِرص على عدم تبديده في المحكمة. ومن ثم، هناك بالطبع واقع كونها امرأة جميلة، ومن أولئك اللواتي يتمتعنَ بمزاج عصري.

نعلم أن كارولين حاولت تجنّب الأمر.

في مكان أقرب إلى دار العبادة، كانت حركة المرور مزدحمة بشكل ميؤوس منه. تقدمنا بضع أقدام بشكل متقطع قبل أن نُضطر لانتظار انتهاء السيارات الموجودة أمامنا من إنزال الركاب. كانت سيارات فخمة لشخصيات مرموقة تحمل لوحات رسمية وعربات لوسائل الإعلام تبحث عن فسحات في الجوار، وتسدّ الطريق بلا مبالاة. فالمراسلون الإذاعيون والتلفزيونيون، بصفة خاصة، لا يطيعون القانون المحلي أو قواعد الأدب العام. كانت هناك عربة إرسال تابعة لإحدى المحطات التلفزيونية، ومزوَّدة بطبق رادار لاقط مثبَّت على ظهرها، ومركونة على رصيف الشارع مباشَرةً أمام أبواب دار العبادة المفتوحة والمصنوعة من خشب السنديان. وقام عدد من المراسلين بشقّ طريقهم بجهد وسط الحشد كما لو أنهم في ملاكمة للمحترفين، دافعين ميكروفوناتهم في اتجاه الرسميين الواصلين.

«في ما بعد». قال ريموند حين أحاط حشد من الصحافيين بالسيارة حالما وصلنا أخيراً إلى الحاجز الحجري عند حافة الطريق. وشرح قائلاً إنه سيُلقي كلمة تأبين، وسيكررها ثانيةً في الخارج. وتوقف طويلاً لملاطفة ستانلي روزنبرغ من القناة الخامسة. فستانلي يحظى كالعادة بالمقابلة الأولى.

وأومأ لي بول دراي، وهو أحد أفراد هيئة موظفي رئيس البلدية. فصاحب السيادة يرغب كما يبدو في التحدث قليلاً إلى ريموند قبل بدء الصلاة، ونقلتُ الرسالة بعد أن تمكن هورغان من التملّص من المراسلين. فقطّب جبينه - بطريقة غير حكيمة لأن باستطاعة دراي رؤية ذلك بالتأكيد - قبل أن يتوارى مع بول في الظلمة القوطية لدار العبادة. كان رئيس البلدية أوغوستين بولكارو يملك طبعَ طاغية. فقبل عشر سنوات، وعندما كان ريموند هورغان الشخص القوي في المدينة، كاد أن يفوز على بولكارو في هذا المنصب. ومنذ هزيمته في تلك الانتخابات الأولية، قام ريموند ببوادر الولاء الملائمة كافة، ولكن بولكارو لا يزال

يشعر بألم جراحه القديمة. وأخيراً، عندما انكبّ ريموند على خوض انتخابات أولية تنافسية، أعلن رئيس البلدية أن الدور الذي يلعبه حزبه يقتضي الحياد، وأنه يعتزم حمل حزبه على الامتناع عن منح تأييده لأحد. من الواضح أنه يستمتع بمشاهدة ريموند وهو يناضل بمفرده لتحقيق مبتغاه. وإذا تمّ له ذلك في النهاية، فإن أوغي سيكون أول من يقوم بتهنئته معبّراً له عن عِلمه منذ البداية بأنه سيحقق الفوز.

في الداخل، كانت مقاعد دار العبادة مشغولة بكاملها. وفي الأمام، طوّقت الأزهار النعش - زنبق وأضاليا بيضاء - فتخيّلتُ أريجاً زهرياً يعبق في الجوّ، بالرغم من وجود هذا الكمّ من الأشخاص. وشققتُ طريقي إلى الأمام، وأومأت برأسي لشخصيات متنوعة، وصافحتُ البعض. كان هناك حشد من أصحاب النفوذ: كل سياسيي المدينة والمقاطعة. كان معظم القضاة ومحامي الدفاع البارزين حاضرين، إضافةً إلى عدد من المجموعات ذات المَيل اليساري، وتلك المناصرة للحركة النسائية التي كانت تحظى بتأييد كارولين أحياناً. كان الحديث مضبوط الحدة على نحو ملائم، وتعابير الصدمة والخسارة صادقة.

وصادفتُ ديلاي غارديا (نيكو) الذي كان يحاول التخلص من الحشد.

«يا نيكو!». وصافحتُه. كان يضع زهرة في طيّة سترته، وهي عادة اكتسبها منذ أن أصبح مرشَّحاً. فسأل عن صحة زوجتي وابني، ولكنه لم ينتظر جوابي بل تظاهر برزانة تراجيدية فجائية، وبدأ يتحدث عن وفاة كارولين.

«كانت مجرد -» ولوّح بيده بشكل دائري للعثور على الكلمة المناسبة. أدركتُ أن المرشَّح لمنصب النائب العام النشيط يتوق إلى الشاعرية، فقاطعتُه.

«كانت باهرة». قلت، وذُهلت للحظات بفورة مشاعري الفجائية واندفاعها القوي والسريع من مكان ما مخفيّ في داخلي.

«باهرة. إنها الكلمة المناسبة. ممتاز». وأومأ نيكو برأسه، ومن

ثـمّ، غمـر وجهَـه ظلُّ مـزاجٍ متقلّب. فأنا أعرفه جيـداً بما يكفي لأدرك أنه يفكر بأمر ما يظنّ أنه لصـالحه. «أتخيّل متابعة ريموند الحثيثة لتلك القضية».

«متابعة ريموند هورغان حثيثة لكل قضية. أنت تعرف ذلك».

«آه! طالما ظننت أنك الشـخص الوحيد الذي لا يمارس السياسـة يا راستي. تختار عباراتك الآن من واضعي خُطب ريموند».

«إنها أفضل من عباراتك، يا ديلاي». لقد اكتسب نيكو هذه الكنية عندما كنا كلانا مساعدَين للنائب العام نعمل في محكمة الاستئناف. لم يكن باستطاعة نيكو إتمام ملخّص دعوى في ذلك الوقت قطّ. لقد دعاه جون وايت، وهو المساعد الأول السابق، ديلاي غارديا الذي لا يمكن تجنّبه.

«آه، لا»، قال. «لسـتم غاضـبين مني أيها الزملاء بسـبب ما قلته أليسـ كذلـك؟ لأننـي أثق بذلك. فأنا أثق بأن التطبيق الفعال للقانون يبدأ من القمة. وأثق بأن ريموند عاطفيّ ومتساهل. إنه مُتعَب. لم يعُد بإمكانه أن يكون حازماً».

التقيتُ نيكو قبل اثنَي عشـر عاماً في يومي الأول كمسـاعد للنائب العام، عندما تمّ اختيارنا لمهمة ما تقتضـي منا أن نتشـاطر مكتباً واحداً. وبعد أحد عشر عاماً، أصبحت المساعد الأول، في حين كان يترأس قسم الجنايات عندما فصلتُه من الخدمة. كان قد بدأ بمحاولة إبعاد ريموند عن منصـبه بشـكل علني، وأراد مقاضاة طبيب أسود يُجهض الحوامل بتهمة ارتكاب جريمة قتل. لم يكن منصـبه يخوّله اسـتنهاض القانون، ولكنه أثار مشاعر مجموعات متنوعة مهتمة سعياً للحصول على دعمها. ونشر نيكو روايات إخبارية عن خلافه في الرأي مع ريموند؛ لقد نظّم نقاشات مع هيئة المحلَّفين – تمكّن على الدوام من تأمين تغطية صـحافية وافرة لها – فاقت بأهميتها الخُطَب التي تُلقى في الحملات الانتخابية. فأوكل إليّ ريموند مهمة إعداد المشـهد الأخير. وذات صـباح، قصـدتُ كيه مارت واشتريت أرخص زوج متوافر من أحذية الركض، ووضعته على طاولة نيكو في الوسط مع رسالة قصيرة: «وداعاً. حظاً سعيداً. راستي».

لقد أدركتُ على الدوام أن الحملات الدعائية تناسبه؛ فهو حسن المظهر. وبات نيكو ديلاي غارديا في الأربعين من عمره تقريباً، متوسط القامة، ومهندَماً بتأنّق. وطوال معرفتي به، كان يقلق بشأن وزنه بسبب تناوله اللحم الأحمر وأشياء مماثلة. وبالرغم من شعره الأحمر، وبشرته السمراء المائلة للصُّفرة، وعينَيه الفاتحتَين، فهو يملك وجهاً لا يمكن ملاحظة عيوبه على الكاميرا أو في الجانب الآخر من قاعة المحكمة، ويُعتبر وسيماً بالإجمال. لقد احتفظ بفَرق شعره على الدوام، وبذلاته مصنوعة من قِبَل خياط حتى لو تحتّم عليه دفع نصف راتبه.

ولكن، بعيداً عن الطلعة البهيّة، كانت رزانة نيكو الجريئة وغير المقيَّدة تمثّل المظهر الأكثر لفتاً للانتباه على الدوام، وقد أظهرها هناك في أثناء عرض النقاط الرئيسة لبرنامجه السياسي، وفي أثناء المأتم مع المساعد الأول لخصمه. فبعد اثنَي عشر عاماً، ومنها عامان شاطرته فيهما المكتب، أدركت أن باستطاعة ديلاي على الدوام استجماع ذلك النوع من التَّوق المفرط إلى الوثوق بنفسه. وفي صباح ذلك اليوم الذي فصلته فيه من الخدمة قبل تسعة أشهر، مرّ أمام مكتبي بتمهّل في طريقه إلى الخارج، برّاقاً كعملة معدنية جديدة، وقال ببساطة: سأعود.

وها أنا أخذل نيكو مجدداً.

«فات الأوان يا ديلاي. لقد تعهّدتُ بالاقتراع لريموند هورغان».

كان بطيئاً في استيعاب الدُّعابة، ولم يكن من المتوقَّع أن يتخلى عن الأمر عندما يستوعبها. واستمررنا في إطالة الكلام عن مَواطن الضعف، وأقرّ نيكو بأن حملته تفتقر إلى المال، ولكنه ادّعى أن التأييد غير المعلَن الذي حصل عليه من كبير رجال الدين مدّه برأس مال معنوي.

«هذا هو مصدر قوّتنا في الواقع»، قال. «إنه المكان الذي سيمدّنا بالأصوات. لقد نسي الناس سبب رغبتهم الدائمة بالاقتراع لصالح ريموند رائد الحقوق المدنية. ليس سوى شخص مُبهَم ومشوَّش بالنسبة إليهم، مجرّد فُقاعة. أمّا أنا فلديّ رسالة هامة وواضحة». كانت ثقة نيكو بنفسه متّقدة كالعادة عندما يتحدث عن نفسه. «هل تعرف ما الذي يُقلقني؟».

سأل نيكو. «هل تعرف من الذي تصعب هزيمته؟». ودنا منّي خطوةً واحدة وقال بصوت منخفض. «أنت».

فضحكتُ بصوت مرتفع، ولكن نيكو واصل الكلام: «لقد شعرتُ بالارتياح. أقول لك الحقيقة. شعرتُ بارتياح عندما أعلن ريموند عن ترشّحه. لقد تخيّلتُ الأمر يحصل: يعقد هورغان مؤتمراً صحافياً كبيراً، ويقول إنه علّق ترشيحه ولكنه طلب من مساعده الأعلى مواصلة الإعداد للحملة الانتخابية. سوف تحب وسائل الإعلام راستي سابيتش. فأنت شخص غير سياسي، ومدّعٍ عام محترف، ومتوازن، وناضج. شخص يستطيع الجميع الاعتماد عليه. أنت الرجل الذي وضع حداً للنايت سينتس. تجري كل هذه الأمور، ويقوم ريموند بتأمين دعم بولكارو لك. سوف تكون شخصاً لا يُقهَر».

«أمر مثير للسخرية». قلت متظاهراً بثبات بأنّ هذه السيناريوهات لم تتبادر إلى ذهني في مئة مناسبة ومناسبة في العام السابق. «أنت شخص خطِر، يا ديلاي»، قلت له. «فرِّق تَسُد. لن تكفّ أبداً عن هذه الأمور».

«اسمع، يا صديقي»، قال، «أنا أحد معجَبيك الحقيقيين. أعني ما أقوله. لا مكان للضغائن هنا». ولمس قميصه فوق الصُدرة. «إنّ أحد الأمور القليلة التي لن تتبدل عندما أفوز بذلك المنصب هو أنني سأبقيك في مكتب المساعد الأول».

فقلت له بتهذيب إنّ ما يتفوّه به هُراء.

«لن تكون أبداً نائباً عاماً»، قلت، «وإذا كنتَ كذلك، فسوف يكون تومي مولتو رَجُلك. الجميع يعرفون أنك تحتفظ بتومي في سقيفة الحطب». فتومي مولتو هو صديق نيكو المفضّل، ونائبه السابق في قسم الجنايات. ولم يحضر مولتو إلى المكتب منذ ثلاثة أيام، ولم يتصل، ومكتبه فارغ. ويتمثل الاعتقاد السائد بأنه عندما تخفّ حدة الغضب قليلاً في الأسبوع التالي بسبب وفاة كارولين، فسيظهر نيكو في مناسبة إعلامية ويعلن عن انضمام تومي إلى حملته. فمن شأن ذلك أن يثير المزيد من

العناوين الرئيسة. **مساعد هورغان المحبط يدعم نيكو**. فديلاي يتدبّر هذه الأمور جيداً، ويصاب ريموند بسَورة غضب كلما سمع اسم تومي.

«مولتو؟». سألني نيكو، وبدت نظرته البريئة غير مُقنعة أبداً، ولكنني لم أحظَ بفرصة الرّد. فعند المقرأ، طلب المحترَم من المشيِّعين الجلوس على مقاعدهم. وسخرتُ من ديلاي غارديا - في الواقع، لقد أطلقتُ ابتسامة رِضى عن النفس - عندما افترقنا، وشرعتُ بشقّ طريقي في اتجاه الجهة الأمامية حيث يُفترَض بريموند وبي الجلوس بوصفنا ممثلَين عن مكتب المدعي العام. ولكن، في أثناء توجّهي إلى هناك، وقيامي بإيماءات تقدير متحفّظة للأشخاص الذين أعرفهم، كنت لا أزال أشعر بحرارة ثقة نيكو القوية بنفْسه. فالأمر أشبه بدخول مكان ظليل بعد التعرض لحرارة شمس حارقة؛ بحيث تخدر البشرة وتبقى حساسة للّمس. وشعرت بصدمة مفاجئة عندما استعدت رؤيتي الواضحة للنعش بلون البيوتر(*). وأعلن صوت منخفض في مكان ما من أعماقي الداخلية هذا التوقع، مُطلعاً إيّاي على ما لا أريد سماعه: مهما كان نيكو غير مستحِق، وغير مؤهَّل، ومفتقِراً إلى المشاعر الإنسانية، فقد يدفعه أمر ما في اتجاه النصر. هنا، في منطقة اللاحياة هذه، تمكنتُ من إدراك سعيه الشهواني الذي لا حدود له.

تماشياً مع جوّ هذه المناسبة العامة، وُضع صفان من الكراسي القابلة للطيّ بجوار نعش كارولين، وشغل معظمها وجهاءٌ يمكنكم أن تتوقعوا حضورهم. والشخصية الوحيدة غير المألوفة كانت فتى في أواخر العقد الثاني من العمر يجلس بجانب رئيس البلدية عند أسفل النعش مباشَرةً. ولهذا الفتى كتلة متشابكة من الشعر المائل إلى اللون الأشقر، ويضع ربطة عُنُق مشدودة جداً رفعتْ طرفَي ياقة قميصه المصنوع من الرايون نحو الأعلى. ربما كان نسيباً أو ابن شقيق أو ابن شقيقة، ولكنه بلا ريب فرد من العائلة؛ وهو أمر مثير للدهشة. لقد عاد أنسباء كارولين بأجمعهم إلى الشرق، كما فهمتُ، حيث كانت تعتزم إبقاءهم منذ مدة طويلة. وكان

(*) البيوتر: خليط معدني قوامه القصدير.

هناك إلى جانبه في الصــف الأمامي عدد من مرافقي رئيس البلدية أكبر من العدد المُفترَض، ولم يتبقَّ لي مكان. وفي أثناء مروري في الصف الثانــي وراء هورغــان، انحنــى ريموند إلى الوراء. لقد شــاهد كما يبدو حديثي مع ديلاي غارديا.

«ماذا كان لدى ديلاي ليقوله؟».

«لا شيء. كلام هُراء. يَنفد منه المال».

«من لا ينفد منه المال؟». سأل ريموند.

واستعلمتُ عن اجتماعه برئيس البلدية، فقلّب هورغان عينَيه.

«أراد إسدائي بعض النُّصح سرًّا، وبمفردنا، لأنه لا يريد أن يبدو كما لو أنه يتخذ جانب أحد الفرقاء. يعتقد أن فُرصي قد تتعزز كثيراً إذا اعتقلنا قاتل كارولين قبل يوم الانتخاب. هل يمكنك تصديق هذا الهراء؟ وقال ذلك أيضاً بوجه لم يَبدُ عليه أي تأثر كي لا يكون باستطاعتي التخلي عن مساعدته. إنه يُمضي وقتاً رائعاً». وأومأ ريموند برأسه، «انظر إليه هناك. المشيِّع الأكبر».

كالعادة، لم يســتطع ريموند كبح عواطفه حيال بولكارو. فنظرتُ حَولي، آملاً ألا يكون أحد قد ســمعنا عرَضــاً. وأومأتُ برأســي في اتجاه الشاب الجالس بجانب رئيس البلدية.

«من يكون الفتى؟».

لم أعتقد أنني فهمت إجابة هورغان، فانحنيتُ نحوه بضع بوصات إضافية. وقرّب ريموند وجهه من أُذُني.

«ابنها». قال ثانيةً.

فوقفتُ منتصباً.

«نشــأ مع والده في نيوجرســي»، قال ريموند، «ومن ثمّ جاء إلى هنا لأجل الكلّية. إنه في الجامعة».

لقد دفعتني المفاجأة إلى الوراء كما يبدو. فتمتمتُ شيئاً ما لريموند، وشــققتُ طريقــي فــي اتجــاه مقعدي القائــم في نهاية الصــف الأول بين مجموعتَي زهور كبيرتَين موضوعتَين على ركيزتَين. كنت واثقاً لبرهة

من الزمن من انقضـاء هذه الصـدمة المسـبِّبة للدّوار، ولكن نغمة جريئة شـقّت طريقها على نحو غير متوقَّع من الأُرغن الموجود بجانبي تماماً، ولفـظ المحتـرَم أولى كلمات خُطبته، فتعمّق اندهاشـي، وتموّج، واتخذ بطريقة ما شـكل أسـى حقيقي. لم أكن أعرف ذلك. لقد شـعرت بعجزٍ عن الفهم تقريباً. من غير المعقول أن تكون قد احتفظت لنفسـها بحقيقةٍ مماثلـة. لقـد أبلغني حَدسـي منذ مدة طويلـة بوجود زوج لها، ولكنها لم تُشـر إلى وجود ابن، ناهيكم عن وجوده في الجوار. وتعيّن عليّ كبت رغبة فوريّة تدفعني إلى المغادرة والخروج من ظلمة مسـرح الأحداث هذا إلى الضـوء القوي ذي الأثر المهدّئ. ونظراً إلى رغبتي بحضـور المأتم، حثثتُ نفسي بعد لحظات على التأقلم مع الوضع القائم.

ووصل ريموند إلى المِنبر من دون أن يتم تقديمه بطريقة رسمية. وكان قد ألقى قبله شخصـان آخران كلمتين موجزتين - المحترَم السـيد هيلر، وريتا وورث من اتحاد المحاميات - ولكن رزانة استثنائية مفاجئة سـادت الأجواء، وشـعرت بتيار قوي يحملني بعيداً عن مشـاعر الضّيم، وغـدا المئـات أكثـر هدوءاً. فلريموند هورغان عيوبه كسياسـي، ولكنه رجل جماهيري بارع، ومتحدّث لبِق ذو حضور مؤثّر. لقد أظهر ذلك الأصلع البدين الواقف هناك ببذلته الزرقاء الفاخرة، حزنه الشديد ونفوذه عبر أثير محطات الإذاعة والتلفزيون.

كانـت تعليقاتـه أشـبه بالطُّـرَف. لقد تذكـر كيفية قيامه باسـتخدام كارولـيـن بالرغـم من اعتراضـات المدّعين العامين الأكثـر عناداً الذين يعتبرون ضباط المراقَبة عمّالاً اجتماعيين. وتحدّث عن صرامتها وقوة احتمالها. واسـتعاد القضـايا التي حققت فيها انتصـاراً، والقضـاة الذين تحدّتهم، والقواعد القديمة التي استمتعت بمشاهدتها تُخترَق. لقد خرجت هذه الروايات من فم ريموند بظُرف وسـرعة خاطر مفعمَين بالمشـاعر العميقـة، وبكآبـة عذبـة بسـبب فقدان كارولين وشـجاعتها. كان منقطع النظيـر فـي هـذا المـكان والزمان من خلال طريقته فـي مخاطبة الناس حول ما يفكر فيه ويشعر به.

ولكن، بالنسبة إليّ، لم يكن بالإمكان الخروج بسهولة من فوضى اللحظات السابقة. لقد شعرتُ بألم متفجّر، وبالصدمة، وبقوة كلمات ريموند الخارقة، وبحزن عميق تعجز الكلمات عن وصفه والذي تجاوز حدود الاحتمال، وكنت بحاجة ماسّة إلى المحافظة على رباطة جأشي. فأجريتُ مساومة مع نفسي: لن أذهب إلى الدَّفن، فهناك عمل عليّ القيام به، ومكتب المدعي العام ممثَّل. ستكون السكرتيرات، والموظفات المكتبيات، والسيدات الأكبر سنًّا اللواتي كنّ ينتقدنَ سلوك كارولين، موجودات في المأتم وهنّ يذرفنَ الدموع في الصفوف الأمامية، وواقفاتٍ بشكل متراصّ إلى جانب المدفن يبكينَ ما يشعرنَ به من بؤس ووحدة في هذه الحياة. سأدعهنّ يشاهدنَ تواري كارولين داخل حفرة مفتوحة.

وأنهى ريموند كلامه. لقد أحدث أداؤه الكلامي المؤثّر، الذي يشهد على فعاليته العديد ممن يعتبرونه محاضَراً، هياجاً ملموساً في قاعة الاستماع في أثناء توجهه إلى مقعده بخطى واسعة. وتلا المحترَم تفاصيل الدَّفن، ولكنني لم أهتمّ بالأمر. لقد اتخذتُ قراري: سأعود إلى المكتب. وكما يرغب ريموند، سأستأنف البحث عن قاتل كارولين. لن يمانع أحد ذلك؛ أقلّه كارولين نفسها، كما أعتقد. لقد سبقَ لي أن عبّرتُ لها عن احترامي وتقديري، ولا بد من أنها تعتبر أنني قمتُ بالكثير لأجلها. وهي تعلم، وأنا أعلم، أنه سبق لي أن حزنت عليها.

2

كان جوّ كارثي غير مألوف يسـود المكتب، ولم تكن الأمور في نصـابها. فالردهـات فارغـة، ولكن أجهزة الهاتف تجلجل بتتابع سـئِم. وتقـوم سـكرتيرتان، وهمـا الوحيدتـان المتبقيتان في المركـز، بالعَدو بسـرعة في الممرات ذهاباً وإياباً لإبقاء المتصـلين على الخط، ووضـع اتصالاتهم في الانتظار.

يتّصف مكتب النائب العام في مقاطعة كيندل بطابع كئيب حتى في أفضل الأوقات. ويعمل معظم المساعدين اثنَين اثنَين في مكتب واحد في مسـاحة يسـودها تجهّم ديكنزيّ. لقد شُـيّد مبنى مقاطعة كيندل عام 1897 وفقاً للطراز المؤسساتي المعتمَد آنذاك للمصانع والمدارس الثانوية. إنه مجمَّـع سـكني متيـن مبنّي بآجرّ أحمر، ويكسـوه عـدد قليل من الأعمدة الدوريكيـة التـي توحـي للجميـع بأنهم في مكان حكومـي. في الداخل، توجد عارضـات فوق الأبواب، ونوافذ بمصـراعَين. والجدران مطليّة بلون أخضر طحلبيّ على غرار المستشفيات. وأسوأ ما في الأمر هو ذلك الضـوء الأصـفر المماثل للون محلول اللّك القديم. هذا هو المكان الذي نعمل فيه، وحيث يحاول مئتا فرد منهكون التعاطي مع كل جريمة مرتكَبة فـي مدينـة يقطنها مليون شـخص، وفي مناطـق المقاطعة المحيطة حيث يقيم مليونا شخص إضافي. في الصيف، نعمل في جوٍّ مماثل لجوّ الدَّغل الرطـب، وتُجلجـل وحـدات التهوئة القديمة المثبَّتة على النوافذ مُضـيفةً صخَباً على الصخَب المستمر لأجهزة الهاتف. وفي الشتاء، تُطلق أجهزة التدفئة رذاذ ماء وتصلصل، في حين يبدو المقدار الضئيل للظلمة كما لو أنه لن يغادر أبداً ضوء النهار. إنها العدالة في الغرب الأوسط.

فـي مكتبـي، كان ليبرانـزر ينتظرني كشـخص سـيّئ في فيلم عن الغرب الأميركي، جالساً ومختبئاً وراء الباب.

«هل مات الجميع ورحلوا؟»، سأل.

فعلّقتُ على عاطفته المُفرطة، ورميت معطفي على الكرسي. «بالمناسبة، أين كنتَ؟ لقد قدِم كل شرطي مضت على خدمته خمس سنوات».

«لا أحضر المآتم». قال ليبرانزر بطريقة جافة. لقد وجدتُ أن نفور تحرٍّ جنائي من المآتم يحمل دلالة ما، ولكنني لم أتمكن من معرفة الصلة بين الأمرين على الفور، فكففتُ عن التفكير بذلك. إنها الحياة في مكان العمل: إشارات عديدة يرسلها عالم المعاني المحتجب تفوتني يوماً، وتظهر بوضوح في يوم آخر وتُرخي بظلالها كمخلوقات تندفع بجانبي.

وانكببت على دراسة الملفات المتوافرة. كانت هناك مادتان أمامي: مذكرة من ماك دوغال، المساعدة الإدارية العليا، ومغلّف وضعه ليبرانزر هناك. لقد جاء في مذكرة ماك ببساطة: «أين تومي مولتو؟». فراودتني فكرة وجوب عدم قيامنا بتجاهل إمكانية حدوث مكيدة سياسية: ينبغي على أحدهم التحقق من المستشفيات ومن شقة تومي. لقد سبق أن توفيت مساعدة للنائب العام. وذلك هو سبب وجود مغلف ليبرانزر الذي يحمل لُصاقة طُبعت كلماتها على الآلة الكاتبة في مختبر الشرطة: **المُذنب: مجهول. الضحية: كيه. بوليموس.**

«هل كنت تعلم أن فقيدتنا تركت وراءها وريثاً؟». سألتُ في أثناء نظري إلى السكين التي تفتح الرسائل.

«لا، تبًّا»، قال ليب.

«إنه فتى. في الثامنة عشرة أو العشرين من عمره كما يبدو. كان في المأتم».

«لا، تبًّا»، قال ليب ثانيةً، وتأمّل سيجارته. «تحسب أن هناك أمراً واحداً على الأقل لا تواجهه لدى الذهاب إلى مأتم وهو المفاجآت».

«ينبغي على واحد منا أن يتحدث إليه. إنه في الجامعة».

«زوّدني بعنوانه وسأقابله. أنا مستعد للقيام بكل ما يطلبه منّي معاونو هورغان. لقد رمقني مورانو بتلك النظرة ثانيةً هذا الصباح».

فمورانو هو رئيس الشرطة وحليف بولكارو. «هو ينتظر رؤية ريموند يقع على مؤخرته».

«هو ونيكو. لقد التقيتُ ديلاي مصادَفةً». وأخبرت ليب عن لقائنا. «يملك نيكو ثقة كبيرة بنفسه، حتى إنه حملني على تصديقه للحظة من الزمن».

«سيكون أداؤه أفضل مما يعتقد الناس. حينئذٍ، ستكون كما لو أنك ركلت نفسك على مؤخرتك، معتبراً أنه كان يُفترض بك الترشح».

فقطّبتُ جبيني: من يدري؟ مع ليب، ليس عليّ أن أشعر بالقلق.

ففي احتفال لمّ الشمل الخامس عشر في الكلّية، تلقّيت استبياناً يتضمّن العديد من الأسئلة الشخصية التي وجدت صعوبة في الإجابة عنها: من هو الأميركي المعاصر الذي يُعجبك أكثر من سواه؟ ما المُقتنى المادي الذي تملكهُ وتعتبره الأكثر أهمية؟ سمِّ صديقك المفضَّل وصفه. في هذا السؤال، شعرت بالارتباك لبعض الوقت، ولكنني دوّنتُ أخيراً اسم ليبرانزر. لقد كتبت: صديقي المفضَّل شرطي. يبلغ طول قامته خمس أقدام وثماني بوصات، ووزنه 120 رطلاً بعد وجبة طعام مُشبِعة، ولديه تسريحة شعر مماثلة لمؤخرة بطة، وترى على وجهه نظرة الشر تلك المتربّصة على وجه كل فتى عديم الأهمية يتسكع عند زاوية الطريق. يدخّن علبتَي سجائر كامل في اليوم. لا أعرف ما هو القاسم المشترَك بيننا، ولكنه يُعجبني. إنه ممتاز في ما يقوم به.

التقيت ليب مصادَفةً قبل سبع أو ثماني سنوات عندما عُيّنتُ في بادئ الأمر في دائرة العنف، وكان قد بدأ بالعمل في قسم الجنايات. لقد نظرنا في عدد كبير من القضايا مذاك الحين، ولكنني ما زلت أعتبره لغزاً في بعض الحالات، لا بل خطَراً أيضاً. كان والده ضابط مراقبة في إحدى مقاطعات الغرب الأميركي، وعندما توفّي، غادر ليب الكلّية وحلّ مكانه وفقاً لنظام وراثي يقضي بتولي الابن البكر مهام أبيه. وعُيّن أخيراً في مكتب النائب العام، وتوكَل إليه المهام بشكل مباشَر. على الورق، يقضي عمله بأن يكون ضابط ارتباط بين أفراد الشرطة؛ وهو ينسّق التحقيقات

الجنائيــة التــي تحظــى باهتمام خاص من قِبل مكتبنــا. وعملياً، إنه وحيد كنَيزك، ويرفع تقاريره إلى النقيب شـميت الذي تشـغله فقط ضـرورة إلقاء القبض على سـتة عشـر قاتلاً في نهاية كل عام مالي. يقضــي ليب معظم وقته بمفرده، متسكعاً في المقاهي وفي أحواض السفن حيث تُحمَّل البضــائع، ومتناولاً جرعات من الشـراب مع كل من يزوّده بمعلومات جيدة: رجال عصــابات، مراسـلين، عملاء فدراليين، وكل من يستطيع إطلاعه بشكل مستمر على عالم الأشخاص السيِّئين الطامحين إلى الثراء. فليبرانــزر متبحّــر بعالم الجريمة. فــي النهاية، أدركت أن هذه المعلومة الأخيرة هي التي تؤثّر بطريقة ما في نظرته المتجهّمة.

كنت لا أزال أحمل المغلف في يدي.

«إذاً، ماذا لدينا هنا؟». سألت.

«تقريــر عــن التحقيــق. ثــلاث أوراق ومجموعــة مــن الصــور الفوتوغرافية لسيدة عارية متوفّاة». فالأوراق الثلاث هي نسخة المدّعي العام عن تقارير رجال الشـرطة؛ والورقة الثالثة هي نسـخة بالكربون. كنت قد تحدثتُ إلى رجال الشـرطة أولئك مباشَـرةً. وانتقلت إلى تقرير المختصّ بالأمراض التابع للشـرطة، الدكتـور كوماغاي، وهو ياباني قصــير القامة، غريب المظهر، يبدو كما لو أنه خرج للتوّ من مسـرحية دعائيــة تعــود للأربعينيات. يُعرَف هذا الشـخص المأجـور ببينلس؛ أي المعصــوم عن الألم. ولا يقوم أي مدّعٍ عام بدعوته إلى منصــة الشــهود من دون عقد أصابعه.

«وما هو السبَق الصحافي؟ سوائل ذكورية في كل ثُقب؟».

«في الثقب الرئيس فقط. لقد توفِّيت السيدة بسبب كسر في الجمجمة أدى إلى نزيف. قد تحملك الصــور على الظن بأنها تعرضــت للخنق، ولكن بينلس أشار إلى وجود هواء في رئتَيها. على كل حال، لا بد من أن الرجل قد ضربها بشيء ما. لا يملك بينلس أي فكرة عن هذا الشيء. إنه ثقيل ربما، وشديد الصلابة».

«سأحتفظ بالتقرير. هل بحثنا عن سلاح الجريمة في الشقة؟».

«قلبنا المكان رأساً على عقِب».

«هل هناك أي شيء مفقود لافت للانتباه؟ شمعدان؟ مِسنَد كتب؟».

«لا شيء. لقد أرسلتُ ثلاث فِرق منفصلة إلى هناك».

«إذاً، لقد حضر رجلنا وفي نيّته تسديد ضربة قاتلة».

«إنه أمر محتمَل. وربما أخذ معه ما استخدمه في تنفيذ العملية. لا يمكنني الجزم بأن هذا الرجل قد جاء وهو على أتمّ الاستعداد للقيام بفعلته. يبدو الأمر كما لو أنه قد لجأ إلى الضرب لإخضاعها، ولم يدرك بأنه قد قتلها. أتصور، وفقاً للصور وطريقة ربط الحبال، أنه وضع نفسه بين ساقَيها وحاول خنقها بوزنه. إنها عقدة منزلقة. أعني»، قال ليبرانزر، «أنه كان يحاول اغتصابها حتى الموت نوعاً ما».

«ممتع»، قلت.

«ممتع للغاية»، قال ليب. «إنه شخص ممتع جداً». والتزمنا الصمت للحظات قبل أن يستأنف كلامه. «لا توجد كدمات على الذراعَين، واليدَين. لا شيء من هذا القبيل»، قال ليب. هذا يعني أن عملية الخنق لم تتمّ قبل تقييد كارولين. «هناك رضّة في الخلف، في الجهة اليمنى. لا بد من أنه قد ضربها من الخلف، ومن ثم قام بتقييدها. ولكن، غريب أن يكون قد استهلّ الأمر بضربها بدم بارد. معظم هؤلاء المضطربين العصبيين يحبون أن يعرف ضحاياهم ما يقومون به».

فهززت كتفَيّ. لم أكن واثقاً من ذلك.

والصور هي أول ما قمت بإخراجه من المغلّف. كانت واضحة وبالألوان. كانت كارولين تقيم عند مَطلٍّ مائي، في الطابق العُلوي لمستودع سابق، حيث قسّمت المكان بستائر صينية فاصلة وبطانيات ثقيلة مُعيقة للحركة. كان ذَوقها يميل إلى الحداثة، مع لمسات تقليدية وقديمة أنيقة. لقد قُتلت في مكان قريب من المطبخ تستخدمه كغرفة للجلوس. وتُظهر الصورة الفوتوغرافية الأولى مشهداً إجمالياً لذلك المكان: لوحاً زجاجيًّا سميكاً ذا حافّات خضراء يوضع كغطاء لطاولة صغيرة موجوداً على الأرض، ومقعداً مؤلّفاً من وحدات مستقلة مقلوباً رأساً على عقِب.

ولكنني أوافق ليب الرأي بالإجمال بأن ما يشير إلى صراع لا يرقى إلى مستوى ما شهدتُه في حالات أخرى، ولا سيما إذا تجاهلتم بُقعة دم اتخذت شكل سحابة خفيفة وكبيرة على نسيج بطانية يونانية صوفية. ورفعتُ نظري إلى الأعلى. لم أكن أشعر بأنني على استعداد للتعاطي مع صور الجثة.

«ما الذي يقوله لنا بينلس أيضاً؟»، سألت.

«كان هذا الرجل يُطلق طلقات فارغة».

«طلقات فارغة؟».

«آه، أجل. سوف تحب هذا الأمر». وبذل ليبرانزر قُصارى جهده ليكرر التحليل الذي وضعه كوماغاي حول مادة المنيّ المترسّبة التي عُثر عليها. لقد تسرّب القليل منه بين شفريها، مما يعني أنه لم يكن باستطاعة كارولين قضاء الكثير من الوقت على قدمَيها بعد الاتصال الجنسي. إنها طريقة أخرى للتحقق من أن الاغتصاب وموتها لم يكونا متزامنَين تماماً. ففي 1 نيسان/أبريل، غادرتِ المكتب بعد الساعة السابعة بقليل. وقال كوماغي إن الوفاة قد حدثت نحو الساعة التاسعة.

«أي قبل اثنتَي عشرة ساعة من العثور على الجثة»، قال ليب.

«يقول بينلس إنه في هذه الفترة الزمنية، يُفترض بالمَنيّ أن يستمر بالسباحة، في العادة، عكس التيار في الأنابيب وفي الرَّحِم، عندما ينظر إليه تحت المِجهر. يتصوّر بينلس أن هذا الرجل عقيم. وهو يقول إنه يمكنك أن تصبح على هذه الحال بسبب التهاب الغُدّة النَّكَفية».

«إذاً، نحن نبحث عن مغتصِب لا أبناء له، وأصيب ذات مرة بالتهاب الغُدّة النَّكَفية؟».

فهزّ ليبرانزر كتفَيه.

«يقول بينلس إنه سيأخذ عيّنة من السائل المنَوي ويرسلها إلى عالِم الكيمياء الجنائي. فربما يتمكن من إعطائه فكرة أخرى عما حدث».

فهمهمتُ قليلاً بسبب فكرة قيام بينلس باستكشاف حقول الكيمياء المعقَّدة.

«ألا يمكننا الاستعانة بمختص بالأمراض؟»، سألت.

«لديك بينلس»، قال ليب ببساطة.

وهمهمتُ ثانيةً، مقلّباً صفحات قليلة أخرى من تقرير كوماغاي.

«هل لدينا شخص مُفرِز؟»، سألت. فالناس ليسوا موزَّعين وفقاً لفئات الدم فحسب، بل وفقاً لعناصر يفرزونها في سوائل أجسادهم أيضاً.

فتناول ليب التقرير منّي وقال: «أجل».

«فئة الدم؟».

مكتبة
t.me/t_pdf

«أيه».

«آه!»، قلت، «كفئة دمي».

«لقد توقعتُ ذلك»، قال ليب، «ولكنك رُزقت بابن».

فعلّقتُ ثانيةً على عاطفة ليبرانزر المفرطة، ولم يتكبد هذا الأخير عناء الإجابة بل أشعل سيجارة أخرى وهزّ رأسه.

«لم أمسك بعد بطرف الخيط»، قال. «يلفّ الغموض المسألة برمّتها. نُغفل أمراً ما».

لذلك، شرعنا ثانيةً بلعبة المحققين المفضَّلة في حلقة مُفرَغة، مُستَقْصيَيْن عمّن ارتكب الجريمة وعن الدافع لارتكابها. كان ليبرانزر منذ البداية يشتبه في أن من قتل كارولين قد فعل ذلك بسبب إدانتها له. إنه أسوأ ما قد يبلغه الخيال الجامح لكل مدّعٍ عام: التعرض للانتقام من قبل شخص ما أرسله إلى السجن. فبعد وقت قصير من تعييني في قسم المحاكمة المستنِدة إلى قرار تُصدره هيئة محلَّفين، اعترض شاب يُدعى بانشو ميركادو - كما جاء في الصحف - على مرافعتي الختامية التي تساءلتُ فيها عن مدى رجولة كل من يكسب عيشه من خلال استلاله مسدسه وشهره في وجه أشخاص في السابعة والسبعين من العمر. لقد قفز بانشو الذي يبلغ طول قامته ست أقدام وأربع بوصات، ويفوق وزنه 250 رطلاً، إلى خارج قفص الاتهام، وانطلق ورائي بصوت هادر في أنحاء قاعة المحكمة قبل أن تتم إعاقته في مطعم الوجبات السريعة من قِبل ماك دوغال، وكرسي مدولَب، وجميع الحاضرين. وانتهت الرواية في

الصــفحة 3 من التربيون بعنوان رئيس غريب: **مدّع عام مذعور تنقذه مُقعدة**. وتحب زوجتي باربارا الإشارة إلى هذه الحادثة على أنها قضيّتي الأولى الشهيرة.

لقد تسلّمت كارولين قضايا أشخاص أكثر غرابة من بانشو، وترأست طوال سـنوات عدة ما يُدعى شـعبة الاغتصــاب في مكتب المدعي العام. فالاسم يُعطي فكرة واضحة عن نوعية القضايا، عِلماً أنّ هذه الشعبة تنظر بأنواع الاعتداءات الجنسية كافّة، بما فيها إساءة معاملة الأطفال. وإحدى القضــايا التي تسـلّمتها هناك تتناول ثلاثة أشخاص يديرون شؤون منزل واحد اتخذت علاقتهم منحى عنيفاً، وانتهى الأمر بالشاهد الرئيس للولاية مطعوناً بمصباح كهربائي في أمعائه الغليظة. وتقول نظرية ليرانزر إن أحد المغتصِبين الذين قامت كارولين بمقاضاتهم ثأر منها.

وفقاً لذلك، اتفقنا في الرأي على الاطّلاع على لائحة الدعاوى التي تسلّمتها كارولين للتحقق مما إذا كان هناك شخص قد قامت بمقاضاته – أو التحقيق معه – بسبب جريمة مماثلة لتلك التي حدثت قبل ثلاث ليالٍ. ووعدتُ بالبحث في السـجلات الموجودة في مكتب كارولين، في حين يقوم ليب بالتحقق مما إذا كان بإمكاننا العثور على اسم كارولين، أو على أعمال مثيرة بواسطة الحبال، في ملف كمبيوتري عن المعتدين الجنسيين والذي تحتفظ به وكالات التحقيق العاملة لصالح الولاية.

«عن أي نوع من الخيوط نبحث؟».

وبدأ ليرانزر بشرح الأمر لي. لقد جرت مقابلات مع كل الجيران في اليوم التالي للجريمة، ولكن تلك الاسـتجوابات كانت متسـرّعة على الأرجــح، وقــرر ليب تدبّر أمر قيام المحققين الجنائيين بإجراء مقابلات أخــرى مــع كل المقيمين في المجمّع السـكني، وفي المســاء هذه المرة، لتشمل الجيران الذين كانوا في منازلهم عندما ارتُكبت الجريمة.

«قالت سـيّدة إنها رأت على الدرَج شخصــاً يرتدي معطفاً». ونظر ليب إلى مفكّرته. «السيدة كرابوتنيك. قالت إنه ربما يبدو مألوفاً، ولكنها لا تعتقد أنه يقيم هناك».

«الباحثون عن الشعر والألياف هم أول من شرعوا بجمع الأدلّة، أليس كذلك؟»، سـألتُ. «متى يُبلغوننا بما توصـلوا إليه؟». فعلى عاتق هؤلاء الأشـخاص تقع مهمة فحص الجثة، والتقاط العيّنات من مسـرح الجريمـة بمِلقـط صـغير، بهـدف إجـراء اختبارات مِجهريـة لأي مواد يكتشفونها. فغالباً ما يكون باستطاعتهم تحديد فئة الشعر ومطابقة ملابس الجاني.

«إنهم بحاجة إلى أسـبوع أو عشـرة أيام»، قال ليب. «سيحاولون التوصـل إلـى شـيء ما مرتبـط بالحبل. والأمر الآخـر المثير للاهتمام الـذي أطلعونـي عليـه هو عثورهم على مقدار كبيـر من الزغَب التقطوه عن الأرض. هناك قليل من الشعر في المكان، ولكن ذلك لا يشير إلى حدوث أي نوع من الاشتباكات».

«ماذا عن بصمات الأصابع؟»، سألت.

«لقد رفعوا كل البصمات الموجودة في المكان».

«هل رفعوا البصـمات عن هذه الطاولة الزجاجية هنا؟». وأريتُ ليب الصورة.

«أجل».

«هل حصلوا على بصمات؟».

«أجل».

«هل هناك أي تقرير؟».

«تمهيدي».

«لمن تعود البصمات؟».

«لكارولين بوليموس».

«ممتاز».

«ليس الأمر بهذا السوء»، قال ليب. وأخذ الصورة من يدي وأشار بإصـبعه. «هل ترى هذا المشـرب هنا. هل ترى الكأس؟». كانت هناك كأس طويلة موضوعة بشكل طبيعي. «هناك بصمات أصابع عليها. ثلاث أصابع. والبصمات لا تعود للمتوفّاة».

«هل نملك أي فكرة عن صاحب هذه البصمات؟».

«لا، تتطلب عملية تحديد الهوية ثلاثة أسابيع. هناك الكثير من الأمور التي لم يُنجزوها بعد». تحتفظ شعبة تحديد الهوية في قسم الشرطة بسجلٍ رقمي مفصَّل عن كل شخص أُخذت بصمات أصابعه، ويتم تبويب السجلات وفقاً لما يُدعى نقاط المقارَنة، أي الحافات المرتفعة والمنخفضة للبصمة التي تُحتفظ في الملف على صورة معلومات رقمية. لم يكن بالإمكان في ما مضى مطابَقة بصمة مجهولة ما لم تكن بصمات الأصابع العشر للشخص المعنيّ متوافرة، فتتمكن حينذاك شعبة تحديد الهوية من البحث في اللائحة الموجودة. أما في عصر الكمبيوتر اليوم، فقد بات بالإمكان إتمام عملية البحث من خلال الجهاز، إذ تقوم آلية تعتمد تقنية الليزر بقراءة البصمة ومقارنتها مع البصمات الأخرى المخزَّنة في ذاكرة الكمبيوتر. ولا تتطلب العملية سوى دقائق قليلة، ولكن القسم لا يملك بعد كل التجهيزات لأسباب تتعلق بالميزانية، ويجب عليه اقتراض ما ينقصه من شرطة الولاية في حالات خاصة. «طلبتُ منهم الإسراع، ولكنهم يتذرّعون بكل ذلك الهراء عن زيلوغس وعملية تحميل المعلومات. في الواقع، إن قيام النائب العام بإجراء اتصال هاتفي بهم قد يساعدنا. اطلبْ منهم مقارنة البصمات مع بصمات كل شخص في المقاطعة، من دون استثناء».

ودوّنتُ ملاحظة على مفكّرتي.

«نحن بحاجة إلى بيانات وحدة تسجيل الرسائل أيضاً». قال ليبرانزر، وأشار إلى مجموعة من الأوراق. فشركة الهاتف تحتفظ بسجلات كمبيوترية للاتصالات الهاتفية المحلية كافة التي تُجرى عبر معظم مراكز الهاتف، وهو أمر غير معروف على نطاق واسع: بيانات وحدة تسجيل الرسائل. وشرعتُ بكتابة مذكّرة لهيئة المحلّفين الكبرى التي تحدد ما إذا كانت هناك أدلة كافية للمحاكمة، وذلك بهدف الحصول على المستندات. «واطلب منهم تفاصيل عن كل من اتصلتْ بهم في الأشهر الستة الماضية»، قال ليب.

«سوف يصيحون. أنت تتكلم ربما عن مئتَي رقم تقريباً».

«كل من اتصلتُ به ثلاث مرات. سأعود مع لائحة بهم. ولكن، اطلب هذه المعلومات في الوقت الحاضر كي لا تُضطر للتقدم بمذكرة أخرى».

فأومأت برأسي. كنت أفكر.

«إذا كنت ستغادر لمدة ستة أشهر»، قلت له، «فقد تطلب على الأرجح هذا الرقم». وأومأتُ برأسي في اتجاه الهاتف الموجود على طاولتي.

فنظر إليّ ليبرانزر بهدوء وقال: «أعرف ذلك».

إذاً هو يعرف، قلت في سرّي. وفكرتُ بالأمر للحظات، محاولاً أن أفهمه. فالناس يفترضون كما أعتقد، ويكشفون أسراراً شخصية. ولكن، بإمكان ليب ملاحظة أمور يغفل عنها الآخرون. وانتابني الشك حيال قيامه بالاتصال بي. إنه وحيد، ولكنه ليس جوّالاً. هناك امرأة بولندية تكبره بعشر سنوات، أرملة مع ابن بالغ، تطهو له وجبة طعام وتبقى معه مرتَين أو ثلاث مرات في الأسبوع. هو يدعوها موما حين يتحدث إليها عبر الهاتف.

«في الواقع، بالعودة إلى موضوعنا، كانت كارولين تُقفل أبوابها ونوافذها على الدوام»، قلت بهدوء أثار دهشتي. «أعني، على الدوام. كانت كارولين متساهلة قليلاً، ولكنها ناضجة. كانت تعلم أنها تعيش في المدينة».

وازدادت نظرة ليبرانزر تركيزاً بالتدريج، والتمعت في عينَيه ومضة معدنية. لم يتُه عن معنى ما قلتُه.

«إذاً، ما هو رأيك؟»، سأل أخيراً. «هل جال شخص ما في المكان هناك فاتحاً النوافذ؟».

«ربما».

«إذاً، جعل ذلك الشخص الأمر يبدو كما لو أنه اقتحام؟ شخص ما سمحتْ له بالدخول؟».

«ألا يبدو ذلك منطقياً؟ أنت من أبلغني بوجود كأس على المشرب. كانت تحتفل. ما كنت لأراهن على أن الرجل السيئ سجين مجنون حصل على إطلاق سراح مؤقت».

فحدّق ليب بسيجارته. ونظرت عبر المدخل، ووجدتُ أن سكرتيرتي أوجينيا قد عادت. وسُمعت أصوات في الرّواق في أثناء عودة الناس من المدفن، ولاحظتُ وجود الكثير من الضحك المتلهّف لانتهاء مراسم الدفن.

«ليس بالضرورة»، قال أخيراً. «لا يحدث هذا الأمر مع كارولين بوليموس. كانت سيدة مرِحة». ونظر إليّ مجدداً بإمعان.

«أتعني أنك تعتقد أنها ربما فتحت الباب لمتسكّع ما أرسلته إلى السجن؟».

«أعتقد أنه ليس هناك أمر مؤكد مع كارولين. لنفترض أنها التقت مصادَفةً أحد هؤلاء الأشخاص غريبي الأطوار في المشرب، أو أن شخصاً ما اتصل بها وقال: لنتناول شراباً فوّاراً. هل تعتقد أنه من المستحيل بالنسبة إليها أن توافق؟ نحن نتحدث عن كارولين الآن».

كان باستطاعتي فهم ما الذي يرمي إليه ليب: مساعدة للنائب العام تُقاضي المنحرفين ولا تعيش في الوهم المحظَّر. لقد حصل ليب على رقم هاتفها أيضاً. ما كانت كارولين بوليموس لِتُمانع قطّ فكرة قيام شخص ما بإطالة التفكير بها لسنوات. ولكن شعوراً بالتعاسة مُرفَقاً بدُوار البحر بدأ يعتريني بطريقة ما في أثناء هذه المحادثة.

«لم تكن تحبها كثيراً، أليس كذلك يا ليب؟».

«ليس كثيراً». ونظرنا إلى بعضنا. بعد ذلك، مدّ ليبرانزر يده وربّت برِفق على ركبتي وقال: «على الأقل، نعرف أمراً واحداً؛ لديها ذَوق رديء بالرجال».

وكانت تلك جملته الأخيرة. فدسّ علبة السجائر كامل داخل سترته القصيرة وغادر. وناديتُ أوجينيا، وطلبت منها عدم مقاطعة عزلتي لأي سبب كان. لقد رغبت في الاختلاء بنفسي لفترة وجيزة بهدف تفحّص

الصور الفوتوغرافية. وبعدِ دقيقة من التمعّن بها، أصبح انتباهي مركَّزاً على نفسي. إلى أي مدى سأُفلح في هذا الأمر؟ فحثثت نفسي على المحافظة على رباطة جأشي المهنية.

ولكن ذلك بدأ بالتراجع بالتأكيد؛ فالأمر أشـبه بشـبكة من التشـققات السـطحية الصـغيرة في الزجاج التي تزداد عمقاً إثر تعرضه لصدمة ما. ففي الصور الأولى، استقرّ اللوح الزجاجي الخاص بالطاولة على كتف الضـحية بشـكل مائل وضـغط عليها، ويمكنكم مقارنته تقريباً بشـريحة زجاجية مِخبرية. ولكنه رُفِع في صورة أخرى، وها هو جسد كارولين الرشيق على نحو مثير في وِضعة تبدو للوهلة الأولى مِطواعة ورياضية بالرغم مما عاناه هذا الجسد من ألم. وساقاها ظريفتان، ونهداها مرتفعان وعارمـان. كانت تحتفظ بسـلوكها الشـهواني حتى فـي مماتها. ولكنني أدركت شـيئاً فشـيئاً أن ما تعرضـت له كارولين يعكس هذه الوضعة لأن المشاهد القائمة أمامي مروِّعة. فهناك كدمات على وجهها وعُنُقها، وبُقَع توتيّة اللون. ويمتد حبل من كاحلَيها إلى ركبتَيها، امتداداً إلى خصـرها ومعصـمَيها؛ ومـن ثـم يلتـف بإحكام حول عُنقها. لقـد رُدّت إلى الوراء بانحنـاءة توحـي بأنها أخضـعت للتعذيب، ويبـدو وجهها مرعِباً. فعيناها ضخمتان وناتئتان، وتكشفان عن نظرة مَن تعرّض للخنق، وفمها مثبَّت على صرخة صامتة. فراقبتُ وتفحّصتُ بعناية. بدت نظرتها مسعورة، وغير مصـدِّقة، ويائسـة؛ إنها النظرة نفسـها التي أخافتني عندما وجدتُ الشـجاعة لتثبيت نظري على العين السـوداء الواسـعة لسمكة تلفظ أنفاسها على رصيف داخل البحر. لقد فهمتُ الأمر الآن بطريقة مهيبة، تغمرها الرَّهبة، وغير مفهومة. والأسوأ أنني شعرت بالإثارة، ولم يعُد باستطاعة موعظـة أوجهها لنفسـي عن دنـاءة طبيعتي أن تُثبط عزيمتي. فكارولين بوليموس، قلعة الجاذبية والشـجاعة تلك، مُلقاة هناك في مدى بصـري مع نظرة لم أعهدها فيها قطّ. لقد فهمتُ الأمر أخيراً. لقد أرادت شفقتي، وتحتاج إلى مساعدتي.

3

عندما انتهى كل شيء، ذهبتُ لرؤية طبيب نفسي يدعى روبنسون.

«أودّ القول إنها المرأة الأكثر إثارة التي عرفتها يوماً»، قلت له.

«أهي مثيرة جنسياً؟»، سأل بعد لحظات.

«مثيرة، أجل. مثيرة جداً. سُيول من الشعر الأشقر، وليست هناك مؤخرة تقريباً، والصدر ممتلئ، والأظفار حمراء طويلة أيضاً. أعني أنها مثيرة بشكل واضح، ومتعمَّد، ومثير للسخرية تقريباً. أنت تلاحظ ذلك. هـذه هـي الفكـرة التي نكوّنها عن كارولين. يُفترض بك أن تلاحظ. لقد لاحظتُ ذلك. عملت كارولين في دائرتنا طوال سنوات. كانت ضابطة مراقَبـة قبـل أن ترتـاد كلّية الحقوق. ولكن هذا كل ما كانت تعنيه لي في الأصـل: شـقراء شـديدة الجمال مع صدر عارم. كل شرطي يدخل يقلّب عينَيه ويصاب بالرَّعشة. هذا كل شيء.

على مرّ الزمن، بدأ الناس يتحدثون عنها، حتى عندما كانت لا تزال في المحاكم الفرعية. فيقولون إنها قوية، ومقتدرة. ومن ثم واعدتْ ذاك المذيع على القناة 3 لمدة قصـيرة من الزمن، أيًّا كان اسـمه، وظهرت في أماكن كثيرة. كانت شديدة الفعالية والنشاط في اتحادات المحامين، وهي شرطية في الفرع المحلي للمنظمة الوطنية للنساء، وفطِنة. طالبت بتعيينها في شعبة الاغتصاب عندما كانت هذه الشعبة تعتبر مكاناً حقيراً. قامت بكل تلك المهام المسـتحيلة بمفردها من دون أن يكون باسـتطاعتك أن تكتشـف إذا كانت الضـحية أم المتّهَم. إنها قضـايا صعبة وشاقّة يتعيّن خوض غمارها لا لشـيء إلا لتعثر على الذين يسـتحقون الادعاء عليهم أمام المحاكم، ناهيك عن اسـتمالتهم. لقد أبلت بلاءً حسـناً هناك. وفي النهايـة، أوكل إليهـا ريمونـد مسـؤولية متابعة كل تلك المحاكمات. كان يحـب إرسـالها إلـى البرامـج التلفزيونية، تلك التي تتطـرق إلى الخدمة

العامة وتُبَثّ أيام الأحد صباحاً. إنه يُبدي اهتمامه بالمسائل النسائية، وكانت كارولين تحب الذهاب إلى هناك، وحمل الراية، والاستمتاع بالشهرة، ولكنها مدّعية عامة جيدة وصَلبة العود. لقد اعتاد محامو الدفاع التذمر قائلين إنها مُصابة بعقدة نفسية، وتحاول أن تُثبت أنها الفائزة على الدوام. ولكن رجال الشرطة يحبونها.

لست واثقاً من الفكرة التي كوّنتُها عنها آنذاك. أفترض أنني اعتبرت أنها تقدم الكثير الكثير من القليل الذي تتمتع به».

فنظر روبنسون إليّ.

«الكثير الكثير من كل شيء»، قلت. «في الحقيقة، كانت شديدة الجرأة، وشديدة الإعجاب بنفسها، وتحاول الوصول إلى القمة بسرعة كبيرة. لم تكن تملك الحس الصحيح بالتمييز».

«ووقعتَ في غرامها»، قال روبنسون مستنتجاً.

فلزمتُ الصمت، وتسمّرتُ في مكاني. متى تكون الكلمات كافية للتعبير عن المشاعر؟

«لقد وقعتُ في غرامها»، قلت.

شعر ريموند بأنها تحتاج إلى شريك، وهكذا طلبت مني أن أكون شريكها. حدث ذلك في أيلول/سبتمبر من العام السابق.

«هل كان بإمكانك الرفض؟»، سأل روبنسون.

«أفترض ذلك. من غير المتوقع أن يقوم المساعد الأول بتحويل العديد من القضايا إلى المحكمة. كان بإمكاني الرفض».

«ولكن؟».

«ولكنني وافقت».

لأن القضية مثيرة للاهتمام، قلت في سرّي. فالقضية غريبة. كان داريل ماك غافن مصرفياً يعمل لدى شقيقه جُوِي رجل العصابات، والشخصية المنمَّقة، واللاعب الماهر الذي يستمتع بكونه الهدف لكل وكالة في المدينة تطبّق القانون. كان جُوِي يستخدم المصرف، في ماكراري، لغسل سيل كبير من الأموال القذرة، ومعظمها أموال عصابات إجرامية.

وأبقى داريل رأسه منخفضاً والحسابات نزيهة، وبقي هادئاً بقدر ما كان جُـوِي متّقـداً. كان شخصـاً عادياً يقيـم في الغرب قرب ماكراري، لديه زوجة، ويعيش حياة مأساوية بطريقة ما. لقد توفيت ابنته الصغيرة البِكر في سـنّ الثالثة. عرفتُ كل شـيء عن ذلك الأمر لأن جُوِي شـهد ذات مرة أمام هيئة المحلّفين الكبرى أن ابنة شقيقه قد سقطت من شرفة الطابق الثانـي لمنزل شـقيقه. وشـرح جُوِي حينذاك، وبطريقـة مُقنِعة تقريباً، أن الكسـر الذي لحق بجمجمة الفتاة ووفاتها الفورية أربكاه وحالا دون إصـداره الحكم الصـائب عندما قام ثلاثة أشـخاص يلفّهم الغموض بتسليم بعض السندات المالية لمصرفه، وتبيّن في ما بعد أنها مهرَّبة، وقد زاد ذلك من مرارته. وكان جُوِي يفرك يدَيه كلّما تحدّث عن الفتاة، ويلمس عينَيه بمنديل الجَيب الحريري.

رُزق داريل وزوجته بطفل آخر دعياه ويندل. وعندما أصبح في الخامسة من العمر، انتقلت والدته معه إلى غرفة الطوارئ في مستشفى وسـت إند بافيليون. كان الفتى فاقداً الوعي، ووالدته مصـابة بالهستيريا بسبب تعرّض ابنها لسقطة مروِّعة، وتعرّضه لإصابات بليغة في الرأس. وادّعت الوالدة أنه لم يسبق له أن دخل المستشفى من قَبل، ولكن طبيبة غرفة الطوارئ - الطبيبة ناراجي، وهي هندية شابة - تذكرت إشرافها على معالجة ويندل قبل عام. وعندما طلبت السجل الطبي للفتى، وجدت أنه زار المستشفى مرتَين، وكان في المرة الأولى مُصاباً بكسر في عظمة التَّرقُوة، أمّا في المرة الثانية فكان مصاباً بكسر بالذراع. وفي الحالتَين، تذرّعت الوالدة بسقوط الفتى. في المرة الثالثة، كان الفتى فاقداً الوعي ومـن غيـر المحتمَـل على الأرجح أن يتكلم، وتفحّصـت الطبيبة ناراجي إصـاباته. وعندما شـهدتِ الطبيبة في وقت لاحق، قالت إنها توصـلت إلى اسـتنتاج أوّلي بأن الجراح متماثلة وجانبية إلى حد كبير، ولا يمكن أن تكـون ناجمـة عن سـقطة. وتفحّصـت تكراراً، ولمـدة أكثر من يوم واحد، الجراح البليغة التي يبلغ طولها بوصتَين وعرضها بوصة واحدة على جانبَي الرأس، وذلك قبل أن تتبيّن حقيقة الأمر، ومن ثم اتصـلت

بكارولين بوليموس في مكتب النائب العام للإبلاغ عن قيامها بمعالجة طفل تعرّضت جمجمته للكسر عندما قامت والدته بوضع رأسه في مِلزمة كما يبدو.

حصلت كارولين على مذكرة تفتيش على الفور، ووضعوا يدهم على المِلزمة الموجودة في الطابق السفلي لمنزل ماك غافن، وكانت لا تزال عليها جزيئيات من جلد الطفل. وأجروا فحصاً دقيقاً للفتى فاقد الوعي ووجدوا جراحاً ملتئمة على شَرَجه بدت كما لو أنها نتيجة حروق بالسيجارة. وانتظروا بعد ذلك لمعرفة ما سيحلّ بالفتى.

لقد عاش. وحظي برعاية المحكمة، وضُرب طَوق حول مكتب النائب العام. وقدم داريل ماك غافن للدفاع عن زوجته. كانت والدة مُحبّة ومتفانية. ومن الجنون، كما قال، الادعاء بأنها ألحقت الأذى بطفلها. قال ماك غافن إنه شاهد الفتى يسقط، وكان ذلك حادثاً رهيباً ومأساوياً شوّهته خبرة الأطباء والمحامين المُرفَقة بتجارب مُرعبة، وهم يتآمرون على نحو جنوني لإبعاد طفلهما المريض عنهما. كان دفاعاً عاطفياً مُعَداً بشكل جيد. لقد حرص جُوي على أن تكون الكاميرات هناك عندما وصل شقيقه إلى دار القضاء، وزَعم أن ما حدث لابنه نتيجة لعداء مستحكِم يكنّه ريموند هورغان لعائلته. وحِرصاً منه على عدم الظهور بمظهر المتردد، قرر ريموند تولّي القضية بنفسه في بادئ الأمر، ولكن الحملة كانت على أشُدّها فأعاد القضية إلى كارولين وأوصى – نظراً لاهتمام الصحافة بها – بأن تتولاها مع مساعد متمرّس آخر، كشخص مثلي، يؤكد حضوره التزام المكتب. وهكذا طلبت مني ذلك، ووافقتُ، قائلاً لنفسي إنني أقبل بالمهمة إكراماً لريموند.

يدعو علماء الفيزياء الحركة غير المنتظمة للجزيئات في الهواء حركة براونيّة. وينجم عن هذا النشاط طنين من نوع ما، صوت ذو طبقة عالية، حادّ تقريباً، ويبلغ حدود القدرة البشرية على سماع ذبذباته. في طفولتي، كان باستطاعتي سماع هذا الطنين في أي وقت عملياً؛ إذا اخترتُ سماعه. وكنت أتجاهله في معظم الأحيان، ولكن إرادتي كانت

تضعف من حين لآخر وأدَع الصوت يرتفع داخل أُذُنَيّ ليبلغ حدّ الزعيق.

وتقسو العظام في الأُذُن الداخلية في سنّ البلوغ، ولا يعود بالإمكان بعد ذلك سماع الطنين البراوني، وهو أمر جيد، بسبب ظهور مصادر إلهاء أخرى. بالنسبة إليّ، وخلال معظم حياتي الزوجية، كان إغراء النساء الأخريات كالطنين اليومي الذي تجاهلتُه عَمداً. وعندما بدأت بمساعدة كارولين ضعف ذلك العزم، وارتفعت طبقة الصوت، وتذبذبت، وطنّت.

«لا يمكنني أن أشرح لك السبب في الواقع»، قلت لروبنسون.

لقد اعتبرت نفسي رجل قِيَم ومبادئ، وطالما احتقرت والدي بسبب قيامه بمغازلة النساء. كان يخرج من المنزل في ليالي الجمعة كهرّ هائم على وجهه، ويتوجه إلى مشرب، ومن ثم إلى فندق ديلاني أوتيل في جادة وسترن أفونيو، وهو فندق رخيص بسجاداته الصوفية القديمة والبالية التي تغطي الدرَج، ورائحة زيت النفط المنبعث من مركَّب كيميائي يُستخدم للحد من تفشّي الحشرات المؤذية. وهناك، يقيم علاقات مع نساء متنوعات سيّئات السمعة: مطلَّقات راغبات، زوجات متسللات. وقبل أن يغادر للقيام بهذه النزهات، كان يتناول العشاء مع والدتي ومعي. كنا نعرف كلانا الأمكنة التي يقصدها.

ولكنني همتُ بكارولين بطريقة ما في أثناء مساعدتي لها، وبحُليّها المصلصلة وعطرها الخفيف، وبكنزاتها الحريرية، وأحمر شفاهها، وأظفارها المدرَّمة، وذلك الصدر العارم والمتنهّد وساقَيها الطويلتَين، وذلك الشعر البرّاق الذي يلفت الأنظار، وبتفاصيلها كافة لدرجة أنني كنت أشعر بالإثارة عندما أشمّ رائحة عطرها المنبعث من امرأة أخرى تمرّ بجانبي في الرَّدهة.

«لا يمكنني أن أشرح لك السبب في الواقع. ربما أنا هنا لهذا السبب. لقد سمعت ذبذبة ما، وبدأ كل شيء بالتحطم. لقد استجبتُ لإيحاءات، ولنغمة أساسية، وبدأ كل شيء داخلي بالارتعاش. كنا نتحدث عن المحاكمة، وعن حياتَينا، وعن أمور أخرى، وبدت مزيجاً غير عادي

من الأمور. إنها شخصــية ســيمفونية، منظَّمة وفاتنة. وكانت تمتلك تلك الضــحكة الموســيقية والابتســامة المذهلة. كانت ســريعة البديهة أكثر مما توقعتُ، وصارمة - كما يُقال عنها - ولكنها لم تبدُ قاسية».

لقد تأثَّرتُ بصفة خاصة بملاحظاتها العفوية، وبالطريقة التي تعبّر فيها عيناها الغارقتان في يمّ من الظلال والخطوط عما يجول في فكرها. وفي أثناء تحليل المواقف السياسية أو أقوال الشهود أو رجال الشرطة، تُظهر لك مدى تتبّعها للأمور. لقد شعرتُ بإثارة كبيرة بسبب لقائي امرأة تبــدو أنهــا تملــك الحقائق، وتنطلق في العالم بهذه الســرعة، ولديها عدة أمور مختلفة عن العديد من الأشــخاص. ربما كانت نقيض باربارا التي لا تملك أيًّا من هذه الصفات.

«إنهــا المــرأة الجريئــة، والذكيــة، والبارعة التي اشــتهرت بتألّق مثير للاهتمام. ووجدت نفسي أتوجّه إلى مكتبها؛ وهو مكان كئيب على غرار مكاتبنا. ولكن كارولين تكبّدت عناء إضافة سجادة شرقية صغيرة إليــه، ونبتــات، وخزانــة كتــب قديمة الطــراز، وطاولة تتّبع التصــميم الإمبراطوري حصلت عليها من خلال صِلتها بقسم الخدمات المركزية. وجــدت نفســي أتوجّــه إلى مكتبها مــن دون أن يكون لديّ ما أقوله لها. لقد انتابني ذلك الشعور الدافئ والمتلهّف - وكل ما يتبادر إلى ذهنك من استعارات قديمة - وبدأت أفكر، يا الله! لا يمكن لهذا الأمر أن يحدث. ولكننــي كنــت قــد بــدأتُ ألاحظ، وبدأتُ أفكر بأنهــا تهتم لأمري. كانت تنظر إليّ. آه، أعلم، يبدو الأمر كما لو أنني في المدرســة الثانوية، لا بل أسوأ من ذلك، في مدرسة الأحداث العالية. ولكن الناس لا ينظرون إلى بعضهم بعضاً».

وعندما كنا نُجري مقابلات مع الشهود، كنت ألتفتُ وأرى كارولين تحدّق بي، مراقبةً إيّاي بتلك الابتســامة الهادئة والمتأســفة تقريباً. وفي أثناء اجتماعنا مع ريموندِ حيث يكون كل ذوي المراتب العليا في شــعبة الجنايــات موجوديــن، ألقــي نظرة ســريعة إليها، وأشــعر بوطأة عينَيها علــيّ. كانت تســتمر بمراقبتي بطريقــة ثابتة تحملني على القيام بأمر ما،

فأغمزها أو أبتسم لها بطريقة تنمّ عن شكر وتقدير، وتجيب في العادة بتلك الابتسامة العريضة فأكفّ عن الكلام لأنني أنسى ما يتعيّن عليّ قوله.

«إنه الجزء الأسوأ؛ هذا التحكم الذي لا يصدَّق بمشاعري. أدخل للاستحمام، أقود سيارتي... وتبقى كارولين في مخيّلتي. أحلامُ يقظة، محادثات معها، فيلم سينمائي لا يتوقف. أراها مسترسلة بلَهوٍ مسترخ معي. لم يكن باستطاعتي إنهاء اتصال هاتفي، أو قراءة مذكرة ادّعاء أو ملخّص دعوى».

وكل هذا الاستحواذ الكبير والمتواصل كان يجعل قلبي يخفق بسرعة كبيرة، ويصيبني بالغثيان، ويشعرني بالاضطراب وبالمقاوَمة وعدم التصديق. فأرتعد أحياناً، وأقول لنفسي إن هذا الأمر لم يحدث. إنها نزوة صبيانية عابرة؛ خدعة ذهنية ناجمة عن وضع مماثل مررتُ به في السابق، وأبحث في أعماقي عن الحقيقة القديمة. وأقول لنفسي إنني سأستيقظ في الصباح سليماً مُعافًى.

ولكن ذلك لا يحدث بالطبع. فقد كنت أشعر بروعة الأوقات معها، وبسكينة ودُوارٍ. وأضحك كثيراً وبسهولة تامة، وأبذل قصارى جهدي للبقاء قربها، وأُريها ورقة من فوق كتفها عندما تكون جالسة إلى طاولتها، وذلك كي أتمكن من البقاء لأطول فترة ممكنة قربها، ولألاحظ تفاصيلها الشخصيّة: أقراطها الذهبية المطرَّقة، ورائحتي ماء الاستحمام ونفَسها، ولون الجزء الخلفي من عُنُقها المائل للزُّرقة الخفيفة عندما تحرك شعرها. ومن ثم، وعندما أكون بمفردي، أشعر باليأس والخجل. يا لهذا الاستحواذ العاصف والمجنون! أين عالمي؟ أنا أغادره. لقد غادرتُه.

4

في الظلام، كانت صورة الرجل العنكبوت ترتسم على الجدار فوق سرير ابني، بالحجم الطبيعي، وفي وضعة جثوم المصارع المستعد للتغلب على كل الغُزاة.

لم أنشأ على قراءة مجلات القصص المصوَّرة، فقد كان ذلك نشاطاً غير جدّي في المنزل الذي نشأت فيه. ولكن، عندما بلغ نات الثانية أو الثالثة من العمر، بدأنا نستكشف الصحف المسلّية معاً كل يوم أحد. وعندما تكون باربارا نائمة، كنت أقوم بإعداد الفطور لنات. ومن ثم، أجلس على الأريكة في الغرفة التي تدخلها أشعة الشمس، ويجلس ابني ملتصقاً بي، ونناقش التقدم الأسبوعي الذي تشهده القصة الهزلية المسلسَلة، أو نتذكرها. حينئذٍ، يزول كل الغضب العشوائي للفتيان الصغار في هذه السنّ، ويعود إلى طبيعته الأساسية؛ صغيراً وزاخراً بنشوةٍ كان باستطاعتي الشعور بها تعتري جسده. وفي الصف الثاني، كان نات يملك اكتفاءً ذاتياً هشاً، ويقرأ القصص المسلّية بمفرده، ويتعيّن عليّ انتظار الوقت المناسب لأتمكن من التحقق من مصير بيتر باركر من دون أن يلاحظ نات ذلك. إنها مسلّية حقاً، كنت قد شرحتُ لباربارا قبل أسابيع قليلة عندما رأتني حاملاً مجلات القصص الهزلية. آه، إنها تُلهيك عن التذمر، تمتمت زوجتي التي كانت على وشك الحصول على شهادة دكتوراه.

لمستُ شعر نات الجميل والضئيل في فروة رأسه. فإذا أبديت اهتماماً زائداً، يقوم نات، الذي اعتاد على مَرّ السنوات وصولي إلى المنزل في وقت متأخر، بتمتمة بعض تعابير التقدير اللطيفة. كان لديّ تَوق للطمأنة من خلال الاحتكاك الجسدي. فقبل ولادة نات مباشَرةً، انتقلنا إلى نيرنغ، وهي ميناء سابق للمراكب فرّ إليها سكان المدينة منذ

مدة طويلة تقريباً، ودُعيت بلدة بدلاً من ضاحية. وبالرغم من أن باربارا هــي التــي أيّــدت في بادئ الأمر هذا الانتقال، إلاّ أنها بدأت تُعرب لاحقاً عن نبذها لنيرنغ بحماســة، ملقيةً باللائمة عليها أحياناً بســبب حالة العزلة التي تعيشــها. أنا من يحتاج إلى الوجود على مســافة من المدينة، على مســافة زمنية ومكانية، لأزرع في نفســي شــعوراً بأن حدوداً ما تحمينا ممــا أشــاهده كل يــوم. أفترضــ أن الدور الذي يلعبــه الرجل العنكبوت هناك سبب آخر لشعوري بالسعادة.

وجدتُ باربارا ذات مساء في سريرنا ووجهها نحو الأسفل. وكانت مجرَّدة تقريباً من ملابســها. كانت تحبس أنفاســها، وعضــلات ظهرها المشــدودة تلمع بســبب التعرّق. كان جهاز تســجيل الفيديو يئزّ في أثناء إعادة لفّه إلى البداية. وعلى شاشة التلفاز، كانت الأخبار قد بدأت للتوّ.

«أتمارسين رياضة بدنية؟»، سألتُ.

«أقوم بأمور لا يســعني القيام بها معك»، أجابت باربارا. «ملاذ سيّدة المنزل الوحيدة».

ولــم تتكبــد عناء إلقاء نظرة ســريعة إلى الــوراء. وبدلاً من ذلك، دنوتُ منها وقبّلتها على عُنُقها.

«اتصــلتُ مــن محطــة الحافلات عندما فاتتني حافلة الســاعة الثامنة وخمس وثلاثين دقيقة. لم تكوني هنا، فتركتُ لك رســالة على شــريط التسجيل».

«لقد سمعتها»، قالت. «كنت أُقِلّ نات. لقد تناول العشاء مع موم. وحاولتُ تمضية المزيد من الوقت بالعمل على جهاز الكمبيوتر».

«هل كان الأمر مثمراً؟».

«إضاعة للوقت». واستلقت على ظهرها بطريقة شهوانية.

فــي أثنــاء خلعي ملابســي، تلقيت تقريراً مقتضَــباً مــن باربارا عن أحــداث اليوم: إصــابة إحــدى الجارات بالمرض، فاتــورة الميكانيكي، وآخــر أخبــار والدتها. وقدّمت باربارا كل هذه المعلومات بنبرة ســأم، ووجهها على غطاء الفراش. إنه هجومها الحزين، مرارةٌ كبيرة لا يكفي

تعبيرٌ عن الأسف لإزالتها، وكنت أدافع عن نفسي بأبسط الطرائق من خلال التظاهر بعدم الملاحظة. لقد أبديتُ اهتماماً بكل ملاحظة، وحماسةً لكل تفصيل. وفي غضون ذلك، شعرتُ ببلادة ذهن اختبرتُها في السابق، وبدا الأمر كما لو أن عروقي قد سُدّت بالرصاص. أنا في المنزل.

فقبل خمس سنوات تقريباً، وعندما ظننت أننا نستعد لإنجاب طفل آخر، أبلغتني باربارا بأنها ستعود إلى الجامعة، وستدخل برنامجاً للحصول على شهادة دكتوراه في الرياضيات. لقد ملأتِ الطلب وأجرتِ الامتحانات من دون أن تُطلعني على الأمر، معتبرةً أن تفاجئني بقرارها بمثابة رفض من قِبَلي، في حين أنها طالما استخفّت باعتراضاتي. ولكنني لم أعترض. لم أعتبر قطّ أن باربارا مُلزَمة بأن تكون سيّدة منزل فحسب. لم يكن رد فعلي ناتجاً عن عدم قيامها باستشارتي، بل لأنني ما كنت لأحزر بمفردي ما الذي تعتزم القيام به. في الكلّية، كانت باربارا متفوّقة في الرياضيات، وتحضر صفوفاً للمتخرّجين تحتوي على طالبَين أو ثلاثة طلاب يُشرف على تعليمهم أساتذة ذائعو الصيت يشبهون النساك بلحاهم الطويلة الشعثاء. ولكنها كانت معتدّة بنفسها بسبب قدراتها. لقد عرفتُ في ذلك اليوم، في غرفة نومنا، أن الرياضيات تأسر اهتمامها، وهو أمر لم أعرف عنه شيئاً طوال ما يزيد عن نصف عقد من الزمن.

وشرعت باربارا بأطروحتها، وقالت لي إن المشاريع المماثلة لمشروعها تُستهلّ بعشرات الصفحات. فسواء أكانت كلماتها تعبّر عن تفاؤل أو وهم، فقد دامت أطروحتها كداء مُزمن، وأصبحت مصدراً آخر لكآبتها المؤلمة. وكلما مررت بجانب المكتب، أجدها منحنية فوق طاولتها بشكل يُرثى له، وهي تنظر إلى خارج النافذة في اتجاه شجرة كرز بحجم قزم واحد لم تتمكن من النموّ في فنائنا الخلفي.

كانت تقرأ في انتظار الإلهام. فليس هناك أكثر من الصحف والمجلات في هذا العالم. ولكنها آثرت أن تنقل ما يمكنها نقله بين ذراعَيها؛ حِمل عربات من الكتب الثقيلة التي تحتوي على مواضيع

غامضـة: عِلم اللغة النفسـية، عِلم التواصـل اللغوي، لغة برايل، ولغة الإشارة للصُم. إنها متحمّسة للوقائع. كانت تستلقي في الليل على أريكتها المصـنوعة من قماش مقصَّـب في غرفة الجلوس، وتتناول الشـوكولا البلجيكي، وتكتشف أموراً عن العالَم الذي لم تزره قطّ. كانت تقرأ عن الحياة على كوكب المريخ، وعن سِيَر الرجال والنساء التي يجدها معظم الناس مُملّة، ومُبهَمة بالتأكيد. ويكون هناك بعد ذلك فَيض من القراءات الطبية. لقد أمضـت وقتها في الشـهر السـابق في قراءة كتب بدت كما لو أنها تتناول دراسـة الحرارة المنخفضـة، والتلقيح الاصطناعي، وتاريخ العدسـات. فأنـا أعـرف ما الذي يحدث في هذه الزيـارات المَجرّية إلى كواكب أخرى من المعرفة البشـرية. ولا شـك في أنها كانت لِتشـاطرني معرفتهـا الحديثـة لـو طلبـتُ منها ذلـك. ولكنني فقدتُ علـى مَرّ الزمن القـدرة علـى التظاهر باهتمامي البالغ، واعتبـرتُ باربارا فتوري حيال هذه المسـائل تقصـيراً. فمن الأسـهل الاحتفاظ بنصـائحي الخاصّة عندما تطوف باربارا في العوالم النائية.

ومنذ مدة غير بعيدة، بدا لي أنه بالإمكان وصف زوجتي بالغامضة وشـديدة الغرابـة بسـبب عاداتها الاجتماعية المفاجئـة وغير المترابطة، ونفورها العام من معظم البشـر، وجانبها السَّـكوت الغامض، وترسانتها الافتراضية التي تحتوي على انفعالات خاصة لا تبوح بها. لم تكن لديها أي صداقات جدّية عملياً إلى جانب علاقتها بوالدتها التي لم تكن باربارا تتحدث إليها كثيراً عندما التقيتها، ولا تزال تنظر إليها بتهكم وريبة. فعلى غـرار والدتـي عندمـا كانت حية، تبدو باربارا إلى حد كبير أسـيرة عن طِيب خاطر ضمن جدران منزلها، وتهتم بشؤون المنزل بشكل كامل، وتعتني بطفلنا، وتكدّ إلى ما لا نهاية بمعادلاتها الرياضية وبخوارزميات الكمبيوتر.

وفـي الواقـع بدون أن ألاحـظ ذلك في البداية، أدركت أننا توقفنا كلانا عن إبداء الملاحظات، أو حتى عن استخدام لغة الإيماء. وجلسنا في ذلك اليوم أمام التلفاز وكانت الشاشة مليئة بصور عن مأتم كارولين.

وشـاهدنا وصـول سـيارة ريموند، وظهرت الناحية الخلفية من رأسـي للحظات. وتمّ اصـطحاب الابن إلى أبواب دار العبادة. كان يُسـمَع في التحقيق التلفزيوني صوت مذيع الأخبار: ثمانمئة شخص، بمن فيهم قادة المدينة، تجمّعوا في دار العبادة المشيخيّة الأولى لإقامة الشعائر الدينية الأخيرة من أجل كارولين بوليموس، وهي مسـاعدة للنائب العام قُتلت واغتُصـبت قبل ثلاث ليالٍ بشـكل وحشـي. وشـوهد الناس يخرجون. وظهر رئيس البلدية وريموند أمام عدسات الكاميرات وهما يتحدثان إلى المراسلين، ولكن نيكو هو الوحيد الذي بُثّ تصريحه. لقد اعتمد الصوتَ الأكثـر هـدوءاً، وتجنّب أسـئلة عن التحقيقـات الجارية حول الجريمة. «جئـتُ لأتذكـر زميلة لي»، قال أمام عدسـة الكاميرا، واضـعاً إحدى قدمَيه داخل سيارته.

وبادرت باربارا إلى التحدث إليّ.

«كيف كانت؟». كانت تلفّ نفسها برداء حريري أحمر.

«احتفاليّة»، أجبت. «بطريقة ما. اجتماع لكل القادة والشخصيات».

«هل بكيتَ؟».

«هيا، يا باربارا».

«أنا جدّية». وانحنت إلى الأمام. كان فكّاها مُطبقَين بإحكام، وفي عينيها غضـب خامد. طالما أدهشـتني قدرة باربارا على التعبير الفوري عن غضبها. فعلى مَرّ السنين، أصبحت نوبات انفعالها المتعاظمة مصدراً للتهويل. كانت تعرف أنني أكثر بطئاً في إظهار رد فعلٍ ما بسبب مخاوف قديمـة؛ إنهـا الناحية المُظلمـة من الذاكرة. فغالباً ما كان والداي يدخلان في مواجهات قوية من الصياح، لا بل في مشاجرات من حين إلى آخر. وأتذكر استيقاظي في إحدى الليالي على صخبهما، ورؤيتي والدتي وهي تمسك بشعر والدي في أثناء قيامها بضربه بصحيفة ملفوفة كما لو أنه كلب. وكانت هذه النزاعات ترسل والدتي إلى السرير لأيام حيث تستلقي منهَكة بسبب آلام في الرأس نتيجةً لإصابتها بالصُداع النصفي، وهو ما يستدعي بقاءها في غرفة مُظلمة والتزامي الهدوء التام.

وبافتقاري إلى الملاذ الهادئ، توجهتُ إلى سلة الملابس النظيفة، وبدأتُ بمطابقة الجوارب. لقد لزمنا الصمت لفترة قصيرة، وسادت ثرثرة التلفاز والضجيج الصادر من المنزل ليلاً. كان يجري جزء من النهر وراء المنازل على بُعد نصف مجمّع سكني، وبالإمكان سماع خرير المياه عندما لا تكون هناك حركة مرور. كان الفرن يُصدر صوت رَكل في أحد الطوابق التحتية. وللمرة الأولى في ذلك اليوم، مرّت عبر الأنابيب رائحة زيت كريهة صادرة منه.

«كان نيكو يبذل قُصارى جهده ليبدو حزيناً»، قالت لي باربارا أخيراً.

«لم يحقق نجاحاً كبيراً. ستدركين هذا إذا رأيتِه وجهاً لوجه. كان متّقداً بشكل قاطع. يعتقد أن لديه فرصة الآن للتقدم على ريموند».

«هل هذا ممكن؟».

ففرزتُ الجوارب وهززت كتفيّ. «لقد تعزز موقعه الانتخابي بسبب هذا الحادث».

من الواضح أن هذا الأمر قد فاجأ باربارا التي لم تشهد هزيمة ريموند طوال هذه السنوات، وبدأت عالِمة الرياضيات بتحليل الاحتمالات الجديدة. فأمسكتْ بشعرها المجعَّد ذي البُقع الرمادية، وشعّ وجهها الجميل فضولاً.

«ماذا ستفعل، يا راستي، إذا حدث هذا الأمر؟ إذا خسر ريموند؟».

«سأتقبّل الوضع. ما الذي يمكنني القيام به؟».

«أعني من أجل كسب الرزق».

لقد اعتدتُ قبل سنوات التحدث عن مغادرة المكتب. حدث ذلك عندما كان لا يزال باستطاعتي تخيُّل نفسي كمحامي دفاع، ولكنني لم أقم بهذه الخطوة قطّ. فمنذ مدة من الزمن، لم أتحدث وزوجتي عن مستقبلي.

«لا أعرف ما الذي يتعيّن عليّ القيام به»، قلت لها بصدق. «أنا محام. سأزاول القانون، التدريس. لا أعلم. يقول ديلاي إنه سيُبقيني في وظيفتي كمساعد أعلى».

«هل تصدّق ذلك؟».

«لا». وأخذتُ جواربي إلى دُرجي. «كان كل كلامه هراءً اليوم. قال لي بنبرة جدّية جداً إنني الخصم الرئيس الحقيقي الذي يخشى منه. في الحقيقة، لن أطلب من ريموند التنحي وتعييني خلَفاً له».

«يُفترض بك القيام بذلك»، قالت باربارا.

فالتفتُّ إليها.

«حقاً!». لم تكن حماستها مفاجئة إلى حد ما. فقد كانت تُبدي باستمرار احتقاراً لزوجة الرئيس. إضافةً إلى ذلك، جاء كل ذلك على حسابي، أنا الذي لا يملك الشجاعة للقيام بما يعتبره الآخرون بديهياً.

«لستُ سياسياً».

«آه، سوف تكون كذلك»، قالت باربارا. «سوف ترغب في أن تكون نائباً عاماً». كما تصوّرتُ: لقد شعرتُ بقرصة معرفة زوجتي المزهوّة بنفسها بطبيعتي. فقررتُ تجنّب الأمر وقلت لباربارا إن الأمر نظريّ بَحت. سوف يجتاز ريموند المرحلة بسلام.

«سوف يدعمه بولكارو في نهاية المطاف، وإلا يتوجب علينا القبض على القاتل» - وأومأتُ في اتجاه التلفاز - «عندها سيخوض الانتخابات مع كل همهمات وسائل الإعلام باسمه».

«كيف سيقوم بذلك؟»، سألت باربارا. «هل لديهم مشتبَه فيه؟».

«لا شيء لدينا».

«إذاً؟».

«إذاً، سيعمل دان ليرانزر وراستي سابيتش ليلاً ونهاراً في الأسبوعَين القادمَين لإلقاء القبض على القاتل وتعزيز موقع ريموند الانتخابي. هذه هي الاستراتيجية. إنها موضوعة بحِرص».

وصدرت طقطقة عن جهاز التحكم عن بُعد، وتوقف التلفاز عن العمل على صورة نجمة متقلّصة. لقد سمعتُ باربارا وهي تنخر بأنفها ورائي؛ ليس صوتاً سارًّا. وعندما نظرتُ إلى الوراء، كانت عيناها

المثبّتتان عليّ لا تزالان تعبّران عن كره جليدي.

«يمكن توقع موقفك إلى حد كبير»، قالت بصوت منخفض وببرودة. «هل أنت مسؤول عن هذا التحقيق؟».

«بالطبع».

«بالطبع؟».

«باربارا، أنا المساعد الأول، وريموند يخوض انتخابات العمر. مَن غيري سيتولى التحقيق؟ كان ريموند ليتولاّه بنفسه لو لم يكن يدير حملته الانتخابية طوال أربع عشرة ساعة في اليوم».

إنه الموقف نفسه الذي كنت قد واجهتُه منذ يومَين، ووضعني في حالة من عدم الارتياح؛ عندما أدركتُ أنه سيتوجّب عليّ الاتصال بباربارا لإخبارها بما حدث. لم يكن باستطاعتي تجاهل الأمر، ويتطلب ذلك جرأة كبيرة. كان الهدف المُعلَن لاتصالي إبلاغ باراباراا بتأخري في العودة إلى المنزل. لقد شرحت لها أن المكتب في هياج.

لقد توفّيت كارولين بوليموس، أضفتُ عبر الهاتف.

هَه، قالت باربارا. وكانت نبرة صوتها توحي بدهشة متجرّدة. جَرعة مُفرطة؟ سألتْ.

فحدّقتُ بسماعة الهاتف في يدي، مندهشاً من مدى عمق إساءة الفهم تلك.

ولكنني لم أتمكن من تحويل انتباهها عن الموضوع عندما كنا نتحدث في غرفة النوم عن قيام ريموند بإكمال مهمة التحقيق في قضية مقتل كارولين. كان غضب باربارا يتعاظم.

«أخبرني الحقيقة»، قالت. «أليس الأمر تضارباً في المصالح أو ما شابه؟».

«باربارا –».

«لا»، قالت، ووقفتْ. «أجبني. هل تقوم بهذا الأمر من منطلَق مِهَني؟ يوجد 120 محامياً هناك. ألا يمكنهم العثور على شخص لم يَقم بعلاقة معها؟».

كان الارتفـاع والانخفاضـ التكتيكيّان في طبقة الصـوت مألوفين لديّ. لقد بذلتُ قصارى جهدي للمحافظة على هدوئي.

«باربارا، طلب مني ريموند القيام بالتحقيق».

«آه، وفّـر علـيّ يا راسـتي الحديث عن الهدف السـامي، والهراء النبيل. باستطاعتك أن تشرح لريموند لماذا لا يُفترض بك القيام بذلك».

«لسـتُ مهتماً بشـرح أي شـيء له، فهذا الأمر سيخذله. كما أنه لا شأن له بذلك».

ولدى شـعوري بالإحراج، أطلقت باربارا صـيحة ازدراء. لقد أدركـتُ أن إطلاعهـا على الحقيقة في ذلك الوقت غير المناسـب يُعتبر استراتيجية حمقاء. فباربارا لا تتعاطف مع أي من أسراري، وإذا لم يتسبب لها هذا السر بأي ألم شخصي فهي ستنسى أمره. ففي الواقع، في أثناء مقابلتي كارولين طيلة تلك المدة القصيرة، لم أكن أملك الشجاعة أو اللياقة أو الاستعداد لتكبّد عناء الاعتراف بأي شيء لباربارا. وبعد أسـبوع أو أسـبوعين من اعتزامي إطلاعها على الأمر، أصـبح الأمر مـن الماضـي، وعدتُ إلى المنزل لتناول العشـاء باكـراً، تكفيراً عن تأخري في الشـهر السـابق عندما كنت أتغيّب عن المنزل كل مسـاء تقريبـاً، متذرّعـاً عبر الهاتف بالاسـتعداد لإحـدى المحاكمات التي تم استئنافها كما كنت أدّعي باستمرار. كان نات قد جلس للتوّ أمام التلفاز للاسـتفادة من الوقت المسـموح به، والمحدَّد بنصـف ساعة، لحضور برامـج تلفزيونيـة، وانفصـلتُ بطريقـة ما عن الجـوّ المنزلي: القمر، المزاج، كأس الشـراب. يقول علماء النفس إنها حالة من الأحاسـيس المتداخلة. وانجرفتُ في تأملاتي، محدّقاً بطاولة الطعام. فحملتُ كأس الشـراب الطويلة المماثلة لكأس كارولين، وأخذتْ مني الذكريات كل مأخـذ حتـى فقـدتُ السـيطرة على نفسـي. فبكيتُ – نوبـات من البكاء مـع انفعـالات عاصـفة – وعرفـتْ باربارا على الفـور. لم تظن أنني مريضـ، ولـم تظن أنـه التعَب، أو إجهاد المحاكمـة، أو داء مجرى الدمع. لقد عرفتْ؛ عرفتْ أنني أبكي بسبب فقدان عزيز وليس بسبب

فقدان الشعور بالحَياء.

كان استعلامها عن الأمر جارحاً للمشاعر، ولكنه لم يدُم طويلاً. من؟ قلت لها. هل كنت ستغادر؟ لقد انتهى الأمر، قلت، كانت علاقة عابرة كما لو أنها لم تحدث.

آه، كان موقفي بطولياً. فجلستُ هناك إلى طاولة الطعام الخاصة بي، وذراعاي فوق وجهي، أبكي، وأنتحب إلى حد ما، فوق كمَّي قميصي. لقد سمعتُ الصحون تصلصل عندما وقفت باربارا، وبدأتْ برفع أدوات المائدة من أمامها. على الأقل، ليس عليّ أن أسأل، قالت، من تخلّى عن الآخر.

في وقت لاحق، وبعد أن وضعتُ نات في السرير، توجّهتُ إلى غرفة النوم حيث لجأتْ باربارا، محطَّماً وفي حالة يُرثى لها. كانت تقوم ببعض التمارين الرياضية مجدداً، رافعةً صوت شريط تسجيل يبثّ موسيقى تافهة. راقبتُها وهي تنحني، وتقوم بعمليات تمديد مزدوجة لمفاصل ذراعيها وساقَيها، في حين أنني كنت لا أزال في حالة من الاضطراب العميق، ومدمَّراً، ومسحوقاً، لدرجة أن بشرتي بدت كما لو أنها الشيء الوحيد الذي يجعلني متماسكاً؛ إذ بدت كغلاف عطوف. لقد دخلتُ الغرفة لأقول أمراً عادياً وأُعرب عن رغبتي في استمرار زواجنا، ولكن ذلك الطلب لم يخرج من فمي مطلقاً. لقد بدا رفضها واضحاً من خلال قيامها بالحركات الرياضية بعنف وغضب، وشعرتُ بأن جهدي سيذهب سُدًى بسبب موقفي الذي لا يمكن الدفاع عنه. وراقبتُ فحسب لمدة خمس دقائق ربما. فلم ترمقني باربارا بأي نظرة، ولكنها أبدت رأيها أخيراً وسط عمليّة لَيّ ما. كان باستطاعتك التصرف بطريقة أفضل. ولفظت كلمة أخرى لم أسمعها. كانت العبارة الأخيرة يا بيمبو.

وأكملنا حياتنا الزوجية. لقد أدت علاقتي الغرامية بكارولين إلى نوع غريب من الارتياح. فهناك سبب لواقع ما، فرصةٌ لتُظهر باربارا غضبها التام، ومبرِّرٌ لعدم تقدّم علاقتنا. هناك أمر يجب التغلّب عليه،

وبالنتيجة، أمل مُبهَم في إمكانية تحسّن الأمور.

فهل نتخلى عن تحقيق أي تقدّم ممكن؟ كانت كارولين طوال أشهر روحاً شرّيرة يجري طردها ببطء من هذا المنزل. وأعاد لها الموتُ الحياةَ. وفهمتُ سبب تذمّر باربارا، ولكن لم يكن باستطاعتي - لم يكن باستطاعتي - التخلي عما تريد مني التخلي عنه؛ وأسبابي شخصية بما يكفي، وتكمن في عالم ما لا يمكن البَوح به، لا بل في عالم تعجز الكلمات عن وصفه أيضاً.

فحاولتُ مناشدتها بطريقة صادقة وهادئة.

«باربارا، ما الفارق الذي يشكّله تخلّيّ عن التحقيق؟ أنت تتحدثين عن أسبوعين ونصف، حتى الانتخابات الأولية. هذا كل شيء. بعدها، تصبح قضية عادية تتولاها الشرطة. جريمة قتل غير محلولة».

«ألا تدرك ما الذي تقوم به؟ لنفسك؟ لي؟».

«باربارا»، قلت ثانيةً.

«عرفتُ ذلك»، قالت. «عرفتُ أنك قد تقوم بأمر مماثل، عندما اتصلتَ في ذلك اليوم. كان بإمكاني سماع ذلك في صوتك. ستمر بما مررتَ به من قبل، يا راستي. أنت تريد ذلك، هذه هي الحقيقة، أليس كذلك؟ أنت تريد ذلك. لقد ماتت، وما زالت تستحوذ على عقلك».

«باربارا».

«راستي، لقد تحملتُ ما يفوق قدرتي على التحمل. لن أصبر على هذا الأمر». لا تصرخ باربارا في هذه المناسبات، بل تتراجع عوضاً عن ذلك إلى حفرة ناريّة من الغضب البركاني. وتدفع بنفسها إلى الوراء لاستعادة عزيمتها، وتجلس على السرير، وتلتقط كتاباً وجهاز التحكم عن بُعد، ووسادتَين. ويدمدم جبل سانت هيلين. فقررتُ المغادرة، وقصدتُ خزانة الملابس، وتلمّستُ الطريق وصولاً إلى ردائي.

عندما وصلتُ إلى العتَبة قالت:

«هل يمكنني طرح سؤال؟».

«بالتأكيد».

«ذاك الذي أردتُ طرحه على الدوام؟».

«بالتأكيد».

«لماذا توقَّفْتَ عن مقابلتك؟».

«كارولين؟».

«لا، الرجل على القمر». كانت الكلمات تحمل قدراً كبيراً من المرارة لدرجة أنني تساءلت عما إذا كانت تنوي البَصق عليّ. لقد ظننتُ أن سؤال باربارا سيكون حول سبب بدئي بمقابلتها، ولكنها قررت كما يبدو الإجابة عن هذا السؤال منذ مدة طويلة.

«لا أعرف»، قلت. «أميل إلى التفكير بأنني لم أكن ذا أهمية كبيرة بالنسبة إليها».

فأغمضت عينَيها وفتحتهما ثانيةً، وهزت رأسها.

«أنت غبي»، قالت لي زوجتي بكآبة. «اخرج فحسب».

فخرجتُ بسرعة. يُعرَف عن باربارا رميها الأغراض. وبسبب عدم وجود مكان آخر ألجأ إليه، ورغبتي في الحصول على نوع من أنواع الرفقة، عبرتُ الرَّدهة مرة أخرى للتحقق من أمر نات. كان نفَسه قويًّا ومنتظماً، وكان في أعمق مراحل النوم. فجلستُ على سريره؛ آمناً في الظلام تحت ذراعَي الرجل العنكبوت.

5

صباح يوم الاثنين: يوم آخر في هذه الحياة. أنزلت حافلة الضواحي مجموعة من الأشخاص الذين يرتدون فانيلات رمادية عند الجانب الشرقي للنهر. كانت ساحة المحطة في آخر الخط مُحاطة بأشجار الصفصاف، والضواحي مُخضوضرة في الربيع. وصلتُ إلى المكتب قبل الساعة التاسعة، وتلقّيتُ الأشياء المعتادة من سكرتيرتي أوجينيا مارتينيز: البريد، بيانات بالرسائل المنقولة عبر الهاتف، ونظرة عابسة. فأوجينيا بدينة، وعزباء متوسطة العمر، وعازمة على البقاء هادئة بالرغم من كل شيء كما تبدو في غالب الأحيان. فهي تطبع على الآلة الكاتبة بتردّد، وترفض الإملاء، وكثيراً ما أجدها تحدّق بالهاتف عندما يرنّ بانزعاج بعينيها الثابتتَين. بالطبع، لا يمكن صرفها من العمل، أو حتى تخفيض رتبتها، لأن الخدمة المدنية ثابتة كالإسمنت. وبقيتْ لعنةً للمساعدين الأعلى مرتبة الذين توالوا على المكتب طوال عقد من الزمن بعد أن عيّنها جون وايت هنا، وهو الذي قام بهذه الخطوة بهدف تجنّب الانتقادات التي قد تنجم عن تعيينها في مكان آخر.

وعلى رأس ما سلّمتني إيّاه أوجينيا بيان بمغادرة تومي مولتو الذي بقي تغيّبه غير معلَّل. فدوّنتُ ملاحظة للتحدث إلى ماك عن هذا الأمر، وشرعتُ باتصالاتي. كانت الغرفة التي تتابع الدعاوى والقرارات الصادرة عن المحكمة قد زوّدتني بنسخة مطبوعة تحتوي على أسماء ثلاثة عشر فرداً أُطلق سراحهم من الحجز القضائي في العامَين الأخيرين، وتولّت كارولين مهمة مقاضاتهم. وجاء في ملاحظة مكتوبة بخط يدٍ أن ملفات القضايا الأساسية قد أُحيلت إلى مكتبها. فوضعتُ النُّسخة وسط طاولتي كي لا أنسى ذلك.

بتمضية ريموند وقته خارج المكتب في معظم اليوم للقيام بجولات

انتخابيــة، عالجــتُ الكثيــر من الأمور التي يواجههــا النائب العام عادة. فطلبــتُ الصــور الفوتوغرافية المتعلّقة بالقضــايا المُحالــة أمام المحكمة، والإعفاءات، والمســاومات الدفاعية، وناقشــتُ مواضــيع مع وكالات تحقيق. وكان من المفترَض أن أترأس في ذلك الصباح اجتماعاً نتخذ فيه قرارات حول طريقة صياغة التُّهم التي نوجهها في ذلك الأسبوع بطريقة موضوعية، وأن أعقد اجتماعاً بعد الظهر أتناول فيه إخفاق شرطي متخفٍّ بإجراء صفقة مع أحد عملاء إدارة مكافحة المخدرات؛ لقد سحب الاثنان السلاح ضد بعضهما، وطلب كل منهما من الآخر الاستسلام. وتدخَّلت قوّتاهما المساندتان أيضاً، بحيث إن الأمر انتهى بوقوف أحد عشر شرطيًا يطبّقــون القانــون في مواجهة بعضــهم، مُطلقين كلامــاً بذيئاً، وملوّحين بمسدســاتهم. وهــا نحــن نعقد اجتماعــات من أجل هذا الموضــوع. من المتوقَّع أن يقول لي رجال الشــرطة إن الفدراليين يقومون بكل شــيء بطريقة ســرّية، وأن يُلمح عميل إدارة مكافحة المخدرات المســؤول إلى أن أي سرّ يملكه قسم الشرطة يكون معروضاً للبيع. في غضون ذلك، يُفترض بي العثور على شخص أدّعي عليه بتهمة قتل كارولين بوليموس.

قد يكون هناك شــخص آخر يبحث عن هذا القاتل أيضــاً. وقرابة الســاعة التاســعة والنصــف، تلقّيت اتصــالاً هاتفياً من ســتو دابنسكي من التريــب. ففــي أثنــاء الحملة، يُجيب ريموند بنفســه على معظم المكالمات الهاتفية التي يتلقاها من الصحافيين؛ فهو لا يريد إغفال المقالات المجانية أو اجتذاب الانتقادات التي تشير إلى أنه يفقد السيطرة على المكتب. ولكن ســتو على الأرجح أفضــل مراســل لدينا في دار القضــاء، ويحصل على معظم الوقائع بشــكل مباشَــر ويعرف الحدود. كان باســتطاعتي التحدث إليه.

«إذاً، مــا الجديــد عن كارولين؟»، ســأل. لقد أربكتني طريقته في اختزال جريمة القتل باسمها. فوفاة كارولين تراجعت من مرتبة المأساة لتصبح حدثاً تاريخياً أكثر قباحة.

لم يكن باستطاعتي، بالطبع، إخبار ستو بعدم وجود أي جديد. فقد

يصل الخبر إلى نيكو ويغتنم الفرصة لشنّ هجوم عنيف علينا مرة أخرى.

«لا يوجد ما يعلّق عليه النائب العام ريموند هورغان في هذا الشأن»، قلت.

«هل يريد النائب العام التعليق على معلومات أخرى؟» فالحصول على معلومات، أيًّا تكن، هو الحافز الحقيقي لاتصال ستو. «بلغني ما يشير إلى انشقاق على مستوى عالٍ في شعبة الجنايات. هل يبدو هذا مألوفاً؟».

لا بد من أنه مولتو. فبعد مغادرة نيكو، أصبح نائبه تومي رئيس الشعبة بالإنابة. ورفض هورغان منحه الوظيفة بشكل دائم، مشتبهاً بحدوث أمر مماثل عاجلاً أم آجلاً. وفكرت مليًّا للحظات بأن الصحافة شرعت في الواقع بتسقّط الأخبار. لا خير لنا في ذلك البتّة. وأدركتُ مسار الأمور من خلال طريقة طرح دابنسكي للأسئلة: مقتل مساعدة عالية الرتبة، واستقالة آخر يُفترض به أن يكون مسؤولاً عن التحقيق. قد يبدو الأمر كما لو أن مكتب المدعي العام على شفير الدخول في حالة من الفوضى.

«الجواب نفسه»، قلت له. «نقلاً عن النائب العام».

فأحدث ستو صوتاً بفمه. لقد شعر بالملل.

«أتريد معلومات ليست للنشر؟»، سألتُ.

«بالتأكيد».

«ما مدى أهمية معلوماتك؟»، أردت أن أعرف مدى قربنا من انتشار هذا الأمر في وسائل الإعلام.

«متوسطة الأهمية. أنا شخص يحب الاعتقاد على الدوام بأن لديه معلومات أكثر من تلك التي يمتلكها في الواقع. أتصوّر أن المنشقّ هو تومي مولتو. إنه ونيكو على علاقة وثيقة، أليس كذلك؟».

لقد اتضح لي أن ستو لا يملك معلومات كافية. فتجنّبتُ سؤاله.

«ماذا يقول لك ديلاي غارديا؟»، سألتُ.

«يقول إن لا تعليق لديه. هيا، يا راستي»، قال دابنسكي، «ماذا

لديك؟».

«ستو، إليك معلومات ليست للنشر. لا فكرة لديّ البتة عن مكان وجود تومي مولتو. ولكن، إذا كان يضع يده بيد نيكو، فلِمَ لم يخبرك المرشَّح بما يعرفه؟».

«هل تريد نظرية؟».

«بالتأكيد».

«ربما أوكل إليه نيكو مهمة التحقيق في القضية شخصيًا. فكّر بهذا الخبر. **ديلاي غارديا يلقي القبض على القاتل**. هل يصلح هذا ليكون عنواناً رئيساً؟».

إن الفكرة منافية للعقل. قد ينتهي الأمر بتحقيق خاص في جريمة قتل إلى عرقلة عمل الشرطة بسهولة كبيرة. فإعاقة العدالة سياسة مغلوطة. ولكن الفكرة قد تنطبق على نيكو بالرغم من كونها غير معقولة. وستو ليس من أولئك الأشخاص الذين يعومون على أفكار خرقاء. فهو لا يملك معلومات كافية.

«هل أعتبر ذلك أيضاً جزءاً مما تُشيعه؟»، سألت.

«لا تعليق»، قال ستو.

وسخرنا من بعضنا قبل أن أُنهي المكالمة الهاتفية. وأجريتُ على الفور بعض الاتصالات الهاتفية، وتركت لدى لوريتا، سكرتيرة ريموند، رسالةً مفادها أنه يجب عليّ التحدث إلى ريموند عندما يتصل بها. وحاولتُ العثور على ماك، المساعدة الإدارية، للتحدث إليها في شأن مولتو. ولكن قيل لي إنها غير موجودة، فتركتُ رسالة أخرى.

بعد ذلك، وقبل دقائق قليلة من الاجتماع الذي نتخذ فيه قرارات حول التُهم الموجَّهة، غامرتُ بالذهاب إلى مكتب كارولين. كان جوّ موحِش يسود ذلك المكان. وكانت الطاولة ذات التصميم الإمبراطوري والتي حصلت عليها كارولين من قسم الخدمات المركزية نظيفة، ووُضعت محتويات الأدراج - علبتان قديمتان من مسحوق التجميل، خَليط الحساء، رزمة مناديل للمائدة، كنزة صوفية مُحاكة بخيطان

سميكة، وقنينة تحتوي على مقدار باينت من الشنابس بنكهة النعناع - داخل علبة من الكرتون المقوّى مع إجازاتها الجامعية وشهادات نقابة المحامين التي كانت معلَّقة على الجدران. وكانت علب الكرتون التي أُحضرت من المستودع موضوعة بشكل هرَمي وسط الغرفة، مُضفيةً جوًّا من الإهمال الجليّ، وفاحت في المكان رائحة متعفّنة، وتكدّس فيه الغبار بعد أسبوع من توقف العمل في المكتب. فسكبتُ كوب ماء على النباتات الخضراء الذابلة، ومسحتُ الغبار عن بعض الأوراق.

كانت القضايا التي تنظر فيها كارولين مؤلَّفة بالدرجة الأولى من اعتداءات جنسية. واستناداً إلى المعلومات التصنيفية المُرفَقة بالملفات، لاحظتُ وجود اثنتَين وعشرين قضية - في الأدراج العُلوية، وفي خزانة الملفات القديمة المصنوعة من خشب السنديان - بلغت مرحلة توجيه التُّهم أو المحاكمة. لقد طالبت كارولين بإبداء تعاطف خاص مع ضحايا هذه الجُنَح، وتيقّنتُ على مَرّ الزمن من أن التزامها أصدق مما ظننتُ. فعندما كانت تتحدث عن العودة بالذاكرة إلى الأهوال التي واجهتها أولئك النساء، كان تألّقها ينحسر ويحلّ مكانه مزيج من الحنان والغضب. ولكن، هناك أيضاً عنصر غريب في هذه القضايا: طبيب مقيم في مستشفى الجامعة أجرى فحصاً بدنياً لعدد من المريضات وانتهى به الأمر معهنّ في السرير. ولقد تلقّت إحدى الضحايا هذه المعالجة في ثلاث مناسبات منفصلة قبل أن تتقدم بشكوى. واعترفت صديقة أحد المشتبَه فيهم في اليوم الثاني من استجوابها بأنها التقته عندما اقتحم باب شقتها وفرض نفسه عليها بالقوة. وعندما أنزل سكينه، قالت، بدا كما لو أنه شاب لطيف.

وعلى غرار العديدين، خامرني شعور بوجود أكثر من مجرّد افتتان عابر لدى كارولين بهذا النوع من العمل الذي تقوم به، وتفحّصتُ ملفات القضايا أملاً في العثور على نمط يمكنني الاستناد إليه: حدوث احتفال طقسي من نوع ما كُرِّر قبل ستة أيام في شقة كارولين، أو محاكاة وحشية لاعتداء أبدت كارولين اهتماماً واضحاً به بطريقة ما. ولكن، لم يكن هناك أي شيء من هذا القبيل؛ فالأسماء الثلاثة عشر لا تؤدّي إلى

أي مكان. لم تكشف الملفات الجديدة عن أي دليل.

وحان وقت الاجتماع، ولكنني كنت منزعجاً من أمر ما. وعندما نظـرت مجـدَداً إلى النسـخة المطبوعة على الكمبيوتـر، أدركت أنني لم أطّلع بعد على قضية واحدة؛ الملف **بي**، كما ندعوه، ويندرج في إطار الرموز الجنائية في الولاية التي تتناول رشـوة المسـؤولين عن تطبيق القانـون. فنـادراً ما كانت كارولين تتسلم قضـايا خـارج نطاق عملها، ووُضـعت الملفات **بي**، المدعوة حالات تحقيق خاصـة، تحت إشـرافي عندما تسلّمتُ هذه القضـية. لقد افترضـتُ في بادئ الأمر أن تسـمية **بي** تُنسَـب إلى الفوضـى المعتادة الناجمة عن استخدامِ الكمبيوتر. ولكن، لم تكن هناك قضية مُرفَقة بالملف **بي**؛ في الواقع، أُدرجت هذه القضية في خانـة المواضـيع غيـر المعروفة التي تعني فـي العادة أن التحقيق لم يؤدِّ إلى اعتقال. أخرجتُ محتويات أدراجها بسرعة مرة أخرى، وتفحّصتها. كانت لديّ نسختي المطبوعة الخاصة التي تحتوي على قضايا الملف **بي**، ولكنِ هذه القضـية لم تكن مُدرَجة بينها. في الواقع، يبدو الأمر كما لو أنها أزيلت من الجدول الكمبيوتري للدعاوى والقرارات الصـادرة عن المحكمة، باستثناء اتصال كارولين.

فدوّنت ملاحظة على مفكرتي: الملف **بي**؟ بوليموس؟

كانت أوجينيا واقفة عند مدخل الباب.

«آه، يـا رجـل»، قالـت. «أين كنتَ؟ كنت أبحـث عنك. لقد أعاد السيد قطعة الجبن الكبيرة الاتصال بك». فالسيد قطعة الجبن الكبيرة هو ريموند هورغان بالطبع. «لقد بحثت عنك في كل مكان. ترك لك رسالة لملاقاته في نادي ديلانسي كلوب عند الواحدة والنصف». فريموند وأنا نعقـد العديـد مـن هذه الاجتماعات في أثنـاء الحملة، فألحق به بعد الغداء قبل إلقاء خُطبته، وأُعيده بسرعة كبيرة إلى المكتب.

«ماذا عن ماك؟ هل بلغنا أي شيء منها؟».

وقرأت أوجينيا الرسـالة. «أمضـيت فترة الصـباح في الشارع». إنها تراقب، بلا شـك، بعض المسـاعدين الجدد الذين يقومون بأعمالهم

في الفرع المركزي.

طلبت من أوجينيا إرجاء موعد الاجتماع نصف ساعة، ومن ثم توجهتُ إلى دار القضاء للعثور على ماك. في الطابق الثاني، كانت جلسة الفرع المركزي منعقدة. ففي المحاكم الفرعية، يمثل الموقوفون للمرة الأولى أمام المحكمة بشكل رسمي لتحديد الكفالة، ويحاكَم مرتكبو الجُنَح، وتُعقد جلسات المحاكمة التمهيدية التي تُعرَض فيها الأدلّة المرتبطة بالجنايات. واختيار أحد المساعدين للقيام بمهمة ما في أحد هذه الفروع يكون المكان الثاني أو الثالث الذي يتوقف فيه في أثناء مسيرته المهنية بعد قضاء مدة في محكمة الاستئناف أو محكمة التقدم بالشكاوى وشعبة التوقيف. لقد أدرتُ دار القضاء هذه لمدة تسعة عشر شهراً قبل أن يتم إرسالي للنظر في الدعاوى الجنائية، وحاولت العودة إليها في أقرب وقت ممكن. ففي هذا المكان تبدو الجريمة على الدوام أكثر واقعية، فيما يبدو الجوّ مُثقلاً بألم مرير عندما تدنو ساعة إصدار الحكم.

كانت هناك مجموعة ناشطة من الأشخاص في الرواق القائم خارج قاعتَي المحكمة المركزيّتين الضخمتَين، وقد أعادوني بالذاكرة إلى الفقراء المحطّمين في عنبر الدرجة الثالثة للسفن القديمة العابرة للمحيطات. أمهات وصديقات وأشقاء يبكون وينتحبون على شبّان محتَجزين في السجن المؤقت المصنوع من الغرانيت والمجاور لقاعة المحكمة. وكان المحامون يخاطبون الزبائن المتدافعين بنبرة من يشتري ويبيع رَغبةً في تحقيق أرباح سريعة، في حين ينادي محامو الدفاع العاملون لصالح الولاية على الأشخاص الذين لم يسبق لهم أن التقوهم من قبل، وسيتولّون مهمة الدفاع عنهم بعد لحظات. ويصيح المدّعون العامون أيضاً، باحثين عن عناصر الشرطة الذين اعتقلوا المشتبَه فيهم في عشرات القضايا، آملين في تعزيز المعلومات الضئيلة المتوافرة في تقارير الشرطة المعَدّة بإيجاز متعمَّد.

داخل قاعة المحكمة المقبَّبة ذات الأعمدة الرخامية الحمراء، والدّعامات المصنوعة من خشب السنديان، والمقاعد ذات الظهور

المستقيمة، تواصلت الضوضاء. كان المدّعون العامون ومحامو الدفاع الموجودون في مكان أقرب إلى الناحية الأمامية – كي لا يفوتهم سماع الإعلان عن افتتاح الجلسات للنظر في قضاياهم – يتشاورون بهدوء حول مساومات دفاعية محتمَلة. وإلى جانب مقعد القاضي، كان ستة أو سبعة مدّعين عامين مجتمعين حول كاتب المحكمة، ويقومون بتسليمه استمارات المثول أمام المحكمة، متفحّصين الملفات، وحاثّين الكاتب على تقديم موعد النظر في قضاياهم. فيما اصطفّ رجال الشرطة في معظمهم اثنَين اثنَين على الجدران المكسوّة بالسخام – يُمضي العديد منهم الوقت الممتد بين الثانية عشرة ظهراً والثامنة مساءً في دار القضاء لأجل جلسات المحاكمة في شأن إطلاق سراح السجناء بكفالة – مرتشفين القهوة، ومحرّكين أقدامهم كي يبقوا مستيقظين، لا سيّما وأن نوبات عملهم الميدانية تمتد من الغسق إلى الفجر. وفي الجانب الأبعد من قاعة المحكمة، يعلو الصخَب من غرفة الاحتجاز حيث ينتظر المتّهَمون مثولهم أمام المحكمة، ويوجّه واحد منهم أو اثنان كلاماً بذيئاً للمأمورين القضائيين أو المحامين، متذمّرين من المكان الضيّق والروائح غير اللائقة المنبعثة من المقعد الذي يحتوي على مبوَلة. ويتذمّر الباقون من حين لآخر أو يضربون القضبان بأيديهم.

وفي نهاية فترة الاستدعاء الصباحي، تُستدعى المومسات إلى المحكمة بملابسهنّ مكشوفة الظهر والكتفَين، وبسراويلهنّ القصيرة، فيُحاكمنَ، وتُفرض عليهن غرامات مالية، ويُعَدنَ إلى الشارع، فيأخذنَ قسطاً من الراحة أو ينطلقنَ سعياً وراء عمل ليليّ آخر. ويقوم محاميان أو ثلاثة بتمثيلهنّ جميعاً عادة، ولكن قوّاداً يتولى من حين لآخر مهمة الدفاع عنهنّ بهدف الاقتصاد. وها هو أحد المغفّلين ببذلته التي تحمل ألوان طائر النّحام يشكو من وحشية الشرطة.

واصطحبتني ماك إلى غرفة الملابس حيث لم تكن هناك أي معاطف معلَّقة. فليس هناك أي زائر يتمتع بالجرأة الكافية بحيث يترك ثياباً قيمة في غرفة لا تحظى بالحراسة. كانت الغرفة شبه فارغة، فلم تحتوِ إلاّ على

آلة كاتبة للاختزال خاصة بمراسلة المحكمة، وشمعدان كبير لغرفة الطعام موضوع في كيس من النايلون ويبدو أنه دليل في قضية سيتم النظر فيها. وسألتني عما يحدث.

«أخبريني ما حاجة كارولين بوليموس إلى ملف **بي**»، قلت.

«لم أكن أعرف أن كارولين مهتمة بالجرائم التي تُرتكب فوق الخصر»، قالت ماك. إنها مَقولة قديمة. وأشرق وجهها من حيث تجلس على كرسيّها المدولَب، وطرحتْ عدداً من الاحتمالات المرتبطة بالملف بي، والتي سبق لي أن طرحتها. «إنها غير محتمَلة»، أقرّت أخيراً.

فكونها مساعدة إدارية عُليا، تتولى ليديا ماك دوغال مسؤولية دائرة شؤون الموظفين، والمشتريات. إنه عمل مُجهِد يحمل لقباً جميلاً، ولكن ليديا معتادة على المِحَن. لقد أصيبت بالشلل السُّفلي بعد فترة قصيرة من بدئنا العمل معاً في مكتب المدعي العام قبل اثنَي عشر عاماً تقريباً. حدث ذلك في إحدى الليالي الأولى في فصل الشتاء، عندما كانت السماء تُمطر رذاذاً ممزوجاً بالثلج، وليديا تقود السيارة. فقُتل زوجها الأول توم، بعد غَوص السيارة في النهر.

ووفقاً لمسار الأمور بصفة عامة، يمكنني القول إن ماك قد تكون أفضل محامية في المكتب. فهي منظّمة، وحكيمة، وموهوبة في المحكمة. حتى إنها تعلمت على مَرّ السنين الاستفادة من الكرسي أمام هيئة المحلفين. فهناك بعض المآسي التي تؤثّر فينا إلى حد كبير لدرجة أن فهمنا لها يكون تطورياً في أفضل الأحوال. وفي اليومين اللذين يمضيهما المحلَّفون في الاستماع إلى هذه المرأة الجميلة الفاعلة، ذات الصدر الرحب، مقارنين بين ساقَيها وسيقانهم الملوّحة في الأرجاء، والطليقة كالرايات، وناظرين إلى خاتم زفافها، ومستغرقين في ذِكرها العرَضي لطفلتها، ومراقبين حقيقة أنها طبيعية بشكل مستحيل، يملأهم الإعجاب بها والأمل على غرارنا جميعاً.

ففي أيلول/سبتمبر التالي، من المتوقَّع لماك أن تصبح قاضية. لقد سبق لها أن حظيت بتأييد الحزب، وستخوض الانتخابات الأولية من

دون وجود خصم لها، وستكون الانتخابات العامة لصالحها. فليس هناك الكثير من الناس كما يبدو الذين يشعرون بأنهم قادرون على التغلّب على محامية تحظى بتأييد المجموعات النسائية، والمعوّقين، ومؤسسات تطبيق القانون وفرض النظام، واتحادات المحامين الرئيسة الثلاثة في المدينة.

«لماذا لا تسأل ريموند عن الملف؟» اقترحتْ أخيراً.

لم يكن هورغان رجل تفاصيل، ومن غير المحتمَل أن يكون على عِلم بأي شيء متعلق بقضية فردية، وكنت متردداً في تلك الأيام في إعلامه بما نواجهه من مشاكل. فهو يبحث باستمرار عن شخص يلقي اللوم عليه.

وفي أثناء عبورنا الممر إلى قاعة المحكمة المجاورة، تحدثت إليها عن تومي مولتو وعن كونه في عداد المفقودين. وقلت لها إننا إذا قمنا بصرف مولتو من العمل، فسيستفيد نيكو من هذا الوضع، زاعماً أن هورغان يطارد أصدقاء ديلاي. وإذا احتفظنا بتومي في فريق العمل، فسنعزّز استفادة نيكو من الانشقاق. وقررنا أخيراً وضعه في سجلّ الحاصلين على إجازة غير مصرَّح بها، وهو سجلّ لم يكن موجوداً من قَبل. وأخبرتُ ماك بأنني سأشعر بارتياح أكبر حيال هذا الأمر إذا رأى شخص ما أثق به مولتو حيًّا.

«لنُطلِق مجموعة من رجال الشرطة في إِثره. لدينا مساعدة للنائب العام متوفَّاة. فإذا رأت سيدة ما أجزاء صغيرة من مولتو في نفاياتها صباح غد، فأنا أرغب في أن أكون قادرة على القول إننا كنا نبحث عنه في كل مكان».

وحان دور ماك. فدوّنتُ ملاحظة.

كان صاحب السيادة، لارين ليتل، بوجهه العريض المكفهرّ والزاخر بالمكر والمهابة أول من لاحظ وجودي. فالقاضي رجل أسود في نادٍ لم ينتسب إليه إلا البيض حتى ما قبل ثلاثة أعوام، ولم يظهر عليه ما يشير إلى إذعانه للجوّ العام. كان مطمئنّ البال وسط كراسي النادي

الجلدية، والندل الذين يرتدون ثياباً موحّدة خضراء اللون.

كان لارين شـريك ريموند السـابق في العمل في ميدان القانون. كانا في تلك الأيام يعملان لصالح المرشحين لمناصب سياسية، ويدافعان عـن المتملصـين من الخدمة العسـكرية ومقتنـي الماريوانا، وعن معظم المحاربين السـود المحليين، إضـافةً إلى دفع أجور العملاء. لقد نظرتُ في قضية مرفوعة ضد لارين قبل أن ينضمّ إلى هيئة المحكمة؛ قضية يافع يقيم دعوى على فتى شـديد الثراء من ضـواحي وسـت شور يحب اقتحام منـازل أصـدقاء والدَيه. ولارين شخصـية مَهيبة، كمـا أنّه قويّ البنية، وفَطِن مع الشهود، ويتمتع ببلاغة ذات بُعد أوبراليّ، وباستطاعته اعتماد سلوك مهذَّب، ومن ثم الانتقال إلى فن الخطابة. ونادراً ما تلاحظ هيئة المحلفين وجود محام آخر غير لارين في قاعة المحكمة.

كان ريمونـد يُعـدّ انطلاقة السياسـيين في بـادئ الأمر، فيما يتولى لارين مسؤولية الحملة الانتخابية ويستقطب أصوات السود بأعداد كبيرة. وقبـل عامَيـن، عندما كان ريموند يعتقد أن باسـتطاعته أن يكون رئيس بلدية، انضـم إليه لارين على لائحة المرشـحين في الانتخابات كمرشـح لمنصب قاضٍ. وفاز لارين وخسر ريموند، وعانى القاضي ليتل بسبب ولاءاته. لقد أبقاه بولكارو في الفرع الشمالي حيث كان ينظر في قضايا تتعلـق بحركـة المرور، وجنـح مرتبطة بمعاقرة الكحـول، وهي مهمة المأمورين القضـائيين المعيَّنين، وذلك حتى قيام ريموند بشـراء حرّيته بعد أربع سـنوات من خلال تأييده الحماسـي لحملة إعادة انتخاب رئيس البلدية بولكارو. وأصـبح لارين مذاك الحين قاضـي جنايات في وسـط المدينـة، وحاكمـاً مُطلقـاً لا يرحـم في قاعة المحكمـة التابعة له، والعدوّ اللدود لمساعدي النائب العام بالرغم من صداقته مع ريموند. وساد في عهـده قـول مأثور حـول وجود محاميَي دفاع في قاعة المحكمة، وذاك الذي يصعب التغلب عليه يرتدي رداء فضفاضاً.

بالرغم من ذلك، بقي لارين قوة فاعلة في حملات ريموند. ومنعته مدوّنة قواعد السلوك القضائي من القيام بأي دور رسمي، ولكنه استمر

بكونه فرداً من مجموعة هورغان المقرَّبة التي تشمل أشخاصاً رافقوه في كلّية الحقوق وفي المراحل الأولى من مزاولته مهنة المحاماة، وقد حملتني صداقته الحميمة مع ريموند في ذلك الوقت على الشعور بتَوق المراهقة الشديد. لارين، ومايك ديوك؛ وهو الشريك الإداري في مؤسسة كبيرة في وسط المدينة، وجو رايلي من فرست. هؤلاء هم الأشخاص الذين لجأ إليهم ريموند في تلك الأوقات.

لقد أوكلت إلى مايك ديوك مسؤولية الإشراف على تمويل الحملة، وتبيّن أن مهمته كانت أكثر إثباطاً للعزيمة مقارَنةً مع العام السابق عندما لم يكن ريموند يواجه منافسين بارزين. وقد امتنع ريموند عن المشاركة في أي نوع من أنواع الحملات لجمع التبرعات خشية تعريض سياسته المستقلة للخطر. ولكنه اضطر لوضع هذه الشكوك جانباً وإجراء عدد من تلك اللقاءات، متأنّقاً لأجل الحصول على دعم مالي من الليبراليين - وهم أشخاص أنيقون على غرار أفراد المجموعة المجتمعة في ذلك اللقاء - ومُظهراً لهم أنه لا يزال أداة العدالة معسولة اللسان كما كان منذ عقد مضى. وألقى ريموند خطبته بنبرة حوارية في انتظار القيام باستدعائه أولاً، ومن ثم القاضي، كي يتمكن مايك من الانكباب على جمع التبرعات في أثناء غيابهما.

تلك كانت وظيفتي هناك في ذلك اليوم: أن أكون العذر الذي يتذرع به ريموند للمغادرة. فقدّمني إلى الحاضرين، وشرح قائلاً إن عليه المغادرة إلى مكتب المدعي العام. كنت كالخادم تماماً؛ إذ لم يفكر أحد بأن يطلب مني الجلوس، ووحده القاضي ليتل تكبد عناء الوقوف لمصافحتي. وبقيتُ وراء الطاولة مع دخان السيجار في حين جرت جولة نهائية من المصافحة وإلقاء الدُّعابات الصريحة، ومن ثم لحقتُ بريموند إلى مدخل الباب، وكان يحمل مبلغاً طائلاً من المال.

«ماذا يجري؟». سألني حالما تجاوزْنا الحاجب ووصلنا إلى الظُلّة الخضراء للنادي. باستطاعتكم الشعور منذ الصباح بأن الهواء يبدو أفضل، وبتسارع دورتي الدموية؛ سيحلّ الربيع.

وعندمـا أخبرتـه عن اتصـال دابنسـكي، لم يبـذل أي جهد لإخفاء انزعاجه.

«دعني أُمسك بأيّ منهما يعيق التحقيق». وكان يعني نيكو ومولتو. وسلكنا الطريق بسرعة في اتجاه مبنى المقاطعة.

«أي نوع من الهراء هذا؟ تحقيق مستقل؟!».

«ريموند، إنه مراسـل يفكر بصـوت مرتفع. قد لا تكون معلوماته صحيحة».

«من الأفضل ألا تكون صحيحة»، قال.

وشرعتُ بإخبار ريموند عن الحادثة التي جرت بين الشرطة وإدارة مكافحة المخدرات، ولكنه لم يدَعني أُنهي كلامي.

«أين وصلت تحقيقاتنا حول مقتل كارولين؟»، سأل. كان باستطاعتي التيقّن من أن نشاطات مولتو المحتمَلة قد أثارت رغبة ريموند مجدداً في أن يصـل تحقيقنا إلى بعض النتائج. وشـرع بطرح أسـئلة متلاحقة. هل لدينا تقرير عن الشـعر والألياف؟ ما الوقت الذي سيسـتغرقه صـدور هذا التقرير؟ هل هناك معلومات جديدة عن بصمات الأصابع؟ ماذا عن تقرير الولاية حول المعتدين الجنسيين الذين قامت كارولين بمقاضاتهم؟

وعندمـا أخبـرت ريموند بأننا على وشـك الحصـول على كل هذه المعلومات، ولكنني أمضيت الساعات الثلاث الأخيرة في المؤتمر، تسمّر في مكانه في الشارع، واحتدم غضباً.

«تباً، راستي!». وصار وجهه أحمر اللونِ، وانخفض حاجباه فوق عينَيه الغاضبتَين. «لقد قلت لك في ذلك اليوم: أعطِ هذا التحقيق الأولوية الأولى. هذا ما يسـتحقه. يقوم ديلاي غارديا بالتهامي حيًّا بواسـطة هذا الأمر، وندين لكارولين بالكثير. لتتولَّ ماك إدارة شؤون المكتب، فهي قادرة على ذلك. باستطاعتها مراقبة إدارة مكافحة المخدرات والشرطة وهم يتبوّلون على بعضهم، وباستطاعتَها إعطاء عملية وضع لائحة التُّهم الأولويةَ الثانيـة. ركـز علـى هذا التحقيق. أريد منك أن تصـدّ كل كرة بيسـبول تهـدد مرمانـا، وقم بذلـك بطريقة منهجية. قم بذلك! تصـرّف

كمحترف لعين».

نظرتُ إلى الشارع في الاتجاهَين، ولم أرَ أحداً أعرفه. أنا في التاسعة والثلاثين من العمر، قلتُ في سرّي. لقد أمضيت ثلاثة عشر عاماً في مزاولة مهنة المحاماة.

وأكمل ريموند طريقه بصمت. أخيراً، التفت إلى الوراء ونظر إليّ هازًّا رأسه. لقد توقعت المزيد من التذمر حول أدائي، ولكنه قال: «يا رَجل، هؤلاء الأشخاص أغبياء». لقد فهمتُ أن ريموند لم يستمتع بالغداء.

في مبنى المقاطعة، قام غولدي بطيّ صحيفته. وهو عامل المصعد أبيض الشعر الذي يتولى طوال اليوم مهمة مرافقة ريموند ومندوبي المقاطعة الحكوميين في مصعد مخصَّص لهم، صعوداً ونزولاً، بوضع كرسيّه داخل المصعد. كنت قد بدأتُ بالتطرق إلى موضوع الملف بي المفقود، ولكنني توقفت عن ذلك في أثناء وجودنا في المصعد. فغولدي ونيكو أفضل صديقَين، حتى إنني رأيتُ غولدي يخرق آداب السلوك في مناسبة واحدة أو مناسبتَين، مستعجلاً نيكو في الصعود والنزول: إنه الأسلوب الذي يهواه نيكو؛ المصعد الرسمي. إنه قدره. ويحتفظ نيكو بوجه نبيل خالٍ من التعابير في أثناء قيام غولدي بتفحّص الردهة بدقة للتحقق من أن الجوّ آمن.

وعندما وصلنا إلى المكتب، سرت وراء ريموند. فدنا منّا مساعدون متنوّعون للتحدث قليلاً إلى ريموند، وعرض بعضهم مشاكل، فيما حاول آخرون ببساطة الحصول على أخبار عن سَير الحملة. وشرحتُ له في مناسبتَين أنني أتابع جدول الدعاوى والقرارات الصادرة عن المحكمة في شأن كارولين. وقمت بذلك بطريقة غير منهجية بما أنني لم أكن راغباً في الاعتراف بمزيد من الإخفاقات، وكان ريموند يفقد الصلة بين ما أطلعه عليه في أثناء انتقاله من حديث إلى آخر.

«هناك ملف مفقود»، قلت ثانيةً. «هناك قضية لا يمكننا تفسيرها».

ولفت هذا الأمر أخيراً انتباه ريموند، وتوجهنا إلى الباب الجانبي

لمكتبه.

«أي نوع من القضايا؟ هل نعرف أي شيء عنها؟».

«نعرف أنها أُدرجت في السجلّ الذي يتضمن قضايا رشوة المسؤولين عن تطبيق القانون؛ ملف بي. لا أحد يعرف ما حدث له كما يبدو. لقد ناقشتُ المسألة مع ماك، وتحققتُ من سجلاتي الخاصة».

وأمعن ريموند النظر إليّ للحظات، وخَلت نظرته بعد ذلك من أي تعبير.

«أين يُفترض بي أن أكون عند الساعة الثانية؟»، سألني.

وعندما أخبرته بأنني لا أملك أي فكرة عن الأمر، نادى سكرتيرته لوريتا باسمها، واستمر بذلك حتى وقفتْ أمامه. لقد ثبُت في النهاية أن ريموند مرتبط باجتماع مع لجنة محامين للتباحث في شأن الإجراءات المتّبَعة في القضايا الجنائية. ومن المفترَض به الإشارة إلى النقاط الرئيسة للإصلاحات المتنوعة التي شهدتها عملية إصدار الأحكام القضائية، وقد أُدرجت في حملته دعوتُه إلى اعتماد هذه الإصلاحات، وصدرت نشرة إعلامية؛ سيكون هناك مراسلون وفِرق عمل تلفزيونية لتغطية تصريحه، ولقد تأخر عن موعده.

«تباً»، قال ريموند. «تباً». ودار حول الطاولة بخطى ثقيلة، قائلاً: «تباً».

وحاولتُ ثانيةً.

«على كل حال، ما زالت القضية محفوظة في جهاز الكمبيوتر».

«هل اتصلتْ بكودي؟»، سألني.

«كارولين؟».

«لا. لوريتا».

«لا أدري، يا ريموند».

ونادى لوريتا ثانيةً. «اتصلي بكودي. هل اتصلتِ به؟ حبًّا بالله، اتصلي به. حسناً، اطلبي من أحدهم التوجه إلى هناك». ونظر ريموند إليّ. «ضع سِكيراً على هاتف السيارة ولن تتمكن أبداً من الاتصال به.

بمن يتصل؟».

«ظننتُ أنك ربما تكون قد تلقّيتَ معلومات ما عن هذه القضية. ربما تتذكر شيئاً».

لم يكن ريموند يُصغي. كان قد أرخى بثقله على كرسيّ ليّن واستدار باتجاه ما يدعوه المساعدون بطريقة وقحة جدار احترام ريموند، وهو امتداد لمادة صلبة مصنوعة من المِلاط عُلِّقت عليها لوحات معدنية، وصور، وتذكارات أخرى تعبّر عن انتصارات كبيرة أو عن مظاهر حفاوة وتكريم: جوائز من اتحادات محامين، رسوم تقريبية لقاعة المحكمة بريش فنانين، صور كاريكاتورية سياسية. وظهرت على وجه ريموند مجدداً نظرة الهرِم المنهَك تلك، الهائم على وجهه، والغارق في التفكير؛ نظرة رجلٍ قام بحل العديد من الألغاز.

«يا الله! يا لهذه الكارثة اللعينة! كان لارين يطلب مني في كل حملة منح إجازة لأحد المساعدين كي يكون هناك من يدير الأعمال بدوام كامل، وتمكنا باستمرار من شق طريقنا بصعوبة من دون اللجوء إلى هذا الأمر. ولكن الأمر خرج عن سيطرتنا. فهناك على الدوام الكثير من الأمور اللعينة التي يتعيّن القيام بها من دون أن يكون هناك مسؤول عنها. هل تعرف أننا لم نُجر استطلاعاً للرأي العام منذ شهرَين؟ ما زال هناك أسبوعان للانتخابات ولا نملك أي فكرة عن موقعنا وعن حلفائنا».

وثنى يده ووضعها على فمه، هازًّا رأسه. لم يظهر على وجهه القلق بقدر ما ظهر عليه الإرهاق. لقد فقد ريموند هورغان، النائب العام لمقاطعة كيندل، قدرته على تدبّر أموره.

ومرّت لحظات سادها صمت مُطبَق. ومن جهة ثانية، لم أكن أميل إلى اعتماد الأسلوب التبجيلي بعد الصفعة القوية التي تلقّيتها في الشارع. فبعد ثلاثة عشر عاماً من العمل لصالح الدولة، أعرف كيف أكون بيروقراطياً وحريصاً على الحصول على تغطية ريموند في شأن الملف المفقود.

«على كل حال»، قلت مجدداً، لا أعرف مدى أهمّيته. لا أعرف

ما إذا كان قد وُضع خطأً في ملف آخر، أو إن كان هذا عملاً إجراميًا».

فحدّق ريموند إليّ قائلاً: «هل تتحدث مجدداً عن ذلك الملف؟».

لم أحظَ بفرصة للإجابة. فلقد أبلغته لوريتا بورود اتصال هاتفي، وحوّلته إليه. كان أليخاندرو شتيرن، محامي الدفاع الذي يرأس لجنة المحامين، هو المتصل. فاستماحه ريموند عُذراً، وقال إنه دخل نقاشات حول تلك الحادثة غير المألوفة التي جرت بين إدارة مكافحة المخدرات والشرطة المحلية، وهو في طريقه إلى المؤتمر الصحافي. وعندما أنهى المكالمة الهاتفية، نادى كودي مرة أخرى.

«أنا هنا»، قال كودي، ودخل من الباب الجانبي.

«عظيم»، قال ريموند، باحثاً يميناً ويساراً. «أين معطفي؟».

كان كودي يحمله.

وتمنّيتُ لريموند الحظ.

ففتح كودي الباب، وخرج ريموند ولكنه عاد على الفور.

«لوريتا! أين خُطبتي؟».

وثبُت في النهاية أنها مع كودي أيضاً. بالرغم من ذلك، أكمل ريموند طريقه إلى طاولته، وفتح دُرجاً، وسلّمني ملفاً في أثناء خروجه. إنه الملف **بي**.

«سوف نتحدث لاحقاً»، قال واعداً إيّاي، وخرج مُسرعاً يتبعه كودي.

مكتبة
t.me/t_pdf

6

«بطريقة ما، أصبح الفتى ويندل هاماً»، قلت لروبنسون. «بالنسبة إلينا، أعني. وبالنسبة إليّ، على الأقل. يصعب الشرح، ولكنه جزء بطريقة ما مما حدث لكارولين».

كان فتى غير عادي، كبير الحجم مقارنةً مع سنّه، يمشي ببطء على غرار بعض الفتيان الكبار، ويوحي مظهره المكتنز بالغباء. لقد طلبتُ من أحد الأطباء النفسيين شرحاً، كما لو أنني بحاجة إليه، فقال إنه مصاب بالاكتئاب ولم يتخطَّ السنوات الخمس عمراً.

كان ويندل ماك غافن قد نُقل في أثناء النظر في قضية والدته من ملجأ في المقاطعة إلى دار احتضان. كان يرى والده كل يوم ولكنه لم يرَ والدته قطّ. وبعد النقاشات العادية في المحكمة، مُنحتُ وكارولين الإذن للتحدث إليه. في الواقع، لم نتحدث إليه قطّ في بادئ الأمر. فلقد حضرنا جلسات له مع الأطباء النفسيين الذين قاموا بتعريفنا إليه. ورغب ويندل في اللعب بالألعاب، وتخيّل أن الطبيب النفسي يحتفظ بها في الغرفة. فسأله الطبيب عما إذا كانت لديه أي أفكار عن مواضيع مختلفة، ولكن ويندل لم تكن لديه أي أفكار، وهو أمر حتميّ تقريباً. وقال الطبيب النفسي، ويدعى ماتينغلي، إن ويندل لم يسأل مرة واحدة في الأسابيع التي أمضاها هناك عن والدته. ونتيجةً لذلك، لم يطرحوا عليه الموضوع.

لقد أحب ويندل كارولين منذ البداية. وكان يُحضر لها الدُّمى، ويوجه لها ملاحظات، ويُلفت انتباهها إلى طيور، وشاحنات، وأشياء أخرى تمرّ خارج النافذة. وفي زيارتنا الثالثة أو الرابعة، قالت كارولين لويندل إنها تريد أن تتحدث إليه عن والدته. فتنبّه الطبيب النفسي إلى خطر محتمَل، ولكن ويندل التقط دُميته بيدَيه وسأل: «ما بها؟».

وطالت مدة اللقاء يوماً بعد يوم بين عشرين وثلاثين دقيقة. لقد ترك هذا الأمر انطباعاً قوياً لدى الطبيب النفسي، واستأذن كارولين في نهاية المطاف للبقاء معهما في أثناء مقابلاتهما. وطوال أسابيع، رُويت القصة على مراحل، وبتمتمة، وكانت هناك إجابات عفوية وفوضوية عن أسئلة كانت كارولين قد طرحتها قبل أيام. لم يُبدِ ويندل أي انفعال حقيقي باستثناء تردده. كان يقف في العادة أمام كارولين، ممسكاً بيدَيه، وبقوة، خصر الدُّمية التي يحدّق بها برباطة جأش. فتُكرر كارولين ما كان قد أخبرها إيّاه، وتطلب منه المزيد. فيهزّ ويندل رأسه موافقاً أو رافضاً، أو أنه لا يجيب البتّة. ومن حين لآخر، كان يتفوّه ببعض الشروحات.
الأمر مؤلم. لقد بكيتُ. قالت إنه لا يُفترض بي أن أكون هادئاً.
«أرادت منك أن تكون هادئاً؟».
«أجل. قالت إنه لا يُفترض بي أن أكون هادئاً».
لو جاء التكرار من شخص آخر، لبدا الأمر قاسياً، ولكن كارولين بدت بطريقة ما بحاجة إلى معرفة أن ويندل يفتقر إلى التركيز. وقبل وقت غير طويل من المحاكمة، قررت كارولين والطبيب النفسي ألا تقوم سلطات المقاطعة باستدعاء ويندل إلى منصة الشهود إلا عند الضرورة القُصوى. ستتخطى مواجهته مع والدته قدرته على الاحتمال، قالت. ولكن، حتى إن اتُخذ ذلك القرار، فستستمر كارولين بلقاء ويندل لمعرفة المزيد من التفاصيل.

«يصعب شرح طريقة نظرها إلى هذا الفتى»، قلت لروبنسون. «كانت تنظر إلى أعماقه تقريباً. الأمر مُجهِد. كانت جادّة. لم أتصوّر قطّ أن تكون من النوع الذي يقيم أي علاقة ودّية مع الأطفال. وعندما قامت بذلك، صُعقتُ».

لقد أحدث هذا الأمر غموضاً إضافياً يتعلق بها. وأيًّا تكن الأنهار الجامحة والمتدفقة والانفعالية التي جعلتها كارولين تفيض في نفسي من خلال سلوكها ومظهرها، فقد أضفى الاهتمام العطوف الذي أظهرتْه تجاه هذا الفتى المفتقِر إلى العطف رقّةً وحناناً على أحاسيسي. وعندما

كانت تعتمد النبرة الهادئة والعازمة وتنحني في اتجاه ويندل العزيز، ذي العقل المتبلّد والمشاعر المجروحة، كان حبُها يملأ كياني أيًا تكن مشاعر الأسف لديّ.

إنه حب جامح، ويائس، واستحواذيّ، وأعمى، وعنيد. حب لا يملك حساً بالمستقبل، حب مضلَّل بالحاضر وعاجز عن استنتاج معنى الإشارات.

ذات يوم، تحدثتُ إلى ماتينغلي عن الطريقة التي اعتمدتها كارولين مع الفتى. إنها غير عادية، أليس كذلك؟ سألتُ. إنها مُذهلة ولا يمكن تفسيرها. لقد أردت أن أسمعه يُثني عليها، ولكن ماتينغلي اعتبر تعليقاتي استعلاماً علاجياً؛ كما لو أنني أطلب تفسيراً لهذه الحالة. فسحب غليونه بطريقة تأملية وقال: «لقد فكرتُ بالأمر»، قال. وبعد ذلك، أصبحت نظرته مضطربة ومُدرِكة. لقد افترضتُ أنه يشعر بالاستياء ظنًا منه بأنني أسيء الحكم على مؤهلاته. ولكنه أضاف: «وأعتقد أنها تذكّره بوالدته إلى حد ما».

جرت المحاكمة بشكل جيد. وقام أليخاندرو شتيرن – ساندي خارج قاعة المحكمة – وهو سيد إسباني نبيل، ممشَّط الشعر بشكل أنيق، ومتمِّم الصفات بنبرته اللطيفة وأظفاره المدرَّمة، بتمثيل السيدة ماك غافن. إنه محام مُرافِع مهذَّب ومتأنّق، وقررنا اعتماد مقاربته مضبوطة الحدة. فتقدّمنا بدليلنا المادّي، وبشهادة الأطباء ونتائج اختبارهم؛ وقدّمنا بعد ذلك ثمار البحث. وهكذا، هدأ سكان المقاطعة. واستدعى ساندي للشهادة طبيباً نفسيًا وصف الطبيعة الهادئة لكولين ماك غافن. ومن ثم أظهر مدى براعته كمحام من خلال عكس التسلسل العادي لعرض القضية. فشهدت المدّعى عليها أولاً، ناكرةً كل شيء؛ وتوجه زوجها بعد ذلك إلى المنصة، باكياً على نحو لا يُحتمل في أثناء وصف وفاة طفلته الأولى، وسقوط ويندل الذي شاهده بأمّ العين، وتفاني زوجته في الاهتمام بابنهما. وقام محام مُرافِع جيد بتوجيه رسالة مُضمَرة لهيئة المحلَّفين لا يمكن البَوح بها لأنها قد تكون مُجحِفة جداً أو غير لائقة، سواء أكانت التماساً عرقياً عندما

يتعرف ضحايا ذوو بشرة سوداء على متهمين بِيضٍ، أم سلوكاً يتّبعه محام كشتيرن عندما تكون هناك محاولة لارتكاب جريمة. في تلك الحالة، أراد شتيرن إعلام هيئة المحلفين بأن الزوج قد غفر لزوجته كولين ماك غافن، وإذا استطاع أن يغفر لها، فلم لا يستطيعون هم أيضاً أن يغفروا؟

وباعتماد وسيلة إنقاذ احترافية، وجدتُ أنه يمكنني عزل نفسي تقريباً عن كارولين في قاعة المحكمة. لقد استمتعتُ بفترات ممتدة من التركيز، وتنبّهتُ بطريقة مفاجئة إلى حد ما لحضورها بجانبي واستحواذها على مشاعري. ولكن تكلفة هذا العمل الإرادي باهظة. ففي الخارج، كنت عقيماً إلى حد كبير، ويتطلبني الأمر للقيام بالمهام الأكثر روتينية – التحدث إلى شهود، جمع مستندات قانونية – تركيز كل طاقاتي للتغلب على ما يقيّد رغبتي بالعمل: لا تفكر بها، رجاءً لا تفكر بها الآن. ولكن ذلك لم ينجح، وانتقلتُ إلى واقع تأرجحتُ فيه بين أحلام يقظة مثيرة ومتنوعة، ولحظات توبيخ ذاتي حاد، ولحظات كنت أحدّق فيها كالأبله عندما تكون حاضرة.

«أخيراً»، قلت لروبنسون، «كنا هناك ذات ليلة نعمل في مكتبها».

كان الدفاع قد انتهى من مرافعته تقريباً، وبدأ داريل بالإدلاء بشهادته، ولعب العنصر المثير للشفقة المرتبط بعجز هذا الرجل عن التعاطي مع أي شيء دوراً فعالاً في الحقيقة، وإلى حد كبير. وكانت كارولين تستعد للاستجواب في المحكمة، وقاعة المحكمة مليئة بالمراسلين، فيما تقوم محطتان تلفزيونيتان بنقل أخبار عن القضية في معظم الليالي. كان الاستجواب بحد ذاته مشوّقاً لأنه يتطلب مهارة جراحية إلى حد ما: يجب تدمير داريل كشاهد، ولكن ليس ككائن بشري. فهيئة المحلفين لن تتخلى عن تعاطفها معه لأنه لا يقوم في النهاية بأقلّ ممّا يقوم به معظمنا؛ ألا وهو محاولة إنقاذ ما تبقى من عائلته. وهكذا، انكبّت كارولين على هذا الاستجواب، وتمرّنت على إلقائه، وقامت بتعديله وإلقائه بصوت مرتفع، وامضةً أمامي كقطعة نقود معدنية تتقلّب في الجوّ. كانت ترتدي زوجاً من الجوارب الطويلة، وتنورة رسمية تدور حولها بخفّة كلما دارت حول نفسها

في المكان الضيّق. وكانت تندفع بسرعة عندما تركز على نبرتها والأسئلة.

كانـت هنـاك لِفافـات على الطاولـة متبقية من عشـائنا المؤلَّف من وجبـات سـريعة، ومجموعـة من الوثائق المتنوعة: مـدة مناوبة داريل في العمل وتواجده هناك لإظهار مدى انشـغاله وعدم تمكنه من معرفة ما يجري في المنزل، وتقارير طبية عن الفتى، وتصـريحات لمدرّسـيه وخالته. وقمنا بتقييم كل سـؤال. لا، لا، أكثر ليناً، أكثر ليناً. يا سـيد ماك غافن، ألم يكن باستطاعتك أن تعرف أن ويندل قد أظهر كدماته في المدرسة؟ على هذا النحو. وربما طرحنا ثلاثة أسئلة: هل تعرف بيفرلي موريسـون؟ حسـناً، هل تنتعش ذاكرتك إذا عرفتَ أنها مدرّسـة ويندل؟ هل كنت تعرف أن السـيدة موريسـون ناقشـت حالة ويندل الجسـدية مع زوجتك في مساء 7 تشرين الثاني/نوفمبر من العام الماضي؟

«أكثر ليناً»، قالت.

«أكثر ليناً، صحيح»، قلت. «لا تقتربي منه كثيراً، ولا تتنقلي كثيراً في قاعة المحكمة. فأنتِ لا تريدين أن تَبدي غاضبة».

وشـعرت كارولـين بالإثـارة ومدّت يدها فوق الطاولة وأمسـكت بيدَيّ.

«سـتجري الأمور بشـكل جيد»، قالت، وبقيت عيناها الخضراوان مثبتتَين عليّ لمدة قليلة إضافية تكفي لأدرك بأننا انتقلنا فجأةً من المحاكمة إلى أمر آخر. فقلت - ولم يكن قد سـبق لي أن قلت أي كلمة بصـوت مرتفع حتى تلك اللحظة - بمشـاعر مكتومة ومُحزنة: «ماذا يجري، يا كارولين؟». وابتسمتْ فوراً بخفّة، ولكن بإشراق رائع، وقالت: «ليس الآن». واستأنفت على الفور التمرّن على الاستجواب.

ليسـ الآن. ليسـ الآن. واسـتقللت في تلك الليلـة الحافلة الأخيرة المتوجهـة إلـى نيرنـغ، وغرقتُ في تفكير مُظلم فـي أثناء مرور الحافلة بسـرعة تحت مصـابيح إنارة الشـارع. ليس الآن. ألم أتخذ قراراً بعد؟ بلى. إنه أمر جيد. إنه أمر سيئ. لست واثقاً. أريد التخلي عنكِ ببطء. ولكن، هناك أمر ما على الأقل. وأدركتُ تدريجيًا معنى تواصلنا.

لم أكن مجنوناً، ولم أكن أتوهّم أموراً لا وجود لها؛ هناك أمر يحدث. لقد تحدثنا عن أمر ما. وبدأ قلقي الهائج ذاك بالتبدل. وهناك في الحافلة، وبينما كنت جالساً على المقعد الخلفي في حفرة من الظلام، تحوّلت هواجسي إلى سيف قاتل، وبدأتُ أشعر بالخوف بعد أن أدركت أنني دخلت منطقة الواقع.

7

\الاستوديو بي، كُتب على اللوحة الموضوعة على الناحية الخارجية من الباب. ودخلتُ مكاناً واسعاً ومفتوحاً بحجم قاعة رياضية. كانت هناك إضاءة تميل إلى اللون الأصفر القاتم؛ فالجدران مكسوّة بآجرّ أصفر، وتبدو مضيئة على نحو مُبهَم. شعرت لدى دخولي المكان بشعور مماثل إلى حد كبير للشعور الذي توحي به مدرسة نات الابتدائية: صف من المغاسل، مقصورات تمتد من الأرض إلى السقف مصنوعة من خشب البتولا الأبيض، وهي خزائن صغيرة للطلاب كما يبدو. كان هناك شاب يعمل عند مِسنَد الرسم الخاص به بجانب النوافذ. لقد أمضيت بالطبع سنوات عدة في الجامعة – وهو الوقت الأكثر سعادة في حياتي على الأرجح – ولكنني أشك في أن أكون قد دخلت مركز الفنون في السابق باستثناء قاعة الاستماع الملاصقة حيث كانت باربارا تصطحبني أحياناً لحضور بعض المسرحيات. لقد شعرت على الفور بالذهول بسبب وجودي هناك. كان من \الأفضل إرسال ليبرانزر، فكرت في سرّي. وتكلمتُ بعد ذلك.

«مارتي بوليموس؟».

والتفت فتى المِسند، وبدت أمارات القلق على وجهه.

«هل أنت من الشرطة؟».

«من مكتب النائب العام». ومددتُ يدي وعرّفته بنفسي. وألقى مارتي فرشاة الرسم من يده على الطاولة حيث وُضعت أنابيب الطلاء الأكريليّ وقناني الجَصّ البيضاء المستديرة بشكل عشوائي. والتقط طرف قميصه ليمسح يده قبل أن يصافحني. فما من شك في أنّ مارتي طالب فنون، وكثير البثور، ولديه شعر كَثّ وخُصل شعر نحاسية اللون طويلة وطليقة، وتنتشر بقع من الطلاء على ملابسه، ويوجد تحت أظفار أصابعه

الطويلة طلاء سائل.

«قالوا لي إن شخصاً آخر قد يكون راغباً في القدوم لرؤيتي»، قال لي مارتي. إنه متّقد الشعور وتوّاق إلى إسعاد الآخرين. وسأل إذا كنت أريد ارتشاف القهوة، وتوجهنا نحو إناء بجانب الباب في الناحية الخلفية من الاستوديو. فسكب مارتي كوبَين مليئَين مُزبِدَين، وكان عليه تركهما للبحث في جَيبه عن نقود من فئات صغيرة. في النهاية، وضعتُ رُبعَين داخل الصندوق.

«من الذي قال إن شخصاً آخر قد يكون راغباً في رؤيتك؟»، سألتُ بينما كنا واقفَين ننفخ على القهوة لتبريدها. «هل هي ماك؟».

«ريموند. السيد هوغان. هو من قال ذلك».

«آه». وساد صمت مُربِك. فمارتي من أولئك الأشخاص الذين يحبون التزام الصمت. وشرحت قائلاً إنني مساعد المدعي العام المكلّف بالتحقيق بمقتل والدته، وإنني حصلت على مواعيد حصصه الدراسية من خلال قيِّم السجل في المحكمة. الثلاثاء، بين الواحدة والرابعة بعد الظهر، في استوديو الفنون المستقل.

«أردت فقط التحقق مما إذا كنتَ راغباً في إضافة شيء ما».

«بالتأكيد. تماماً. كما تشاء»، قال مارتي. وعدنا إلى المرسم، وجلس على الحافة العريضة الناتئة تحت النوافذ. من هناك، يمكنكم رؤية خطوط سكة الحديد المجمعة وراء الجامعة فوق السطح المنتفخ للمدينة كندبة كبيرة ملموسة. ونظر الفتى في ذلك الاتجاه، وحدّقتُ أيضاً بالمنظر للحظات.

«لم أكن أعرفها جيداً»، قال لي. «سمعتَ بما جرى، أليس كذلك؟». وفي أثناء طرحه السؤال، تحركت عيناه بسرعة ولم أكن واثقاً مما إذا كان يفضّل أن أقول نعم أم لا. وعندما أقررت بجهلي للأمر، أومأ برأسه وأشاح بنظره.

«لم أرها منذ مدة طويلة»، قال ببساطة. «باستطاعة والدي أن يُخبرك بكل شيء إذا رغبتَ. اتصل به فحسب. قال إنه سيبذل قُصارى

جهده للمساعدة».

«إنه في نيوجرسي؟».

«تماماً. سأعطيك رقم الهاتف».

«فهمتُ أنهما مطلَّقان».

وضحك مارتي. «يا الله! آمل ذلك. لقد تزوج بوالدتي؛ أعني موربيل، ولكنني أدعوها والدتي باستمرار. لقد تزوّجا منذ خمسة عشر عاماً».

ووضع ساقَيه على حافة النافذة، ونظر إلى الخارج في أثناء تكلمه؛ إلى البُنيات المتعنقدة لحرَم الجامعة. وبعد أن اقترح عليّ الاتصال بوالده، أطلعني الفتى بنفسه على أحداث الماضي. لم يكن يشعر بالراحة، وشبك يديه ببعضهما كما لو أنهما أشلّتان. وروى القصة بشكل متقطع وغير منتظم. كان والده كينيث مدرّساً للّغة الإنكليزية في المدرسة الثانوية في بلدة صغيرة في نيوجرسي، وكانت كارولين تلميذته.

«قال والدي إنها كانت، في الواقع، جذّابة جداً. أعتقد أنه بدأ بالخروج معها بينما كانت لا تزال في المدرسة. أعني، كانا يتسللان معاً، أو ما شابه. إنه هادئ جداً، وأراهن على أنه لم يكن قد التقى فتاتَين بعد عندما التقاها. لم يُفصح عن هذا الأمر قطّ، ولكنني أراهن على ذلك. أعتقد أنه كان ذا عاطفة متّقدة، ورومانسياً حقيقياً». هنا، بدا الفتى تعيساً. فالفكرة التي يمتلكها عن كارولين غير واضحة، وهو لا يملك معلومات كافية تمكنه من تكوين رأي عن أحاسيسها.

«وكارولين، والدتي الحقيقية»، قال الفتى مقطّباً وجهه، «كان والدي يدعوها كاري. كان لديها كل أولئك الأشقاء إضافةً إلى والدها، ووالدتها متوفّاة. أظن أنها كانت تكرههم جميعاً. لا أعرف. كلهم يكرهون بعضهم. قال والدي إن والدها كان يمضغ القار بعيداً عن ناظريها. كانت سعيدة جداً بالابتعاد عنهم».

ابتعد الفتى من الحافة بشكل مفاجئ ودنا من لوحته، وكانت عبارةً عن بقعة حمراء تتحرك بشكل دائري. فنظر إليها شزراً، وتناول أحد

الأنابيب. كان يعتزم متابعة العمل في أثناء قيامنا بتبادل أطراف الحديث.

قال إنه لا يعرف كيف انفصل والداه بالتحديد. فعندما وُلد، كانت كارولين تحاول ارتياد الكلّية، وكانت حزينة بسبب اضطرارها للتخلي عن دراستها. كان لديها صديق وسيم، قال مارتي، وفقاً لما رواه والده الذي لم يُطل الكلام عن هذا الأمر. وكفّت والدته عن حبّ البلدة، ووالده، وحياتها، بسبب استيائها من أمور أخرى، كما شرح الوالد.

«يقول والدي إنها كانت صغيرة في السنّ عندما تزوجا، وكبرت وأرادت أن تكون شخصاً آخر، وحققت رغبتها. ويقول والدي إن فوضى عارمة حدثت، ورحلت ذات يوم، وإن ما حدث قد يكون في اتجاه الأفضل ربما. إنه ذاك النوع من الأشخاص، فهو يقول أشياء مماثلة ويعني ما يقوله».

لقد بدا هذا الوالد وفقاً لكلمات ابنه شخصية مماثلة لشخصية نورمان روكويل إلى حد ما. فهو حكيم ولطيف، يحمل نظّارته والصحيفة بيده. إنه رجل يمضي ليالي طويلة مفكراً في غرفة الجلوس، ومدرّس متفانٍ في سبيل طلابه باستمرار. لديّ ابن، قلت لهذا الفتى، وأحب التفكير بأنه سيشعر تجاهي على هذا النحو يوماً ما.

«لا فكرة لديّ عمّن قتلها»، قال لي مارتي بوليموس فجأةً. «أعني، أفترض أنك قدمت لهذا السبب».

لماذا قدمت؟ تساءلت. لرؤية ما كانت تُخفيه، كما أفترض، أو لرؤية ما كانت لا تأبه بالتحدث عنه، وللحد أكثر فأكثر من ظنّي بأن علاقتنا كانت صداقة حميمة.

«هل تعتقد أن من قتلها شخص تعرفه؟»، سأل. «أعني، هل لديك طرف خَيط أو أيًا يكن اسمه؟ إلماعات؟».

لقد أجبته بالنفي، ووصفت الحالة الملتبسة للدليل: النوافذ غير المُقفَلة، والكأس. وجنّبته وصف الحبال، وحالة السائل المَنوي. فهي والدته بالرغم من كل شيء، وشعرتُ بالحاجة إلى العناية به والاهتمام به. لم أشك قطّ في أن نظرة مارتي المُرتبكة والغاضبة غير مرتبطة

بالأحداث الأخيرة. في الواقع، هناك ما يجعل الأمر يبدو كما لو أنه يعتبر نفسه، وإلى حد كبير، غريباً عن كل ذلك.

«نظرت كارولين في العديد من قضايا الاغتصاب»، قلت. «يعتقد البعض أن القاتل أحدُ الذين أُدينوا بتهمة الاغتصاب ربما».

«ألا تظن ذلك؟».

«المجرمون لا يكونون غامضين في العادة. في هذه المدينة، وفي أيامنا هذه ينتمي نصفهم إلى عصابات. وفي كل القضايا الأخرى تقريباً، يعرف القاتل والضحية بعضهما بشكل جيد. ونصف الجرائم تقريباً تقع بسبب إخفاق في العلاقات الغرامية: زواج على شفير الهاوية، مُحبّين تعيسين؛ ذلك النوع من الأمور. ويكون هناك انفصال من نوع ما عادةً في الأشهر الستة الأخيرة. بشكل عام، يكون الحافز جليًّا».

«كان لديها الكثير من الأصدقاء»، قال مارتي من تلقاء نفسه.

«حقاً؟».

«أظن ذلك. أعني أنها لم تكن تريدني أن أكون برفقتها في كثير من الأحيان حين كنت أتصل بها. في الواقع، يمكنني التأكيد على وجود شخص آخر هناك. لم أتمكن من اكتشاف ما يحدث معها. أعتقد أنها كانت تحب أن تكون لديها أسرارها». وهزّ كتفَيه. «أعني، ظننتُ أن باستطاعتي معرفتها عن كثب. لذلك قدِمتُ إلى هنا. كان والدي يحاول إثباط عزيمتي باستمرار، ولكنني ظننت أن الأمر قد يكون رائعاً. لم أعُد مهتماً كثيراً بالكلّية في الوقت الحاضر، على كلّ حال. تصورتُ أنه بذهابي إلى الكلّية، لا يختلف الأمر بين مكان وآخر. ولكن ثبت أنني كمن يرسب في كل شيء بأي طريقة».

«حقاً؟».

«ليس كل شيء. لا أستطيع فهم الفيزياء. لا أستطيع فهم هذه المادة في الواقع. صِدقاً، أنا أرسب فيها».

ودخلت فتاة ترتدي كنزة قطنية مماثلة لتلك التي يرتديها الناس في أثناء قيام فرقة روك بجولة عالمية، وسألتُه عما إذا كان قد صادف

شخصاً يُدعى هارلي. فأجاب مارتي بالنفي. كان بالإمكان سماع موسيقى صادرة عن جهاز استيريو في الرواق عندما دخلتْ من الباب وخرجتْ منه. وبدّل الفتى الفرشاة، واقترب من قماش الرسم عدة بوصات. كانت ضرباته صغيرة ومكتئبة.

وواصل حديثه عن كارولين.

«لقد علمتُ بوجودها هنا منذ سنوات. وبدأتُ بتوجيه الرسائل لها. وعندما تمكنتُ من استجماع شجاعتي، اتصلت بها عبر الهاتف. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي أرغب فيها بالتحدث إليها. كانت تتصل بي بين فترة وأخرى. وتعددت اتصالاتها بعد ذلك، وبدا الأمر كما لو أنها تريد القيام بذلك في أيام الإجازة فقط. على كل حال، كانت خطوة سارّة من قِبَلها. سارّة حقاً. آه، حسناً، كان الأمر ممتعاً. لا لا، تا تا. كان لطيفاً جداً»، قال، وأومأ برأسه لنفسه. «مؤنِساً. هذه هي الكلمة، أليس كذلك؟».

«تماماً»، قلت.

«كنت أراها كثيراً أيام الآحاد. لقد التقيت أشخاصاً برفقتها مرةً واحدة أو مرتين... عندما يبدو لها أنها تقوم بالصواب، كما أعتقد. في الواقع، هكذا عرّفتني إلى السيد هورغان».

كانت التيارات العاطفية قوية هنا. وبدا لي أنه من الأفضل ترك الفتى وشأنه أيًا تكن رغبتي في طرح أسئلة عليه.

«أعني، كانت شديدة الانشغال. كانت لديها مهنة وكل شيء. أرادت الترشح لانتخابات النائب العام ذات يوم. هل كنت تعرف ذلك؟».

وترددتُ وقتاً أطول مما يُفترض بي، حتى وإن كانت هذه المحادثة صعبة. ربما كشفت نظراتي المعبّرة عن كَرب لأن الفتى نظر إليّ بغرابة. فقلت له أخيراً إن مكتب النائب العام مليء بأشخاص يطمحون إلى تحقيق ذلك في المستقبل. ولكن هذا الأمر لم يردعه.

«هل كنت تحب أن تعرفها حق المعرفة؟ أعني، هل عملتَ معها

أو ما شابه؟».

«أحياناً»، قلت، ولكنني أدركت من تحديقه المطوَّل بي أنني أخفقت في التعبير عن رأيي بشكل غير مباشَر. «كنتَ تخبرني عما جرى عندما رأيتَها».

تريّث قليلاً، ولكنه كان معتاداً على التعامل مع الناضجين، وركز انتباهه على فرشاته، فاركاً إياها داخل صينية بلاستيكية صغيرة. وتحركت كتفاه قبل أن يتكلم.

«لم يحدث الكثير»، قال، ومن ثم أعاد رأسه إلى الوراء، والتفت إليّ مباشَرةً.

«أعني أنها لم تتحدث قطّ عن الأمر آنذاك»، قال لي، «عن الفترة التي كنت فيها طفلاً. أفترض أنني كنت أتوقع منها أن تتطرق إلى الموضوع. ولكنني أعتقد أنها لم تشأ الكشف عن ذلك الجزء من حياتها. لم تكن تحب قول أي شيء».

فأومأت برأسي، ولزمنا الصمت للحظات، ناظرَين إلى بعضنا. والتمع في عينَيه ثانيةً ذلك الوميض المتسارع.

«لم أشكل أي فارق بالنسبة إليها. هل تعرف ذلك؟ كنت أحبها ولكنها لم تكن تهتم. لذلك، لم يشأ والدي العجوز أن آتي إلى هنا. أعني، لقد أمضى كل تلك السنوات مبرِّراً أعمالها، وقائلاً إنها تمرّ في مرحلة لن تلبث أن تنقضي. لم يشأ قطّ أن أشعر بأنها غادرت بسببي. ولكنه كان يعرف ما الذي يجري». ورمى الفرشاة من يده. «إذا كنت تريد معرفة الحقيقة، لقد طلب مني السيد هورغان حضور المأتم. لم أكن أعتزم حضوره. لم أشعر بالرغبة في ذلك. إنها والدتي. يا للأمر الرهيب! أليس كذلك؟».

«لا أعرف»، قلت. وأنزل قماش الرسم، وحدّق إليه بالقرب من قدمَيه. لقد عرف سبب مراقبتي له عن كثب كما يبدو، ورحّب بذلك. إنه شاب، فكرت في سرّي. هذا الفتى مُحِبّ بالرغم من شعوره بالانزعاج. فتكلمتُ بهدوء.

«توفيت والدتي عندما كنت في كلّية الحقوق»، قلت. «في الأسبوع التالـي، مـررتُ لرؤيـة والدي. لم يسـبق لي أن قمـت بذلك، ولكنني تصوّرتُ أنه في ظل هذه الظروف -» وأومأتُ بيدي. «على كل حال، كان يستعدّ للمغادرة ونصف أمتعة المنزل موضوعة في صناديق. فقلت: يا أبي، إلى أين تذهب؟ قال: إلى أريزونا. لقد ثبت في ما بعد أنه اشترى قطعة أرض وعربة مقطورة، ولم يُخبرني بأي شـيء عن الأمر. ولو لـم أمـرّ بالمنـزل في ذلك اليوم لغـادر البلدة بالتأكيد من دون إلقاء تحية الوداع. واسـتمر الوضـع بيننا على هذه الحال. أحياناً، تجري الأمور بين الأهل والأبناء على هذا النحو».

ونظر الفتى في اتجاهي لفترة طويلة، مندهشاً بصراحتي أو بالأمور التي نتحدث عنها.

«وماذا تفعل في هذا الشأن؟».

«تحـاول أن تكبـر»، قلت، «بطريقتك الخاصـة. لديّ هذا الابن، وهو العالم بالنسبة إليّ».

«ما اسمه؟».

«ابني؟».

«أجل».

«نات».

«نـات»، قـال ابـن كارولين. ونظر إليّ مجدداً. «هل كانت تعني لك شيئاً، على كل حال؟ أعني، لا يقتصر الأمر على العمل فقط، أليس كذلك؟ هل كانت بمثابة صديقة لك أيضاً؟».

كنت على ثقة بأنه رأى خاتم زفافي. لقد بدا إيماؤه بذَقنه في اتجاهي فـي أثنـاء طرح هذا السـؤال كما لو أنه يشـير في اتجـاه الخاتم، ولكنني شعرت باستنفاد كل الوسائل مع هذا الفتى الحساس واللطيف.

«أخشى أنها كانت صديقتي أيضاً في مرحلة من المراحل. في أواخر العام الماضي»، قلت. «لمدة قصيرة فقط».

«أجل»، قال الفتى وهزّ رأسـه باشـمئزاز حقيقي. كان ينتظر لقاء

شخص ما لم تخدعه، وليس هناك من يستطيع أن يدّعي ذلك.

«عندما أُطرد من الكلّية»، قال لي، «سأعود إلى مسقط رأسي».

كانت وطأة هذا الإعلان عليّ كافية لأعتبر أنه اتخذ للتوّ قراراً في شأن هذه المسألة، ولكنني لم أجب. فهو لم يكن بحاجة إليّ لأقول له إنه مُحِقّ. وابتسمت بحرارة، آملاً أن أتمكن من التعبير عن إعجابي به. ومن ثم غادرت.

8

«فــي هــول»، قــال ليب مشــيراً إلى ماك غراث هــول؛ مقر قيادة قســم الشــرطة، «يدعون هذا الأمر مهمة مســتحيلة». كان يقصد تحقيقنا فــي مقتــل كارولــين. «هكذا يتحدث رجل المباحث، ما الجديد في شــأن المهمــة المســتحيلة؟ كمــا لــو أن أحداً لن يحلّ أبــداً هذا اللغز اللعين. ليس فــي الوقــت المحــدد كما يرغب هورغان. لم يكــن يُفترض به أن يوحي للصحافة بأننا قادرون على التوصل إلى نتيجة ما بسرعة. كان يُفترض به التقليل من أهمية الأمر، وإجراء أربعين مقابلة صحافية حول الجهود المضنية التي نبذلها».

كان فــم ليــب مليئــاً بالخبز وصلصــة حمراء، ولكــن ذلك لم يمنعه من التذمر. كان شــديد الانزعاج فيما كنا نقف أمام قطعة أرض فارغة وموحشة إلى حد ما تحت جسر الطريق العام، حيث تتناثر على الأرض غير المســتوية قطع من الإســمنت المحطَّم التي تنتأ منها أســلاك معدنية صدئة، إضافةً إلى نفايات عادية أخرى: قنانٍ، صحف، قطع سيارات. وهناك أيضــاً كمية من الكُرات المصــنوعة من الورق المشمَّع، وأكواب مسحوقة رماها الزبائن العديدون الذين سبقونا وحصلوا على شطائر من مطعــم جياكالــون القائــم في الناحية المقابلة من الشــارع. إنه أحد أماكن ليب المفضَّلة، وهو كشك إيطالي يُقدّم قطعة كاملة من لحم العجل المُشبَّع بصلصــة المارينــارا. فليبرانزر يحب تنــاول الطعام الثقيل على الغداء، وهو رد فعل العازب على عدم ارتياحه إلى نوعية العشــاء. كانت قنّينتا المشــروب غير الكحولي موضــوعتَين على بقايا مقعد عام لا ظهر له، ووضــع كل منا إحدى قدمَيه عليه. لقد حفر أفراد عصــابات الشــوارع والمراهقون أسماءهم على الألواح الخشبية السميكة للمقعد المتهالك.

وتبادلنا المعلومات في أثناء عودتنا إلى ســيارة ليب. فأخبرته عن

زيارتي للفتى، وواقع أنها لم تؤدِّ إلى أي دليل هام. وناقش ليب نشاطاته الأخيرة؛ إذ أجرى مقابلة مع الجارة التي قالت إنها تعتقد أنها رأت رجلاً غريباً.

«السيدة كرابوتنيك»، قال ليب. «قد نتمكن من حل لغز الجريمة من خلالها». وهز رأسه. «سوف تلقي نظرة على صور الأشخاص المتوافرة لدينا، ولكن يتعيّن عليّ أولاً الحصول على سدّادتين لأُذُنَيّ».

«ماذا عن الفهرس؟»؛ الفهرس هو ملف المعتدين الجنسيين.

«لا شيء»، قال ليب.

«لا شيء عن الحبال؟».

«قالت لي السيدة التي تحدّثت إليها إنها قرأت أمراً مماثلاً في أحد الكتب. يا الله! هل يمكنك أن تتخيّل ما تقرأه؟ إنها منسجمة جداً مع ما تقوم به».

كان ليب يمتلك سيارة شرطة رسمية، وهي ذهبية اللون من طراز أريس، ولا يمكن تمييزها إلا من خلال إطاراتها ولوحة التسجيل التي تبدأ كغيرها من السيارات المماثلة بحرفَي زد وأف، مما يجعلها معروفة بالنسبة إلى مجرمي المدينة كافة، لا بل بالنسبة إلى أولئك الأقل خطورة أيضاً. وانطلق ليب بأقصى سرعة. فرجال الشرطة، وسائقو سيارات الأجرة، والأشخاص المقيمون في سياراتهم، يقودون دائماً على هذا النحو. وانعطف عند أحد المفارق متمايلاً، وسلك أحد الطرقات المختصَرة العديدة للعودة إلى وسط المدينة، ولكنه أُجبر على عبور كينبارك، وهو الشارع الرئيس للحيّ الذي كنت أقطن فيه. كانت حركة المرور المحوَّلة كثيفة، فتقدّمنا ببطء شديد على الجادّة. ها هو، قلت في سرّي، ها هو. فنسييه ميلوز الذي اشترى المخبز بعد مغادرة والدي لم يغيّر اللافتة قط، وما زالت تحمل كلمة سابيتشز بخط سميك بلون البحر الأزرق.

وبالرغم من عملي اليومي هناك، لم أتذكر سوى بعض التفاصيل الموجودة في الداخل: الباب الفاصل، رفوف الصّينيات المعدنية الزرقاء

وراء المنضـدة، آلـة تسـجيل النقود الفولاذية الثقيلـة مع رنينها الكامل.
عندمـا كنـت في السادسـة من عمري، كان حضـوري أمراً مطلوباً في بادئ الأمر. فأنا أملك يدَين، ولم أكن موظَّفاً أو أتقاضـى أجراً، وكان يُطلـب منـي تكديسـ علب الحلـوى ذات الجوانب البيضـاء، فأنقل اثنتَي عشرة علبة في كل مرة من الطابق السفلي المليء بخيوط العنكبوت إلى المتجر. وبما أن الصناديق شديدة النعومة وزَلِقة ومتينة، تكون حافاتها حادة جداً على غرار أدوات المائدة الأكثر حدة؛ لذا غالباً ما كنت أجرح بُرجُماتي ورؤوس أصابعي. لقد تعلّمت أن أخاف التعرض لهذه الجراح لأن والدي يعتبر وجود أثر للدماء على الناحية الخارجية من الصناديق فضـيحة. «لسـنا في ملحمة». وتكون هذه الملاحظة مُرفَقة بنظرة تجمع بين الاشمئزاز والنفور بنِسَب مخيفة. وعندما أحلم بتلك الأزمنة، أتذكر الصيف باستمرار، وهواء هذا الوادي المماثل لهواء المستنقع الذي تدفعه حرارة الأفران الجافة في اتجاه المتجر. وأحلم ببشـرتي الزَّلِقة بسـبب التعرّق، وبمناداة والدي لي، وبسقوط قطعة من الحلوى على الأرض، ويكون خوفي كمادة حمضية تُتلف عروقي وعظامي.

كان وجه والدي قبيح المظهر، وقلبه كقلب تنّين، وقنوات أحاسيسه ملتفَة على بعضـها بشـكل معقَّد، وشـديدة التخثّر، ومحشـوّة بالضغينة، ولا تسمح له بأن يشعر بأي إحساس تجاه أي طفل. فعلى غرار الشقة، وجدرانهـا وصـورها، والأثـاث الـذي حطَمه، اتّضـح أن والدي كان يعتبرني من مقتنيات والدتي. لقد نشـأتُ مع ما بدا أنه اسـتنتاج بسـيط: والدتي تحبني، ووالدي لا يحبني.

لقد حصـل على ما يُرضـي طموحه الخالي من أي مشـاعر: فتح المتجر، إشعال الفرن، رفع الظُلّة، ودفع الغبار خارج الباب في نهاية اليـوم. لقـد امتهنتْ عائلته العمـل في المخابز طوال أربعة أجيال، وقام ببسـاطة بمـا تعلّـم القيام به. كان منهاج عمله دقيقـاً، وقواعده ثابتة. لم يحاول قطّ التأثير على زبائنه؛ كان انعزالياً ولا يملك حس الفكاهة. في الواقع، لقد اعتبر كل شـخص يدخل متجره عدوًّا محتمَلاً، أو متذمّراً،

أو محتالاً، أو مداهناً، أو يريد تسديد ثمن الخبز الذي اشتراه في اليوم السابق. ولكن مدخوله ثابت على الدوام: لقد عُرف عنه إمكانية الاعتماد عليه؛ كان يرتاب بالموظفين ويقوم بعمل شخصَين على الأقل.

لقد قدم إلى هذا البلد عام 1946، وأُطلق عليّ اسم البلدة التي نشأتُ فيها، وهي قرية تبعد عن بلغراد مسافة مئتَي ميل. كان الجميع هناك محاربين موالين للنظام. وعندما دخل النازيون البلد عام 1941، وُضع البالغون قرب جدار مبنى المدرسة وقُتلوا رمياً بالرصاص. وتُرك الأبناء لمصيرهم. وهام والدي على وجهه مع فرقة موسيقية في الجبال طوال ستة أشهر تقريباً قبل أن يتم إلقاء القبض عليهم، ولم يكن قد بلغ الثامنة عشرة من عمره بعد، ولديه وجه غير قاسٍ بما يكفي للإعفاء عنه. وقضى بقية الحرب في المعسكرات؛ في معسكرات العمل النازية في بادئ الأمر، وفي معسكرات الحلفاء لإيواء النازحين بعد التحرير. وتدبّر أنسباؤه هنا أمر دخوله البلد، ممارسين الضغط على عضو الكونغرس عن المقاطعة وهيئة موظفيه المحليين بشكل مستمر وبطريقة غريبة. فوالدي هو أول النازحين الذين سُمح لهم بدخول الولايات المتحدة. وبعد عام من وجوده هناك، كفّ عن التحدث إلى شقيقة جدّي وأنسبائي الذين عملوا بجهد لإنقاذه.

لدى سماعي المقطوعة الموسيقية غير المستساغة لأبواق السيارات، نظرت إلى الوراء لمعرفة ما يجري. كان رجل أبيض في السيارة الموجودة خلفنا يضرب بيده على عجَلة القيادة بقوة، ويوجّه لي إيماءات عدوانية، وأدركت أخيراً أن ليب قد تسمّر في مكانه بسبب حركة السير. فاعتبرتُ أن السائق يستهدف السيارات الأمامية، وعندما استدرتُ لتحديد خط نظره، نظر إلى مكان آخر، وبذل جهداً للتمعّن بحركة المرور.

«وصل تقرير الشعر والألياف»، قال ليب أخيراً. لم تكن عيناه الكئيبتان ووجهه بخدَّيه العاليَين تُظهر أي شيء. كان هادئاً كالبركة.

«أخبرني»، قلت، وروى لي ليب بامتثال محتوى التقرير. وُجدت على ملابس كارولين ألياف بالغة الصغر لسجادة لم يُعثر عليها في شقتها

– اسـمها زوراك في. إنها اصـطناعية ومحلّية الصـنع. ويدعى لونها سـكوتيش مالـت، وهـي درجة اللون الأكثر شـعبية. لـم يكن بالإمكان التعرف إلى نوع الصباغ، وقد تكون الألياف مُحاكة صناعياً أو يدوياً. ووفقاً لهذه المعلومات، هناك على الأرجح خمسون ألف منزل ومكتب فـي مقاطعـة كيندل يمكن أن تكون مصـدراً لألياف السـجادة. ولم يكن هناك أي شعر أو جزيئات بشرة على أصابع كارولين أو تحت أظفارها، مما يؤكد عدم حدوث صراع قبل تقييدها، والشعر البشري الوحيد الذي عُثر عليه قرب الجثة، ولا يحمل درجة لون شعر كارولين، أنثوي وهو بالتالي قليل الأهمية. والحبل الذي قُيِّدت به حبلُ غسيل عادي، أميركي الصنع، يباع في فروع كيه مارت، وسيرز، ووالغرينز كافة.

«لا تحملنـا هـذه المعلومات إلى مراحل متقدمة في التحقيق»، قلت لليبرانزر.

«ليس إلى مراحل متقدمة»، أجاب. «نعلم على الأقل أنها لم تمسك بأحد».

«يـا للغرابـة!»، قلـت. «أواصـل التفكيـر بما قلناه في الأسـبوع الماضـي. كيف يمكن أن يكون القاتل شخصـاً تعرفه؟ أتذكّر أنني عندما كنت في كلّية الحقوق اطّلع الجميع على قضية ذلك الشخص الذي رفضت الشركة المؤمِّنة على حياته دفع قيمة التأمين. لقد تقدّمت أرملته بدعوى قضائية، ولكن ثبُت في النهاية أن هذا الشخص هلك في أثناء قيامه بشنق نفسه. وهناك أدلة على ذلك: وضع رأسه داخل أنشوطة الحبل، وأمور أخرى كسقوطه عن الكرسي بدلاً من الوقوف عليه».

«يا لهذه الحادثة!»، وضـحك ليبرانزر بأعلى صـوته. «من فاز بالقضية؟».

«شـركة التأمين كما أذكر. لم تعتبر المحكمة أن بوليصـة التأمين تغطـي الحادثـة. على كل حال، ربما كان مقتل كارولين بسـبب حادث مماثل. أنت تعرف غرابة أطوار السـاعين إلى النجاح والشـهرة؟ أفكر في هذا الاحتمال أكثر فأكثر».

«كيف انتهى بها الأمر ميتة بسبب تلقّي ضربة؟».

«ربما شعر الشخص المتعاون معها بالذُعر. لقد ظن أنه صرعها. لقد تخيّل أن حادثة جون بيلوشي تتكرر، فشرع بتغيير معالم الحادثة».

وهز ليب رأسه. لم يُعجبه الأمر.

«أنت تذهب بعيداً في تحليلاتك»، قال. «لا أعتقد أن التقرير الذي وُضع عنِ مسار الحادثة يدعم تصوّرك».

«سأثبت تصوّري من خلال بينلس، على كل حال».

لقد ذكّر ذلك ليبرانزر بأمر آخر.

«اتصل بي بينلس منذ يومَين. يقول إنه تلقى تقريراً من عالِم الكيمياء الجنائي. لقد جعلتني المعلومات التي أبلغني إيّاها أدرك أننا لم نحقق تقدماً كبيراً، ولكن يمكنك الحصول على التقرير عندما تعود إلى هناك. عليّ أن أتوجّه غرباً اليوم لأُري السيدة كرابوتنيك بعض الصور». وأغمض عينَيه وهز رأسه كما لو أنه يحاول ربما تحمّل الفكرة.

عدنا إلى وسط المدينة، وأبطأ ليب السرعة، ودخلنا أول موقف مفتوح لسيارات الشرطة، وشققنا طريقنا عبر حشود فترة الظّهيرة في اتجاه مبنى المقاطعة. كان الربيع يتحول بسرعة إلى صيف كما يحدث في غالب الأحيان، وباستطاعتكم شمّ الرائحة البلسَمية التي تبلغ ذروتها بعد شهر أو شهرين. لقد أوحت الرائحة لبعض السيدات المارّات على الجادة بأزياء صيفية، وملابس من دون أكمام، وأقمشة موسمية ملتصقة بالجسم.

«يا أخي»، قلت لليب فجأةً، «ما زلنا في الواقع لا نملك أي دليل».

فأصدر صوتاً. «ألم تحصل على تقرير مختبر بصمات الأصابع بعد؟».

فأقسمت. «كنت أعرف أنني نسيت شيئاً».

«أنت شخص غبيّ رفيع المقام»، قال. «لم يسلّموني التقرير. لقد طلبت منهم ذلك مرتَين».

ووعدتُ بالمرور إلى المختبر بعد أن أقابل بينلس في ذلك اليوم

أو في اليوم التالي.

عندما عدنا إلى مكتبي، طلبت من أوجينيا التوقف عن تحويل الاتصالات الهاتفية لي، وأقفلتُ الباب، وسحبتُ من دُرجي الملف **بي** الذي أعطاني إياه هورغان.

فتمعّن به ليب للحظات.

يتألف الملف **بي** برمّته، كما تسلّمته من ريموند، من بيان يظهر على الشاشة عندما يتم إنزال القضية على الكمبيوتر الخاص بنا، ومن صفحة واحدة من الملاحظات المتفرّقة بخط يد كارولين، وصورة مستنسَخة لرسالة طويلة. ولا يوجد في الملف ما يشير إلى استلام الرسالة الأصلية، أو إن كانت هذه النسخة هي كل ما هو متوافر. والرسالة مطبوعة على آلة كاتبة ونظيفة، ولكنها لا تزال تبدو غير احترافية. فالهوامش ضيّقة، وهناك مقطع واحد فقط. فالكاتب يجيد استخدام الآلة الكاتبة، ولكنه لا يقوم بذلك في غالب الأحيان كما يبدو. ربما كانت سيدة منزل، أو رجلاً محترفاً.

كنت قد قرأت هذه الرسالة أربع أو خمس مرات، ولكنني قرأتها مرة أخرى، متناولاً كل صفحة ينتهي ليب من قراءتها.

عزيزي السيد هورغان:

أكتب لك لأنني من المعجَبين بك منذ عدة سنوات. أنا على ثقة تامة بأنك لم تكن تعرف شيئاً عن الأمور التي تحملني على كتابة هذه الرسالة. في الواقع، أعتقد أنك سوف تكون راغباً في القيام بشيء ما حيالها. قد لا يكون هناك ما يمكنك القيام به بما أن كل ذلك قد حدث منذ مدة طويلة. ولكنني أظن أنك ستودّ معرفة ذلك. حدث ذلك عندما كنتَ نائباً عاماً، والأمر مرتبط نوعاً ما بشخص عمل لديك؛ مساعد للنائب العام أعتقد أنه كان يتلقى رشاوى. ففي فصل الصيف قبل تسعة أعوام، تم إلقاء القبض على شخص سأدعوه نويل. ليس نويل الاسم الحقيقي لهذا الشخص. ولكن، إذا أطلعتك على اسمه الحقيقي فأنت ستقصده أولاً للتحدث إليه عن الكثير من الأمور التي أذكرها في هذه الرسالة، وسيفكر

بذلك وسيعرف أنني بلّغت عنه، وعندها سيلحق بي الأذى. صدّقني، أعرف حق المعرفة ما أتكلم عنه. سيجعلني أندم على ما قمتُ به. على كل حال، تم اعتقال نويل. وصودِف أنني لم أعتبر سبب الاعتقال هاماً في الواقع، ولكنني أقول لك إنه أمر حمله على الشعور بإحراج كبير لأنه من ذلك النوع من الأشخاص. لقد اعتقد نويل أنه إذا قام الأشخاص الذين عمل معهم وسكن معهم باكتشاف الأمر، فلن يلوموه على أي شيء. إنهم أصدقاء رائعون، ولكنه نويل. وقال له المحامي الذي عُيِّن للدفاع عنه إنه يُفترض به الاعتراف بذلك أمام المحكمة لأن شيئاً لن يحدث ولن يعرف أحد بالأمر. ولكن نويل مصاب بالذُّهان الارتيابي، فشرع بإخبار الجميع بما قد يحدث إذا اكتشف أحد الأمر. وسرعان ما بدأ يتحدث عن كيفية قيامه بتسديد الدَّين لشخص ما. لقد ظننت في بادئ الأمر أنه يقول ذلك على سبيل الدُّعابة. فنويل ينزل إلى مستوى أي شيء، ولكن ذلك لم يكن من شِيَمه. لو كنتَ تعرفه لفهمتَ السبب. ولكنه واصل إخباري بأنه سيسدد الدَّين، وسيكلّفه الأمر 1500 دولار. أنا على عِلم بكل ذلك، وباختصار، أنا من أعطاه المال. وبما أن نويل هو من هو عليه، فقد ظننت أنه من الأفضل التحقق من إنفاقه المال كما يجب لبلوغ الهدف الذي ادّعى أنه يريد تحقيقه. فرافقته إلى الفرع الشمالي في رانيون وإلى المكتب 111. هناك، لم ننتظر قطّ لأن السكرتيرة التي رافقتنا إلى مكتب النائب العام في الطابق السفلي تعرف نويل كما يبدو. الاسم، ريموند هورغان، كان مكتوباً على الباب، كما أذكر. وطلب مني نويل الانتظار خارجاً. كنت خائفاً جداً آنذاك، ولكنني شعرت بالغباء لأنني أردت مرافقته إلى هناك لرؤيته يعطي المال لشخص ما. ولكن، على كل حال، خرج بعد دقيقتين. كان قد وضع كل المال في جَورَب (لا أمازحك!)، وعندما خرج رأيتُ الجَورب فارغاً. كنت على وشك الركض إلى الخارج، ولكن نويل كان هادئاً جداً. وسألته في ما بعد عما حدث. لم يكن نويل يحب التكلم عن هذا الأمر مطلقاً. وقال إنه يحميني، وهذا أمر مُضحك. فأنا على ثقة تامة بأنه كان يعتقد أنني سأطالبه بالمال

عاجــلاً أم آجــلاً إذا لــم أنسَ هذا الأمر. على كل حال، قال إن الفتاة قد أدخلتــه إلــى المكتب وطلبت منه الانتظار أمام طاولة هناك. وبعد ذلك، تكلّم رجل خلفه. لقد طلب من نويل وضع ما يحمله في الدُّرج الأوسط مــن الطاولــة والمغــادرة. قال نويل إنه لم ينظــر إلى الوراء قطّ. وبعد عشــرة أيــام، كان علــى نويــل الذهاب إلى المحكمــة. كان ينطق تقريباً بأمور ســخيفة، ويســتمر بالقول إنه سيتم الإيقاع به، ولكن عندما وصلنا إلى هناك، أخبر المحامي المكلَّف من قِبل النائب العام القاضــيَ بأنه تم صــرف النظر عن القضــية. لقد حاولت مراراً وتكراراً تذكر اســم هذا المحامــي بــدون جدوى. وســألت نويل مرةً واحدة أو مرتَين عن اســم الرجل الذي يرشوه، ولكنه لم يرغب قطّ في التحدث عن هذا الأمر، كما قلت، وكان يطلب مني الاهتمام بشؤوني. لذلك، أكتب لك هذه الرسالة.

لم أرَ نويل منذ عامَين تقريباً. بصدق، ليس هذا الأمر أسوأ ما قام به إذا كنتَ تصــدّقني، ولكنه في الواقع الشــيء الوحيد الذي رأيتُه بنفســي يقوم به. أنا لا أحاول العثور على نويل، ولكنني اعتبرت أن مســاعد النائب العام مخطئ في الواقع بتقاضي هذا المال واستغلال الناس بهذه الطريقة، وأردت أن أكتب لك علّك تتمكن من القيام بشيء ما. لقد قال لي شخصان أطلعتهما على هذه القصة، ولا أريد ذكر اسمَيهما، إنك لا تستطيع القيام بأي شيء حيال أمر قديم بسبب انقضاء المهلة القانونية، ولكنني أتصور أنهــا ليســت المــرة الوحيدة التي يحدث فيها أمــر مماثل، وربما ما زالوا يقومــون بالأمــر نفســه. فــي الواقع، أتمنى أن يكون مــا كتبتُه للتوّ غير صــحيح. آمل أن تعثر على نويل أيضــاً، ولكنني لا أريد أن يعرف أنك وصــلتَ إليه من خلالي. وإذا وصــلتَ إليه من خلال شــخص آخر، فأنا أرجوك (رجاءً!) ألاّ تطلعه على هذه الرسالة. أنا أثق بك.

لم تكن الرسالة موقَّعة بالطبع. فمكتبنا يتلقى رسائل مماثلة كل يوم، ويتولى مساعدان مهمة الرد على هذا النوع من الرسائل، والتحدث إلى أشخاص متنوعين غريبي الأطوار يدخلون شخصياً إلى منطقة الاستقبال. وتبقى المسألة الأكثر جدّية هي تلك المتمثلة بعلاقة هذا الشخص بريموند.

حتى تلك المرحلة، اعتُبر الكثير من المعلومات التي تم جمعها تافهاً. ولكن هذه المعلومة تبدو واقعية بالرغم من كونها مُضحكة. فمن الممكن، بالطبع، أن يكون مُعطي التلميحات السرية قد تعرّض للخداع من قِبل صديقه نويل. ولكن الشخص الذي كتب الرسالة كان في أفضل موقع لإصدار حكم في هذا الشأن، ولم يظن كما يبدو أن صديقه قد خدعه.

فسواء أكانت خدعة أم لا، فمن السهل اكتشاف سبب عدم رغبة ريموند هورغان بتداول هذا الملف في عام انتخابي. فسوف يكون نيكو راغباً في الحصول على دليل من أي نوع مرتبط بجرائم قيد التحقيق ارتُكبت في عهد ريموند. وكما يظن كاتب الرسالة، من غير المحتمَل أن تكون مسألة ذاك الصديق نويل حدثاً منعزلاً. فما نملكه بين أيدينا فضيحة من الدرجة الأولى: عصابة للرشو غير ملحوظة. والأسوأ من ذلك أنها غير معتقَلة، وتعمل في إحدى المحاكم الفرعية.

وأشعل ليبرانزر سيجارة. لقد لزم الهدوء لفترة طويلة.

«هل تظن أن كل الأمر هراء؟»، سألت.

«لا»، قال. «هناك أمر ما. قد لا تكون الحال كما يظن واضع الرسالة، ولكن هناك أمر ما».

«هل تعتقد أنه أمر يجدر بنا التأكد منه بعناية؟».

«لا ضَير في ذلك. لا نملك خيوطاً كافية لحل اللغز».

«هذا ما فكرتُ به. لقد تصوّرتْ كارولين أن هؤلاء الأشخاص شاذون»، قلت. «أظن أنها كانت على الطريق الصحيح ربما». وأشرتُ إلى ملاحظاتها. فهناك رقم المقطع الذي يحتوي على مختلف البنود الشرطية لفصل القانون الجنائي الذي ما زال يحمل عنوان أخلاق الشخص، وتوجد علامة استفهام بجانبه. «هل تذكر الغارات على الغابة العامة؟ كنا نلقي القبض على مجموعات كبيرة من أولئك الأشخاص، وتُحال القضايا إلى الفرع الشمالي، أليس كذلك؟».

وأومأ ليب برأسه؛ فكل الوقائع مطابقة: الطبيعة المُحرِجة للجريمة، والحماسة المُفرطة لإخفائها، والتوقيت الصحيح. ففي أثناء إدارة ريموند

الأولـى، تـم تجاهـل جرائـم جنسـية ارتكبهـا بالغون. فقـد كان رجال الشـرطة ينقلون لنا القضـايا ولكننا حوّلناها إلى الآخرين متخلّصـين من عبء المسـؤولية. وعندما بدأ ريموند حملة إعادة انتخابه، كانت بعض المجموعات، والبغايا والشـاذون بصـفة خاصـة، في ازدهار ولا يمكن ضـبطهم إلى حد كبير. والمشـكلة كبيرة مع الشـاذين في الغابات العامة التي تطوّق المدينة، ولم تكن العائلات تقصد هذه الأماكن في فترة الظُّهر خلال أيام نهاية الأسـبوع خوفاً مما قد يتعرّض له أبناؤهم. وتمّ التقدم ببعض الشكاوى المفصَّلة نوعاً ما حول ما يجري في وضح النهار على طاولات النزهات التي كانت تشير إليها موم، وحيث من المفترَض تناول الطعام. ومع بقاء تسعة أشهر على موعد الانتخابات، قمنا بحملة تنظيف منسَّـقة هي بمثابة عرض انتخابي، وكنا نعتقل عشـرات الأشـخاص كل ليلة، ويتم التوصل إلى تسوية في شأن قضاياهم كالعادة بإشراف المحكمة – إقرار بالذَّنب والحصول على عفو – ويختفي المتّهَمون بعد ذلك.

تلك كانت المشكلة. لقد أدركتُ وليب أنه سيكون من الصعب العثور على نويل. فهناك على الأرجح أربعمئة قضية مماثلة تعود لذلك الصيف، إضـافةً إلى عدم معرفتنا باسـمه. وربما تكون كارولين قد حققت بعض التقدم، ولكن الملف لا يشير إلى اسمه كما يبدو. فالتاريخ الموجود على الغلاف يشير إلى أنها تسلمت القضية قبل خمسة أشهر من مقتلها. وتعكس ملاحظاتها قيامها بقدر قليل من التحقيقات. واسم نويل مدوَّن في إحدى الزاويتَين العُلويّتَين، ويوجد تحته عدد لا يحصى ولا يُعَدّ من السطور. ودوّنتْ اسم ليون تحت الاسم الأول وعلى مسافة منه. لقد فاتني معنى ذلـك فـي بـادئ الأمر، ومن ثم أدركتُ أنها افترضـت أن الاسـم الذي اختاره واضـع الرسـالة، على غرار العديد من الأسـماء المستعارة، هو نتاج ترابط ذهني ما. ربما كان الاسـم تشـكيلاً رمزياً. كانت كارولين تعتزم الشروع بالبحث عن شخص ما يدعى ليون، ولكنها حصلت أخيراً على اسـم آخر، كينيلي، دوّنتْه في أسـفل الصـفحة. إنه لايونيل كينيلي، شرطي صالح أصبح قائداً. لقد عملنا معاً على قضايا نايت ساينتس. كان

يتولى حراسة الدائرة الثانية والثلاثين في شرطة المقاطعة، وتتردد أصداء قضاياه في الفرع الشمالي.

«ما زلت لا أفهم سبب عدم سماعي بهذه القضية أبداً»، قلت لليب. لـم يكـن باستطاعتي تخيُّل سـببِ إجرائي يحـول دون إعلامي بها، أو بانتهاء القضـية بين يدَي كارولين التي لم تعمل في وحدتنا المتخصصـة بمكافحـة الفسـاد العـام. لقد عانيتُ للحظـات قليلة من هذه الحَيرة، ومن المعاني الضـمنية التي سـببت لي الحزن لإمكانية اندثار صـداقتي الوثيقة مع ريموند هورغان.

وهز ليب كتفَيه. «ماذا قال لك هورغان؟».

«لـم أتمكـن من الانفراد به. بقي اثنا عشـر يوماً للانتخابات. إنهم يعملون على مدار الساعات الأربع والعشرين يومياً».

«ماذا عن كينيلي. ما رأيه؟».

«إنه في إجازة».

«حسناً، من الأفضل لك أن تتحدث إليه. لن يُخبرني أي شيء. لا تربطني به أي صداقة».

إن قسم الشرطة مليء بأشخاص لا ينسجم ليبرانزر معهم، ولكنني ظننتُ أن ليب سيتكيّف مع كينيلي. فهو يحب رجال الشرطة الصالحين، ولكن أمراً ما يجري بينهما. لقد ألمح إلى الأمر في السابق.

وغـادر ليـب، ولكنه عاد إلى المكتب. كنـت متوجهاً إلى الخارج لرؤية أوجينيا، ولكن ليب أمسك بمِرفقي ليؤخر خروجي. فأقفلتُ الباب الذي كنت قد فتحته للتوّ.

«أمـر واحـد بعـد»، قـال ونظر إليّ مباشَـرةً. «لقد حصـلنا على السجلات الكمبيوترية لكل اتصالاتها الهاتفية».

«وماذا بعد؟».

«لـم نحصـل على معلومات هامـة. أردنا فقط معرفة الأرقام التي اتصلت بها أكثر من ثلاث مرات في الأشهر الستة الماضية».

«أنا أُصغي».

«لاحظتُ في أثناء المراجعة أن رقم هاتفك هو أحد الأرقام الهاتفية التي قامت بالاتصال بها».

«رقم هاتفي هنا؟»، سألتُ.

وارتسمت نظرة على وجه ليب السلافي الرفيع.

«في المنزل»، قال. «في شـهر تشـرين الأول/أكتوبر الماضـي. في تلك الفترة الزمنية».

كنت على وشـك أن أقول له إنه لا يمكن لذلك أن يكون صـحيحاً. فكارولين لم تحاول قطّ الاتصال بي في المنزل. ومن ثم أدركتُ الأمر. لقـد أجريتُ تلك الاتصـالات مـن منزل كارولين، لأكذب على زوجتي وأقول لها إنني سـأتأخر في العودة إلى المنزل بسـبب هذه المحاكمة أو تلك، وإنني سأتناول العشاء هناك.

وشاهدني ليب أجري حساباتي. كانت نظرته باردة وكئيبة.

«أتمنى لو أنك تقوم بصـرف النظر عن هذا الأمر»، قلت أخيراً. «إذا رأت باربارا مذكرة اسـتدعاء للمثول أمام المحكمة، فسـيكون رد فعلها كارثياً بسـبب ظروفنا العائلية. إذا لم يكن لديك مانع، يا ليب، أنا أقدّر لك هذا الصنيع».

فأومأ برأسه، ولكن كان باستطاعتي رؤية الريبة على وجهه. لقد اعتمدنا على الدوام على بعضـنا لكشـف النقاب عن بعض أنواع البلاهة الزائفـة، وسـيكون دان ليبرانـزر متنكراً لذلـك الاتفاق إذا لم يحدّق بي بقسوة للحظات أخرى للتحقق مما إذا كنت قد خذلتُه.

9

«في النهاية»، قلت لروبنسون، «كان علينا وضع ويندل ماك غافن على منصـــة الشــهود». فشــهادته هي الرد الفعال الوحيد على ادعاءات والــده. وهكــذا، اســتدعينا الفتى لدَحض مزاعــم الوالد. كانت كارولين رائعة، ومرتدية بذلة زرقاء داكنة وقميصاً عاجيًّا ذا شريط من الساتان معقــود حــول عنقهــا، ووقفتْ بجانب ويندل الذي لم تطَل قدماه الأرض في أثناء جلوســه على الكرســي المصــنوع من خشب السنديان في حُجرة الشهود. لم يكن باستطاعة أيّ كان سماع أي شيء في قاعة المحكمة.

وبعد ذلك، ماذا فعلت والدتك، يا ويندل؟

فطلب ماء.

عندما اصطحبتك والدتك إلى الطابق السفلي، يا ويندل، ماذا فعلتْ؟

كان الأمر سيئاً، قال.

هــل كان كذلــك؟ وتوجهت كارولين إلى الملزمة الموضــوعة على حافة طاولة الادّعاء كنذير شؤم، والتي كانت ملطّخة بالشحم، وسوداء اللون، وكل أجزائها أكثر سماكة من أي طرَف من أطراف ويندل.

آه هَه.

هل آلمتْك؟

آه هَه.

وهل بكيتَ؟

آه هَه. وشرب ويندل المزيد من الماء، وأضاف، كثيراً.

أخبرنــا كيــف حــدث ذلك، قالــت كارولين أخيراً برِفــق، فامتثل لرغبتهــا. لقــد طلبت منه الاســتلقاء، وقال إنه صــرخ وبكى. لقد بكى، ولكن مومي لم تبكِ. وتوسّل إليها.

ولكنه استلقى أخيراً.

وطلبتْ منه عدم الصياح.

كان ويندل يؤرجح قدمَيه في أثناء تكلّمه. فأمسك بدميته، ولم ينظر إلى والدته مطلقاً كما طلبت منه كارولين وماتينغلي. وسأل شتيرن ويندل عن عدد المرات التي التقى فيها كارولين، وعما إذا كان يحب والدته، مما جعل ويندل يطلب المزيد من الماء. لم يحدث أي جدال هناك في الواقع؛ فكل الموجودين يعرفون أن الفتى يروي الحقيقة ليس لأنه تدرّب على قول ما يقوله، أو لأن ما يقوله يثير الشفقة، بل لأنه يلفظ كل مقطع من الكلمة بنغمة وإدراك، ولا يمكن نَفي صحة ما يقوله. كان ويندل مُقنِعاً بشجاعته المعنوية.

وألقيتُ المرافعة الختامية. لقد كنت في حالة مضطربة لدرجة أنه لم تكن لديّ أي فكرة عما سأقوله عندما اقتربتُ من المنصة، فذُعرت مقتنعاً بأنني سأفقد القدرة على النُطق. ولكنني وضعتُ حداً لانفعالاتي بدلاً من ذلك، وتحدثت بحرارة عن هذا الفتى الذي عاش كل لحظة، كما قلت، في حالة من اليأس وعدم اليقين، راغباً - على غراري - في الحب، وحاصلاً بدلاً من ذلك على التعذيب وليس على اللامبالاة أو القسوة فقط.

ومن ثم انتظرنا. فبوجود هيئة محلّفين تتداول في شأن الحكم، عُلّقت كل نشاطاتي، حتى إن أبسط المهام المتمثلة في تنظيف طاولتي، والرد على الاتصالات الهاتفية، وقراءة تقارير الادعاء، كانت خارج اهتمامي، وانتهى بي الأمر وأنا أجوب الردهات، ومتحدثاً عن الأدلة والبراهين إلى كل من خانه الحظ وسألني عن سَير القضية. وقرابة الساعة الرابعة، دنت مني كارولين لتقول لي إنها ستُعيد شيئاً ما لمتجر مورتون، ورافقتُها طَوعاً. وفي أثناء مغادرتنا المبنى، بدأت تُمطر بشدة، ودفع الهواء الشتوي وابل المطر البارد بشكل جانبي. واندفع الناس بسرعة في الشارع، مغطّين رؤوسهم. وأعادت كارولين وعاء زجاجياً لم تتمكن من معرفة بلد منشئه، وعدنا بعد ذلك تحت المطر. كانت تصيح تقريباً كلما هبّت الريح، فوضعتُ ذراعي حولها لحمايتها، وانحنت في اتجاهي تحت مظلتي، ومررنا ونحن على هذه الحال أمام

عدد قليل من المجمعات السكنية من دون أن نقول أي شيء، ولكنني تبعتُ بعد ذلك نزوتي وتكلمتُ.

اسمعي، قلت. وبدأتُ مجدداً. اسمعي.

كان طول قامة كارولين يبلغ نحو ست أقدام مع حذائها ذي الكعب العالي، أي أنها كانت أطول مني ببوصة تقريباً، لذلك كان الأمر أشبه بمعانقة عندما أدارت وجهها نحوي. ففي الضوء الطبيعي، باستطاعتكم رؤية ما حاولت كارولين إخفاءه بواسطة مساحيق التجميل، والألعاب الرياضية، والأزياء المدهشة؛ هذا لأنها تخطت الأربعين من العمر، وبدا ذلك واضحاً على بشرتها الخشنة. ولكن ذلك جعلني أنظر إليها بواقعية أكبر بطريقة ما. إنها حياتي وهذا ما حدث.

كنت أتساءل، قلت لها، عن شيء ما قلتِه؛ عما عنيته في تلك الليلة عندما قلتِ لي، ليس الآن.

فنظرت إليّ، وهزت رأسها كما لو أنها لا تعرف ما أتحدث عنه، ولكن مَيلها إليّ بدا على وجهها، وكانت شفتاها مطبقتَين لكبت ضحكتها.

ومن ثم، هبّت الريح ثانيةً، فاقتدتها إلى ظلّة متجر. كنا في جادة غرايسن بولفارد حيث تقع المتاجر قُبالة أشجار الدردار العظيمة في ميدواي.

أعني، قلت بلا أمل وبطريقة يُرثى لها، يبدو أن هناك أمراً ما يجري بيننا. أعني، هل أنا مخبول لأنني أفكر على هذا النحو؟

لا أعتقد ذلك.

لا تعتقدين؟

لا.

آه، قلت.

ووضعت ذراعها على ذراعي، وكانت لا تزال تبتسم بشكل رائع، وأعادتني إلى الشارع.

عادت هيئة المحلفين قبل الساعة السابعة بقليل، ووُجدت كولين ماك غافن مذنبة بالفقرات الاتهامية كافّة. كان ريموند قد لازم المكتب في

انتظار صـــدور الحكم، ورافقنا على الدرَج للقاء الصـــحافة لأنه لم يُســـمح للكاميرات بالتواجد في ردهة مبنى المقاطعة. واصطحبنا بعد ذلك لاحتساء الشـــراب. كان مرتبطاً بموعد، لذلك تركنا بمفردنا نحو الســـاعة الثامنة والنصـــف في كاباليرو جالســـين إلى مائدة، بين مقعدَين طويلَين مرتفعَي الظهر. تحدثتُ إلى كارولين، وأصـــبحنا شـــاردَي الفكر. وقلت لها إنها كانت رائعة، ولا أعلم كم مرة قلت لها ذلك.

لقد أفسد التلفاز والأفلام السينمائية لحظاتنا الأكثر حميمية في حياتنا، وأكسبتنا عادات أصابت توقعاتنا بالخدَر في لحظات يجعلها الطابع العاطفي تلقائية وفريدة. فلدينا عادات للشعور بالحزن تعلّمناها من عائلة كنيدي، وإشارات نصر نقلّد بواسطتها اللاعبين الرياضيين الذين تعلّموا بدَورهم الأشياء نفسها من أشخاص هزليين شاهدوهم على التلفاز. وللإغواء أيضاً معاييره، ولحظاته، وأجوبته السريعة اللاهثة.

وهكذا، أصبحنا هادئَين وساخرَين ورابطَي الجأش بشجاعة، على غرار أولئك الأزواج الرائعين الواثقين بأنفســـهم، لأننا لم نكن نملك أي فكـــرة ربمـــا عـــن كيفية التصـــرف. وبالرغم من ذلـــك، كان هناك تيار متســـارع يجعـــل بقائـــي في مكانـــي، أو تحريكي فمـــي، أو رفعي الكأس لاحتساء المشروب أمراً مستحيلاً. لم أصدّق أنني طلبتُ العشاء، ولكننا كنـــا نملـــك لانحتـــي الطعام، وشـــيئاً ما يمكننا التحديق به كالنســـاء اللواتي يحملن مراوحهنّ الحريرية ويتغنجن. وتحت الطاولة، كانت يد كارولين ممدودة بشكل عرَضي قرب ردفي.

لم أكن أعرفكِ عندما بدأ كل ذلك.

ماذا؟ ســـألتْ. كنا جالسَـــين بجانب بعضنا على المقعد المصنوع من قماشـــ مُخملـــي، ولكـــن تعيّن عليها الانحناء والاقتراب مني قليلاً بســـبب تحدّثي إليها بصـــوت منخفض. كان باســـتطاعتي شـــم رائحة الشراب في نفَسها.

لم أكن أعرفكِ قبل هذه القضية. يدهشني ذلك.

والسبب؟

لأن الأمر لا يبدو كذلك الآن، أقصد أنني لا أعرفك.
هل تعرفني الآن؟
بشكل أفضل، كما أعتقد. ألستُ كذلك؟
ربما، قالت. ربما يكون واقعَ الحال هو أنك تعرف الآن أنك تريد الشروع بمعرفتي.
ممكن، قلت، وكررتِ الأمر:
ممكن.
وهل سأشرع بمعرفتك؟
ممكن أيضاً، قالت. إذا كنت تريد ذلك.
أظن ذلك، قلت.
أظن أن هناك أمراً واحداً تريده، قالت.
أمر واحد؟
أمر واحد، قالت. ورفعت كأسها لتناول رشفة من دون أن ترفع نظرها عني. لم يكن وجهانا بعيدَين عن بعضهما البتة. وعندما وضعتْ كأسها، لامس الشريط المعقود على قميصها ذقني. وبدا وجهها جلفاً بسبب إسرافها في استعمال مستحضرات التجميل، ولكن عينَيها كانتا عميقتَين ولمّاعتَين بشكل مدهش، وكان الجوّ عابقاً بروائح مستحضرات التجميل، والعطر، وجسدَينا القريبَين من بعضهما. لقد بدا الأمر كما لو أن حديثنا يدور بوهَن كصقر منجرف فوق التلال طوال ساعات.
ماذا أريد أيضاً؟ سألتُ.
أعتقد أنك تعرف، قالت.
هل أعرف؟
أعتقد ذلك.
أعتقد أنني أعرف، قلت. ولكن، هناك أمر واحد ما زلت لا أعرفه.
ما هو؟
لا أعرف بعد كيفية الحصول عليه؛ على ما أريده.
ألا تعرف؟

ليس تماماً.

ليس تماماً؟

لا أعرف حقاً.

واتسعت ابتسامتها اللعوب برقّة، وقالت: مدّ يدك.

أمد يدي ؟!

مدّ يدك فحسب، قالت.

مكتبة
t.me/t_pdf

الآن؟

مدّ يدك فحسب.

بدا الجوّ بيننا مفعَماً بالأحاسيس كما لو أنه ضباب رقيق. وبعد ذلك، وبدون أن أبعد عينَيّ عن عينَيها، سحبتُ بالتدريج الشريط العريض. لقد انزلق تماماً، وحُلَّت العقدة وظهر زرّ ياقة قميصها، وفي تلك اللحظة، كدت أصرخ، وقالت كارولين بهدوء إنه يجب علينا الحصول على سيارة أجرة.

«وهكذا»، قلت لروبنسون، «بدأت علاقتي الغرامية. فأعدتها إلى علّيّتها الأنيقة وقمت بعلاقة حميمة معها على السجادات اليونانية الطريّة. لقد أخذتها بين ذراعَيّ حالما فتحت مزلاج الباب الأمامي، كان الأمر لطيفاً جداً. وبعد ذلك، أخذت أعاين الغرفة، وشجرتَي الساج والجوز، والتماثيل الصغيرة المصنوعة من الكريستال، مفكراً كيف أنها تبدو مماثلة لنافذة عرض في متجر أرستوقراطي في وسط المدينة، ومتسائلاً بتلك الطريقة غير الفاعلة عما أفعله بحياتي؛ لا بل بحياة مرّت فيها الشهوة المتراكمة بسرعة كبيرة لدرجة أنني لم أتمكن تقريباً من التصديق أن كل ذلك قد حصل. ولكن، لم يكن هناك الكثير من الوقت للتفكير بالأمر لأننا احتسينا المزيد من الشراب، ومن ثم توجّهنا إلى غرفة نومها لمشاهدة تقرير عن قضيّتنا في نشرة الأخبار التي تُبَثّ في وقت متأخر من الليل، وعرفتُ أنني تهتُ».

10

«أضع نفسي بتصرفك، يا راستي. اطلب ما شئت».

هذا ما قاله لو باليستريري، قائد القوات الخاصة في قسم الشرطة. كنت جالساً في مكتبه في ماك غراث هول حيث توجد شُعَب العمليات المركزية للقسم. لا يمكنني أن أحدد لكم عدد الأشخاص الذين يحملون اسم لو هناك، وهم في الخامسة والخمسين من العمر، وذوي شعر رمادي ومِعى أشبه بالخُرج، وأصوات بلغمية بسبب التدخين. إنه بيروقراطي موهوب، وقاسٍ مع كل من يعاونه في العمل، على غراري، ومتملّق ووقح مع الجميع، ويتمتع بما يكفي من النفوذ لإيذاء نفسه. كان يتحدث عبر الهاتف ويطلب رقم المختبر الجنائي الذي يشرف عليه.

«يا موريس، باليستريري يتكلم. صِلني بديكرمان. أجل، الآن. إذا كان في السجن، أخرجه. أجل». وغمزني باليستريري. كان شرطياً يعمل في الشوارع طوال عشرين عاماً، ولكنه بات يعمل بدون لباس رسمي موحَّد، وقميصه المصنوع من قماش الرايون مشبع بالعرق تحت إبطيه. «ديكرمان، أجل. في شأن قضية بوليموس تلك. راستي سابيتش موجود هنا معي. أجل، سابيتش. صحيح، رَجل هورغان. المساعد الأعلى. لدينا كأس أو ما شابه. أجل، أعرف، ثلاث بصمات أصابع، أعرف، لهذا السبب أتصل بك. ما هو رأيك؟ صحيح، أنا شخص أخرق. صحيح، ولا تنسَ ذلك، هذا الأخرق الكبير قد يرسلك إلى المنزل حاملاً جوزتَيك في كيس ورقي. صحيح. صحيح. ولكن هذا الأمر هو سبب اتصالي. ألا يمكننا إجراء مسح كمبيوتري بواسطة ذلك الشيء الليزري؟ أجل، لديك ثلاث بصمات هامة هناك، صحيح؟ إذاً، احصل على ما تحتاج إليه، وابحث في الكمبيوتر لنعرف إن كانت البصمات تعود لشخص نعرفه. لقد سمعتُ رجل الشرطة الذي يتولى

القضية يقول منذ عشرة أيام إنه يُفترض بك القيام بهذا الأمر. مورفي؟ أجل، من هو الشخص؟ ليو أو هنري؟ لأن هنري غبيّ. جيد. حسناً، اطلب منه القيام بالأمر. لا تعطني النتيجة الصادرة عن الكمبيوتر. على كل حال، لا أفهم هذا الهراء. لا. لا. لست جيداً بما يكفي. اتفقنا. أَعِد الاتصال بي. بعد عشر دقائق. عشر. لنكتشف صاحب البصمات».

لا تكمن المشكلة بالتجهيزات، كما ثبت في النهاية، بل بوجود جهاز الكمبيوتر في شعبة أخرى. ولا يملك القسم سوى جهاز واحد، ويعتبر الأشخاص الذين يُنجزون أعمالاً عليه، كجدول الرواتب مثلاً، أنه ملك لهم دون سواهم.

«صحيح. سوف أسأل. سوف أسأل»، قال باليستريري عندما تلقّى الرد على الاتصال. وغطّى سماعة الهاتف بيده وقال: «يريدون أن يعرفوا نطاق البحث. باستطاعتنا إجراء مسح على المجرمين كافة أو كل الذين نملك بصماتهم في البلد، على كل من لدينا بصمات أصابعهم، في الواقع، كموظفي المقاطعة أو ما شابه».

وتوقفتُ قليلاً. «حصر نطاق البحث بالمجرمين قد يكون كافياً. باستطاعتي القيام بما تبقى في وقت لاحق إذا كنا بحاجة إلى ذلك».

فقطّب باليستريري جبينه ثم قال لي: «أَجرِ بحثاً شاملاً. الله يعلم إن كنت ستتمكن من طلب إجراء بحث آخر». ورفع يده عن سماعة الهاتف قبل أن تتسنّى لي فرصة الإجابة. «أجرِ بحثاً شاملاً. أجل. متى ينتهي؟ لماذا يتطلب الأمر أسبوعاً؟ ينظر هذا الرجل في أكبر قضية قتل في المدينة، وها هو يجد نفسه مضطراً لتقبيل خاتمك؟ حسناً، تبًّا على تحليل مورفي الإحصائي. أجل. قل له إنني قلت ذلك. صحيح». وأنهى المكالمة الهاتفية. «إنه بحاجة إلى أسبوع، وربما عشرة أيام. عليهم إعداد جدول الرواتب أولاً، ويحتاج الرئيس بعد ذلك إلى بعض الإحصائيات لتسليمها للإدارة المساعِدة في تطبيق القانون. سوف أضغط عليهم، ولكنني أشك في أن تحصل على النتائج في وقت قريب. وليَقُم شرطيّك باسترجاع الكأس من مجموعة الأدلة وتسليمها للمختبر، فقد

يكونون بحاجة إليها».

وشكرت لو على مساعدته لي وتوجّهت إلى مختبر المرَضيات. يبدو هذا المبنى أشبه بمدرسة ثانوية قديمة بأناقة السنديان المطليّ بالورنيش والأروقة البالية. كان هناك رجال شرطة على امتداد الجدران، ورجال - والمزيد من النساء في هذه الأيام - يرتدون قمصاناً زرقاء داكنة ويضعون ربطات عُنُق سوداء، يتنقلون في المكان راوين الدُّعابات لأحدهم الآخر. فالأشخاص المنتمون إلى جيلي وإلى طبقتي الاجتماعية لا يحبون رجال الشرطة لأنهم يسعون باستمرار وراء المعلومات. وهكذا، عندما أصبحت مدعياً عاماً، شرعتُ بعملي مع أشخاص عملت معهم في السابق، وهو أمر لم أخطط له في الحقيقة. لقد عملت مع رجال شرطة طوال سنوات، وكنت أحب بعضهم ولا أحب الكثير منهم. ومعظمهم لديهم عيبان: القسوة والجنون. فهم يشاهدون الكثير من الأمور، ويعيشون واضعين أنوفهم في القذارة.

وقبل ثلاثة أو أربعة أسابيع، مكثتُ في مشرب جيل مدة أطول من المدة التي يُفترض بي قضاؤها في ليلة الجمعة، وبدأتُ بشراء الشراب مع شرطي يعمل في الشوارع يدعى بالوتشي. فاحتسى قنِّينة من الشراب، وجرعتَين من شراب آخر، وشرع بالتحدث عن قلب عثر عليه في الصباح في حقيبة زيبلوك. لم يجد سوى هذا العضو، وكانت الأوعية الدموية الرئيسة ملقاة بجانب حاوية للنفايات في آخر الزقاق. فالتقط القلب، ونظر إليه، وابتعد. ولكنه عاد، ورفع غطاء الحاوية وحرّك القُمامة. لم تكن هناك أي أعضاء بشرية. «وانتهى الأمر. لقد قمت بواجبي. وسلّمته إلى المركز في وسط المدينة، وطلبتُ منهم أن يشيروا إلى أنه قلب ماعز».

إنهم مجانين ومأجورون مصابون بذُهان ارتيابي. فالشرطي يرى المآمرة في يوم مكفهرّ، ويشتبه بحدوث خيانة عندما تتمنون صباحاً جيداً للآخرين. إنها زمالة مخيفة تترعرع في وسطنا وتعتبر الجميع عدائيين.

وأقلّني المصعد إلى الطابق السفلي.

«أيهـا الطبيـب كوماغـاي»، قلتُ له محيِّياً. كان مكتبه قائماً خارج المشرحة مباشَرةً حيث الطاولات المصنوعة من فولاذ لا يصدأ والروائح الرديئة للتجاويف الصِّـفاقية(*) المفتوحة. وكان باسـتطاعتي سماع زعيق المنشـار الجراحـي عبـر الجـدران. كانـت طاولة بينلس في فوضـى، والصـحف والمجلات في كدسـات مرتفعة طافحة فوق حافات الصـواني الخشبية. وفي إحدى الزوايا تلفاز صغير مشغَّل يعرض بصوت منخفض مباراة للبيسبول تجري بعد الظهر.

«يا سيد فظّ. هناك أمر هام جداً كما يبدو، هَه؟ يوجد معنا مساعد أعلى». بينلس ياباني شديد الغرابة، يبلغ طول قامته خمس أقدام وخمس بوصات، حاجباه ثخينان، وشارباه مفصولان عن بعضهما البعض فوق وسط شفَته. إنه من النوع الذي يحب الحركة، فيتنقل ذهاباً وإياباً، ويلتف بشكل حلزوني، ويتحدث وهو يحرّك يديه في الهواء. هو العالِم المجنون الذي لا يُظهر أي طيبة، ويليق به العمل مع الجثث الهامدة أكثر من أي شيء آخر. إنه من النوع الذي يرمي عليك أشياء ويلعنك، وباستطاعتكم أن تقرأوا على وجهه ما يجول في فكره. هو أحد أولئك الأشخاص الذين يزخـر بهـم العالـم. فأنا لا أفهمه، وأحـاول القيام بذلك من خلال الجهد الفطري الذي نبذله جميعاً في أثناء ممارسة التخاطر الكاذب. لا يمكنني أن أتخيّل ما يدور في خلده عندما يقوم بعمله، أو يشاهد التلفاز، أو ينظر إلى امرأة. أعلم أنني قد أخسـر الرِّهان حتى مع توافر عشـرة احتمالات لمعرفة ما الذي قام به في ليلة السبت السابقة.

«في الواقع، عدتُ للحصول على تقرير. لقد اتصلتَ بليبرانزر».

«آه أجل، آه أجل»، قال بينلس. «إنه هنا في مكان ما. اللعنة على ليبرانزر هذا. يريد منك الاتصال على الفور ويجب أن يكون كل شيء جاهـزاً». لقـد عمل بينلسـ بيدَيه الاثنتَين، ونقل أكوام الورق من مكان إلى آخر على طاولته بحثاً عن التقرير الجديد. «إذاً، لن تكون مسـاعداً أعلـى لفتـرة أطـول، هَه؟ أعتقد أن ديلاي غارديا سـيركل ريموند على

(*) الغشاء المصلي المبطن للتجويف البطني.

مؤخرتـه. هَـه؟». ونظر إليّ منتظراً جوابي. فبينلس يبتسـم كالعادة في أثناء التعاطي مع أمر ما يجده الآخرون غير سارّ.

«سـوف نـرى»، قلت، وقررت بعـد ذلك أن أكون أكثر عدائية. «هل ديلاي صديقك أيها الطبيب؟».

«نيكو شخص جهنّمي، إنه شخص جهنّمي. آه أجل. لقد عملنا معاً على أنواع قضـايا القتل الكبيرة كافة. إنه جيد أيضـاً، جيد حقاً. أجل، لقـد ركل محامـي الدفـاع أولئك على مؤخراتهم. إنه من ذاك النوع من الأشخاص». ورمى ملفًّا في اتجاهي وانحنى في اتجاه التلفاز. «يا لدايف باركر اللعين! ها هو يصدّ الكرة».

لقد فاتتني من قبل الزمالة القائمة بين نيكو وبينلس، ولكن علاقتهما أمر طبيعي بين مدّعٍ عام جنائي شـهير وبين المختصّ بالمَرَضـيات في قسم الشرطة. إنهما بحاجة إلى بعضهما بشكل مُلحّ من حين لآخر. فسألت بينلس عما إذا كان بإمكاني الجلوس لدقيقة واحدة.

«بالتأكيـد اجلِـس، اجلِـس». وأزاح كومة مـن الملفات ونظر إلى الوراء في اتجاه التلفاز.

«كنت وليبرانزر نقلّب هذه النظرية مؤخراً. حسناً، لنقُل إنها فكرة. ربما فاتنا أمر شـديد الغرابة. ربما كانت كارولين على شـفير الموت، وعندما اعتقد عشيقها أنها ماتت، وجّه لها ضربة قوية على الرأس لتغيير الوقائع. هل يبدو ذلك ممكناً؟».

فوضـع بينلسـ الذي كان يرتدي معطف المختبـر الأبيض مِرفقيه على أكوام الورق.

«مستحيل».

«لا؟».

«مسـتحيل. يـا لغبـاء رجال الشـرطة!»، قال بينلسـ. «يجعلون المسـتحيل ممكنـاً، ويجعلون الممكن مسـتحيلاً. اقـرأ التقرير. لقد كتبتُ تقريراً، اقرأه. يريد مني ليبرانزر الاسـتعجال، الاسـتعجال، وبعد ذلك لا يقوم بقراءة التقرير اللعين».

«هذا التقرير؟».

«ليس ذاك التقرير». وانتشل التقرير الجديد من يدي عندما حملته. «إنه تقريري، تقرير تشريح الجثة. هل ترى ما يشير إلى وجود كدمات على المعصمَين؟ كدمات على الكاحلَين؟ كدمات على الركبتَين؟ ماتت هذه المرأة بسبب تلقّي ضربة ولم تتعرّض للخنق. اقرأ التقرير اللعين».

«كانت موثَقة بشكل مُحكَم. بإمكانك رؤية أثر الحبل على العُنُق في الصور».

«آه بالتأكيد، آه بالتأكيد. كانت موثَقة بإحكام، بإحكام شديد. كانت تبدو كقوس وسهم عندما نقلوها إلى هنا. ولكن، هناك أثر واحد على العُنُق. قام شخص ما بشدّ ذلك الحبل أكثر فأكثر مما أحدث كدمة كبيرة. هناك أثر صغير واحد على عُنُقها».

«ماذا يعني ذلك؟»، سألت.

فابتسم بينلس. كان يحب الاحتفاظ بالمعلومات. وقرّب وجهه من التلفاز لدرجة أن الوميض الرمادي للشاشة انعكس على جبينه. «أولاً وثالثاً»، قال.

«ما الذي يعنيه أن يكون هناك أثر صغير؟»، سألت مجدّداً.

وانتظرتُ. وأعلن المذيع التلفزيوني نتيجة المباراة.

«هل أنا بحاجة لإرسال استدعاء لك للمثول أمام المحكمة؟»، سألت بهدوء، وحاولت الابتسام، ولكن الانفعال كان بادياً على صوتي.

«ماذا؟»، سأل بينلس.

«ماذا عن الكدَمات على عُنُقها؟».

«أظنّ أن ذلك الحبل كان مشدوداً بإحكام هناك. اتفقنا؟».

وتطلّبني الأمر لحظات قليلة لاستجماع أفكاري. لقد ضعت.

«وقت مستقطَع»، قلت. «كنت أظن أن النظرية تتمثل بقيام شخص ما بضربها بهدف إخضاعها. كانت الضربة قاتلة، ولكن رجلنا لم يُدرك ذلك أو يهتم. فقيّدها بتلك العقدة المنزلقة، واغتصبها، وكان يخنقها في الوقت نفسه. هل فهمتُ الأمر بطريقة صحيحة أم أنك بدّلت رأيك؟».

«أنا أبدّل رأيي؟ انظر إلى ذلك التقرير اللعين. لا تقل شيئاً مماثلاً. أنا لا أقول ذلك. يبدو الأمر كذلك، ربما. ربما هذا ما يعتقده رجال الشرطة وليس أنا».

«حسناً، ما هو رأيك؟».

فابتسم بينلس، وهزّ كتفيه.

وأغمضتُ عينَيّ للحظات.

«انظر»، قلت، «مرّت عشرة أيام على تحقيق بالغ الأهمية حول عملية قتل، وها أنا أسمع الآن وللمرة الأولى أن الحبل أوثق حول عُنُقها أولاً كما تعتقد. لَكنتُ ممتنًا لو عرفتُ هذا الأمر قبل مدة من الزمن».

«اسأل. لقد اتصل بي ليبرانزر. أَسرع. نحتاج إلى تقرير. حسناً، لقد حصل على تقرير. لا أحد يسألني عن رأيي».

«لقد فعلتُ للتوّ».

وأسند بينلس ظهره إلى ظهر الكرسي. «ربما لم أتوصّل إلى رأي محدد بعد»، قال.

إمّا أن يكون هذا الرجل مخبولاً أكثر مما ظننت، أو أن هناك أمراً ما يفوتني. وتأنّيتُ للحظات، مُعيداً جمع أجزاء الأُحجية.

«هل تقول لي إنك تعتقد أنها اغتُصبت ومن ثم قُيِّدت؟».

«لقد تم تقييدها في النهاية، أجل. أعتقد ذلك. اغتُصبت؟ أميل إلى الظن الآن بأنها لم تُغتصَب».

«الآن؟».

«الآن»، قال بينلس. وحدّقنا ببعضنا. «اقرأ التقرير»، قال.

«تشريح الجثة؟».

«هذا التقرير. هذا التقرير اللعين». وضرب على الملف الذي أحمله. وهكذا، قرأت التقرير. إنه صادر عن مكتب عالِم الكيمياء الجنائي. لقد تم تحديد مادة أخرى موجودة في مهبل كارولين بوليموس. إنها تُعرَف بالنونوكسينول 9. لقد استنتج عالِم الكيمياء أنها مشتَقّة من الهُلام المُبيد للنُّطاف المنويّة. لذلك، لم تكن هناك نِطاف قابلة للحياة.

كان بينلس يُطلق ابتسامة عريضة لا تعبّر عن واقع الحال عندما نظرت إليه.

«أتقول إن هذه المرأة كانت تستخدم وسائل منع الحَمْل؟»، سألتُ.

«لا أقول ذلك، بل إنّ هذا أمر مؤكّد. إنها تستخدم هلاماً مانعاً للحَمْل تبلغ كثافته اثنين بالمئة، ويعتمد على السيلولوز. يُستخدَم مع حجاب منع الحمل».

«حجاب منع الحمل؟»، سألتُ ببطء شديد. «أغفلتَ حجاباً لمنع الحمل في أثناء تشريح الجثة».

«لا، تبًّا». وضرب بينلس الطاولة بيده، وسخر منّي بصوت مرتفع. «هل شاهدتَ تشريح جثة، أيها الهمجي. شُقّها الآن. لا يوجد حجاب لمنع الحمل داخل تلك السيدة».

وابتسم بينلس مرة أخرى، وراقبتُه.

«أين ذهب؟».

«هل تريد رأيي؟».

«رجاءً».

«أخذه شخص ما».

«رجال الشرطة؟».

«رجال الشرطة ليسوا على هذا المستوى من الغباء».

«من إذاً؟».

«انظر، يا سيد فظّ. لا علاقة لرجال الشرطة أو لي بالأمر. لا بد من أنه الرجل».

«القاتل؟».

«صحيح».

فالتقطتُ التقرير لقراءته ثانيةً. وعندما أنهيت قراءته، لاحظتُ أمراً آخر، وأصبح حديثنا واضحاً فجأةً. لقد حاولتُ المحافظة على رباطة جأشي، ولكنني كنت أفقدها وأشعر بالحرارة تجتاحني وصولاً إلى أُذُنَيّ. ربما تمكن بينلس من ملاحظة الأمر لأنه تكلم بوضوح أخيراً بعد عشر

دقائق من الإرهاق. لقد تصوّر على الأرجح أنني سأفهم ما حدث عاجلاً أم آجلاً.

«أتريد أن تعرف ما هو رأيي؟ أظن أنه فَخّ. الرجل الذي قتلها هو عشيقها. لقد جاء إلى منزلها، وتناول الشراب، وقامت هذه السيدة بعلاقة حميمة معه، اتفقنا؟ جيد جداً. ولكنه شخص غاضب، فالتقط شيئاً ما، وقتلها، وحاول جعل الأمر يبدو كما لو أنها عملية اغتصاب، وقيّدها، وسحب حجاب منع الحمل. هذا هو رأيي».

«ما هو رأي تومي مولتو؟»، سألتُه.

أخيراً لقد أحرج بينلس كوماغاي، الرجل الساديّ قصير القامة. فابتسم ببرودة وحاول الضحك. الضحك ليس الكلمة الصحيحة في الواقع. لقد تنفّس مُحدِثاً أزيزاً، وتحرك فمه ولكنه لم يتكلم.

فأعدتُ له التقرير، ولاحظتُ فيما كنت أسلّمه إيّاه أن تاريخه يعود لخمسة أيام مضت. فأشرتُ إلى الملاحظة المكتوبة بخط يده في أعلى الصفحة، والتي تقول: «مولتو 2225-762».

«هل تريد تدوين رقم الهاتف هذا لتتمكن من الاتصال بمولتو عندما تكون بحاجة إليه؟».

واستعاد بينلس سرعته في الكلام ثانيةً. «آه، تومي». فأداؤه يكون أفضل عندما يتظاهر باللطف. «شخص صالح. شخص صالح».

«كيف حاله؟».

«آه، بخير، بخير».

«اطلب منه أن يتصل بنا في وقت ما. فربما أتمكن عندها من اكتشاف ما يجري في تحقيقي اللعين». ووقفت، وأشرتُ بإصبعي إلى كوماغاي، وناديتُه بالاسم الذي أعرف أنه يمقتُه. «بينلس، أخبر مولتو، ونيكو أيضاً، بأنها سياسة رخيصة، وهذا قسم شرطة رخيص. ليساعدهما الله ويساعدك إذا لم أتمكن من حلّ القضية بسبب تحريف الوقائع».

وانتشلتُ التقرير من يد بينلس وغادرت من دون انتظار الإجابة. كان قلبي يطرق بقوة، وذراعاي واهنتَين بسبب الغضب. بالطبع، لم

يكــن ريمونــد فــي المكتب عندما عدت إلى مبنى المقاطعة، ولكنني طلبت من لوريتا أن تخبره بضــرورة الاتصــال بي لأن الأمر مُلحّ. وبحثتُ عن ماك، ولكنها كانت في مكان آخر أيضاً. فجلستُ في مكتبي وفكرت طويلاً. آه، يا له من بارع لعين! لقد أمّن لنا كل ما طلبناه، لا شيء أكثر. سلّم النتائج ولكن لا تُبدِ رأيك. اتصــل عندما يصــدر تقرير عالِم الكيمياء الجنائي، ولكن لا تذكر مضــمونه. لنسِــر في الاتجاه الخاطئ أطول مدة ممكنة، وفي غضون ذلك، سرّب كل معلومة تعرفها لمولتو. إنه الجزء الأســوأ. يا الله! أظن أن السياســة قذرة، وقســم الشرطة أكثر قذارة. لم تعِش عائلة مديتشي في عالم أكثر تآمراً. فكل ولاء سرّي يقودنا إلى هناك؛ إلى عضو بارز في المجلس المحلي، ووكيل المراهنات، والصديقة؛ إلى الأنسباء والشقيق الذي لا أهمية له؛ إلى المبتدئ الذي يجب عليكم البحث عنه، ومدمن المخدرات الذي يضــايقكم بإخلاصــه الدنيء، أو الســارق الذي يتعيّن عليكم مراقبته؛ إلى المفتش المُجاز الذي ساعد عمّكم، أو إلى الملازم أول الذي تصوّرتم أنه بات يتمتع بالنفوذ لدى بولكارو وسيترفّع إلى منصب نقيب أو أكثر قريباً؛ إلى زميلكم في المسكن، وجاركم. كل واحد منهم يحتاج إلى فرصــة، فتمنحونهم إيّاها. وفي قســم الشــرطة في مدينة كبيرة، أو على الأقل في مقاطعة كيندل، يتمّ التلاعب بالتُّهم التي يمكــن توجيههــا. لقــد فقدتِ النزاهة أهميّتها منذ عدة ســنوات، ويقوم ألفا رجل بلباسهم الرسميّ الأزرق الموحَّد بالتلاعب بالأدلّة لمصلحة فريقهم. كان بينلس يقوم بهذا العمل ببساطة على غرار الجميع. ربما قال له نيكو إن باستطاعته أن يجعله محققاً جنائياً.

ورنّ هاتفي. إنها ماك. فعبرتُ الباب قائلاً:

«حسناً، نعرف أخيراً ما الذي يشغل تومي مولتو».

11

في أثناء مغادرتي في المســاء، رأيت أضــواء في مكتب ريموند. كانت الســاعة التاســعة تقريباً، وأول ما تبادر إلى ذهني هو أن شخصــاً مــا يقــوم بزيــارة من لا يُفترض بــه أن يكون موجوداً. لقد جعلني لقائي كوماغاي قبل ثلاثة أيام عصــبيّ المزاج ومتشــككاً، وتفاجأت في الواقع عندما رأيت ريموند وراء طاولته يحدّق إلى ما يبدو أنها نسخة صادرة عن الكمبيوتر، وينظر إلى أمر غير محدَّد، وباطمئنان، وراء ضــباب غليونه. إنه منظر نادر في هذه المرحلة من الحملة. فريموند محام يكدّ في العمل، وطالما سهر حتى وقت متأخر من الليل مع أكوام من تقارير الادّعاء، أو لوائح التُّهم، أو خُطبة وشيكة على الأقل؛ كان يقضي معظم أمســياته في تلك المرحلة متجوّلاً وملقياً الخطب السياســية. وعندما يكون فــي مكتبــه، يكــون لارين وأشــخاص هامّون آخرون مــن فريق حملته موجوديــن معــه وهم يخططون. فهذه المناســبة غير عادية لتحويلها إلى مناسبة خاصة، لذلك أنبأتُ ريموند بحضوري من خلال طرقي ببرجمتيّ على الباب القديم المصنوع من السنديان في أثناء دخولي.

«أمسيات شاي؟»، سألت.

«نوعاً ما»، قال، «ولكن على نحو أدقّ. لســوء الحظ». واعتمد نبرة شــعبية: «يُظهر اســتطلاع الرأي الذي أجرته تريبيون ونقلته القناة الثالثــة تقــدّم نيكــو ديلاي غارديا المتحدّي علــى ريموند هورغان الذي يشغل المنصب المتنازَع عليه، وبقيت ثمانية أيام على انتهاء الحملة».

كان رد فعلي وجيزاً وبليغاً: «هراء».

«اقرأ النسخة الصادرة عن الكمبيوتر واذرف الدمع». ودفع النسخة في اتجاهي.

لم أستطع فهم شيء من شبكة الأرقام.

«السطر السّفلي»، قال ريموند.

«أيعني الحرف غ غير محسومة؟»، سألت. «ثلاثة وأربعون، تسعة وثلاثون. ثمانية عشر بالمئة غير محسومة. ما زلتَ ضمن الهامش».

«أنا الذي يشغل المنصب. ما إن يُدرك الجمهور أن ديلاي يملك فرصة للفوز حتى ينضمون إليه. الجمهور يتقبل الوجه الجديد جيداً». إن حكمة ريموند السياسية دِلفية في العادة، ولا سيما عندما تتخطى معرفته لكُنه الأمور إلى معرفة مايك ولارين أيضاً. وبالرغم من ذلك، حاولت أن أبقى متفائلاً.

«مررتَ بأسبوعَين سيّئَين. لقد استغل نيكو مقتل كارولين بشكل جيد. سوف تعود. عليك أن تسمح له بالفوز. ما هو هامش الخطأ على كل حال؟».

«حسناً، إنه 4 بالمئة سواء أكان ذلك لحسن حظي أو لسوء حظي». فمايك ديوك، كما قال لي، موجود في المحطة التلفزيونية ويحاول إقناعهم بأن تعكس روايتهم التي تتناول استطلاع الرأي العام سباقاً كتفاً لكَتف. وأجرى لارين، الذي أرسل للقيام بالأمر نفسه مع الصحيفة، اتفاقاً مع المحررين هناك يتوقف نجاحه على موقف القناة الثالثة. «الصحيفة لا تناقض المحطة التلفزيونية في ما يتعلق بتفسير استطلاع مشترَك للرأي العام»، شرح ريموند. ودخّن الغليون. «ويقوم رهاني على طريقة إجراء الاستطلاع. سوف يرمون لي العظمة. ولكن ما الهدف من ذلك؟ فالأرقام أرقام، وكل شخص في البلدة سوف يشمّ رائحة اللحم المَيت».

«كيف تبدو أرقامك الخاصة؟».

«هراء»، قال لي ريموند. لم يتوافر المال للحملة للقيام بعمل جيد. لقد أجرت منظمة وطنية استطلاع الرأي ذاك. لم يكن لدى الجميع – لارين، مايك، وريموند نفسه – الانطباع بأن الوضع بهذا السوء، ولكن أحداً لا يستطيع نَفي الأمر الآن.

«ربما تكون مُحقاً في شأن كارولين»، قال. «الأمر مؤلم. ولكننا

فقدنا الزَّخْم». ووضع ريموند هورغان غليونه ونظر إليّ مباشَرةً. «سوف نخسر، يا راستي. لقد سمعتَ هذا الأمر هنا أولاً».

ونظرت إلى الوجه المُنهَك لريموند هورغان، قائدي، ومحَط إعجابي الشديد منذ مدة طويلة. كانت يداه مشبوكتَين ببعضهما في وضعة استراحة. فبعد اثنَي عشر عاماً ونصف العام من شروعه بالتحدث عن إحداث تغيير جذري في فكرة تطبيق القانون، وعام متأخر جداً لتحقيق أهدافنا، سحب ريموند هورغان السّدادة أخيراً. لقد أصبحت مشكلةَ شخص آخر. ويجيب رجلٌ مُنهَك شخصاً ضاغطاً كالكابوس يعتبر أن للمبادئ والقضايا علاقة بما يجري، قائلاً: إن الأفكار والمبادئ ليست الأكثر أهمية هنا، لا سيما عندما لا تكون هناك سجون لاعتقال الغشّاشين الذين تُلقي القبض عليهم، أو عدد كاف من قاعات المحاكم لمحاكمتهم، وعندما يكون القاضي الذي ينظر في القضية شخصاً مأجوراً في غالب الأحيان ارتاد كلّية الحقوق الليلية لأن شقيقه شغل المنصب الوحيد المتوافر في وكالة تأمين والده، وحصل على منصبه نتيجةً لعمله الموالي طوال ثلاثين عاماً في الدائرة الانتخابية. وفي أثناء إدارة نيكو ديلاي غارديا، سوف تكون الحقائق نفسها موجودة مهما قال على شاشات التلفاز: جرائم عديدة وليست هناك طريقة عملية للتعاطي معها، وعدد قليل من المحامين، ودعوات كثيرة للحصول على رعاية سياسية، وقدْر كبير من البؤس، واستمرار حدوث قدْر كبير من الشر أيًّا تكن المُثُل العليا والمبادئ التي يتّبعها النائب العام. سيحين دوره، وها أنا أقترب من الهاوية مع اقتراب ريموند منها.

«تبًّا»، قلت.

«صحيح»، قال ريموند بعد الانتهاء من الضحك. وتوجه إلى طاولة الاجتماعات القائمة في إحدى زوايا المكتب، وسحب من دُرج الأقلام قنّينتين تحتوي الواحدة منهما على مقدار باينت من الشراب. وأفرغ القنّينتين في كأسَين بلاستيكيتين صغيرتين حصل عليهما من مبرِّد الماء، وانضممتُ إليه.

«في الواقع، عندما بدأتُ العمل هنا لم أكن أتناول الشراب»، قلت. «أعني، لا أواجه مشكلة معه. أنا لا أتذمّر، ولكنني لم أكن أشرب قطّ قبل اثنَي عشر عاماً. وها أنا الآن أجلس هنا وأحتسي الشراب الاسكتلندي بشكل بارع». وقمتُ بذلك، فتقلّص المريء لديّ، واغرورقت عيناي بالدموع. وسكب ريموند كأساً أخرى.

«لقد أصبحتَ متوسط العمر، يا راستي. هناك أمر واحد في شأن طلاقي؛ لقد أَوقف ذلك الهراء. في الواقع، عندما أترك هذا العمل، لن أضيّع أربعة أشهر في البكاء، وتناول الشراب، والتحدث عن الأوقات الممتعة».

«سوف تجلس في إحدى الغرف الزجاجية تلك في الطابق الرابع عشر من مبنى آي بي أم، مع سكرتيرات مثيرات ومجموعة من الشركاء الذين تتخطى ثرواتهم المليون دولار، والذين يسألون عما إذا كانت ثلاثون ساعة عمل في الأسبوع تليق بإدراج اسمك على لافتة قرب الباب».

«هراء»، قال ريموند.

«بالتأكيد»، أجبت. لقد سمعتُ ريموند يردّد رغبته هذه في لحظات مليئة بالحزن والشوق في السنوات القليلة السابقة؛ سنوات قليلة لادّخار بعض الأموال ودخول محكمة الاستئناف في طريقه إلى المحكمة العليا في الولاية.

«حسناً، ربما»، قال ريموند، وضحكنا معاً. «هل ترافقني؟»، سأل.

«أشك في أن يكون لديّ خيار آخر. سوف يجعل ديلاي تومي مولتو مساعدَه الأعلى. الأمر أكثر وضوحاً من أي وقت مضى».

وحرّك ريموند كتفَيه المجهدتين. «لا تعرف أبداً ما الذي يُضمره ديلاي غارديا».

«المسألة مسألة وقت بالنسبة إليّ على كل حال»، قلت.

«هل يمكننا تسليمك منصب قاضٍ، يا راستي؟».

إنها فرصة ذهبية بالنسبة إليّ: إنها مكافأة لي على وفائي على الأقل. هل أريد أن أكون قاضياً؟ هل تملك الحافلة عجَلات؟ هل يلعب اليانكي البيسبول في البرونكس؟ وارتشفتُ بعض الشراب بحصافة مفاجئة.

«سأفكر بالأمر بالتأكيد»، أجبت. «سيكون عليّ التفكير مليًّا بمسألة مزاولة المهنة، واتخاذ قرار في شأن المال. ولكنني سأفكر بالأمر بالتأكيد».

«إذاً، سنراقب تطور الأمور. سيكون أولئك الأشخاص مدينين لي بشيء ما، وراغبين في أن أخرج مبتسماً. وفاء الحزب. كل هذا الهراء. ستتسنّى لي الفرصة للاهتمام بعدد قليل من الأشخاص».

«أقدّر لك ذلك حقّ قدره».

وتناول ريموند جرعة أخرى.

«كيف تسير الأمور في قضيّة القتل المفضَّلة لديّ وغير المحلولة؟».

«بشكل سيّئ بصورة عامة.»، قلت، «لدينا معلومات إضافية قليلة حول ما حدث كما يبدو. هذا إذا كان باستطاعتك تصديق المختصّ بالمرَضيات. هل أخبرتك ماك عن مولتو؟».

«لقد بلغني الأمر»، قال، «لقد بلغني الأمر. ما هذا الهراء؟».

«يبدو أن دابنسكي مُحِق: لقد أرسل نيكو تومي لمراقبة مسار تحقيقنا».

«مراقبة»، سأل ريموند، «أم تخريب؟».

«قليل من الأمرَين على الأرجح. أظن غالباً أن مولتو يجمع المعلومات. كما تعلم، الاتصال بأصدقاء قدماء في القسم، والطلب منهم مهمة إعداد تقارير غير شرعية. لقد أعاقوا عمل المختبر ربما، ولكن كيف تُثبت ذلك؟ لستُ واثقاً بعد مما يقومون به. ربما يظنون في الواقع أنني مهرّج، ويحاولون حلّ لغز الجريمة بمفردهم. كما تعلم: تحقيق إنجاز كبير قبل يوم الانتخاب».

«لا»، قال ريموند، «هذا ما سيقولونه بالتحديد. أنا أراهن على أنهم يعبثون بتحقيقنا، وسيرسلون مولتو بعد ذلك، وهو نائب رئيس قسم

الجنايات التابع لي، ليقول إنه كان قلقاً في شأن قيامنا بإفساد الأمور. لا»، قال ريموند ثانيةً، «سأطلعك على سبب قيام نيكو بإرسال تومي لجمع المعلومات. هو بارع جداً ويراقب كيفية متابعتنا للموضوع، ويعرف بالتحديد كيفية اقتناص الفرصة مع قدْر قليل من المجازفة. وكلما رآنا نتعثّر، يقطف ثمار ذلك لمصلحتهم».

وتحدّثنا قليلاً عن كوماغاي. واتفقنا في الرأي على أن لجوءه إلى تغيير النتائج أمر غير محتمَل؛ كان يؤخّر تسليمها فحسب، وبإمكاننا تسليم مساعده مهمة مواصلة العمل، ولكن الأمر لا يُحدث فرقاً كبيراً كما بدا لنا. وعندما تصدر نتيجة استطلاع الرأي في اليوم التالي، لن يعود باستطاعتنا طلب الولاء من قسم الشرطة، وسيقوم كل شرطي ينادي نيكو باسمه الأول بتزويده بالمعلومات بهدف استثمارها في المستقبل.

«إذاً، إلى أين يوصلنا هذا التحقيق؟»، أراد ريموند أن يعرف. «من هو رجلنا السيّئ؟».

«ربما يكون صديقاً، ربما يكون شخصاً أقلّته معها في السيارة. يبدو الأمر كما لو أنه شخص يعرف عنها أموراً كافية ليتدبّر أمر مقتلها على هذا النحو، ولكن ذلك قد يكون صُدفة. من يعلم؟». وحدّقتُ بالضوء المماثل للقمر الطافي على صفحة الشراب. «هل يمكنني طرح سؤال؟».

«أظن ذلك». إنه الوقت المناسب لأكتشف سبب احتفاظ ريموند بالملف بي في دُرج طاولته. لا رَيب في أنه كان يتوقع ذلك. ولكن، هناك أمر آخر أردت أن أعرفه بالرغم من استمتاعي بتناول الشراب معه وبأجمل لحظات أمضيتها مع ريموند هورغان منذ القضية الأخيرة التي نظرنا فيها معاً منذ سنوات، وكانت إحدى مؤامرات نايت سينتس. كنت أعرف أنه من المُجحِف استخدام أسلوب التظاهر الذي يعتمده المحقق للكشف عن الحقيقة. كنت أدرك كل ذلك، ولكنني سألت على كل حال.

«هل كنتَ تمارس الجنس مع كارولين؟».

فأطلق ريموند ضحكة قوية لدرجة أنه اهتزّ بكامله، مما جعل الأمر يبدو كما لو أنه أكثر ثمالة مني. لقد لجأ إلى الحيلة المعتمَدة في قاعة

المحكمة والمتمثلة بتأخير إجراء ما عندما تكونون بحاجة إلى وقت للتفكير: شخص غير مناسب يريد مرافقتكم إلى المنزل، عضو لجنة مساعد لشؤون الوصاية لا تستطيعون تذكر اسمه، مراسل يحاول الاقتراب من الحقيقة. ولو كانت هناك قِطع ثلج في كأسه لمضغها في الحال ليملأ فمه بشيء ما.

«اسمع»، قال، «عليّ أن أُطلعك على أمر مرتبط بالتقنية التي يجب على المستجوِب أن يعتمدها، يا راستي. أنت تدور كثيراً حول الموضوع. عليك أن تتعلم أن تكون مباشَراً».

وضحكنا، ولكنني لم أقل شيئاً. كان عليه إيجاد عذر ما للخروج من المأزق.

«لنَقُل إنني والمتوفَّاة كنا عازبَين وبالغَين»، قال أخيراً في أثناء النظر إلى كأسه. «لا مشكلة في الأمر، أليس كذلك؟».

«لا، إذا توافرت لديك فكرة أفضل عن الشخص الذي قتلها».

«لا»، قال، «لم تكن علاقتنا من ذلك النوع من العلاقات. من كان يعرف أسرار تلك السيدة؟ بصدق، كانت علاقة قصيرة وجميلة دامت أربعة أشهر».

كان هناك الكثير من أحجار الشطرنج. ولكن ريموند لم يكشف عما إذا كانت كارولين قد أثّرت فيه بالصميم. لقد بدا مخيَّب الأمل قليلاً. ونظرتُ ثانيةً إلى شرابي. فالملف **بي**، وبعض ملاحظات ابنها إلماعات، ولكن في الحقيقة كان من المفترَض بي أن أكون على عِلم بعلاقة كارولين بريموند منذ مدة طويلة، أو ملاحظة بعض الأمور على الأقل كترددها إلى المكتب في غالب الأحيان، وأوقات مغادرة الاثنين. بالطبع، كنت معتاداً في ذلك الوقت على العادات المحلية؛ لقد قمت برحلتي الخاصة إلى بلاد كارولين؛ انطلاقة مقطوعة. كنت قد شاهدت تصرفاتهما بمزيج ملتهب من حنين السائح إلى الوطن والتَّوق إلى حنين أكبر. وها أنا أتساءل عن سبب مجازفتي بتكبّد عناء سماع الحقيقة كاملة.

«كنتَ تعرف بعض أسرارها»، قلت. «لقد التقيتَ الفتى».

«صحيح. هل تحدثتَ إليه؟».

«في الأسبوع الماضي».

«وكشف أمر مومي؟».

فقلتُ أجل. أنا أعرف مدى رغبة شخص في موقف ريموند بالاعتقاد بأنه شخص غامض.

«فتى حزين»، قال ريموند.

«في الواقع، أخبرني أنها كانت تريد أن تصبح نائباً عاماً».

«سمعتُ ذلك منها. لقد قلت لها إنه يتعيّن عليها اكتساب مهارة أكبر في عملها. فإما أن تتمتع بمكانة مهنية أو بصلات سياسية. لا يمكنك استلام هذا المنصب ببساطة». لقد اعتمد ريموند نبرة غير مبالية، ورمقني بنظرة ثاقبة: كان يقول لي، لستُ غبيًا بقدر ما تظن. فاثنا عشر عاماً من النفوذ والتملّق لم تجعله متبلّد الحس كثيراً. وشعرتُ مرة أخرى بالسعادة والفخر، وبالاحترام الذي أكنّه لريموند.

وهكذا جرت الأمور. لقد انتهت الأشهر الأربعة، قال ريموند. وذهبت كارولين في حالها عندما أعلن ريموند عن عزمه الترشّح لشغل منصبه مرة أخرى. لقد تصوّرتْ كأي شخص آخر أن ريموند لن يخوض الانتخابات، وأنه سيسلّم الرداء الفضفاض لشخص آخر من اختياره. ربما كان بإمكانها إقناعه بتسليم المنصب لامرأة. إنه السبب الوحيد الذي دفع قطار كارولين الصاعد إلى المجد للتوقف في محطتي أولاً. لماذا التأخر في الوصول على متن القطار المحلي في حين أنكم تكونون مستعدّين لاجتياز المسافة بسرعة على متن القطار السريع؟ إلا إذا كان هناك خطأ في التقدير.

«كانت قطعة بسكويت صلبة العود»، قال هورغان. «في الواقع، إنها امرأة صالحة ولكنها صلبة العود. صلبة العود».

«أجل»، قلت، «صالحة وصلبة العود ومَيتة».

فوقف ريموند.

«هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً آخر؟»، سألت.

«الآن تريد طرح سؤال شخصي، هَه؟»، وابتسم ريموند فظهرت أسنانه الإيرلندية. «دَعني أحزر: ما الذي كنت أفعله بذلك الملف اللعين؟».

«تماماً»، قلت. «ولكنني أدرك سبب عدم رغبتك بتناقله. لماذا سلّمتها إيّاه في المقام الأول؟».

«تبًّا»، قال، «لقد طلبتْ مني ذلك. ألن تسخر منّي؟ لقد طلبتْه وكنت على علاقة معها. أظن أنها سمعت بأمره من ليندا بيريز». إنها واحدة من المساعدين الذين يقرأون البريد. «أنت تعرف كارولين. إنها حالة متّقدة. لقد افترضتُ أنها تعتبر الأمر جيداً لها. ما اسم الرجل؟».

«نويل؟».

«نويل، صحيح. لقد ابتكر هذا الرجل». إنه محتال، لقد احتفظ بالمال. «هذا رأيي. ألا تعتقد ذلك؟».

«لست أدري».

«لقد نظرتْ إلى الملف، وخرجتْ، واطّلعتْ على محتوياته في الدائرة الثانية والثلاثين. لم تجد فيه شيئاً. هذا ما قالته لي».

«ليتني علمت بالقضية»، قلت.

فأومأ ريموند برأسه، وتناول المزيد من الشراب.

«تعرف كيف تسير الأمور، يا راستي. تقوم بعمل أخرق، وتقوم بعمل أخرق آخر. لم تشأ أن أتحدث عن الأمر. فإذا سأل شخص ما عن سبب قيامي بتسليمها القضية، فسرعان ما سيعرف الجميع أنها تتملّق الرئيس. لم يكن الرئيس لِيمانع الاحتفاظ بتلك القضية لنفسه. أنت تفهم ذلك. من الذي يتضرر من ذلك؟».

«أنا»، قلت، وقد رغبت في قول ذلك منذ عدة سنوات.

وأومأ برأسه أيضاً مُجيباً:

«آسف، يا راستي. أنا آسف جداً. تبًّا. أنا الوغد الأكثر شعوراً بالأسف في البلدة». وتوجّه إلى إحدى الخزائن، ونظر إلى صورة لأبنائه. كان يظهر فيها خمسة منهم. وذهب بعد ذلك لارتداء معطفه. كانت ذراعاه تتحركان بشكل غير منتظم وهو يملّس ياقة قميصه. «في

الواقع، إذا خسرتُ في هذه الانتخابات اللعينة، فسأستقيل. لندَع نيكو يدير العرض؛ فهو يرغب في ذلك بشدة». وتوقف. «أو أنت ربما. هل تريد هذا المنصب لمدة قصيرة من الزمن؟».

شكراً، يا ريموند، قلت في سرّي. شكراً جزيلاً. وفي النهاية، ربما تقرّبت كارولين من الشخص المناسب.

ولكن، لم أستطع تمالك نفسي. فنهضتُ أيضاً، وأنزلتُ ياقة ريموند، وضغطت على زرّ الأضواء، وأقفلتُ مكتبه، ووضعتُه في الاتجاه الصحيح. لقد حرصتُ على أن يستقل سيارة أجرة. وآخر ما قلته له هو: «يصعب الحلول مكانك». وبالطبع، لقد عنيتُ ما قلته كالمعتاد.

12

بطريقة ما، كان تَوقي المشوَّش والمجنون إلى كارولين يظهر من خلال إدماني المتجدد على موسيقى الروك.

«لم يكن لهذا الأمر علاقة بميول كارولين»، شرحتُ لروبنسون. وكانت تترك محطة إذاعية سيمفونية مشغَّلة حتى في مكتب النائب العام الذي تشوبه الفوضى. لم يكن ذلك نوعاً من أنواع حنين المراهَقة، ولم أكن بحاجة ماسّة إلى موسيقى السول والروك الممتازة العائدة للستينيات، والتي طبعت السنوات الأخيرة للعقد الثاني من عمري وأوائل العقد الثالث، ولكن الموسيقى الصادرة عن المحطة الإذاعية تنتمي إلى الموجة الجديدة التافهة: أصوات حادّة، موسيقى نُواحية مع كلمات غنائية مُنحرفة وإيقاعات عشوائية كالمطر. وتوجّهتُ إلى عملي، قائلاً لباربارا إنني أعاني رد الفعل الرُّهابي السنوي الذي تتسبب به الحافلة. فالسيارة، بالطبع، تجعل هروعي المسائي إلى شقة كارولين أكثر سهولة؛ ولكن كان بالإمكان تدبّر هذا الأمر على كل حال. فما أردته هو فرصة للقيادة لمدة خمس عشرة دقيقة والنوافذ مُحكَمة الإغلاق، في حين تزعق إذاعة الروك، والدبليو أن أو أف، من مكبِّرات الصوت في السيارة لدرجة أن الزجاج الأمامي يصلصل عندما يصدر الجهير في بعض الأغاني.

«كنت مشوَّشاً ومتوتر الأعصاب». وعندما سلكتُ الشارع بعد رَكن السيارة، كنت منتفخاً إلى حد ما لأنني بدأت يوم زحف جميلاً لا أمل منه، كما شعرتُ، نحو كارولين، غنيمتي السرّية. لقد تعرّقتُ طوال اليوم، وتسارع نبضي. وفي كل ساعة تقريباً، ووسط مكالمة هاتفية أو اجتماع، كانت تنتابني رؤى محسوسة ومباشَرة لكارولين وهي في سكون عاطفي، فأضيع في الزمان والمكان.

من جهتها، كانت كارولين تُصيبني بالقشعريرة. وفي نهاية الأسبوع

بعد ليلتنا الأولى معاً، أمضيت ساعات من الذهول غارقاً في التفكير بلقائنا التالي. لم أكن أملك أي فكرة عن الآتي. فعند باب شقتها، كانت قد قبّلت يدي وقالت ببساطة، أراك لاحقاً. بالنسبة إليّ، لم تكن لديّ أي رغبة في المقاومة بل في الاستفادة من كل ما هو مُتاح لي.

وفي صباح يوم الاثنين، وقفتُ عند باب مكتبها حاملاً ملفًّا بيدي. كنت قد خططتُ إلى ما لا نهاية لوِقفتي ومِشيتي؛ لم يكن هناك ما يدعو للعجَلة. فانحنيتُ، وابتسمتُ بهدوء. كانت كارولين تجلس وراء طاولتها وسيمفونية جوبيتر تتماوج.

في شأن قضية ناغل، قلت.

فعائلة ناغل زيارة أخرى إلى الجانب المُظلم للضواحي: فريق اغتصاب مؤلف من زوج وزوجة. كانت الزوجة تقترب من النساء في الشارع، وتساعد في عملية الاختطاف والاغتصاب. أرادت كارولين تقديم التماس في شأن القضية لتوجيه تُهمة أصغر للزوجة.

باستطاعتي تقبّل الالتماس، قلتُ لها، ولكن أظن أننا بحاجة لأخذ أمرَين بعين الاعتبار.

حينئذٍ، رفعت كارولين نظرها غير منفعِلة، من دون أن ترمش أجفانها. وابتسمت باعتدال على غرار طالبة جامعية.

من تسلّمها؟ سألتُ، أعني من المحامي الذي سيتولى الدفاع عنها.

ساندي، أجابت كارولين، مُشيرةً إلى أليخاندرو شتيرن الذي يمثّل كما يبدو كل شخص حظي بتنشئة صالحة ومُتّهَم بارتكاب جريمة في هذه الولاية.

أخبري ساندي، قلت، بأنه يتعيّن عليه التقدم بالتماس لآغ باتري أيضاً. لا نريد من القاضي أن يظن أننا نحاول تكبيل يدَيه.

وإلا اعتقدت الصحافة أننا نسعى إلى إطلاق سراح مشروط للمغتصِبات، قالت.

أجل، قلت. نحن مدّعيان عامّان متساويا الفرص.

فابتسمتُ، وابتسمتْ. وأطلتُ مدة مكوثي. لقد اجتزتُ الامتحان،

ولكن قلبي كان لا يزال يخفق، فشعرتُ بوجود اضطراب في نظراتي.

حسناً، وصدمتُ الملف بفخذي، واستدرت.

يُفترض بنا تناول مشروب معاً، قالت.

فأومأت برأسي وقلت: مشرب جيل؟

ما رأيك بالمكان الذي قصدناه يوم الجمعة؟

كان ذاك المكان شقتها. فشعرتُ بالنشاط. وارتسمت على فمها ابتسامة خفيفة معبِّرة، ولكنها أعادت التركيز على عملها حتى قبل أن أغادر.

«لدى التفكير بالأمر، أرى نفسي على تلك العتَبة في حالة يُرثى لها. كنت مليئاً بالأمل، وشديد الامتنان، ويُفترض بي معرفة المستقبل استناداً إلى الماضي».

كانت هناك عاطفة كبيرة في حبي لكارولين، ولكن نادراً ما كنت أشعر بالسرور. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، وعندما أدركتُ أن هذا الأمر سيستمر اجتاحتني عاطفتي. كنت محطَّماً، وممزَّقاً، ومدمَّراً، أعيش كل لحظة في اضطراب، ولا أشعر بذاتي. كنت كشبح ضرير أتلمّس أرجاء القصر وأتأوّه من فَرط الحب. كنت أفكر بكارولين باستمرار، وتمنّيتُ لو أنني لا أستطيع تذكّر صورتها. كانت الرغبة ملحّة وهاجسية. وتخيّلتُ باندورا، التي كنت أخلط بينها وبين بيتر بان في صِغَري، وهي تفتح صندوقها وتجد ذلك الدَّفق من المآسي.

«في الواقع، كانت هناك امرأة أخرى، وجسد آخر»، قلت للطبيب النفسي.

فبعد عشرين سنة تقريباً من النوم مع باربارا، لم أَعُد أذهب إلى السرير برفقتها فقط. كنت أستلقي مع خمسة آلاف شخص آخرين؛ مع ذكريات أجساد أصغر سنًّا؛ مع القلق على ملايين الأشياء التي أحاطت بحياتنا: مزاريب المطر الصدئة، عدم رغبة نات بدراسة الرياضيات، طريقة قيام ريموند عبر السنين بالنظر إلى عيوب ما أُنجزه وليس إلى

نجاحاتي، البريق المتكبّر الذي يظهر في عين حماتي عندما تخاطب أي شـخص لا ينتمي إلى عائلتها المباشَـرة بمن فيهم أنا. في سـريرنا، كنت أحاول طوال ذلك الوقت الوصول إلى باربارا عبر التدخل الطّيفي لكل أولئك الزائرين.

ولكـن كارولين ظاهرة بَحتة. كنت مشوَّشـاً وفاقد الحس بالزمان والمكان. فبعد سـبعة عشـر عاماً من الزواج المخلص، وقمع النزوات لأجل الحياة المنزلية الهادئة، لم أسـتطع التصـديق بأنني كنت هناك مع وهم صـار واقعاً. لقد تمعّنتُ بجسـدها العاري، وبلمعان بشـرتها. كنت ضـائعاً هناك في أرض لا قيود فيها، بعيداً عن حياتي المتحركة ببطء. وكلما التحقتُ بها أشعر بأنني قسمت العالم.

«كنت ألازمها ثلاث أو أربع ليال في الأسبوع، ونميل إلى اعتماد روتيـن مـا، فتترك الباب غير مُقفَل لأجلي، وتكون هناك نشـرة أخبار صـادرة مـن التلفاز عندما أصـل». وتقوم كارولين بأعمال التنظيف، وتحتسـي الشـراب، وتفتـح بريدهـا. وتكون هناك علـى طاولة المطبخ قنينة شـراب منزوعة السّـدادة، باردة ومبلّلة كحجر في قاع النهر. لم تندفع قطّ للترحيب بي. فعملها، أيًا يكن، يشـغلها. وتتناول تعليقاتها في العادة في أثناء تنقّلها بين الغرف شؤون المكتب أو أحداثاً سياسية محلية. كانت الشائعات الرائجة تشمل عدم رغبة ريموند في خوض الانتخابات، وتابعت كارولين هذا الاحتمال باهتمام كبير، جامعةً كما يبدو الشائعات من هنا وهناك؛ المكتب، الشرطة، اتحاد المحامين.

ووجدت طريقها إليّ أخيراً في بعض الأحيان، وفتحت ذراعَيها، وعانقتني، ورحّبت بي. لقد وجدتُها تستحم ذات مرة وأقمت علاقة حميمة معها هناك. وفاجأتُها ذات مرة وهي ترتدي ملابسها. ولكننا كنا نُمضي الوقت معاً حتى تصبح مستعدة لاصطحابي إلى السرير.

كان اقترابي منها طقسـاً بحد ذاته، فأجد نفسـي في غالب الأحيان جاثياً على ركبتَيّ، فيظهر فخذاها المثاليان عندما تقف أمامي؛ ويملأ ذلك العطر النسائي الجوّ حتى قبل أن أبدأ بالاقتراب منها. إنها لحظات مثالية،

مجنونة، وجامحة. كانت عاطفتي في تلك اللحظات نقيّة كالموسيقى.

«لم تكن تتوقف عن الكلام».

«ماذا كانت تقول؟»، سأل روبنسون.

«في الواقع: تمتمات، كلمات».

لقد أدركتُ لاحقاً أننا لم نكن عاشقَين يلبّيان حاجات أحدهما الآخر. فمع مرور الوقت، أصبحت كارولين أكثر بذاءة معي كما يبدو. فبالرغم من تظاهرها باللباقة، وجدتُ أن بإمكانها بلوغ حد التصرف بشكل رخيص. كانت تحب النطق بأمور بذيئة، والتباهي، وتناول جسدي بأعذب الألفاظ. كانت هذه العاطفة الجياشة تصعقني. لقد ضحكتُ ذات مرة، ولكن نظرتها كشفت عن استياء جليّ، لا بل عن غضب شديد تقريباً، مما جعلني أتعلّم استيعاب هذه الملاحظات الضارية. وتركتها على سجيّتها، ولاحظتُ حدوث تقدّم على مَرّ الأيام. لقد بدت العلاقة الحميمة بيننا هدفاً بالنسبة إليها. وتحدثت إليّ ذات ليلة، وسألتني: هل علاقتك مع باربارا على هذا النحو؟ لم تَعُد كارولين تشعر بالخجل من ذكر اسم باربارا. كانت تعلم أن باستطاعتها اصطحاب زوجتي إلى سريرنا لتشهد على مدى رغبتي بالتخلي عنها.

كنا نطلب في معظم الليالي طعاماً صينياً يحمله باستمرار الفتى نفسه، فينظر إلى كارولين بردائها الحريري البرتقالي شزراً. ومن ثم نستلقي على السرير، ممرّرَين العلب الكرتونية إلى بعضنا. كان هناك تلفاز أو راديو مشغَّل على الدوام أينما تكون. لقد أدركتُ أنها عادة اكتسبتها بسبب عيشها بمفردها طوال سنوات عدة. وفي السرير، كنا نتبادل أطراف الحديث حول الشائعات. كانت كارولين مراقِبة نبيهة للفوضى التي تشوب السياسات المحلية، وتسعى على الدوام إلى القوة والنفوذ. لقد وجدتُ ذلك في سلوكها الحميمي ولكن بحماسة أكبر من حماستي. لم تكن رغبتها مماثلة لرغبتي في عدم السعي وراء المجد الشخصي؛ كانت تعتبر ذلك حقاً طبيعياً لكل شخص، بمن فيهم هي.

في أثناء تردّدي إلى شقة كارولين، كان نيكو في المراحل الأولى

لحملته. في تلك الفترة، لم أكن أعتبر ما يقوم به جدّيًا، ولم أكن أرى وكارولين أي فرصة له بالفوز. بالرغم من ذلك، وجدت فيه كارولين طاقة مختلفة، وشرحت لي الأمر ذات ليلة قبل أن تنتهي حياة النعيم القصيرة التي عشناها. كنت أُطلعها آنذاك على تحليلي الأخير لدوافع نيكو.

يريد استرضاءً من الآخرين، قلت لكارولين، وينتظر ذلك من أصدقاء ريموند. فسياسة الحزب في مقاطعة كيندل لا تساعد على خوض انتخابات أولية. انظري إلى هورغان. لن يدَعه بولكارو ينسى أبداً ترشحه ضده على منصب رئاسة البلدية.

ماذا لو كان بولكارو يريد الثأر منه؟

بولكارو ليس الحزب. فهو سيغادر الحزب يوماً ما. ونيكو ضعيف ولا يستطيع العمل بمفرده.

وخالفتني كارولين الرأي. كانت ترى بوضوح أكبر مدى تصميم نيكو.

يظن نيكو أن ريموند مُتعَب، قالت، أو أن ريموند يوحي له بأنه مُتعَب. يعتقد عدد كبير من الناس أنه لا يُفترض بريموند خوض الانتخابات مرة أخرى.

مناصرو الحزب؟ سألتها.

لم أكن قد سمعتُ بذلك حتى تلك اللحظة. لقد قال الكثير من الأشخاص إن ريموند لن يخوض الانتخابات، ولكنهم لم يقولوا إنه غير مرحَّب به.

مناصرو الحزب، مناصرو رئيس البلدية. ونيكو يُضعفه من خلال الإعلان عن خوضه الانتخابات. ويقولون إنه يُفترض بريموند التنحي.

هل يتحدث ريموند عن الأمر؟ سألتُ.

لم يتحدث إليّ.

إذا بدأ بالتعرّض لاهتزاز عاطفي خاطئ من نوع ما، فهل سيفكر بذلك؟

فقطّبتُ جبيني. في الحقيقة، لم أكن أملك معلومات كثيرة حول

ما يفكر فيه ريموند في تلك الأيام. لقد أصبح منعزلاً بشكل متزايد بعد طلاقه. وبالرغم من أنه جعلني مساعداً أعلى له، فهو لم يكن يأتمنني على أسراره كما يبدو.

إذا وافق على التنحي، قالت كارولين، فمن المحتمل أن يسمح له الحزب باتخاذ قرار في شأن مَن يخلفه في منصبه، ويمكنه المساومة في ذلك. هم يعلمون أنه لن يسلّم المنصب لنيكو.

إنه أمر مؤكَّد.

من سيختار؟ سألتْ.

ربما سيختار شخصاً من المكتب لمواصلة تقاليده. أنت؟ سألتْ.

ربما ماك. سوف تكون مرشَّحة تنافسية في كرسيّها المدولَب.

مُحال، قالت كارولين، رافعةً الموشو بعودَي التقاط الطعام. ليس في هذه الأيام. ذلك الكرسي ليس صالحاً للعرض على شاشة التلفاز. أظن أنه سيختارك. أنت شخص طبيعي.

فهززتُ رأسي. كانت حركة لا إرادية؛ ربما أردتُ القيام بها في تلك اللحظة. كنت في سرير كارولين وشعرتُ بأنني استمتعت بأحد الإغراءات العديدة.

ووضعت كارولين الطعام جانباً، وأمسكت بذراعي، ونظرت إلى عينَيّ.

يا راستي، إذا أعلمتَه بأنك تريد المنصب، فستكون خلفَه.

وراقبتُها للحظات.

أتعنين أنه يُفترض بي الذهاب إلى ريموند وإعلامه بأنه يتعيّن عليه التنحي؟

باستطاعتك أن تكون لبِقاً، قالت كارولين. كانت تنظر إليّ بشكل مباشَر.

مُحال، قلت.

لمَ لا؟

لن أعضّ تلك اليد. إذا أراد التنحي، فعليه اتخاذ القرار بنفسه. حتى

إنني لا أفكر بأن أطلب منه التنحي إذا أراد معرفة رأيي في الموضوع. فهو لا يزال المرشَّح الأوفر حظاً في مواجهة ديلاي غارديا.

وهزّت رأسها.

بدون ريموند، لا يملك نيكو قضية للدفاع عنها. إذا حملتَ مناصري الحزب ومناصري ريموند على تأييد شخص آخر، فسوف يفوز هذا الشخص بمنصب النائب العام. لن تكون النتائج متقاربة.

لقد فكرتِ بالأمر حقاً، قلت لها.

هو بحاجة إلى دَفعة إلى الأمام، قالت لي.

ادفعيه بنفسك، قلت لها. لن أقوم بذلك.

وخرجت كارولين من السرير، ووقفتْ عارية الجسم والقدمَين، وبدت مرِنة وقوية. وارتدت رداءها. فأدركتُ حينذاك أنها مستاءة.

لماذا لستِ سعيدة؟ سألتُ. ألستِ مستعدّة لتصبحي في مركز أعلى؟

فلم تُجب عن هذا السؤال.

13

في الدائرة الثانية والثلاثين، لم يكن الاضطراب العادي في مركز الشـرطة بادياً. فقبل سـبع سـنوات، وبينما كنا نُجري تحقيقاً، دخل أحد أفراد النايت سـينتس المركز مرتدياً سـترة أقصـر من المعتاد، مُحكَمة الإغـلاق عنـد الصـدر، فبـدا كما لو أنه طفل محميّ من النسـيم البارد. ونتيجة لذلك، كان عليه إنزال السـحّاب ببطء قبل وضـع فوّهة السـلاح النـاري تحـت ذَقن الشـرطي سـيّئ الطالع الذي يتولـى المهام المكتبية، والذي كان في الثامنة والعشرين من عمره ويدعى جاك لانسينغ. وجاء في التقرير أن الشاب الذي يحمل بندقية، ولم يتم التعرف إلى هويّته قطّ، ابتسم وفجّر بعد ذلك وجه جاك لانسينغ.

ومذاك الحين، يتعاطى أفراد شرطة هذا المركز مع الناس من وراء زجاج صـامد للرصـاص تبلغ سـماكته ست بوصات، ويُجرون أحاديث عبر نظام إرسـال لاسـلكي يبدو كما لو أن إشـارته الراديوية قد ارتدّت عن القمر قبل وصـولها إلى مسـامع الناس. وهناك مناطق عامة حيث يتسـكع المتقدمون بالشـكاوى، والضحايا، والمعجَبون بالشرطة، ولكن تسود السكينة تقريباً عندما تعبرون الباب المعدني الذي تبلغ سماكته أربع بوصـات، ويحتـوي علـى مِزلاجٍ إلكتروني. ويتم احتجاز السـجناء في الطابق السُفلي، ولا يُسمح لهم أبداً بالخروج منه، أيًّا يكن السبب. ويبدو الطابق العُلوي الذي تمّ ضـبط حالة الهيجان فيه كوكالة تأمين. وتوجد طاولات رجال الشرطة في منطقة مفتوحة مماثلة لأي مكتب كبير آخر، ويجلس ذوو الرُتَب في مناطق مقسَّمة على امتداد جدار أسود. وفي أحد المكاتـب الكبيـرة، عثـرتُ على لايونيل كينيلي. لم نرَ بعضـنا منذ انتهاء قضايا النايت سينتس.

«همجيّ لعين»، قال، «همجيّ لعين». وأخرج سـيجارته من فمه

وربّت على ظهري.

لايونيل كينيلي هو كل ما لا يحبه شخص حساس في الشرطة. فهو يتكلم بخشونة، ومتشبّث برأيه، وخسيس تماماً، وعنصري لا يشعر بأي إحراج. ولكنني أحبه لأنه شرطي بَحت لا تشوبه أي شائبة ولا يقدّم أعذاراً، وهو شرطيّ يكرّس وقته لكشف النقاب عن الولاءات والألغاز المُبهَمة في حياة الشارع. وباستطاعته اكتشاف الرّعاع وضروب الاحتيال في الجزء الداخلي للمدينة على غرار كلب يتتبّع أثر رائحة ما من خلال رفع خَطمه في اتجاه النسيم. وفي أثناء تحقيقات النايت سينتس، كان لايونيل الشخص الذي لجأتُ إليه عندما أردت العثور على أحدهم. فهو لا يتردد أبداً؛ يُخرجهم من قاعات الرماية، أو يدخل مشاريع غرايس ستريت عند الساعة الرابعة فجراً، وفي هذه الساعة فقط يمكن للشرطي التنقل بأمان في ذلك المكان. لقد شاهدته مرة واحدة أو مرتين وهو يقرع باباً بقوة لدرجة أنه يكون باستطاعتكم رؤية إطاره يهتزّ.

مَن هناك؟

افتح الباب، يا تايرون. أنا المُحسِنة إليك.

واستعدنا الذكريات. فأخبرني عن موريس دادلي. لقد سبق لي أن سمعتُ القصة، ولكنني لم أقاطعه. موريس شخص طيّب القلب وحُلو المعشَر، يزن 250 رطلاً، ومتعمّق في الدراسات البيبلية في روديارد؛ كان على وشك الارتسام. «هاراكان» - زعيم النايت سينتس - «شخص فظّ جداً لدرجة أنه لا يتكلم معه، كما قيل. هل يمكنك أن تتصوّر ذلك؟».

«من قال إنه لا يوجد شيء مماثل لرد الاعتبار؟». كان الأمر مسلّياً على نحو لا يمكن تحمّله بالنسبة إلى كلَينا. ربما كنا نفكر بالمرأة التي كتب موريس على ذراعها اسمه ذات مرة بسكين المطبخ، أو برجال شرطة هذا المركز الذين أقسموا على أنه أخطأ في تهجئة اسمه.

«هل تواجه خَطباً ما أم ماذا؟». سألني كينيلي أخيراً.

«لست واثقاً تماماً»، قلت. «أحاول اكتشاف أمر ما».

«في أي شأن؟ كارولين؟».

فأومأتُ برأسي.

«ماذا هناك؟»، سأل كينيلي. «آخر ما سمعته في وسط المدينة هو أنها لم تتعرض للاغتصاب في الواقع».

وشرحتُ لليونيل وضع الدليل الموجود بين أيدينا.

«إذاً، ما تصوّرك؟»، سأل. «الرجل الذي تناولت الكوكتيل معه هو الفاعل؟».

«يبدو ذلك جليًّا. ولكنني أستمر بالتساؤل. ألم نصادف توم مختلسَ النظرِ ذاك، منذ عشر سنوات ربما، الذي راقب زوجَين وعاد بعد ذلك لاغتصاب السيدة تحت تهديد السلاح؟».

«يا الله»، قال كينيلي. «أنت ضائع حقاً. أنت تبحث عن شخص يطبّق القانون - شرطي، نائب عام، تحرٍّ خاص - شخص ما كان يعرف كيفية تحريف الحقائق عندما صرعها. هذا ما أتصوّره. لو كان برفقتها صديق في تلك الليلة، وتركها حيّة، لأبلغكم بشيء ما، ولَرغب في المساعدة».

«إذا لم تكن لديه زوجة يشرح لها ما يجري».

وفكّر كينيلي بهذا الأمر مليًّا. وهززتُ كتفَيّ نوعاً ما. ربما كنتُ مُحِقاً.

«متى رأيتَها للمرة الأخيرة؟»، سألتُ.

«قبل أربعة أشهر تقريباً. لقد جاءت إلى هنا».

«لأي سبب؟».

«للهراء نفسه الذي تقوم به: للتحقيق حول شيء ما ومحاولة عدم إفشاء الأمر».

فضحكتُ. إنه شرطيّ الشرطة. ونهض كينيلي، وتوجّه إلى كدسة من الصناديق في الزاوية.

«أرادت تسليم أحد المبتدئين مهمة مراجعة بعض هذا الهراء، لذلك لم تقلّم أظفارها أو تكوي جوارب النَّيلون».

«دعني أحزر»، قلت: «مَحاضر لقضايا تعود لتسعة أعوام مضت».

«أنت مُحِق»، قال.

«هل كان هناك اسم تبحث عنه؟».

ففكر كينيلي بالأمر مليًا. «أعتقد ذلك، وأتمنى لو أتذكر. كان هناك خَطب ما بالاسم أيضاً».

«ليون؟»، سألتُ.

وطقطق ليونيل أصابعه. «لا نو»، قال، «وشُهرته غير معروفة. هذا هو خَطبه. لم تكن تملك المعلومات الكافية».

«ما الذي توصلتْ إليه؟».

«لا شيء».

«هل أنت متأكد؟».

«أجل. ليس لأنها لم تلاحظ شيئاً، بل لأنها كانت تحاول في معظم الأوقات البقاء على صلة مع كل من يرمقها بنظراته، أي كل العاملين في مركز الشرطة. لِنقُل إنها كانت تمضي وقتاً ممتعاً بعد عودتها إلى هنا».

«عودتها؟».

«لقد عملتْ في الفرع الشـمالي عندما كانت شـرطية. لم تكن تعي ما تقوم به آنذاك. كانت عاملة اجتماعية حقيقية. ما كنت لأتصوّر مطلقاً أن يقوم هورغان باستخدامها كمساعدة للنائب العام».

لقد نسيتُ هذا الأمر. كنت على عِلم بذلك على الأرجح، ولكنني لم أتذكره. لقد عملت كارولين في الفرع الشمالي كضابطة مراقَبة. وفكّرتُ بالسكرتيرة التي ذكرها صديق نويل. لم يقل إن كانت بيضاء أم سوداء، بدينــة أم نحيلــة. ولكنــه قال إنها فتاة. هل كان بالإمكان اعتبار كارولين فتاة منذ تسع سنوات؟

«لم تكن تحبها كثيراً».

«كانت بائعة هوى»، قال كينيلي. «في الواقع»، قال، «كانت تقيم علاقة مع كل من يوصلها إلى القمة. باستطاعة الجميع ملاحظة ذلك».

ونظرتُ حَولي. لقد انتهى حديثنا كما يبدو. وسألتُه مرة أخرى إذا كان على ثقة بأنها لم تجد شيئاً.

«لم تجد أي شيء. باستطاعتك التحدث إلى الرجل الذي ساعدها إذا أردت».

«إذا لم تكن تمانع، يا ليونيل».

«ما الذي يدعوني إلى الممانعة؟»، ومدّ يده إلى الإنتركوم واستدعى شرطياً يدعى غيراش. «لماذا لا تزال تتكبد عناء هذا الأمر؟»، سألني في أثناء انتظارنا. «ستكون هذه القضيّة مسؤولية شخص آخر في وقت قريب، ألا تظن ذلك؟».

«أتعني ديلاي؟».

«أظن أن فوزه مضمون». ففي الأسبوع الأخير، كان ذلك كل ما تسمعه من رجال الشرطة. لم يتظاهروا قطّ بأنهم يحبون ريموند.

«لا يمكنك الجزم. ربما اكتشفتُ القاتل وأنقذتُ ريموند».

«لن يتمكن من إنقاذه سوى الله. يقولون في وسط المدينة إن بولكارو سيقابل نيكو بعد ظهر هذا اليوم».

وفكرت مليًّا بهذا الأمر. إذا أيّد بولكارو نيكو قبل ستة أيام من الانتخابات، فلن يعود ريموند سوى ذكرى سياسية.

ودخل غيراش. كان يبدو بمنتصف حجم رجال الشرطة، ووسيماً بطريقة قديمة الطراز. مشيته منتصبة، وحذاؤه برّاق، وأزرار كنزته الصوفية تلمع، وفَرق شعره مرتَّب.

فوجّه كينيلي الحديث إليه.

«هل تذكر مساعدة النائب العام تلك التي كانت هنا؟ بوليموس؟».

«نهدان جميلان»، قال غيراش.

والتفت كينيلي إليّ. «سيصبح هذا الفتى شرطياً. إنّه لا ينسى أبداً حجم حمّالة الثديين».

«أهي التي تمارس الحب على ضفة النهر؟»، سأل غيراش.

فقلتُ إنها هي. وأكمل كينيلي حديثه مع غيراش.

«حسناً، راستي هو المساعد الأعلى للنائب العام. وهو يريد أن يعرف إن كانت قد أخذت معها أي شيء عندما خرجتْ من هنا؟».

«لا عِلم لي بذلك»، قال غيراش.

«ما الذي كانت تبحث عنه؟»، سألتُ.

«أرادت ذات يوم رؤية محاضر المخالَفات. قالت لي إن هناك محاضر ضبط محرَّرة بحق ما بين ستين وسبعين شخصاً بسبب انتهاك الآداب العامة. لقد حدث ذلك قبل ثماني أو تسع سنوات تقريباً. على كل حال، نقلتُ الصناديق إلى هنا بالذات».

«كيف سارت الأمور؟».

«لقد أدهشتني. بدا الأمر كما لو أنها تعرف ما تبحث عنه. لقد طلبت مني البحث عن اليوم الذي سُجّلت فيه معظم الاعتقالات. وهذا ما فعلتُه. أعني، كنت لأحتاج إلى أسبوع للبحث في هذا الهراء. كانت هناك خمسمئة عملية اعتقال تقريباً بسبب انتهاك البند 42». ويتناول البند 42 العقوبات المترتِّبة على منتهكي الآداب العامة.

يوم واحد. وفكرتُ ثانيةً بالرسالة. لم يكن هناك ما يشير إلى هذا الإطار الزمني الضيّق في الملف. ربما تخلت كارولين عن البحث قبل أن تبدأ به، وقررت الاكتفاء بعيّنة.

«هل عثرتَ على ما أرادت العثور عليه؟».

«لقد ظننتُ ذلك. فاستدعيتها لرؤية ما وجدته، وتركتُها مع الأغراض هنا بالذات. قالت لي إنها لم تجد شيئاً».

«هل تذكر شيئاً عما أريتَها إيّاه؟ أي شيء مألوف في شأن الاعتقالات؟».

«كل شيء عن الغابة العامة. كل من حُرِّرت في حقهم محاضر ضبط. ظننتُ أنه عرْض لإقامة دليل ما ربما، أو ما شابه. لا أعرف».

«يا الله!» قال كينيلي لغيراش باشمئزاز. «عرْض لمنتهكي الآداب العامة؟ إنه عرض لكُرات لحم، أليس كذلك؟»، سألني.

«هل أخبرَتك شيئاً عما تبحث عنه؟ اسماً؟ أي شيء؟».

«كلا. حتى إنها لم تكن تملك شُهرة الرجل. لم أكن واثقاً من معرفتها بهذا الرجل». وتوقف غيراش قليلاً. «لماذا أظن أن للأمر

علاقة بالميلاد؟».

«نويل؟ أعطتك هذا الاسم؟».

وطقطق غيراش أصابعه. «هذا هو الاسم».

«ليس ليون؟».

«مُحال. إنه نويل. قالت لي إنها تبحث عن شخص يُدعى نويل ولكنها تجهل شُهرته. أتذكّر ذلك لأنها دوّنت لي الاسم وحفظتُه بسبب صلته بالميلاد».

«هل يمكنك أن تُريني ما رأته؟».

«لست أدري. أعتقد أنني وضعت تلك المستندات في مكانها المألوف».

«يا لحسن الحظ!»، قال كينيلي. «هيا، افعل ما يحلو لك».

وأشار إلى الصناديق في الزاوية.

وعندما فتح غيراش الصندوق الأول بدأ بتوجيه الشتائم، والتقط قبضة من الأوراق الطليقة كانت ملقاة فوق الملفات.

«في الواقع، لم تكن مرتَّبة. كانت هذه السجلات مرتَّبة عندما سلّمتها إيّاها». ورغبتُ في أن أسأل غيراش عما إذا كان واثقاً من الأمر، ولكن لا جدوى من ذلك لأنه يتذكر ما جرى وباستطاعتي رؤية الصفوف المرتَّبة للسجلات المتبقية. إضافةً إلى ذلك، لقد اعتادت كارولين الاطلاع على السجلات وتحويلها إلى أشلاء بعد أن أمضى آخرون سنوات في المحافظة عليها.

وشرع غيراش بفرز أوراق المحاضر وقسائم السندات، فمددت له يد العون. كان كينيلي منكبًا على العمل أيضاً بنشاط. فوقفنا حول طاولته، موجّهين الشتائم لكارولين. يُفترض بكل ملف أن يحتوي على محضر وتقرير الشرطة، وبطاقة اعتقال تحتوي على الصورة الفوتوغرافية للمتّهم وبصمات أصابعه، وشكوى، وقسيمة سندات، ولكن أيًا من هذه الملفات الستين أو السبعين لم يكن كاملاً. فهناك أوراق مفقودة، والأوراق الموجودة قُلبت رأساً على عقب، ووُضعت بشكل مائل. وليس

هناك ترتيب رقمي.

واستمر كينيلي بإطلاق الشتائم.

وبعد خمس دقائق من البحث، لفت انتباهي أمر جليّ؛ انعدام الترتيب هذا ليس عرَضياً. لقد تم البحث في هذه الأوراق مراراً وتكراراً.

«من قلّب محتويات هذه الصناديق بعد كارولين؟»، سألتُ كينيلي.

«لا أحد. إنها موضوعة في الزاوية منذ أربعة أشهر في انتظار من يعيدها. لا أحد يعرف بوجودها هنا سوانا أنا وهو، أليس كذلك؟»، سأل غيراش، فوافقه الرأي.

«لايونيل»، سألتُ، «هل تعرف تومي مولتو؟».

«بالطبع أعرف تومي مولتو منذ مدة طويلة. كان هذا الأخرق نائباً عاماً هنا».

لو فكرتُ بذلك لأدركتُ الأمر. لقد اشتهر مولتو بمعاركه مع قضاة الفرع الشمالي.

«هل كان هنا عندما كانت كارولين ضابطة مراقَبة؟».

«ربما. دَعني أفكر. تباً، يا راستي، لا أحتفظ بجداول خِدمة لهؤلاء الأشخاص».

«متى رأيتَه للمرة الأخيرة؟».

وفكّر لايونيل مليًّا. «منذ ثلاث أو أربع سنوات. ربما صادفتُه في أثناء عشاء أو ما شابه. في الواقع، لا بأس به. عندما ألتقيه أتحدّث إليه. أنت تعرفني».

«ولكنه لم يبحث في هذه السجلات؟».

«راقب شفتَيّ»، قال ليونيل. «أنت، أنا، غيراش، وهي. هذا كل شيء».

عندما أنهينا الفرز، اطّلع غيراش على الملفات مرة أخرى.

«هناك ملف مفقود، أليس كذلك؟»، سألت.

«هناك عدد من الملفات المفقودة»، قال. «قد يكون هناك خطأ».

«إذا كنت تقوم بتسجيل ستين محضر ضبط، فإن عددها هو آخر

ما يقلقك»، قال كينيلي.

فسألت ليونيل: «ولكن، ربما اختفى الملف أيضاً؟».

«إنه أمر محتمَل».

«لا بد من وجود ملف للمحكمة، أليس كذلك؟»، سألت. فنظر كينيلي إلى غيراش، ونظر غيراش إليّ. فدوّنتُ الرقم. يُفترض به أن يكون موجوداً على ميكروفيلم. سيحب ليبرانزر القيام بذلك.

وعندما ذهب غيراش، أمضيت مدة قصيرة إضافية من الزمن مع كينيلي.

«ألا تريد الإفصاح عما يجول في خاطرك؟»، سأل.

«لا أستطيع، يا لايونيل».

فأومأ برأسه، ولكنه بدا منزعجاً.

«آه، أجل»، قال لايونيل، «كانت تلك الأيام التي أمضيناها هنا مسلّية. الكثير من القصص». كان يُطيل التحديق بأمر ما كما لو أنه مستغرِق في التفكير، فعلمتُ أن لكل منا أسراره.

في الخارج، كان هناك حَر حقيقي يبلغ 80 درجة. لا بد من أن يسجّل شهر نيسان/أبريل رقماً قياسياً في ارتفاع درجة الحرارة. وفي السيارة، شغّلتُ الراديو على المحطة الإخبارية. كان هناك بثّ حيّ من مكتب رئيس البلدية. لقد سمعتُ ما يكفي من تملّق سعادته لأفهم المغزى. يحتاج مكتب النائب العام إلى دم جديد وإدارة جديدة. يريد الناس ذلك. يستحق الناس ذلك.

كان عليّ الشروع بالبحث عن عمل.

14

أُطلقت كرة البيسبول. لقد بدأت مباراة المرحلة الثانية من دَوري الآباء/الطلاب تحت الضـوء المتضـائل لمساء الربيع. كانت السماء على مسافة قريبة من الحقل المفتوح، ويمتد مرج مُعشَوشب فوق ما كان ذات مرة مسـتنقعاً، في حين أغلق فتيان وفتيات فريق سـتينغرز الموجودون في الميدان المُحاط بمضـمار العَدو سحّابات سـتراتهم الرياضية الجلدية وقفّازات البيسـبول. كان الآباء يزحفون على امتداد خطوط الانطلاق مُطلِقين التوجيهات في أثناء هبوط الغسَـق. وعند لوحة ضـارب الكرة، لوّح فتى ضـخم البنية في الثامنة من عمره، ويدعى روكي، بمِضـربه مرتيـن أو ثـلاث مـرات في جِوار الدُّمية القماشـية المعلّقة فوق شـجرة المطاط. ومن ثم، ردّ الكرة بقوة إلى الفضاء الخارجي بتركيز مُذهل، فهبطـت فـي الوسـط إلى جهة اليسـار خارج محيط الدفـاع المتزعزع لستينغرز.

«هيـا يـا ناتانيال!». صـحتُ مع العديد من الأشـخاص الآخرين. «هيا يا نات!». فاستعاد حماسته، ووصل إلى الكرة الموجودة على بُعد خطوة من جِنّية رشيقة تدعى مولي ويتدلى شعرها المسرَّح على صورة ذيل حِصان من تحت قُبّعة البيسبول. فالتقط نات الكرة، وحرّك ذراعه بشكل دائري، ورماها. واتجهت الكرة في مسار متقوّس نحو الميدان، وهبطت من دون حراك بين المدافعَين عن الموقعَين الثاني والثالث في أثنـاء التفـاف روكي متوجهاً إلى لوحة ضـارب الكـرة. وكان بإمكاني دون سواي توبيخ ابني وفقاً لآداب السلوك المحلية، فمشيتُ الهُوَينا على امتداد خط المخالَفة، مصـفّقاً بيدَيّ. «اسـتيقظ! اسـتيقظ». لم أكن أخشى على نات. فهزّ كتفَيه، ورفع يده التي يضع فيها قفّازاً، وابتسم كاشفاً عن المجموعة الكاملة لفجوات مصـباح اليقطينة، وعن أسـنانه غير المستوية

التي تبدو كشمعات صغيرة مشكوكة في قالب حلوى.

«أبي، لقد فقدتُه للتوّ»، صاح، «لقد فقدتُه في الواقع». وانضمت إليّ مجموعة الآباء في ضحك مفاجئ. وكرّرنا ما قاله لبعضنا. لقد فقده. وربّت كليف نودلمان على ظهري. لقد تعلم الفتى اللغة الغريبة على الأقل.

هل يحلم رجال آخرون بأن يكون أبناؤهم مثلهم عندما كانوا فتياناً؟ لقد انتظرتُ ذلك طوال عشرين عاماً بحماسة شديدة وأمل. كنت أرى ابني على الدوام لطيفاً ومُطيعاً، صالحاً وزاخراً بالصفات الحسنة والمهارات.

ولكن نات لا يمتلك هذه الصفات. فهو ليس فتى سيّئاً، وأكرر وباربارا هذا الأمر في منزلنا باستمرار مذ كان في الثانية من عمره. ففي الواقع، نات ليس فتى سيّئاً، وأنا أثق بذلك بحرارة وبقلب مليء بالحب. إنه حساس ولطيف، ولكنه جامح وشارد، ولديه أسلوب خاص به منذ ولادته. فعندما أقرأ له، يقلّب الصفحات تحت يدي ليعرف نهاية القصة. وهو لا يُصغي، أو أنه لا يهتم كما يبدو. وطالما اعتُبر سلوكه هذا مشكلة في المدرسة.

ولكن جاذبيته غير المكترِثة ومواهبه الجسدية تُنقذه. فابني وسيم. أنا أتكلم عن وسامة تفوق الجمال الطفولي العادي، والملامح اللطيفة. فلهذا الفتى عينان قاتمتا اللون، نبيهتان، ونظرة استحواذية. لستُ مصدر هذه المميزات الجميلة. فأنا ضخم البُنية وقصير القامة، أنفي كبير، وجبيني مماثل لجبين الإنسان النياندرتالي. أما أنسباء باربارا فهم أصغر حجماً، وطلعتهم بهيّة، وننسب إليهم باستمرار الفضل في المظهر الذي اكتسبه نات. وغالباً ما كنت أفكر، وبانزعاج، بوالدي وبوسامته السلافية التي تنفذ إلى القلب. وبسبب ارتيابي بذلك المصدر ربما، كنت أصلّي طوال الوقت أمام مذبحي الداخلي كي لا تقود هذه النعمة نات إلى الضلال، والصلَف، لا بل القسوة أيضاً؛ وهي ميزات يعتبرها الأشخاص الوسيمون الذين يمتلكونها والذين أصادفهم أحياناً أسباباً طبيعية للأسى.

بعد انتهاء المباراة، تفرّقنا اثنين اثنين في اتجاه سِرب السيارات المركونة في الموقف. ففي شهر أيار/مايو، وعندما يؤخَّر التوقيت المحلي ويعتدل الطقس، يبقى الفريق بعد المباريات للقيام بنزهة. ويتم تدبّر الأمر أحياناً بوجبة بيتزا يرسلها الباعة. ويتناوب الآباء على تولّي المسؤولية الأسبوعية بإحضار الشراب. وبعد العشاء، يجدد الفتيان والفتيات مباراة البيسبول، ويستلقي الآباء على العشب، ويتحدثون عرَضاً عن حياتهم. كنت أتطلّع إلى هذه النزهات؛ فوسط هذه المجموعة من الرجال، يسود انسجام لطيف كما يبدو مماثل للانسجام الذي يشعر به المؤمنون بين بعضهم في أثناء مغادرتهم دار العبادة: الآباء والأبناء بعيداً عن اهتمامات الحياة المهنية الأسبوعية، لا بل أيضاً بعيداً عن مُتعات الزواج ومسؤولياته. فالآباء يُشرقون في ليالي الجمعة من خلال إتمامهم هذه الواجبات التي لا تُقاس.

في هذا الفصل الأكثر برودة وظلمة، كنت قد وعدت باربارا بلقائها لتناول عشاء سريع في مطعم للفطائر المقليّة المُحلاة. كانت تنتظر على المقعد الأحمر المصنوع من الفينيل عندما وصلتُ، واستقبلتني بنظرة باردة في أثناء قيامها بتقبيل نات واستلام تقرير عن الانتصار الوشيك للستينغرز. كنا وسط فترة كئيبة؛ لم يخبُ غضب باربارا بسبب مشاركتي في التحقيق بمقتل كارولين، ولاحظتُ في تلك الليلة على الفور وجود مستوى جديد لاستيائها. فأول ما تبادر إلى ذهني هو أننا تأخرنا كثيراً، ولكن عندما تحققتُ من ساعة المطعم وجدتُ أننا وصلنا قبل الموعد بدقيقة. ليتني كنت قادراً على أن أحزر ما الذي تسبب بإغضابها.

بالنسبة إلى باربارا، بات من السهل عليها على مَرّ السنوات التواري بسهولة داخل الغابات المُظلمة لأمزجتها. وأصبحت عناصر العالم الخارجي التي كانت تعيقها ذات مرة من الماضي. لقد طبعتها السنوات الست التي أمضتها في التعليم في نورث إند بطابع الإصلاح الاجتماعي. وعندما وُلد نات، شعرتْ بالاكتفاء. لقد هدّأتها حياة الضواحي، وحدودها الضيّقة، وقِيَمها الخاصة، وفاقمتْ من رغبتها في أن تكون بمفردها.

واعتَبرت وفـاة والدهـا قبل ثلاث سـنوات هروباً مـن تجاهله لمتطلبات باربارا ووالدتها طوال حياته، وشحذت شعورها بالحرمان. وسلبتها اللحظـاتُ المُملّـة فـي حياتنا الزوجية البهجةَ التامـة التي كانت ذات يوم عامـل تـوازن في هذه المراحـل القاتمة. وخلال هذه الفترات، غالباً ما كانـت خيبـات أملها مـن الجميع تقريباً كبيرة لدرجة أنني اعتقدتُ أنها قد تَزداد مرارة إذا أمسكتُ بيدها وقبّلت بشرتها.

وبعـد ذلـك، تراجعـت العلاقـة بيننا كما كانت الحال في السـابق. وبالرغم من استمرار هذا التراجع، الذي حصل بسبب عدم الإخلاص، مدة أطول من سواه في حياتنا الزوجية، استمررتُ بتوقع حدوث تحسّن ما. وحتى في هذا الوضع، لم تكن باربارا تتحدث عن المحامين والطلاق كما فعلتْ في تشرين الثاني/نوفمبر السابق. كانت حاضرة، وقد انعكست صراحتها تهدئةً للأجواء. كنت كناجٍ من تحطّم سفينة يتمسك بالحُطام في انتظار وصول سفينة الخطوط الملاّحية، وأعتقد أنني، عاجلاً أم آجلاً، سـوف أرى امرأة في حالة نفسـية جيدة تهتم بي، وتتمتع بذكاء متّقد، وبنفاذ بصـيرة اسـتثنائي، وبظُرف ماكر. إنها المرأة التي كنت لا أزال أفكر فيها كزوجة لي.

وها هي المرأة نفسـها ترمقني بنظرة قاسـية بقسـاوة الماس في أثناء انتظارنـا في الصـف للحصـول على مقاعد. وانسـلّ نـات بعيداً وحدّق بمِنضـدة السـكاكر بهيـام. وتهدّل سـروال البيسـبول الخاصـ به حتى وصل إلى أعلى حذائه تقريباً، ووقف مُسنِداً ركبته ويدَيه إلى الصندوق الزجاجي، ومحدّقاً بتقدير مركّز بصفوف اللبان المحلّى بالسكّر، وبألواح الشـوكولاته. وتمايـل قليـلاً، بالطبـع، للفت انتباهنـا. وكالعادة، كنتُ وباربارا نراقبه.

«إذاً؟»، سألتني فجأةً. إنه تحدٍّ. يُفترض بي أن أوفّر لها التسلية.

«إذاً ماذا؟».

«إذاً، كيف يسير العمل؟ هل يحقق هذا التحقيق العظيم نجاحاً؟».

«ليسـ لدينـا طرف خَيـط»، قلت لها، «ولا نتائج. إبهام بالجُملة.

صدقاً، إنّ مكتب المدّعي العام غائص في هذا التحقيق. الأمر أشبه بإخراج الهواء من البالون. في الواقع، سيقابل بولكارو ديلاي».

ولدى ذكر هذا الحدث، جفلت باربارا ورمقتني مرة أخرى بنظرة قاسية. أخيراً، أدركتُ سبب غضبها. فلقد عدتُ في اليوم السابق إلى المنزل في وقت متأخر جداً وبقيتُ في الطابق السُفلي، ظانًّا أنها نائمة. فنزلت باربارا بقميص نومها بضع درجات، وسألتني عما أفعله. وعندما أخبرتها بأنني أعمل على ملخص سيرتي الذاتية، استدارت على الفور وعادت إلى الطابق العُلوي.

«ألم يُشر ريموند اليوم إلى أنه سيجعلك قاضياً؟»، سألتْ.

وجفلتُ بدَوري، نادماً على الغرور المجنون الذي حملني على ذِكر هذا الاحتمال. لقد أبدى بولكارو قبل يومَين اهتماماً بجعل ريموند هورغان سعيداً.

«ماذا تريدين مني أن أفعل، يا باربارا؟».

«لا أريدك أن تفعل أي شيء، يا راستي. لم أعُد أريد منك أن تفعل أي شيء. ألا تفضّل ذلك؟».

«يا باربارا، لقد أبلى بلاءً حسناً».

«وماذا فعل لأجلك؟ أنت في التاسعة والثلاثين من عمرك. لديك عائلة، وتتطلّع لتعويض نهاية الخدمة. لقد جعلك تحمل حقائبه وتحلّ مشاكله، وعندما يستقيل سيجرّك معه في البالوعة».

«لقد قمنا بأمور جيدة».

«لقد استغلك. طالما استغلك الناس وأعجبك الأمر. في الواقع، أنت تحب ذلك. أنت تفضّل التعرّض للإساءة على الاهتمام بالأشخاص الذين حاولوا الاعتناء بك».

«هل تُلمحين إلى نفسك؟».

«أنا، والدتك، نات. إنه نمط حياتك. لا أمل يُرجى منك».

ليس نات، كنت على وشك أن أجيب، ولكن حسًّا بالدبلوماسية أو بالمحافظة على الذات حال دون ذلك. وقادتنا مضيفة المطعم، وهي

شـابة صـغيرة الحجم، إلى طاولتنا. وتفاوضـت باربارا مع نات حول وجبته. بطاطا مقليّة أجل، ولكن مع الحليب وليس الكولا، ويجب عليه تناول بعض السلَطة. وناح نات وتحرّك على نحو متراخٍ. فأمسكتُ به برِفق وطلبتُ منه الجلوس بشـكل مسـتقيم. وبقيت باربارا غير مكترِثة وراء حاجز الطعام.

هل كانت أكثر سعادة عندما التقيتُها؟ لا بد من أنه واقع الحال، عِلماً أنني لا أستطيع تذكّر الأمر بوضوح. لقد قامت بتدريسي عندما تغاضيتُ - بشـكل جنوني - عن أهمية حسـاب التفاضـل والتكامل للانتسـاب إلى الجامعـة، ولـم تطالب بأجرها قطّ. كانت مُعجَبة بي، وكنت مُعجَباً بها. لقد أحببت فطنتها الوحشية، وجمالها المَلَكي في سنّ المراهقة، وملابسها الخاصـة بسـكان الضـواحي، وواقع أنها ابنة طبيب. وهكذا، ظننتُ أنها شـخص طبيعي، حتى إنني أحببت التقلقل في شخصـيتها، وقدرتها على التعبير عن عدة أشياء بخلافي. لقد أحببت حماستها الشديدة تجاهي أكثر من أي شـيء آخر. لم يسـبق لأي شـخص أن رغب في رِفقتي على هذا النحو، وكانت تقدّر بشـكل واضـح كل جانب من كياني. لقد التقيتُ سـتة رجال رغبوا في باربارا، ولكنها لم تقبل بسواي، وسعتْ ورائي، في الواقع، بحماسة وجدتُها مُحرِجة في بادئ الأمر. لقد افترضتُ أنها تريد تهدئة هذا الفتى المُربَك والكئيب الذي يعتريه أسى سرّي، وكانت تعرف أن والدَيها سيعتبرانه دون مستواها.

كانت وحيدة والدَيها، على غراري وعلى غرار نات، وشـعرتْ بالظلم في أثناء نشأتها. كان اهتمام والديها بها خانقاً، واعتبرتْ أنه مزيَّف بطريقة ما. لقد ادّعت أنها كانت موجَّهة ومستغلَّة في كل الأوقات كأداة لتنفيذ رغباتهما وليس رغباتها، وكانت تقول لي في غالب الأحيان إنني الشخص الوحيد المماثل لها الذي قابلتْه. فأنا لا أشعر بالوحدة فحسب، بل أنا وحيد على الدوام. هل التبادل الحزين للحب يعني أنك تريد الحصول مـن الآخـر علـى الدوام على ما تظن أنك تعطيـه إياه؟ لقد أملت باربارا في أن أكون كأمير ما في قصص الخيال؛ عُلجوماً حوّلتْه بقبلاتها، يمكنه

دخول الغابات المُظلمة حيث تُحتجز، ويقودها بعيداً. وعلى مَرّ السنوات، غالباً ما فشلتُ في هذه المهمة.

كانت الحياة في المطعم تدور حولنا بطريقة طبيعية. أزواج يتحدثون وراء طاولات منعزلة، عاملون في مناوباتهم الأخيرة يتناولون العشاء بمفردهم؛ نادلات يسكبنَ القهوة. وهنا يجلس راستي سابيتش البالغ من العمر تسعة وثلاثين عاماً مُثقَلاً بأعباء الحياة وبالإجهاد اليومي. فطلبتُ من ابني شرب الحليب، وتناولتُ قضمات صغيرة من البرغر الخاصة بي. وعلى بُعد ثلاث أقدام منّي توجد المرأة التي قلت إنني أحببتها طوال عشرين عاماً تقريباً، وها هي تبذل قُصارى جهدها لتتجاهلني. لقد استنتجتُ أنها تقوم بذلك عندما تشعر بالإحباط، وأنها محرومة. لقد أدركتُ ذلك. إنها موهبتي. ولكن، لا قدرة لي على القيام بأي شيء حيال الأمر. فليس الروتين في حياة البالغين ما يستنفد قوتي ببساطة، بل افتقاري إلى حاجة بشرية، ولا يمكننا أن نكون غير ما نحن عليه. لديّ تاريخي الخاص: ذكريات، متاهة ذاتي غير المحلولة حيث أضيع في غالب الأحيان. لقد سمعتُ صخَب باربارا الداخلي، وفهمتُ حاجتها، ولكن لم يكن بإمكاني تلبيتها إلا بسكون وأسف. يجب المحافظة على جزء كبير مني - كبير جداً! - للمهمة الضخمة التي تنتظرني وهي أن أكون راستي.

15

كان الطقس في يوم الانتخابات صافياً. ففي الليلة السابقة، كنت جالساً في مكتب ريموند مع مايك ديوك ولارين وهورغان، وظنّوا أن الطقس الجيد سيكون عاملاً مساعداً. وبما أن ديلاي غارديا هو المنافس، عوّل ريموند على الناخبين الذين يؤثّر فيهم وليس على أمنيات قادة الدوائر الانتخابية. لقد أخذ من الأسبوع السابق عِبرة غريبة: كلما حدث تطور سلبي، تقولون إن الأمر ميؤوس منه، وتمضون قدُماً بعد ذلك. وفي الليلة السابقة، كان لا يزال في مكتب ريموند حديث عن تحقيق الفوز. لقد أُجري استطلاع الرأي الأخير الذي رعته مرة أخرى الصحيفة والقناة الثالثة عندما منح بولكارو تأييده لديلاي غارديا، وأظهر تأخر ريموند بخمس نقاط. وقال ديوك إنه يعتقد أن الأمور قد تحسنت مذاك الحين، وإن ريموند قد استعاد بعضاً من زخمه القديم كما يبدو بعد أن أصبح المرشح المضطهَد. كنا أربعة رجال بالغين نتصرف كما لو أن الفوز يمكن أن يتحقق.

وفي العمل، كالعادة، يحمل يوم الانتخابات معه مشاعر متقلقلة. لقد أصيب موظفو مكتب النائب العام، الذين عملوا لصالحه في الدوائر الانتخابية ودعوا الناخبين للاقتراع لصالحه، بالإحباط بسبب موقف ريموند من التدخل السياسي الناشط. لقد ولّت الأيام التي كان المساعدون يقومون فيها ببيع بطاقات للنزهات في قاعات المحاكم تندرج في إطار الحملة الانتخابية للنائب العام؛ فطوال اثني عشر عاماً، لم يستجدِ ريموند هورغان قطّ من أعضاء فريقه سِنتاً واحداً على صورة هِبات، أو أي مساعدة مجانية في الحملة الانتخابية ولو لمدة دقيقة واحدة. وبالرغم من ذلك، استمر العديد من الموظفين الإداريين الذين انضموا إلى فريق العمل قبل انتخاب ريموند بمطالبة رعاة الحزب بتأمين الوظائف لهم. وكجزء

من الاتفاق غير المريح الذي عُقد مع بولكارو قبل عقد من الزمن، وافق ريموند على منح معظم أفراد هيئة موظّفي النائب العام إجازة في يوم الانتخابات. بهذه الطريقة، يمكن لأتباع الحزب إنجاز أعمال لصالحه: قرع الأبواب، توزيع نشرات إعلامية، نقل المتقدّمين في السن إلى صناديق الاقتراع، مراقبة الانتخابات. وفي هذه الانتخابات، سيقومون بهذه المهام لصالح نيكو ديلاي غارديا.

بالنسبة إلينا نحن المتبقّين، لم نكن مُلزَمين بأي واجبات. لقد أمضيت معظم اليوم في المكتب وأنا أدير دفّة هذه السفينة الغارقة، وكان هناك عدد قليل من الأشخاص: محامون في الغالب يعملون على ملخّصات دعاوى أو محاكمات، أو ينظفون طاولاتهم. لقد تم انتداب نحو عشرين مساعداً أصغر سناً للعمل مع مكتب المدّعي العام الأميركي والقيام بجولة تفقّدية للحرص على عدم حدوث أعمال غش في أثناء الانتخابات. ويشمل هذا الأمر بصورة عامة تلقّي شكاوى تافهة: ماكينة اقتراع لا تعمل، إدخال أحدهم سلاحاً إلى مركز الاقتراع، قاضي انتخابات يضع زرّ حملة انتخابية أو يقدّم النُصح لمقترعين متقدّمين في السن. كنت أحصل على آخر المستجدات عبر الهاتف، وأتلقى اتصالات هاتفية صحافية أبلغ فيها المتصلين بعدم وجود ما يشير إلى التلاعب بالعملية الديموقراطية.

ونحو الساعة الرابعة والنصف، تلقيت اتصالاً من ليبرانزر. ووضع أحدهم تلفازاً خارج باب مكتبي مباشرةً، ولكن أي تقرير لم يكن قد ورد بعد. لقد مُدِّد اليوم الانتخابي نصف ساعة قبل إقفال مراكز الاقتراع، ووردت أنباء عن وجود فارق كبير بين النتائج التي حققها المتنافسان.

«لقد خسر». قال لي ليب. «رأى رَجلي في القناة الثالثة استطلاعاتهم الانتخابية بعد خروج الناخبين من مراكز الاقتراع. يقول إن نيكو سيفوز بفارق يتراوح بين ثماني نقاط وعشر نقاط إذا لم تحدث أي مفاجآت».

وغاص قلبي مرة أخرى، وتقلّصت أمعائي. إنه أمر مضحك، ولكنني صدّقتُه هذه المرة. ونظرتُ إلى خارج النافذة في اتجاه أعمدة

دار القضاء، وسطوح المباني المستوية المكسوّة بالقطران في وسط المدينة، والمياه السوداء المتماوجة للنهر الذي يستدير كمِرفق بعد مجمّعَين سكنيَّين. كان مكتبي على الجانب نفسه من ذلك المبنى طوال سبع سنوات، ومع ذلك لم يكن المشهد يبدو مألوفاً.

«حسناً»، قلت أخيراً بمهابة. «هل هناك شيء آخر؟».

«لا شيء»، قال ليب. «سأبلغك بكل جديد». وانتظر. «هل ما زلنا نعمل على قضية بوليموس؟».

«هل لديك شيء أفضل تقوم به؟».

«لا»، قال، «لا. لقد جاءوا اليوم إلى هنا للحصول على كل تقاريري. من أجل مورانو». إنه رئيس الشرطة. «يريد تفحّصها».

«إذاً؟».

«بدا لي ذلك غريباً. كما تعلم، لقد رُوّعت حماته تحت تهديد المسدّس قبل ثلاث سنوات، ولا أعتقد أنه ألقى نظرة على تقارير تلك الحادثة».

«لَفهمتَ ذلك»، قلت، «لو كانت لديك حماة». فاعتبر ليب حس الفكاهة لديّ متعمَّداً: إنها فرصة مناسبة للاعتذار بسبب نفاد صبري قبل لحظات. «إنهم يحرصون على تزويد نيكو بما بلغه التحقيق. يا لهذه الدُّعابة!»، قلت. «ربما يحصل مولتو على نسخات من تقارير الشرطة».

«ربما. لا أعلم. هناك أمر مثير للريبة. لقد جاء شميت بنفسه. الأمر في غاية الخطورة، كما لو أن الرئيس قد تعرّض لإطلاق نار».

«يريدون فقط أن يُظهروا للجميع أنهم يقومون بعملهم على أكمل وجه».

«سأقصد دار القضاء في الفرع الشمالي لإنهاء ملفات المحاكمات تلك»، قال ليب مشيراً إلى السجلات التي كنا نبحث عنها منذ زيارتي إلى الدائرة الثانية والثلاثين. «لقد وعدوا بتسلّم الميكروفيلم من المستودع قبل الخامسة. أريد الوصول إلى هناك قبل أن يقوموا بإعادته. أين ستكون الليلة لو اكتشفتُ أمراً ما؟».

فقلت له إنني سأكون مع ريموند في مكان ما من الفندق، ومن الأهمية بمكان أن يعود مع نتائج التحقيقات. ولكن ليب قال إنه سيمرّ بريموند على كل حال لتقديم التعازي.

«يسهر الايرلندي قرب جثة الميت على أكمل وجه قبل دفنها»، قال ليب.

وثبتت دقة تقدير ليبرانزر. كانت الفرقة الموسيقية تعزف ألحاناً صاخبة، والفتيات الموجودات هناك لا يزلن زاخرات بذلك الاتقاد المريح للنظر، مع لافتات على صدورهنّ وقبّعات قش خاصة بالحملة الانتخابية تتمايل بإتقان على شعرهنّ. كان كل شيء يقول **هورغان!** بحروف سَلتية خضراء بلون الزيزفون. وفي الجهة الأمامية، وعلى جانبَي منصة الخطباء الشاغرة، تنتصب صورتان كبيرتان لهورغان بارتفاع عشر أقدام. وتنقلتُ في أرجاء صالة الحفلات، واخزاً كرات اللحم وشاعراً بالسوء.

ونحو الساعة السابعة والنصف، قصدتُ جناح ريموند في الطابق الخامس. كان هناك أشخاص شاركوا في الحملة يتنقلون عبر الأبواب دخولاً وخروجاً، وثلاث صينيات تحتوي على قطع لحم باردة، وبعض قناني الشراب على إحدى الخزائن، ولكنني رفضت دعوة المشاركة بالأكل والشرب. كان يوجد بالتأكيد عشرة أجهزة هاتف ترنّ في تلك الغرف الثلاث.

كانت المحطات التلفزيونية الثلاث قد أعلنت عن فوز ديلاي غارديا. ودنا مني لارين - القاضي ليتل - حاملاً كأساً من الشراب بيده، ومتأفّفاً من الاستطلاعات الانتخابية بعد خروج الناخبين من مراكز الاقتراع.

«للمرة الأولى»، قال، «أرى شخصاً تُعلَن وفاته قبل اصطدامه بالأرض».

ولكن ريموند كان متفائلاً. كان جالساً في إحدى غرف النوم الداخلية وهو يشاهد التلفاز ويُجري حديثاً عبر الهاتف. وعندما رآني، وضع

سمّاعة الهاتف مكانها وتوجّه نحوي ليعانقني. «يا روزات»، قال، وهو اسمي الأول. كنت أعلم أن مبادرة ريموند هذه تكررت على الأرجح عشرات المرات مع أشخاص آخرين في ذلك المساء، ولكنني وجدت نفسي ممتنًا إلى حد كبير ومُثارَ المشاعر بسبب ضمّي إلى العائلة الحزينة.

وجلستُ بجانب ريموند على مِسند القدمَين التابع للكرسي المريح الذي يشغله هورغان. كانت هناك قنينة شراب مفتوحة، إضافةً إلى شطيرة تم تناول نصفها، موضوعة على الطاولة بجانب الكرسي. وواصل ريموند تلقي الاتصالات الهاتفية، متشاوراً مع لارين ومايك وجو رايلي. ولازمتُ مكاني. لقد تذكرتُ الليالي عندما كنت أستأذن والدي على الدوام قبل الجلوس بجانبه على الأريكة في أثناء قيامه بمشاهدة مباراة في الكرة على التلفاز أو الاستماع إلى وقائعها عبر الراديو. إنها اللحظات الأكثر دفئاً التي حظينا بها. وعندما أصبحت أكبر سنًّا، بات والدي يمرر لي قنينة الشراب من حين لآخر ويعلّق بصوت مرتفع على مجريات المباراة.

في النهاية، تم التطرق في المناقشة إلى آداب السلوك. هل يتصل ريموند بديلاي غارديا أولاً، أم يقصد الطابق السفلي للتوجّه بكلمة إلى أنصاره؟ فقرروا الاتصال بديلاي غارديا، وقال مايك إنه يُفترض بريموند الاتصال به، في حين ارتأى جو إرسال برقية له.

«تبًّا لذلك»، قال ريموند، «الرجل موجود في الشارع، وسأتوجه إليه لمصافحته». وطلب من لارين القيام بالإجراءات المناسبة. سوف يقابل نيكو، ويلقي كلمته، ومن ثم يعود لإجراء مقابلات مع مراسلي المطبوعات ووسائل الإعلام، كلّ على حِدة، ولكنه لن يتطرق إلى قضية مقتل كارولين. وطلب من ماك الشروع بوضع جدول لتلك اللقاءات التي يبدأ بإجرائها عند التاسعة والنصف، على أن يتم نقله بشكل مباشَر عند العاشرة عبر محطة روزنبرغ. لم ألاحظ وجود ماك حتى تلك اللحظة، وعندما استدارت بكرسيّها قالت لي عبارة واحدة: «أمر محزن».

وطلب ريموند رؤيتي بمفردي. فدخلنا غرفة الملابس بين غرفتَي

النوم في الجناح، ولم تكن سوى خزانة كبيرة مع مرحاض.

«كيف حالك؟»، سألتُ.

«مررتُ بأمور أكثر سوءاً. سيكون يوم غد سيئاً، وبعد غد، ولكننا سنستمر. اسمع»، قال ريموند. «في شأن ما أشرتُ إليه في تلك الليلة: عندما أقابل نيكو، سأطرح استقالتي. لا أريد الغرق في المتاعب، ولا أريد أن أبدو كما لو أنني أعبث بالمنصب. أريد الخروج بطريقة لبِقة. إذا أراد نيكو خوض الانتخابات العامة لشغل المنصب، دعه يقوم بذلك. سأُبلغه أنّ لا مانع لديّ باستلامه المنصب إذا وافقت الهيئة الإدارية في المقاطعة». إنها فُكاهة. فبولكارو هو رئيس الهيئة الإدارية في المقاطعة، ورئيس مجلس إدارة الحزب، ورئيس البلدية. فهذا الرجل يحمل ألقاباً أكثر من قائد جمهورية الموز.

فقلتُ لريموند إنه اتخذ قراراً حكيماً. ونظرنا إلى بعضنا.

«أشعر كما لو أنه يُفترض بي الاعتذار منك، يا راستي»، قال ريموند. «لو كان هناك أي مساعد أرغب في أن يحل مكاني لكان أنت كما تعلم. كان يُفترض بي القيام بذلك بدلاً من خوض الانتخابات. لقد حثّني الرجال بقوة للقيام بمحاولة أخرى».

ولوّحت بيدي، وهززت رأسي، ونهيتُه عن الاعتذار.

ومدّ لارين رأسه عبر الباب.

«كنت أقول لراستي»، أخبره ريموند، «إنه لم يكن يُفترض بي قطّ خوض الانتخابات مرة أخرى، بل كان يجدر بي منحه الفرصة لمحاولة الفوز بالمنصب. وجه جديد. مدّع عام مِهني، غير سياسي. لَتمكن من إعادة خلط الأوراق في الواقع. أليس كذلك؟».

«تبًّا»، قال القاضي، «ستجعلني أصدّق الأمر في وقت قريب».

وضحكنا جميعاً.

ونقل لارين ما جرى مع أتباع ديلاي غارديا. لقد تحدث إلى تومي مولتو الذي ظهر فجأة في تلك الليلة كمساعد رئيس، وعرف أنهم يفضلون عدم إجراء المقابلة وجهاً لوجه في ذلك المساء، ولكن مولتو

ونيكو أرادا مقابلة ريموند في الصباح.

«عند العاشرة»، قال لارين. «لقد أبلغني ذلك ولم يطلب رأيي. وقال، رجاءً، احرص على أن يكون ريموند بمفرده. ما رأيك بذلك؟». وتأمّل لارين في الأمر مستاءً. «قلتُ إنك ستتصل بنيكو للقيام بتنازل رسمي عندما تكون مستعداً».

فأخذ ريموند كأس الشراب من يد لارين وتناول جرعة كبيرة.

«أنا مستعد»، قال.

لم أشأ الاستماع، وتوجهتُ إلى صالة الحفلات.

فالتقيتُ جورج مايسن مصادفةً واقفاً بجانب المشرب، وهو صديق قديم لريموند. كان ثملاً، وتعرّضنا كلانا للتدافع.

«حشد كبير»، قال لي.

لم تتبادر الفكرة إلى ذهني إلا بجانب المشرب، ولكنني لم أفكر بالأمر.

«خاض انتخابات جيدة»، قال جورج. «لقد قام بعمل جيد. يُفترض بكم الافتخار بذلك».

«نحن فخورون بذلك»، قلت. «وأنا فخور».

«إذاً، ماذا عنك؟ هل ستزاول مهنة خاصّة؟».

«لفترة وجيزة كما أظن».

«ستتولى قضايا جنائية؟».

لقد أجريتُ هذا الحديث مراراً في تلك الليلة؟ فقلت لجورج إنه أمر محتمَل، لا أحد يعرف. سوف أذهب في إجازة، إنه أمر مؤكّد. وسلّمني جورج بطاقته وطلب مني الاتصال به. ربما يعرف أشخاصاً أرغب في التحدث إليهم.

وصل هورغان إلى صالة الحفلات بعد عشرين دقيقة. وشق مراسلو المحطات التلفزيونية طريقهم بخشونة إلى الجهة الأمامية، ورفعوا كاميراتهم والأضواء وأذرع الميكروفونات حاجبين الرؤية. كان ريموند يبتسم ويلوّح بيده، وإلى جانبه على المنصة اثنتان من

بناته، فيما كانت الفرقة الموسيقية تعزف موسيقى إيرلندية راقصة. وقال ريموند: «شكراً لكم» للمرة الثالثة قبل أن يهدأ الحشد، وأمسك أحدهم بذراعي. إنه ليبرانزر. لقد بدا منزعجاً بسبب اضطراره لشق طريقه بصعوبة ليصل إليّ. كان هناك الكثير من الضجيج: خبطات أقدام على الأرض، صَيحات، صفير، حتى إن البعض شرعوا بالرقص في الناحية الخلفية. فأومأ لي ليبرانزر للخروج، وتبعتُه تحت لوحة كُتبت عليها كلمة **مَخرج**. وانتهى بنا الأمر بشكل غير متوقَّع في زقاق خارج الفندق، وسار ليب في اتجاه مصباح الشارع. وعندما تمكنتُ من رؤيته بوضوح، أيقنتُ أن هناك خطباً ما. لقد بدا منهاراً إلى حد ما، وينوء تحت عبء قلق ما، والعرق يلمع بجانب صدغه. مِن هناك، كان باستطاعتي سماع صوت ريموند في الداخل من دون أن أفهم ما يقوله.

«هناك أمر غريب جداً»، قال ليب. «حدث شيء ما في ماك غراث هول».

«لماذا؟».

«لا أعلم»، قال. «ولكنني أصاب باهتزاز عقلي لم أشهد له مثيلاً منذ سنوات. تلقيتُ رسالة ويُفترض بي أن أكون في مكتب مورانو عند الساعة الثامنة من صباح غد لإجراء مقابلة مع مولتو. تلك هي الرسالة. ولا يراد باللقاء تبادل أطراف الحديث أو المناقشة. إنها مقابلة كما لو أنهم يلاحقونني. وإليك خبر آخر. عندما عدتُ الليلة، أبلغوني أن شميت أخذ كل المستندات التي جمعتُها حول قضية بوليموس والتي قد توصلنا إلى دليل».

«يبدو لي أنك أُبعدت عن هذه القضية».

«بالتأكيد»، قال. «حسناً، ولكن فكّر مليًا بما يجري. كنت في الفرع الشمالي قبل الساعة الخامسة، وحدث كل ذلك بين السادسة والسادسة والنصف. وانظر إلى ما حصلتُ عليه».

ومدّ يده إلى داخل جَيب سترته، وأخرج أربع أو خمس أوراق فولسكاب. كانت صوراً مستنسَخة لمستندات خاصة بالمحكمة. وتعرّفتُ

إلى رقم القضية: إنها مطابقة لرقم الشكوى المفقودة من الدائرة الثانية والثلاثين. فالورقة الأولى نسخة عن مغلف القضية: الشعب مقابل ليون ولز؛ إنها شكوى بسبب انتهاك الآداب العامة صرفت المحكمة النظر عنها في تموز/يوليو منذ تسعة أعوام.

«بينغو»، قلت بصوت مرتفع.

«إليك هذه الصفحة»، قال لي ليب. إنه تعهّد. في ولايتنا، يُسمح للمتّهَم بالحصول على إطلاق سراح بكفالة في القضايا الصغيرة بعد أن يوقّع على سند تعهُّد بدفع المبلغ المحدَّد - وفقاً للقانون أقل من خمسة آلاف دولار - إذا تخلّف عن الحضور. وعلى المتّهَم العمل بشروط إطلاق السراح بكفالة، وهي تتمثل بالامتناع عن ارتكاب جرائم أخرى والاتصال مرة واحدة في الأسبوع بفرد من قسم المراقبة التابع للمحكمة. وكانت كارولين بوليموس هي ضابطة المراقبة التي عُيّنت لليون. كان اسمها ورقم هاتفها موجودَين على تلك الصفحة.

«انتظر. إليك الأكثر أهمية». وسحب الورقة الأخيرة. إنها نسخة عن استمارة صرف النظر عن القضية، وكُتب عليها اقتراح لصرف النظر دون المساس. والمحامي المتقدّم بالاقتراح هو المدعي العام. وطُبع في أسفل الاستمارة «ريموند هورغان، النائب العام في مقاطعة كيندل». ومن المفترَض أن يوقّع المساعد الذي ينظر في القضية في الفراغ. لم أتمكن من قراءة التوقيع في بادئ الأمر، ولكنني تمكنت من ذلك في ما بعد.

«مولتو؟».

ووقفتُ وليبرانزر للحظات تحت أضواء مصابيح الشارع، ناظرَين إلى الأوراق ثانيةً. لم يقل أيّ منا الكثير. وصدر من الداخل صخب هائل، وكان باستطاعتنا بعد ذلك سماع شروع الفرقة الموسيقية بالعزف والغناء مرة أخرى «عندما تبتسم العيون الإيرلندية». لقد فهمتُ: أقرّ ريموند بهزيمته.

فحاولت تهدئة ليبرانزر. حافظ على رباطة جأشك، قلت له. لسنا

واتقَين بعد من أي شيء.

«خذ أنت هذه». وأعطاني النسخات من ملف المحكمة.

وعدتُ إلى صالة الحفلات. وغادر ليب بمفرده، مارًّا بحاويات القمامة والحطام، إلى داخل ظلمة الزقاق.

16

«وهكـذا انتهـت علاقتنا» ، قلت لروبنسـون ، «بشـكل سـيّئ. ففي الأسـبوع التالـي، تراجـع عـدد مقابلاتهـا لي. وكفّت عـن مقابلتي بعد أسبوع. لا وجبات غداء، ولا اتصالات هاتفية، ولا زيارات إلى مكتبي. لقد رحلتْ».

كنـت أعلـم أنهـا تقدّر الاسـتقلال حق قدره. لقـد حاولتُ في بادئ الأمـر الحـد مـن ذعـري قائلاً لنفسـي إنه مجرّد عرض للحرية، ومن الأفضل عدم المقاومة. ولكن الصمت أثّر فيّ يوماً بعد يوم؛ وفي تَوقي البائـس. فأكثـر مـا كنت أرغب فيه هو أن أكون معها في الغرفة نفسـها ببساطة. لقد قصدتُ الطابق الثالث في مورتون ركضاً طوال ثلاثة أيام؛ حيـث تحـب تناول الغداء. وظهرت في اليـوم الثالث... مع ريموند. لـم تتبـادر تلـك الفكرة إلى ذهني. كنـت أعمى حينذاك. لم أتخيّل وجود منافسـين. لقد جلسـتُ لمدة نصف ساعة بمفردي وأنا أنقل أوراق الخس من مكان إلى آخر داخل صحن السلَطة، محدّقاً بالطاولة على بُعد مئتَي قدم. يا لشعرها! وعندما أتذكر ملمس بشرتها، أجلس بمفردي في غرفة طعام عامة وأتأوّه.

في الأسـبوع الثالث، فقدت القدرة على الاحتمال، وقمت بالأمر من دون اللجوء إلى اسـتجماع قواي أو التفكير. فتوجهتُ مباشَـرةً إلى مكتبها ذات صـباح عند السـاعة الحادية عشـرة. لم أكن أحمل ملفاً، أو مذكرة، أو أي شيء آخر لتبرير قدومي.

لم تكن موجودة.

فوقفـتُ هنـاك عنـد عتبة بابها بعينَين مغمضـتَين، وأنـا مكتوٍ بالذلّ والحزن، شاعراً بالرغبة في الموت بسبب فشل مسعاي.

وبينما كنت واقفاً هناك، عادت.

يا راستي، قالت ببشاشة. كان استقبالاً مبتهجاً. واندفعت إلى الداخل مروراً بجانبي، ورأيتها تنحني لسحب ملف من دُرجها. وعندما رأيت تنورتها وساقيها المثيرتين شعرت بجفاف في حلقي، وازدادت نبضات قلبي. كانت منشغلة، فوقفتْ وراء طاولتها وهي تقرأ الملاحظات المكتوبة على الملف، وتضرب بقلم على مجموعة من الأوراق.

أودّ رؤيتك ثانيةً، قلت.

فرفعت نظرها. كان وجهها رزيناً. ابتعدت عن طاولتها ومرت بجانبي، مادّةً يدها لإقفال الباب.

وتكلمت على الفور.

لا أظن أنها فكرة جيدة. ليس الآن. لا يحق لي ذلك الآن، يا راستي. ومن ثم فتحتِ الباب.

وعادت إلى وراء طاولتها، وشرعتْ بالعمل، واستدارت لتشغيل الراديو. لم تُلقِ أي نظرة إلى المكان حيث بقيتُ واقفاً للحظات إضافية.

لا أعتقد أنني صدّقت في أي وقت أن كارولين بوليموس تحبني. كنت أظن فقط أنني أُسعدها، وأراها أكثر جمالاً بسبب عاطفتي القوية واستحواذها على عقلي. لذلك، لم أعانِ من رفضها لي، ولم يتملّكني الأسى. وعندما أدركتُ إمكانية وجود خلَف لي، لم أفكر في تدميره؛ وكنت لأرضى بمشاطرته إيّاها. لقد دمّرني الرفض والتّوق، وأردت ببساطة استرجاع ما اعتبرتُه حقاً لي. كنت أشعر بشوق كبير إلى كارولين، ولا أرغب في التخلي عنها أبداً.

بالنسبة إليّ، لم ينتهِ الأمر قطّ؛ فلا وجود لما يتعيّن إنهاؤه، كانت رغبتها على الدوام ثانويّةً وملائمة. لقد أردت الشعور بعاطفتي القوية في لحظات من الاغتباط. فبدون هذه المشاعر كنت أشبه بالميت، وأتوق وأتوق! وأجلس في الليالي على الكرسيّ الهزاز وأنا أتخيّل كارولين، وتعتريني الشفقة على نفسي.

في تلك الأسابيع، بدا الأمر كما لو أن حياتي انقلبت رأساً على عقِب، وفقدتُ القدرة على التمييز، واتخذت قدرتي على الحكم على الأمور

منحى مبالَغاً فيه على غرار القصص الهزلية المؤلِمة. لقد تم اختطاف فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، ووُضعت في صندوق سيارة المتَّهم كما لو أنها سلعة، وكان يعاشرها طوال ثلاثة أيام بطريقة مخالفة للطبيعة كل ساعة أو ساعتَين، ويقوم بضربها بعد ذلك وإغماض عينَيها (كي لا تتعرّف إلى أي شيء)، وتركها تموت. لقد قرأت التقارير المرتبطة بهذه القضية، وحضرت اجتماعات نوقش خلالها الدليل المتوافر. وقلت في نفسي إنني أسأت إلى كارولين.

في المنزل، أدليتُ باعترافي السخيف لباربارا، وبكيت على طاولة الطعام. كيف وجدتُ الجرأة للبوح لها بذلك؟ لقد أردت تعاطفها، وزادت تلك اللحظة الأنانية من حدة ألمي. لم تتحمل باربارا رؤيتي أعاني بشكل ظاهر. وكل ما كنت أقوم به في العمل هو مراقبة الأروقة علّني ألمح كارولين تمرّ. وفي المنزل، أصبحت باربارا تراقبني وتهددني بالنهاية الوشيكة لحياتنا العائلية. كنت أقوم بالنزهات سيراً على الأقدام، وانتهى كانون الأول/ديسمبر وبدأ شهر كانون الثاني/يناير. وانخفضت درجة الحرارة إلى الصفر تقريباً ودامت على هذه الحال طيلة أسابيع. كنت أكدّ في السير ساعات، جائباً أنحاء بلدتنا الصغيرة، وواضعاً لِفاعي على وجهي، فتسفع زركشة الفرو في سترتي الجلدية الأجزاء المكشوفة من جبيني وخدَّيّ عندما تلامسها. إنها التَّندرا الخاصة بي. إنها سيبيريا الخاصة بي. متى ينتهي ذلك؟ أردت ببساطة أن أنعم ببعض السلام.

لقد تجنّبتني كارولين. كانت ماكرة في ذلك بقدر مكرها في أمور عديدة أخرى. فكانت ترسل لي مذكرات، وتترك لدى أوجينيا الرسائل الهاتفية. لم تكن تحضر الاجتماعات التي أنوي حضورها. أنا على ثقة تامة بأنني من قادها إلى هذا السلوك، وبأنها كانت ترى أمارات الرغبة الشديدة المثيرة للشفقة على وجهي عندما تتلاقى أنظارنا.

في آذار/مارس، اتصلت بها من المنزل. لقد حدث ذلك مرات قليلة. كانت قد وضعت مسوّدة للائحة تُهَم قد توجَّه لشخص ذي ميول إجرامية، وهناك مزاعم تتناوله منذ ستينيات القرن الماضي. فقلت لنفسي

إنه من الأسـهل لي مناقشـة المسـائل القانونية ذات الصـلة من دون أي مقاطعة قد تحدث في المكتب. وانتظرتُ خلود نات إلى النوم، وذهاب باربارا إلى رَحِم مكتبها المقفَل حيث لا يمكنها أبداً سماعي وأنا أتكلّم عبر الهاتف في الطابق السفلي. وبحثتُ بعد ذلك عن رقم هاتف كارولين في الدليل المستنسَخ بالستنسل الذي وضعته ماك ويحتوي على أرقام الهواتف المنزلية العائدة لكل المساعدين. لم أكن بحاجة للنظر إلى رقمها لأتذكَّره، ولكنني أفترض أنني كنت أريد رؤية اسمها مدوَّناً لأشعر ببعض الاكتفاء. وحالما سـمعت صـوت كارولين، لم أتمكن من التفوّه بأي كلمة. «آلو؟ آلو؟». وشـعرتُ بالارتخاء عندما سـمعتُها تتكلم بنبرة غير تأنيبية. من كانت تنتظر؟

وكلما تحدّثت إليها، كنت على ثقة تامة بأن كبريائي لا تدفعني إلا لقول كلمة واحدة أو كلمتين، فأخطط مُسبَقاً للمحادثات والنكات الهزلية لإزالـة لا مبالاتهـا أو غمّها، وللإيحاءات المخلصـة عندما أُمنح فرصـة جزئية. لقد أجابت، وانتظرتُ في حفرة ملتهبة من الخجل، واغرورقت عيناي بالدموع، واعتصر قلبي. «آلو؟ آلو؟». وشعرتُ بالارتياح عندما أقفلتِ الخط بقوة، وأغلقتُ دليل المكتب بسرعة.

لقد علمتْ، بالطبع، أنني المتصل. ربما كان هناك ما يوحي بالبؤس والتوسـل في نفَسـي. وفي إحدى ليالي الجمعة في أواخر آذار/مارس، كنت جالساً في مشرب جيل أنهي كأس شراب بدأت باحتسائه مع ليبرانزر قبـل توجهـه إلـى المنـزل. فرأيتها تحـدّق بي في المـرآة الطويلة وراء المشرب. كان وجهها هناك فوق القناني، وشعرها المسرَّح حديثاً يلمع تحت الرذاذ. كان الغضب في نظرنها مؤلِماً.

فأشـحتُ بنظري عنها وطلبتُ من النادل أن يسـكب لها كأسـاً من الشراب. فرفضتْ، ولكنه لم يسمعها، وانتظرتْ قيامه بحمل الكأس لها. كانت واقفة، وكنت جالساً، وصخَب مساء الجمعة القوي في مشرب جيل يحيط بنا، والفونوغراف يزعق، والضحك الجامح يملأ المكان. وأنهيتُ كأس الشراب، ووجدتُ أخيراً القوة، والفضل لله، للتكلم.

أنا كالفتى، قلت لها. كنت أتكلم من دون أن أنظر في اتجاهها. لم أكن أشعر بالارتياح بسبب جلوسي هناك، وأردت المغادرة. قلت لها إن الشيء الوحيد الذي ظننتُ في معظم الأحيان أنني أريده في الحياة هو التحدث إليها.

ورفعتُ نظري للتحقق من رد فعلها حيال ما أقوله، ووجدتُها شاردة الذهن إلى حد كبير.

هذا ما كنت أقوم به طوال أشهر، المرور بجانبك. لا يُعتبر ذلك وقاحة، أليس كذلك؟

إنه غير مؤذٍ، قالت.

لا يُعتبر ذلك وقاحة، كررتُ. أنا أفتقر إلى الخبرة. أعني أنني أعيش في هذا السأم، ولكنني لست السبب، يا كارولين. لقد خطبتُ عندما كنت في الثانية والعشرين من عمري. وقبل الزفاف مباشَرةً، قمتُ بخدمتي العسكرية في قوات الاحتياط، وثملتُ وعبثتُ مع بعض النساء في عربة نقل وراء المشرب. هذا هو تاريخ عدم إخلاصي، قلت، وعلاقاتي الغرامية الجامحة. أنا أموت، قلت، في هذه الدقيقة بالذات. في أثناء جلوسي على هذا الكرسي اللعين، أنا ميت تقريباً. أتحبين ذلك؟ أنا أرتعد، وقلبي يخفق بقوة. بعد دقيقة، سأكون بحاجة إلى الهواء. لا يُعتبر ذلك وقاحة، أليس كذلك؟

وماذا تريد مني، يا راستي؟ لقد حان دورها بالكلام، ناظرةً إلى المرآة بخدر.

أريد أمراً ما، قلت.

أتريد نصحاً؟

إذا كان هذا كل ما يمكنني الحصول عليه.

وضعتْ كأسها على المشرب، ثم وضعتْ يدها على كتفي، ونظرتْ إليّ مباشَرةً للمرة الأولى.

هيا انضج، قالت، وغادرتْ.

«حينئذٍ»، قلت لروبنسون، «تمنّيتُ موتها».

17

مكتبة
t.me/t_pdf

في المكتب، كان تومي مولتو يلقَّب بالناسك المجنون. فقد كان طالباً سابقاً في كلّية اللاهوت، يبلغ طول قامته خمس أقدام وست بوصات إذا حالفه الحظ، وهو مفرط الوزن إذ يبلغ وزنه أربعين أو خمسين رطلاً، ووجهه مليء ببثور الجُدَري، وأظفاره مقضومة. إنه شخص مندفع من النوع الذي يبقى مستيقظاً طوال الليل للعمل على ملخّص دعوى، ويستمر بالعمل طوال ثلاثة أشهر من دون التمتع بفرصة نهاية الأسبوع. إنه محام مقتدر، ولكنه يفتقر إلى القدرة على إصدار أحكام صائبة بسبب حماسته. ونظراً إلى كَوني مدّعياً عاماً، يبدو لي على الدوام أنه يحاول اختلاق الوقائع بدلاً من فهمها. هو يبذل جهداً كبيراً ليكون أهلاً للمرافعة أمام هيئة المحلّفين، ولكنه مساعد جيد لنيكو. فهو يتمتع بمزايا سلوكية يفتقر إليها ديلاي غارديا. كان رفيق الصف لديلاي في مدرسة سانت جو الابتدائية التابعة لجمعية داغو. وحياة تومي الشخصية تافهة. إنه عازب، ولم يسبق لي أن رأيته مع امرأة، مما يوحي بالتخمين المعتاد، ولكنني تخيّلت أنه لا يزال متبتّلاً. فلتلك القوة غير العادية مصدر سِرّي كما يبدو.

همس تومي، كالمعتاد، في أُذُن نيكو بحماسة عندما دخلت غرفة الاستقبال. كان هناك الكثير من الاندهاش والفضول في المكتب، وهرع كتّاب الملفات والسكرتيرات إلى نافذة موظفة الاستقبال لرؤية مظهر الرئيس الجديد. وتبعت فِرق المحطات التلفزيونية نيكو إلى هناك حيث تم التقاط صور له ولتومي اللذين جلسا على كرسيَّين خشبيَّين في انتظار مقابلة هورغان، ولكن كل ذلك ذهب سُدًى. فلقد تفرّق المراسلون، وبدا الاثنان مخذولَين إلى حد ما في الواقع عندما دنوتُ منهما. ولم يستلم نيكو وردته، فلم أتوانَ عن تقديمها لمولتو.

«تومي مولتو»، قلت. «كان لدينا ذات مرة شخص بهذا الاسم

يعمل هنا، ولكننا نعتقد أنه ربما يكون قد لقي حتفه. واصِل إجراء تلك الاتصالات وإرسال تلك الرسائل، يا توم».

لم يكن مصير هذه الدُّعابة التي أطلقتها لترطيب الأجواء الإخفاق فحسب، بل تسببت بنظرة كراهية شديدة. لقد التحم حاجبا مولتو ببعضهما، وارتدّ نحو الخلف عندما مددتُ يدي للمصافحة. فحاولتُ تهدئة حالة القلق، واقتربتُ من ديلاي الذي صافحني بالرغم من تردده في تقبّل تهانيّ.

«لن أقول أبداً إنك لم تُبلغني بأنك ستحقق الفوز»، قلتُ مُقِرًّا.

فلم يبتسم نيكو. وفي الواقع، لقد أشاح بنظره عني. كان مطمئنّ البال إلى حد كبير. لست أدري إن كانت الحملة قد تركت في نفسه مرارة، أم إن كان خائفاً حتى الموت ببساطة، على غرار العديدين منا، بعد أن حصل أخيراً على ما رغب فيه منذ مدة طويلة.

كنت واثقاً من أمر واحد بعد هذا اللقاء: لن يعرض عليّ نيكو البقاء في منصبي. وبلغت ثقتي بذلك كل مبلغ لدرجة أنني اتصلت بغرفة الملفات، وطلبت منهم الشروع بجمع بعض الصناديق. وفي وقت متقدّم من الصباح، طلبتُ رقم هاتف ليبرانزر في ماك غراث هول. ورفع سمّاعة الهاتف شخص لم أتعرّف إلى صوته، عِلماً أن أحداً لا يجيب على الاتصالات الواردة عندما يكون دان في الخارج.

«34068».

«دان ليبرانزر؟».

«ليس موجوداً. من المتصل، رجاءً؟».

«متى تتوقعين عودته؟».

«من المتصل؟».

«لا أريد نقل أي رسالة له»، قلت قبل إنهاء المكالمة.

قرعتُ الباب المجاور للتحقق إن كانت ماك ستستنتج شيئاً من كل ذلك. لقد خرجتْ. وعندما سألت أوجينيا عن المكان الذي قصدتْه، أبلغتني أن ماك موجودة في مكتب ريموند، في اجتماع مع السيد ديلاي

غارديا، كما قالت، منذ ساعة تقريباً. وقفتُ بجانب طاولة أوجينيا، مكافحاً شعوري بالمرارة. لم ننجح في مسعانا. لقد أصبح نيكو السيد ديلاي غارديا، وماك إحدى موظفاته حتى تصبح قاضية، وسيصبح ريموند ثرياً، ويشغل تومي مولتو منصبي، وسأكون سعيد الحظ إن تمكنتُ من تسديد قيمة الرَّهن في الشهر التالي.

كنت لا أزال واقفاً قرب أوجينيا عندما رنّ الهاتف.

«السيد هورغان يريد رؤيتك»، قالت.

بعد كل التعنيفات القاسية التي وجّهتها لنفسي في أثناء عبوري الرواق، صعقني شعور صبياني متسارع انتابني عندما رأيت نيكو جالساً على كرسي النائب العام. وتسمّرتُ في مكاني من الغضب، والحسد، والاشمئزاز. فنيكو يستفيد من كل الامتيازات التي يوفرها له المنصب: كان قد خلع معطفه، وارتسمت أمارات رباطة الجأش على وجهه، وهذا أمر متصنّع وفقاً لمعرفتي به. وكان تومي مولتو جالساً قربه، وكرسيّه مدفوع إلى الوراء بضع بوصات. لقد أذهلني تمرّس مولتو بفنّ التزلّف.

فأومأ لي ريموند للجلوس، وقال إن هذا الاجتماع يترأسه نيكو. كان ريموند واقفاً بجانب أريكته، فيما كانت ماك جالسة على كرسيّها المدولَب بجانب النافذة وهي تنظر إلى الخارج. لم تكن قد رحّبت بي بعد، فأدركتُ من تصرّفها أنها تريد أن تبقى في منأى عما يجري. لا بد من أن استياءها أكبر من استيائي.

«لقد اتخذنا بعض القرارات هنا»، قال ريموند. والتفت إلى ديلاي غارديا، وساد الصمت. كان ديلاي يجد صعوبة في التكلم بعد تسلّمه للمرة الأولى منصب النائب العام. «حسناً، ربما يُفترض بي شرح الجزء الأول»، قال ريموند. كان متجهّم الوجه، وأدركتُ أنه غاضب ويناضل للمحافظة على رباطة جأشه. فانطلاقاً من الجوّ السائد، يمكنكم القول إن الاجتماع السابق قد شهد بعض التوتر.

«تحدثت الليلة الماضية إلى رئيس البلدية، وقلتُ له إن لا رغبة لي البتة في البقاء في منصبي بسبب مسار الانتخابات ورغبة المقترعين.

فاقترح قيامي بالتحدث إلى نيكو في هذا الشأن للتحقق مما إذا كان راغباً في الحلول مكاني قبل الوقت المحدد. لقد رغب في ذلك، وهذا ما سيحصل. سأغادر يوم الجمعة بعد التوافق مع مجلس المقاطعة».

فلم أتمالك نفسي، وقلت: «الجمعة!».

«الأمر أسـرع بقليل مما ظننتُ. ولكن، هناك بعض العوامل –» وتوقف ريموند. كان هناك ما يدعو للقلق في سلوكه؛ إنه يناضل. وقوّم هورغان الأوراق الموجودة على الطاولة الصغيرة، وتوجه إلى الخزانة وبحث عن شيء آخر. كان يقضي وقتاً بائساً. فقررتُ تسهيل الأمر على الجميع.

«إذاً سأرحل أنا أيضاً»، قلت. وشرع نيكو بالكلام فقاطعتُه. «من الأفضل لك أن تكون لديك انطلاقة جديدة، يا ديلاي».

«لـم أشـأ قـول ذلك»، ووقف. «أردت أن تعرف سـبب مغادرة ريموند بهذه السرعة. سوف يجري تحقيق جنائي مع فريق عمله. لدينا معلومات... بلغنا بعضـها في أثناء الحملة، ولكننا لم نشـأ الدخول في هذا النوع من الأقاويل. لدينا معلومات ونعتقد أن هناك مشكلة جدّية».

لقد أربكني غضب نيكو الجليّ، وتساءلتُ عما إذا كان يتحدث عن الملف **بي**. ربما كانت لمولتو علاقة بذلك.

«دعونـي أقاطعكمـا»، قـال ريموند. «راسـتي، أظن أن الطريقة الفضـلى للتعاطي مع هذا الأمر هي من خلال التحدث بشـكل مباشـر. لقد ناقش نيكو وتوم بعض المسائل معي حول التحقيق الجاري في شأن بوليموس. ليسا واثقَين من طريقة تعاطيك مع الموضوع، ووافقتُ على أن تتنحّـى عـن التحقيـق في الوقت الحاضـر. باسـتطاعتهما معالجة هذه المسألة بأي طريقة يعتبرانها الفضلى. الأمر مرتبط بحصافتهما المهنية. ولكـن مـاك اقترحـت... حسـناً، لقد اتفقنا في الرأي على وضـعك في أجواء مسار التحقيق».

وانتظرتُ. لقد اعتراني خوف شديد قبل أن أفهم المقصود.

«هل أنا خاضع لتحقيق جنائي؟»، وضحكتُ عالياً.

وتكلمت ماك أخيراً من الجانب الآخر من الغرفة: «الأمر ليس مُضحكاً، يا ماكغي»، قالت. لم يكن هناك أي حس بالفكاهة في صوتها.

«إنه هراء»، قلت. «ما الذي يُفترض أن أكون قد قمتُ به؟».

«يا راستي»، قال ريموند، «لسنا بحاجة إلى هذا النوع من النقاش الآن. يعتقد نيكو وتوم أن هناك أمراً ما كان يُفترض بك البوح به. هذا كل شيء».

«لا، هذا ليس كل شيء»، قال مولتو فجأةً. كانت نظرته ثاقبة. «أعتقد أنك أخطأت في توجيه التحقيق، وناورتَ طوال أكثر من شهر. كنت تحمي نفسك».

«أعتقد أنك مخبول»، قلت لتومي مولتو.

كانت ماك قد اقتربت بكرسيّها.

«لسنا بحاجة إلى هذا الأمر»، قالت. «يُفترض إجراء هذا النقاش في مكان آخر، ومع شخص آخر».

«تبًّا لذلك»، قلت. «أريد أن أعرف ما يجري».

«ما يجري»، قال مولتو، «هو أنك كنت في شقة كارولين ليلة مقتلها».

وخفق قلبي بقوة شديدة لدرجة أنني شعرت بالعجز عن الرؤية. كنت في انتظار قيام أحدهم بمعاقبتي بسبب ارتباطي بعلاقة غرامية مع المتوفّاة. الأمر غير مفهوم، وسخيف، وهراء.

«ما هذا الذي أسمعه؟ ليلة الثلاثاء؟ كانت باربارا في الجامعة، وكنت في المنزل أرعى ابننا».

«يا راستي»، قال ريموند، «أنصحك بإقفال فمك اللعين».

ووقف مولتو، ودنا منّي متبختراً. كان غاضباً.

«حصلنا على نتائج البصمات، تلك التي لم تتكبّد عناء طلبها، وبصماتك موجودة على الكأس. بصماتك، يا روزات كيه سابيتش، على تلك الكأس بالذات على المشرب، على بُعد خمس أقدام من المكان الذي وُجدت فيه المرأة مقتولة. ربما لم تتذكر أنه تم التحقق من بصمات

كل موظفي المقاطعة».

فوقفتُ. «هذا أمر سخيف».

«وماذا عن بيانات وحدة تسجيل الرسائل التي طلبتَ من ليبرانزر عدم الحصول عليها؟ تلك التي تشير إلى اتصالاتك الهاتفية المنزلية؟ لقد حصلنا عليها هذا الصباح من شركة الهاتف، وهي في طريقها إلى هنا الآن. لقد اتصلتَ بها طوال الشهر، وأجريتَ اتصالاً بها من منزلك في تلك \الليلة».

«أظن أنني اكتفيتُ من هذا الهراء»، قلت. «أستأذن».

وكنت قد وصلتُ إلى مكتب لوريتا الصغير خارج مكتب ريموند عندما ناداني مولتو ولحق بي، وتبعني إلى غرفة الانتظار. كان باستطاعتي سماع ديلاي غارديا ينادي مولتو.

«أريدك أن تعرف أمراً واحداً، يا سابيتش». وأشار بإصبعه إليّ.

«أعرف».

«بالتأكيد تعرف»، قلت.

«سنحصل على تفويض باعتقالك في اليوم الأول من وجودنا هنا. من الأفضل لك الحصول على محامٍ؛ محامٍ جيّد».

«لأجل ما تزعم أنها قضية عرقلة؟».

كانت عينا مولتو تتّقدان غضباً.

«لا تتظاهر بأن لا عِلم لك بما يجري. أعرف. لقد قتلتَها. أنت القاتل».

واستشطتُ غضباً؛ كما لو أن دورة دمي قد تسارعت؛ وكما لو أن عروقي قد امتلأت بذلك السم الأسود. كم بدا الأمر قديماً ومألوفاً، وقريباً إلى طبيعتي. واقتربتُ من تومي مولتو، وهمستُ: «أجل، أنت مُحق»، قبل أن أبتعد.

الصيف

18

«المستندات والتقارير موجودة في الناحية الأمامية. إفادات الشهود موجودة في الناحية الخلفية»، قال جايمي كمب في أثناء وضع صندوق كرتوني كبير على طرف طاولة الاجتماعات المصنوعة من خشب الجوز. كنا في غرفة اجتماعات صغيرة وسط مكتب رب عمله، أليخاندرو شتيرن، محاميّ، وكان كِمب يتصبّب عرقاً. لقد اجتاز مسافة مجمّعَين من مبنى المقاطعة في شهر تموز/يوليو، حاملاً هذه الأوراق، فأُزحيت ربطة عُنُقه الكحلية من مكانها، وفقد شعرُه الأشقر المسرَّح على غرار تسريحة الأمير فاليانت المزركَشة أناقتَه، وتدلّى على صُدغيه.

«سأتحقق من رسائل الهاتف»، قال كمب، «ومن ثم سأعود للاطلاع على هذه الأوراق معك. وتذكّر...» وأشار كمب. «لا تُصَب بالذعر. يملك محامو الدفاع اسماً لما تشعر به. يدعونه كلونغ».

«ما هو الكلونغ؟».

«الكلونغ هو تسارع الدم إلى قلبك عندما ترى أدلة الولاية». وابتسم كمب. لقد شعرت بالسعادة لأنه يظن أنني ما زلت أقبل المُزاح. «الأمر ليس كارثياً».

كنا في الرابع عشر من شهر تموز/يوليو، أي بعد ثلاثة أسابيع من توجيه تهمة قتل كارولين بوليموس لي. وفي وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، كان من المفترض بي أن أمثل أمام رئيس المحكمة العليا، القاضي إدغار مامفري. فعملاً بقوانين الولاية المتعلقة بكشف النقاب عن أمور في قضايا جنائية، يُعتبر الادعاء أمراً مطلوباً قبل الاستدعاء إلى المحكمة لتتوافر للدفاع كل الأدلة المادية التي يُعتزَم تقديمها؛ وبالتالي هذا الصندوق. وحدّقتُ باللُّصاقة المألوفة الموضوعة على الصندوق الكرتوني: **الشعب مقابل روزات كيه سابيتش**. واعتراني ذلك الشعور

ثانيةً: لَم يحدث ذلك. وبوجودي بمفردي في تلك الغرفة المريحة بكسائها الخشبي القاتم وصفوف كتب القانون قرمزية اللون، انتظرت مع هذا الهلع الذي بات مألوفاً لديّ، وتقتُ إلى زواله.

كانت هناك نسخة أخرى للتُّهمة في الجهة الأمامية من الصندوق، وقمت بالتركيز على الكلمات نفسها تكراراً. التعدي على ممتلكات الغير بالقوة والسلاح تعبير في القانون العام. وبهذه الكلمات نفسها، اتُّهم أشخاص طوال قرون في البلدان الناطقة بالإنكليزية بارتكاب أعمال عنف. والعبارة قديمة وغير مستخدَمة في معظم التشريعات، ولكنها جزء من قانوننا في الولاية، وتحملني قراءتها على الدوام على الشعور بإرثٍ غريب. لقد تعاطيتُ مع نجوم الجريمة كافة؛ جون ديلينغر، وبلوبيرد، وجاك الممزِّق، وملايين المشاهير الأقل أهمية، والمجنون الجزئي، والمُهان، والشرير التافه، والعديد من الذين استسلموا للحظة من الإغراء الرهيب وجدوا أنفسهم فيها مُلمّين بجوهرنا الأكثر جموحاً وبجانبنا المظلم.

فبعد شهرَين من التسريبات الصحافية اليومية، والشائعات، والإساءات المبطَّنة، والأقاويل المؤلمة، اعتبرتُ أنه قد يكون من المريح بالنسبة إليّ إسقاط التُّهم الموجَّهة إليّ في نهاية المطاف، ولكنني كنت مخطئاً. ففي اليوم السابق، أرسل ديلاي إلى شتيرن ما يُدعى نسخة مجامَلة. لقد قرأتُ التُّهم للمرة الأولى على بُعد أربعين قدماً تقريباً من هذا المكان، في الردهة في مكتب ساندي حسن الذَّوق المطليّ بلون القشدة، وتوقف قلبي وكل أعضائي على الفور، وانتابني ألم شديد لدرجة أنني كنت على ثقة بأن أمراً ما يحدث في تلك النواحي. كان باستطاعتي الشعور بالدم يغادر وجهي، وعلمت أن الذُّعر بادٍ عليّ. فحاولت التظاهر برباطة الجأش وعدم إظهار أي شجاعة لأنني أدركت أن هذا هو البديل الوحيد.

كان ساندي جالساً بجانبي على الأريكة.

«هل يبدو من المروِّع والمبتذَل القول إنني لا أستطيع تصديق هذا

الأمر؟»، سألتُ. «وإنني غاضب ولا أفهم ما يحدث؟».

«أنت لا تفهم بالطبع»، قال ساندي، «بالطبع لا. أنا الذي مارست عملي في محكمة الجنايات طوال ثلاثين عاماً في المدينة لا أستطيع تصديق الأمر، وكنت أعتقد بأنني عالجتُ كل أنواع القضايا. كلها! ولا أقول ذلك باستخفاف. كان لديّ موكِّل، يا راستي، ولا أستطيع ذكر اسمه بالطبع، وضع سبائك ذهبية بقيمة 25 مليون دولار في المكان الذي تجلس فيه بالتحديد؛ سبائك لا غير بارتفاع قدمَين. وأنا الذي رأى الكثير من الأمور، أجلس في المنزل ليلاً وأقول لنفسي: حقاً، إن قضيتك غير عادية ومخيفة».

كان لهذه الكلمات امتدادٌ لأنها صدرت من فم ساندي؛ إنها حكمة حقيقية. هناك أناقة في حديثه العادي عندما يعتمد اللكنة الإسبانية اللطيفة. كان وقاره مهدّئاً. واكتشفتُ على مَرّ الزمن أنني مفتون كالعاشق بكل حركة مهذَّبة.

«يا راستي»، قال لي ساندي، لامساً الصفحة التي أحملها بيدي، «لا تذكر أي شيء عن الأمر الوحيد» - وبحث عن الكلمة المناسبة - «المشجِّع».

«وما هو؟».

«لا وجود لأي إشعار. لا وجود لأي إشعار عملاً بالفقرة الخامسة».

«آه»، قلت، وانتابتني الرّعدة. في ولايتنا، يجب على الادعاء أن يرسل إشعاراً في أثناء توجيه التُّهم إذا كان يسعى إلى تطبيق عقوبة الإعدام. فبالرغم من شعوري بنوايا ديلاي طول أشهر، حال دفاع متحمِّس موجود داخلي دون التفكير بذلك الاحتمال. لقد أوحت نظرتي، كما أعتقد، ببعض الحرَج، لا بل بالإذلال أيضاً، بسبب بُعدي عن المِهَنية الروتينية. «لقد افترضتُ ذلك»، قلت بوَهَن.

«آه، حسناً». وابتسم ساندي برِفق. «لدينا هذه العادات»، قال.

عملاً بنصيحة ساندي، لم نكن موجودين في البلدة عندما رُدّت التُّهم. لقد غادرتُ مع باربارا ونات للإقامة في كوخ يملكه أصدقاء

والدَيها قرب سكاجيون. في الليل، باستطاعتكم سماع اندفاع شلالات كراون، على بُعد ميل، وملاحظة تحسّن صيد أسماك التروتة أكثر من أي وقت مضى.

ولكن، بالطبع، لم أنسَ الكارثة القائمة على بُعد أربعمئة ميل إلى الجنوب. وفي اليوم التالي، حصل جورج ليونارد الذي يعمل في تريب على رقم الكوخ بطريقة ما وطلب تعليقاً مني. فأحلتُه إلى شتيرن. وفي وقت لاحق، عدتُ إلى الكوخ وسمعتُ باربارا تتحدث إلى والدتها عبر الهاتف. وبعد إنهائها المكالمة الهاتفية، سألتُ، معتبراً أنه يُفترض بي القيام بذلك:

«هل انتهى كل شيء؟».

«إنّ الأمر متداول في كل مكان: المحطات التلفزيونية، في صحيفتين؛ الصفحة الأمامية وصور. لقد باح زميلك في المكتب القديم، ديلاي، بكل تفصيل مُزبِد».

لقد ثبت أنه تصريح لا يرقى إلى مستوى الوقائع. كانت قضيّتي موضوع الصحف الشعبية في السوبرماركت: مدّع عام أعلى متَّهَم بالقتل - كان على علاقة غرامية بالضحية. فالجنس، والسياسة، والعنف، تختلط في مقاطعة كيندل. ولم تكن الصحافة المحلية وحدها التي تناقلت وتابعت هذا الخبر وتداعياته لأيام، بل وسائل الإعلام الوطنية أيضاً. وبداعي الفضول، شرعتُ بقراءة هذه الروايات أيضاً. كان يوجد في مكتبة نيرنغ قسم ممتاز للمجلات الدَّورية، ولم يكن لديّ ما أقوم به في تلك الأيام. لقد رفضتُ الاستقالة من منصبي كمساعد للنائب العام عملاً بنصيحة شتيرن، ووُضعتُ على لائحة الحاصلين على إجازة إدارية غير محدّدة مع الاستمرار بتقاضي راتبي. ونتيجة لذلك أمضيت في المكتبة وقتاً أطول مما توقّعتُ، وانضممتُ إلى المسنّين في الاستمتاع بالسكون والهواء المكيَّف في أثناء معاينة هذه التقارير الوطنية التي تتناول سوء تصرّفي. كانت ذا نيويورك تايمز واقعية كالعادة على نحو مُملّ، مشيرةً إلى الجميع بالسيد فلان، وعارضة كل الظروف

المحيطة بالقضية السخيفة. إنها المجلات الإخبارية الوطنية، وهذا أمر مثير للدهشة. وبذلت تايم ونيوزويك قصارى جهدهما لجعل الأمر يبدو مُريعاً، فأرفقت كل مقالاتهما بالصورة نفسها التي التقطها مخبول ما رأيته متربّصاً بين الشجَيرات قبل يومَين. ونصحني شتيرن في النهاية بالسير في الخارج والسماح له بالتقاط صورة لي شرط أن ينصرف في الحال. ونجح الأمر. ووفقاً للجيران، عادت آلات التصوير التلفزيونية المحمولة التي نُصبت أمام المنزل طوال أسبوع في أثناء اختبائنا بالقرب من سكاجيون.

لم يُشعرني ذلك إلا بفارق عملي بسيط. فبعد اثنَي عشر عاماً من الادعاء في أكبر القضايا في البلدة، أصبحت الصحف والمحطات التلفزيونية تملك مواد صحفية عنّي تكفي ليظهر وجهي في كل مكان. فلم يكن باستطاعتي في السابق التنقل في أرجاء نيرنغ من دون التعرّض لتحديق لا متناهٍ، ولكن التردد الدائم أصبح بادياً في سلوك الجميع، ولم تعد التحيّة تُلقى عليّ إلا بعد حين، وباتت تعليقات العزاء القليلة سخيفة وتبعث على السخرية. فيقول لي منظّف ملابسي: «استراحة قاسية»، أو يسألني العامل المراهق في محطة المحروقات عما إذا كنت الشخص نفسه الذي يقرأ عنه في الصحيفة. والأمر الآخر الذي أحببته في المكتبة هو عدم السماح لأي شخص بالتكلم.

كيف أشعر في هذا الجو المُغلَق والضاغط بعد تحوّلي من مواطن نموذجي إلى شخص منبوذ؟ والقول إن لا وجود لكلمات تعبّر عما أعاني منه أمر غير دقيق. فهناك كلمات، ولكنها عديدة. لقد انهارت معنوياتي بشكل عشوائي وتآكلني القلق، فكنت أمضي الكثير من الوقت في صخَب الغضب وعدم التصديق، وأشعر بالخدَر أحياناً. وحتى في أثناء قلقي على نات وعلى تأثير ما نمرّ به في مستقبله، تكون الفكرة التلقائية التي تخطر لي هي أنني المستهدَف والضحية الكبرى، وتمكنتُ من التعايش مع هذه الفكرة إلى حد ما. لقد اكتسبتُ القدَرية من والدي أكثر مما توقعتُ؛ كان جزء مني على الدوام لا يثق بالمنطق أو بالنظام. والحياة مجرّد

اختبار؛ نحاول الاستمرار بها لأسباب لم نتبيّنها بعد. وأندهش في بعض الأحيان من وجودي في هذه الحياة. لقد اعتَدتُ مراقبة حذائي في أثناء عبوري الرصيف لمشاهدة نفسي أتحرك وأقصد أي مكان، وأقوم بأي عمل. وذلك لأن الحياة تبدو غريبة باستمرار وسط هذا الحظ العاثر.

كنت أعيش في الغالب في عالمي النائي، وأمضي، بالطبع، قدراً كبيراً من الوقت متسائلاً عن سبب حدوث ذلك. ولكنني كنت أتفاجأ في مكان ما من هذه المسيرة بزوال قدرتي على التحليل، وتقودني ظنوني مجدداً إلى محيط مُظلم ومخيف، إلى حافةِ دوامة مظلمة من الذُهان الارتيابي والغضب مرّت لحظات قليلة على تخلّصي منها. وأدركتُ أنني لن أستطيع تحمّل المزيد، ولكنني كنت أنتظر بفارغ الصبر انتهاء تلك المحنة وما ينجم عنها. لقد تمنّيتُ بقوة لا يمكن لأي مَجاز لُغوي التعبير عنها عدم حدوث كل ذلك: أردت أن تعود الأمور إلى سابق عهدها، وذلك قبل أن أسمح لكارولين بسلب حياتي وكل ما تلا ذلك. ومن ثم، هناك قلقي الغامر حيال نات: ماذا سيحلّ به؟ من سيوفر له الملجأ؟ كيف يمكنني حمايته من الشعور بالعار؟ كيف أمكنني إيصاله إلى حالة التيتّم الجزئي هذه؟ كانت تلك اللحظات أسوأ لحظات حياتي بطريقة ما؛ بسبب الغضب والإحباط الكبيرين، والشعور بالعجز، وتلك الدموع. ومن ثم ذاك الشعور غير العادي، الأخف من الهواء، والأكثر تهدئةً من النسيم، الذي انتابني مرة واحدة أو مرتين في الأسابيع الأخيرة؛ ذاك الأمل الذي كان يتملّكني تلقائياً ويغادرني مع شعور بتخطي حاجز مرتفع وامتلاك الشجاعة للنظر إلى المستقبل ببساطة.

كانت القضية المرفوعة ضدي مباشَرة، كما بدا لي من محتويات الصندوق الكرتوني. لقد وضع نيكو لائحة تضمنت أسماء عشرة شهود يرتبط أكثر من نصفهم بالدليل المادي والعِلمي الذي يخطط لتقديمه، وسوف يُستدعى ليبرانزر ليشهد، كما يبدو، بأنني طلبتُ منه التكتّم عن الاتصالات الهاتفية التي أجريتُها مع كارولين من المنزل. وأفادت السيدة

كرابوتنيك أنني أحد الذين شاهدتُهم في المبنى الذي تقطن فيه كارولين، علماً أنها لم تكن واثقة من أنني الغريب الذي شاهدتْه في ليلة الجريمة. وفي اللائحة أيضاً خادمة من نيرنغ يوحي تصريحها الغامض إلى حد ما بأنها رأتني على متن الحافلة المتنقلة بين نيرنغ والمدينة في إحدى الليالي القريبة من تاريخ مقتل كارولين. واسم ريموند هورغان مُدرَج أيضاً، وتومي مولتو، وسكرتيرتي أوجينيا، وروبنسون؛ الطبيب النفسي الذي قابلتُه في مناسبات قليلة؛ وعدد من الخبراء العِلميين، بمن فيهم بينلس كوماغاي.

بالرغم من ذلك، كانت قضية ظرفية بوضوح. فلا أحد سيقول إنه شاهدني أقتل كارولين بوليموس. ولا أحد سيشهد بأنني اعترفت بارتكاب الجريمة (إذا لم تأخذوا بعين الاعتبار ادّعاء مولتو بأنني وجّهتُ له ملاحظتي الأخيرة في يوم الأربعاء ذاك من شهر نيسان/أبريل بنبرة مشبوهة). فصميم هذه القضية هو الدليل المادي: الكأس التي رُفعت عنها بصمتان من بصمات أصابعي الموجودة في قاعدة البيانات، وسجلات وحدة تسجيل الرسائل التي تُظهر اتصالاً أُجري من منزلي بكارولين قبل ساعة ونصف تقريباً من الجريمة، واللطخة المهبلية التي توحي بوجود سائل منوي يحمل فئة دمي مختلط مع هلام منع الحمل الذي يشير وجوده إلى عمل جنسي رضائي. وأخيراً، ألياف زوراك في متعددة الألوان التي تم العثور عليها على ملابس كارولين، وعلى جثّتها، والمنثورة في كل مكان في غرفة الجلوس، وهي مماثلة لعيّنات مأخوذة من السجاد الموجود في منزلي.

لقد تم الحصول على الدليلين الأخيرين بعد زيارة قام بها ثلاثة أفراد من شرطة الولاية إلى منزلي بعد يوم أو يومين من لقاء الأربعاء الأسود - كما أشير إليه وباربارا - في مكتب ريموند. فقد قُرع جرس الباب؛ إنه توم نيسلنسكي الذي عمل طوال ست سنوات على الأقل في مكتب النائب العام في تسليم الأوامر بالمثول أمام المحكمة. وسُررت برؤيته كرد فعلي أولي.

لا أحب أن أكون هنا، قال. ومن ثم سلّمني استدعاءَين من هيئة المحلفين الكبرى التي تحدد إن كانت هناك أدلة كافية للمحاكمة، يتناول أحدهما تقديم دليل مادي - عيّنة من الدماء - ويتضمن الآخر دعوة للشهادة. وكانت لديه أيضاً مذكرة تفتيش تسمح لرجال الشرطة بأخذ عيّنات من السجاد الموجود في أنحاء منزلي، ومن كل قطعة من ملابسي الخارجية. وجلستُ وباربارا هناك في غرفة الجلوس في أثناء قيام الرجال الثلاثة بلباسهم الرسمي البنّي الموحَّد بالانتقال من غرفة إلى أخرى حاملين أكياساً من النايلون ومقصات. لقد أمضوا ساعة في خزانتي، قاطعين عيّنات من القماش بالغة الصّغر. كان نيكو ومولتو ذكيَّين بما يكفي لعدم البحث عن سلاح الجريمة أيضاً. فالمحترف في تطبيق القانون لا يترك دليلاً يُدينه. وإذا بحث رجال الشرطة عنه، فسيتوجب على المدّعين العامّين الإقرار في المحكمة بأنه لم يكن بالإمكان العثور عليه.

هل ذلك الغرض الموجود هنا يدعى زوراك في؟ سألتُ باربارا بهدوء في أثناء وجود رجال الشرطة في الطابق العُلوي.

لا أعرف ما هو يا راستي. فمن أولويات باربارا كالعادة المحافظة على رباطة جأشها. كانت مقطَّبة الجبين قليلاً، ومتضايقة ليس إلا. فرجال الشرطة هؤلاء أشبه بشبان في الرابعة عشرة من العمر يُشعلون مفرقعات نارية في وقت متأخر من الليل.

هل هو اصطناعي؟ سألتُ.

هل تعتقد أن باستطاعتنا تحمّل تكلفة شراء سجاد صوفي؟ أجابت.

واتصلتُ بشتيرن الذي كان قد أعدّ لي لائحة بما حصل عليه رجال شرطة الولاية. وفي اليوم التالي، قدّمتُ عيّنة من دمي في وسط المدينة طَوعاً، ولكنني لم أشهد قط. كان قد دار جدال بيني وبين شتيرن حول هذا الأمر. وكرر ساندي الحكمة المسلَّم بصحتها والقائلة إن الإفادات التي تسبق المحاكمة لا تفيد التحقيق بأي شيء ولكنها تُعِدّ المدعي العام للدفاع. وبطريقته اللطيفة الخاصة، ذكّرني شتيرن بالضرر الذي ألحقَه بنفسي

بسبب سورة غضبي في مكتب ريموند. ولكن في أواخر نيسان/أبريل، لم يوجَّه لي اتهام بشكل رسمي وكنت مقتنعاً بعدم حدوث ذلك، وبات هدفي الحؤول دون قيام هذه الحادثة المجنونة بالإضرار بسمعتي. فإذا رفضتُ التقدم بشهادتي، ولي الحق بذلك، فقد لا تصل القضية إلى الصحف أبداً، ولكن كل محام في مكتب النائب العام سيُقِرّ بالأمر، وسيُقرّ من خلالهم نصف المحامين الآخرين. وثبت أن ساندي كان على حق عندما ظهرت نتائج فحص الدم واعتبرتني مُفرِزاً؛ أي أنني أحمل أجساماً مضادة من فئة أيه على غرار الشخص الذي زار كارولين للمرة الأخيرة. واحتمالات أن أكون المُفرِز هي واحد على عشـرة، فأدركتُ حينذاك أن فرصـتي الأخيرة للحصـول على حكم بالبراءة قد ضـاعت. ورفض تومي مولتو قبول أي بديل، وهكذا انسـللت بعد ظهر كئيب في أيار/مايو إلى غرفة هيئة المحلفين الكبرى، على غرار العديدين الذين سخرتُ منهم في غالب الأحيان، وهي غرفة صـغيرة بلا نوافذ تبدو كمسـرح صـغير، وكانت إجابتي عن سـتة وثلاثين سـؤالاً مختلفاً واحدة، «عملاً بنصيحة محاميّ، أرفض الإجابة لأن ذلك قد يؤدي إلى تجريمي».

«إذاً»، قـال سـاندي شـتيرن. «كيـف تـرى العالـم مـن الجانب الآخـر؟»، لـم ألاحظه وهو يدخل غرفة الاجتماعات بسـبب اسـتغراقي بألغـاز الصـندوق الكرتونـي. فوقـف ويده على مِقبض الباب، قصـير القامة، شبه مستدير، ويرتدي بذلة لا عيب فيها. كانت هناك فقط بضع شـعرات شـاردة على فروة رأسـه اللماعة وشاحبة اللون، وسيجار بين إصبعَيه. إنها عادة يستمتع بها شتيرن في المكتب فقط؛ قد يُعتبر ذلك قلّة تهذيب في مكان عام، كما أن زوجته كلارا تمنع التدخين في المنزل.

«لم أتوقّع عودتك باكراً جداً»، قلت له.

«روزنامة القاضي ماغناسن مزعجة. سيصدر الحكم أخيراً». كان يشـير إلى قضـية أخرى ينظر فيها. من الواضـح أنه أمضـى الكثير من الوقـت منتظـراً في المحكمة من دون إيجاد حل للمسـألة. «يا راسـتي،

هل تمانع ظهور جايمي معك عندما تُستدعى إلى المحكمة؟». وبدأ يشرح بالتفصيل، ولكنني قاطعتُه.

«لا بأس».

«أنت شديد اللطف. ربما يمكننا حينذاك التطرق قليلاً إلى ما أرسله صديقك ديلاي غارديا. ماذا تدعوه؟».

«ديلاي».

كان انزعاج ساندي بادياً على وجهه. لم يكن بإمكانه معرفة سبب الكنية، فآثر ألا يطلب مني الكشف عن سبب الثقة الأكثر تفاهة التي أوليها لمكتب النائب العام الذي يُعتبر منافساً له. وخلع معطفه وطلب القهوة التي أحضرتها سكرتيرته مع منفضة كبيرة من الكريستال لأجل سيجاره.

«إذاً»، قال. «هل نفهم الآن قضية ديلاي غارديا؟».

«أعتقد ذلك».

«حسناً إذاً. دعني أسمعها. ملخّص لمدة ثلاثين ثانية، من فضلك، عن مرافعة نيكو الافتتاحية».

عندما استبقيتُ ساندي بعد ذلك الاجتماع الغريب في مكتب ريموند لمدة ثلاث أو أربع ساعات، أمضينا ثلاثين دقيقة معاً. لقد قال لي إن التكلفة ستكون 25،000 دولار كرسم، وأنّ أجره يبلغ 150 دولاراً في الساعة خارج المحكمة و300 دولار داخل المحكمة، على أن يسدَّد المبلغ إذا لم توجَّه أي تُهمة. وطلب مني عدم إخبار أحد بالرسوم، وبصفة خاصة، الامتناع عن أي أحاديث مُغضِبة مع المدّعين العامين؛ وتجنّب المراسلين وعدم الاستقالة من وظيفتي؛ وقال لي إنه من المخيف استرجاع أحداث طفولته في أميركا اللاتينية، وإنه على ثقة تامة بأن هذه المسألة ستُحَلّ برمّتها بشكل ملائم من خلال خلفيّتي المدهشة. ولكن ساندي شتيرن الذي ربطتني به علاقة عمل طوال أكثر من عقد من الزمن في أكثر من ست قضايا، وأعلم أن باستطاعته تصديق ما أقوله، لم يسألني قط إن كنت قد ارتكبت الجريمة. كان يستعلم من حين لآخر عن بعض التفاصيل. لقد سألني ذات مرة، وبشكل غير رسمي، عما إذا كنت على

علاقة جسدية بكارولين، فقلت له أجل من دون تردد. ولكن شتيرن لم يطرح السؤال الحاسم، ولم يختلف عن سواه في هذا الأمر. حتى إن باربارا التي أبدت بطرائق مختلفة ثقتها ببراءتي لم تسألني عن ذلك بشكل مباشَر. ويُلمح الناس إلى قساوة الوضع الذي أمرّ به، ولكنهم يتشبّثون بارتيابهم في غالب الأحيان. ولكن أحداً لا يجزم بأنني الفاعل، لذلك فهم لم يطرحوا عليّ السؤال الوحيد الذي يجول في خاطرهم.

لقد بدا هذا العمل غير المباشَر الذي قام به ساندي أقرب إلى أسلوبه الكلاسيكي المتمثل بالاتشاح بذلك الحضور الرسمي كما لو أنه ستائر مضلَّعة. ولكنني أعرف أن هذا الأسلوب يصلح لأمور أخرى، وهو لم يسأل ربما لأنه واثق من حقيقة الجواب الذي قد يحصل عليه. ومن الثابت في نظام القضاء الجنائي أن المتهَمين نادراً ما يقولون الحقيقة، وهو أمر مسلَّم به كقوانين الجاذبية. فرجال الشرطة والمدعون العامون، ومحامو الدفاع والقضاة، يعرفون أنهم يكذبون. هم يكذبون بوقار براحات أيدٍ متعرّقة ونظرات مرتبكة، أو بنظرة تلميذ بريء في غالب الأحيان، وبعدم تصديق ساخط عندما تهاجَم سذاجتهم. هم يكذبون لحماية أنفسهم، ويكذبون لحماية أصدقائهم. هم يكذبون لمجرد التسلية ليس إلا، أو لأن ذلك سلوكهم المعتاد. هم يكذبون في شأن تفاصيل كبيرة وصغيرة، وفي شأن من استهل العمل المخالف للقانون، ومن فكر به، ومن قام به، ومن شعر بالأسف. ولكنهم يكذبون. فالكذب على رجال الشرطة، والكذب على هيئة المحلفين التي تنظر في قضيّتكم، عقيدة المتهَم. وهم يكذبون على ضابط المراقَبة إذا اقتنعوا بذلك، ويسخرون من سلامة نيّتكم. فهناك أمر ما يتبدّل على الدوام.

وهكذا، إذا ألزم ساندي شتيرن نفسه بتصديق كل ما أقوله فسيعتبر ذلك عملاً مخالفاً لذكائه المِهني. لذلك عزف عن السؤال. ولهذه الخطوة ميزة إضافية؛ فإذا ظهر أي دليل يناقض ما قلته لساندي في السابق، فقد تفرض عليه المبادئ الأخلاقية القانونية الامتناع عن وضعي في منصة الشهود حيث سينتهي بي الأمر بالتأكيد. فمن الأفضل لي الاطّلاع على

كل ما يملكه الادعاء ضدّي، والتأكد من أن ذاكرتي قد أُنعشت تماماً، كما قال المحاميان، قبل أن يقوم ساندي بالاستعلام عن روايتي لمسار الأحداث. ونظراً إلى كونه عالقاً بين مطرقة نظام يميل فيه الموكّل إلى الكذب، وسندان المحامي الساعي إلى الثقة بموكّله من دون أن يساعده ذلك في شيء، يعمل شتيرن في الهوامش الضيّقة المتبقية، ويرغب قبل كل شيء في تقديم عرض ذكيّ للقضية التي يدافع عنها، ولا يتمنى إعطاء انطباع خاطئ أو تعطيل خياراته بسبب تصريحات متهوّرة تثبُت زيفها. ومع دنوّ المحاكمة، سيكون بحاجة إلى معرفة المزيد، وقد يطرح السؤال حينذاك فأجيبه بالتأكيد. في هذه المرحلة، وجد شتيرن كالعادة الوسيلة الأكثر مَكراً وغموضاً للتحقق من الأمور.

«نظرية ديلاي غارديا مماثلة إلى حد ما لما يلي»، قلت. «تستحوذ بوليموس على عقل سابيتش. يتصل بمنزلها. لا يستطيع التخلي عنها. عليه أن يراها. ذات ليلة، بعد علمه بخروج زوجته وبأنه يستطيع التسلل إلى منزل كارولين، يتصل بها، ويتوسل إليها، فتوافق بوليموس أخيراً. ويعودان بالذكرى إلى الأيام الغابرة، ولكنّ خَطباً ما يحدث. ربما يغار سابيتش من علاقة أخرى، وربما تقول كارولين إن علاقتهما قد انتهت. أيًّا يكن الأمر، يريد سابيتش أكثر مما ستعطيه إيّاه. فيحصل على حبل، ويوجّه لها ضربة بأداة ثقيلة، ويقرر جعل الأمر يبدو كما لو أنها عملية اغتصاب. فسابيتش مدّع عام ويعلم أنه بهذه الطريقة سيكون هناك عشرات المشتبَه فيهم. لذلك، يقوم بتقييدها، ويفتح المزاليج ليبدو الأمر كما لو أن شخصاً ما قد تسلل إلى المنزل، ومن ثم - وهذا الجزء الخبيث - يسحب حجاب منع الحَمْل كي لا يكون هناك أي دليل على موافقة بوليموس على ممارسة الجنس. ولكنه على غرار كل الأشخاص السيّئين، بالطبع، يرتكب القليل من الأخطاء، فينسى الشراب الذي قدم لأجله، ويترك الكأس على المشرب. ولا يفكر - حتى إنه لا يدرك ربما - أنه سيكون باستطاعة عالِم الكيمياء الجنائي التعرف إلى هوية صاحب مُبيد النطاف المنويّة. ولكنه يعلم بأنه ألحق الأذى بهذه المرأة

لأنه لم يكشف قطّ - لقد كذب - عن وجوده في منزلها ليلة الجريمة، وهذا أمر تُثبته كل الأدلة المادية».

لقد أراحني هذا العرض بشكل غامض. فالتحليل القاسي للجريمة جزء من حياتي ومن نشاطي الفكري لدرجة أنني لا أستطيع حمل نفسي على الشعور بالكدر أو بقليل من الاكتراث. فلعالم الجريمة لغته الخاصة، وهي قاسية. ولدى التحدث عنها أشعر بأنني عدت إلى الحياة وسط أولئك الذين يعتبرون الشر أمراً مألوفاً إذا صادفوا حالة مقيتة يتعيّن التعاطي معها، وهم بذلك يشبهون عالِماً يتفحّص بعناية الأمراض من خلال مجهره.

وأكملتُ.

«إنها نظرية نيكو، شيء من هذا القَبيل. عليه التركيز قليلاً على مسألة ارتكاب الجريمة عن سابق تصوّر وتصميم. وقد يجادل قائلاً إن سابيتش كان يعتزم قتلها بين دقيقة وأخرى، وإنه اختار هذه الليلة ليتمكن من إثبات غيابه عن مسرح الجريمة التي قرر ارتكابها إذا رفضت الضحية التجاوب معه. ربما اعتبر سابيتش أنه لا يمكنها البقاء على قيد الحياة إذا لم تكن له. يعتمد ذلك على الفوارق الدقيقة في الأدلة المتوافرة. ربما اعتمد نيكو أسلوباً لا يقيّده، ولكنه سيكون قريباً من ذلك. كيف يبدو الأمر؟».

وأمعن ساندي النظر بسيجاره. إنه كوبي، قال لي قبل أسابيع قليلة. لقد أحضره له موكّل سابق، ولكنه لم يسأله عن كيفية حصوله عليه. كانت اللّفافة ذات اللون البنّي القاتم تحترق بنظافة لدرجة أنه باستطاعتكم رؤية الورق في المنفضة.

«هذا معقول»، قال أخيراً. «ليس هناك دليل دامغ على الدافع، وهذا أمر قابل للنقد عادةً في قضية ظرفية. لا شيء يربطك بأي أداة عنف. فالولاية تجد نفسها أكثر فأكثر في موقف غير مناسب لأنك كنتَ في الأساس خصماً سياسياً لديلاي غارديا. لا بأس إذا لم تعتبر نفسك موظفاً سياسياً لأن هيئة المحلفين لن تصدّق ذلك، ولا يُفترض إطلاعها على الأمر لمصلحتنا. هناك دليل إضافي يشير إلى وجود كره متبادل

بينك وبين النائب العام لأنك قمتَ بطرده شخصياً من منصبه. ومع ذلك، يمكن التقليل من أهمية هاتَين المسألتَين إلى حد كبير إذا لم ينظر النائب العام في هذه القضية بنفسه».

«انسَ ذلك»، قلت. «لن يبتعد نيكو أبداً عن الأضواء».

وبدا الأمر كما لو أن شتيرن يبتسم في أثناء قيامه بتدخين السيجار.

«أوافقك كلّياً. إذاً، سوف نستفيد من تلك الأفضليات. وستكون تلك العوامل، التي تحمل شخصاً منطقياً على طرح الأسئلة، ذات أهمية كبيرة في قضية ظرفية، ونعلم كلانا أن هيئات المحلفين تنفر منها. بالرغم من ذلك، يا راستي، يجب أن نكون صادقَين بما يكفي لنقول لنفسينا إن الأدلة المتوافرة ككل تُلحق ضرراً كبيراً».

ولم يتوقف ساندي عن الكلام طويلاً، ولكن الكلمات بدت كما لو أنها مسدَّدة إلى قلبي، علماً أنني ما كنت لأقول غير ذلك لو كنت مكانه. فالدليل المتوافر يُلحق ضرراً كبيراً.

«علينا التدقيق في الأمور. الأمر صعب بالطبع، وأنا واثق من أنه مؤلم، ولكن حان الوقت لتستخدم منطقك السليم في هذه القضية يا راستي. عليك أن تطلعني على كل خلل، وكل شائبة. يجب علينا التمعّن بأدق التفاصيل المرتبطة بكل دليل، مهما كان ذاك التفصيل صغيراً، وبكل شاهد. دعنا لا نقول إن أيًّا من هذا العمل الشاق سيُنجَز غداً. من الأفضل لنا البدء في الحال، اليوم. وكلما عثرنا على المزيد من العيوب في هذه القضية الظرفية، كلّما تعززت فُرَصنا ووجد نيكو نفسه مضطراً للشرح مراراً وتكراراً، وبصعوبة. فكل مسألة لا يستطيع ديلاي غارديا تفسيرها تزيد من فُرَصك بالحصول على حكم بالبراءة».

بالرغم من اعتيادي هذه التعابير وعدم تأثّري بها، فقد تركت كلمة واحدة أثراً في نفسي: الفُرَص، كما أظن.

استدعى ساندي جايمي كِمب للمشاركة في حديثنا لأنه مُلزَم بتقديم بعض الاقتراحات المفيدة لقضيتنا. وللحد من نفقاتي، سمح لي شتيرن

بالمساعدة في أعمال البحث والتحقيق، ولكن كان يتعيّن عليّ التصرف وفقاً لتوجيهاته. فتقاسمت مع كمب عمل المحامي الأدنى مرتبة، وتمتعت بالتعاون معه أكثر من اتّكالي عليه. فكمب زميل شتيرن منذ سنة تقريباً. لقد بلغني أن جايمي كان عازف غيتار منذ بعض الوقت في فرقة روك أند رول تتخذ طابعاً شعبياً إلى حد ما، وقيل إنه شارك في كل الأسطوانات والجولات والعروض على الطرقات، وتخلّى عن الفرقة بعد تراجع أعمالها، وانتسب إلى كلّية الحقوق في يال. لقد تعاملتُ معه في مكتب النائب العام في مناسبتَين أو ثلاث من دون أن يعكّر صفوَ تعاوننا أي شيء، ولكنه اشتهر هناك بتصرفاته المماثلة لتصرفات طالب في السنة الإعدادية الجامعية، وبتعاليه، وتأثّره بمظهره الأشقر الوسيم، وبحياة الثراء.

«أولاً»، قال شتيرن، «يجب تبرير غيابك». إنه جَزم لا يحتمل أي نقاش. وسوف نُعلم الادعاء بعزمنا على تأييد ما أفدتُ به في مكتب ريموند وهو أنني كنت في المنزل ليلة مقتل كارولين.ممّ يحرمني هذا الموقف؟ نظريًا، إنّه ربما أفضل دفاع، لأنّ إقراري بأنني رأيت كارولين في تلك الليلة لسبب ما لا علاقة له بالتُّهَم الموجَّهة ضدي. ومن شأن هذا الموقف أن يخفف من قوة الدليل المادي، والتركيز - بدلاً من ذلك - على صحة أي دليل يربطني بالجريمة. فطوال أسابيع، كنت أتوقع من شتيرن استخدام مكره للحؤول دون اضطراري للزعم بأنني كنت في مكان آخر عند وقوع الجريمة، وقد حملني ذلك على الشعور بالارتياح. وأيًّا يكن موقف ساندي مما قلته، فلقد أدرك كما يبدو أنه بات من الصعب جداً تغيير مسار الأمور. ففي تلك الحالة، سيكون علينا تخيّل تفسير سليم النيّة لسلوكي في يوم الأربعاء الأسود؛ سبب كذبي بنبرات مثيرة للصدمة على رئيسي، وصديقي، والمحاميين عاليَي المرتبة التابعَين للإدارة الجديدة.

وسحب شتيرن الصندوق في اتجاهه وشرع بفرز الملفات. لقد بدأ من الجهة الأمامية حيث توجد الأدلة المادية.

«لنذهب إلى عمق المسألة»، قال شتيرن. «الكأس». وخرج كمب لإعداد نسخات عن تقرير بصمات الأصابع. كان العاملون على الكمبيوتر قد سلّموا نتائج بحثهم في اليوم السابق للانتخابات. ومذاك الحين، يتبادل بولكارو المعلومات مع نيكو ورئيس الشرطة مورانو. لقد بلغ هذا التقرير كما يبدو المراكز العليا وصولاً إلى نيكو. ومن المحتمَل أن يكون ديلاي قد قال الحقيقة عندما زعم في مكتب هورغان، يوم الأربعاء ذاك، أنه حصل على دليل دامغ ضدي في أثناء الحملة، واختار عدم إعلانه على الملأ. لقد افترضتُ أنه قدر كبير من الفوضى في الدقيقة الأخيرة.

وجاء في التقرير بإيجاز أنه تمّ التعرف إلى بصمتي إبهامي الأيمن وإصبعي الوسطى، وتبقى البصمة الأخيرة مجهولة. هي ليست لي، وليست لكارولين. والاحتمالات كلها تشير إلى أنها تعود لأحد الذين عاينوا مسرح الجريمة؛ رجال الشرطة الذين يعملون في الشارع ويلمسون كل شيء كما يبدو قبل وصول رجال المباحث الجنائيين، ومدير المبنى الذي عثر على الجثة، والمساعدون الطبّيون؛ لا بل أحد المراسلين أيضاً. وبالرغم من ذلك، تبقى هذه البصمة من بين التفاصيل الصعبة التي يتعيّن على ديلاي غارديا التعاطي معها.

«أودّ أن أرى تلك الكأس»، قلت. «قد يساعدني ذلك على اكتشاف بعض الأمور».

فأومأ شتيرن لكمب، وطلب منه التقدم بطلب رسمي للتزوّد بالدليل المادي.

«أيضاً»، قلت، «نريد منهم تزويدنا بكل تقارير بصمات الأصابع. لقد رفعوا البصمات عن كل ما هو موجود في الشقة».

وأوكل إليّ شتيرن القيام بهذه المهمة، وسلّمني مجموعة أوراق.

«اقتراح رسمي للتزود بكل الاختبارات العلمية: كل التقارير الأساسية، والمخططات البيانية، والتحاليل الكيميائية، إلى آخره، إلى آخره... تعرف ذلك أكثر مني».

ودوّنتُ الملاحظة. وطرح شتيرن سؤالاً.

«تناولتَ الشــراب في شــقة كارولين، بالطبع، عندما كنتَ هناك في الماضي؟».

«بالتأكيد»، قلت. «ولم تكن سيّدة منزل بكل معنى الكلمة. وأظن أنها كانت تغسل كأساً واحدة مرة واحدة كل ستة أشهر».

«أجل»، قال شتيرن ببساطة.

وتجهّم وجهانا.

وتبادرت إلى ذهن كِمب فكرة أخرى.

«أود الحصــول على جردة كاملة بكل الموجودات في الشــقة؛ كل غرض مادّي. أين الهُلام المُبيد للنِّطاف المنويّة الذي يقول الكيميائي إنه وجــده؟ ألــم يكن من المُفترَض أن يكون موجوداً في خزانة الأدوية؟».

ونظر إليّ للتأكد من صحة ما يقوله، ولكنني هززتُ رأسي.

«لا أتذكر أنني تناقشت مع كارولين في مسألة تحديد النسل. ربما أكون ذَكَر العام المتعصّب، ولكنني لم أسألها قطّ عما تقوم به».

ونظر إليّ شتيرن مفكراً ومتريّثاً في أثناء تدخين سيجاره.

«علينــا توخّــي الحــذر هنا»، قال. «هناك أفــكار مثمرة، ولكننا لا نريد أن نقود ديلاي غارديا إلى الدليل الذي لم يفكر بالحصــول عليه. يجب على طلباتنا، أيًا تكن، ألا تكون متطفّلة. تذكّر أنه يجب عليهم أن يســلّمونا كل ما يكتشــفه الادعاء ويكون لصالح الدفاع. لذا، من الأفضل أن ننسى كل ما نناقشه ويمكن أن يكون مفيداً لهم». رمقني ساندي بنظرة جانبية معبِّرة. هو يستمتع باعتماد الوضوح والصراحة مع خصم سابق، وربما كان يفكر بدليل محدَّد لم يُطلعني عليه من قَبل. «من الأفضل لنا إجراء هذا البحث بأنفســنا من دون الإفصــاح عن نوايانا». وأشــار إلى كمــب؛ لقــد حــان دوره. «إذاً، طلب آخر للتزوّد بجردة بكل الأغراض التي تم ضبطها في شقة المتوفّاة، وللحصول على فرصة للمعاينة وإلقاء نظرة مدقِّقة. هل لا تزال الشقة مختومة بالشمع الأحمر؟»، سألني.

«أفترض ذلك».

«أيضــاً»، قال شــتيرن، «إن إشــارتك لعادات كارولين الشخصية

تؤدّي إلى هذه الفكرة. يُفترض بنا استدعاء أطبائها للمثول أمام المحكمة. ليست هناك امتيازات بعد وفاتها. من يعرف ما الذي قد نكتشفه؟ مخدرات؟».

«آثار حبل»، قال كمب.

وضحكنا كلنا؛ كانت لحظة مُريعة.

وسألني ساندي الوقور كالعادة إن كنت أعرف اسم أحد أطباء كارولين. فأجبتُ بالنفي، ولكن كل موظفي المقاطعة تغطيهم منظمة الصليب الأزرق. لذا، من شأن استدعائهم للمثول أمام المحكمة الكشف عن قدر كبير من المعلومات، بما في ذلك أسماء الأطباء. فسُرّ شتيرن بمساهمتي.

والمجموعة التالية من المستندات التي تفحّصناها بعناية هي سجلات الهاتف التي تحتوي على الاتصالات الهاتفية التي أُجريت من هاتف منزل كارولين وهاتف منزلي، وكانت عبارة عن رزمة من الأوراق المستنسَخة بسماكة بوصة واحدة تحمل أرقاماً لا متناهية مؤلَّفة من 14 عدداً. فسلّمتُ الأوراق لشتيرن واحدةً تِلو الأخرى. لقد أجريت من هاتفي اتصالات بهاتف كارولين، في 5 و10 و20 آذار/مارس، تبلغ مدة كل منها دقيقة واحدة. وعندما وصلتُ إلى 1 نيسان/أبريل، أمضيت وقتاً طويلاً في النظر إلى السجلات، ووضعتُ إصبعي على الرقم المسجَّل هناك عند الساعة السابعة واثنتين وثلاثين دقيقة. كان اتصالاً لمدة دقيقتَين.

«إنه اتصال بهاتف كارولين»، قلت له.

«آه»، قال شتيرن. «لا بد من وجود تفسير منطقي لكل ذلك». مشاهدة شتيرن يعمل تعني أيضاً تقفّي آثار دخان سيجاره ومراقبة ظل متمدّد. هل لهجته هي التي تسمح له بالتشديد على عبارة لا بد؟ لقد علمتُ أن هذه المهمة موكَلة إليّ.

ودخّن.

«ماذا تفعل في المنزل عندما تكون جليساً لابنك؟»، سأل.

«أعمل. أقرأ مذكرات، ولوائح تُهَم، وصفقات مع الادعاء، وخُلاصات قضايا».

«هل يجب عليك التشاور مع مساعدين آخرين للنائب العام؟».

«أحياناً».

«بالطبع»، قال شتيرن. «من حين لآخر، تكون هناك حاجة لطرح سؤال وجيز، وتحديد موعد. فهذه السجلات التي تغطي اتصالات جرت طوال أشهر تُظهر ذلك» - وربّت شتيرن عليها - «لقد أجري عدد من هذه الاتصالات مع مساعدي النائب العام وليس مع كارولين فقط».

فأومأتُ برأسي.

«هناك احتمالات كثيرة»، قلت. «أعتقد أن كارولين كانت تعمل على تُهمَة كبيرة في ذلك الشهر. لقد اطّلعتُ على بعض الأمور».

«جيد»، قال شتيرن. ونظر مجدداً إلى أوراق وحدة تسجيل الرسائل العائدة لليلة الجريمة. وتغضّنت شفتاه، وبدا منزعجاً.

«لا اتصالات إضافية بعد الساعة السابعة واثنتين وثلاثين دقيقة»، قال أخيراً، وأشار بإصبعه.

بكلمات أخرى؛ لا شيء يُثبت وجودي في المنزل حيث بقيتُ كما قلت.

«الأمر سيّئ»، قلت.

«سيّئ»، قال شتيرن أخيراً بصوت مرتفع. «ربما اتصل بك أحدهم في ذلك المساء؟».

فهززت رأسي. لا أذكر قيام أي شخص بالاتصال بي. ولكنني بتّ أعرف موقعي وفقاً لمسار الأمور.

«سأفكر بالأمر»، قلت. واستعدتُ ورقة وحدة تسجيل الرسائل العائدة لأول نيسان/أبريل، وراجعتها للحظات.

«هل يمكن تزييف هذه الأشياء؟»، سأل كمب. «سجلات وحدة تسجيل الرسائل؟».

فأومأتُ برأسي.

«كنت أفكر بذلك»، قلت. «يحصل النائب العام على رزمة من النسخات المطبوعة المستنسَخة لهذه السجلات. وإذا أراد مساعد ما، أو شخص آخر، التلاعب بها فباستطاعته القيام بذلك من دون أن يلاحظ أحد الفرق». وأومأتُ برأسي ثانيةً، ونظرت إلى كمب. «يمكن تزييف هذه الأشياء».

«وهل يُفترض بنا متابعة هذا الاحتمال؟»، سأل شتيرن. هل هناك ما يوحي بتوبيخ في صوته؟ كان يتأمل خيطاً على كمّ قميصه، ولكن عندما تلاقت أنظارنا بسرعة كان تأثيرها مخترق كأشعة الليزر.

«يمكننا التفكير بذلك»، قلت أخيراً.

«حسناً»، قال شتيرن. لقد احتفظ بوقاره، وطلب من كمب تدوين ملاحظة. «لا أعتقد أنه يُفترض بنا استطلاع هذا الأمر قبل البتّ بدليل الولاية. لا أريد رؤيتهم وهم يستخدمون ضدنا جهوداً نبذلها للتشكيك بهذه السجلات». ووجّه هذه الملاحظة لكمب، ولكن من الواضح أنني المقصود.

وتناول شتيرن ملفاً آخر، وتحقق من ساعته السويسرية الذهبية النحيلة. من المفترَض به العودة إلى المحكمة بعد خمس وأربعين دقيقة. فاقترح أن نتحدث عن الشهود، وأوجزت له ما قرأتُه حتى تلك المرحلة. فذكرتُ أن مولتو وديلاي غارديا لم يُبرزا أي تصريح أدلى به شاهدان مُدرَجان على لائحة الشهود: سكرتيرتي أوجينيا، وريموند. وطلب ساندي من كمب بذهول التقدم بطلب رسمي للتزود بأدلة مادية. وأعاد وضع نظارته البنّية المائلة للصُفرة، وواصل دراسة لائحة الشهود.

«السكرتيرة»، قال، «لا تقلقني لأسباب سوف أشرحها. ولكن هورغان يقلقني بصراحة».

فجحظت عيناي عندما قال ساندي ذلك.

«يجب استدعاء بعض الشهود للشهادة»، شرح ساندي، «إضافةً إلى ديلاي غارديا حتى لو كان الموقف غير مناسب بالنسبة إليه. أنت تعرف ذلك أكثر مني، بالطبع، يا راستي. ورجل المباحث ليبرانزر

مثال على ذلك. كان صـريحاً جداً في مقابلته مع مولتو في اليوم التالي للانتخابات، وأقرّ بأنك طلبتَ منه عدم الحصـول على سـجلات الهاتف الخاصـة بمنزلـك. لـذا، إن اسـتدعاء ليبرانـزر سـيكون أمراً مسـاعداً للادعـاء، علِمـاً أنـه سـيقول أموراً جيدة عديدة عنك شخصـياً. من جهة ثانية، هورغان ليس شاهداً يتوق مدع عام جيد لرؤيته. سيكون معروفاً من قِبل كل المحلّفين، ويُعتبر اسـتدعاؤه مجازَفة كبيرة بسـبب مصداقيته ما لم -» وانتظر ساندي، والتقط سيجاره ثانيةً.

«ما لم ماذا؟»، سـألتُ. «ما لم يُظهر عداءً للدفاع؟ لا أصـدق أن ريموند هورغان ينقلب ضـدي. ليس بعد اثنَي عشـر عاماً. إضـافةً إلى ذلك، ما الذي يمكن أن يقوله؟».

«إنها مسـألة اللهجة وليس المضـمون. برأيي، سـوف يشـهد بما صـرّحتَ بـه فـي مكتبه في اليوم التالـي للانتخابات. وأعتقد أن نيكو لن يجازف باستدعاء السيدة ماك دوغال إذا تبيّن له أنها شاهدة غير مساعدة. فهي على الأقل ليست من المقيمين منذ أكثر من عشر سنوات. من جهة ثانية، إذا تبيّن أن هورغان، خصـم ديلاي غارديا السياسـي، وصديقك ومسـتخدمك لمـدة اثنَـي عشـر عامـاً، متعاطف مع الادعـاء، فإن ذلك سيتسـبب بضـرر كبير. فهذا النوع من المفارَقات التي تحدث في قاعة المحكمة هو الذي يبدّل مسار القضايا كما تعلم وأعلم».

فنظرتُ إليه مباشَرةً. «لا أصدق ذلك».

«أتفهّم موقفك»، قال. «وربما تكون على صواب. ربما فاتنا أمر ما وسـنراه بوضـوح أكبر عندما نعرف محتوى الشـهادة المحتمَلة التي سـيتقدم بها هورغان. مع ذلك -» وفكّر سـاندي. «هل سيوافق ريموند على لقائك لو طلبت منه ذلك؟».

«لا أستطيع أن أتخيّل سبباً لعدم قيامه بذلك».

«سأتصـل بـه وأتحقـق من الأمر. أين هـو الآن؟». وتذكّر كِمب المؤسسـة القانونيـة: عصـبة الأمم مع الإشـارة إلـى كل مجموعة إتنية: أوغرادي، شتينبرغ، ماركوني، سليبوفيتش، جاكسون، وجونز. شيء

من هذا القبيل. «يُفترض بنا التخطيط، أنت وأنا، للقاء مع هورغان في أقرب وقت ممكن».

من الغريب أنه أول شـيء غير متوقَّع البتّة يذكره سـاندي، ويبدو أنني غير قادر على التخلص من تأثيراته. صـحيح أن ريموند لم يتصـل بـي منـذ ذلك اليوم في شـهر نيسـان/أبريل عندمـا خرجتُ من المكتب، ولكـن كانـت هنـاك أمور عدة تُقلقه: وظيفة جديدة، مكتب جديد. كما أنه محامي دفاع جنائي متمرّس، ويدرك ضـرورة رسـم حدود لأحاديثنا. لقد اعتبرتُ صمته مهنيًا حتى تلك اللحظة؛ وتساءلتُ عما إذا كان المدّعون العامون يسعون للإضرار بي على غرار مولتو.

«لماذا يحتاج إلى شهادة ريموند إذا كان يعتزم استدعاء مولتو؟»، سألتُ.

علـى الأغلـب، قـال شـتيرن، لأنه مـن المحتمَـل ألا يتقدم مولتو بالشـهادة. لقد أحال ديلاي غارديا القضـية إلى تومي عدداً من المرات لينظر فيها. ويحظّر على المحامي أن يكون شـاهداً ومدافعاً في الدعوى القضـائية نفسـها. بالرغم من ذلك، ذكّر سـاندي جايمي بأنه يتعيّن علينا التقدم بطلب رسـمي لإسـقاط الأهلية عن مولتو بما أنه مُدرَج في لائحة الشهود. فمن شأن هذا الأمر أن ينشر الفزع في مكتب النائب العام ويُجبر نيكو على التخلي عن استخدام ما صرّحتُ به لمولتو. على غراري، يعتبر سـاندي أنه من غير المحتمَل أن يكون نيكو راغباً حقاً في الاسـتفادة من هذا التصـريح. فنظراً إلى كون مولتو الصـديق المفضّـل لديلاي غارديا ومساعدَه الأعلى، سيكون من السهل التشكيك بصدقيته. ولكن من جهة أخرى، يمكن اسـتخدام التصـريح بفعالية لدى اسـتجوابي في المحكمة. لذلك، من الأفضل التقدم بطلب رسمي للحد من جموح نيكو.

وأكمل سـاندي مراجعة الأوراق. «هذا المسـتند لا أفهمه»، قال. ورفع عالياً تصريح الخادمة التي قالت إنها رأتني على متن حافلة داخل المدينة قادمة من نيرنغ في إحدى الليالي القريبة من ليلة مقتل كارولين. «ما الذي يخطط له ديلاي غارديا؟».

«لدينا سيارة واحدة فقط»، قلتُ شارحاً. «أنا على ثقة تامة من أن مولتو تحقق من رقم تسجيل السيارة. لقد أخذت باربارا السيارة في تلك الليلة، لذلك، كان عليّ إيجاد طريقة أخرى للوصول إلى كارولين. أراهن على أنهم وضعوا شرطياً يشبهني خارج محطة الحافلات في نيرنغ لمدة أسبوع».

«هذا الأمر يثير اهتمامي»، قال شتيرن. «لقد وافقوا على أن باربارا تركتك في المنزل في تلك الليلة. أفهم الآن سبب إقرارهم بأنها أخذت السيارة. لقد تعرّضت نساء لحوادث عديدة مشؤومة في محيط الجامعة، ولن يصدّق أحد أنها استخدمت وسيلة نقل عامة في الليل. ولكن، ما الذي يدفعهم إلى التصديق بأنها غادرت المنزل؟ فأيّ مدع عام لن يكون راغباً في الدخول في جدال حول قيام المتّهم بركوب حافلة لارتكاب جريمة. لا يبدو الأمر جديراً بالتصديق. لا بد من أنهم لم يتوصلوا إلى أي نتيجة مع شركات سيارات الأجرة وتأجير السيارات. أظن أنهم كانوا يراقبون سجلات من نوع ما تُثبت غياب باربارا».

«ربما الجهاز الذي يسجل الوقت الذي تدخل فيه الجامعة وتغادرها»، قلت. كنت أذهب ونات أحياناً لمشاهدة والدته وهي تعمل على الكمبيوتر. «لقد استعملتِ الجهاز عندما وصلتْ إلى هناك».

«آه»، قال شتيرن.

«في أي وقت وصلت برأيك؟»، سأل جايمي. «ليس في وقت متأخر، أليس كذلك؟ سيكون بإمكانها معرفة وجودك في المنزل عندما وقعت الجريمة، أو على الأقل أنها تركتك هناك، أليس كذلك؟».

«تماماً. فموعد عملها على الكمبيوتر عند الثامنة. وغادرت إلى الجامعة عند السابعة والنصف أو الثامنة إلا ثلث على الأكثر».

«ماذا عن نات؟»، سأل ساندي. «متى يخلد إلى النوم؟».

«في هذا الوقت تقريباً. في معظم الأحيان، تضعه باربارا في السرير قبل أن تغادر».

وسأل كمب، «هل يستيقظ نات كثيراً أم ينام في سُبات عميق؟».

«ينـام كمـا لـو أنـه في غيبوبة»، قلت. «ولكننـي لا أتركه أبداً في المنزل بمفرده».

وأصدر شتيرن صوتاً. لا يمكننا إثبات هذا النوع من الأمور.

«بالرغـم مـن ذلـك»، قال شـتيرن، «هذه الحقائـق مفيدة. يحق لنـا الاطّـلاع علـى أي سـجلات يملكونها وفقاً لبـرادي» – دليل مؤات للدفاع. «علينا التقدم بطلب رسمي آخر ناريّ. هذه المهمة مناسبة لك، يا راستي». وابتسم بلطف.

ودوّنتُ الملاحظة. وقلت لساندي إنه يتبقى شاهد واحد إضافي فقط أريد التحدث عنه. وأشرت إلى اسم روبنسون.

«لقـد قابلتُـه مـرات قليلة»، قلت. كنت على ثقة تامة بأن مولتو هو الذي يقف وراء تلك البادرة القبيحة المتمثلة باعتبار طبيبي النفسي السابق شاهداً محتمَلاً. فتومي يضيّق عليّ الخناق. لقد اعتدتُ القيام بأمور مماثلة مع المتّهمين ليشعروا بأنني لن أدعهم يُفلتون من قبضة العدالة. ففي الشهر السـابق، اطّلع مولتو على حسـابي المصـرفي في نيرنغ بموجب قرار صـادر عن المحكمة. لذلك، إن رئيس المصـرف، الدكتور برنشتاين، وهو صديق قديم لوالد باربارا المتوفّى، لن ينظر إليّ الآن عندما أدخل المصـرف. مما لا شـك فيه أن مولتو قد حصـل على اسم روبنسون من شيكاتي المصرفية.

لقد فاجأني رد فعل شتيرن بعد قيامي بكشف النقاب عن هذا الأمر.

«أجل، الطبيب روبنسون»، قال ساندي. «اتصل بي بعد رد التُّهمة على الفور، وأغفلتُ ذكر ذلك. لقد رأى اسمي في الصحيفة كمحام لك. أرادني أن أعلم فقط أَنهم عرفوا أنه طبيبك النفسي وأن الشرطة تَحاول اسـتجوابه. كان متـردداً فـي إزعاجك بهذه المعلومات. على كل حال، قال لي إنه رفض تقديم أي إفادة عملاً بالسـرّية المهنية. وقد أبلغتُه أننا لن نتنازل عن حقنا هذا».

«يمكننا التنازل، لا أُبالي بذلك»، قلت. بدا الأمر كما لو أنه تطفّل قليل الخطورة مقارَنةً مع ما حدث في الأشهر القليلة الماضية.

«يأمرك محاميك بالمبالاة. فديلاي غارديا ومولتو يأملان بلا شك أن نتنازل عن هذا الحق ظنًّا منهما أن هذا الطبيب سوف يشهد بسلامتك العقلية العامة وبعدم احتمال اتباعك سلوكاً إجراميًا».

«أراهن على أنه سيشهد بذلك».

«أرى أنني لم أوضح وجهة نظري»، قال شتيرن. «لقد علّقتُ على الأمر من قَبل. إن الدليل على وجود دافع ضعيف هنا. لقد أوجزتَ رواية ديلاي غارديا بمهارة كما أعتقد. فبوليموس تستحوذ على عقل سابيتش، قلتَ. وسابيتش غير راغب في أن تتخلى عنه. قل لي يا راستي، لقد ألقيتَ نظرة على قضـية ديلاي غارديا، أين الدليل هنا على وجود أي علاقة غرامية سابقة بين المتَّهَم والمتوفّاة؟ عدد قليل من الاتصالات الهاتفية التي يمكـن اعتبـار أنها أُجريت لضـرورات العمل؟ لا وجود ليوميات مدوَّنة هنا. لا وجود لأي رسالة مُرفَقة بزهور. لا وجود لمراسَلة بين عاشقَين. لأجل ذلك، كما أظن، سوف يتم استدعاء سكرتيرتك لإضافة ما أمكن، وأفترض أنه لن يكون هناك قدر كبير من المعلومات».

«قليلـة جـداً»، قلـت. كان سـاندي مُحِقاً. لم ألاحـظ هذه الثغرة. كمدّع عام، ما كان يُفترَض بي قطّ إغفال ذلك. ولكن الأمر يكون أكثر صعوبة عندما تمتلك كل الوقائع. ومع ذلك، كنت أصارع شعوراً بالأمل مُرفَقاً بدُوار. لم أستطع التصديق أن نيكو يمكن أن يغفل عن هذا الأمر الأساسي. وأشرتُ إلى أوراق وحدة تسجيل الرسائل. «هناك اتصالات أُجريت من منزل كارولين إلى منزلي في أواخر تشرين الأول/أكتوبر من العام الماضي».

«أجـل؟ ومـا الدليـل على أن السـيدة بوليموس لـم تُجرِها للتحدث إليك؟ كنتما تنظران في قضـية هامة في الشـهر الماضـي، ولا شـك في أنها اتصـالات لمتابعة التطورات. مسـائل تتعلق بكفالة ما. كما أتذكر، كان هناك نزاع جوهري في شأن الوصاية على الفتى. ما كان اسمه؟».

«ويندل ماك غافن».

«أجل، ويندل. إنها مسائل يصعب على المساعد الأعلى لفت الانتباه

إليها في المكتب».

«ولماذا طلبتُ من ليرانزر عدم الحصول على سجلات هاتف منزلي من وحدة تسجيل الرسائل؟».

«هنا تكمن صعوبة المسألة»، قال ساندي. «ولكنني أعتبر أنه من المسلَّم به أن يقوم شخص بريء بإبعاد الشُّبهة عنه والحؤول دون قيام تحرٍّ منهمِك في العمل من تضييعٍ وقته». إنها طريقته في النظر إلى الأمور. لقد اعتبرتُ ذلك من المسلَّمات. الأمر أشبه بخِفّة اليد.

«والسيدة كرابوتنيك؟»، سألتُ، مُلمّحاً إلى شهادتها المتوقَّعة بأنها رأتني في محيط شقة كارولين.

«كنتما تنظران معاً في قضية. هناك حاجة لمناقشة المسائل. بالتأكيد، إذا أردتَ الابتعاد عن مكتب النائب العام لمقاطعة كيندل، وهو المحيط الأكثر مدعاةً للشعور بالوَحشة، فإنك لن تلجأ إلى الخروج من نيرنغ حيث تقيم. لا أحد ينكر أنك كنت تتواجد في الشقة أحياناً. نحن نوافقهم الرأي. فبصمات أصابعك موجودة على الكأس». إن ابتسامة ساندي لاتينية، معقَّدة، ويتخذ دفاعه شكلاً محدَّداً، وهو مُقنع تماماً. «لا»، قال ساندي. «لا يستطيع ديلاي غارديا استدعاءك للشهادة بالطبع، أو على الأرجح استدعاء زوجتك. لذلك، فهو يواجه صعوبات. لقد لاكت الألسن الكثير من الأمور من دون شك، يا راستي. أنا واثق من أن المحامين في مقاطعة كيندل يشتبهون بعلاقتك الغرامية، ولكن لن يُسمَح بالشائعات. فلا شهود لدى المدعي العام، لذلك لا دليل على الدافع. لكنتُ أكثر تفاؤلاً»، قال ساندي، «لولا مشكلة شهادتك». وتلاقت عيناه الكبيرتان والقاتمتان والجدّيّتان مع عينيّ لفترة وجيزة. إنّ المشكلة هي شهادتي. هو يعني أنها مشكلة قول الحقيقة. «ولكنها مسائل مستقبلية. فعملنا، بالرغم من كل شيء، يقضي بإثارة الشكوك ليس إلا. وعندما ينتهي ديلاي غارديا من قضيته، سوف تتساءل هيئة المحلفين عما إذا لم تكن ضحيةَ مصادفة بائسة».

«أم أن فخًّا قد نُصب لي».

إن ساندي رجل منطقي، وحكيم. لقد استعاد تلك النظرة الرزينة رداً على اقتراحي. من الواضح أنه يفضّل عدم وجود أوهام بين الموكِل والموكَّل. وألقى نظرة سريعة على ساعته. لقد اقترب موعد العرض. فلمستُ معصمه.

«ماذا تقول لو أخبرتك أن كارولين كانت تنظر كما يبدو في قضية تتناول رشوةَ مساعدٍ للنائب العام؟ ومساعد النائب العام في القضية هو تومي مولتو؟».

ففكر ساندي بالأمر مطوَّلاً، وكشفت نظرته عن وضوح في الرؤية.

«اشرح، رجاءً».

فأخبرته بلحظات قليلة عن الملف بي. إنها أسرار هيئة المحلفين الكبرى، قلت شارحاً. وحتى الآن، آثرتُ الاحتفاظ بها لنفسي.

«وإلى أين أدت تحقيقاتك؟».

«لم تؤدِّ إلى أي مكان. لقد توقفتْ عندما غادرتُ».

«علينا العثور على طريقة ما للاستمرار بها. لاقترحتُ الاستعانة بمحقِّق كالمعتاد. ربما كانت لديك فكرة أخرى». وأنزل ساندي السيجار من يده، وسحق ما تبقّى منه بحِرص، ونظر إليه للحظات على نحو تبجيلي. فتنهّد قبل أن يقف ليرتدي معطفه. «مهاجمة المدّعي العام، يا راستي، تكتيك يَسرّ الموكِّل على الدوام تقريباً، ونادراً ما تقتنع به هيئة المحلفين. والأمران اللذان ذكرتهما في السابق - معارضتك السياسية لديلاي غارديا، وطردك له - أمران يضعفان مصداقيته، ويساعداننا على شرح حماسة المدعي العام لتوجيه اتهام على أساس دليل غير كافٍ. ولكن، قبل المجازفة وتوجيه الاتهام، علينا التفكير مليًّا بالمسألة وبحذر شديد. فالنجاحات التي تحقّق من خلال اقتراح دوافع آثمة نادرة جداً في الولاية».

«لقد فهمتُ»، قلت. «أردت أن أُعلمك بالأمر».

«بالطبع. وأقدّر ذلك حق قدره».

«هذا ما أشعر به فحسب»، قلت له. «الأمر ليس مجرد مصادَفة. أعني،» وتمكنتُ أخيراً من البَوح بما منعني اعتدادي بنفســي من البوح به: «يا ساندي، أنا بريء».

ومــدّ ســاندي يــده وربّت على يدي قدر المســتطاع. كانت نظرته توحي بحزن عميق. وبينما كنت أنظر إلى عينَيه البنّيتَين وشعره الناعم، أدركتُ أن أليخاندرو شتيرن، وهو أحد أفضل محامي الدفاع في البلدة، قد سمع هذه الاعترافات بالبراءة وبمثل هذه اللهفة عدة مرات في السابق.

19

عند الساعة الثانية إلا عشر دقائق، التقيتُ وجايمي باربارا عند زاوية غراند وفيلر، وتوجهنا معها إلى دار القضاء حيث ينتظرنا الحشد الصحافي عند الدرَجات تحت الأعمدة. كنت أعرف مدخلاً عبر تجهيزات التدفئة والتبريد، ولكنني تصوّرتُ أنه لا يمكنني استخدام تلك الخدعة إلا مرة واحدة، وانتابتني فكرة كئيبة عن إمكانية حلول يوم آخر أكون فيه متلهّفاً لتجنّب هؤلاء الأشخاص المتربصين بأضواء الهالوجين، وأذرع ميكروفوناتهم، وتدافعهم وصياحهم. لقد اكتفيتُ في تلك الأثناء بشق طريقي عبرهم قائلاً لا تعليق.

وكان ستانلي روزنبرغ من القناة الخامسة، وهو شخص وسيم باستثناء أسنانه الأمامية الناتئة بصفة خاصة، أول من وصل إلينا. كان قد ترك المصوّر وطاقم الصوت وراءه ودنا مني بمفرده، وسار بجانبنا. كنا نتوجّه إلى أحدنا الآخر باسمه الأول.

«هل هناك احتمال للتصريح بشيء ما أمام الكاميرا؟».

«لا»، أجبت.

وحاول كِمب التدخل، ولكنني منعته من ذلك، وواصلنا السير.

«إذا غيّرتَ رأيك، فهل تعِد بالاتصال بي أولاً؟».

«ليس الآن»، قال جايمي، ووضع يده على كمّ ستانلي. فحافظ ستانلي على مزاجه الجيد، وحاول إقناع كِمب. إن بثّ مقابلة على الهواء مع راستي قبل المحاكمة مباشَرةً، قال روزنبرغ، سيكون جيدّاً للجميع. لم يكن شتيرن لِيدَعني أصرّح بشيء لأحد، ولكن كِمب قال في أثناء اقترابنا من الدرَجات ومن مجموعة الكاميرات المنتظرة، والأضواء، والميكروفونات، «سوف نفكر بالأمر». وبقي ستانلي وراءنا عندما صعدنا الدَّرج أحدنا إلى يمين باربارا والآخر إلى يسارها، دافعَين إيّاها

تقريباً من مرفقيها في أثناء شقّ طريقنا بصعوبة.

«ما رأيك في قيام ريموند هورغان بالشهادة ضدك؟»، صاح ستانلي عندما افترقنا.

فدرتُ حول نفسي بسرعة. لقد ظهرت أسنان ستانلي السيّئة بالكامل. كان يعلم أنه سيلفت انتباهي بهذا الخبر. من أين جاء به، تساءلتُ. ربما افترض ستانلي ذلك بعد قراءة ملف المحكمة الذي يحتوي على لائحة بأسماء شهود نيكو. ولكن، لروزنبرغ صلات طويلة الأمد بريموند، وأنبأني حدسي بأنه لا يستخدم اسم هورغان عبثاً.

كان النظام القضائي يمنع تواجد الكاميرات داخل دار القضاء. لذلك، ما إن مررنا عبر الأبواب النحاسية الدوّارة، حتى لم يعد أحد يتبعنا سوى مجموعة من مراسلي المطبوعات والإذاعة، دافعين المسجِّلات في اتجاهنا، وطارحين أسئلة لم يُجب عنها أحد. وفي أثناء عبورنا الممر بسرعة في اتجاه المصاعد، أمسكتُ بيد باربارا التي كانت حول ذراعي.

«كيف حالك؟»، سألتُ.

كانت نظرتها متكلّفة، ولكنها قالت إنها بخير، وإن ستانلي روزنبرغ ليس وسيماً كما يبدو على التلفاز. فأجبتُها أن أيًّا منهم ليس حسن المظهر.

كنت قد استُدعيت للمثول أمام إدغار مامفري، كبير قضاة المحكمة العليا في مقاطعة كيندل، الذي غادر مكتب النائب العام قُبَيل بدئي بالعمل فيه، وكان يُنظر إليه برهبة حينذاك لسبب واحد؛ ثرائه الشديد. لقد افتتح والده سلسلة صالات سينمائية في بلدته حوّلها في النهاية إلى فنادق ومحطات إذاعية، وبذل إدغار جهداً ليبدو محصَّناً ضد تأثير ثروته. كان مساعداً طوال عقد من الزمن تقريباً، ومن ثم دخل ميدان مزاولة المهنة في القطاع الخاص حيث بقي عاماً واحداً أو عامَين قبل تعيينه قاضياً. لقد ثبُت أنه قاضٍ نزيه ومقتدر. وأصبح قاضياً أعلى في العام السابق، وهي مهمة إدارية في المقام الأول بالرغم من نظره في القضايا كافة، والتفاوض، وتَسلُّم الإقرارات بالذَّنب عندما يتم التقدم بها في المراحل الأولى للدعاوى القضائية.

وجلستُ في الصف الأمامي من قاعة محكمة القاضي مامفري المظلمة التي تعتمد أسلوب الروكوكو الزُّخرفي، وكانت باربارا بجانبي ببذلتها الزرقاء الجميلة، واختارت أيضاً اعتمار قبّعة يتدلى منها وشاح أسود غير مصقول يُراد به على الأرجح أن يكون خِماراً، وقد أثار ذلك حيرتي. لقد أخبرتها أن الوقت لم يحِن بعد للمأتم، ولكنها لم تشاطرني قط الناحية المظلمة لحس الفكاهة لديّ. كان يوجد قربي ثلاثة فنانين من المحطات التلفزيونية المحلية يرسمون صورة جانبية لرأسي، ويجلس وراءهم المراسلون وهواة المحاكم المتحمّسون في انتظار ردود فعلي على نَعتي بالقاتل علناً للمرة الأولى.

عند الساعة الثانية، دخل نيكو من غرفة الملابس يتبعه مولتو. وشرع نيكو من دون أي تحفّظ بالإجابة عن أسئلة المراسلين الذين تبعوه إلى داخل غرفة الانتظار الجانبية الصغيرة. وتحدّث إليهم تاركاً الباب مفتوحاً. إنه النائب العام، قلت في سرّي. النائب العام اللعين. كانت باربارا قد أمسكت بيدي، ومع ظهور نيكو أحكمت قبضتها عليها.

عندما التقيت نيكو للمرة الأولى قبل اثنَي عشر عاماً، عرفتُ على الفور أنه شخص إتنيّ ذكيّ ألفتُه في المدرسة الثانوية والشوارع، وهو من ذاك النوع الذي اخترتُ ألا أكونه؛ إذ كان محيطاً بجوانب الأمور أكثر من كونه ذكياً، بالإضافة إلى أنه كثير التبجّح، ويتكلّم باستمرار. ولكنني تآلفتُ بسرعة مع نيكو، ومع عدد قليل من الأشخاص الآخرين، عندما انتسبنا إلى مكتب المدّعي العام. كنا نذهب لتناول الغداء معاً، ونساعد بعضنا في ملخّصات الدعاوى. وبعد سنواتنا الأولى القليلة، سلك كل منا طريقه بسبب انتمائنا إلى بلدَين أصليَّين مختلفَين. وبعد العمل ككاتب محكمة لصالح رئيس قضاة المحكمة العليا، اعتُبرت محامياً. أما نيكو، فقد انتسب إلى المكتب بسبب صلاته السياسية على غرار عشرات مساعدي النائب العام طوال عقود خلت. كان قائد دائرة انتخابية في منظمة نسييه إميليو تونيتي، وهو مأمور مقاطعة ضَمن حصول نيكو على منصب بموافقة ريموند. كان نيكو يعرف نصف الكتّاب المأجورين

والموظفين في مبنى المقاطعة، ولم يكفّ قطّ عن بيع بطاقات للمشاركة فـي نزهـات سياسـية تنظَّم بعد مباريات الغولف، وفي وجبات عشـاء، وتقديم جَولات من الشراب.

فـي الحقيقـة، لقـد أثبـت أنـه محام أفضـل ممـا كان متوقَّعاً. فهو يجيـد الكتابـة، علمـاً أنه يكره تمضـية القليل من الوقت في المكتبة، وهو فعال أمام هيئة المحلفين. فشخصـيّته في قاعة المحكمة مماثلة للعديد من شخصـيات المدعين العامين كما لاحظت. فهي خالية من حس الفكاهة، وقاسـية، ولئيمة وباعتدال. وهو يمتاز بعزم فريد أوضـحه على الدوام من خلال روايته قصة الكليماكس. لقد شرحتُ هذا الأمر لساندي وكِمب في الأسبوع السابق عندما سألا عن القضية الأخيرة التي نظرتُ فيها مع ديلاي غارديا.

حدث ذلك قبل ثماني سنوات تقريباً بعد تعييننا في محاكم الجنايات مباشَـرةً. كنا توّاقَين للعمل مع هيئة المحلفين، ولذلك وافقنا على النظر في قضية اغتصاب.

«وجد ديلاي نفسه أمام الشاهدة المشتكية، لوسيل فالون، في منصة الشهود»، قلت لساندي وكِمب. كانت لوسيل، وهي سيدة قاتمة البشرة، في المشرب عند الرابعة من بعد الظهر عندما التقت المتّهَم. وكان زوجها العاطـل عـن العمل في المنزل مع أبنائهما الثلاثة. وتحدّثت لوسـيل إلى المتّهَم، فريدي ماك، ووافقت على أن يوصلها إلى المنزل. كان فريدي فاشـلاً وسـبق له أن ارتكب عملية اغتصـاب وتهجّم على أحد الأشخاص - لم يسـبق لهيئة المحلفين بالطبع أن سـمعت بما قام به - فاسـتلّ شـفرة مستقيمة من جَيبه تسهّل عليه المهمة التي ينوي القيام بها. لقد ساند هال ليرنـر المتّهَـم وطرد كل شـخص أسـود من المشـرب، ولـم يبقَ هناك سـوى عشـرة رجال بيض متوسّـطي العمر يحدّقون بهذه السيدة الزنجية التي تلقّت معاملة أقسى بقليل من المعاملة التي رغبت في الحصول عليها عندما خرجت من منزلها للتسكّع.

كنت ونيكو قد أمضـينا سـاعات محاولين عبَثاً إعداد لوسـيل لتقديم

شهادتها. فهي سيدة سمينة، ومريعة، وترتدي فستاناً ضيّقاً، وتُكثر من الاستطراد حول ما حدث لها. كان زوجها في الصف الأمامي، وقد روت قصة مختلفة تماماً في قاعة المحكمة، وجاء فيها أنها التقت فريدي في أثناء خروجه من المشرب. وشرع نيكو باستخلاص ما جرى.

وماذا فعل السيد ماك حينذاك، يا سيدة فالون؟

قام بالأمر.

وما هو هذا الأمر، يا سيدتي؟

ما كان يقول إنه سيقوم به.

هل تحرّش بك، يا سيدة فالون؟

أجل، يا سيدي، لقد فعل.

هل قام بعلاقة معك؟

أجل.

وأين كانت الشفرة؟

هنا بالذات. هنا بالذات على حنجرتي. كان يضغط بها على حنجرتي هنا بالذات، وكنت أفكر في أثناء تنفّسي بأنه سيذبحني.

حسناً، يا سيدتي. كان نيكو على وشك الاستمرار عندما سلّمتُه ملاحظة مكتوبة، وكنت جالساً إلى طاولة المحامي المرافِع. صحيح، قال نيكو، لقد نسيتُ. هل بلغ الكليماكس؟

لا، يا سيدي. أبقى سكينه على حنجرتي.

فلم يبتسم ديلاي قط. وضحك القاضي فاراغوت بشدة بحيث اضطر إلى إخفاء وجهه تحت طاولة القضاء، ووقع أحد أعضاء هيئة المحلفين عن كرسيّه. ولم يهتزّ نيكو قط. «وعندما عادوا إلى أن جي»، قلت لجايمي وساندي، «أقسمَ على ألا ينظر معي مجدداً في أي قضية. قال ذلك لأنني لم أتمكن من الاحتفاظ برصانتي وأوحيتُ لهيئة المحلفين بأنها قضية غير جدّيّة».

كان نيكو يبدو سعيداً يوم عقد الجلسة التمهيدية لمحاكمتي، وتحيط به هالة من النفوذ، ويضع قرنفلته، ويسعى إلى السير بالطريقة الأكثر

انتصاباً، ويبدو مهندَماً ببذلة سوداء جديدة، وتظهر حيويّته الجذّابة بأبهى حُللها في أثناء تنقّله إلى الأمام والوراء في وقفات جديرة بالتقاط صور لهـا مـن قبَل المراسـلين، مُجيباً عن أسـئلة جدّيّة مـع بعض الملاحظات الشخصـية. كنت أكيداً من أمر واحد؛ وهو أن هذا المغفّل يسـتمتع على حسابي. إنه بطل الموسم، الرجل الذي حل جريمة العام. كنت أجد وجهه في كل الصـحف المحلية، وأتابع مرتَين في الأسـبوع أخباراً توحي بأن نيكو قد يشارك في الانتخابات لمنصب رئاسة البلدية بعد عامَين، متعهّداً بالولاء لبولكارو. وكنت أتساءل عن مصدر هذه الأخبار.

بالرغم من ذلك، أصرّ شتيرن على أن نيكو يسعى للنظر في القضية بعدل. لقد تخطى حدوده في حديثه إلى الصـحافة، ولكن التسـريبات لم تصـدر عنه بأجمعها، أو عن تومي مولتو. فقسـم الشرطة يبذل قصارى جهده في قضية مماثلة، ونيكو صريح مع شتيرن حول ما حققه التحقيق من تقدم؛ لقد شاطره الدليل المادّي في أثناء تطوّره، وأرسل لي إشعاراً رسـمياً بلائحـة التُّهـم الموجَّهة لي، وأعرب عن ثقتـه بأنني لن أجازف بالفرار، ووافق على التوصـل إلى صـيغة لإخلاء السـبيل مقابل كفالة مالية. والأهم من ذلك ربما أنه تكرّم عليّ بعدم إضافة تهمة إعاقة العدالة.

فشتيرن هو أول من أشار في أثناء أحد اجتماعاتنا الأولى إلى الخطر المُحدق بي إذا وُجّه لي اتهام بالتكتم المتعمَّد عن وقائع يشملها التحقيق.

«من المحتمَل، يا راسـتي، أن تصـدّق هيئة المحلّفين أنك كنت في تلك الشقة تلك الليلة، وأنه كان يُفترض بك على الأقل الإبلاغ عن الأمر وعدم اللجوء إلى الكذب في أثناء لقائك هورغان ومولتو وديلاي غارديا ومـاك دوغـال. وقـد يَلحق بك الأذى بسـبب حديثك مع رجل المباحث ليبرانزر في شأن سجلات وحدة تسجيل الرسائل».

كان شتيرن واقعيًّا في ما يتعلق بكل هذه الأمور، وسيجاره موضوع فـي زاويـة فمـه. هل خفقت عينه للحظـة؟ إنه الرجل الأكثر براعةً الذي صـادفتُه يوماً. لقد عرفتُ بطريقة ما سـبب قيامه بطرح الموضوع. هل ينبغـي أن يتوصـل مـع نيكـو إلى هذا الاتفاق؟ هذا ما كان يسـألني عنه.

لن يتخطى الحكم الذي سيصــدر بحقي السـجن لمدة ثلاث سـنوات بسبب إعاقة العدالة، وسوف أخرج بعد ثمانية عشر شهراً، وأرعى ابني ثانيةً قبل أن يصبح راشداً، ويمكنني ربما استعادة إجازتي بعد خمس سنوات لمزاولة مهنتي مجدّداً.

لم أفقد قدرتي على التحليل، ولكنني لم أتمكن من التغلّب على خمولي العاطفـي. أردت العـودة إلـى حياتي السـابقة ليس إلا، وعدم إذلالي ما حييت بسـبب هذا الأمر. سـيكون الالتماس مماثلاً للإذعان لعملية بتر لا حاجة لها؛ إنه أكثر سوءاً.

لا التماس، قلت لساندي.

لا، بالطبـع لا. بالطبـع. ونظـر إليّ غير مصـدِّق. فهو لم يطرح الموضوع.

في الأسابيع التالية، افترضنا أن ديلاي غارديا سيضيف هذه التُهمة الأكيدة إلى لائحة التُهَم. وفي الأسابيع الأخيرة، وعندما اتّضح أن اللائحة باتت جاهزة، تخيّلتُ أنها لن تتضمن سوى إعاقة العدالة، ولكن ثبُت أنها تُهمة بالقتل فقط. هناك أسباب تكتيكية تحمل المدّعي العام على اتخاذ هذا الخيـار. فتُهمـة إعاقة العدالة تؤدي إلى تسـوية مُغرية بالنسـبة إلى هيئة محلَّفين - وغير مُرضية بالنسبة إلى مدّع عام - تميل إلى اعتباري مُذنِباً ولكنها تكون متقلقلة حيال الطبيعة الظرفية لقضية نيكو. ولكن، في يوم التقدم بلائحة التُهم، سلّمني ساندي قرار نيكو الذي وجدتُه مثيراً للدهشة.

«لقـد أمضـيت الكثيـر مـن الوقت، بالطبع، في التحـدث إلى نيكو مؤخراً»، قال لي ساندي. «لقد تحدّث عنك وعن باربارا، مُظهراً بعض الأحاسيس. وروى لي في مناسبتَين أو ثلاث مناسبات قصصاً عن أيامكما الأولى معاً في المكتب، وعن ملخّصات الدعاوى التي أعددتَها له، كما قال، وعن أمسياتكما التي استمتع بها عندما كان متزوّجاً. عليّ القول، يا راستي، إنه يبدو صافي النيّة. أما مولتو، فهو شخص متعصّب يكره كل شخص يدّعي عليه. ولكنني لست واثقاً جداً من نيكو. أعتقد، يا راستي، أن هـذه القضـية قـد أثّـرت فيه بالعمق، وأنه اتخـذ هذا الخيار كي يكون

مُنصفاً معك. لقد قرر أن إنهاء حياتك المهنية ببساطة بسبب تكتّمك – أيًّا يكن حجمه ومهما كان السبب – أمر غير مسؤول. هو يعتقد أنه يجب معاقبتك إذا كنتَ مذنباً بهذه الجريمة، وإلا فبإمكانك أن تذهب في حال سبيلك. وأنا أمدحه بسبب موقفه هذا. أعتقد»، قال المحامي الذي دفعتُ له 25،000 دولار للدفاع عني، «أنها المقارَبة الصحيحة».

«القضية الجنائية رقم 86-1246»، نادى ألفين، كاتب المحكمة الوسيم والأسود لدى القاضي مامفري. وغاصت معدتي وتوجّهتُ إلى المنصة. كان جايمي ورائي. فجلس القاضي مامفري الذي دخل منذ لحظات على مقعده. ويُعيد المتهكمون أحياناً سبب ارتقاء إد إلى منصب كبير القضاة إلى وسامته. لقد جاء انتخابه لتهدّئ السلطة القضائية من رَوع وسائل الإعلام التي نشرت تحفّظ السلطات على نتيجة الاقتراع. فمظهره يليق بمنصبه. فهو ذو شعر فضيّ جميل ممشّط إلى الوراء يوحي بالصرامة. ويُطلَب منه مرّتَين في العام نشر صوره في مجلات المحامين لسبب دعائي.

انتهى الأمر بديلاي غارديا واقفاً بجانبي، ومولتو على بُعد أقدام قليلة وراءه. وبالرغم من مظهره الحسن، كان مولتو منفوش الشعر، وكان قميصه الداخلي غير المناسب في شهر تموز/يوليو متدلياً فوق بطنه، وكمّا قميصه يتخطيان كمّي سترته. وبعد رؤيتي لمولتو، زال اندفاعي لنعته بالحقير لأنني رأيتُ أنه من الأفضل كبت مشاعري، ولكنني نظرت بدلاً من ذلك إلى نيكو مباشرة، فأومأ برأسه.

«راستي»، قال ببساطة.

«ديلاي»، أجبت. وعندما نظرتُ إلى الأسفل في اتجاه خصره، رأيتُ أنه مدّ يده بشكل سرّي.

لم تتسنَّ لي فرصة اختبار مدى تسامحي لأن كِمب أمسك بكمّ معطفي وشدّه بقوة، ووقف بين ديلاي غارديا وبيني. فكلانا نعرف أنه لا يجب عليّ التحدث إلى المدّعيَين العامَّين.

ونظر إليّ القاضي مامفري من مقعده المصنوع من خشب الجوز،

وابتسم لي بحِرص شديد قبل أن يتكلم. فقدّرتُ مجاملته هذه حق قدرها.

«إنها القضية الجنائية رقم 86-1246. دعوني أطلب من المحامين التعريف عن أنفسهم لأجل المحضر».

«يا صاحب السيادة، أنا نيكو ديلاي غارديا أمثّل شعب الولاية، ومعي المساعد الأعلى محامي المقاطعة توماس مولتو».

مُضحكة هي الأمور التي تحدث لكم. لم أستطع إخماد ذلك الصوت الوجيز عندما سمعتُ لقبي يُمنَح لمولتو. فشدّني كِمب من كمّي ثانيةً.

«كوينتين كِمب، يا صاحب السيادة، من مكتب أليخاندرو شتيرن، بيي سي، أمثّل المتّهَم روزات كيه سابيتش. أطلب الإذن، يا صاحب السيادة، بتسجيل حضورنا».

فقُبِل طلب جايمي، وأشارت محاضر المحكمة رسمياً إلى أن شتيرن وشركاه تتولّى الدفاع عني. وتولّى جايمي الكلام.

«يا صاحب السيادة، المتّهَم موجود في المحكمة. ونحن نؤكد استلامنا لائحة التُهَم رقم 86-1246 ونتنازل عن حقنا بقراءتها رسمياً. نيابةً عن السيد سابيتش، يا صاحب السيادة، نطلب من المحكمة إضافة التماس بالبراءة إلى التُهمة».

«إضافة التماس بالبراءة إلى لائحة التُهَم»، كرر القاضي مامفري، مدوِّناً ملاحظة على محضر المحكمة. وحُدِّدت الكفالة بمبلغ 50،000 دولار. «هل يطلب أيّ من الجانبَين عقد اجتماع قبل الشروع بالمحاكمة؟» إنه اجتماع لمناقشة الالتماس، ويكون تلقائياً في العادة بما أنه يساعد الجانبَين على شراء الوقت. وهمّ ديلاي بالكلام، ولكن كِمب قاطعه.

«يا صاحب السيادة، سيكون هذا الاجتماع تضييعاً غير ضروري لوقت المحكمة». ونظر إلى إضبارته القانونية بحثاً عن الكلمات التي كتبها ساندي. فعندما يخرج كِمب من المحكمة، يقرأ الكلمة نفسها أمام كاميرات المحطات التلفزيونية في بثّ مباشَر. «التُهَم الموجَّهة في هذه القضية خطيرة جداً وغير صحيحة البتّة. لقد شُوِّهت سمعة أحد الموظفين العامين والمحامين الأكثر كفاءة، ودُمِّرت ربما من دون وجود أي أساس في

الواقع. وبأصدق الكلمات، يجب على العدالة أن تحسم أمرها بسرعة في هذه القضية، لذلك نطلب من المحكمة تحديد موعد فوري للمحاكمة».

كانت اللغة البلاغية المنمَّقة رائعة، ولكن التكتيكات هي التي تتحكم بهذا الطلب. لقد أكد لي ساندي أن الحسم السريع يجنّبني عناءً نفسياً لا نهاية له. لقد فهمتُ المبرّر الجوهري بالرغم من حالة الاضطراب التي أمرّ بها. فالوقت لصالح المدعي العام في هذه القضية، ويحافظ الدليل الرئيس الذي يمتلكه ديلاي على أهميته. فبصمتا إصبعيّ لن تفقدا ذاكرتهما، وسجلات وحدة تسجيل الرسائل لن تموت. فمع الوقت تزداد قضية المدعي العام تماسكاً؛ وقد يظهر شاهد من مسرح الجريمة، وقد يُعرف مصير سلاح الجريمة.

فطلبُ كِمب يُعتبر خروجاً هاماً عن العُرف بما أن معظم المتهَمين يعتبرون الإرجاء أفضل ثاني بديل للتبرئة. لقد فاجأ طلبنا نيكو ومولتو. وشرع ديلاي غارديا بالكلام ثانيةً، ولكن القاضي مامفري قاطعه. فأيًّا يكن السبب، لقد سمع ما يكفي.

«لقد تنازل المتهَم عن حقه بعقد اجتماع قبل المحاكمة. لذلك، ننتقل مباشَرةً إلى المحاكمة. يا سيدي الكاتب»، قال، «اختَر اسماً من فضلك». فقبل خمس سنوات، وبعد حدوث فضيحة في مكتب كاتب المحكمة، تقدّم كبير القضاة الأخير، فولي، باقتراحات تتناول طريقة تضمن اختيار قاضٍ بشكل عشوائي للنظر في دعوى قضائية. كنت قد طرحتُ فكرة اختيار الاسم في المحكمة أمام الجميع، وتمّ على الفور تبنّي الاقتراح الذي سُجّل باسم هورغان، وأظن أن هذا الاقتراح هو المقياس الذي حمل ريموند على الجزم بقدرتي التنفيذية. لذلك، تم اختيار القاضي عن طريق القرعة.

«القاضي ليتِل»، قال. لارين ليتل، شريك ريموند السابق، هو حلُم محامي الدفاع. فأصبت بدُوار. ومدّ كِمب يده مجدداً وضغط على يدي. وصرف مولتو أسنانه في الواقع. لقد أسعدتني رؤية القاضي مامفري يبتسم للحظات كما يبدو من حيث يجلس على مقعده.

«ستحال القضية إلى القاضي ليتل، على أن يتم تلقّي اقتراحات المتّهَم في غضون أربعة عشر يوماً، وسيقوم المدعي العام بالإجابة عنها وفقاً لطلب القاضي ليتل». والتقط القاضي مامفري مطرقته، وكان على وشك إنهاء الجلسة، ولكنه نظر إلى نيكو للحظات ثم قال: «يا سيد ديلاي غارديا، كان يُفترض بي مقاطعة السيد كِمب، ولكنني أفترض أن هذه القضية ستوحي بعدد كبير من الخُطَب كما يبدو قبل أن تنتهي. لا أعني بذلك أنني أؤيّد ما قاله، ولكنه مُصيب بإبداء ملاحظة حول خطورة هذه التُّهم الموجَّهة لمحام نعرف جميعاً كما أعتقد أنه خدم هذه المحكمة بما يشرّفها طوال أعوام. دعني أقول لك، يا سيدي، وببساطة إنني أحب كل المواطنين الآخرين في هذا البلد، وآمل أن تتحقق العدالة في هذه القضية. وطالما كان الأمر على هذه الحال». وأومأ لي إد مامفري مجدداً، ودعا للنظر في القضية التالية.

وغادر ديلاي غارديا كما قدم عبر مخرج غرفة الملابس. وبذل كِمب جهداً كي لا يبدو على وجهه أي تأثّر. ووضع جايمي الأوراق في حقيبته وراقب نيكو وهو يغادر.

«يسير بشكل جيد، أليس كذلك»، سأل جايمي، «مع كل ما ينتأ من مؤخرته؟».

20

«أرى أنك سعيد جداً بلارين»، قالت باربارا. كنا على الطريق العام بعد خروجنا من زحمة المرور في وسط المدينة، وباربارا تقود. لقد أدركنا في الأسابيع القليلة السابقة أن تشتُّت انتباهي يجعل العالم غير آمن عندما أقود. وشعرنا بارتياح بسيط بسبب ابتعادنا عن الكاميرات والصخب. لقد تبعنا الصحافيون من دار القضاء إلى الشارع، ملتقطين صوراً، وكاميرات الفيديو مصوَّبة نحونا كما لو أنها عيون مِسخ ما. وسرنا ببطء عملاً بنصيحة ساندي الذي حثّنا على أن نبدو مسترخين لدى دخولنا دار القضاء. لقد تركنا كِمب عند إحدى الزوايا على بُعد مجمَّعَين سكنيَّين من دار القضاء. إذا مرّ كل يوم على هذا النحو، قال، فلن يتمكن نيكو من القيام بأكثر من إلقاء مرافعته الافتتاحية. وجايمي مرِح بطبيعته، ولكن طيبة قلبه توحي بطريقة ما بحزن يكتنفه. فلن يكون كل يوم مثل هذا اليوم. هناك لحظات أكثر قسوة في انتظارنا. وصافحتُه وقلت له إنه بدا محترفاً. وقبّلته باربارا على خدّه.

«لارين خيار جيد». قلت، «إنه الأفضل ربما». ولم أتردد في قول ذلك إلا بسبب ريموند. فأيّ من ريموند أو القاضي ليتل لم يتحدثا معه في شأن القضية خارج المحكمة، ولكن وجود أفضل صديق للقاضي كشاهد سيكون له وقع ما، بطريقة أو بأخرى، وفقاً لميزان التعاطفات لدى ريموند. ولمستُ يد باربارا. «أقدّر كثيراً وجودك معي هناك».

«في الواقع، لا مانع لديّ»، قالت. «كان أمراً مثيراً للدهشة حقاً»، أضافت بصدق كالعادة، «إذا لم تأخذ بعين الاعتبار الظروف».

فالظرف الذي أمرّ فيه يدعوه المحامون قضية مصحوبة بدعاية كبيرة؛ تغطية إعلامية كثيفة. في هذا الوضع، تبدأ الاتصالات بأعضاء هيئة المحلفين قبل وقت طويل من قدومهم إلى المحكمة للقيام بمهمة

التحكيم. لقد فاز نيكو بالمعركة الصحافية حتى ذلك الحين، ويتعيّن عليّ القيام بما يمكن لتقديم صورة إيجابية. وبما أنني متّهَم بالقتل والزنى بصفة أساسية، فمن المهم لعامة الناس أن يصدّقوا أن زوجتي لم تفقد ثقتها بي. وقيام وسائل الإعلام بتغطية حضور باربارا في أثناء كل جلسة أمر حاسم. لقد أصر شتيرن على قدومها إلى وسط المدينة ليتمكن من شرحِ ذلك لها وجهاً لوجه. ونظراً لنفورها من المناسبات العامة وشكوكها المدقّقة بالأغراب، توقعتُ منها اعتبار الأمر مهمة عسيرة. ولكنها لم تقاوم المطلوب منها، وواصلت دعمها لي في الشهرَين الأخيرَين. فرغم أنها تعتبرني ضحية حماقاتي – هذه المرة بسبب عدم شغفها أبداً بالحياة العامة والسياسات التي لا ترحم – استمرت بمعاملتي بطريقة ملائمة، معبّرةً بانتظام عن ثقتها ببراءتي، ومقدّمةً لي شيكاً بقيمة 50،000 دولار سحبته من حساب وضعه والدها تحت تصرّفها بشكل حصري، من دون أن أطلب منها ذلك، لتغطية أجر ساندي والرسوم الأخرى. لقد أصغتْ بانتباه كبير إلى حوار دام ساعات، ألقيت اللوم فيه على نيكو ومولتو، ووصفتُ فيه تعقيدات الاستراتيجيات الضيّقة التي نصح شتيرن باعتمادها. وفي الأمسيات التي كنت أميل فيها للتراجع عن شغل منصب شاغر، كانت تجلس بجانبي وتمرّر يدها بنعومة على يدي، وتشعر بمعاناتي. وبالرغم من إظهارها الشجاعة، أعلم أنها كانت تبكي في بعض الأحيان.

فالشعور بالضيق بسبب الأحداث الاستثنائية، إضافةً إلى التغيير الجذري لجدول أعمالي، أسهما بإضفاء إيقاع جديد على علاقتنا: إذ كنت أقوم بنزهة إلى المكتبة، وأضع مسوّدة لدفاعي، وأتسمّر في الحديقة بدون هدف، وأجد نفسي معها، وبمفردنا، في معظم الأحيان. لقد أمضينا فصل الصيف على هذا النحو: تُنجز باربارا مهامها القليلة في الجامعة ونتناول الفطور ببطء بعد إيصال نات إلى المخيّم. وعند الغداء، أخرج وأقطف الخضروات لنعدّ السلطة. وشهدت علاقتنا الحميمة تطوّراً. «كنت أفكّر بضرورة القيام بذلك»، أعلنت ذات يوم بعد الظهر في أثناء جلوسها على الأريكة حيث كانت مضطجعة مع مادة غامضة

تقرأها ومع شوكولاته بلجيكية تتناولها. وهكذا، أصبح لقاء بعد الظهر جزءاً من روتيننا الجديد، والطيور تزقزق خارج النوافذ، وضوء النهار يتسرّب عبر حافات ستائر نوافذ غرفة النوم.

فباربارا خيالية ورياضية في أثناء العلاقة، وما دفعني إلى أحضان كارولين ليس افتقارها إلى الحس الشهواني. ففي أسوأ أوقاتنا، لا بل أيضاً وسط الاضطراب الذي تلا اعترافاتي المجنونة في فصل الشتاء السابق، لم نكفّ عن القيام بعلاقة حميمة. فنحن من الجيل الثّوري، ونتحدث عن الأمور الحميمية بصراحة.

في تلك المرحلة الجديدة، غابت البرودة التي طبعت علاقتنا طوال أشهر، ولكنني تيقّنت من وجود يأس وحزن في حب باربارا، ومسافات يتعيّن قطعها. كنت أستلقي على السرير في فترات بعد الظهر العذبة تلك بعد خلود باربارا إلى نوم خفيف وسط هدوء الضواحي بعد سنوات أمضيناها في صخب المدينة، وأتأمّل في حياتي التي أعتبرها لغزاً.

لم أفكر قطّ بترك باربارا حتى في أوج حبي الشديد لكارولين. وإذا كان زواجي بباربارا موضع شك، فإن حياتي العائلية ليست كذلك. فكلانا مولَعان جداً بنات. لقد نشأتُ مُدركاً أن العائلات الأخرى تختلف عن عائلتي. فأفراد تلك العائلات يتحدثون في أثناء جلوسهم إلى مائدة العشاء، ويذهبون معاً إلى دور السينما ودكاكين بيع المرطّبات. كنت أراهم يركضون، ويلعبون بالكرة في الحقول المفتوحة للغابة العامة، وأتوق إلى حياة مماثلة؛ كانوا يتشاطرون الحياة. فوجود عائلة مكوّنة من والدَين وفتى هو طموحي الوحيد في سنّ الطفولة الذي أشعر بأنه تحقق، والجرح الوحيد الذي شفيتُه.

ومع ذلك، فالتظاهر بأن ناتانيال هو خلاصنا الوحيد يُعتبر أمراً مثيراً للسخرية، وتشاؤمياً، ومغلوطاً. ففي أحلك الأوقات، كنا نستجيب لنداء الضمير الذي نعيره بعض الأهمية. فزوجتي امرأة جذابة جداً تنظر إلى المرآة بحِرص شديد للتحقق من سلامة بعض الزوايا: خط صدرها ما زال مستدِقًا، وخصرها ما زال مماثلاً لخصر شابة صغيرة

في السنّ بالرغم من حَمْلها، ووجهها العابس لم يفقد الصفاء بعد بالرغم من اختزانه بعض الدهون أو ارتخائه تحت الفك. كانت تستطيع بالتأكيد العثور على متقدّمين للزواج بها، ولكنها اختارت عدم القيام بذلك. إنها امرأة قديرة، وقد ورثت 100،000 دولار بعد وفاة والدها، لذلك لا شيء يدعوها للرحيل. وسواء أكان الأمر يصبّ في اتجاه الأفضل أو الأسوأ، فلا بد من وجود حقيقة ما في الكلمات المريرة التي توجهها لي في سورة الشجارات: وهي أنني الشخص الوحيد، باستثناء نات، الذي أحبّته على الدوام.

في فترات الصَّفح، كما هي الحال في المرحلة الأخيرة، يميل تفاني باربارا ليكون في حده الأقصى. فهي تتوق إلى أن تشملني برعايتها وأصبح سفيرها إلى العالم الخارجي، حاملاً لها تعليقات نيرنغ ورواياتها. وعندما أكون في المحكمة، أعود إلى المنزل في غالب الأحيان عند الساعة الحادية عشرة ليلاً، أو عند منتصف الليل، لأجد باربارا بانتظاري في لِباس البيت، وعشائي ساخن. فنجلس معاً، وتُصغي بشرود ذهن وفضول شديد إلى ما جرى في ذلك اليوم على غرار فتاة في العقد الثالث أمام جهاز الراديو. وتصلصل الأطباق، وأتكلم بفم مليء بالطعام، وتضحك باربارا ويثير الشهود دهشتها، وكذلك رجال الشرطة، والمحامون الذين لا تراهم إلا من خلالي.

وماذا عني؟ وماذا عمّا أشعر به حيالها؟ أنا أقدّر بالتأكيد ولاءها والتزامها، ولطفها ورعايتها، عندما تُظهرها لي. فلحظات حبّها غير الأناني لي بمثابة بَلسم لأنايَ المجروح. ولكن ادعاء عدم وجود لحظات كرهتها فيها أمر غير صحيح وأجوف. فنظراً إلى كوني الابن المتضرر لوالد غاضب، لم يكن باستطاعتي استيعاب ما يتسبب لي به مزاجها من أذى. كنت أشعر بيدَيّ تنتفضان رغبةً في خنقها في أثناء نوبات التهكم المؤذية للمشاعر. وفي مواجهة هذه الفترات، درّبتُ نفسي على إظهار لا مبالاة غدت حقيقية مع الوقت. وكنا ندخل مجدداً في دوّامة مزعجة، في حرب شديدة نناور فيها لتحقيق تقدّم ما من دون النجاح في ذلك،

فنتراجع القهقرى.

ولكن تلك الأوقات ولّت ونسيناها تقريباً، وكنا على شفير اكتشاف جديد. فما الذي يُعيقني؟ بعض الحنين إلى الماضي. كنت أشعر بذلك الحنين في فترات بعد الظهر الفاترة حتى عندما تكون أبواب روحي ونوافذها مشرَّعة على امتنانٍ جوهري. لم يكن الأمر يخلو من ثورات آنيّة؛ فباربارا عاجزة عن التزام الهدوء لفترة طويلة. ولكننا قمنا أيضاً برحلاتنا إلى أشهر المواقع وأعلى الأماكن؛ مع باربارا برنشتاين، عشتُ بالتأكيد أفضل لحظات حياتي. كانت السنوات الأولى بريئة، ونشيطة، ومليئة بحب صاخب وشعور لُغزيّ يفوق الوصف: أتوق أحياناً إلى ذكرى قديمة، وأضعُف أمام شعور أتلمّسه. كنت كشيء لا أهمية له يتم ذِكره عرَضاً في نهاية مغامرات خيالية، ويتعثّر بجذَل منثورة، ويومئ لمخلوقات كنت أحدها ذات مرة: دعوني أدخل ثانيةً! لم يحِن وقت العمل.

عندما كنت في كلّية الحقوق في الجامعة، كانت باربارا تدرّس، وكنا نقيم في شقة قديمة تتألف من غرفتَين ونصف، تتفشى فيها الطفيليات، وفي حالة سيئة تستدعي التصليح. وكانت أجهزة التدفئة في منتصف الشتاء تقذف دفقاً من الماء المغلي، فيما تستوطن الفئران والصراصير أي مساحة في الخزانة تحت المغسلة. لقد نجت تلك الشقة من وضعها في خانة ما عُرف آنذاك بالمساكن الفقيرة لأنها موجودة في أحياء الطلاب. كان صاحبا الملك يونانيَّين؛ زوجاً وزوجة. كلاهما مريضان، ويقيمان في الناحية الأخرى من الفناء. كنا نسمع نوبات سعاله في الفصول كافة بسبب انتفاخ رئتَيه، وكانت الزوجة تعاني داء التهاب المفاصل وأمراضاً انتكاسية في القلب. كنت أخشى حمل الإيجار لهما كل شهر بسبب رائحة كثيفة، وغريبة، ومتعفّنة، أشبه برائحة ملفوفة تختلط بالهواء حالما يفتحان الباب. فهذا ما كان باستطاعتنا تحمّل تكلفته: مع ما يتبقى من أجر مدرّسة مبتدئة بعد حسم رسومي التعليمية، لامسنا المعايير البيروقراطية للفقر المعترَف به.

كانت لدينا دُعابتنا وهي أننا فقيران جداً لدرجة أن التسلية الوحيدة

التي يمكننا تحمّل تكلفتها هي إقامة علاقة حميمة، وقد امتزج حسّ الفكاهة هذا مع شعور مشترَك بالإحراج عندما نشارف على تجاوز الحد. كانت تلك السنوات سنوات المُتَع الحسّيّة، وكنت أتطلّع فيها إلى نهاية الأسبوع للاحتفال بيوم الراحة على طريقتنا: عشاء بمفردنا، قنينة شراب، ومن ثم علاقات غرامية ممتعة، طويلة، وبطيئة. وذات ليلة، وبينما كنت أقود باربارا إلى غرفة النوم، رأيتُ ستارتنا مفتوحة وجارَينا المسنَّين يراقباننا. كان هناك تعبير بريء في نظراتهما، وبدوَا لي كحيوانَين مُجفَلَين: ظَبية، أرنب، نظرة عدم فهم، تساؤل بعيون مستديرة. لم أشتبه قطّ في أنهما كانا يتجسسان منذ مدة طويلة، وهو شعور لم يخفف من خجلي مطلقاً. ولكن باربارا لمست يدي قائلة: «لا تنظر، لا تنظر»، تمتمت. «لقد سرحا في خيالهما».

21

بعد أسبوع واحد من استدعائي إلى المحكمة، وقفتُ وساندي في منطقة الاستقبال داخل المؤسسة القانونية التي كان ريموند هورغان شريكاً فيها منذ أيار/مايو. إنه مكان ذو ذوق رفيع: أرضية مكسوّة بخشب مزخرف تغطيها سجادة فارسية كبيرة لم أرَ مثيلاً لها، يتدرّج فيها اللون الوردي فوق لون أزرق قاتم نابض بالحياة. وهناك الكثير من الأعمال الفنية التجريدية على الجدران، وفي كل زاوية من الغرفة طاولة ذات حافات من الزجاج والكروم وُضعت عليها صفوف من نسخات لمجلتَي فوربس ووال ستريت جورنال. ووراء طاولة مزخرفة من خشب الورد شقراء تسجّل الأسماء، وتتقاضى ربما ألفَي دولار سنوياً لتبدو جميلة المظهر على هذا النحو.

أمسك ساندي طيّة صدر سترتي بألطف طريقة ممكنة، ووجّه لي تعليمات بصوت منخفض، حتى إن المحامين الشبان المندفعين أمامنا، والذين لا يرتدون سترات فوق قمصانهم لم يستطيعوا ربما رؤية شفتيه وهما تتحركان. لن أُجري حديثاً، قال ساندي، بل سأطرح الأسئلة. فوجودي متعمَّد، كما قال، كمحفزٍ فقط. وفوق كل شيء، قال، يجب أن أحافظ على رباطة جأشي أيّاً تكن طريقة استقباله لنا.

«هل من جديد؟»، سألتُ.

«يسمع المرء أموراً»، قال ساندي. «لا جدوى من التخمين عندما نوشك أن نعرف قريباً الأجوبة من المصدر الرئيس». تتناهى إلى مسمعَي ساندي في الواقع أمورٌ كثيرة، ولمحامي الدفاع الجيد شبكة معقَّدة. فالزبائن يحملون المعلومات، وكذلك المراسلون، ورجال الشرطة الأصدقاء في بعض الأحيان، ناهيكم عن محامي دفاع آخرين. عندما كنت مدعياً عاماً، بدا محامو الدفاع كما لو أنهم قبيلة من نوع ما يقفون

علــى الــدوام وراء طبولهــم كلمــا بلغتهــم معلومة يمكنهم نقلهــا بالطريقة الملائمة. لقد أخبرني ساندي أن ديلاي غارديا استدعى هورغان للمثول أمام هيئة المحلفين الكبرى بعد استلام نيكو منصبه، وأن ريموند حاول المقاومة. لقد علم ساندي بذلك، كما قال، من مصدر موثوق. واستناداً إلى هذه المشــادّة الكلامية، توقعتُ اســتمرار المنحى العدائي بين ريموند ونيكو، ولكن رد فعل ساندي حيال رؤيته اسم ريموند على لائحة الشهود أشار ضمناً إلى امتلاكه معلومات إضافية. فساندي لن يخون، بالطبع، ثقة من يزوّده بفكرة ما عن مقاصد ريموند.

وخرجــت ســكرتيرة هورغــان لمرافقتنا، وكان ريموند نفســه في انتظارنا في منتصف الطريق إلى مكتبه. وكان يرتدي قميصاً من دون سترة فوقه أو معطف.

«ســاندي، راســتي». وربّــت على كتفي مرة واحــدة، وبإيجاز، وصافحني. لقد اكتسب المزيد من الوزن، وبطنه يدفع الأزرار السفلية من قميصه في اتجاه الأمام. «هل سبق لكما أن زرتما المكان هنا؟».

واصــطحبنا ريموند في جولة. فمع الحوافز الضــريبية، أصــبحت الشــركات القانونيــة نموذجــاً حديثــاً لقصــر فرســاي. فزوّدنــا ريموند بمعلومات عن الأعمال الفنية، وكنت أعلم أنه حفظ الأسماء من المجلات. ستيلا. جونز. روشنبرغ. «أحب هذه اللوحة الفنية بصفة خاصة»، قال. خطــوط قصــيرة ومتعرّجــة ومربعات. وفي إحــدى قاعات الاجتماع، كانــت هنــاك طاولــة بطول ثلاثين قدماً مصــنوعة مــن قطعة واحدة من الملكيت الأخضر.

فســأل ســاندي عن المهنة التي يزاولها ريموند. عمل فدرالي في الغالــب حتــى الآن، أجــاب ريموند الذي اعتبر ذلــك أمراً جيداً. فهناك هيئــة محلفيــن كبــرى في كليفلاند تنظر في دعوى قضــائية موجَّهة ضــد زبونه الذي باع مظلات لوزارة الدفاع مزوَّدة بحبال تشــوبها عيوب. «سَهو غير متعمَّد». قال لنا ريموند بابتسامة ماكرة. «مئة وعشرة آلاف قطعة».

أخيراً، وصلنا إلى مكتب ريموند. كانوا قد زوّدوه بزاوية تُطلّ على مناظر غير عادية إلى الغرب والجنوب. ونُقل جدار الاحترام إلى هناك مع القليل من الإضافات، وباتت صورة فوتوغرافية بانورامية للمنصة التي نُصّب عليها ريموند مؤخراً تحتل نصف الجدار. وكنت هناك في صورة إلى اليمين مع أربعين آخرين.

لم ألاحظ وجود شاب هناك حتى قام ريموند بتعريفنا إليه. كان زميلاً يدعى بيتر، ويحمل إضبارة ورق وقلماً. ويتولى بيتر مهمة تسجيل أقوال ريموند بهدف مراجعتها في ما بعد إذا تسببتْ بأي جدل.

«إذاً، ما الذي يمكنني القيام به من أجلكما؟»، سأل ريموند بعد أن طلب القهوة.

«أولاً»، قال ساندي، «أريد وراستي أن نشكرك على تخصيصك بعض الوقت للقائنا. أنت شخص كريم الأخلاق».

ولوّح ريموند بيده. «ماذا أقول؟» استنتاج غير منطقي تقريباً. لقد ظننتُ أنه يريد إبداء استعداده للمساعدة بدون قول ذلك.

«أظن أنه من الأفضل لراستي ألا يشارك في حديثنا، وأنا على ثقة تامة بأنك تَعي ما أقوله»، قال شتيرن. «آمل ألا يكون لديك ما يمنع قيامه بالاستماع فقط». وفي أثناء قوله ذلك، ألقى ساندي نظرة سريعة على بيتر الذي رفع إضبارة الورق وشرع بتدوين الكلمات بلا كلل.

«بالتأكيد، الأمر عائد لك». وشرع ريموند برفع الغبار عن طاولته الذي لم يكن باستطاعتي - أو باستطاعته - رؤيته. «يدهشني أنك أردت منه القدوم. ولكن الأمر عائد لكما».

رفع ساندي حاجبه بشكل مميَّز، وهي إحدى الإيماءات اللاتينية التي تعكس الرغبة في قول شيء حساس جداً أو غير دقيق.

«إذاً، ما الذي تريد مني أن أخبرك به؟»، سأل ريموند مجدّداً.

«وجدنا اسمك على لائحة الشهود الخاصة بديلاي غارديا. إنه دافع زيارتنا، بالطبع».

«بالتأكيد»، قال ريموند، وحرك يديه نحو الأعلى. «تعرف كيف

تجري الأمور، يا أليخاندرو. يرسل لك شخص ما دعوة لحضور حفلة، فيكون عليك حضور الحفلة الراقصة». لقد سبق لي أن سمعت هذا الخداع المعسول من ريموند آلاف المرات من قَبل وهو يومئ بيدَيه كثيراً، وتميل ملامح وجهه دائماً إلى الابتسام، ونادراً ما تلتقي عيناه عينَي الشخص الذي يتحدث إليه. هذه هي طريقته في التفاوض مع محامي الدفاع. أنا شخص رائع، ولكنني لا أستطيع المساعدة. وعندما يغادر زوّاره، غالباً ما يطلق عليهم أسماء.

«إذاً، سوف تُستدعى للمثول أمام المحكمة؟».

«يمكنك المراهنة على ذلك».

«لقد فهمتُ. لم نتلقَّ أي إشعار بذلك. هل أفهم أنك لم تتحدث إلى المدّعيَين العامَّين؟».

«لا، لقد تحدثتُ إليهما قليلاً. في الواقع، أنا أتحدث إليك، وأتحدث إليهما. نواجه بعض الصعوبات في البداية. يتعيّن على مايك ديوك إنجاز بعض الأمور. لقد جلست مع تومي مولتو مرات قليلة حتى الآن. تبًّا، أكثر من مرات قليلة. ولكن، كما تعلم، خدمة مقابل خدمة. لم أوقِّع أي إشعار أو أي شيء من هذا القبيل». إنها علامة سيِّئة، سيِّئة جداً. لقد انتابني ذعر وغضب شديدان، ولكنني حاولت المحافظة على رباطة جأشي. فريموند يحظى بمعاملة شاهد عيان، ولا وجود لإشعارات رسمية للحد من التناقضات التي قد تهدده في أثناء الاستجواب، ويُجري عدة لقاءات مع المدّعي العام بسبب أهميته في القضية.

«ذكرتَ وجود صعوبات»، قال ساندي. «المسألة غير مرتبطة بحصانة ما كما فهمت؟».

«تبًّا لا. لا شيء من هذا القبيل. يتعلق الأمر ببعض الأشخاص هنا، شركائي الجدد. الأمر برمّته يجعلهم عصبيّي المزاج. قد يكون الأمر مُحرجاً قليلاً بالنسبة إليّ أيضاً». وضحك. «يا لها من بداية سيّئة! مضى على وجودي هنا ثلاثة أيام، وها أنا أتلقى استدعاء للمثول أمام المحكمة. أراهن على أن سولي ويس أعجبه الأمر»، قال مشيراً إلى

الشريك الإداري في المؤسسة.

فلزم ساندي الصمت. كان يضع قبّعته وحقيبته باحتشام فوق حضنه، ويحدّق بهورغان محاولاً معرفة حقيقة موقفه. لم يكن الرجل يتطوّع للإفصاح عن أي شيء.

«وماذا قلتَ لهما؟»، سأل ساندي أخيراً. وكان لا يزال يحتفظ بهدوئه.

«أتقصد شركائي؟».

«بالطبع لا. كنت أتساءل عما يمكننا أن نتوقعه من شهادتك. أنت على عِلم بمسار الأمور». واعتمد ساندي نبرته المألوفة واللطيفة وغير المباشَرة. وعندما سأل عما أخبرهما به ريموند، بدا الأمر كما لو أن ومضة ضوء قد انعكست فجأةً، وظهرت قوة شخصيته.

«حسناً، في الواقع، لا أريد الدخول في التفاصيل». وأومأ في اتجاه الشاب الذي يدوّن الملاحظات.

«بالطبع لا»، قال ساندي. «مواضيع، مجالات، يمكنك أن تخبرنا بذلك متى شئت. من الصعب أحياناً أن نحزر من الخارج ما الذي دُعي الشاهد لمناقشته. تعرف ذلك جيداً».

كان ساندي يتحقق من أمر ما لم أفهمه تماماً. فباستطاعتنا النهوض والمغادرة إذا كان هدف زيارتنا تحقيق الهدف المحدَّد لها. لقد بتنا نعرف الجانب الذي اتخذه هورغان. هو ليس بصديق.

«سوف أشهد على سلوك راستي في التحقيق، وكيف قال لي إنه مهتمّ بإجرائه، وعلى تطرّقه إلى جوانب حياتي الشخصية في حديث جرى بيننا في وقت لاحق -».

«مَهلاً». لم يعُد باستطاعتي التحمل. «كيف كنتُ مهتمًا بإجراء التحقيق؟ ريموند، أنت من طلب مني تسلّم القضية».

«جرى حديث بيننا».

ومن زاوية عيني، لاحظتُ شتيرن يرفع يده، ولكنني ركّزت على هورغان.

«ريموند، أنت من طلب مني ذلك. قلت لي إن الحملة تشغلك وعلى التحقيق أن يكون بين يدي أفضل الأشخاص. كنتَ قلقاً في شأن عبث شخص آخر بالتحقيق».

«هذا ممكن».

«هذا ما حدث».

ونظرت إلى شتيرن، طالباً الدعم. كان يسند ظهره إلى الكرسي، محدّقاً بي بغضب.

«آسف»، قلت بهدوء.

وواصل ريموند كلامه، غافلاً عن حديثي مع محاميّ.

«لا أتذكر ذلك يا راستي. ربما هذا ما حدث - كما قلتَ. كنتُ منهمكاً بالحملة. ولكن، جرى حديث بيننا كما أذكر قبل يوم أو يومين من المأتم، واتفقنا في نهاية الحديث على أن تتسلم القضية، ولديّ شعور بأنها كانت فكرتك أكثر من كونها فكرتي؛ كنتُ منفتح الذهن، أقرّ بذلك، ولكنني أتذكر اندهاشي من الطريقة التي انتهت إليها الأمور».

«ريموند - ما الذي تحاول أن تفعله بي، يا ريموند؟». ونظرت إلى ساندي الذي كانت عيناه مغمضتَين. «هل يمكنني أن أطرح عليه هذا السؤال؟».

ولكنني دفعت الأمور في النهاية إلى ذروتها؛ كان زخَم ريموند في أقصى سرعته. فانحنى فوق طاولته إلى أقرب مسافة ممكنة مني.

«ما الذي أحاول أن أفعله بك؟». كرر السؤال مرتَين، وازداد وجهه احمراراً. «ما الذي كنتَ تحاول أن تفعله بي، يا راستي؟ ماذا تفعل بصمتا إصبعيك على أنحاء الكأس اللعينة كافة؟ ما كل ذاك الكلام الهراء الذي وجّهتَه لي في مكتبي عندما سألتني عن المرأة التي أقيم علاقة معها، وأنا الذي أظهرت لك الودّ قبل أسبوعين من ذلك الحدث عندما أوكلت إليك مهمة التحقيق. لقد صحتُ في وجهك مرتين، كما أتذكر، كي لا ترفض المهمة -» والتفتَ بشكل مفاجئ إلى ساندي وأشار بإصبعه. «إنه شيء آخر سأشهد به»، قال لساندي، ومن ثم نظر إليّ مجدّداً «لم

تخبرني قطّ قبل أسبوعين، أو في أي وقت مضى، بأنك كنت تقيم علاقة مع المرأة نفسها، عندما كان يتعيّن عليك القيام بالأمور بطريقة مهنية. لقد أمضيتُ وقتاً طويلاً وأنا أفكر بالحوار الذي جرى بيننا، يا راستي، سائلاً نفسي عما تقوم به هناك؟ ماذا كنتَ تفعل؟».

كان هذا الحدث أكبر مما يمكن لبيتر، الزميل، أن يتحمّله. لذا، كفّ عن الكتابة كلّياً وقام بمراقبتنا. فأومأ شتيرن لبيتر.

«في ظل هذه الظروف، أنصح موكّلي بعدم إبداء أي رد فعل. من الواضح أنه سيأخذ بنصيحتي».

«إذاً، هذا ما سأشهد به». قال ريموند لساندي. ووقف، وأضاف موبّخاً، «وبأنه أراد القضية، وأنني ركلته على مؤخرته مراراً ليحقق تقدماً في التحقيق، وأنه كان مهتماً بمعرفة من يقوم بعلاقة حميمة مع كارولين أكثر من اهتمامه بمن قتلها، وأنه جلس في مكتبي عندما افتُضح أمره مدّعياً أنه لم يكن قرب شقة كارولين في تلك الليلة. هذا ما سأشهد به، وسأكون مسروراً للغاية بذلك».

«حسناً، يا ريموند»، قال ساندي. والتقط قبّعته المصنوعة من اللبّاد الهامبورغي رمادي اللون عن الكرسي، وكان قد وضعها عليه وسط الجهود التي بذلها لتهدئتي.

وحدّقتُ بهورغان مباشَرةً، وبادلني التحديق.

«كان نيكو ديلاي غارديا صادقاً عندما قال إنه كان يشوّه سمعتي»، قال هورغان.

ووقف ساندي بيننا، وجعلني أقف على قدمَيّ، ممسكاً ذراعي بيدَيه.

«كفى»، قال.

«خسئت»، قلت في أثناء مرورنا أمام بيتر لدى خروجنا من المكتب. «خسئت».

«نعرف الآن موقعك»، قال شتيرن بهدوء. وفي أثناء دخولنا منطقة الاستقبال، تمنى عليّ التزام الصمت، فلزمتُه كما لو أن هناك شكيمة موضوعة في فمي. ومع هبوط المصعد، شعرت برغبة شديدة

في الكلام، فأمسكتُ ذراع ساندي عندما بلغنا الطابق الأرضي.

«ما مشكلته؟».

«إنه غاضب جداً». وعبر شتيرن الردهة الرخامية بعزم.

«أرى ذلك بوضوح. هل أقنعه نيكو بأنني مُذنب؟».

«ربما. يظن بالتأكيد أنه كان باستطاعتك أن تكون أكثر حِرصاً ولا سيما في ما يتعلق به».

«ألم أكن خادماً أميناً؟».

وقـام سـاندي بحركـة أخرى من حركاتـه اللاتينية بيدَيـه وعينَيه وحاجبه. كانت لديه اهتمامات أخرى. وفي أثناء سيره، رمقني بنظرة رزينة.

«لـم أكـن أملـك أي فكرة عن وجود علاقـة غرامية بين هورغان وكارولين، وعن تبادلك الحديث معه حول هذا الموضوع».

«لم تتبادر إلى ذهني فكرة إطلاعك على الحديث».

«لا شـك في ذلك»، قال شـتيرن بنبرة توحي ضـمناً بأنه يرتاب بأمري كثيراً. «حسناً، أظن أن ديلاي غارديا سيكون قادراً على استخدام ذلك لمصلحته. متى قامت تلك العلاقة بين ريموند وكارولين؟».

«بعد توقفها عن رؤيتي مباشَرةً».

وتوقـف سـاندي، ولـم يبذل أي جهد لإخفـاء انزعاجه. فتكلّم مع نفسه للحظات بلغته الأم.

«حسناً، نيكو يقترب بالتأكيد من دافع ما».

«ولكنـه مـا زال على مسـافة منـه»، قلت بأمل. فهو لا يزال حتى الآن لا يستطيع إثبات العلاقة الرئيسة بين كارولين وبيني.

«بعض هذه العلاقة»، قال لي ساندي. كانت هناك صراحة متعمَّدة في كلامه. من الواضح أنه كان منزعجاً تماماً مني بسبب أدائي في الطابق العُلوي، وإخفائي تفصيلاً هامًّا عنه. سيكون علينا التحدث مطوّلاً، قال، أما الآن فلديه عمل في المحكمة. ووضع قبّعته على رأسه وغامر بالسير في الحرارة الحارقة من دون الالتفات إلى الوراء للنظر إليّ.

لقد شعرت فوراً بالخبل وبنوع من الدُّوار، ولا سيما بخجل لاذع بسـبب غبائي. فبعد كل هذه السـنوات، ما زلت غير قادر على معرفة وَقــع هـذه الأحداث على ريموند هورغان، عِلماً أنه كان بالإمكان توقع مسـار أحاسيسـه. فريموند هورغان رجل شـعبي حقق لنفسه سمعة. لقد قال إنه ليس سياسـياً، ولكنه يتصـرف كسياسـي: ينمو بالتهليل، ولكنه يتـوق إلـى تـرك أثر إيجابي في نفوسـ الجميع. هو لا يهتم بكوني مذنباً أو بريئاً، بل يُحزنه فقدانه الاحترام. فمساعده الأعلى متّهَم بجريمة قتل، وتعرّضَ التحقيـق الذي أوكل إلـيّ مهمة القيام به للتخريب أمام عينَيه. سـوف يتوجب عليه الجلوس في منصـة الشـهود، والكشف عن أسراره الخاصـة. ستسـري طوال سـنوات نكات عن كوني مساعداً للنائب العام ريموند هورغان. وبين سلوكه وسلوكي، سيبدو المكتب أكثر نشاطاً من حمّام روماني. والأسوأ من كل شيء هو أن الجريمة أبعدت ريموند عن الحياة التي يحبها حقاً؛ لقد غيّرت مسـار الانتخابات وأرسـلته إلى قفصـه المصنوع من الزجاج والفولاذ. وما أغضب ريموند وأثار جنونه ليس ارتكابي الجريمة – لقد قال الكثير عندما قرر كشف أوراقه أخيراً – فأنا مـن هزئـت بـه عندما قتلـتُ كارولين للحط من قَـدْره، ونجحت. يعتقد هورغان أن الأمر بات جليًا، ومن الواضح أنه يخطط للثأر.

وغـادرت المبنـى أخيـراً. كانت الحرارة شـديدة والشمس تعمي الأبصـار. لقـد شـعرت علـى الفـور بأننـي لا أقف على قدمَـيّ بثبات. وحاولتُ تخيُّل الانعكاسـات العديدة لشـهادة ريموند وموقفه العدائي مني على المحاكمة، ولكن سرعان ما تراجعتُ عن ذلك. كانت الأفكار تأتي وتذهب بشـكل غير منتظم. لقد رأيتُ وجه والدي، ولم أسـتطع وصـل الأشياء ببعضها. فبعد كل هذه الأسابيع، وبعد كل ما جرى، شعرتُ بأنني سأتحطم أخيراً، ووجدتُ نفسي أدعو عندما استدرتُ في الشارع، وهي عادة اكتسبتها في طفولتي.

والآن، يا الله، قلت في سـرّي، أنا أرجوك أن توقف هذا الأمر لأنني خائف حتى الموت. يا الله، أشم رائحة خوفي الملموسة كالأوزون

في الغلاف الجوّي بعد حدوث وميض رَعد. أشــعر بالخوف بوضــوح لدرجة أنه بات له لون أحمر ناري، وأشــعر بما يُسـببّه من ألم كبير في عظامي. وألمي حاد لدرجة أنني أكاد لا أستطيع عبور هذه الجادّة الحارة بعمـودي الفِقـري المنحنـي من فَرط الخوف كما لو أن حديداً مصـهوراً يغطي الأرض. يا الله، أشـعر بألم وخوف شـديدين، وأيًّا يكن ما فعلتُه لأسـتحق غضـبك عليّ، حرّرني من محنتي، أرجوك، أتوسـل إليك، حرّرني من محنتي. يا الله، حرّرني.

مكتبة
t.me/t_pdf

22

فــي الولايــات المتحــدة، قد لا يؤدي الادّعاء في قضــية جنائية إلى استئناف الحكم. إنه مبدأ دستوري أعلنته المحكمة الأميركية العليا. وحده المدعي العام الأميركي يحق له مراجعة أحكام القاضــي في قضــية ما، وذلك بخلاف كل المحامين الذين يقفون أمام كرسي القضاء، والمحنكين، وكتّــاب المحكمــة، ومحامي تحصــيل الديــون ببذلاتهم المصــنوعة من قماش الرايون، والمحامين المتنفذين في ميدان الإفلاس، والصــائحين في محكمة الطلاق، ومحامي تعاطي المخدرات والمنشــطات بسلاســلهم الذهبية، وأولئك السلِســين على غرار ســاندي شــتيرن. غالباً ما يغضّ المدعي العام الطَّرف عن أنواع مختلفة من الإســاءات القضــائية أيًّا تكن مَهابة منصــبه، وقوة رجال الشــرطة الذين يأتمرون بأوامره، وانحياز المحلفين إليه في المحكمة.

عندما كنت نائباً عاماً، كنت أقوم بهذا الواجب بانتظام ومشــقة في قاعــة محكمــة القاضــي لارين ليتــل أكثر من أي مكان آخر. فهو داهية، ومطّلع، ولا يميل إلى وجهة نظر الولاية بفعل خبرته الطويلة، ولم يتخلَّ عن عاداته على كرســي القضــاء، تلك التي اكتســبها طوال عشرين عاماً كمحامي دفاع، وقام خلالها بمعاملة المدعين العامين ورجال الشــرطة بخشــونة، مســتخفاً بهم. إضــافةً إلى ذلك، هو يمتلك ثقافة رجل أســود حقيقية يواجه بها الحصــافة الادعائية المســتخدَمة بطرائق شــتّى للتغاضي بصلَف عن المزاج غير المنطقي. وأصبحت الأعمال الظالمة التي شهدها في الشوارع موسوعة عاطفية بالنسبة إليه، مبلِّغاً عن كل قرار يُتّخذ ضد الولاية. وبعد عامين أو ثلاثة، كفّ ريموند عن القدوم إلى المحكمة تجنّباً للدخول في جدالات، إذ كانا يثوران على بعضهما، وهو ما اعتادا القيام بــه فــي مكتب المحامــاة القديم، فيقوم لارين بضــرب الطاولة بمطرقته

بشدة لا تلين ويعلن إيقاف المحاكمة مؤقتاً كي يتمكن وريموند من تسوية خلافاتهما في المكاتب والتخطيط لتناول الشراب معاً.

كان القاضي ليتل جالساً على كرسي القضاء، ويستلم تقارير تتناول قضايا أخرى عندما وصلتُ وشتيرن. فالأمر على الدوام أشبه بوجود ضوء مسلَّط. إنه الشخص الوحيد الذي ترونه؛ فهو وسيم، وزئبقي، وفاتن على نحو استثنائي. والقاضي ليتل ضخم البنية، ويبلغ طول قامته خمس أقدام أو ست أقدام. لقد اشتهر في بادئ الأمر بكونه بطلاً في كرة القدم وكرة السلة في الجامعة التي كان يرتادها بموجب منحة دراسية. لديه رأس مستدير وشعر أفريقي متوسط الطول رماديّ في الغالب، ووجه كبير، ويدان ضخمتان، وأسلوب أميري في فن الخطابة، وصوت مميَّز بين أصوات الذكور. ويعكس حضوره بطريقة ما ذكاء ومقدرة. ويقول البعض إن لارين يرى مستقبله على كرسي القضاء الفدرالي، ويعتقد آخرون أن هدفه الحقيقي يتمثل في خلافة أولبرايت وليامسون في عضوية الكونغرس عن مقاطعة شمال النهر عندما يتوقف وليامسون عن تحدّي سنّه وتوقعات طبيب القلب. وأيًّا تكن ميوله، فلارين شخص تجعله التوقعات وقدراته الشخصية رجلاً شديد الأهمية في هذه الأنحاء.

كان قد تمّ استدعاؤنا إلى المحكمة في صباح اليوم السابق من خلال اتصال هاتفي أجراه كاتب المحكمة التابع للقاضي. وبعد جمع الاقتراحات التي تَقدَّم بها الدفاع قبل يومين، رغب سيادته في عقد جلسة استماع حول قضيتي. فاشتبهت بأنه سيحكم لصالح بعض طلباتنا، ومناقشة تاريخ المحاكمة ربما.

وانتظرتُ وساندي بصمت، وبقي كِمب وراءنا. لقد أمضينا نحن الثلاثة اليوم السابق معاً، وأخبرتهما بكل ما أعرفه عن كل شاهد أدرجه نيكو على لائحة الشهود لأجل القضية. وبقيت أسئلة شتيرن دقيقة ومحدَّدة، ولم يسألني إن كنت قد قمت بعلاقة حميمة مع كارولين في تلك الليلة، أو إن كنت هناك لسبب آخر، أو عن امتلاكي أي أداة يمكن

مطابقتها مع الشق المُحدَث في رأس الضحية.

لقد أمضيت تلك اللحظات التي يألفها المحامي في حياته في قاعة المحكمة ناظراً حَولي. كان المراسلون موجودين جميعاً هناك، علماً أن واضعي الرسوم التقريبية لزموا منازلهم. والقاضي ليتل الذي يتَّبع أكبر قدر من السياسة في تعاطيه مع الناس، يعامل المراسلين بشكل جيد. فهناك طاولة لهم موضوعة إزاء الجدار الغربي، ويتم على الدوام إجراء اتصال هاتفي بغرفة الصحافة قبل اتخاذ أي قرار هام. وقاعة المحكمة حيث سيتحدد مسار بقية حياتي على قدر كبير من الجلال. فمقصورة المحلفين مزيّنة بدرابزين من خشب الجوز، وبأشكال كرويّة مستديرة من الخشب المحبَّب الجميل. ومنصة الشهود مصنوعة بالطريقة نفسها، وهي متاخمة لطاولة القضاء المرتفعة عن الأرض والتي تغطيها ظُلّة من خشب الجوز تحملها ركيزتان من المرمر الأحمر. ويجلس كاتب المحكمة، والمأمور القضائي، ومراسلة المحكمة (التي تتمثل مهمتها بتدوين كل كلمة تُقال في المحكمة المفتوحة) في مقصورة أمام طاولة القضاء. وعلى بُعد أقدام قليلة منهم، وُضعت طاولتان مصنوعتان من خشب الجوز القاتم ومنحوتتان بشكل جيد، بشكل متعامد مع طاولة القضاء، وهما تخصّان المحامين. ويجلس الادعاء تقليدياً بجانب هيئة المحلفين.

بعد انتهاء كل الأعمال الأخرى، حان وقت النظر في قضيّتنا. وتسلل بعض المراسلين إلى طاولة الدفاع لسماع وقائع الجلسة ومجموعة المحامين – وسماعي – بشكل أفضل. وذكر شتيرن، ومولتو، ونيكو أسماءهم، وأشار ساندي إلى حضوري. وابتسم لي تومي ابتسامةً عريضة موجَزة. أراهن على أنه علم بلقائنا ريموند في الأسبوع السابق.

«أيها السادة»، قال القاضي ليتل، «استدعيتكم إلى هنا لأنني أعتقد أنه باستطاعتنا القيام بالقليل من أجل تحريك هذا القضية قدُماً. لديّ بعض الاقتراحات من المتّهَم، وأنا مستعدّ لاتخاذ قرار في شأنها ما لم يكن لدى المدعيَين العامَّين أي اعتراض».

وهمس تومي في أُذُن نيكو.

«لدينا اعتراض فقط على الاقتراح المتعلق بإسقاط أهلية السيد مولتو»، قال نيكو.

إنه أمر طبيعي، قلت في سرّي. هناك مكتب بأكمله يعمل لأجله، وهو ما زال خائفاً من تسجيل الوقائع على الورق.

فقال لارين إنه سيدَع الاقتراح المتعلق بإسقاط الأهلية حتى النهاية بالرغم من وجود بعض الأفكار لديه حيال هذا الأمر.

«الآن، الاقتراح الأول»، قال لارين، ورزمة الأوراق موضوعة أمامه مباشَرةً، «هو اقتراح تحديد تاريخ فوري للمحاكمة. لقد فكرت بذلك، وكما يعلم المدعيان العامّان، بدأت المحكمة بالنظر في قضية رودريغز في وقت مُبكّر من هذا الصباح، لذلك سأكون متفرّغاً لاثنَي عشر يوماً من المحاكمات بعد ثلاثة أسابيع من هذا اليوم». ونظر لارين إلى روزنامته. «18 آب/أغسطس. يا سيد شتيرن، هل باستطاعتك الحضور؟».

إنه تطور غير عادي. فنحن لم نتوقع بدء المحاكمة قبل الخريف، وسيكون على ساندي إرجاء كل أعماله؛ ولكنه لم يتردد.

«بكل سرور، يا صاحب السيادة».

«وماذا عن الادعاء؟».

فشرع نيكو على الفور بعرض بعض الأمور التي ينوي القيام بها. كان يخطط لإجازة على غرار السيد مولتو، وما زال يتعيّن عليهما إنضاج بعض الأدلّة. وانفجر بركان فيزوف.

«لا، لا»، قال القاضي ليتل، «لا أريد سماع أي شيء من هذا القبيل. لا، يا سيد ديلاي غارديا». ولفظ اسم نيكو كما لو أنه يحاول دمج الكنية. مع لارين، لا يمكنكم توقع الأمور. «التُّهَم موجودة هنا - هذه التُّهَم تفي بالغرَض - هل هناك أمور إضافية يمكنك أن تواجه السيد سابيتش بها؟ كان مدّعياً عاماً طوال حياته المهنية، وها أنت تتقدّم بتُهم من هذا النوع. كلنا نعرف سبب رغبة السيد شتيرن بإجراء محاكمة سريعة. لا أسرار هنا. كلنا نظرنا في قضايا في جزء كبير من حياتنا. لقد

اطّلع السيد شتيرن على الدليل الذي قمتم بتقديمه، يا سيد ديلاي غارديا، وهو لا يعتقد أنك تملك قضية. قد لا يكون مُحقاً. لا يمكنني الجزم بذلك. ولكن، إذا دخلتَ قاعة المحكمة هذه متّهماً رجلاً بارتكاب جريمة، فمن الأفضل لك أن تكون مستعداً لإثبات ذلك. في الحال. لا يمكنك ترك هذا الأمر مُسلَطاً على السيد سابيتّش كسَيف ديموكليس القديم. لا، يا سيدي»، قال لارين ثانيةً. «سنُجري المحاكمة بعد ثلاثة أسابيع من هذا اليوم».

وتجمّد دمي. فجلستُ بدون استئذان على طاولة الدفاع. وألقى شتيرن نظرة سريعة إلى الوراء مبتسماً كما يبدو.

«الآن، ماذا لدينا غير ذلك؟»، قال لارين. وارتسمت على وجهه للحظات ابتسامة عادية في أثناء النظر حوله. لم يكن باستطاعته إخفاء شعوره بالرضى بسبب تأنيبه المدّعي العام. وانتقل بسرعة إلى مطالبنا الرسمية بالاطّلاع على الأدلة. فتذمّر تومي قليلاً من طلبنا المقدَّم للتزوّد بالكأس، وذكّر المحكمة بأن الادعاء يتحمل عبء إثبات أن الكأس لم يحصل عليها أحد سوى الولاية، وهذا الأمر مستحيل إذا سُلّمت الكأس للدفاع.

«حسناً، ماذا يريد الدفاع من الكأس؟».

فوقفتُ على الفور. «أريد إلقاء نظرة عليها، يا صاحب السيادة».

فرمقني ساندي بنظرة، ووضع يده على ساعدي ودفعني للجلوس على مقعدي. يجب عليّ أن أتعلم: أنا لا أجلس في مكان يسمح لي بالتكلم فيه.

«جيد»، قال لارين، «السيد سابيتّش يريد إلقاء نظرة على الكأس. هذا كل شيء. يملك ذلك الحق. يجب على الادّعاء أن يريه الدليل. في الواقع، لقد ألقيتُ نظرة على الأدلة المكتشَفة وأفهم سبب رغبة السيد سابيتّش بإنعام النظر إلى تلك الكأس. إذاً، هذا الطلب مقبول».

وأشار لارين إليّ. كانت المرة الأولى التي ينظر فيها إليّ مباشَرةً. «وبالمناسبة، يا سيد سابيتّش، سيتم سماعك من خلال المحامي. ولكن، إذا كنتَ ترغب في التعبير عن وجهة نظرك، فلديك الحق بذلك، في أي

وقت. عندما نقوم بمداولاتنا في المكاتب أو في أثناء وقائع الجلسة، تملك حق الحضور. أريدك أن تعرف ذلك. كلنا نعلم أن السيد سابيتش محامٍ جيد في المحكمة الابتدائية، وأحد أفضل المحامين لدينا في هذه المحاكم، وأنا على ثقة تامة بأنه سيكون فضولياً حول ما نقوم به من وقت لآخر».

ونظرت إلى ساندي الذي أومأ برأسه قبل أن أجيب. فشكرتُ المحكمة، وقلتُ له إنني سأصغي، وأن محاميّ هو الذي سيتكلم.

«جيد جداً»، قال القاضي. وكان في عينَيه دِفء لم يسبق لي أن رأيته في المحكمة. أنا متَّهم الآن أمامه، وعلى غرار شيخ قبيلة أو رئيس مافيا، فهو يدين لي ببعض الحماية. «لدينا الآن هذا الطلب بدخول الشقة».

فتشاور مولتو ونيكو.

«لا اعتراض»، قال نيكو، «إذا حصل ذلك بحضور رجل شرطة».

واعترض ساندي على الفور، وتلت ذلك لحظات قليلة من المناوَشة المعهودة في قاعة المحكمة. فالجميع يعرفون ما الذي يجري. لقد أراد المدّعيان العامان أن يكتشفا ما نبحث عنه، ومن جهة ثانية، لديهما وجهة نظر قانونية. فأي عبث بمحتويات شقة كارولين يعيق قدرتهما على استخدام مسرح الجريمة للبحث عن المزيد من الأدلة.

«حسناً، لديك صور الآن»، قال لارين. «كلما نظرت في إحدى هذه القضايا، أتساءل إن كان المدعون العامون متحالفين نوعاً ما مع كوداك». وضحك المراسلون جميعاً، وابتسم لارين أيضاً. هذا ما هو عليه. إنه يحب المرح. ووجّه مطرقته نحو ديلاي غارديا. «باستطاعتك الحصول على شرطي عند الباب كي تضمن عدم قيام أي فرد من الدفاع بنقل أي شيء من مكانه، ولكنني لن أسمح لك بالتجسس على ما ينظرون إليه. لقد حظي الادعاء بأربعة أشهر لتفحّص كل الشقة»، قال لارين، محتسباً ضمناً الشهر الذي كنت فيه رئيس فريق التحقيق. «أعتقد أنه يحق للدفاع أن ينعم بدقائق قليلة من السلام. سيد شتيرن، أَعِدّ طلباً ملائماً وسأوقّعه لك. ولنحرص على أن تقوم بإرسال إشعار مُسبَق لمدير

ممتلكات السيدة بوليموس، أو منفذ الوصية، أو مَن يمثّل ممتلكاتها، ليوضع في أجواء ما تعتزم المحكمة التفويض به.

الآن، لنتحدث عن الاقتراح المتعلق بإسقاط أهلية السيد مولتو».

إنه مطلبنا لمنع تومي مولتو من النظر في هذه القضية كما لو أنه محامٍ في المحكمة الابتدائية، لأن نيكو قال إن مولتو قد يكون شاهداً.

وأجفل نيكو في الحال. فإسقاط أهلية أحد المدعين العامين مع تبقّي ثلاثة أسابيع للمحاكمة عبء ثقيل. مستحيل. لن تكون الولاية مستعدة أبداً. لم أكن أعلم إن كان نيكو يبحث عن المزيد من الوقت، أو يحاول ردّ الطلب. فهو لم يعد واثقاً من نفسه ربما.

«حسناً، انظر الآن يا سيد ديلاي غارديا، أنا لست الشخص الذي طلب منك أن تضع السيد مولتو على لائحة الشهود»، قال القاضي ليتل. «لا أستطيع أن أتخيّل كيف فكرتَ بالمباشرة في القضية مع مدّعٍ عام يمكن أن يكون شاهداً. لا يمكن للمحامي أن يكون مدافعاً وشاهداً في القضية نفسها. لقد اتّبعنا هذا النظام في محاكمنا طوال أربعمئة عام، ولا أنوي تغييره لأجل هذه المحاكمة أيًّا تكن أهميّته بالنسبة إلى أي مشارك، وحتى لو كان عدد مراسلي التايم أو نيوزويك، أو سواهما كبيراً».

وتوقف القاضي ليتل قليلاً ونظر شزراً في اتجاه قاعة المراسلين كما لو أنه الوحيد الذي لاحظ وجودهم هناك.

«ولكن، دعني أقول هذا –» ونهض لارين، وتوجّه إلى طاولة القضاء، ووقف وراءها. ومن ارتفاع خمس أقدام عن الأرض، تكلّم. «في الواقع، لقد فهمتُ، يا سيد ديلاي غارديا، أن التصريح الذي تتحدث عنه هو ذاك الذي قاله السيد سابيتش ردًّا على قيام السيد مولتو باتهامه بارتكاب جريمة القتل، إذ قال، أنت مُحِق».

«أجل، أنت مُحق»، قال نيكو.

وقبِل لارين التصحيح، وأحنى رأسه الكبير.

«حسناً. في الواقع، لم تقدّم الولاية التصريح بعد. ومع ذلك، لقد أعربتَ عن نواياك، وتقدّم السيد شتيرن بهذا الاقتراح لذلك السبب.

ولكنني لست واثقاً من تحوّل هذا التصريح إلى دليل. فالسيد شتيرن لم يتقدم بأي اعتراض بعد. هو يرغب في رؤية السيد مولتو وقد أُسقطت أهليّته أولاً. ولكنني أتصوّر، يا سيد ديلاي غارديا، أننا عندما نبلغ تلك المرحلة فسوف يقول السيد شتيرن إنه لا صلة لهذا التصريح بموضوع البحث». إنها إحدى أفضل وسائل لارين لمساعدة الدفاع. فهو يتوقع الاعتراضات التي يحتمل أن يسمعها. ويتم التقدم ببعضها - على غرار هذا الاعتراض - بدون شك. ولا يفكر محامي الدفاع ببعضها الآخر أبداً. وفي كلتا الحالتين، عندما تُطرح هذه الاعتراضات رسمياً، يتم قبولها بشكل حتمي.

«يا صاحب السيادة»، قال نيكو، «لقد اعترف الرجل بارتكاب الجريمة».

«آه، يا سيد ديلاي غارديا»، قال القاضي ليتل. «حقاً! في الواقع، هذه هي قراءتي للأمر. تقول لشخص ما إنه متَّهَم بإساءة ما فيقول، أجل، أنت مُحق. الجميع يعرفون أنه مُزاح. لقد اعتدنا كلنا هذه الأمور. في الواقع، برأيي، لو كان السيد سابيتش قادماً من تلك الأنحاء لقال، يو موما».

وساد الضحك في قاعة المحكمة على نطاق واسع. لقد سجّل لارين هدفاً آخر. وجلس على كرسي القضاء ضاحكاً أيضاً.

«ولكنني أظن أن الناس يقولون في الناحية التي يقطن فيها السيد سابيتش، أجل، أنت مُحق، وما يَعنونه هو أنت مخطئ». وتوقف عن الكلام قليلاً، ثم أضاف: «دلالةً على التهذيب».

وساد المزيد من الضحك.

«يا صاحب السيادة»، قال نيكو، «ألا يعود قرار البتّ في هذه المسألة لهيئة المحلفين؟».

«بالعكس، يا سيد ديلاي غارديا، إنها مسألة مرتبطة بالمحكمة في الأساس. يجب أن أقتنع بأن هذا الدليل متعلق بموضوع البحث. في الواقع، أنا لم أُصدر حكماً بعد. ولكن، يا سيد، ما لم تكن أكثر إقناعاً

مما هي حالك حتى الآن، فأنا أتوقع أنك سوف تجدني أحكم بأنه لا علاقة لهذا الدليل بموضوع البحث. وقد ترغب في إبقاء هذا الأمر في عقلك في أثناء التطرق إلى اقتراح السيد شتيرن، لأنك إذا لم تقدم هذا الدليل أو تعتمد عليه في أثناء استجواب المتّهَم، فلماذا سيتوجب عليّ إذاً رفض اقتراح الدفاع».

وابتسم لارين، وخسر نيكو الجولة الأولى. لقد فهم من القاضي أنه لن تتم الموافقة على التصريح. وكان نيكو أمام خيار إبعاد مولتو عن لائحة الشهود وبذل جهد لا جدوى منه لاعتراف القاضي بالدليل، أو إبقاء تومي والتخلي عن الدليل. فإذا لم يكن لديه خيار آخر حقاً، فمن الأفضل له الاكتفاء بنصف المعادلة. لقد زال تصريحي لمولتو من هذه القضية.

واقترب مولتو من المنبر. «سيدي القاضي -» قال، ولم يُضف شيئاً. فقاطعه لارين بعد أن زال حس الفكاهة عن وجهه.

«يا سيد مولتو. لن أُصغي إليك وأنت تطالب بقبول شهادتك. يمكنك إقناعي ربما بأنه لا يُفترض في هذه الحال تطبيق القاعدة العريقة التي تمنع محامياً ما من أن يكون شاهداً في قضية ينظر فيها، ولكن حتى تقوم بذلك، لن أسمع منك المزيد، يا سيد».

وأنهى لارين الجلسة بسرعة، وقال إنه سوف يرانا في المحاكمة في 18 آب/أغسطس. وغادر كرسي القضاء، ملقياً نظرة سريعة أخرى على المراسلين.

كان مولتو لا يزال واقفاً هناك وعلى وجهه نظرة سخط. لقد اعتاد تومي على الدوام في مهنته كمحام في المحكمة الابتدائية إظهار عدم رضاه. ولكنه والقاضي ليتل يهاجمان بعضهما منذ عدة سنوات. قد لا أتذكّر عمل كارولين في الفرع الشمالي، ولكنني لم أستطع قطّ نسيان لارين ومولتو؛ إن شجاراتهما شهيرة. فبعد قيام بولكارو بعزله إلى سيبيريا القضائية تلك، طبّق القاضي ليتل عدالته الخاصة به، واعتبر رجال الشرطة مذنبين بالمضايقة حتى يثبت العكس. واعتاد مولتو المحاصَر والحزين الادعاء بأن القوّادين ومدمني المخدرات واللصوص

المتسللين – الذين يظهر بعضهم يومياً في قاعة محكمة لارين – سينهضون للتصفيق له عندما يجلس على كرسي القضاء للنظر في القضايا الصباحية. كان رجال الشرطة يكرهون القاضي ليتل فيبتكرون نعوتاً عِرقية بمخيّلة تشبه مخيّلة الذي وضع الإنسان على القمر. كان لارين في وسط المدينة قبل سنوات من إنهائي التحقيق بقضية النايت سينتس، وكان لايونيل كينيلي يتذمر كلما سمع باسم لارين. هناك قصة واحدة رواها لي كينيلي عشر مرات عن قضية اعتداء رفعها شرطي وادعى فيها أن المتَّهَم قاوم عملية اعتقاله. وقال الشرطي، المدعوّ مانوس، إنه والمتَّهَم دخلا في صراع بعد قيام المتَّهَم بإطلاق اسم ما عليه.

أي اسم؟ سأل لارين.

أفضّل عدم ذكره هنا في المحكمة، يا سيدي القاضي، قال مانوس.

لماذا؟ أتخشى الإساءة إلى هؤلاء الموجودين، أيها الشرطي؟ وأومأ لارين في اتجاه المقاعد الأمامية حيث يجلس المتهمون في الجلسات الصباحية، وهم مجموعة من المومسات، والنشالين، واللصوص المدمنين على المخدرات. تكلم بحريّة، قال القاضي ليتل.

نعتني بالشاذ، يا سيدي القاضي.

وصدر صفير من المقاعد، وكان هناك الكثير من المرح. ولزم لارين الصمت، ولكنه كان يضحك أيضاً.

لماذا أيها الشرطي؟ قال لارين مبتسماً، ألم تكن تعلم أن عبارات التحبب موجودة في صلب مجتمعنا؟

وهاج المتَّهَمون الجالسون على المقاعد: تحيات القوة السوداء المطالِبة بالحقوق المدنية للسود، وراحات أيدٍ تخفق في الهواء. لقد قابل مانوس كل ذلك بصمت. وبعد دقيقة، وعندما ارتاح مانوس، أصدر لارين حكماً لصالح الدفاع.

«والأهم من ذلك»، قال لي كينيلي، «صعد مانوس إلى منصة القضاء، ووقف هناك حاملاً قبّعته بيده، وقال لليتل بلطف كتلميذ مدرسة: شكراً لك أيها الشاذ، قبل أن يغادر».

لقد سـمعتُ هذه القصـة نفسـها من شخصـين آخرين، ولكن الاثنين أقسما على أن الملاحظة الأخيرة صدرت من كرسي القضاء.

23

كل أسبوع، وفي ليلة الأربعاء عادةً، يرنّ الهاتف. وكنت أعرف هوية المتصل من دون أن يذكر اسمه، وقبل أن يبدأ بالكلام. كان بإمكاني سماعه وهو يسحب سيجارته اللعينة. لم يكن يُفترض بي التحدث إليه، ولم يكن يُفترض به التحدث إليّ. فقد صدرت الأوامر لنا نحن الاثنين بالالتزام بذلك.

كيف حالك؟ سأل.

ما زلت صامداً.

هل أنتم بخير؟

نتجنّب الإخفاق.

إنه أمر عسير.

أخبرني عن ذلك.

وضحك. لا. أظن أنني لن أُطلعك على شيء. حسناً، هل تحتاج إلى أي شيء؟ هل هناك ما يمكنني القيام به؟

ليس الكثير. شكراً لاتصالك.

أجل، ولكنني أتصوّر أنك ستخرج من الأمر منتصراً في وقت قريب. أراهن على ذلك.

أعرف ذلك. ماذا عنك؟ كيف حالك؟

جيد. ما زلت صامداً.

هل ما زال شميت يتعاون معك في قضيتك؟ سألتُ، مشيراً إلى رئيسه.

دائماً. إنه الشخص المناسب. تباً له، أظن ذلك.

كم يصعّبون عليك عملك؟

أتعني أولئك الذين يشبهون الكعكات المكوّبة؟ هيا.

ولكنني أعلم أن ليب يمضي وقتاً عصيباً. فماك التي اتصلت بي في مناسبتَين أخبرتني أنهم أعادوه إلى ماك غراث هول، وأخرجوه من قسم القيادة الخاصة في مكتب النائب العام. لقد قيّده شميت بعمل مكتبي لإنجاز تقارير رجال مباحث آخرين، ومن شأن ذلك أن يقود ليب إلى الجنون. ولكنه كان يحذر دائماً في أثناء عمله في القسم، فيُعشي بصر الآخرين لينأى بنفسه عن عيّابيه وعن العديد من الأشخاص الذين ينتظرون سقوطه. فرجال الشرطة يتصورون على الدوام أن ليبرانزر يتكتم عن أمور تعنيني. هذه هي طريقتهم في التفكير.

سوف أتصل في الأسبوع التالي، كان يعدني دائماً في نهاية كل حديث.

وكان يفي بوعده بأمانة. لا يبدو أن مهامنا تختلف كثيراً. فطوال شهر، وعندما اتضح للجميع أن الأمر جدّي، عرض عليّ مالاً. أعرف أن هذا النوع من الأمور قد يكون مكلفاً، قال.

فقلت له إن باربارا قد قدمت لي الدعم المالي. وعلّق على الزواج من فتاة يهودية.

وفي ذلك الأسبوع، وعندما رنّ الهاتف، كنت في انتظاره.

«كيف حالك؟»، سأل.

«ما زلت صامداً»، قلت.

والتقطت باربارا سماعة الهاتف الآخر لسماع الحديث.

«الاتصال لي، يا بارب»، قلت.

فقالت ببساطة: «مرحباً، يا ليب»، وأعادت سماعة الهاتف إلى مكانها.

«إذاً، ماذا يجري؟».

«سوف نذهب إلى المحاكمة»، قلت. «بعد أقل من ثلاثة أسابيع».

«أجل، أعرف. قرأت عن ذلك في الصحف». وكففنا عن الكلام للحظات. ليس هناك ما يستطيع دان ليبرانزر القيام به في شأن الشهادة. سيكون عبئاً ثقيلاً على كاهلي، وكلانا نعرف ذلك، ولا خيار آخر لدينا.

لقد أجاب عن أسئلة مولتو في اليوم التالي للانتخابات قبل أن يتمكن ليب من معرفة النتيجة؛ كنت أميل إلى الاعتقاد بأن الإجابات ستكون نفسها حتى ولو علِم ليب بالعواقب. فما حدث قد حدث. هو يشرح الأمر لنفسه بهذه الطريقة.

«إذاً، أنت تستعد؟»، سأل.

«نبذل قُصارى جهدنا. شتيرن شخص مدهش. إنه كذلك حقاً. إنه الأفضل دون منازع».

«هذا ما يقولونه». وعندما توقف قليلاً، سمعت صوت قدّاحته. «حسناً، لا بأس. هل أنت بحاجة إلى أي شيء؟».

«أجل»، قلت. لو لم يسأل لما قلت له شيئاً. هذا ما عاهدت نفسي على القيام به.

«اُقذف بقوة»، قال لي.

«عليّ إيجاد هذا الشخص لِيون. ليون وِلز. كما تعلم، إنه الشخص الذي رشا مساعد النائب العام في الفرع الشمالي كما هو مفترَض. المتّهَم الذي بحثتَ عنه في ملف المحكمة، ذاك الذي له علاقة بكارولين ومولتو؟ لقد استأجر شتيرن متقفّي آثار، وقال هذا الأخير إن لا وجود لهذا الشخص. لا أعرف وسيلة أخرى للبحث عنه. لا أستطيع إجراء حديث صريح مع تومي مولتو».

كان المحقّق الخاص يدعى نِد برمان، وقال ساندي إنه جيد، ولكن يبدو أنه لم يكن يملك أي فكرة عما يتعيّن عليه القيام به. وزوّدتُه بنسخات عن صفحات ملف المحكمة. وعاد بعد ثلاثة أيام، قائلاً إنه ليس باستطاعته المساعدة. فالفرع الشمالي أشبه بحديقة حيوانات حقيقية في هذه الأيام، يا رجل، قال. أتمنى لكم الحظ حقاً. لا يمكنكم أبداً معرفة ما يجري هناك.

لقد تطلّب الأمر بعض الوقت، وأكثر مما توقعت، ليقوم ليبرانزر بدراسته. ولكنني كنت أعرف المشكلة. فإذا اكتشف القسم أنه يساعد في عملية الإعداد للدفاع عني، فسيسجنونه بتهمة العصيان، أو الخيانة.

وسيذهب خمسة عشر عاماً من الخدمة سُدًى من دون أي راتب تقاعدي.

«ما كنت لأطلب منك ذلك لو لم أكن مضطراً؛ أنت تعرف. ولكن، أظن أن المسألة قد تُحدث فَرقاً كبيراً».

«كيف؟»، سأل. «أتظن أن لتومي علاقة في هذا الأمر؟ أتظن أنه يوقع بك ليمنعك من البحث؟». كان باستطاعتي القول إن ليبرانزر يعتبر هذه الفكرة بعيدة الاحتمال، علماً أنه لم يكن يحاول إصدار أحكام.

«لا أعرف. أتريد أن تسمعني أقول إنني أعتبر الأمر ممكناً؟ أنا أعتبره كذلك. وسواء أكان يُثقل كاهلي أم لا، فقد يبدو الأمر سيئاً جداً بالنسبة إليه إذا تمكنّا من كشف النقاب عن ذلك الرجل. من شأن أمر مماثل أن يلفت انتباه هيئة المحلفين حقاً».

ولزم الصمت مجدداً.

«بعد أن أُدلي بشهادتي»، قال. «فكما تعلم، هؤلاء الأشخاص يراقبونني، ولا أريد أن يُطرحِ عليّ أي سؤال تحت القَسَم وأن أُجيب عنه إجابة خاطئة. إن عدداً كبيراً من الأشخاص يودّون رؤية ذلك. عندما أنزل عن منصة الشهود، سيهدأون، وسأعمل على الأمر حينذاك وأبذل قُصارى جهدي. هل اتفقنا؟».

لا، لم نتفق. سيكون الأوان قد فات على الأرجح. ولكن سبق لي أن طلبتُ الكثير. «رائع. أنت صديق حقيقي. أعني ذلك».

«أتصوّر أنك ستخرج من الأمر منتصراً في وقت قريب»، قال. «أراهن على ذلك».

الكرة بيد حاملها مجدداً. إنه الدَّوري لموسم الصيف. ولحسن الحظ، لم يتحسن فريق الستينغرز إلا قليلاً في هذه الدورة. ففي الهواء المُثقَل بالرطوبة في أمسيات آب/أغسطس، ما زالت الكرات تحيّر لاعبينا كما يبدو فيسقطون مع المطر المتساقط بسرعة. كانت الفتيات يستجبنَ للتوجيهات بشكل أفضل، فيقذفنَ الكرة ويضربنها بالمِضرب بمهارة متزايدة. ولكن، لم يكن بالإمكان اللحاق بالفتيان في معظم الأحيان.

ويأتي كل ذكر في الثامنة من عمره إلى لوحة ضـرب الكرة مع أحلام بتحقيق أعجوبة. بالنسبة إلى الفتيان، لا جدوى من التوجيهات المتكرّرة لإبقاء الكرة على الأرض.

كان نات استثنائياً، وقد أدهشني ذلك. لقد بدأ يتغّير في ذلك الصيف ويركز على الأمور المادية، فصار مدركاً لقدراته، ولقيام الناس بمراقبة طريقة قيامه بالأمور كما لو أنها دلالة على شخصيته. وعندما حان دوره لصدّ الكرة بمضربه، راقبتُ كيفية ارتفاع نظره عندما وصل إلى النقطة الأولى قبل أن يركض بأقصى سرعة في اتجاه النقطة الثانية. فلا يكفي القـول إنــه يقلّـد اللاعبين على التلفـاز لأنه يلاحظ في المقام الأول، فلقد بدأ بالاهتمام بالأسـلوب. وقالت باربارا إنه يبدو أكثر تدقيقاً بملابســه، ولأسـعدني ذلك لو لم يكن عليّ التيقظ من دوافع هذا النُّضـج الفجائي. لقد حوّل دانيال انتباهه إلى العالم كما أظن، لأنه يعرف أنه تسبَّب لوالده بالكثير من العناء.

بعد المباراة، توجهنا إلى المنزل بمفردنا. ولم يُبدِ أحد عدم رحمة بحيث يقترح علينا عدم المشاركة في النزهة. لقد شاركنا في المباراة مرة واحدة بعد توجيه التُّهَم، وكان الوقت يمر بشكل غير منتظم مع لحظات الصـمت الفجائية التي تحدث لدى ذِكر المواضـيع العادية؛ العمل الذي لا أذهــب إليــه، برامج بوليسـية تلفزيونية تعالج مـآزق مماثلة لمأزقي. فهـؤلاء الرجـال كريمـو الأخلاق بما يكفي ليوافقوا على وجودي بينهم، ولكن ليس مع أطفالهم لأنني أشـكل خطراً عليهم. يجب أن نفكر جميعاً بالأشهر القادمة، وباستحالة وجود تفسير للمكان الذي قصدتُه، وفي ما فعلته. فمن المُجحف تمضية هذه الأمسيات الرائعة مع نذير شؤم. لذلك، غادرتُ مع نات ملوِّحَين بشكل ودّي، فحملتُ المضرب والقفّاز، ومشى نات بجانبي ساحقاً الهندباء البرّية بقدمَيه.

لم تصدر عن ناتانيال أي كلمة تذمّر. لقد ترك هذا الأمر أثراً حزيناً في نفسـي، وتأثرت بوفاء ابني. وحده الله يعرف الضـرر البالغ الذي يُلحقه به أصدقاؤه. فأيّ بالغ لا يمكنه أن يتخيّل ما يتحمّله من ملاحظات

ساخرة وقسوة عرَضية. ومع ذلك، لقد رفض التخلي عني؛ عن مصدر ألمه. فهو ليس مولَعاً بي، ولكنه كان يلازمني، ويسحبني من يدي عن الأريكة لأقف على قدمَيّ وأعمل معه؛ ويرافقني في الليل عندما أجازف بالخروج لإحضار صحيفة وغالون الحليب؛ ويسير بجانبي في الغابة الصغيرة القائمة بين حيّنا والساحة العامة الخضراء في قرية نيرنغ. لم يكن يُظهر أي خوف.

«هل أنت خائف؟». سألت فجأة في تلك الليلة عندما كنا سائرَين.

«أتعني إن كنت خائفاً من عدم نجاتك من العواقب؟». كانت المحاكمة على قاب قوسَين أو أدنى، وتُرخي بثقلها عليّ لدرجة أن ابني البالغ من العمر ثماني سنوات علم في الحال ما أعنيه.

«أجل».

«لا».

«لمَ لا؟».

«لست كذلك، هذا كل شيء. إنه مجرد أمر تافه، أليس كذلك؟». ونظر إليّ شزراً من تحت طرف قبّعة البيسبول المائلة.

«بطريقة ما».

«سيُجرون هذه المحاكمة، وستقول ما حدث في الواقع، وسينتهي الأمر. هذا ما تقوله أمي».

آه، يكاد قلبي يتمزق: هذا ما تقوله والدته. ووضعتُ ذراعي حول ابني، وكنت أكثر اندهاشاً من أي وقت مضى من ثقته بها. لم أستطع تخيُّل الجلسات العلاجية المطوَّلة بين ابن ووالدة تنزل خلالها إلى مستواه دعماً له. إنها أعجوبة؛ وحدها باربارا تستطيع تحقيقها. كعائلة، نحن ملتحمون بهذا التماثل: أحب نات أكثر من أي شيء آخر في العالم، وهو يهيم بوالدته. وحتى في هذه السنّ المشاكسة، المليئة بالطاقة العنيفة لشخص في الثامنة من عمره، كان يعاملها بلطف استثنائي، ويسمح لها وحدها بالتحدث معه بإسهاب. كانا يتبادلان تعاطفاً خاصاً، واتفاقاً في الرأي، واعتماداً على بعضهما أعمق من الأعماق التي لا يمكن

سبر أغوارها بين والدة وابنها. هو يشبهها أكثر مما يشبهني بتوازنها، وذكائها، ومِزاجها الخاص والغامض، وتفانيها، وهو ماثل على الدوام في مخيّلتها. وأصدقّها عندما تقول إنها لا تستطيع أبداً أن تنتزع من أعماقها عاطفة مماثلة بهدف منحها لطفل آخر.

وهما لا يفترقان عن بعضهما من دون الشعور بالانزعاج. ففي الصيف الماضي، أمضت باربارا أربعة أيام في ديترويت لزيارة إحدى صديقاتها في الكلّية، بيتا غرافر، وقد اكتشفت أنها أصبحت أستاذة في الرياضيات. كانت باربارا تتصل مرتين في اليوم، وكان نات يبدو حزيناً باستمرار، ونكِد المزاج، وبائساً، وكانت الطريقة الوحيدة لأقوم بتهدئته ووضعه في السرير هي بتخيُّل ما تقوم به والدته وبيتا بالتحديد في تلك اللحظات.

إنهما في مطعم هادئ، أقول له، وتأكل كل منهما سمكة مشويّة مع القليل من الزبدة، وأمام كل منهما كأس من الشراب. وعندما يحين موعد التحلية، ستتناولان ما تجدانه مغرياً جداً.

فطيرة؟ سأل نات.

فطيرة، أجل.

ويستغرق ابني الذي حلمتُ به على الدوام في النوم، متخيّلاً والدته وهي تتناول الحلويات.

24

«مرحباً»، قال مارتي بوليموس.

«مرحبـاً»، أجبـت. وعندما وطئتُ بيت درج المبنى وألقيت نظرة سريعة أولى على ذلك الشخص وعلى شعره الطويل، ظننته كِمب الذي كان من المفترَض بي لقاؤه هنا. ولكن، بدلاً من ذلك، وجدت هذا الفتى الـذي لـم أفكـر به طوال أشـهر. فوقفنا بمفردنا في الرواق خارج شـقة كارولين ونحن ننظر إلى بعضنا. ومدّ مارتي يده وصافحني بثقة. لم يُبدِ أي تردد واضح، وبدا كما لو أنه مسرور تقريباً برؤيتي. «لم أتوقع أن أراك»، قلت أخيراً، باحثاً عن طريقة ما لأسأله عن سبب وجوده هنا.

وسحب من جَيب قميصه نسخة عن تفويض من القاضي ليتل يسمح لنا فيه بمعاينة المنزل. «حصلتُ على هذا»، قال مارتي.

«آه، لقد فهمت الآن»، قلت بصـوت مرتفع. «كان إجراءً شـكلياً فقط». لقد طلب منا القاضـي إشـعار محامي الممتلكات، وهو نائب عام سابق يدعى جاك باكلي. لقد أرسل جاك الإشعار للفتى كما يبدو. «تتمثل الفكـرة بالسـماح لك بالاعتراض على دخولنـا للنظر إلى بعض مقتنيات كارولين إذا كنت تمانع ذلك. ليس عليك التواجد هنا».

«لا بأس». وكان الفتى ينحني إلى الأمام والوراء في أثناء تكلمه، ولم يُبدِ أي دلالة على الرغبة في المغادرة.

فحاولتُ إجراء حديث معه لأسأله عما ينوي القيام به. «تحدثنا في المرة الأخيرة عن اعتزامك العودة إلى مسقط رأسك».

«لقـد عـدت»، قال بدون شـكليات. «في الواقع، عُلِّقت دراسـتي في الكلّية. لقد رسـبتُ في الفيزياء، وحصـلتُ على درجة **دي** في اللغة الإنكليزية. كنت على ثقة تامة من رسوبي في تلك المادة أيضاً. لقد عدت إلى المنزل قبل ستة أسابيع، وقدمتُ إلى هنا بالسيارة يوم أمس لجمع ما

فضل من مقتنيات والدتي».

فاعتذرتُ منه، وشرحتُ له قائلاً إنني عندما رأيته افترضتُ أن أموره تسير بشكل جيد.

«حسناً، إنها كذلك. إنها تسير بشكل جيد».

«كيف تَقبّل والدك الأمر؟».

فهز كتفَيه.

«لم يكن سعيداً حقاً، ولا سيما في ما يتعلق بدرجة دي. بدا الأمر كما لو أن ذلك قد جرح مشاعره. ولكنه قال إنني مررت بعام عصيب. سأعمل لمدة قصيرة، ثم سأعود». ونظر مارتي حَوله إلى شيء غير محدَّد. «على كل حال، عندما أجمع مقتنيات والدتي، أظن أنني سأمرّ بك».

يستخدم الأطباء النفسيون عبارة سلوك مخالف لوضع معيَّن، وهي تنطبق على هذا الفتى الذي يحاول نوعاً ما التغاضي عن مقتل والدته على يد الشخص الذي يعتقد الجميع أنه قتلها. وتساءلت للحظة عما إذا كان على عِلم بما يجري. ولكن التعليق موجود على الإشعار: الشعب مقابل سابيتش، ومن غير المحتمَل أن يكون قد أغفل التُهم الموجَّهة إليّ والمذكورة في الصحف.

لم أحظَ بفرصة للتحقق من الأمر أكثر بسبب قدوم كِمب. كان باستطاعتي سماع وقع خطاه على الدَّرَج. كان يجادل أحدهم، وعندما انعطف عند زاوية منبسَط سلَّم المبنى تحققت من الشخص الذي يتحدث إليه. إنّه توم لندنينغ، وهو ضابط شرطة كبير الحجم لم يرُق لي قطّ. فلندنينغ رجل أبيض البشرة يُطلق الكثير من النكات الإتنية والعرقية. وتتمحور حساسيّته بأكملها حول كونه مولوداً أبيض البشرة وأصبح شرطياً. وهو يعامل ذوي البشرة الملوّنة كما لو أنهم دخلاء. لا شك في أنه سيكون سعيداً برؤيتي على هذا النحو. كان كِمب يشرح قائلاً إن لندنينغ لن يدخل الشقة في أثناء معاينتنا إيّاها، فيُجيبه لندنينغ قائلاً إن ما فهمه من مولتو مختلف عما يقوله. أخيراً، اتفقا على نزول لندنينغ إلى

الطابق السفلي، واستخدامه الهاتف. وفي أثناء غيابه، عرّفتُ كِمب إلى مارتي بوليموس.

«أنت مُحِق»، قال لندنينغ عندما عاد. «هذا التفويض صادر عن ذلك القاضي». ومن طريقة قوله كلمة ذلك، تدركون ما الذي يفكر به.

حرّك كِمب عينَيه. إنه محام جيد، ولكنه لا يزال يمتلك طباع المنتسبين إلى إحدى مدارس دَوري آيفي، الذين لا يترددون في النظر إلى الآخرين كما لو أنهم أغبياء.

لقد ألصق إشعار برتقالي وفوسفوري على باب شقة كارولين يحمل عبارة تقول إن الشقة مسرح جريمة، وقد خُتِمت بالشمع الأحمر بأمر من المحكمة العليا في مقاطعة كيندل ويُمنَع دخولها. والإشعار موضوع فوق العتبة كي لا يكون بالإمكان فتح الباب، ومُلئت الأقفال بالبلاستيك. فقطع لندنينغ الإشعار بواسطة شفرة، ولكنه احتاج إلى بعض الوقت لتنظيف الأقفال. وعندما انتهى، سحب مفتاح كارولين من جَيبه وسلّمه لنا. كانت توجد عليه بطاقة تعريف حمراء وبيضاء تشير إلى أنه دليل. وكان هناك قفل على مِقبض الباب، إضافة إلى مزلاج مثبَّت بإحكام. فكما قلت لليبرانزر منذ مدة، لم تكن كارولين تعبث.

بعد وضع المفتاح في القفل السفلي، أداره لندنينغ وقام بتفتيش ثيابي وثياب كِمب، ومن ثم ثياب مارتي، من دون أن يقول أي كلمة. فمن شأن ذلك أن يحول دون قيامنا بدسّ أي شيء. وأريتُه إضمامة ورق كنت أحملها بيدي. وسأل عن محافظ جَيبنا، وبدأ كِمب بالاعتراض، ولكنني أومأت له كي يلتزم الهدوء. مرةً أخرى، ومن دون التفوّه بأي كلمة، فعل لندنينغ الشيء نفسه مع مارتي الذي كان يحمل محفظة جيبه بيده.

«يا الله»، قال مارتي. «انظرا إلى كل هذه الأغراض. ماذا سأفعل بها؟». وسار أمامنا. فألقيتُ نظرة شاملة مع جايمي، ولم يكن أي منا يعرف إن كنا نملك السلطة لإبقائه في الخارج، أو إن كان هناك سبب يدعونا لإزعاجه. فناداه لندنينغ وتبعه إلى الداخل.

«هِيه، أنت هناك. لا تلمس شيئاً. لا شيء البتة. باستطاعهما هما فقط اللمس. هل اتفقنا؟» فأومأ مارتي برأسه، وعبر غرفة الجلوس في اتجاه النوافذ، متحققاً من المنظر الطبيعي كما يبدو.

كان الهواء في الداخل سيّئ الرائحة وثقيلاً، ومحروقاً بحرارة الصيف. وقد يكون هناك شيء متعفّن في مكان ما في الشقة. وبالرغم من اعتدال الحرارة في الخارج، لم تبرد الشقة ذات النوافذ مُحكمة الإغلاق بعد حرارة الأسبوع السابق الشديدة. لا بد من أن درجة الحرارة تناهز نحو 85 درجة.

لم أعتقد يوماً بالأشباح، ولكن من المقلق أن تعود. فشعرتُ بإثارة تنطلق نزولاً من أسفل عمودي الفِقري. لقد بدت الشقة في مظهر غريب لاسيّما وأن كل شيء فيها تُرك على حاله كما وُجد. كانت الطاولة والكرسي لا يزالان مقلوبين رأساً على عقِب، ورُسم خط كفافي لجثة كارولين بالطبشور على الأرض المكسوّة بخشب سنديان فاتح اللون، على مقربة من المطبخ. ولكن الأمر بدا كم لو أن كل شيء آخر قد اكتسب كثافة إضافية. فبجانب الأريكة، كانت لا تزال هناك علبة مرصَّعة صغيرة موضوعة على طاولة زجاجية أخرى اشتريتها لكارولين؛ لقد أعجبتها في متجر مورتون يوم قصدت ذلك المكان برفقتها في أثناء محاكمة ماك غافن. وكان أحد التنانين الحمراء الموجودة على ستارها الصيني يرمقني بنظرات نارية. يا الله! قلت في سرّي، يا الله! لقد أوقعتُ نفسي في المشاكل.

وأومأ لي كِمب. لقد أراد الشروع بإلقاء نظرة على المكان، وسلّمني زوجاً من القفازات المطاطية. لا حاجة لها، ولكن شتيرن أصرّ على وضعها. من الأفضل عدم الدخول في جدال حول بصمات الأصابع التي ادعى تومي مولتو أنهم اكتشفوها قبل مدة طويلة.

وتوقفتُ للحظات بجانب المشرب القائم على جدار المطبخ. لقد بدا لي أنني طالعت ذهنياً المشاهد الموجودة في الصور الفوتوغرافية التي التقطتها الشرطة لساحة الجريمة، ولكنني أردت التأكد من ذلك. فوقفتُ

على بُعد ثلاث أقدام من الأواني الزجاجية، وعددتُ الكؤوس المصفوفة على منشفة. لقد وُجدت بصمتاي على إحدى كؤوس هذه المجموعة. كانت هناك اثنتا عشرة كأساً، وعددتها مرة أخرى لمزيد من التأكد.

اقترب جايمي مني، وهمس: «أين نبحث بالله عليك؟».

أراد أن يتحقق من وجود وسائل لتحديد النسل استخدمتها كارولين.

«هناك مرحاض في ذلك الاتجاه»، قلت بهدوء. «حيث توجد خزانة أدوية وعلبة صغيرة لمستحضرات التجميل».

وقلت له إنني سأتحقق من غرفة النوم. ونظرتُ إلى داخل خزانة الملابس في المقام الأول. كانت رائحتها تفوح من كل شيء، وتمكنت من تمييز الملابس التي كنت أراها ترتديها. لقد حركت هذه المشاهد شعوراً معتدلاً متضارباً مع رغبة في كبته. لم أعرف إن كانت هذه الحالة علاجية أم تمسّكاً بما هو محظّر عليّ. وكنت أتحقق من هذه المشاعر باستمرار عند باب هذه الشقة. وانتقلتُ إلى أدراجها.

كان الهاتف موضوعاً على الطاولة بجانب سريرها، وهي قطعة مستديرة قوائمها على طراز آني كوين. وعندما فتحت الدُّرج الوحيد فيها لم أرَ شيئاً سوى جواربها الشبيهة بالسروال. وبعد أن بحثت تحتها، وجدتُ دليل هاتف مُجلّداً بجِلد عِجل بنّيّ اللون. غالباً ما يُغفل رجال الشرطة أمراً ما، ولم أستطع مقاومة اكتشاف مضمونه. وبحثتُ في صفحة الأسماء التي تبدأ بالحرف أس، ولكنني لم أجد شيئاً. وفكرتُ بالحرف أر؛ أجل. كان رقما هاتف عملي ومنزلي موجودَين. فمسست الدليل برِفق للحظات. كان اسم هورغان مُدرَجاً فيه بخلاف اسم مولتو. ولكن، كان هناك حرفا تي وأم، وهما على الأرجح الحرفان الأولان لكل من اسمه وكنيته. ومن ثم بحثت عن أسماء أطبائها في صفحة الأسماء التي تبدأ بالحرف دي، ودوّنتُ الأسماء ووضعتُ الورقة في جَيبي. وفي الخارج، سمعتُ صخباً، ولندنينغ هو أول من تبادر إلى ذهني لسبب ما، وظننتُ أنه قرر تجاهل قرار القاضي قاتم البشرة والتجسس علينا. وقلّبتُ صفحات الدليل لحماية ما عثرتُ عليه. ولكن، عندما دخل

الشخص الغرفة، لم يكن سوى مارتي الذي كان يجوب أنحاء المنزل. فنظر إلى الداخل ولوّح بيده. كانت صفحة الأسماء التي تبدأ بالحرف أل هي الصفحة التي فتحتها، وكان اسم لارين مدوَّناً في أعلاها، إضافةً إلى ثلاثة أرقام هاتف. حسناً، فكرت في سرّي. لا بد من أنها مجموعة عائلية في الفرع الشمالي؛ فالجميع موجودون هنا. ومن ثم، فكرتُ ثانيةً. لا بد من مواصلة البحث. فتحققت من صفحات الأسماء التي تبدأ بالحروف أن، دي، وجي من دون أن أعثر على اسم نيكو. ودسستُ الدليل تحت الجوارب الشبيهة بالسروال.

كان مارتي واقفاً عند باب غرفة النوم.

«غريب تماماً، أليس كذلك؟».

فأومأت برأسي. وقال لي إنه سينتظر في الخارج، وحاولتُ أن أُعلمه بأنه يمكنه المغادرة إذا رغب، ولكنه لم يفهم التلميح.

عندما عثرت على كِمب، كان يعبر غرفة الجلوس.

«لا شيء هنا»، قال لي. «لا رغوة، لا كريم. حتى إنني لم أعثر على علبة حجاب منع الحمل. هل فاتني أمر ما؟ هل تُخبّئ النساء هذه الأشياء؟».

«لا عِلم لي بذلك. تُبقي باربارا أشياءها في الدُّرج الأعلى لخزانة المطبخ. ليست لديّ أي فكرة عن الأمكنة التي تحتفظ فيها الأخريات بهذه الأشياء».

«حسناً، إذا قال عالم الكيمياء إن المرهم المانع للحمل موجود ولم يتم العثور عليه في الشقة»، قال كِمب، «أخبرني إذاً بمكانه».

«أظن أنني أخفيته»، قلت، «عندما التقطتُ حجاب منع الحمل».

لقد اعتدتُ مع كِمب وشتيرن اعتماد هذا الأسلوب؛ أي توقع ما سيدّعي نيكو أنني قمت به. كان جايمي، بصفة خاصة، يجد الأمر مسلّياً.

«ولماذا قمت بذلك؟».

وفكرت للحظات. «ربما لأُخفي واقع أنني حصلت على حجاب منع الحمل».

«لا معنى لذلك. من المُفترَض حدوث عملية اغتصاب. وهل يشكل ما قامت به عندما أرادت القيام بعلاقة حميمة فارقاً؟».

«أظن أنني لم أكن أفكر بوضوح. لو كنت من قام بذلك، لما تركتُ الكأس على المشرب».

فابتسم كِمب. كان يحب الدَّور الصغير والكلمات السريعة.

«هذا الأمر يساعد. أريد الاتصال ببرمان»، قال مشيراً إلى المحقق الخاص. «يُفترض به البحث بنفسه كي يتمكن من التقدم بشهادته عن الأمر. سيكون متوافراً في غضون ساعة. انتظر حتى يبلغ الأمر مسامع لندنينغ. سينفجر غضباً».

والتقينا نحن الأربعة خارج الشقة، وراقبْنا لندنينغ وهو يُقفل الباب. وكما توقع كِمب، رفض لندنينغ انتظار برمان. فقال له كِمب إنه سيقوم بانتظاره لأن تفويض المحكمة يمنحنا الحق بدخول الشقة طوال اليوم.

«لا أتلقى الأوامر من أي محامي دفاع يرقص الروك أند رول»، قال لندنينغ.

«حسناً، إذاً لنذهب لمقابلة القاضي»، قال كِمب. فنظر الشرطي إلى السقف كما لو أنه الأمر الأكثر إثارة للسخرية الذي سمعه يوماً، ولكنه وقع في الفخ. ونزل وكِمب السلّم، وهما يتبادلان أطراف الحديث، وتُركتُ مع مارتي بوليموس.

«إنه رجل لطيف، أليس كذلك؟»، سألتُ مارتي.

فسألني بجدّية تامة: «أيّ منهما؟».

«كنت أتحدث عن الشرطي».

«بدا جيداً. قال إن ذلك المدعوّ السيد كِمب كان في الغالاكتيكس». وعندما أكدتُ له ذلك، قال الفتى: «واو!»، ولزم الصمت بعد ذلك. لقد بدا كما لو أنه ينتظر أمراً ما.

«في الواقع، لقد تحدثتُ إليهم. أقصد رجال الشرطة».

«هل قمتَ بذلك؟». كنت أفكر بالزجاجيات الموضوعة على المشرب.

«هل تعرف لقد سألوني عنك؟ وعما جرى بيننا عندما قدمتَ لرؤيتي».

«حسناً، إنه عملهم».

«أجل، أرادوا أن يعرفوا إن قلتَ لي أي شيء عن علاقتك بها، أعني كارولين. هل تعرف ذلك؟».

كان عليّ بذل جهد للتحكم بذاتي كي أتجنب الدوران حول نفسي بطريقة لا إرادية. لقد نسيتُ. لقد نسيتُ أنني أخبرتُ هذا الفتى بذلك. إنه دليل نيكو ليثبت علاقتي الغرامية. فشعرتُ بغصّة في حَلقي.

«لقد سألوني مرتَين، في الواقع. قلت... أعني، لقد جرى بيننا حديث صادق، هل تعرف ذلك؟».

«بالتأكيد»، قلت.

«وأخبرتهم أنك لم تقل أي شيء عن ذلك».

فنظرتُ إلى الفتى.

«هل قمتُ بالأمر الصائب؟»، سأل.

كان يُفترض بي، بالطبع، أن أذكّره بقول الحقيقة.

«بالتأكيد»، قلت ثانيةً.

«لا أعتقد أنك الرجل الذي قتلها».

«أقدّر ذلك».

«الأمر أشبه بالكارما»، قال. «لا يحق لهم اتهامك».

فابتسمتُ، ورفعتُ يدي لأقوده في اتجاه بيت الدَّرَج، وانتابني ذلك الشعور. كانت حالة الذُّعر التي انتابتني أشبه بالاصطدام بجدار، وشعرت بخوف شديد لدرجة أنني فقدتُ القدرة على الوقوف على ساقيّ، ومددتُ يدي للإمساك بالدرابزين. يا لغبائي! قلت في سرّي، يا لغبائي! إنه مزوَّد بأجهزة تنصّت. إنه يضع مسجّلة شريطية. إنها فكرة نيكو ومولتو. هذا ما يقوم به هنا، لهذا السبب لم يبدُ بخير. ليس بخير. لقد تبعنا إلى داخل الشقة وراقب كل ما نقوم به، ومن ثم أخرجني إلى هنا لإغرائه بأداء شهادة كاذبة. لقد أقنعتُ نفسي بذلك للتوّ. لقد قُضي عليّ.

وشعرت بأنه سيُغمى عليّ. وتعثّرتُ ثانيةً، ولكنني استدرتُ هذه المرة.

فمدّ مارتي يده قائلاً: «ما الأمر؟».

عندما نظرتُ إليه، علمتُ أنني مجنون، وأحمق. كان يرتدي الملابس الفصلية: كنزة ضيّقة وسروالاً قصيراً، حتى إنه لم يكن يضع أيّ حزام. لا أحد يستطيع إخفاء تجهيزات تحت هذه الثياب. لقد شاهدتُ لندنينغ وهو يفتّش ملابسه، ولا يبدو الخداع في عينَيه أيضاً. فكل ما رأيته هو ذاك الفتى اللطيف، والخجول، والضائع تماماً.

وتبلّل قميصي بالعرق فجأةً، وشعرتُ بالوَهَن، وخفق نبضي في أعلى ذراعَيّ.

«أنا بخير»، قلت له، ولكن مارتي أمسك بمِرفقي على كل حال عندما شرعنا بنزول الدَّرَج. «المكان هو السبب»، قلت. «لقد ألحق بي الأذى».

25

إنهـا السـاعة الثالثـة صـباحاً. عندمـا اسـتيقظتُ، كان قلبي يخفق بسرعة، وشعرت بآثار عرق بارد على عُنُقي، فحاولتُ إرخاء ياقتي، وتحسسـتُ بشـرتي، واسـتلقيت مجدداً. كان نفَسي قصيراً، ونبض قلبي يدوّي بصوت متقطع في أُذُني المسنَدة إلى الوسادة. كان الكابوس الذي رأيته لا يزال واضحاً بالنسـبة إليّ؛ وجه والدتي التي تشـعر بألم شـديد؛ تلك الصورة لوالدتي المُنهَكة وشاحبة اللون عندما شارفتْ على الموت، والأسوأ من ذلك نظرتها الضائعة والمذعورة.

عندما مرضت والدتي وتوفِّيت بسرعة، كانت تمرّ بفترة حياة البلوغ الأكثـر مسـالَمة. لـم تكن تعيش مع والدي بالرغم مـن عملهما جنباً إلى جنـب كل يـوم فـي المخبز. كان قد انتقل للعيش مع أرملةٍ، هي السـيدة بوفا، وأذكر سلوكها المِلحاح عندما كانت تدخل المتجر، وذلك قبل وفاة زوجها. بالنسبة إلى والدتي التي أصبحت حياتها مع والدي مليئة بالخوف، لقد حرّرها هذا الواقع إلى حد ما، وانتقل اهتمامها فجأةً، وبشكل متزايد، من ذاتها إلى العالم الخارجي. وغدت إحدى أولى المتصلات المنتظمات ببرامج المقابلات التي يشارك فيها المستمعون. ما هو رأيك بالمواعيد بين أشـخاص من أعراق مختلفة، وتشـريع القنّب الهندي؟ ومن قتل كنيدي؟ كانت تضـع على طاولة الطعام أكداسـاً من الصحف والمجلات القديمة، ومجموعة من الورق والبطاقات المفهرَسة التي تدوّن عليها الملاحظات استعداداً لبرامج الغد. فوالدتي التي كانت مصـابَة برُهاب الخروج من مبنانا السـكني أو المتجر، ويتعيّن عليها البدء باسـتعداداتها في الصـباح الباكر إذا أرادت مغادرة منزلها بعد الظهر، وترسـلني إلى السـوق مذ أن بلغتُ الثامنة من عمري كي تتجنّب مغادرة المنزل، أصبحت شخصية محلية إلى حد ما بسـبب آرائها الجريئة والصـريحة حول مواضيع جدلية

متنوعة. لم أستطع التوفيق بين هذا التطور وبين تكيّفي منذ مدة طويلة مع غرابة أطوارها أو مع الهوامش الضيقة لحياتها السابقة.

فعندما تزوّج والداي، كانت أمي في الثامنة والعشرين من عمرها، وأكبر سنًّا من والدي بأربعة أعوام، والابنة السادسة لمنظّم اتحاد عمّالي، وشابة من كورك. أنا على ثقة بأن والدي قد اقترن بها لأجل مدّخراتها التي سمحت له بافتتاح متجر. ولم يكن هناك ما يشير إلى زواج والدتي بوالدي حبًّا به. كانت فتاة بِكراً كبيرة في السن، وغريبة جداً كما أعتقد لتتمكن من اجتذاب متقدمين آخرين للزواج بها. فسلوكها، كما شهدتُ، يميل إلى تجاوز الحدود من دون التمكن من التحكم به، إضافةً إلى جولات جنونية من البهجة الواعدة تقابلها ساعات من النظرات التأملية. وكانت تصاب أحياناً بالاضطراب، فتبحث باستمرار في أدراج خزانتها المكتظة بالملابس، وفي علبة الخياطة، مُحدثةً ضجيجاً مرتفعاً مثيراً للأعصاب. وبما أنها نادراً ما كانت تغادر المنزل، فقد اعتادت شقيقتاها الاعتناء بها. كانت محاولة شجاعة من قِبلهما. فعندما تقوم خالتاي بزيارتها، يعمد والدي إلى التحامل عليهما داعياً إيّاهما بالمتطفلتَين، وقد يبلغ به الأمر عندما يكون ثملاً إلى حدّ تهديدهما باستخدام العنف معهما. وكانت خالتاي، فلو وسارا، تغامران في غالب الأحيان. وهما امرأتان جريئتان وعازمتان على غرار والدهما، وتميلان إلى التحكم بتصرفات والدي من خلال رمقه بنظرات صارمة واعتماد سلوك يطغى عليه الخوف كما لو أنهما تواجهان كلباً شرساً ينبح. لم يكن بالإمكان ردعهما عن تحقيق مهمتهما غير المعلَنة المتمثلة بحماية روزي الوديعة (والدتي)، وحمايتي بصفة خاصة. بالنسبة إليّ، لقد آنسني حضور هاتَين الخالتين طوال فترة طفولتي. فقد كانتا تحملان لي السكاكر، وتصطحبانني لقص شعري، وتشتريان لي الملابس. كانتا تشرفان على تربيتي بطريقة روتينية لدرجة أنني لم أدرك نواياهما أو لطفهما إلا عندما بلغتُ العقد الثالث من عمري. وبطريقة ما، ومن دون أن أدرك ما حدث، علمتُ بوجود عالمَين؛ عالم والدتي وعالم شقيقتَيها الذي أدركتُ أنني أنتمي إليه

في النهاية. في صِباي، كنت باستمرار أعتبر أن والدتي غير كاملة؛ هذا لأن هيامي بها كان مســألة خاصــة بَحتة غير مفهومة من قِبل الآخرين، وتفوق قدرتي على شرحها.

هل أُبالي حقاً برأيها بي في محنتي تلك؟ أفترض ذلك. أي ابن لا يبالــي؟ كنــت ســعيداً تقريبــاً لأنها لم تعِش لترى ما يجري. ففي الأشــهر الأخيرة من حياتها، كانت تُقيم معنا في المدينة في شقة تحتوي على غرفة نوم واحدة. ولكن باربارا كانت ترفض رؤية والدتي في أي مكان آخر. كانت تنام على أريكة في غرفة الجلوس، وتجلس في معظم الأوقات على كرســيّ خشــبيّ صــلب. وقُبَيل وفاتها، كانت والدتي تتحدث إلى باربارا باستمرار، ورأسها مُسنَد إلى وسادتها، ووجهها متقلّص بسبب المرض، ونظراتها غير مركّزة تقريباً، والنور يخبو في عينَيها. فتمســك باربارا يدهــا، وتهمهمــان معــاً من دون أن أفهم أي كلمة؛ ولكن الصــوت يبقى ثابتاً كصــنبور مفتوح. فباربارا برنشــتاين امرأة متزوّجة في منتصــف العمر، ومعســولة اللســان، ومن ســكان الضواحي، ووالدتي ذات عقل هائم ومزاج لطيف دائماً. وهما تتواصلان مع بعضهما وتجتازان دروب الوحدة، في حين أشــعر أنا بحزن عارم، كالمعتاد، يحول دون قيامي بخطوتــي. كنــت أراقبهما من البــاب: باربارا الزوجة القانعة، وروزي الوالدة التي لم أهملها. وعندما كنت أحلّ مكان باربارا، كنت أملك اللياقة أحياناً لأخبرها بأنني أحبها، فتبتســم لي بوَهَن، ونادراً ما تتكلم. وقُبَيل وفاتهــا، تولّــت باربارا مهمــة إعطائها حُقَن الديميرول. ولا تزال هناك بعض المِحقنات في الطابق السفلي في علبة تحتوي على تَذكارات غريبة من والدتي تحتفظ بها باربارا: بَكرات قديمة العهد، وبطاقات مفهرَسة، وقلم باركر مذهَّب الرأس كانت تســتخدمه لتدوين الملاحظات في شــأن ظهورها على المحطة الإذاعية.

سرتُ في الظلمة لأعثر على خفَّيّ، وأُخرج ردائي من الخزانة. وفــي غرفــة الجلوس، جلســتُ على كرســيٍّ هزاز. كنــت أفكر مؤخراً بالعــودة إلــى التدخيــن مجدداً. لم أكن أشــعر بالرغبــة في ذلك، ولكن

التدخين قد يملأ الساعات البائسة في بحر الليل عندما أكون مستيقظاً في غالب الأحيان.

ومارستُ لعبة مع نفسي تدعى ما هو الجزء الأسوأ؟ لقد بدت الكثير من الأمور تافهة، ولم أعُد أبالي بطريقة تحديق النساء بي بأفواههن الفاغرة عندما أسير في وسط القرية. لم أكن قلقاً على سمعتي، أو من شعور العديد من الناس بالخوف مني طوال حياتي كلما سمعوا باسمي؛ حتى لو كانت التُّهم الموجَّهة ضدّي قد أسقطت في اليوم التالي من توجيهها إليّ. لم أبالِ بمدى صعوبة عثوري على عمل كمحامٍ إذا بُرِّئت ساحتي، ولكن لم يكن باستطاعتي التغاضي عن التآكل المنتَظم لعاطفتي، وعن أرَقي وقلقي الجنوني، أو الحد من تفاقمها. والأسوأ من ذلك هو الأوقات التي أستيقظ فيها في منتصف الليل، واللحظات التي تسبق تمكّني من لملمة شتات نفسي عندما يترسخ اعتقادي بأن الهلع لن ينتهي أبداً. فالأمر أشبه بتلمّس المفتاح الكهربائي في الظلام من دون أن أكون واثقاً – وهنا الهلع أسوأ – وأكيداً من العثور عليه. وعندما يصبح البحث أكثر امتداداً، يتآكلني ذلك الشعور الضئيل، ويزول، ويُصدر الفقاقيع كقرص دواء يُلقى في الماء، ويبدأ السواد الجامح الذي يعتريني بسبب ذلك الذُّعر اللامحدود والدائم بابتلاعي.

وإليكم الأسوأ: قلقي على ناتانيال. فيوم الأحد، سنضعه على متن القطار المتوجّه إلى كامب أوكاواكا بالقرب من سكاجيون حيث يُفترَض أن يبقى ثلاثة أسابيع، وهي المدة المتوقَّعة للمحاكمة. وبعد تذكّر هذا الأمر، نزلت الدرج بهدوء ووقفت في الردهة المظلمة خارج الباب، وأصغيتُ السمع حتى تمكنت من سماع إيقاع تنفّسه، وجعلتُ نفسي يتَبع إيقاع نفَسه. عندما أراقب نات وهو نائم، تسيطر عليّ غرابة العِلم: فأفكّر بالذرات والجزيئيات، والبشرة والعروق، والعضلات والعظام، وأحاول فهم ابني للحظة كما لو أنه مجموعة من الأجزاء، ولكنني أفشل في ذلك. لا يمكننا أبداً توسيع حقل فهمنا النهائي. فأنا أعرف ناتانيال من خلال كتلة مشاعري الحارة تجاهه، وأنظر إليه من خلال العاطفة

القوية التي أكنّها له. إنه فتايَ اللطيف والوسيم عندما يكون نائماً، وأنا ممتنّ جداً لمدى اعتصار قلبي لأنني أشعر بهذا القدر من الحنان في هذه الحياة القاسية.

وإذا أُدنت، فسيبعدونني عنه، لا بل إن لارين ليتل سيرسلني إلى السجن لعدة سنوات. لقد حطّمتني فكرة بقائي بعيداً عمّا تبقى من حياته الشابة، وشعرتُ بالخوف من السِّجن نفسه، وروّعتني فكرة العزل والإبعاد، وجعلتني فكرة السَّجن مريضاً بسهولة تامة. ولكن الأمور المُرعبة الجسدية الفعلية التي أعانيها نادراً ما تكون في عقلي؛ حتى عندما أطعن نفسي بفكرة العواقب القصوى التي قد أواجهها.

كنت قد أمضيت أياماً في راديارد، سجن الولاية، حيث يُرسَل كل مجرم، لمقابلة أحد الشهود، ولكن التنهدات هناك تثير القشعريرة. فالقضبان الحديدية ثقيلة، وهي بسماكة بوصتَين وعرض نصف بوصة، ويوجد وراءها كل أولئك الأوغاد الذين باتوا يشبهونني؛ وهو ما يصدمني. كان الرجال السود يثرثرون بنبرة غاضبة جنونية، والرجال البيض يضعون على رؤوسهم قلنسوات طويلة مخروطية الشكل، واللاتينيون ينظرون بعيون غاضبة. إنهم أولئك الرجال الذين تجنّبتموهم في رواق أو محطة حافلات، والفتيان في المدرسة الثانوية الذين اخترتموهم ليكونوا متسكّعين. هم أولئك الذين يحملون فشلهم كندوب، ويشبهون سهماً عاد إلى الأرض بعد تحليقه عالياً في السماء.

لم يعُد بالإمكان كنّ أي نوع من المشاعر حيال هذه المجموعة من الأشخاص. لقد سمعتُ كل أنواع قصص الكراهية الشديدة، وأعلم أن هذه القصص المخيفة بمثابة حبر غير مرئي يسوّد أحلامي. بالنسبة إليّ، لن يكون هذا الأمر بعيداً عن كونه وسيلة للتعذيب. أعرف أموراً عن سكاكين الليل، وعن الحفلات التي توزَّع فيها أعمال التفجير بشكل علني، وعن ماركوس ويتلي؛ وهو أحد الأشخاص الذين حاولتُ التحدث إليهم في النايت سينتس، وكان قد عقد صفقة مخدرات مع أحدهم هناك ومُدِّد على ظهره في غرفة الأوزان، وطُلب منه رفع يدَيه وحمل قضيب

أثقال فيه 250 رطلاً عند كل طرف، وقد أدى ذلك إلى اختناقه لأن هذه الأثقال لعبت دور المِفصلة إلى حد ما. وأعرف أموراً عن إحصائيات السكان في ذلك الحي؛ فنحو 16 بالمئة منهم مجرمون، وأكثر من نصف السكان هناك ارتكبوا نوعاً من أنواع العنف. وأعرف أموراً عن الطعام الرمادي، والرجال الأربعة الذين يحتجزون في زنزانة واحدة، ورائحة البراز التي تتغلّب على بعض أنواع الروائح الأخرى. وأعرف أن هناك مناطق تصبح فيها سيطرةُ العصابات تامةً لدرجة أن الحراس يرفضون عبورِها طوال أيام. وأعرف أموراً عن الحراس أنفسهم، وعن ثمانية منهم أُدينوا في المحكمة الفدرالية بسبب استخدام بنادق رشاشة في حفلة ليلة رأس السنة للسيطرة على اثنَي عشر سجيناً أسود تناوبوا على ضرب الناس بالأحجار اللوحية والآجرّ.

أعرف ما حدث لرجال مثلي هناك لأنني أعرف ما حدث لبعض من ساهمتُ في إرسالهم إلى هناك. وأعرف أموراً عن مارسي لوبينو، وهو الشخص الذي يتبادر إلى ذهني كلما أعود بالذاكرة إلى تلك الحقبة. فمارشيلو أميركي نموذجي مندفع، ومحاسب عام مُجاز، قام بإدارة مراهنات أحد الأشخاص في حيّه القديم في بداية مهنته. وفي النهاية، ازدهرت مزاولة مارسي لمهنة المحاسبة، وقرر أنه لم يعُد بحاجة إلى وظيفة خارجية. وعندها، أعلمه جون كونت – أحد الفتيان – أنه لا يملك حرّية التخلّي عن هذا النوع من الأعمال. وهكذا سارت الأمور، فاحترم مارسي لوبينو قرار المحاسب العام المجاز، ورئيس بيي تي أيه، وعضو هيئة المديرين في مصرفَين، وهو شخص لا يعبث بسجل مراهنات أكبر زبائنه، ويغادر مكتبه كل يوم بعد الظهر عند الساعة الثالثة والنصف تماماً للاهتمام بمباريات الكرة والمراهنات على الجياد. كانت كل الأمور تسير بشكل جيد إلى أن قام أحد الفدراليين بالإبلاغ عن وجود غرفة للاتصالات الهاتفية. ودخل موظفو مصلحة الضرائب الغرفة، ووجدوا مارسي لوبينو مع ستة أشخاص آخرين يديرون أموال رِهان وبحوزتهم ثلاثة ملايين دولار. وأراد منه الفدراليون أن يتكلم

بأسوأ طريقة، ولكن مارسي كان ممتازاً بالحساب. فعامان من المقامرة، والاحتيـال البريـدي، والاحتيال الاتصـالاتي، والاتهامات بالاحتيال، وكل ما تمكّن الفدراليون من إلصـاقه به من تُهَم لم تكن توازي ما يودّ جون كونت والفتيان أن يفعلوه به في عشر دقائق: بتر خصيتَيه. وكان مارسي لوبينو يعرف أنهم لن يتوانوا عن القيام بذلك.

لذلك، اتصل بي مايك تاونسند من القوة الضاربة لمكافحة الجريمة المنظمـة. لقـد أراد أن أجـد دوافـع تؤدي إلى تجريم مارسـي. فاتهمنا مارسـي بالقيـام بأعمال مشـبوهة فـي الولايات المتحـدة، وعندما أُدين وضـعناه في راديارد بدلاً من المعسـكر الفدرالي الليلي الذي كان يعلل النفس بالذهاب إليه؛ وهو مكان يتيح له تناول السـلَطات، ويحتوي على ملاعب لكرة المضـرب، ويدرّس فيه النزلاء السـاعون للحصـول على إجازات جامعية في إطار برنامج الإجازة بكيفية مَسك الدفاتر، وأرسلناه مقيَّداً بالسلاسل إلى رجل يضع عينَي ابنته الرّضيعة مع مفاتيحه.

وبعد سـتة أشـهر، اتصل تاونسـند وقمنا برحلة إلى الشمال للتحقق مما إذا كان لوبينو قد استجاب للضغوطات. فوجدناه في حقل وهو يحفر الأرض بواسطة مجرفة. وعرّفنا بنفسينا مجدداً. فوضع مارسي لوبينو مِجرفته تحت ذراعه وانحنى عليها باكياً. لم يسـبق لي أن رأيت رجلاً يبكي على ذلك النحو؛ كان يرتجف من رأسه وحتى أخمص قدمَيه، وقد اصـطبغ وجهه بلون أرجواني، وانسـكبت الدموع من عينَيه كما لو أن الماء يخرج من صـنبور. رجل أصـلع بدين في الثامنة والأربعين من عمره يبكي بشـدة. ولكنه لم يبُح بأي شـيء، بل قال أمراً واحداً لنا: لا أتنان لديّ.

وفي أثناء عودتنا، شرح لنا الحارس ما جرى للوبينو.

أراد زنجيّ ضخم البنية، ويدعى دروفر، معاملة لوبينو كطفل له. كان الجميع، بمن فيهم الإيطاليون، يُقرّون بأنه رجل لطيف. لذا، دخل ذات ليلـة زنزانـة لوبينـو، وطلب منه القيام بعمل مشـين. ولكن لوبينو رفض، فأمسـك دروفر رأسـه واسـتمر بصدم وجهه بحافة السرير حتى

فقد كل سنّ سليمة في فمه.

هنـاك قاعـدة في واردن، قال الحارس. تحصـل على ضِـمادات لجراحك فنخيطها لك، ولكن لا تحصل على معالجة خاصة حتى تتكلم. فلوبينو لن يحصل على أسنانه الاصطناعية حتى يبوح بالحقيقة، وهو لن يقـوم بذلـك لأنه يعرف صـالحه. لا، قال الحارس، لن يبوح بشـيء. وانحنى الحارس، وهو رجل صـالح، على بندقيّته الرشاشـة وضـحك. لا تعود الجريمة بالفائدة على أحد، قال لتاونسند ولي.

اهرُب، قلت في سرّي في أثناء جلوسي في الظلام مفكراً بمارسي لوبينو. اهرُب. لقد تبادرت الفكرة إلى ذهني فجأةً: اهرُب. كمدّعٍ عام، لم أتمكن قطّ من فهم سبب إصرارهم على ارتكاب جُرم ما، والخضوع للمحاكمة، وصـدور أحكام بحقهم، والتعرض للسـجن. ولكنهم استمروا بذلك، على غراري. فهناك 1600 دولار في حسـابي المصـرفي ولا مـال آخـر لـديّ في العالم. وإذا سـلبتُ ثقة باربارا، يكون لديّ ما يكفي للاستمرار، ولكنني قد أفقد على الأرجح دافعي الحقيقي الوحيد للحصول على الحرية؛ فرصة رؤية نات. وحتى لو كان باستطاعتي تمضية فصول الصـيف معـه فـي الريـو، أو فـي الأوروغواي، أو فـي أي بلد آخر لا تربطه بالولايات المتحدة معاهدة لتبادل المجرمين، فأنا لا أسـتطيع أن أتخيّل كيفية العيش بدون لغة أعرفها أو مهارة تعترف بها هذه الثقافات. باسـتطاعتي التواري ببسـاطة داخل كليفلاند أو ديترويت، والتحوّل إلى شخص مختلف من دون أن أرى ابني مجدداً. ولكن، في الواقع، هذه الاحتمـالات لا تنسـجم مـع رؤيتـي للحياة. لقد أردت حتى في سـاعات الحقيقة هذه الأشياءَ نفسها التي أردتها عندما ترجّلتُ من الحافلة في الليل في السـاحة العامة الخضـراء في نيرنغ. كم نرى الأمور بسـيطة أحياناً، ونشعر بالقوة على نحو غريب. فجلستُ هناك في الظلمة، ثانياً ركبتَيّ، وساحباً عقِبَيّ في اتجاهي، ومرتجفاً، ومتخيّلاً رائحة دخان السجائر.

26

«الشـــعب مقابل روزات كيه ســـابيتش!». نادت إرنســـتين، كاتبة المحكمة التابعة للقاضـــي ليتل، داخل قاعة المحكمة المكتظة. إنها امرأة سوداء صارمة، يبلغ طول قامتها ست أقدام. «محكمة!». صاحت.

لم يكن الأمر مختلفاً عن اليوم الأول لأي محاكمة في قضـــية قتل: شروق الشمس في صباح يوم المعركة، المسيحيون ضد الأسود في روما القديمة، الدماء تتطاير في الجوّ. وملأ المشاهدون كل بوصة من المقاعد العامة، وكانت هناك أربعة صفوف مليئة بالصحافيين وعلى رأسهم خمسة رسامين يرسمون صوراً تقريبيّة. كان فريق عمل القاضي - سكرتيرته وكتّاب المحكمة الذين لا يكونون موجودين عادة - جالسـاً على كراسٍ قابلة للطيّ على امتداد الجدار الخلفي لقاعة المحكمة بجانب باب المكاتب. ووقف مأموران قضائيان مسلّحان لأجل هذه المناسبة الهامة عند زاويتَي المقعد بجانب العمودَين الرخاميَّين. كان الانفعال والهمهمة يسودان جوّ القاعة، ولم يكن هناك أي شخص يشعر بالسأم.

ودخــل القاضـــي ليتــل، ووقف الحاضـــرون في القاعـــة، وأعلنت إرنســـتين: «اســـمعوا وأنصـــتوا، اســـمعوا وأنصـــتوا. المحكمة العليا في مقاطعة كيندل تنعقد الآن برئاسة سيادة القاضي لارين أل ليتل. اقتربوا وركزوا انتباهكم وسوف تسمَعون. ليحمِ الله الولايات المتحدة ومحكمتها الموقَّـرة». وضـــربت إرنســـتين مطرقتَها على الطاولـــة. وعندما جلس الجميع، نادت على قضيتي للمحاكمة.

فتوجهـــتُ مـــع المحامين إلى المنبر: شـــتيرن وكِمب؛ مولتو ونيكو. وجلس لندنينغ مع المدّعيَين العامَّين بصفته المحقق في القضية. ووقفتُ بجانـــب محاميَـــيّ. فيمـــا جلس القاضـــي ليتل إلى طاولة القضـــاء بشـــعره المقصوص حديثاً وشكله المهندَم. كان ذلك اليوم الثامن عشر من شهر

آب/أغسطس، أي بعد أقل من شهرين من اتهامي بشكل رسمي.

«هل نحن مستعدون لاستدعاء هيئة المحلفين؟»، سأل لارين.

«سـيدي القاضـي»، قال كِمب، «نريد التطرق إلى عدد قليل من المسـائل فـي أثنـاء اختيـار هيئة المحلَّفين». لقد أُسـند إلـى كِمب في هذه القضـية دور رجل القانون، وأوكل إليه شـتيرن مهمة البحث والتشـاور مع القاضي في شأن نقاط قانونية بعيداً عن مسامع أعضاء هيئة المحلفين. فعندما يكونون في الحجرة لن يتفوّه بأي كلمة.

واتصـلت إرنسـتين من هاتف قاعة المحكمة بغرفة الاسـتقبال التي يشـغلها كاتـب المحكمة، وطلبت اسـتدعاء مواطنيـن ليكونوا محلَّفين في هذه القضـية بعد أن يخضـعوا للاسـتجواب من قِبل القاضـي والمحامين للتحقق من أهليّتهم.

«سيدي القاضي»، قال كِمب ثانيةً، «لقد تم تنفيذ كل ما طلبناه من الادعاء ما عدا شيئاً واحداً. لم نُمنَح بعد الفرصة لرؤية الكأس».

لقد وجّه شـتيرن تعليمات لجايمي لطرح هذا الموضـوع لأسـباب أخرى إضـافةً إلى ما نشـعر به من فضـول في شـأن الكأس. وأراد من القاضي ليتل أن يتثبّت من صحة نظرته المُبهَمة للمدّعيَين العامَّين، ونجح في مسعاه؛ فقد استاء لارين.

«ماذا عن هذا الموضـوع، يا سـيد ديلاي غارديا؟». من الواضح أن نيكو لم يكن على عِلم بذلك، ونظر إلى مولتو.

«سيدي القاضي»، قال تومي، «سنهتم بالأمر بعد المحكمة».

«حسناً»، قال لارين. «يجب إتمام ذلك اليوم».

«كما أنك لم تُصـدر حكماً في شـأن طلبنا الذي تقدّمنا به لإسـقاط الأهلية عن مولتو»، قال كِمب.

«هذا صحيح. كنت أنتظر جواب الادعاء. يا سيد ديلاي غارديا؟».

وتبـادل تومـي ونيكو نظـرات سـريعة وأومآ برأسَـيهما لأحدهما الآخر. سيلتزمان باتفاقهما المُسبَق أيًّا تكن النتيجة.

«يا صاحب السيادة، لن تستدعي الولاية السيد مولتو للشهادة. ولكننا

نقترح اعتبار الاقتراح موضع نقاش».

فتقدّم شتيرن وطلب من المحامين والقاضي الإصغاء إلى ما سيقوله.

«إذاً، هل أفهم يا صاحب السيادة، أن السيد مولتو لن يُستدعى للشهادة في ظل أي ظرف؟ وأنه قد تم التخلي عن شهادته طوال مدة النظر في القضية وفي كل المراحل؟».

«هذا صحيح»، قال لارين. «أودّ أن يكون الأمر واضحاً لنا جميعاً منذ البداية، يا سيد ديلاي غارديا. لا أريد أن أسمع منكما في وقت لاحق أنكما لم تكونا تتوقعان هذا الأمر أو ذاك. فالسيد مولتو لن يتقدم بشهادته في هذه المحاكمة. أليس كذلك؟».

«هذا صحيح»، قال نيكو.

«جيد جداً. سأغضّ الطرف عن اقتراح المتّهَم بعد تأكيد المدّعيَين العامَّين على عدم استدعاء السيد مولتو كشاهد في هذه المحاكمة».

وهمست إرنستين في أُذُنه. إن المحلَّفين المحتمَلين موجودون في الرواق.

ودخل خمسة وسبعون شخصاً القاعة، على أن يتولى اثنا عشر منهم مهمة اتخاذ القرار في شأن ما سيحدث لي في حياتي. لا شيء مميَّز في هؤلاء الأشخاص. باستطاعتكم تخطّي المدعوّين للمثول أمام المحكمة، والإمساك بأول خمسة وسبعين شخصاً تلتقونهم في الشارع. واستدعت إرنستين ستة عشر شخصاً من هؤلاء للجلوس في حُجرة المحلفين، ووجّهتِ المتبقّين نحو الصفوف الأربعة الأولى الموجودة في جهة الادعاء بعد قيام المأمورَين القضائيَّين بصرف المشاهدين وسط تذمّر كبير، مرسِلين إيّاهم إلى الردهة الخارجية ليقفوا بالانتظار.

وشرع لارين بالكلام، وأطلع المحلَّفين المحتمَلين على موضوع القضية. لا بد من أنه قد شهد اختيار آلاف هيئات المحلفين في أثناء مهنته. لقد أقام صلة فورية معهم: فهو رجل أسود، وضخم البنية، وبهيّ الطلعة، ومرِح، وذكي. ولفت انتباه البِيض أيضاً الذين قالوا في أنفسهم على الأرجح إنه يُفترَض بهم التمثّل به. وشخصية لارين المحبَّبة هي على

الأرجح أفضــل ما يقدّمه للدفاع في هذه الفترة العصــيبة. فهو ماهر في التحــدث إلــى هيئات المحلفين، وذكيّ بالتكهّن بالدوافع المخبّأة، وملتزم بالمبادئ الأساسية. ويُعتبر المتّهَم بريئاً؛ فما دمتم تجلسون هناك، عليكم التفكير بأن السيد سابيتش لم يرتكب الجريمة.

«آسف، يا سيدي. في الصف الأول، ما اسمك؟».

«ماهالوفيتش».

«يا ســيد ماهالوفيتش. هل ارتكب الســيد سابيتش الجريمة التي يُتّهم بارتكابها؟».

فهزّ ماهالوفيتش كتفَيه، وهو بدين، ومتوسط العمر، ويضع صحيفة مثنيّة على حضنه.

«أنّى لي أن أعرف، يا صاحب السيادة».

«يا ســيد ماهالوفيتش، أنت مصــروف. سيداتي وسادتي، دعوني أُطلعكم مرة أخرى على ما يجب عليكم افتراضه. السيد سابيتش بريء، وأنا القاضي. افترضوا أنه بريء. عندما تجلسون هناك، أريد منكم أن تتغاضوا عما يُقال، وأن تقولوا لأنفسكم. هناك يجلس رجل بريء».

وشرح العبء المُلقى على عاتق الولاية لإثبات ذَنب المتّهَم بمعزل عن أي شك منطقي، وأوضح حق المتّهَم بالتزام الصمت. وتوجّه بكلامه إلى ســيّدة نحيلة، رمادية الشــعر، ترتدي فســتاناً قصــيراً، وتجلس على كرسيّ بجانب الكرسي الذي يشغله ماهالوفيتش:

«الآن، ألا تعتقدين، يا ســيدتي، أنه يجب على الشــخص البريء النهوض والقول لكم إنه غير مُذنب؟».

فشعرت السيدة بالانفعال. لقد رأت ما حدث مع ماهالوفيتش، ولكن لا يمكنكم الكذب على القاضي. فعدّلت ياقة فستانها قبل أن تتكلم.

«أظن ذلك»، قالت.

«بالطبع، وعليك الافتراض أن الســيد ســابيتش يظن الأمر نفســه بمــا أننــا نفترضــ أنه بريء. ولكن، ليس عليه القيام بذلك لأن دســتور الولايات المتحدة صريح في هذا الشأن. وهذا يعني أنه إذا تمّ تعيينك في

هيئة المحلَّفين في هذه القضية، فأنتِ تَعدين بوضع تلك الفكرة جانباً لأن السيد سابيتش ومحاميه، السيد شتيرن، قد يقرران الاستناد إلى الحق الذي يكفله الدستور. فأولئك الذين وضعوا الدستور قالوا، ليباركك الله، يا سيدي، ليباركك الله، يا سيد سابيتش، ليس عليكَ أن تشرح، فالولاية ملزَمة بإثبات أنك مُذنب. ليس عليكَ أن تقول أي شيء إذا لم تكن راغباً في ذلك. ولا يمكن للسيد سابيتش تلقّي هذه المبارَكة في الواقع إذا كنتِ تفكرين بأنه يُفترض به الشرح على كل حال».

نظراً إلى كَوني مدّعياً عاماً، اعتدتُ اعتبار هذا الجزء من الروتين الذي يعتمده لارين أمراً لا يُحتمل، وبدا نيكو ومولتو شاحبَي اللون ومستاءَين. فأيًّا يكن عدد المرات التي تقول فيها لنفسك إن القاضي مُحِق، فأنت لا تستطيع أن تصدّق أنه يشرح كل ذلك بإسهاب. كان نيكو يُصغي بنظرات مترقّبة. لقد فقد بعضاً من وزنه، وهناك هالتان سوداوان حول عينَيه لم تكونا موجودتين سابقاً. فالاستعداد لهذا النوع من القضايا في غضون ثلاثة أسابيع عبء رهيب، ولديه مكتب يدير شؤونه أيضاً. علاوةً على ذلك، لقد بذل قُصارى جهده للفوز في الانتخابات، حاملاً مصابيح كليغل وملوّحاً بها في السماء، وطالباً من الجميع مشاهدته. وإذا خسر الدعوى، فسيفقد بعضاً من صدقيته في المكتب، وستنتهي حملته الصامتة ليكون خَلَفاً لبولكارو، وذلك بعد انطلاقها بفترة وجيزة. فمهنته على كفة الميزان أكثر مما هي حال مهنتي. لقد أدركت مؤخراً أن مهنتي قد انتهت على كل حال بعد هذه التّهمة وهذه المحاكمة.

ومن ثم تناول لارين موضوع الإعلام، وسأل المحلفين عن الأمور التي يقرأونها. فبالنسبة إلى أولئك الذين أبدوا حياءً، أشار إلى المقالة التي تعلن عن بدء المحاكمة على الصفحة الأمامية للتريب الصادرة في ذلك اليوم. فالمحلفون يكذبون على الدوام في هذا الشأن، والأشخاص الذين يغيّرون رأيهم في شأن المشاركة في هيئة المحلفين يجدون في العادة طريقة للقيام بذلك. فالذين يقصدون دار القضاء يكونون في غالبيتهم متلهّفين للمشاركة، وأقل استعداداً للإقرار بعدم أهليّتهم. ولكن لارين

يستخلص الحقيقة منهم ببطء. فجميع الموجودين تقريباً سمعوا شيئاً ما عن هذه القضية، وشرح لهم القاضي ليتل في أكثر من عشرين دقيقة قائلاً إنها معلومات عديمة النفع. «لا أحد يعرف شيئاً عن هذه القضية»، قال، «لأنه لم يتوافر بعد أي دليل». وصرف ستة أشخاص أقرّوا بأنهم لن يستطيعوا إخراج ما قيل في وسائل الإعلام من عقولهم. فهؤلاء يتأثرون بعروض نيكو الإعلامية، وأخْذُ ما يجب عليهم التفكير به في شأن هذه القضية بعين الاعتبار أمر يزعزع معتقداتهم. يصعب تصديق وجود من يستطيع وضع كل تلك الآراء المُسبَقة جانباً.

في مرحلة متقدمة من الصباح، بدأ الاستفهام عن خلفيات المحلفين. تدعى هذه العملية اليمين - أي قول الحقيقة - ويؤدّيها المحلف، وتستمر طوال فترة بعد الظهر حتى صباح اليوم التالي. ويطرح لارين خلالها أسئلة حول كل ما يستطيع التفكير به، ويضيف المحامون المزيد. لن يسمح القاضي ليتل بطرح أسئلة مرتبطة بالقضية مباشَرةً، ولكن يُسمَح للمحامين بالغوص بحرّية في تفاصيل شخصية من دون بلوغ مرحلة تعريض الآخرين للإساءة. ما هي المحطات التلفزيونية التي تشاهدونها، ما هي الصحف التي تقرأونها؟ هل تنتمون إلى أي منظمات؟ هل يعمل أبناؤكم خارج المنزل؟ في المنزل، هل تتسلّمنَ أو تتسلمون، أو يتسلم أزواجكنّ أو زوجاتكم، مسؤولية مسك الدفاتر الشهرية؟ إنها اللعبة السيكولوجية الدقيقة لاكتشاف الأشخاص الذين يميلون إلى اتخاذ جانبكم. فالمستشارون يتقاضون مئات آلاف الدولارات لإعداد هذه التوقعات للمحامين، ولكن محامياً كشتيرن يعرف معظم هذه الأمور بالفِطرة والخبرة.

ولاختيار هيئة محلفين فعالة، يجب عليكم أن تعرفوا القضية التي تريدون النظر فيها. فشتيرن لم يقل أي شيء لي، ولكن بات من الواضح أنه يميل بقوة إلى الاعتقاد أنه لن يتوافر أي دليل للدفاع. فهو يظن أن باستطاعته التقليل من أهمية الدليل الذي يمتلكه نيكو. ربما أقنعته أعمالي في الماضي عندما لم ألتزم بتوجيهاته بأنني سأكون شاهداً غير فعال،

وسأُضرّ بمصلحتي. لا شك في أن قرار الإدلاء بالشهادة أو عدم الإدلاء بهـا يعـود إلـيّ في نهاية المطاف. ولكنني اشـتبهت بأن شـتيرن يحاول ببساطة دفع الأمور قدماً ليقنعني بأنه يمكننا الفوز من دون الإدلاء بأي شـهادة، وذلك قبل أن يضـغط عليّ. على كل حال، لقد تحدث إليّ عن قضية الدفاع لمدة قليلة من الوقت. ووافقت ماك وعدد قليل من القضاة على الظهور بصفتهم شهوداً يشهدون لصالحي. وسألني شتيرن أيضاً عن الجيران الذين قد يكونون راغبين في الإدلاء بأي نوع من الشـهادات. من الواضح أنه يريد في النهاية دليلاً دامغاً يستند إليه، وإذا سار كل شيء كما يأمل، فإن أحداً لن يدري بما قد حدث، وستكون الولاية قد أخفقت في ادعائها وتمّت تبرئتي. لهذه الغاية، كنا بحاجة إلى محلفين لامعين بما يكفي لتقدير المعيار القانوني حق قدْره، وأقوياء بما يكفي لتطبيقه بدون تردد؛ أي أشخاص لا يُصدرون حكماً بالإدانة لأنهم متشككون فقط. لهذا السبب، قال لي ساندي إنه يعتقد أن المحلفين الأصغر سنًّا سيكونون أفضل من المسنّين. إضـافةً إلى ذلك، ربما يكونون أكثر انسجاماً مع الفوارق الدقيقة في العلاقات بين الذكور والإناث، والتي تُضفي نكهة على القضية. بمعنى آخر، يريد أشخاصاً يعتقدون أن الزملاء في العمل يقصدون شقة امرأة لأسباب أخرى لا علاقة لها بالجنس. من جهة ثانية، قال، لدى المسنّين احترام أكبر لإنجازاتي السابقة، ومنصبي، وسمعتي.

أيًّا تكن الخطط، فإنكم تجدون أنفسكم عادةً أمام انطباعات فطرية؛ فبعض المحلفين يبدون أشخاصـاً تظنون أنهم يُعجبونكم ويمكنكم التحدث إليهـم. وفـي صـباح اليوم التالي، وفيما كنـا نتّخذ خياراتنا، كانت هناك تباينـات قليلـة بين شـتيرن وكِمب وبيني. فجلسـنا إلـى طاولة المحامي المرافـع، واتخذنـا قرارات في شـأن المحلفيـن المحتمَلين المتجمعين في مجموعات من أربعة أشـخاص. ودعا سـاندي باربارا للقدوم من مقعد المشـاهدين القريب والانضـمام إلى مشاورتنا. فوضعت يدها على كتفي برِفق من دون تعليق. وبجلوسها بجانبي ببذلة حريرية زرقاء داكنة وقبّعة ملائمة، أوحت بوقار كئيب وبحزن مضبوط. كان الانطباع بالإجمال

مماثلاً إلى حد ما للانطباع الذي تركته أرامل عائلة كنيدي. كانت تلعب دورها الصغير بشكل جيد. ففي الليلة السابقة، وبعد بدء المحلفين بتأدية اليمين، شرح ساندي لباربارا قائلاً إنه سيطلب منها حضور جلسات المحاكمة بهذه الملابس. وعبّرتْ في المنزل عن تقديرها للطف ساندي، فشرحت لها أن لطفه ليس هدفاً بحد ذاته بل هو في صميم شخصيته. لقد أراد شتيرن مجدّداً من كل المحلفين أن يروا زوجتي بجانبي منذ البداية، وأن يتيقنوا من إذعاننا لآراء النساء في هذا العصر الحديث.

لقد صرف الدفاع عشرة محلفين محتمَلين من دون تقديم أي شرح؛ وهذا يدعى صرفاً تعسفياً. وصرف الادعاء ستة أشخاص. فمخطط نيكو يبدو معاكساً تماماً لمخطّطنا بالرغم من التحديات الأقل عدداً التي واجهها لتحديد لائحة بأسماء المحلفين. بصورة عامة، بدا الأمر كما لو أنه يبحث عن ناخبين، ونماذج إتنية أقدم عهداً، وعن كاثوليك بالإجمال. لهذا السبب، صرفنا كل الإيطاليين من دون التخطيط لذلك مُسبَقاً.

لقد شعرت بارتياح أكبر مع المجموعة التي توصّلنا إليها، مقارنةً مع ما كانت عليه الحال عندما كنت مدّعياً عاماً. فهناك أغلبية من الأشخاص الصغار في السن. والعديد منهم عازبون وعازبات: مديرة صيدلية في أواخر العقد الثالث من العمر، امرأة صغيرة في السن تعمل كمحاسبة في مؤسسة تتعاطى السمسرة، رجل في السادسة والعشرين من عمره يشغل منصب مراقب عمال في خط للتجميع في أحد المصانع، ويدير شخص آخر في السنّ نفسها تقريباً مطعماً في فندق محلي ويقوم بتنسيق الأغاني على جهاز الكمبيوتر بدوام جزئي. وبين المحلفين الاثنَي عشر، مدرّسة مطلَّقة، وسكرتيرة في سكة حديد محلية، ورجل تقاعد في العام السابق من عمله كمدير لبرنامج موسيقي في المدرسة الثانوية، وميكانيكي سيارات، إضافةً إلى متمرّن لإدارة البرغر كينغ، ومساعدة ممرضة متقاعدة، وبائعة مستحضرات تجميل لصالح شركة مورتون. كانوا تسعة أشخاص بِيض وثلاثة أشخاص سود؛ سبع نساء وخمسة رجال. وعيّن لارين أيضاً أربعة بدلاء يُصغون إلى الأدلة المعروض

لها من دون المشاركة في المداولات ما لم يمرض أحد المحلفين الاثنَي عشر أو يُصرَف.

وباختيار هيئة المحلفين، صرنا مستعدين في وقت مبكّر من بعد ظهر اليوم الثاني للبدء بمحاكمتي.

عند الساعة الثانية إلا عشر دقائق، وصلنا إلى دار القضاء لأجل المرافعات الافتتاحية. كان الجو مماثلاً لجوّ صباح اليوم السابق، وأصبحت الحماسة التي يتسبب بها الأدرينالين أمراً مزعجاً ومؤلماً لدرجة أنني شعرت بترشّح داخل عظامي. فاستدعاني كِمب إلى الرواق خارج قاعة المحكمة، وسرنا مسافة للابتعاد عن المتفرّجين المتذمرين الذين لم يتمكن المأموران القضائيان من تأمين مقاعد لهم. هناك في الخارج، لا يمكنكم أبداً التأكد من الشخص الذي يقوم بالإصغاء. فأفضل الصحافيين لا يقدّمون تقريراً بما سمعوه عرَضاً، ولا يمكنك أبداً معرفة من يتحدث إلى المدّعين العامّين.

«أريد أن أقول شيئاً»، قال لي جايمي. كان قد قصّ بوصتَين من أطراف شعره المجعّد والمسترسل حتى كتفَيه، ويرتدي بذلة زرقاء اشتراها من جيه بريس في نيو هافن، ويبدو وسيماً بما يكفي لاختيار هوليوود بدلاً من القانون. واستناداً إلى تعليقاته، أدركت أنه جمع مبلغاً من المال من جرّاء عزفه على القيثارة يكفي ليعيش حياة مريحة من دون الاضطرار للعمل. ولكنه يعمل في المكتب بدلاً من ذلك، ويقرأ القضايا، ويضع مذكرات، ويجتمع مع شتيرن ومعي حتى الحادية عشرة أو الثانية عشرة ليلاً.

«أنت تُعجبني»، قال جايمي.

«أنت تُعجبني أيضاً»، أجبت.

«وآمل حقاً أن تخرج من هذه الأزمة. لم يسبق لي أن قلت هذا الأمر لأي موكّل. ولكنني أظن أنك ستخرج منها».

لم يمرّ أكثر من عام أو عامَين على مزاولة جايمي مهنة المحاماة، ولا يمكن اعتبار عدد الموكِّلين الذين دافع عن قضاياهم كافياً لتكوين

فكرة عني، ولكنني تأثرت بعاطفته. فوضعتُ يدي على كتفه وشكرتُه. لـم يقـل لـي، بالطبـع، إنني بريء لأن الدليل المتوافر ليس لصـالحي. وإذا أيقظتموه في منتصـف الليل وطرحتم عليه هذا السـؤال، فسـيجيبكم بأنه لا يعرف.

ووصـل شـتيرن. كان واثقاً بنفسـه تقريباً ومنتعشـاً بسبب حماسته الكبيرة. وكان قميصـه أبيض جدًا وخالياً من التجاعيد. فهو على وشـك إلقاء مرافعته الافتتاحية في القضية الأكثر شهرة في تاريخ مزاولته المهنة. لقد شعرت بالحسد تجاهه فجأةً. لم أفكر طوال الأشهر الماضية في مدى المرح الذي يوفّره النظر في هذه القضية؛ وهو إغفال مفهوم. ولكن تلك الرغبات القديمة انبثقت فجأةً وسـط هذا الجوّ المشـحون. لم تحظَ قضـية النايت سينتس، وهي مؤامرة اتُّهم فيها ثلاثة وعشرون شخصاً ونظرتُ فيها مع ريموند، بجزء يسير من الاهتمام الذي تحظى به قضيتي، ولكنني كنت لا أزال أحظى بتغطية إعلامية مباشَـرة وأشـعر بحماسـة شـديدة لم تتوقف طوال سـبعة أسـابيع حتى في أثناء النوم. وشـعرتُ بحزن ويأس مفاجئَين بسبب فقداني مهنتي.

«إذاً، ما هو شعورك؟»، سألني ساندي.

«قلتُ له إنني أعتقد أنه سيفوز»، قال كمب.

وتكلّم شتيرن بالإسبانية، وارتفع حاجباه في اتجاه قمة فروة رأسه الخالية من الشعر.

«لا تتكلم بصـوت مرتفع أبداً»، قال. ومن ثم أخذ بيدي ورمقني بنظرته العميقة تلك. «راستي، سنبذل قُصارى جهدنا».

«أعلم»، قلت.

لدى عودتنا إلى قاعة المحكمة، خرجت باربارا من وسـط الحشـد واتجهت نحوي لمعانقتي؛ لقد قصدت الجامعة وعادت منها في أثناء فترة الغـداء. كانـت معانقة جزئية؛ فقد وضـعت إحدى ذراعَيها بإحكام حول خصـري، وقبّلت خدّي، ومن ثم مسـحت عنه أحمر الشـفاه بيدها. لقد تحدّثتْ إلى نات.

«يريدكَ أن تعرف أنه يحبك. وأنا أيضاً»، قالت ذلك بطريقة فاتنة، ولكن لهجتها بقيت موضع شك بالرغم من نواياها الحسنة. ومع ذلك، بذلت ما في وسعها. إنه الوقت والمكان المناسبان لتقديم أفضل أداء.

خرج أفراد هيئة المحلفين بالصف من غرفة الانتظار حيث سيتشاورون في النهاية، ودخلوا قاعة المحكمة. تقع الغرفة وراء حجرة المحلفين تماماً. في الواقع، لقد ابتسمت لي المدرّسة المطلّقة بينما كانت تجلس على مقعدها.

وشرح لارين الهدف من المرافعات الافتتاحية: توقع الدليل. توقّع. «ليس برهاناً»، قال. «لن يوضح المحامون الاستدلالات التي يظنون أنهم توصلوا إليها بفضل الدليل، بل سيخبرونكم ببساطة وبطريقة غير منمَّقة بما سيكون عليه الدليل الفعلي». مما لا شك فيه أن لارين قال ذلك كتحذير لديلاي. ففي قضية ظرفية، يكون المدعي العام بحاجة إلى طريقة ما منذ البداية لحمل هيئة المحلفين على رؤية خيوط القضية مربوطة ببعضها. ولكن، سيكون على نيكو القيام بذلك بحذر. وأيًّا يكن شعور ديلاي غارديا حيال لارين، فقد باتت هيئة المحلفين مولَعة بالقاضي: إن سحره أشبه بعبير زهري ينبعث منه. فتعرُّض نيكو للتوبيخ لا يعود عليه بأي فائدة.

فقال لارين: «السيد ديلاي غارديا»، ووقف نيكو مهندَماً، ومنتصباً، ومتخذاً مظهراً عدوانياً كما هو متوقَّع.

«أسترعي انتباه محكمتكم الموقّرة»، قال، وهذه هي البداية التقليدية.

منذ البداية، كان سيئاً على نحو مثير للدهشة. وعلمت على الفور بما حدث. فقد تركت القيود الزمنية وأعباء تسيير المكتب أثراً كبيراً على استعداداته. فهو لم يراجع القضية من قَبل، وارتجل قسماً من مرافعته، ويعود سبب ذلك ربما إلى التحذير الذي وجهه إليه لارين قبل أن يبدأ. لم يكن باستطاعة نيكو إزالة نظرته الغاضبة والقلقة، ولم يتمكن من اعتماد إيقاع محدد، واستمر بالتردد في بعض النقاط.

وبسبب استعداد نيكو غير الملائم، وجدتُ صعوبة في سماع الكثير مما قاله. ربما كان يفتقر إلى أسلوبه وتنظيمه المعتادين، ولكنه استمر بمقاربة نقاط ساخنة، وثبتت فعالية الدليل المادي القائم على ما قلتُه وما لم أقُله لهورغان وليبرانزر كما خشيتُ. ومن جهة ثانية، أغفل ديلاي نقاطاً هامة. فقد أخبر هيئة المحلفين القليل عن أمور كان يُفترض به كشف النقاب عنها. فالمدعي العام البارع يسعى عادةً إلى إبطال مفعول الدليل الذي يمتلكه الدفاع من خلال الإشارة إليه أولاً، مؤكّداً أن باستطاعة هذه القضية الصمود في وجه أقوى هجمات الدفاع. ولكن نيكو لم يفصّل خلفيّتي بالشكل الملائم - أغفل القول إنني كنت نائب المدعي العام في المكتب - ولم يذكر أي شيء عن محاكمة ماك غافن في أثناء وصفه علاقتي بكارولين. وعندما يحين دور شتيرن، سيطلب بطريقته الهادئة اعتبار هذه الاختزالات كِتماناً.

وفي ما يتعلق بعلاقتي بكارولين، انحرف نيكو عما توقعناه. فمشكلة نيكو أعمق مما تبدو كما فهمتُ وشتيرن. لم يكن ديلاي يفتقر إلى دليل على علاقتي بكارولين فحسب، بل إنه لم يُصِب بما حدث في الواقع.

«سيُظهر الدليل»، قال لهيئة المحلفين، «وجود علاقة شخصية بين السيد سابيتش والسيدة بوليموس استمرت عدة أشهر، أقلّها سبعة أشهر أو ثمانية أشهر قبل الجريمة. كان السيد سابيتش في شقة السيدة بوليموس. لقد اتصلت به عبر الهاتف، واتصل بها. كانت علاقتهما شخصية». وتوقف قليلاً. «علاقة حميمة».

«ولكن كل شيء لم يكن يسير بشكل جيد في هذه العلاقة. لذا، من الواضح أن السيد سابيتش شعر بحزن شديد. كان السيد سابيتش كما يبدو غيوراً إلى حد كبير».

وتمايل لارين على مقعده وأشرق وجهه. فنيكو يقوم بما سبق للقاضي أن حذّره من القيام به، فهو يجادل بدلاً من أن يصف شهوده وأدلّته ببساطة. وبدأ القاضي المنزعج بالنظر من حين لآخر في اتجاه ساندي، وهي إشارة لقيام ساندي بالاعتراض، ولكن شتيرن لزم الهدوء

بسبب عدم رغبته في المقاطعة واعتماد أسلوب فظ. والأهمّ من ذلك أن نيكو يقول أموراً يعرف شتيرن أنه ليس باستطاعته أن يُثبتها.

«شعر السيد سابيتش بالغيرة. كان غيوراً لأن السيدة بوليموس تواعِد شخصاً آخر أيضاً. لقد دخلت السيدة بوليموس في علاقة جديدة، علاقة أغضبت السيد سابيتش كما يبدو». وكانت هناك وقفة رزينة أخرى. «علاقة مع المدعي العام ريموند هورغان».

لم يتم الإعلان عن هذا التفصيل من قَبل. فمما لا شك فيه أن نيكو تكتّم عن الأمر لحماية تحالفه الجديد مع ريموند، ولكنه لم يتمالك نفسه من الكشف عن ذلك. فهو ما زال نيكو، واستدار نحو صفوف الصحافة وأعلن الأمر على الملأ. وحدث اضطراب مسموع في قاعة المحكمة، وفقد لارين أخيراً رباطة جأشه لدى ذِكر اسم شريكه السابق.

«يا سيد ديلاي غارديا!»، صاح بصوت مدوٍّ، «لقد تم تحذيرك، يا سيدي. لا يجب أن تتخذ ملاحظاتُك طابع مرافعة ختامية. ستُلزم نفسك بعرض بَحت للوقائع وإلا أنهيتُ مرافعتك الافتتاحية. هل أوضحتُ وجهة نظري؟».

ووقف نيكو في مواجهة كرسي القضاء، وبدا متفاجئاً. واهتزّت تفاحة آدم الناتئة من عنقه في أثناء ابتلاعه لعابه.

«بالتأكيد»، قال.

شاعراً بالغيرة، دوّنتُ ملاحظة على قصاصة ورق ومرّرتها لكِمب. فنظراً للخيارَين المتمثّلين بعدم وجود دافع وبوجود دافع لم يكن بإمكانه إثباته بعد، اختار نيكو الخيار الثاني الذي قد يكون المخاطَرة الأكثر ذكاء. ولكنه سيبذل قُصارى جهده في النهاية للمبالَغة في الوقائع.

وانتقل شتيرن إلى المنبر. وعرض القاضي توقفاً مؤقتاً للمحاكمة، ولكن ساندي ابتسم بلطف وقال إنه مستعد للمتابعة إذا وافقت المحكمة. لم يكن ساندي راغباً بجَعل ملاحظات نيكو تؤثّر في هيئة المحلفين.

فدار حول المنبر، ووضع أحد مِرفقَيه عليه. كان يرتدي بذلة بنّية اللون ومصنوعة بناء على طلبه، وتتلاءم مع مظهره، فيما كانت ملامح

التساؤل مرتسمة على وجهه.

«كيف نجيب على ذلك»، سأل، «راستي سابيتش وأنا؟ ماذا يمكننا أن نقول عندما يخبركم السيد ديلاي غارديا عن بصمتَي إصبعي سابيتش ويُغفل البصمة الثالثة الأخرى؟ ماذا يمكننا أن نقول عندما يُظهر لكم الدليل ثغرات وافتراضات، وأقاويل وإساءات مبطَّنة؟ ماذا يمكننا أن نقول عندما يخضع موظف عام مميَّز للمحاكمة على أساس وجود دليل ظرفي لا يلائم – كما سترون – ذلك المعيار من الشك المنطقي؟».

«شك منطقي». واستدار، وخطا إلى الأمام، وتوقف على بُعد قدمَين من هيئة المحلفين. «يجب على الادعاء أن يُثبت التُّهمة من دون أي شك منطقي». وعاد إلى كل ما سمعوه في اليومَين الماضيَين من القاضي ليتل. في البداية، شبك شتيرن ذراعَيه قبل أن يقف أمام المحلفين وهو يبدو مطّلعاً ومقتدراً؛ الأمر الذي شكل أداة فعالة على ضوء أول قمع تعرّض له ديلاي من قِبَل لارين. واستخدم ساندي عبارة دليل ظرفي تكراراً، وذكر كلمتي شائعات وأقاويل، ومن ثم تحدّث عني.

«ومن هو راستي سابيتش؟ إنه ليس من أخبركم عنه السيد ديلاي غارديا ببساطة أنه مساعد أعلى في مكتب النائب العام. إنه المساعد الأعلى بين مجموعة صغيرة من أفضل المحامين المرافعين في هذه المقاطعة، وهذه الولاية. سيُظهر لكم الدليل ذلك. إنه متخرج من كلّية الحقوق بتفوّق، وعضو في لوو ريغيو، وكاتب محكمة كبير القضاة في المحكمة العليا. ولقد كرّس مهنته وحياته للخدمة العامة، ولإيقاف السلوك الإجرامي ومنعه ومعاقبة مرتكبيه، وليس» – وألقى شتيرن نظرة ازدراء في اتجاه المدعيَين العامَّين – «لارتكاب جريمة. أصغوا، سيداتي وسادتي، إلى أسماء بعض الأشخاص الذين دفعهم راستي سابيتش إلى المثول أمام العدالة، كما سيُظهر لكم الدليل. أصغوا لأنهم أشخاص ارتكبوا إساءات شهيرة جداً لدرجة أنكم ستتمكنون من معرفتهم بالرغم من عدم وجودكم المنتظم في دار القضاء هذه، وأنا على ثقة تامة بأنكم ستكونون ممتنّين مرة أخرى للعمل الذي قام به راستي سابيتش».

وأمضى خمس دقائق في التحدث عن النايت سينتس وقضايا أخرى بشكل مطـوَّل أكثـر مما ينبغي، ولكــن ديلاي غارديا لم يتمكن من الاعتراض بعد أن تحمّل ساندي مرافعته الافتتاحية بدون تذمّر.

«إنه ابن مهاجر، مقاتل يوغوسـلافي في سـبيل الحرّية اضـطهده النازيون. قدم والده إلى هنا عام 1946؛ إلى أرض الحرّية حيث يُفترض أن تتوقف الأعمال الوحشـية. ماذا يمكن أن يكون رأي إيفان سـابيتش اليوم؟».

لَشـعرتُ بالحـرَج لـو لـم أكن مُلزَماً بعدم إظهار أي شـيء. كنت جالساً، وأنا أنظر إلى الأمام. كان عليّ أن أبدو عازماً. فمن المؤسف أن شتيرن لم يضعني في أجواء هذا الجزء من المرافعة.

كانت طريقة شتيرن تأسر الانتباه إلى حد ما. فلهجته تُضفي التشويق على خُطبته، ويتعزز المضمون بسبب مراعاته للشكليات. وهو لا يتوقع ما سيقوم الدفاع بإظهاره، ويتجنب الإشارة إلى شهادتي، بل يركز على نقاط الضـعف: لا دليل، لا أثر لأي دليل مباشَـر على امتلاك راسـتي سابيتش سلاح الجريمة. ليس هناك ما يشير إلى مشاركة راستي سابيتش في أي عمل عنف.

«وما هو أسـاس هذه القضـية الظرفية؟ لقد أخبركم السـيد ديلاي غارديا أموراً كثيرة عن العلاقة بين السـيد سـابيتش والسـيدة بوليموس. ولكنه لم يخبركم، كما سيُثبت الدليل، أنهما كانا زميلَي عمل، وأنهما عملا معاً كمحاميَين مرافعَين، وليس كعاشقَين، على قضية بالغة الأهمية. فهو لـم يذكـر ذلـك. لقـد ترك هذا الأمر لي لأُطلعكم عليه. حسـناً، لقد قمتُ بذلك، وسيُظهر لكم الدليل أيضاً صحة أقوالي. يُفترض بكم الانتباه جيداً لما يُظهره الدليل وما لا يُظهره لكم في شأن العلاقة بين راستي سابيتش وكارولين بوليموس. انتبهوا جيداً في هذه القضـية الظرفية للأدلة التي يقدّمهـا السـيد ديـلاي غارديـا ليُثبـت التُهمة بعيداً عن أي شـك منطقي. أقول لكم بصـراحة إن الدليل لن يُظهر لكم ما قال السـيد ديلاي غارديا إنه سـيُظهره. لن يُظهر ذلك. وسـوف ترون أن هذه القضـية لن تشتمل

على وقائع، بل على افتراضات مستندة إلى افتراضات، وظنونٍ مستندة إلى ظنون –».

«يا سيد شتيرن»، قال لارين بلطف، «يبدو أنك تقع في الفخ نفسه الذي وقع فيه السيد ديلاي غارديا».

فالتفت ساندي، وانحنى بطريقة موجَزة.

«آسف، يا صاحب السيادة»، قال. «يبدو أنه ألهمني».

وأطلق الجميع ضحكة صغيرة، بمن فيهم القاضي، وعدد من أفراد هيئة المحلفين، على حساب ديلاي.

والتفت ساندي إلى هيئة المحلفين، وعلّق قائلاً كما لو أنه يتوجّه إلى نفسه: «يجب عليّ الامتناع عن الانجراف بعيداً في هذه القضية». ومن ثم زرع بذرته الأخيرة. لا تعهدات، فقط كلمات قليلة.

«حسناً، لا يستطيع أحد تمالك نفسه عن طرح سؤال عن السبب. في أثناء استماعكم إلى الدليل، اسألوا عن السبب. ليس عن سبب مقتل كارولين بوليموس لأنه للأسف أمر لا يمكن لأحد أن يعرفه بالاستناد إلى هذا الدليل، بل عن سبب جلوس راستي سابيتش هنا بعد اتهامه بشكل مغلوط. لماذا تم تقديم قضية ظرفية؛ قضية يُفترض بها أن تُثبت التُّهمة الموجَّهة إليه بعيداً عن أي شك منطقي، ولا يمكنها أن تُثبت ذلك؟».

وتوقف ساندي، وأمال رأسه. ربما كان يعرف الجواب، وربما لا. وتكلم بهدوء.

«ما هو السبب؟». كان ذلك آخر ما قاله.

27

مكتبة
t.me/t_pdf

لم يستطيعوا العثور على الكأس.

لقد اعترف نيكو بذلك حالما وصلتُ وشتيرن وكمب في صباح اليوم الثالث للمحاكمة. كان من المفترَض استدعاء أوّل الشهود في ذلك اليوم.

«كيف حدث ذلك؟»، سأل شتيرن.

«أعتذر»، قال نيكو. «أخبرني تومي أنه نسي أمره في بادئ الأمر. لقد نسيه حقاً. البحث جارٍ الآن في كل الأمكنة. سأتخلّى عنه، ولكنني أواجه مشكلة». ومشى ديلاي غارديا وشتيرن الهُوَينا معاً، وناقشا الأمر. وراقبهما مولتو بقلق واضح. لقد بدا متردداً بمغادرة مكانه إلى طاولة الادعاء ككلب معنَّف. في الواقع، لم يكن تومي يبدو بخير، بل بدا مُنهَكاً في مرحلة مبكّرة من المحاكمة، ويميل لون بشرته إلى صُفرة خفيفة، ويرتدي بذلة اليوم السابق، ولم يتسنَّ له الحصول على الراحة قطّ. لم أتفاجأ بعدم عودة مولتو إلى منزله في الليلة السابقة.

«كيف يمكنهم فقدان دليل مماثل؟»، سأل كِمب.

«إنه أمر يحدث على الدوام»، أجبت. فلدى مركز الشرطة للأدلة في ماك غراث هول أغراض غير مطالَب بها أكثر من الأغراض الموجودة في مكتب رَهن، بحيث تُرفع بطاقات التعريف، وتُقلَب الأرقام. لقد شرعتُ بعدد كبير من القضايا مع أدلة موضوعة في غير موضعها. لسوء الحظ، إن نيكو محقّ: سيتم التخلي عن الكأس كدليل.

واتفق شتيرن وديلاي غارديا على إشعار القاضي بهذا التطور قبل أن يجلس إلى كرسي القضاء، ونعود جميعاً إلى المكاتب. فمن شأن ذلك أن يجنّب نيكو توبيخاً علنياً. إن تنازُل شتيرن عن أمور مماثلة هو ما منحه شعبية في مكتب النائب العام. فلو عاد الأمر إلى محامين آخرين لطالبوا بإعلان الأمر على الملأ وأمام الصحافة.

انتظرنا كلنا للحظات في المكتب الخارجي للقاضي في حين أبقت كورين نظرها على ضوء الهاتف لمعرفة متى يُنهي القاضي المكالمة الهاتفية التي يُجريها. فكورين تتمتع بمظهر جليل، وذات صدر عارم. وكانت طبيعة علاقتها بلارين محطّ تساؤل منتظم في دار القضاء حتى الخريف السابق عندما تزوجت ضابط مراقبة يدعى بركينز. وطالما ذاع صيت لارين بأنه المفضَّل لدى السيدات. لقد حصل على الطلاق قبل عشرة أعوام، وسمعتُ مع مرور الوقت روايات عديدة عن تناوله الشراب في النوادي الليلية في جادة بايو بولفارد، حيث الجميلات؛ في الشارع الذي يشير إليه بعض المجرّبين بأنه شارع الأحلام.

«طلب دخولكم حالاً»، قالت لنا كورين بعد أن أنهت المكالمة الهاتفية الوجيزة مع القاضي. وتقدّمنا كِمب ونيكو ومولتو، وأراد شتيرن التشاور معي للحظات.

وعندما دخلنا، كان نيكو قد شرع بإطلاع القاضي على المشكلة. وكان وكِمب جالسَين على كرسيَّين أمام طاولة القاضي، فيما جلس مولتو على مسافة من الأريكة. وفي المكاتب، وهو المختلى الداخلي للقاضي، تأثير مميَّز. فأحد الجدران مغطى بالتقارير القضائية الصادرة عن الولاية، وللارين أيضاً جدار الاحترام الخاص به. وهناك صورة فوتوغرافية كبيرة للقاضي وريموند وسط عدد من الصور يظهر فيها القاضي مع سياسيين معظمهم ذوو بشرة سوداء.

«يا صاحب السيادة»، قال نيكو، «علمتُ للمرة الأولى من تومي في الليلة الماضية –».

«حسناً، أظن أن تومي قد أشار يوم أمس إلى أنك تملك الكأس، كما أظن أنه تغاضى عن هذه المسألة ببساطة. تومي، سأقول لك أمراً في الحال». كان القاضي واقفاً وراء طاولته، مرتدياً قميصاً أرجوانيّ اللون ذا ياقة بيضاء. وكان يقلّب صفحات كتبه والأوراق في أثناء إصغائه إلى نيكو، ولكنه استدار وأشار بإصبعه الغليظة إلى مولتو قائلاً: «لو تسببتَ لي بهذا النوع من الهراء في القضية التي كنت أنظر فيها في

السابق لوضعتك في السجن. لَقمتُ بذلك حقاً. لا تقُل لي شيئاً في حين أنك تعني شيئاً آخر. وأريد أن أقول هذا في الحال وأمام النائب العام. يا نيكو، تعرف أنه طالما كان هناك انسجام بيننا، ولكننا نواجه مشكلة الآن». وأمال القاضي رأسه الكبير في اتجاه مولتو.

«يا سيدي القاضي، أُدرك ذلك. أدركه حقاً. لذلك أبديتُ قلقي حالما عرفتُ بالمشكلة. أنا على ثقة تامة بأنه مجرّد سَهو».

ورمق لارين ديلاي غارديا بطرف عينَيه، ولكن نيكو لم يجفل. لقد أحسن صنيعاً. كانت يداه في حضنه ويبذل قُصارى جهده ليبدو متوسلاً. فهذا الموقف لا يبدو طبيعياً بالنسبة إليه، وفي الواقع، لقد نجح تذلّله أمام القاضي. كان لا بد من حدوث مُشادّة كلامية بين مولتو وبينه في الليلة السابقة، ولهذا السبب يبدو تومي في حالة سيّئة جداً.

لكن لارين لم يكن راغباً في تجاهل الأمر. فكالمعتاد، لقد فهم المعاني الضمنية لذلك. فالمدّعيان العامان يعِدان منذ أكثر من شهر بتقديم الكأس، وهما يعلمان أنه لا يمكنهما العثور عليها.

«أليس للأمر أهمية؟»، سأل القاضي، ونظر إلى شتيرن، طالباً منه الدعم. «كما تعلم يا نيكو، أنا لا أُصدر هذه الأوامر لمجرد إصدارها. يمكنك التصرف بدليلك كما يحلو لك. ولكن، في الواقع، من كان يملك هذه الكأس في المرة الأخيرة؟».

«كان هناك خلاف في الرأي يا سيدي القاضي، ولكننا نعتقد أنها مع الشرطة».

«إنه أمر طبيعي»، قال لارين، ونظر بعيداً باشمئزاز. «حسناً، أنت ترى ما الذي وصلنا إليه. لقد تحدّيتَ أمراً صادراً عن المحكمة. لم يحظَ الدفاع بفرصة الاستعداد كما ينبغي، وقمتَ بمرافعتك الافتتاحية، يا نيكو، التي لا بد من أنك أشرت فيها إلى هذا الدليل عدة مرات. حسناً، إنها مشكلتك الآن. عندما تعثر على الكأس، مفترِضاً أنك ستعثر عليها، فسنحدد آنذاك إن كانت تصلح كدليل. لننظر في هذه القضية».

ولكن مصاعب نيكو كانت أكثر تعقيداً من مجرد التعاطي مع قاضٍ

غاضب واحد. فلقد أُعدّت القضية ليمثل الشهود أمام المحكمة ويُدلوا بشهاداتهم. ويُفترض بالشاهد الأول وصف ساحة الجريمة، والإشارة إلى الكأس بناءً على ذلك.

«لن يحدث ذلك في قاعة محكمتي»، قال لارين. «لا، يا سيدي. لن نتحدث بعد الآن عن أي دليل لا يستطيع أحد العثور عليه».

وتكلّم شتيرن أخيراً، وأعلن أننا لا نعترض على متابعة ديلاي النظر في القضية كما خطط للأمر.

«يا صاحب السيادة، إذا فشل الادعاء في العثور على الكأس، فسوف نعترض على أي دليل إضافي متعلّق به». لقد عنى بالطبع بصمات الأصابع. «ولكن، في الوقت الحالي، لا نجد أي فائدة في التأجيل إذا سمحت يا صاحب السيادة».

فهز لارين كتفَيه. إنها قضية ساندي. هذا هو الموضوع الذي ناقشتُه وساندي في المكتب الخارجي للقاضي. فإذا اعترضنا، فسنسمح لنيكو بتبديل الترتيب الذي خطط له لمثول الشهود أمام المحكمة، ولكن ساندي يعتقد أننا نجني فائدة أكبر من الوضع القائم إذا تحدث الشاهد الأول عن الدليل المفقود. فمن الأفضل أن يبدوا مثل كيستون كوبس، كما قال شتيرن. فحالة الفوضى تترك انطباعاً سيّئاً في نفوس هيئة المحلفين. علاوةً على ذلك، لا تُلحق بي الكأس ضرراً كبيراً، وكما قلت لكِمب، سوف يعثر القيّمون على الأدلة التي تكون برعاية الشرطة على الكأس في نهاية المطاف؛ طالما فعلوا ذلك.

«أظن أنه يُفترض بك تزويد السيد شتيرن بترتيب الأدلة ليتمكن من الاطلاع عليه قبل العودة إلى قاعة المحكمة في المرة القادمة».

فقال مولتو: «لدينا الترتيب، يا سيدي القاضي. سنسلّمهم إيّاه في الحال». وبحث تومي في كومة الورق الموجودة في حضنه، وسلّم ورقة لكِمب.

«لنسجّل هذا الأمر»، قال لارين. إنها عقوبة نيكو. عليه أن يشرح سبب هذه الفوضى على الملأ بالرغم من كل شيء.

وبينما كان المحامون مجتمعين أمام كرسي القضاء وهم يكررون أمام مُراسِلة المحكمة ما جرى في أثناء الاجتماع في المكاتب، تفحّصتُ الترتيب الجديد للأدلـة. كنـت متلهّفـاً لمعرفة الوقت الذي سـيقوم فيه ليبرانـزر بـالإدلاء بشـهادته. فكلمـا أبكر بذلك، كلمـا تمكنّا من معاودة البحث عن ليون من دون إبطاء. كنت قد حاولتُ حمل التحرّي الخاص الذي اختاره ساندي على إجراء المزيد من البحث، ولكنه ادعى أنه ليس هنـاك مـا يمكـن القيام به. ومن جهة ثانية، لا تحمل اللائحة أنباءً جيدة. فشـهادة ليب مُدرَجة في الجزء الأخير من القضـية. لذا، سـيتوجّب عليّ الانتظار.

وحتى في غمرة إحباطي، أدركت أن تومي ونيكو قد أعدّا قضيتهما بعناية. فهما سيبدآن بمسرح الجريمة ومجموعة الأدلة المادية، ومن ثم سيشـرعان بإثبات سـبب كوني القاتل. سيعرضان في بادئ الأمر للدليل المتوافر لديهما عن علاقتي بكارولين مهما كان ملتبسـاً، وسـينتقلان بعد ذلك إلى إحالتي المُريبة إلى التحقيق، وسيقدّمان أخيراً مختلف الأدلة التي تُثبت وجودي في سـاحة الجريمة: بصـمتي إصـبعيّ، الألياف، سجلات الهاتـف، خادمـة نيرنـغ، نتائج اختبار الدم. وسيشـهد بينلس كوماغاي أخيراً، ويقدّم - كما أفترض - رأيه كخبير في شأن كيفية قيامي بذلك.

على منصة القضاء، كان لارين لا يزال يتحدث إلى نيكو.

«وسيُعلم المدعيان العامان الدفاع بالأمر فوراً حين يتم العثور على الدليل. أليس كذلك؟».

فقطع نيكو وعداً بذلك.

بعد تسوية المسألة، أُدخلت هيئة المحلفين، وأعلن نيكو اسم الشاهد الأول لدى الادعاء، وهو المفتش هارولد غرير. فدخل من الممر ووقف أمام لارين لأداء القَسَم.

وحالما جلس غرير إلى منصـة الشـهود، اتضـح لنا جميعاً سـبب احتفاظ نيكو بترتيب الأدلة المحدَّد مُسـبَقاً. فالمحلفون يميلون إلى تذكر

الشاهد الأول لأسباب جليّة. وغرير أسود، وحسن الكلام، وضخم البنية، ويترك انطباعاً إيجابياً في النفوس. كما أنّه هادئ ومنهجي في التعبير عن أفكاره. ومع الكأس أو من دونها، فهو مثال للكفاءة. والقسم زاخر برجال شرطة مماثلين لغرير؛ رجال ونساء يتمتعون بحاصل ذكاء أساتذة الكلّيات، وانتسبوا إلى الشرطة لأنّ ذلك أفضل خيار متوافر لهم.

كان مولتو يطرح الأسئلة، وبدا مضطرباً ولكنه أعدّ الاستجواب بشكل جيد.

«وأين كانت الجثة؟».

كان غرير الشرطي الثالث في مسرح الجريمة. لقد تم اكتشاف جثة كارولين قُرابة الساعة التاسعة والنصف صباحاً. وأغفلت الضحية اجتماعاً كان مُقرّراً عند الساعة الثامنة صباحاً، واستدعاءً للمثول أمام المحكمة عند التاسعة، فاتصلت سكرتيرتها بالمشرف على الفور. وكل ما قام به - حسبما قال لي قبل أشهر - هو فتح الباب وإلقاء نظرة على أرجاء المكان، والتيقّن من حاجته إلى رجال شرطة. واتصل أفراد شرطة تلك المنطقة بغرير.

ووصف غرير ما شاهده، وكيفية قيام تقنيّي رفع الأدلة بعملهم وفقاً لتوجيهاته. وتعرّف غرير إلى علبة بلاستيكية مُحكَمة الإغلاق تحتوي على الألياف التي رُفعت عن جثة كارولين، وعلبة أكبر حجماً تحتوي على تنورتها التي رُفع عنها المزيد من ألياف زوراك في. ومرّر وتومي أصابعهما على الكأس. ووصف غرير كيفية العثور عليها على المشرب، وكيف أنه راقب تقنيّي رفع الأدلة لدى قيامهم بوضعها في كيس وإغلاقه بإحكام.

«وأين الكأس حالياً؟».

«واجهنا مشكلة صغيرة في تحديد مكان وجودها. يُفترض تسليمها إلى غرفة الأدلة التابعة للشرطة».

من ثم، طرح مولتو مسألة حجاب منع الحمل الذي أُزيل من مكانه. فقال غرير إنه لم يعثر على أي وسيلة مانعة للحمل بعد إجراء بحث دقيق

للشقة. بعد ذلك، بلغ مولتو الذروة بتقديمه لائحة لهيئة المحلفين بكل الأدلة التي اكتشفتها الشرطة.

«استناداً إلى خبرتك كتحرّ جنائي طوال تسع سنوات، وإلى مظهر ساحة الجريمة، هل لديك أي رأي حول ما حدث هناك؟»، سأل مولتو.

وتقدّم شتيرن باعتراضه الأول أمام هيئة المحلفين.

«يا صاحب السيادة»، قال شتيرن، «إنه أمر تخميني. لا يمكن اعتبار ذلك رأي خبير. السيد مولتو يسأل عن أمر حَدْسي».

ومسّد لارين خدَّيه بيده الكبيرة، ولكنه هز رأسه قائلاً: «اعتراض مرفوض».

وكرر مولتو السؤال.

«بالاستناد إلى وضعية الجثة»، أجاب غرير، «وطريقة تقييدها، وعلامات الهيجان، والنافذة المفتوحة فوق مخرج الحريق، والنظرة الأولية إلى مسرح الجريمة، كان رأيي أن السيدة بوليموس قد قُتلت في أثناء اعتداء جنسي أو نتيجة لهذا الاعتداء».

«أتقصد الاغتصاب؟»، سأل مولتو. وكان سؤاله جوابيًّا، ولا يُسمح به عادة في أثناء استجواب مباشَر، ولكنه غير مستنكَر في ظل تلك الظروف.

«أجل»، قال غرير.

«وهل كان مصوّرو الشرطة موجودين في مسرح الجريمة؟».

«أجل».

«ماذا كانوا يفعلون؟».

«طلبتُ منهم التقاط عدد من الصور لمسرح الجريمة، وقاموا بذلك».

«بحضورك؟».

من عربة النقل التي تحتوي على الأدلة والتي أدخلها المدعيان العامان إلى المحكمة في الصباح، أخذ مولتو مجموعة الصور التي نظرتُ إليها قبل أربعة أشهر في مكتبي، وعرض كلاً منها على ساندي قبل

أن يُريها لغرير. لقد أعدّ مولتو استجوابه بحِنكة. عادة، يحدّ القاضي من استخدام الادعاء الصور الفوتوغرافية في قضية قتل. فالأمر مُريع ومؤذٍ. ولكن، من خلال التركيز على المظاهر التي من المتوقع أن يجادل الادعاء قائلاً إنها واكبت عملية القتل، جرّدنا تومي من الأسس العادية للاعتراض. فجلسنا، محاولين الإيحاء بتفوّقنا على الادعاء، في حين وصف غرير كل الصور الشنيعة، معتبراً أنها تعكس حالة مسرح الجريمة بدقة. وعندما قدّمها مولتو، اقترب ساندي من كرسي القضاء وطلب من القاضي أن ينظر إليها بنفسه.

«يمكننا الاكتفاء بصورتَين فقط للجثة»، قال لارين. وألغى صورتَين أخريَين، ولكنه سمح لمولتو بتمرير الصورتين اللتين تمت الموافقة عليهما للمحلفين عند نهاية استجواب غرير. لم أكن أجرؤ على النظر إلى الصور في غالب الأحيان، ولكنني شعرت بتعرّض المحلفين للصدمة بسبب الدماء وجثة كارولين المتلوّية، وأدركت أن المدعيَين العامَّين قد نجحا في التأثير بهم كما أملا. ولم تبتسم لي المدرّسة مجدداً لمدة قصيرة من الزمن.

«الدفاع»، قال القاضي.

«بعض الأمور فقط»، قال ساندي. وابتسم لغرير قليلاً. لن نتمكن من الاعتراض على أقوال هذا الشاهد. «لقد أشرتَ إلى كأس، أيها المفتش. أين هي؟»، وبدأ شتيرن بالنظر إلى الأشياء المعروضة التي تعرّف إليها غرير.

«إنها غير موجودة».

«آسف. أظن أنك تقدّمت بشهادة في شأنها».

«لقد قمت بذلك».

«آه». وبدا ساندي قلقاً. «ولكنك لا تملكها؟».

«لا، يا سيدي».

«متى رأيتها للمرة الأخيرة؟».

«في مسرح الجريمة».

«ألم ترَها مذاك الحين؟».

«لا، يا سيدي».

«هل حاولتَ العثور عليها؟».

فابتسم غرير للمرة الأولى ربما منذ جلوسه على منصة الشهود.

«أجل، يا سيدي».

«أرى من تعابير وجهك أنك بذلت بعض الجهد للعثور عليها؟».

«أجل، يا سيدي».

«وما زال من غير الممكن العثور على الكأس؟».

«لا، يا سيدي».

«ومن هو الشخص الآخر الذي قام بتفحّصها؟».

«لا أعرف. لقد حصل السيد مولتو على إيصالات الأدلة».

«آه». والتفت ساندي في اتجاه تومي الذي لم يكن يبدو شديد الاستمتاع بالأمر. فالدور الذي يلعبه ساندي هو ما اعتبره الشاهد فكاهياً، ولكن هيئة المحلفين لم تدرك بالطبع أن هذا الأمر هو مصدر تلك الابتسامة العريضة. لا بد من أن يبدو تومي متكبّراً بالنسبة إليهم.

«هل يملكها السيد مولتو؟».

«أجل، يا سيدي».

«في العادة، نحصل على الدليل أيضاً؟».

«أجل، يا سيدي. حصل المدعي العام على الدليل، وعلى بطاقات التعريف الأصلية».

«إذاً، فالسيد مولتو يملك بطاقة التعريف ولا يملك الكأس؟».

«هذا صحيح».

والتفت ساندي إلى مولتو. وفي أثناء نظره إليه قال: «شكراً لك، أيها المفتش». وبدا أنه يقلّب الأمر في ذهنه قبل أن ينظر إلى الشاهد ثانيةً وجهاً لوجه.

وركز شتيرن لمدة دقائق قليلة على التفاصيل المرتبطة بمجموعة الأدلة المتنوعة. وعندما وصل إلى حجاب منع الحمل، ركّز عليه بشكل

واضح.

«لم تكن وسيلة منع الحمل الغرض الوحيد الذي أخفقتم في العثور عليه، أليس كذلك، أيها المفتش؟».

وبدا غرير منزعجاً. فهو لم يعثر أيضاً على ألماسة الأمل أو المنديل المخرَّم المفقود للخالة تيلي. لم يتمكن من الإجابة عن السؤال.

«حسناً، أيها المفتش، لقد أجريتَ مع رجال الشرطة الخاضعين لإمرتك بحثاً دقيقاً للشقة، ألم تُجروا البحث؟».

«لقد أجريناه بالتأكيد».

«ومع ذلك، يا سيدي، أخفقتم في العثور على حجاب منع الحمل وأي مرهم أو هلام أو مادة أخرى يمكن توقُّع استخدامها مع هذا الحجاب؛ أليس هذا صحيحاً؟».

وتردد غرير. لم يسبق له أن فكر بذلك من قَبل.

«صحيح»، قال أخيراً.

والتفت نيكو إلى تومي على الفور. كانا جالسَين على بُعد خمسة عشر قدماً أمامي، في مواجهة هيئة المحلفين، ولم تتسنَّ لي من قَبل فرصة مراقبة خصميّ. فمن طاولة المدعي العام، نرى المحلفين مباشَرةً. كان الأمر أشبه بقيام نيكو بالهمس: أين الغرض من هذه الأسئلة؟

كان شتيرن على وشك الجلوس عندما طلبتُ منه إحضار الصور. فرمقني ساندي بنظرة موبِّخة. وأومأتُ إليه ثانيةً فسلَّمني الرزمة. وعثرتُ أخيراً على صورة المشرب وأوضحتُ وجهة نظري لشتيرن. فانحنى قليلاً في اتجاهي قبل العودة إلى الشاهد.

«لقد تعرّفتَ إلى هذه الصورة، أيها المفتش غرير، الغرض رقم 6-جي، أليس كذلك؟».

«أجل، يا سيدي».

«إنها تُظهر المشرب حيث عثرتَ على الكأس؟».

«إنها تُظهره».

«أخبرني، يا سيدي - قد يكون هذا الأمر أسهل لو كنا نملك الكأس،

ولكن هل يمكنك تذكّرها بشكل جيد؟».

«أعتقد ذلك. إنها مماثلة لتلك الموجودة في الصورة».

«أتماثلها إلى هذا الحد؟! هل الكأس التي حصلتَ عليها هي إحدى كؤوس هذه المجموعة الموضوعة على المنشفة؟». وأدار ساندي الصورة الفوتوغرافية كي يتمكن غرير والمحلفون من رؤية ما يشير إليه.

«هذا صحيح».

«عُدّ الكؤوس. هلا قمتَ بذلك».

ووضع غرير إصبعه على الصورة وقام بعدّها ببطء.

«إنها اثنتا عشرة كأساً»، قال.

«اثنتا عشرة»، كرر شتيرن. «إذاً، فهي ثلاث عشرة كأساً مع الكأس المفقودة؟».

لقد علم غرير بأن الأمر غريب، وهز رأسه. «أظن ذلك».

«مجموعة غريبة، أليس كذلك؟».

فاعترض مولتو، ولكن غرير أجاب: «جداً»، قبل أن يتمكن لارين من إصدار قرار في شأن الاعتراض.

«في الواقع»، قال لي ساندي عندما حان وقت استراحة الغداء، «أنا أقدّر أفكارك حق قدرها، يا راستي، ولكن يجب عليك أن تشاطرني إيّاها قبل اللحظة الأخيرة. قد يكون هذا التفصيل هاماً».

ونظرتُ إلى شتيرن في أثناء خروجنا من المحكمة.

«لقد لاحظتُ ذلك للتوّ»، قلت له.

* * *

شهد المدعيان العامان فترةَ بعد ظهرٍ فاشلة. لم يسبق لي أن نظرت في قضية لا يتوافر فيها دليل دامغ. لقد اعتدت الحديث عن السير في وادي الموت. بالنسبة إلى نيكو، وكما نعلم منذ مدة طويلة، هو يحاول أن يُثبت ما جرى بين كارولين وبيني. ومن الواضح تماماً أنه يأمل تقديم دليل لهيئة المحلفين يكفي للإيحاء لهم باستنتاج مناسب. ويتمثل المخطط الذي وضعه مع مولتو بتحقيق انطلاقة قوية مع غرير، وتحقيق صدمة

في هذا الجزء، ومن ثم الإسراع إلى المنزل مطمئنّي البال بسبب وجود دليل مادي يعزز صدقيّتهما. إنها استراتيجية منطقية. ولكن كل المحامين يعودون بعد الغداء، مُدركين أن هذه الساعات ملك للدفاع.

والشاهدة التالية للولاية هي أوجينيا مارتينيز، سكرتيرتي السابقة. ومن الواضح أنها اعتبرت الفرصة سانحة لها. فلقد توجهت إلى المنصة معتمرة قبّعة واسعة ومترهّلة، وواضعة قرطين طويلين متدليين. وعرّف نيكو بشهادتها الوجيزة، وشهدت أوجينيا بأنها موظفة في مكتب النائب العام منذ خمسة عشر عاماً، وبأنها عملت معي طوال عامين انتهيا في شهر نيسان/أبريل السابق. وذات يوم في شهر أيلول/سبتمبر أو تشرين الأول/أكتوبر السابقِ، وفي أثناء إجابتي على مكالمة هاتفية، دخلت أوجينيا على الخط خطأً وسمعت بضع كلمات، وعرفت صوت السيدة بوليموس وصوتي. كنت أتحدث عن التقاء السيدة بوليموس في منزلها.

"وكيف بدَوا لك؟"، سأل نيكو.

"اعتراض على بدَوا»، قال شتيرن. «تدعو الكلمة الشاهدة إلى وصف الشخصية».

«الاعتراض مقبول».

فنظر نيكو إلى لارين قائلاً: «سيدي القاضي، يمكنها أن تشهد بما سمعتْه».

«بما سمعتْه من دون إبداء أي رأي». وخاطب لارين أوجينيا. «يا سيدة مارتينيز، لا يمكنك أن تخبرينا بما فكرت فيه عندما سمعتِ الحوار، بل فقط الكلمات واللهجة».

«كيف كانت لهجتهما؟»، سأل نيكو.

لم تكن أوجينيا مستعدة للسؤال.

«لطيفة إلى حد ما»، أجابت أخيراً.

فاعترض شتيرن، ولكن الجواب لم يكن مؤذياً ليستحق شطبه من محضر الجلسة. وحرّك لارين يده وقال إنه بالإمكان الاحتفاظ بالإجابة.

كان نيكو يواجه وقتاً عصيباً. مرة أخرى، لفتتني مدى صعوبة

الوضع بالنسبة إليه.

«هل بدَوا على علاقة حميمة؟»، سأل.

«اعتراض!»، صاح شتيرن ووقف. فالسؤال جوابي وموحٍ بشكل واضح.

وأضعف لارين ثانيةً صدقية نيكو أمام هيئة المحلفين. السؤال غير ملائم بشكل واضح، قال لارين. إنه غير صالح، ويُطلب من هيئة المحلفين تجاهله. كان نيكو يحاول الإيحاء لأوجينيا بطريقة ما.

فسأل: «هل يمكنك إعطاء وصف إضافي لطريقة حديثهما معاً؟».

واعترض شتيرن مجدداً وبقوة. لقد طُرح السؤال من قَبل وأُجيب عنه.

فحدّق لارين إلى الأسفل قائلاً: «يا سيد ديلاي غارديا، أقترح عليك الانتقال إلى موضوع آخر».

فجأةً، حصل نيكو على المساعدة من مصدر غير منتظَر.

«قال يا عزيزتي»، قالت أوجينيا طَوعاً.

ونظر إليها نيكو مصعوقاً.

«هذا ما قاله. قال إنه سيقصد منزلها عند الساعة الثامنة، ودعاها يا عزيزتي».

للمرة الأولى منذ بدء المحاكمة، فقدتُ رباطة جأشي أمام هيئة المحلفين، وأصدرتُ صوتاً. كنت واثقاً من ظهور الغضب في نظراتي. فوضع كِمب يده على يدي.

«يا عزيزتي!»، همستُ. «حبًّا بالله».

ونظر شتيرن إليّ بصرامة من فوق كتفه.

وفجأةً، جلس نيكو.

«الدفاع».

وتقدّم ساندي في اتجاه أوجينيا. لقد شرع بالكلام حالما وقف على قدمَيه، ومن دون أن ينتظر وصوله إلى المنصة، واحتفظ بنظرته الموبِّخة نفسها التي رمقني بها منذ لحظات.

«لحساب من تعملين الآن في مكتب النائب العام، يا سيدة مارتينيز؟».

«أعمل؟».

«لمن تقومين بالطبع على الآلة الكاتبة؟ وعلى اتصالات من تُجيبين؟».

«السيد مولتو».

«هذا السيد؟ المدعي العام عند الطاولة؟». فأجابت أوجينيا بالإيجاب. «عندما أُجبر السيد سابيتش على المغادرة بسبب هذا التحقيق، تسلّم السيد مولتو منصب السيد سابيتش، أليس كذلك؟».

«أجل، يا سيدي».

«وهذا المنصب يمنح شاغله السلطة والنفوذ في مكتب النائب العام، أليس كذلك؟».

«يكون الرجل الثاني»، أجابت أوجينيا.

«وكان السيد مولتو مسؤولاً عن التحقيق الذي سمح له بشغل منصب السيد سابيتش، أليس كذلك؟».

«اعتراض!».

«سيدي القاضي»، قال ساندي، «لديّ الحق بإظهار انحياز حاصل. هذه المرأة تشهد أمام مستخدِمها. فإدراكها لدوافعه أمر هام».

وابتسم لارين. إن شتيرن يسعى إلى إظهار ما هو أكثر من ذلك، ولكنه رفض الاعتراض.

وأعادت مراسلة المحكمة طرح السؤال بصيغة مختلفة، فأجابت أوجينيا بالإيجاب. في مرافعته الافتتاحية، أشار ساندي قليلاً إلى الانتخابات وتغيير الإدارة. إنها المحاولة الأولى لإظهار المنافسة على السلطة، وإجابةٌ جزئية عن السؤال الذي طرحه على هيئة المحلفين في مرافعتِه حول سبب تسلّم المدعيَين العامَّين قضية لا تتوافر فيها أدلة كافية. لم أتفاجأ قطّ من إمكانية القيام بذلك من خلال التركيز على مولتو بدلاً من ديلاي غارديا.

«الآن، في سياق استجواب السيد سابيتش، هل طلب منك السيد مولتو التحدث إلى شرطي في شأن ما تتذكرينه عن علاقة السيد سابيتش بالسيدة بوليموس؟».

«سيدي؟».

«ألم تتحدثي في شهر أيار/مايو إلى ضابط الشرطة لندنينغ؟». كان توم يقف عند باب المحكمة، فأشار إليه ساندي.

«أجل، يا سيدي».

«وكنت تعلمين أن التحقيق هام جداً، ولا سيما بالنسبة إلى رئيسك، السيد مولتو، ألم تكوني على علم بذلك؟».

«لقد بدا لي هاماً».

«ومع ذلك، يا سيدتي، وعندما سُئلتِ عن علاقة السيد سابيتش بالسيدة بوليموس، لم تخبري ضابط الشرطة لندنينغ قطّ بأنك سمعت السيد سابيتش يدعو السيدة بوليموس يا عزيزتي، أليس كذلك؟»، قال ساندي ذلك وهو يشدّد على كلامه. لقد بدا غاضباً من شهادة الزور. كان تقرير لندنينغ في يده.

وأدركت أوجينيا فجأةً أنها وقعت في الفخ، وارتسمت على وجهها نظرة مترددة وانحنت قليلاً. لم تكن تملك أي فكرة ربما عن أن الدفاع يعرف ما قالته من قبل.

«لا، يا سيدي»، قالت.

«أنتِ لم تخبري الضابط لندنينغ حينها بأنك تذكرت قيام السيد سابيتش باستخدام كلمة تَحبّب، أليس كذلك، يا سيدتي؟».

«لا، يا سيدي». كانت تُطيل التفكير؛ لقد رأيت هذه النظرة مئات المرات. «لم أقل أي شيء مماثل».

«ليس للسيد لندنينغ؟».

«إطلاقاً».

لقد أدرك ساندي، قبلي، ما الذي ترمي إليه أوجينيا. إنها تسعى للخروج من المأزق. فتقدّم بضع خطى في اتجاهها.

«ألم تشهدي منذ خمس دقائق، يا سيدتي، بأن السيد سابيتش قد دعا السيدة بوليموس يا عزيزتي؟».

وقوّمت أوجينيا جلستها في منصة الشهود بحماسة وفخر.

«مستحيل»، قالت بصوت مرتفع. وتبادل ثلاثة أو أربعة محلفين النظرات، وأطلق أحدهم، وهو الرجل الذي يتعلم إعداد البرغر، ضحكة مرتفعة كما لو أنه أصيب بحازوقة.

وحدّق ساندي بأوجينيا. «فهمتُ»، قال أخيراً. «حسناً، أخبريني يا سيدة مارتينيز، عندما تجيبين على اتصالات السيد مولتو في هذه الأيام، هل تُصغين إلى محادثاته؟».

«لا»، قالت.

«إذاً، لم تكوني تصغين للحظات إضافية بهدف معرفة هوية الشخص على الطرف الآخر من الخط، أليس كذلك؟».

إنها بالطبع مشكلة أوجينيا. فمن المحتمل أن تكون قد سمعت أموراً على الهاتف بين كارولين وبيني أكثر مما باحت به. فهي لا تستطيع الإقرار باستراق السمع حتى وإن كان النائب العام ومساعده الأعلى من ينظران في القضية. وابتسم الحظ لنا بسرعة، وأدركت أوجينيا، البيروقراطية النَهِمة، أنّه من شأن إقرار مماثل أن يحرمها من منصبها الرسمي في الخدمة المدنية.

«ما سمعتِهِ، هل سمعته خلال لحظة؟».

«هذا كل شيء».

«أليس هناك المزيد؟».

«لا، يا سيدي».

«وتقولين لنا لهجة لطيفة إلى حد ما؟ ألم تكن تلك كلماتك؟».

«هذا ما قلتُه، أجل، يا سيدي».

وتقدّم شتيرن ووقف بجانب أوجينيا. كانت تزن مئتَي رطل تقريباً، وملامح وجهها قاسية، ولم تكن تبدو بخير بالرغم من ارتدائها أفخر الملابس.

«أتتبنّين هذا الجواب»، سأل، «على أساس خبرتك في هذه الأمور؟».

كان وجه ساندي خالياً من أي تعبير، ولكن بعض المحلفين أدركوا ما يرمي إليه. فنظروا إلى الأسفل وابتسموا. وفهمت أوجينيا بالتأكيد ما يجري. فعيون المجرمين لا تزداد قساوة.

لم يطلب شتيرن منها الإجابة.

«وحدثت هذه المحادثة عن اللقاء في شقة السيدة بوليموس في أيلول/سبتمبر الماضي حسبما قلتِ، أليس كذلك؟».

«أجل، يا سيدي».

«هل تتذكرين قيام السيد سابيتش والسيدة بوليموس بالنظر معاً في قضية مشتركة كمدعيَين عامَّين مساعدَين في أيلول/سبتمبر الماضي؟».

فتوقفت أوجينيا. «آ – ه»، قالت.

«هل تتذكرين قضية ماك غافن؟ الولد، الفتى الصغير الذي تعرّض لتعذيب شنيع من قِبَل والدته، ووُضع رأسه في مِلزمة وأُحرق شَرجه بالسجائر؟ ألا تتذكرين قيام السيد سابيتش بالعمل على إدانة تلك –» وارتسمت على وجه شتيرن نظرة من يبحث عن كلمة قبل أن يُنهي جملته بقوله: «المرأة؟».

«آه، تلك القضية»، قالت. «أتذكّرها».

«قضية ماك غافن، أظن أنها لم تَرِد في محادثاتك مع السيد مولتو؟».

«اعتراض».

ففكّر لارين مليًّا.

«سأسحب ما قلته»، قال شتيرن. لقد أوضح وجهة نظره لهيئة المحلفين. لم يكن الحظ يحالف المدعي العام مولتو كما يبدو حتى تلك اللحظة. فلديه بطاقة التعريف للكأس المفقودة، وأوحى لأوجينيا بالتقدم بشهادة زور.

«يا سيدة مارتينيز، هل تتذكرين مدى ارتفاع درجة الحرارة في

مقاطعة كيندل العام الماضي في الأيام القريبة من عيد العمال؟».

فقطّبت حاجبيَها. لقد تلقّت ما يكفي من الضغوطات لدرجة أنها أصبحت مستعدة للتعاون.

«فاقت الحرارة المئة درجة لمدة يومين».

«هذا صحيح»، قال شتيرن. «هل مكتب النائب العام مزوَّد بمكيّف للهواء؟».

فنخرت أوجينيا بأنفها، وقالت: «إذا صدّقتَ ما يقولونه».

وساد الضحك في قاعة المحكمة. القاضي، هيئة المحلفين، المشاهدون. حتى إن شتيرن ابتسم أخيراً.

«هل أفهم من كلامك أنك تحاولين المغادرة حالما ينتهي عملك عندما يكون الحرّ على تلك الحال؟».

«لقد فهمتَ ذلك جيّداً».

«ولكن المدعين العامين لا يغادرون في نهاية اليوم عندما يكونون وسط محاكمة، أليس كذلك؟».

ونظرتْ إلى ساندي على نحو مثير للشك.

«أليس أمراً عاديًا، وفقاً لخبرتك، أن يقوم مساعد النائب العام بالإعداد لمحاكمة اليوم التالي في الأمسيات؟»، سأل شتيرن.

«آه، أجل».

«الآن، يا سيدتي، ألا تفضلين العمل في أجواء مكيَّفة بدلاً من العمل في مكتب النائب العام في مساء حار جداً؟».

«اعتراض»، قال نيكو. لا علاقة للسؤال بموضوع البحث إلى حد كبير.

«سأسمح بالسؤال».

«بالتأكيد».

«أنت لا تعلمين أن شقة السيدة بوليموس مزوَّدة بمكيّف هواء، كما أعتقد؟».

«لا، يا سيدي».

«ولكنك تعلمين جيداً أن ضـفة النهر أقرب إلى مكتب النائب العام من منزل السيد سابيتش في نيرنغ؟».

«أجل، يا سيدي».

أيًّا تكن الفكرة التي كوّنتها هيئة المحلفين عن أوجينيا، فهي قد لا تُقارَن برأيهم بالسيدة كرابوتنيك التي استُدعيت للشهادة. لقد أمضت الدقائق القليلة في منصة الشهود بتهكم بَحت. فالسيدة كرابوتنيك أرملة، ولا تُفصح عن سبب وفاة السيد كرابوتنيك، ولكن من الصعب التصديق أن السيدة كرابوتنيك لم تكن السبب إلى حد ما. كانت عارمة الصدر وتُسرف في وضع مستحضرات التجميل. شعرها يميل إلى الحُمرة وينتصب كشُجَيرة، وكانت تضع كمية وافرة من الحليّ. إنها صعبة المراس، وترفض الإجابة عن الأسئلة، وتسرد قصصاً. وشرحت السيدة كرابوتنيك قائلةً إن السيد كرابوتنيك الراحل كان متعهّداً. لقد اشترى مبنى سكنياً على ضفة النهر عندما «كان الحيّ لا يزال في حالة من الفوضى، مع شاحنات ونفايات»، كما قالت السيدة كرابوتنيك. وأومأت لهيئة المحلفين عندما قالت ذلك، واثقةً من أنهم يعرفون ما تعنيه. لقد جدد السيد كرابوتنيك الملكية بنفسه.

«كان غير عملي. هل تفهمون ما أقوله؟ كان يرى أموراً. ذلك المكان – أتعلمون ما الذي كان في داخله؟ إطارات، أنا لا أمازح، يا سيد ديوغاردي. إطارات. لا يمكنكم تحمّل الرائحة، حقاً. لستُ سريعة الاشمئزاز، ومن المُحرج قول ذلك، ولكنه اصطحبني إلى هناك ذات مرة وأُقسم أنني شعرت بالغثيان».

«يا سيدتي»، قال نيكو، ولم تكن تلك هي المرة الأولى.

«كان سمكرياً. من كان يظن أنه يعرف بالعقارات؟ أليس كذلك، يا سيد ديوغاردي؟»، ونظرت شزَراً. «هذا هو اسمك، أليس كذلك؟ ديوغاردي؟».

«ديلاي غارديا»، قال نيكو، والتفت إلى مولتو بيأس، طلَباً للمساعدة. بعد قليل، وصلت السيدة كرابوتنيك في سردها إلى كارولين. كانت

مســتأجرة لديها في بادئ الأمر عندما انتقلت منذ عقد من الزمن. وبعد عملية التجديد، أصــبح المبنى ملكية مشــترَكة، واشترت كارولين شقتها. وفي أثناء الإصغاء إلى السيدة كرابوتنيك، دوّنتُ ملاحظة لكِمب: من أين تحصل ضابطة مراقبة ترتاد كليّة الحقوق في الليل على المال لاستئجار شقة على ضفة النهر؟ فأومأ كِمب برأسه. لقد فكر بالأمر نفسه. فطوال عقد من الزمن تقريباً، عاشت كارولين في الطابق الثاني في حين كانت السيدة كرابوتنيك تقيم في الطابق الأول. وأرسلت كارولين زهوراً عندما توفّي السيد كرابوتنيك، ولا يُعتبر تصرّفها مناسباً.

كان نيكو متلهّفاً لإخراج الســيدة كرابوتنيك من هناك؛ إذ لا يمكن التحكــم بهــا. ولم يتكبد عناء طرح ســؤاله عــن ليلة مقتل كارولين. فكل ما تكشف عنه السيدة كرابوتنيك في هذا الموضوع يكون مدعاةً للتشكيك بسبب إخفاقاتها السابقة.

فسألها ببساطة: «هل ترين في قاعة المحكمة، يا سيدة كرابوتنيك، شخصاً رأيتِه في جوار شقة السيدة بوليموس؟».

«حســناً، أعرف أنني رأيت ذلك الشــخص»، قالت. ومدّت يديها المليئتين بالأساور في اتجاه القاضي.

فغطى لارين وجهه بكلتَي يدَيه. وضعظ نيكو على أنفه. ووُضع حد للضــحك في الأقســام المخصصــة للمشاهدين؛ ولكنه ما لبث أن ازداد بعد لحظات. وعِلماً منها بأنها أفسدت كل شيء، نظرت حولها بشكل يائس، وأشارت إلى تومي مولتو الجالس إلى طاولة المدعي العام.

«هو أيضاً»، قالت.

وزاد مولتو الأمور ســوءاً حين اســتدار إلى الوراء ليرى إن كان هناك شخص ما يقف خلفه.

وانفجر المحلفون ضحكاً.

فحرك نيكو عربة الأدلة إلى الوراء، وتوجّه نحو السيدة كرابوتنيك حاملاً الصــورة التي عرضــت عليها ســابقاً. فنظرت إليها، وألقت نظرة سريعة في اتجاهي، وهزت كتفَيها. من يعلم؟

«هل تتذكرين قيامك بتحديد هوية الشخص الذي يظهر في الصورة الفوتوغرافية رقم 4؟»، سأل نيكو.

فكررت ما قالته بصوت مرتفع: «من يعلم؟». وعندما أغمض نيكو عينَيه من شدة الإحباط أضافت: «آه، حسناً. قلتُ إنه هو».

وتوجه نيكو إلى مقعده.

«الدفاع».

«سؤال واحد»، قال شتيرن. «يا سيدة كرابوتنيك، هل مبناك مزوّد بمكيّف للهواء؟».

«مكيّف للهواء؟»، والتفتت إلى القاضي. «ما شأنه إن كان لدينا مكيّف للهواء أو لا؟».

عندها، وقف لارين، ووضع يدَيه على الجانب الأبعد لطاولة القضاء، منحنياً فوق السيدة كرابوتنيك على بُعد خمس أو ست أقدام من رأسها.

«يا سيدة كرابوتنيك»، قال بهدوء، «يمكن الإجابة عن هذا السؤال بنعم أو لا. إذا قلتِ أي شيء آخر فسأقوم باعتقالك».

«أجل»، قالت السيدة كرابوتنيك.

«لا مزيد من الأسئلة»، قال شتيرن. «يا صاحب السيادة، سيُظهر المحضر أنه لم يتم التعرف إلى هوية السيد سابيتش، أليس كذلك؟».

«سيُظهر المحضر»، قال القاضي ليتل هازًا رأسه، «أن السيد سابيتش هو أحد الأشخاص القلائل في قاعة المحكمة الذين أغفلتهم السيدة كرابوتنيك».

وغادر لارين طاولة القضاء مع استمرار الضحك في القاعة.

بعد ذلك، تجمّع المراسلون حول شتيرن. أرادوا الحصول على تعليق منه على الشهادات المقدَّمة في اليوم الأول، ولكنه لم يُدلِ بأي شيء.

وضّب كِمب المستندات داخل حقيبة ساندي الكبيرة الخاصة بالمحاكمات، والتي يضع فيها نسخات عن التصاريح، وغيرها. وقمت بالمساعدة، ولكن شتيرن أمسك بمِرفقي وقادني في اتجاه الممر.

«بدون تشفّي»، قال. «لدينا عمل طوال الليل. سيستدعون ريموند هورغان يوم غد».

كم بدا كل شـــيء مألوفاً. وعدت إلى المنزل ليلاً شـاعراً بإرهاق العامـل؛ ذاك الشـعور الـذي يلي على الدوام تمضـية يوم في المحكمة. لقد شـعرت أن عظامي مجوَّفة نتيجةً لضـغوطات اليوم، وأنّ عضـلاتي تؤلمني عندما ألمسها بسبب تدفّق الأدرينالين فيها، وأن مسامّ بشرتي لا تنغلق بسـرعة، واسـتمر تعرّق جسـدي الناجم عن تأثّري الشديد طوال المساء. عدت إلى المنزل وقميصي ملتصق بجسدي فبدوت كرزمة.

فـي أثنـاء جلوسـي فـي المحكمة، أنسـى في الواقـع – في لحظات محددة – من الذي يخضـع للمحاكمة. وبعد عودتنا إلى المكتب، يكون باسـتطاعتي أن أكـون محاميـاً مجـدداً، فأنكـبّ علـى الكتـب، وأدوّن الملاحظـات والمذكـرات. لم أكن أفتقر إلى القوة قطّ. وعندما اسـتقللت حافلة نيرنغ قبل السـاعة الواحدة من بعد منتصـف الليل بقليل، وسـرت في الشـوارع المضـاءة والسـاكنة لهذه البلدة الوادعة، شعرت بالأمان، وتبدد قلقي، وسـاد السـلام قلبي. وكما اعتدتُ طوال سنوات، جلسـت على كرسـيّ هزّاز عند الباب، وخلعتُ حذائي كي لا أُزعج باربارا في أثنـاء صـعودي إلـى الطابـق العُلوي؛ فهي لا بد مـن أن تكون نائمة في هذا الوقت. كان المنزل مُظلماً. فاسـتوعبتُ السـكون، وعندما أصـبحتُ بمفـردي أخيـراً، فكّرتُ مليًّا بأحداث اليوم. وفي تلك الأثناء، وبسـبب شـعوري بالإثارة الناجم عن الحديث عن كارولين؛ ذلك الشّـعور الآنيّ الـذي عرفته في الماضـي القريب، وبسـبب عودتـي بالذاكرة إلى كيفيّة دخولي المنزل خلسة، أجفلت عندما خيّل إليّ أنني أرى كارولين أمامي، عاريةً حتى الخصر، وشعرها منتصب بسبب الكهرباء الناجمة عن لَهونا في غرفة النوم، كما كنا نفعل في ذلك الشـهر عندما ظننت أنني وجدتُ النيرفانا. ومرة أخرى، خارت قواي بسـبب رغبتي القوية، والتوّاقة، والطائشة، ولم آبه إن كان ذلك يُعتبر جنوناً أم يأساً، فهمستُ باسمها في

الظلام، وأنا أشـعر بالخجل والتّوق. «كارولين». يا ليأســي وجنوني! ولم أستطع أن أصدّق ما كنت مقتنعاً به، والذي لم يكن فكرة في الواقع بل شيئاً راسخاً في أعماقي؛ تلك العاطفة التي لم تكن سوى أمنية يمكنني العودة إليها مراراً وتكراراً.

واختفى الشـبح بعد ذلك، وتلاشــت كارولين في الهواء. فجلســتُ على الكرسيّ من دون حراك، وعمودي الفِقري متصلّب. كنت أتنفس بسرعة، وأعلم أنني لن أتمكن من النوم قبل ساعات. فبحثت داخل خزانة الرّدهة عن شيء ما أشربه. كان يُفترض بي التفكير بمعنى هذه الزيارة الليلية، ولكنني لم أستطع. لقد اعتراني إحساس بأن كل شيء أصبح من الماضــي. وجلســتُ على الكرســي الهزاز في غرفة جلوســي، وشعرت لسبب ما غريب بأنني بحال أفضل مع الحقيبة، فوضعتها على حضني.

ولكن حمايتها كانت ناقصة. فلقد كدّر هذا التدخل تيارات أحاسيسي وأزعجها. فجلستُ في الظلمة، وأنا أشعر بقوة الأشخاص البارزين في حياتي والمحيطين بي كعدد من أقمار كوكب بعيد، فيما يمارس كل منهم زخَمه المَدّي عليّ: باربارا، نات، ووالداي. آه، يا لكارثة الحب والولاء والخجل هذه! لقد شـعرت بالكرســي الهزاز يتمايل بشـدّة، وبغثيانٍ أسف مؤثّر. شــاعراً باليأس، وعدتهم جميعاً، ووعدت نفســي بأنني سأحســن التصــرف إذا نجـوتُ مــن هذه المحاكمــة. إنه اتفاق مُلِحّ، صــافي النيّة ورزين كأي أمنية على فراش الموت.

وجلســتُ هناك في الظلمة وأنا أحتســي الشــراب بانتظار الشــعور بالطمأنينة.

28

ما لفتني لدى دخول ريموند هورغان قاعة المحكمة هو ارتداؤه البذلة نفسها التي ارتداها في أثناء دفن كارولين، وهي مصنوعة من قماش أزرق مضلَّع. ولم يحدّ الوزن الإضافي الذي اكتسبه من سلوكه العام. يمكنكم وصفه الآن من خلال طريقة سيره بأنه قوي البُنية، ومتماسك، ورجل ذو مكانة. وتبادل لارين وريموند الابتسامة العريضة الحكيمة نفسها في أثناء قيام هذا الأخير بأداء القَسَم. بعد جلوسه، نظر هورغان إلى الخارج لتقييم حجم الحشد بطريقة مهنيّة هادئة. فأومأ لشتيرن أولاً، ومن ثم مرّر نظرات سريعة عليّ. لم أتحرك، ولم أسمح لرموشي بالرفرفة. في تلك اللحظة، تمنّيت من كل قلبي أن تتم تبرئتي ليس لأجل الحرّية بل لأتمكن من النظر إلى ريموند هورغان عندما يضطر إلى مواجهتي للمرة الأولى في الشارع.

في أثناء انتظار دخول ريموند، ساد قاعة المحكمة أكثر من مجرد جوّ مَلحمي؛ إذ كان هناك أربعمئة شخص متوتر الأعصاب، وهمهمة خافتة مُلحّة. في ذلك اليوم، لاحظتُ أن قاعة الصحافة أكبر بصف واحد ونصف، وأن صحافيي الصف الأول حاضرون، وكذلك منسّقي الأخبار المحرّرين. لقد تفاجأتُ في أثناء المحاكمة بمدى رغبة المراسلين بالعمل بنصائح شتيرن بعدم تسليط الأضواء عليّ. فبعد حصولهم على لقطات لي أظهر فيها وأنا أدخل دار القضاء، وعرضها كل ليلة على شاشات التلفزة، بات بإمكاني وباربارا القدوم والذهاب بسلام نسبي. ومن حين لآخر، يوقفني صحافي - أعرفه منذ سنوات - في الرواق ليطرح عليّ سؤالاً. كنت أنقل كل هذه المسائل لشتيرن. ففي الأسبوع السابق، التقيت صحافياً من نيويورك يعمل بشكل مستقل، وقال إنه يفكر مليًّا بوضع كتاب عن القضية. فهو يعتقد أنه سيلقى رواجاً. ولكنني رفضتُ دعوته إلى العشاء.

ولولا الصحف الصباحية التي كنت أقرأها لكنتُ غافلاً عن الصحافة. كنت قد توقفتُ عن مشاهدة التقارير على شاشة التلفاز لأن الخلاصات بدت سخيفة لدرجة أنها كانت تُغضبني حتى عندما تكون الأخطاء لصالحي. ولكنني لم أتمكن من تفادي العناوين الرئيسة التي كنت أراها على آلات توزيع الصحف في أثناء توجّهنا إلى المدينة. لقد بدا لي أن الصحيفتَين اليوميتَين قد أقسمتا على التنافس على من يضع أفضل تغطية تافهة ومثيرة للفضائح تتناول القضية. فإيحاء نيكو بالكشف عن علاقة ريموند الغرامية السرّية بكارولين أدّى إلى ظهور عناوين رئيسة تافهة لمدة يومين. علاقات النائب العام الجنسية جاء في هيرالد مع أنواع المفاجآت والعناوين الفرعية كافة. ومن المستحيل أيضاً أن تكون هيئة المحلفين غافلة عن هذه العناوين الرئيسة. لقد تعهد المحلفون في أثناء تأديتهم اليمين بعدم قراءة الصحف، ولكنه وعد لا يثق به إلا عدد قليل من المحامين المرافعين.

وحدث هياج كبير في حجرة المحلفين، وبدا المحلفون أكثر شعوراً بالإثارة لدى رؤيتهم ريموند، مثلاً، مقارنةً مع ما كانت عليه حالهم عندما لمحوا نيكو في أثناء تأديتهم اليمين. ومن ثم شاهدتُ عدداً قليلاً من المحلفين المحتمَلين ينحنون نحو بعضهم هامسين، ويومئون في اتجاه ديلاي. لقد حمل هورغان هالة أكبر إلى قاعة المحكمة؛ كان ذائع الصيت أكثر من معظم الأشخاص. إنه مشهور، في حين أن ديلاي غارديا ليس سوى بديل. ربما صبّ اقتراح نيكو، الذي أطلقه في مرافعته الافتتاحية وتناول إمكانية وجود مؤامرة كبيرة، في مصلحة هورغان. ومن جهة ثانية، اتّضح أننا بلغنا مرحلة عصيبة في هذه المحاكمة كما توقع شتيرن منذ أسابيع، وأدار كل محلف كرسيّه في مواجهة منصة الشهود. ومع دنوّ مولتو من المنبر للشروع بالاستجواب المباشَر، ساد الهدوء في قاعة المحكمة.

«اذكُر اسمك، رجاءً».

«ريموند باتريك هورغان»، أجاب. «الثالث». وأطلق ابتسامة

عريضة ووجيزة للارين. إنها دُعابة شخصية. لم أكن أعلم أن ريموند يحمل لقب الثالث. فما يكشف عنه القَسَم يكون مثيراً للدهشة أحياناً.

مـرة أخـرى، أعدّ مولتو نفسـه بحِرص شـديد للاسـتجواب. من الواضـح أن ريموند يعرف ما سـيحدث، وطوّر مع تومي إيقاعاً جيداً فـي الحـال. كان هورغـان يبدو هادئاً ببذلته الزرقاء وسـلوكه الشـعبي اللائق، ويستخدم كل جاذبيته الخلابة، ويخفض من حدة صوته الأجشّ بهدف التقليل من شأن الوقائع.

وأخذ تومي وقته. سوف يحصلان من هورغان على كل ما يمكنهما الحصول عليه، وسيعوّضان بسرعة عن فشل اليوم السابق الذي مُنِيا به في حرب الانطباعات. لقد استفادا من خلفية ريموند: فهو مولود في هذا المكان، وأتمّ دراسـته الثانوية في إيسـت أند في سـانت فياتور، ودرس لمدة عامين في الكلّية، وتوفّي والده بعد ذلك. أصبح شرطياً، وأمضى سـبع سـنوات في السّـلك، كان برتبة رقيب عندما تخرّج من كلّية مسائية للحقوق. لقد خشـيتُ للحظات من قيام مولتو بالإشـارة إلى أن ريموند ولارين قد عملا معاً، ولكن ذلك لم يحدث. لقد قال هورغان ببساطة إنها كانت شراكة بين ثلاثة رجال ينظرون في قضايا جنائية في المقام الأول. وخاض في الميدان السياسي بعد ستة عشر عاماً من مزاولة المهنة.

«حققتُ فوزاً في بعض الانتخابات»، قال ريموند، «وخسرتُ في بعضها». واستدار ليبتسم بولَع لنيكو الجالس إلى طاولة الادعاء. فأعاد ديلاي رأسه الأصلع جزئياً إلى الوراء، وكف عن تدوين الملاحظات، وأشرق وجهه. يا الله! يا لها من طريقة ينظران فيها إلى بعضهما!! إنها أسرع صداقة. وبدا المحلفون مسرورين بتحالفه المبنيّ على عداء سابق شـهير. وراقبتِ المدرّسـة المبتسمة بسرور واضح الحديث المتبادَل بين الاثنين. فشعرتُ بنفسي تغور في أعماقي. سيكون يوماً عصيباً.

«وأنت تعرف المتهَم، روزات سابيتش؟».

«أعرف راستي»، قال ريموند.

«هل تراه هنا في المحكمة؟».

«أجل».

«هلاّ أشرتَ إليه ووصفتَ ما يرتديه».

«إنه بجانب السيد شتيرن، الشخص الثاني الذي يجلس إلى طاولة الدفاع. وهو يرتدي بذلة زرقاء مقلّمة».

إنه إجراء شكلي للتأكيد على أن سابيتش الذي يتم التحدث عنه هو أنا. فمع أوجينيا في اليوم السابق، نهض ساندي ووافق - تعهّد هي الكلمة المناسبة - على تحديد هوية الشخص من دون الاضطرار إلى الإشارة بالبنان. ولكن شتيرن قال لي بهدوء: «قف». فوقفتُ. ورفعتُ وجهي ببطء وواجهتُ ريموند هورغان. لم أبتسم أو أقطّب وجهي، ولكنني كنت واثقاً من أن غضبي البائس كان بادياً عليّ بوضوح. من المؤكد أن دماثة أخلاق ريموند قد خبت بطريقة ما عندما كان يشير إليّ.

«هذا هو»، قال ريموند بهدوء.

وسرد مولتو قصة زمالتي مع ريموند. على كل حال، سيقوم ساندي بالتطرق إلى هذا الأمر بالتفصيل. بعد ذلك، سأل مولتو ريموند عن كارولين. عندئذٍ، اكفهرّ وجه هورغان على الفور، ووجّه نظره إلى الأسفل نحو درابزين منصة الشهود وقال: «أجل، أعرفها أيضاً».

«ما كانت طبيعة علاقتكما؟».

«التقيتها أولاً كضابطة مراقبَة، وتمّ توظيفها طوال ثماني سنوات كمساعدة للنائب العام في مكتبنا، وقامت بيننا أيضاً علاقة لمدة وجيزة جداً في نهاية العام الماضي».

مختصر مفيد، جيد. وانتقلا إلى موضوع الجريمة. ولم يشر مولتو إلى الانتخابات، ولكنها ظهرت في إجابات ريموند.

«وهل هناك أي إجراء في مكتب النائب العام للإشراف على تحقيقات الشرطة؟».

«بالتأكيد، اعتدنا في القضايا الكبيرة - وهذه القضية ذات أهمية كبيرة برأيي - تعيين مساعد للنائب العام لتوجيه الشرطة ومساعدتها».

«من قام بالتعيين في هذه القضية؟».

«حسناً، بهدف تبسيط الأمور، يمكنني القول إن السيد سابيتش وأنا قررنا أنه يُفترض به لعب دور في هذه القضية».

وتوقف تومي قليلاً عن الكلام للمرة الأولى. لقد بدا الأمر كما لو أن ريموند قد تراجع عن موقفه السلبي حيالي قليلاً بعد أن التقاني وشتيرن. ولم يتوقع مولتو ذلك. فطرح السؤال ثانيةً:

«كيف حصل السيد سابيتش على ذلك التعيين؟».

«لا أتذكر في الواقع إن كنت أنا من اقترح تعيينه، أو إن كان هو من اقترح ذلك عليّ. فعلى غرار الجميع، كنت مُرتبكاً ومستاءً في ذلك الوقت. لقد حصل على القضية، ولكنه كان مسروراً بذلك. أتذكر ذلك جيداً. لم يتردد قطّ في استلامها، ووعد بمتابعة القضية بعزم».

«وهل وفى بوعده؟».

«ليس وفقاً لرأيي». يمكن اعتبار هذه الإجابة غير مقبولة باعتبار أنها استنتاج، ولكن شتيرن لم يشأ المقاطعة. كان قد بسط إحدى أصابعه من ذقنه إلى أنفه، مراقباً بانتباه من دون تكبّد عناء تدوين أي ملاحظة. كان تركيزه في المحكمة أشبه بالاستغراق في التفكير؛ فهو يستوعب أكثر مما يتكلم. وكان لديّ الإحساس نفسه عندما كنا في مكتب هورغان؛ وهو أن حسابات ساندي لا ترتكز على وقائع أو استراتيجية بل على الشخصية. فهو يحاول اكتشاف حقيقة موقف هورغان.

وأشار ريموند إلى تذمّره في أثناء استلامي القضية، بما في ذلك اضطراره إلى حثّي على الإسراع في الحصول على تقارير بصمات الأصابع والألياف. من الواضح أن الانطباع السائد كان أنني أسعى وراء القضية. ووصف بعد ذلك الحديث الذي جرى في مكتبه في تلك الليلة عندما أدركنا أنه سيخسر الانتخابات.

«سألني إن كنت قد أقمت علاقة حميمة مع كارولين».

«وماذا قلتَ له؟».

«الحقيقة»، قال ريموند ببساطة تامة. لا أهمية للأمر. «دامت علاقتنا ثلاثة أشهر، وانتهت بعد ذلك».

«وعندما أخبرتَه بذلك، هل أعرب السيد سابيتش عن تفاجئه بأي طريقة؟».

«لا، أبداً».

لقد فهمتُ ما يجري. سيقومان بتحليل ما جرى بدءاً من النهاية إلى البداية. فتساءلت - ولكنني كنت أعلم على كل حال - ما هي نظريتهما؟ أنني صُدمت عندما اكتشفتُ الأمر؟ أم أنني استسلمتُ لثِقل مظالمي المتراكمة؟ فأيّ من هذين الاحتمالَين ليس منطقياً تماماً عندما تفترضون، على غرار نيكو، أن علاقتي بكارولين كانت في تطور مستمر. فامتلاك الوقائع الصحيحة لا يسبّب الأذى دائماً. كان باستطاعتي الشعور بمراقبة العديد من المحلفين لي، محاولين أن يستَشفوا مني حقيقة حَدْس المدعي العام.

«وهل أبلغك السيد سابيتش في أي وقت من تلك المحادثة أو في أي وقت قبل ذلك أنه كان على علاقة شخصية بالسيدة بوليموس؟».

فعاد ساندي إلى الحياة فجأةً، ووقف على قدمَيه.

«اعتراض. يا صاحب السيادة، لا وجود لأي دليل يشير إلى قيام علاقة شخصية بين السيد سابيتش والسيدة بوليموس». إنه تكتيك جيد لكسر الإيقاع على الأقل، وإعادة هيئة المحلفين إلى اليوم السابق. ولكن هذه العقبة كانت لا تزال تضعني في موقف حرِج. فلا يمكننا الاستمرار بالتركيز على عدم وجود دليل إذا كنت سأجلس على منصة الشهود، وسأخبر هيئة المحلفين بأن كل ما ساوم عليه شتيرن طوال أسبوعَين صحيح؛ وهو أنني وكارولين كنا نقيم علاقة غرامية متّقدة. إنها إحدى الوسائل الدقيقة والعديدة التي يستخدمها شتيرن كما يبدو لإعاقة شهادتي.

«ح-س-نــاً»، قال لارين بتشدّق. واستدار بكرسيّه. «برأيي لا وجود لأي دليل». إنه تعليق جيد لصالح الدفاع. «سأسمح بطرح السؤال، ولكنني أريد أن أوجّه تعليمات محدَّدة لهيئة المحلفين». وواجهَهم. «سيداتي وسادتي، يطرح السيد مولتو سؤالاً يستند إلى افتراض. يعود لكم الأمر، بالاستناد إلى ما سمعتموه في المحكمة، بتقرير

إن كان الافتراض صحيحاً. فافتراض هذا الأمر لا يجعله صحيحاً. ويقول السيد شتيرن إنّه لا وجود لدليل كافٍ يُثبت هذا الافتراض، وفي نهاية القضية، سيكون ذلك من الأمور التي يتعيّن عليكم اتخاذ قرار في شأنها. أكمل، يا سيد مولتو».

وكرر مولتو السؤال.

«بالتأكيد لا»، قال ريموند، ولم يغادر حس الفكاهة السّلتي وجهه.

«هل هو أمر كنتَ تودّ أن تعرفه؟».

«اعتراض».

«أعِد صياغة السؤال، يا سيد مولتو. هل هذا أمر كان يتوقع الشاهد من السيد سابيتش أن يطلعه عليه، استناداً إلى إدراك الشاهد واجباته المكتبية؟». فمن النادر أن يقدّم لارين ذلك القدر من المساعدة للمدعين العامين، وكان باستطاعتي رؤية وَقع ذلك على ريموند، وهو ما خشيتُه على الدوام.

وعندما طُرح السؤال وفقاً لاقتراح القاضي، قام ريموند بدفني.

«كنت أتوقّع ذلك بالتأكيد. فما كنت لأسمح له قطّ بالقيام بذلك التحقيق، لا سيّما وأنه يطرح أسئلة أكثر من الإجابات التي يوفّرها. يُفترض بالناس أن يُدركوا أن الأمور تجري لأسباب مهنية لا شخصية».

فقطّب شتيرن الموجود أمامي جبينه.

بعد ذلك، طرح مولتو أسئلة على ريموند شملت المراحل المتعلقة بالقضية كافة؛ وصولاً إلى اللقاء في مكتبه. وسرد هورغان بأمانة سَورات غضبي بالرغم من تحذيرات ماك وتحذيراته.

«صِف مظهر السيد سابيتش عندما غادر اللقاء».

«بإمكاني القول إنه كان يبدو ثائراً، ومستاءً جداً. بدا الأمر كما لو أنه فقد رباطة جأشه تماماً».

ونظر مولتو إلى نيكو، ومن ثم قال إن لا شيء لديه ليُضيفه.

وأوقف لارين المحاكمة مؤقتاً قبل أن يحين دور الدفاع في استجواب الشهود. وفي أثناء خروجي من إحدى الحُجَيرات في بيت

الخلاء، وجدت ديلاي غارديا على بُعد مِغسلتَين مني. كان شعره متباعداً جداً بحيث لم يكن بإمكانه تمشيطه، فحاول إعادته إلى مكانه بأطراف أصابعه. وانتفض قليلاً عندما رآني على صفحة المرآة.

«ليس شاهداً سيئاً، أليس كذلك؟»، سأل. كان يصعب توقّع نيّته، ولم أعرف إن كان كلامه عرَضياً أو تشفّياً. واستمر شعوري بأن نيكو ليس متوازناً على الصعيد العاطفي. لم يكن متألقاً في هذه القضية كما حصل عند استدعائي إلى المحكمة. لم يكن قطّ الشخص الذي يعتمد أسلوباً مباشَراً للتعبير عن عدم رضاه، ولا سيما عندما يؤثّر فيه شخص ما. أتذكّر عندما طلّق ديانا؛ فبالرغم من تنقّلها من مكان لآخر، أعادها إلى شقته لتقيم فيها لمدة أسابيع قليلة عندما طردها الشخص الآخر. وقرأ نيكو شيئاً ما في ترددي. «أعني، عليك الاعتراف بأنه ليس شاهداً سيئاً».

وجفّفتُ يدَيّ. لقد فهمتُ الأمر. فنيكو لا يزال يريد منّي أن أعترف بتفوّقه. يا الله، يا لغرابة البشر! ربما كان لنيكو أيضاً جانبه المعوّض، ولكن هورغان كان بارداً كحد السيف. لقد بدا لي أنه لا جدوى من مقاومته، وابتسمتُ قليلاً، واستخدمتُ لقَبه.

«أفضل من السيدة كرابوتنيك، يا ديلاي».

«الآن، يا سيد هورغان، لقد ذكرتَ أنك كنت على علاقة شخصية مع السيدة بوليموس؟ هل هذا صحيح؟».

«أجل».

«وأخبرتَنا أيضاً أنه كان يُفترض بالسيد سابيتش أن يُعلمك بعلاقته بها أيضاً؟».

«في وقت لاحق»، قال ريموند بحِرص. أراد أن ينفي شعوره بالغَيرة. «شعرتُ أنّ واجبه المِهني يلزمه بإخباري عندما بدأ التحقيق».

«هل كان بإمكانك أن تعلم، يا سيد هورغان، بوجود علاقة مماثلة بين سابيتش والسيدة بوليموس؟».

«تلك هي المشكلة»، قال هورغان. «لم يُطلعني على الأمر قطّ».

ونظر ساندي في اتجاه هورغان مطوّلاً. أراد من هيئة المحلفين أن تلاحظ أن ريموند هورغان يحاول التملّص من الإجابة.

«رجاءً، أجِب عن السؤال الذي طرحتُه عليك. هل تذكره؟».

«أجل».

«ولكنك اخترت عدم الإجابة؟».

وتحرك فم ريموند من دون التفوّه بأي كلمة. «أعتذر، يا سيد شتيرن. لا عِلم لي بوجود علاقة مماثلة».

«شكراً لك». ومشى ساندي الهُوَينا. «ولكن، لنفترض وجود أمر يتعيّن عليه البَوح به، فهل تظن أن موظفاً رسمياً نزيهاً سيبوح بهذه الأمور لشخص في مركز المسؤولية؟».

«أجل، أظنّ ذلك».

«لقد فهمتُ»، قال شتيرن. واحتاج إلى لحظات ليقف في مواجهة ريموند. فساندي قصير القامة ومتساهل، ولكنه يُظهر قدرة كبيرة في قاعة المحكمة. من الواضح أنه مساوٍ لريموند هورغان الذي يبدو حازماً جداً أيضاً. وجلس ريموند هناك بجسمه الإرلندي المحمرّ، منتظراً قيام ساندي بإظهار غضبه. وبافتراض أنه سيخرج من هذه المواجهة سليماً، فإن مزيج الشهرة والمهارة هو ما سيجعله على الأرجح أفضل محامي دفاع في المدينة. فالرجل الذي يقوم باستجوابه سيكون خصمه الأكبر. وفي السنوات القادمة، لا شك في أنهما سيجلسان معاً كمحاميَين مرافعَين متعاونَين في عدد من القضايا التي تنظر في أمر عدد من المتهَمين. والمحافظة على علاقة جيدة مع ريموند، بالنسبة إلى شتيرن، أكثر أهمية على الصعيد العملي من أي شيء آخر يحدث لي. فقاعدة الحياة بالنسبة إلى محامي الدفاع هي التعاون والانسجام. والولاية هي الخصم المهني الوحيد الذي يريد هذان الشخصان أن يحظيا به.

ولأنني أدرك كل ذلك، وضعتُ عدوانيّتي جانباً، وقلت لساندي إنه يحظى ببرَكتي لمعاملة ريموند برِفق. وكما ذكر شتيرن من قَبل، إن صدقية ريموند التي اكتسبها من أعوام أمضاها تحت الأضواء ستُفشِل

كل محاولات مهاجمته بعنف. ولكن، وفقاً لسلوك شتيرن، من الواضح أنه لن يجامل ريموند. ربما اعتقد شتيرن أنه يصعب ببساطة استيعاب الأسلوب المباشَر. ولكنني استغربتُ شروع ساندي بأي هجوم بهذا القدر من الجفاء. وعلى ريموند الاعتراف ببعض الأمور المناسبة لوضعي؛ كالإطراء على أدائي في المكتب في الماضي مثلاً. فالحكمة التقليدية تقضي بأن تأخذ ما يقدّمه الشاهد قبل أن تصفعه.

«وهل طبّقتَ هذه المعايير للكشف عن الأمور على نفسك أيضاً؟».

«لقد حاولتُ».

«بالتأكيد كنت لتعطي كل المعلومات المناسبة لشخص من موظفيك يقوم بعمل لك؟».

«مجدّداً، يا سيد شتيرن، أنا أحاول».

«والقضية المتعلقة بوفاة السيدة بوليموس كانت بالتأكيد هامة جداً في مكتبك؟».

«أعتبرها حساسة نظراً إلى معناها السياسي». ونظر ريموند في اتجاهي في أثناء قوله ذلك.

«ولكن، بالرغم من اعتبارك هذه القضية حساسة، فأنت لم تسلّم السيد سابيتش كل المعلومات المتوافرة لديك حول المسألة، أو حول السيدة بوليموس، أليس كذلك؟».

«لقد حاولتُ».

«هل حاولتَ حقاً؟ ألم تكن معرفة كل شيء عما كانت السيدة بوليموس تعمل عليه كي يكون بالإمكان تحديد هوية أي شخص يملك دافعاً لإلحاق الأذى بها أمراً هامًّا؟».

فأدرك ريموند فجأةً مآل هذا الاستجواب، وأسند ظهره إلى الكرسي ولكنه استمر بمحاولة المقاومة.

«لم يكن هذا الأمر هو الوحيدَ المهمّ في القضية».

خطأ فادح. فالمحامون في الواقع شهود سيئون؛ فقد قام ريموند للتوّ بإنكار أن لائحة الدعاوى الخاصة بكارولين كان بإمكانها أن تكون

مصدراً هاماً لحلّ لُغز مقتلها. لقد أحرجه ساندي جداً في اللحظات القليلة التالية. إن الأشخاص الذين يتولون مهمة تطبيق القانون يخشون في الغالب انتقام أولئك الذين يدّعون عليهم؟ هذه الأعمال الانتقامية تحدث في كثير من الأحيان؟ يستحيل تطبيق القانون إذا كان المدعون العامون والشرطة عُرضة لاعتداءات أولئك الذين يتحرّون عنهم. عندما قُتلت السيدة بوليموس، سرى في الصحافة اعتقاد بأن متَهَماً سابقاً قد يكون المعتدي عليها؟ وأدرك ريموند أنه فقد القدرة على الصمود بعد عدد قليل من الأسئلة، واختُصرت إجاباته بأجَل، ببساطة.

«إذاً، كل قضايا السيدة بوليموس هامة جداً، أليس كذلك؟ وكان من المهم معرفة من الذي تقوم باستجوابه، وما القضايا التي تنظر فيها؟».

«أجل».

«وبالرغم من معرفتك ذلك، يا سيد هورغان، أخرجتَ شخصياً ملفاً من دُرج السيدة بوليموس بعد بدء التحقيق بمقتلها، أليس كذلك؟».

«أجل».

«كان الأمر يتعلق بمسألة حساسة جداً، أليس كذلك؟».

راقب لارين الاستجواب، مُسنداً ظهره إلى كرسيّه. وبدا مستمتعاً بالحوار الجاري بين محترفين مشهورَين. ولكنه قاطعهما.

«ما علاقة هذا الأمر بالقضية، أيها المحامي؟».

ولزم ساندي الصمت للحظات.

«يا صاحب السيادة، أعتقد أن علاقة ذلك واضحة».

«ليس بالنسبة إليّ».

«لقد شهد الشاهد في استجواب مباشَر أن السيد سابيتش لم يلفت انتباهه إلى معلومات يعتبرها السيد هورغان ذات صلة وثيقة. يُفترض بالمتهَم الالتزام بمعايير السيد هورغان».

«كان السيد هورغان النائب العام، يا سيد شتيرن. لقد اختلطت عليك الأمور»، قال القاضي.

وجاء الفرَج من مصدر غير متوقَّع، فقد وقف ديلاي غارديا على

قدمَيه قائلاً:

«لا اعتراض لنا على هذه الفقرة من الاستجواب، يا سيدي القاضي».

ووجّه لارين نظره في اتجاه نيكو. وأمسك مولتو على الفور بساعد ديلاي. فافترضتُ أن نيكو يريد استمرار النقاش حول المعايير المهنية ظنًّا منه بأنه سيزوّد هيئة المحلفين بمعلومات عن مدى انحرافي. ولكن الأمر ليس كذلك. فهورغان ليس شاهده. لقد فهمتُ ذلك من تحدّث مولتو إليه بجِدّة في أثناء جلوس ديلاي على مقعده. وتساءلتُ عما إذا كان لا يزال يتذكر الملف بي. فدوّنتُ ملاحظة لتسليمها لشتيرن في وقت الاستراحة: مَن أولئك الذين أخبرهم هورغان عن الملف بي؟ مولتو؟ نيكو؟ لا أحد منهما؟

بعد اتضاح الأمور، واصل ساندي استجوابه بسرعة.

«كما قلتُ، كانت مسألة حساسة جداً، أليس كذلك؟».

«أجل».

«هي تتناول مزاعم –».

وتدخّل لارين ثانيةً بتصميم أكبر من كلب لابرادوري.

«لسنا بحاجة إلى تفاصيل حول الأعمال الداخلية في مكتب النائب العام أو التحقيقات التي يُجريها، لا سيما وأن العديد منها، كما أذكّركَ يا سيد شتيرن، تحميها قوانين سرّية هيئة المحلفين الكبرى. كانت قضية حساسة. لنتطرق إلى موضوع آخر».

«بالطبع، يا صاحب السيادة، لا رغبة لي أبداً في كشف أي أسرار».

«بالطبع لا»، قال لارين. وابتسم بعدم تصديق ظاهر، واستدار نحو إبريق الماء الزجاجي الذي صودف أنه موضوع في اتجاه هيئة المحلفين. «تابع».

«وكانت تلك القضية حساسة جداً في الواقع، يا سيد هورغان، لدرجة أنك سلّمتها للسيدة بوليموس من دون إعلام أي شخص آخر في

مكتبك بأمرها. أليس كذلك؟».

«أجل».

وأشار ساندي إلى كل من لم يتم إبلاغهم في المكتب: ماك، رئيس التحقيقات الخاصة مايك دولان، وثلاثة أو أربعة أسماء إضافية، وانتهى بي. لقد اعترف ريموند بذلك.

«ولم تسلّم الملف للسيد سابيتش إلا عندما أبلغك شخصياً بوجود ملف مفقود كما يبدو من مكتب السيدة بوليموس، أليس هذا صحيحاً؟».

«هذا صحيح».

وقام ساندي بجولة صغيرة في أنحاء قاعة المحكمة ليتم استيعاب كل ما قيل حتى تلك اللحظة. وفقد ريموند بريقه، وركزت هيئة المحلفين انتباهها.

«الآن، كانت السيدة بوليموس امرأة طموحة، ألم تكن كذلك؟».

«أفترض أن الأمر يتوقف على ما تعنيه بكلمة طموحة».

«كانت تستمتع بأن تكون محط الأنظار، وأرادت الارتقاء في مكتبك، أليس كذلك؟».

«كل ذلك صحيح».

«أرادت استلام تلك القضية؟».

«هذا ما أذكره».

«الآن، يا سيد هورغان، سلّمتَ القضية للسيدة بوليموس، هذه المسألة الحساسة جداً بالنسبة إليها، هذه القضية التي كنتما أنتما الاثنان تعلمان بأمرها فقط، هذه القضية التي كانت متلهّفة لتسلّمها في حين أنكما كنتما على علاقة شخصيّة، أليس كذلك؟».

وبدأ ريموند يتحرك في كرسيّه، عالماً أن شتيرن لن يجنّبه أي شيء. لقد انحنى قليلاً، وبدا لي الأمر كما لو أنه يحاول المراوَغة.

«في الواقع، لا أتذكّر بالتحديد متى كلّفتها بالقيام بهذه المهمة».

«إذاً، دعني أذكّرك». والتقط ساندي غلاف الملف، وأراه لريموند مع التاريخ الملصَق عليه، وذكّره بشهادته المباشَرة حول العلاقة القائمة

بينه وبين كارولين. «إذاً»، استنتج، «لقد سلّمتَ هذه القضية الحساسة جداً للسيدة بوليموس بينما كنتَ متورّطاً معها شخصياً؟».

«هذا ما بدا عليه الأمر عندما حدث».

وتسمّر ساندي في مكانه ونظر إلى هورغان.

«الجواب على السؤال»، قال ريموند، «هو أجل».

«تخلّفك عن إعلام أي شخص بهذه المهمة يناقض الإجراء المتّبَع في مكتبك، أليس كذلك؟».

«كنت النائب العام، وأنا الذي يقرر متى يجب أن تكون هناك استثناءات للقواعد». لقد فهم ما يرمي إليه لارين.

«واستفادت السيدة بوليموس من هذا الاستثناء؟».

«أجل».

«مع من كنتَ – اشطُب هذا الجملة. عادةً، يتم توكيل محامٍ يملك خبرة أكبر بهذه المسائل بقضية مماثلة، أليس كذلك؟».

«إنه أمر يؤخذ بعين الاعتبار عادةً».

«ولكن، لم يكن هناك أي اعتبار في هذه القضية؟».

«لا».

«وبقي هذا الأمر سريًا بينك وبين السيدة بوليموس، أليس كذلك، حتى بعد انتهاء علاقتك بها؟».

«هذا صحيح»، قال ريموند. وابتسم للمرة الأولى للحظات. «لم يحدث أي تبدّل في سلوكي».

«هل السبب أنك كنت مُحرَجاً؟».

«لم يتبادر هذا الأمر إلى ذهني».

«وعندما كان السيد سابيتش يحاول جمع كل المعلومات في المكتب عن قضايا السيدة بوليموس، ألم يخطر في بالك قيامك بدخول مكتبها ووضع الملف في دُرجك؟».

«لم يخطر ذلك في بالي، كما أفترض».

«ألم تكن تحاول إخفاء أمر ما؟ هل كنت تحاول ذلك يا سيد

هورغان؟».

«لا».

«كانت هناك حملة انتخابية، أليس كذلك؟».

«أجل».

«حملة عسيرة».

«قاسية ولا ترحم».

«حملة خسرت فيها كما ثبت في النهاية؟».

«أجل».

«حملة شارك فيها خصمك، السيد ديلاي غارديا، الذي كان مساعداً في مكتبك، ولديه العديد من الأصدقاء هناك؟».

«هذا صحيح».

«ألم تكن تخشى، يا سيد هورغان، في خضمّ هذه الحملة القاسية من تسرّب خبرٍ ما عبر أحد أصدقاء السيد ديلاي غارديا يُفيد بأنك أوكلت إحدى أفضل المهام إلى مساعدتك التي كنت على علاقة معها؟».

«ربما تبادر هذا الأمر إلى ذهني. من يعلم، يا سيد شتيرن؟ لم يكن ظرفاً مثالياً».

«أسألك مجدداً، يا سيدي»، قال شتيرن، «ألم تكن تحاول إخفاء وجود علاقة غرامية بينك وبين واحدة من أفراد هيئة موظفيك؟».

«لم تكن علاقتنا أمراً أتحدث عنه بشكل عادي، إذا كنتَ تعني ذلك».

«لا، في الواقع. قد يبدو الأمر غير مِهني».

«هذا ممكن، ولكنه لم يكن كذلك. كنا راشدَين».

«لقد فهمتُ. كنتَ على ثقة بحكمك بالرغم من تلك العلاقة الغرامية؟».

«إلى حد كبير».

كان شتيرن يقترب من هدفه تدريجيًا، وقام بخطواته الأخيرة القليلة، ومدّ يده للمس درابزين منصة الشهود والوقوف على بُعد خطى

قليلة من ريموند.

«ومع ذلك، يا سيدي، أتيتَ إلى قاعة المحكمة هذه حيث توضع في كفة الميزان حياة رجل خدمك بإخلاص طوال اثنَي عشر عاماً، وتقول لنا إنك لا تثق به؟».

وتلاقت نظرات هورغان بنظرات شتيرن. ومن حيث أجلس، لم أتمكن من رؤية التعابير المرتسمة على وجه ريموند. فقد أدار وجهه أخيراً، وتيقّنتُ من شعوره بالحرَج. كان ينظر في اتجاه ديلاي غارديا بخجل تقريباً. ولم أكن واثقاً مما إذا كان يسعى للمساعدة أو يقدّم اعتذاراته.

«أتمنى لو أنه قال شيئاً ما، هذا كل شيء. لبدا الأمر أفضل بالنسبة إليه. لبدا الأمر أفضل بالنسبة إليّ».

فقال أحد المحلفين: «همم». لقد سمعتُ الصوت، ولكنني لم أرَ الشخص الذي قال ذلك. وكان الآخرون ينظرون في اتجاه الأرض. من الصعب تخيُّل سبب هذا الوَقع الكبير في النفوس. فبصمتا إصبعيّ، أو الألياف، أو سجلات هاتفي لم تتغيّر. كانت لحظة رائعة للدفاع. لقد أحضر مولتو ونيكو ريموند هورغان إلى قاعة المحكمة هذه نظراً إلى كونه نموذجاً للّياقة، وصاحب القول الفصل في المعايير، ولكن ثبُت زيف هذه الأمور. وكما فعل لدى تمثيل كولين ماك غافن، وجّه ساندي شتيرن الرسالة التي أراد إبلاغها لهيئة المحلفين هذه من دون البَوح بها. ما المشكلة في ذلك؟ قال. لنفترض أن سابيتش والمتوفاة كانا على علاقة حميمة. لنفترض أنه اختار، بحكمة أم لا، الاحتفاظ بأمر العلاقة لنفسه. يبقى الأمر مماثلاً لما قام به هورغان. فلو كنت محرَجاً جداً بالاعتراف بجوانب من سلوكي السابق، لفهم الجميع ذلك. لقد تم إنهاء التداخل بين ما لم أقله وما قلته؛ وقُطعت الصلة بين القاتل والمتوفّى.

وابتعد ساندي، وسمح لهورغان بالجلوس. وتنهّد ريموند مرتَين وأخرج منديله. وفي أثناء مرور شتيرن بجانب طاولتنا، وضع يده على كتفي فغطّيتها بيدي. كانت بادرة عفوية ولكنها لقيت قبولاً من قِبل محلّفين

أو أكثر لاحظوا ذلك.

«لننتقل إلى موضــوع آخر، يا ســيد هورغان. كيف التقيت الســيد سابيتش؟».

كان ســاندي لا يزال يجوب المكان، واتجه نحو الشــاهد، فأشرت إليه من تحت الطاولة بألاّ يســأله هذا الســؤال. لقد نســيتُ أن أطلب منه عدم طرح ذلك السؤال.

«ربما لا يُفترض بنا تضييع الوقت بأحداث ماضية»، قال شتيرن عرَضاً. «سأسحب هذا السؤال إذا سمحت المحكمة».

«جيــد جــداً»، قــال لاريــن. لقد بدا هادئاً بصــفة خاصــة بعد أداء ريموند. وقبل أن يغادر كرسي القضاء، ألقى القاضي ليتل نظرة سريعة على هورغان الذي لم يكن قد تحرك من مكانه بعد.

29

«إذاً، ما رأيك بما حصل في الصباح؟»، سأل شتيرن. ومدّ يده إلى صينية المقبّلات. «عليك تذوّق طبَق الذرة هذا، يا راستي. إنه بسيط ولكنه مُعَدّ بشكل جيد».

لقد عمل شتيرن في أثناء استراحة الغداء في الأيام السابقة، ولكن ذلك لم يكن روتينه المعتاد. فالحياة المدنية تتضمن تناول وجبة طعام عند الظهر كما قال، وها قد اصطحبني إلى ناديه لتناول الغداء. إنه في الطابق السادس والأربعين من أبراج مورغان تاورز، وهي الأبراج الأكثر ارتفاعاً في البلدة. من هناك، يمكنكم رؤية النهر وهو ينعطف ويتمايل، ومباني المدينة التي تبدو مماثلة في الغالب لعلب أحذية متصلة ببعضها. ولو كنتم تملكون منظاراً لتمكنتم ربما من رؤية منزلي في نيرنغ.

لقد توقعتُ أن أصبح أكثر قرباً من ساندي. كنت أميل إليه، ويزداد احترامي لقدراته المهنية تدريجيًا. ولكن، لا يمكنني القول إننا أصبحنا صديقَين. ربما يعود سبب ذلك إلى كوني موكَّلاً متهَماً بجريمة قتل. ولكن نظرة شتيرن إلى قدرة الإنسان واسعة بما يكفي لدرجة أنني أشك في قيامه بحرمان أي شخص يقوم بعمل شرير، مهما كان شنيعاً، من مودّته. وتتمثل المشكلة، إذا وُجدت، بالرجل وبتحفظاته. فهو يضع حدوداً في حياته المهنية وأشك في أن يتمكن أحد من تخطيها. إنه متزوج منذ ثلاثين عاماً، والتقيتُ كلارا مرة واحدة أو مرتين. وأبناؤهما الثلاثة منتشرون في أنحاء البلد. وتُنهي الابنة، وهي الأصغر سنًّا، دراستها في كلّية الحقوق في كولومبيا في العام التالي. وعندما أفكر بالأمر، أجد أن عدداً قليلاً من الأشخاص الذين أعرفهم يزعمون أنهم مقرَّبون من شتيرن. إنه رفيق مُمتع في أي مناسبة اجتماعية، وهو راوٍ متقّف.

أتذكّر قول أحد أصدقاء والد باربارا لي منذ سنوات إن شتيرن يروي قصصاً رائعة باللغة اليدية(*)، وهذا أمر لا يمكنني تأكيده بالطبع. ولكن، هناك حدود واضحة لدى مصادقة ساندي شتيرن. فأنا أعرف القليل عما يدور في خلده في الواقع؛ ولا سيما عني.

«لديّ تعليقان حول هذا الصباح»، قلت فيما كنت أمدّ يدي للحصول على طبق ذرة. «أعتقد أن الأمر جرى بشكل جيد، واستمتعتُ كثيراً. كان الاستجواب مميّزاً».

«آه، حسناً»، قال شتيرن. فبالرغم من سلوكه الحسن، يبدو ساندي مغروراً إلى حد كبير على غرار محامين مرافعين آخرين شهيرين. وهز رأسه، ولكنه احتاج إلى بعض الوقت لتكوين انطباع عن إطرائي. لقد تهامس عدد من المراسلين والمراقبين في قاعة المحكمة، مُثنين عليه في أثناء توجهنا إلى النادي؛ كان يشعر بالنصر قبل انتهاء الاستجواب. «في الواقع، لقد وضع نفسه في ذلك الموقف. لا أظن أنني كنت أعرف مدى زهوه بنفسه عن غير استحقاق قبل بدئي النظر في هذه القضية. وبالرغم من ذلك، لا أعرف إلى أين سيوصلنا هذا الأمر».

«لقد أحرجتَه جداً».

«هكذا يبدو الأمر. من المؤكد أنه سيذكّرني بهذا الاستجواب يوماً ما. ولكنها ليست مشكلتنا الآن».

«لقد اندهشتُ بمدى حماية لارين لريموند. لو كان عليّ أن أحزر، لراهنتُ على أنه أسند ظهره إلى الكرسي ليبدو محايداً».

«لم يخشَ لارين قطّ من أن يُعتبر رجلاً لديه انجذاباته الخاصة». وأسند ساندي ظهره إلى الكرسي في أثناء قيام النادل بوضع طبقه. «حسناً»، قال شتيرن. «آمل فقط في أن نُبلي بلاء حسناً أيضاً في الفترة العصيبة التالية الحساسة. لست متفائلاً جداً».

لم أفهم ما يتحدث عنه.

(*) لهجة من لهجات اللغة الألمانية، تكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية. تُكتب بأحرف عبريّة، وينطق بها يهود أوروبا الشرقيّة.

«هناك استجوابان محوريان في هذه المحاكمة، يا راستي»، قال. «ما زلنا وسط الاستجواب الأول».

«ما هو الثاني؟ استجواب ليبرانزر؟».

«لا». وقطّب شتيرن جبينه قليلاً، غير سعيد كما يبدو بشهادة ليب. «سيكون التحري ليبرانزر عاملاً معيقاً بشكل أساسي بالنسبة إلينا. وفي تلك الحالة، نأمل التخفيف من حدة اللسعة. لا، كنت أفكر بالطبيب كوماغاي».

«كوماغاي؟».

«آه، أجل». وأومأ ساندي لنفسه. «كما تعلم، إن الدليل المادي بالطبع محور قضية المدعيَين العامَّين. ولكن بهدف الاستفادة من ذلك الدليل بشكل كامل، يجب على نيكو اللجوء إلى خبير عِلمي. لا يستطيع ديلاي غارديا الوقوف أمام هيئة المحلفين في نهاية القضية وعرض أي تخمين عن كيفية وقوع هذه الحادثة. يجب أن تكون نظرياته مدعومة بآراء عالِم. لذلك، فهو سيستدعي كوماغاي للشهادة». وتذوّق ساندي وجبة الغداء بتقدير واضح. «اعذرني بسبب كون أسلوبي تعليميًا. أنا غير معتاد على الدفاع عن محامين مرافعين. على كل حال، إنّ شهادة كوماغاي حساسة. فإذا كان أداؤه جيداً، فسيعزّز ذلك قضية الادعاء. ولكن شهادته توفر أيضاً فرصة لنا. في الواقع، ستكون فرصتنا الوحيدة للتخفيف من حدة الأدلة المادية بطريقة ما؛ كبصمتي إصبعيك، والألياف، وكل تلك الأشياء التي لا يمكن نَقضها عادة. فإذا تمكّنا من التشكيك بشهادة كوماغاي، فسنتمكن أيضاً من زرع الشك حول الدليل المادي».

«وكيف ستقوم بذلك؟».

«آه»، قال شتيرن بلهفة يائسة إلى حد ما، «تطرح كل الأسئلة الصعبة. يجب علينا صبّ اهتمامنا على هذا الأمر في وقتٍ قريب». ونقر على الطبق بخفّة بواسطة سكين الخبز، ونظر إلى الأفق، غير مركّز عليه. «كوماغاي ليس شخصاً ممتعاً، وهيئة المحلفين لن تَسعد به. سيطرح أمرٌ ما نفسه. في غضون ذلك»، قال شتيرن، مُعيداً النظر إليّ

بجفاء، «ما الخطأ الكبير الذي ارتكبتُه أيضاً؟ هل كشفنا النقاب عن أمر مريع عندما سألتُ عن كيفية لقائك هورغان؟».

«ظننتُ أنك لا تريد من هيئة المحلفين أن تعرف كيفيّة ذهاب المقاتل اليوغوسلافي في سبيل الحرّية إلى السجن الفدرالي».

«والدك؟ آه، يا عزيزي راستي. يجب أن أعتذر منك بسبب ارتجالي. لقد تبادرت الفكرة إلى ذهني عندما كنت واقفاً هناك. أنت تفهم هذه الأمور، أنا واثق من ذلك».

فقلت لساندي إنني أفهم.

«ذهب والدك إلى السجن؟ كيف حدث ذلك؟ هل قام هورغان بتمثيله؟».

«بل ستيف مولكاهي. قام ريموند بتغطية جلستَين للمحكمة فقط. هكذا التقينا. كان لطيفاً جداً معي، وكنت مستاءً».

«هل كان مولكاهي الشريك الآخر؟». في تلك الأيام، كانت المؤسسة القانونية تحمل اسم مولكاهي، ليتل أند هورغان. «كان قد توفّي قبل عدة سنوات. نحن نتكلم عن مدة غير بعيدة كما أعتقد».

«كنت لا أزال في كلّية الحقوق. كان مولكاهي أستاذي. وعندما تلقّى والدي أوّل استدعاء للمثول أمام المحكمة، ذهبتُ إليه. كنت مُحرَجاً إلى حد كبير. ظننتُ أن الأخلاق الحميدة واللياقة قد تجنّبني ذلك».

«يا الله! ما كان الجُرم؟».

«الضرائب»، قلت. وتناولتُ أول قطعة من غدائي. «لم يدفع والدي الضرائب طوال خمسة وعشرين عاماً».

«خمسة وعشرون عاماً! يا الله! كيف يبدو مذاق سمكتك؟».

«جيد. هل ترغب في المزيد؟».

«إذا لم يكن لديك مانع. شكراً لك. أنت شديد اللطف. إنهم يُعدّون السمك هنا بشكل ممتاز».

وأجرى ساندي حديثاً وديّاً. كان هادئاً ومرتاحاً وسط أدوات المائدة الفضية والندل الذين يرتدون معاطف فاتحة اللون. لقد حان

موعد مغادرته. فبعد خمس وأربعين دقيقة، سيستأنف استجواب أحد المحامين الأكثر شهرة في المدينة. ولكن، على غرار كل الموهوبين، كان يؤمن بفطرته. لقد عمل بكدّ، وما تبقى مجرّد إلهام.

عندما شارفت الوجبة على نهايتها، قدّمتُ لساندي الملاحظات التي دوّنتها في ذلك الصباح. «آه أجل»، قال لي. «جيد جداً». كانت هناك بعض المسائل التي صمّم على عدم توضيحها. «أنت متّهَم خطأً، ويقول إنك تفقد رباطة جأشك؟ من الغباء تكرار ذلك حقاً».

ورأى صديقاً جالساً إلى طاولة أخرى، رجلاً أحمر الشعر وأكبر سنًّا. فغادر ساندي للحظات لإلقاء التحية عليه. وراجعتُ مجموعة الأوراق التي حملتها معي من دار القضاء، ووجدتُ أن نقاشنا قد شمل معظم النقاط. فنظرتُ إلى الخارج في اتجاه المدينة، كالمعتاد، وفكرت بوالدي بيأس. كنت غاضباً منه طوال تلك المرحلة بسبب خيبة أملي منه وشعوري بأنه لا يستحق اهتمامي بعد تجاهله مرض والدتي الذي كان في مراحله الأولى آنذاك. ولكن، بينما كنت أراقب والدي في المكتب الخارجي لمولكاهي، بدأت دودة ألم تأكل قلبي. ففي خضم تشوّشه الفكري، أغفل والدي حلاقة ذقنه، وهو الذي كان صارماً في العادة في شأن الحفاظ على مظهره. لقد نمت لحيته بسرعة، وصار خدّاه أبيضي اللون بسبب الشُعَيرات القاسية. كان يتحسس حافة القبّعة المكسوّة باللباد بأصابعه ويبرمها بين يدَيه. ونادراً ما كان يضع ربطة عنقه بشكل فوضوي، أو تكون ياقة قميصه ملطّخة كما كانت الحال في ذلك اليوم. لم يكن يملأ كرسيّه كما يبدو أو حتى ملابسه، فيما كان مركّزاً نظره على الأرض؛ على قدميه. لقد بدا أكبر سنًّا مما هو عليه في الواقع، ويملأه الخوف.

لا أعتقد أنه سبق لي أن رأيت والدي مروَّعاً إلى ذاك الحد. كان سلوكه الذي لا يتبدل تقريباً يمتاز بحدّة الطِّبع وبعدم مبالاة كئيبة. لم أتساءل عمّا تسبب بذلك التغيير. فنادراً ما يخبرني والدي عن ماضيه، وفي الواقع كل ما عرفته عنه أخبرني به أنسباؤه. إطلاق النار على

والدَيه ومقتلهما، وفرار والدي، والمعسكرات في هذا الجانب أو ذاك حيث أمضى والدي السنوات الأخيرة من شبابه. لقد أكلوا لحم حصان، أخبرتني نسيبتي لِيا بذلك ذات مرة عندما كنت في التاسعة أو العاشرة من عمري. وتسببت لي القصة بكوابيس مزعجة طوال أكثر من أسبوع. لقد مات حصان مُسنّ بعد انهياره في الليل، وتجمّد، وبقي في الثلج طوال ثلاثة أيام. بعد ذلك، سمح أحد الحراس بسحبه إلى ما وراء السياج الشائك للباحة. فانقضّ عليه النزلاء وسلخوا جلده بأيديهم العارية، وانتزعوا اللحم. وأراد البعض أخذ كمية منه لطهوها، ولكن آخرين شرعوا بتناول اللحم هناك. وشاهد والدي ما جرى، وجاء إلى أميركا. لقد نجا، وها هو في مكتب محام أميركي يتوقع تكراراً لما حدث بعد ثلاثة عقود تقريباً. كنت في الخامسة والعشرين من عمري، وأعرف الكثير من الأمور عن حياة والدي، وكيف غدا حرمانه حرماناً لي أيضاً بسبب تلك الوراثة الغريبة للتأثيرات المادية. أدركت في لحظات أكثر مما أدركته في السابق. وألمّ بي حزن شديد.

دافع مولكاهي عن والدي، ووعد مساعد المدعي العامي الأميركي بألا يوصي بأكثر من عام في السجن، وحكم عليه القاضي هارتلي المسنّ والرحوم بالسجن لمدة تسعين يوماً فقط. لم أزره هناك سوى مرة واحدة فقط بسبب عدم رغبتي في ذلك، ولأن والدتي كانت مشرفة على الموت آنذاك.

وعندما سألتُه عن حاله، نظر حوله كما لو أنه يرى المكان للمرة الأولى، وكان يمضغ عوداً لتنظيف الأسنان.

مررتُ بحال أسوأ، قال لي. واستعاد كل قسوته القديمة، ووجدتُ أنها أكثر مدعاةً للقلق من خوفه. لقد تقبّل سوء طالعه بنوع من الاعتداد بالنفس، والعناد، والجهل. واعتبر الأمور التي لم يعانِ منها بمفرده فحسب، بل طالتني أيضاً في نهاية المطاف، أوسمة. لقد شارك في الألعاب الرياضية في السجن، وباستطاعته تحمّل سِجن محلي. لم يكن يشعر بالامتنان لي، ولم يقدّم لي اعتذارات بسبب غبائه أو ما سبّبه لي

من خجل. حدث ذلك قبل وفاته بثلاث سنوات. ولكن، في الحقيقة، لم أتخلَّ عنه حتى تلك اللحظة.

استهل استجواب فترة بعد الظهر من حيث توقف في الصباح مع شاهدنا هورغان. وبدأ هورغان بالاتصالات الهاتفية التي أجريتها مع كارولين من هاتفي في آذار/مارس. وتذكر هورغان بسرعة لائحة التُّهم الموجَّهة للمغتصب، وكانت كارولين تحاول وضع تلك اللائحة في ذلك الشهر، مُقرّةً بأن إحدى المهام الرئيسة للمساعد الأعلى هي المساعدة في تحديد التُّهَم، ولا سيما في القضايا المعقَّدة. ولم يعارض ريموند اقتراح شتيرن بأنه كان بالإمكان أن يؤدي برنامج عمل كارولين في شأن المحاكمة التي تُعِدّ لها، وروزنامتي المكتظة، بسهولة إلى تلك المشاورات التي جرت عبر الهاتف في الليل، أو على الأقل، إلى اتصالات تهدف إلى عقد لقاءات في شأن لائحة التُّهَم المقترَحة.

وانتقل شتيرن من الاتصالات الهاتفية إلى الحوار الذي جرى في مكتب ريموند يوم الأربعاء بعد الانتخابات. وبعد عرض الادعاء تصريحي الذي قلتُ فيه إنني كنت في المنزل ليلة مقتل كارولين، تناوله شتيرن بإسهاب.

شدد ساندي على أن تصريحي كان طوعياً. هل شجعتِ السيدة ماك دوغال السيد سابيتش على عدم الكلام؟ هل طلبتَ منه، يا سيد هورغان، عدم الكلام؟ أنت، يا سيدي، بلهجة شديدة هل طلبتَ منه إبقاء فمه مُطبَقاً؟ ومع ذلك، فقد تكلم، ومن الواضح أنه تم استفزازه تماماً، أليس كذلك؟ لا شيء محسوب في أسلوبه. وهل بدا ما قاله تلقائيًّا؟ لقد اكتسب شتيرن مع الوقت معرفة مدّعٍ عام حول العقبات التي تعترض التحقيق. ويتمثل المعنى الضمني بأن أي شخص يملك خلفيّتي لن يتردد في التعبير عن رأيه بطريقة أفضل من طريقتي المعتمَدة. وقال شتيرن إن الشخص الذي يُتّهم بأنه كان موجوداً في مسرح الجريمة، وهو في الوقت نفسه المسؤول عن التحقيق لن يختار كذبة يمكن كشفها بسهولة. وحده الشخص

الـذي لـم يكـن موجوداً هناك ويجهل الظروف الحقيقية يمكن استفزازه بإهانة وقحة ينجم عنها هذا الجواب الصادق. ولدى مشاهدتي شتيرن يقوم بالاستجواب، توقعت مرافعته الختامية، وأدركت بوضوح أسباب إبقائي بعيداً عن منصة الشهود. لقد قدّم راستي سابيتش شرحه العَفوي عندما جوبِه بالتهمة للمرة الأولى. فما الذي يمكنه أن يُضيفه في الواقع؟

سعى شتيرن إلى تعزيز صدقيّتي. فاصطحب ريموند في جولة طويلة حول إنجازاتي كمساعد للنائب العام، وبدأ في الواقع بمجلة لو ريفيو مروراً بسنوات النجاح. وعندما اعترض مولتو أخيراً على ذلك السرد غير الضروري، شرح ساندي قائلاً إن هورغان تساءل عن أسلوبي المتّبَع في تحقيق بوليموس، ومن الملائم أن يطّلع أعضاء هيئة المحلفين على خلفيّتي المهنية كي يتمكنوا من التحقق من أن ما صُوِّر بأنه عدم رغبة أو عصيان قد يكون مجرد تباين في الآراء بين نائبَين عامَّين متمرّسَين. لم يكن بالإمكان الاعتراض على منطق هذا الموقف، وطلب لارين من مولتو الجلوس على مقعده. وتواصلت عملية رفع روزات إلى مرتبة عالية.

«وهكذا، وقبل عامَين»، سأل ساندي في النهاية، «وعندما انتقل السيد سينيت، مساعدك الأعلى آنذاك، إلى سان دييغو، هل طلبتَ من السيد سابيتش أن يشغل ذلك المنصب؟».

«أجل».

«ومن المُنصف القول إن المساعد الأعلى هو الشخص الذي تضع ثقتك الكبرى في أحكامه؟».

«يمكنك أن تقول ذلك. كنت أعتبره أفضل محام يصلح لتلك المهمة».

«حسناً. كان لديك 120 مساعداً آخر؟».

«تقريباً».

«بمن فيهم السيد ديلاي غارديا والسيد مولتو؟».

«أجل».

«واخترتَ السيد سابيتش».

«أجل».

فرفع نيكو نظره منزعجاً، ولكنه ومولتو لم يعترضا. وبدا أن محلّفَين اثنَين قد أومآ برأسَيهما.

«ولم تكن تظن آنذاك أن السيد سابيتش قد يرتكب جريمة. كانت لديك ثقة مُطلَقة وتامة بأحكامه ونزاهته نظراً لعملك الوثيق معه طوال أكثر من عقد من الزمن، أليس كذلك؟».

كان السّؤال مركّباً ومثيراً للجدل، ولكنه واضح. «الاعتراض مرفوض»، قال لارين، ردًّا على اعتراض مولتو. ودرس ريموند الجواب بدقة.

«الأمر مُنصف»، قال أخيراً. كان لهذا التنازل الصغير وَقع كبير كما يبدو على هيئة المحلفين. لقد فهمتُ سبب قيام شتيرن بمهاجمة ريموند منذ البداية. فلقد أراد توضيح فكرة ما لريموند هورغان وليس لهيئة المحلفين. فالمسائل لم تكن واضحة لريموند كما كانت عندما دخل قاعة المحكمة.

«ولم يكن يُفترض به التحقق من كل المسائل معك؛ للتأكد من سير الأمور كما ترغب تماماً، أليس كذلك؟»، سأل شتيرن. لقد فهمتُ أنه يحاول التقليل من أهمية تأخري في متابعة تقرير بصمات الأصابع.

«طالما منحتُ الأشخاص الذين عملوا معي بعض الحرّية».

«حسناً. أليس صحيحاً إذاً، يا سيد هورغان، أنه في أثناء القيام بالتحقيق في مقتل السيدة بوليموس، كان السيد سابيتش يعلم أنك وثقت بأحكامه في مناسبات عدة في الماضي، بما في ذلك العديد من المسائل الجوهرية؟».

«لا عِلم لي بما كان يعرفه، ولكنني وافقتُ على أحكامه في الماضي حول الكثير من الأمور».

«مثلاً»، قال ساندي من دون أي إشارة إلى ما سيقوله، «لقد منحتَ السيد سابيتش سلطة اتخاذ القرار في شأن مكان وزمان طرد

السيد ديلاي غارديا».

فثار نيكو، وهو أمر يمكن فهمه. وانزعج لارين وطالب بعقد لقاء مع المحامين على الفور من دون حضور هيئة المحلفين. فبعض القضاة يعقدون مثل هذه الاجتماعات في قاعة المحكمة بجانب طاولة القضاء بعيداً عن هيئة المحلفين. واعتاد لارين مغادرة قاعة المحكمة، واللجوء إلى غرفة الانتظار الصغيرة خارج مكاتبه، كي لا يتنصّت المحلفون إلى نقاشات المحامين.

وتبعتُ وديلاي غارديا، ومولتو، وكِمب، وشتيرن، ومراسلة المحكمة، القاضي عبر الباب الخلفي إلى قاعة المحكمة الموجودة وراء طاولة القضاء. من الواضح أن القاضي قد انزعج من شتيرن بحيث دعا الجميع إلى الاجتماع. لقد اعتبر السؤال الأخير محاولة رخيصة.

«الآن، ما الذي ستفعله؟»، سأل لارين ساندي. «إحياء الأحداث الماضية يوماً بيوم؟ لن نحوّل هذه القضية إلى منافسة بين الشخصيات».

وتكلّم مولتو ونيكو معاً. لا علاقة للموضوع بأي خصومة سابقة بين المدعي العام والمتّهَم، قالا. ومن الواضح أن القاضي كان يميل إلى موافقتهما الرأي.

«يا صاحب السيادة»، قال شتيرن، «نحن لا نتهم السيد ديلاي غارديا شخصياً بعدم الإخلاص، ولكننا نعتقد أنها مناسبة للإشارة إلى كيفية تضليله، وسبب ذلك التضليل». كان شتيرن يركز ضمناً على مولتو مرة أخرى. لقد حرص على اختياره منذ البدء، وليس نيكو. فديلاي غارديا يحظى بشعبية كبيرة في تلك البلدة، ويعرفه المحلفون. أما مولتو فلا قيمة له. ربما أراد ساندي أيضاً الاستفادة بطريقة ما من الوعد الذي لا لَبس فيه والذي قطعه نيكو منذ البداية بأن مولتو لن يتقدم للشهادة.

«سبب تعرّض السيد ديلاي غارديا للتضليل، يا سيد شتيرن، لا علاقة له بالموضوع. ورأي المدعي العام بهذه القضية ليس من شأن هيئة المحلفين. لا تريد الدخول في هذا الأمر».

«يا صاحب السيادة»، قال شتيرن بوقار، «تتمثل نظرية الدفاع

بأنه تم إقحام السيد سابيتش في هذه القضية».

وابتعدتُ عن المجموعة خطوة إلى الوراء. كنت مصعوقاً. فطالما رفض شتيرن هذا التكتيك تماماً منذ أسابيع، لدرجة أنني كففتُ عن التفكير به، وبدا لي أن الأمور تسير بشكل جيد بدونه. لم أعُد أفهم المبدأ الدفاعي الذي يعتمده محاميّ. فمنذ لحظات، ظننتُ أنه يثير مشاعر هيئة المحلفين بإحدى رسائله الدقيقة غير المعلَنة: مولتو يريد وظيفة سابيتش، وبذل قُصارى جهده للحصول على قضية، وأغفل ديلاي غارديا هذا الأمر لأنه يغذّي حقده. ونجح ساندي شتيرن في تقييم الضعف البشري بطريقة هادئة بهدف الحد من صدقية المدعيَين العامَّين، وإثبات كيفية حدوث ذلك الخطأ الغريب المتمثل باتهامي. إنه المَيل الخفي القابل للتصديق الذي تتلقاه هيئات المحلفين بلَهفة. ولكنها تقنيةٌ كثيرةُ الأخطاء، وقد وافقتُ مع شتيرن على أنها غير جديرة بالمجازفة. وبالتأكيد، لم أكن مستعداً لهذا التغيير في الاتجاه من دون استشارة. وتجمّع المراسلون في وقت الاستراحة حول مراسلة المحكمة والتمسوا منها أن تقرأ ملاحظاتها. كان باستطاعتي رؤية العنوان الرئيس: **سابيتش ضحية اتهام باطل، حسبما يقول محاميه**. فالله وحده يعلم ما الذي قد يدور في خلد المحلفين إذا أخفق أيّ منهم في تجنّب المحتَّم. لقد رفع ساندي الرهان: الارتجال.

في غضون ذلك، كان نيكو يجوب الممر ذهاباً وإياباً وهو يشخر.

«لا أصدّق ذلك». قال مرتين أو ثلاث مرات.

ونظر لارين إلى مولتو منتظراً الجواب.

«إنّه أمر مثير للسخرية»، قال مولتو.

«سوف يسجِّل نَفيُك للأمر، أعني إجابتك في شأن مسألة الدليل. إذا قرر السيد شتيرن السعي ليثبت أن القضية ضد السيد سابيتش ملفَّقة، فسأفترض إذاً أن رواية الخصومة هذه مرتبطة بتلك الأهداف».

بالتأكيد إنّ أحد الأسباب التي حملت شتيرن على اعتماد هذا الأسلوب هو الطعن بالدليل المقدَّم لهيئة المحلفين.

«يجب عليّ القول يا سيد شتيرن»، قال القاضي، «إنك تلعب

بالنـار. لا أدري مـا سيؤدي إليـه الأمر، ولكنني سأقول لك أمرَين. أوّلاً، من الأفضل لك الاستعداد لرد الادعاء، لأن المدعي العام سيُمنح قدْراً معيّناً من حرّية العمل. ثانياً، من الأفضـل أن يكون الدليل المقدَّم لهـذه التهمـة متوفراً عند الحاجة، وإلا أوقفتُ كل الاسـتجوابات المتعلقة بهذا الموضـوع، وسأقوم بذلك بحضور هيئة المحلفين». ونظر لارين من مقعده المرتفع إلى شـتيرن بشـكل مباشَـر. ففي هذا الوقت الحرج، يتراجع معظم محامي الدفاع عن هذا الأمر.

ولكن سـاندي قال ببسـاطة: «لقد فهمتُ. يا صـاحب السيادة، أظن أننا سنرى كيفية تطوّر هذا الأمر بالضبط. وسوف نوفر الدليل المرتبط بهذه المسألة».

«جيد جداً».

وعدنا إلى قاعة المحكمة.

«ماذا يفعل بحق الله؟». سألتُ كِمب عندما جلسنا مجدداً إلى طاولة الدفاع. فهز جايمي رأسه. لم يتشاور ساندي معه أيضاً في هذا الشأن.

وانتقل شـتيرن بسـرعة من موضـوع طرد نيكو إلى مسائل أصغر حجمـاً، وناقشـ بعضـ النقاط الأقل أهمية بدون هدف محدد، وعاد بعد ذلك إلى طاولة المحامين المرافعين للتشاور.

«كدنا ننتهي»، همس لكِمب ولي. «لديّ موضـوع بحث إضـافي واحد. هل من شيء آخر؟».

سـألته عما قام به في الرواق، فوضـع يده على كتفي، وقال إنه سـيناقش الأمر لاحقاً. وأخبر كِمب سـاندي أن لا شـيء إضـافي لديه، فتوجّه شتيرن مرة أخرى نحو الشاهد.

«بضعة أسئلة فقط، يا سيد هورغان. كنتَ صبوراً إلى أقصى حد. لقد تحدثنا في وقت مبكّر عن ملف قضية حساسة جداً أوكلتَ إلى السيدة بوليموس مهمة النظر فيها. هل تتذكر ذلك الجزء من الاستجواب؟».

«أعتقد أنني سأتذكره لمدة من الزمن»، قال ريموند وابتسم.

«هل كنت تعلم، يا سـيد هورغان أن السـيد مولتو متورّط في تلك

القضية؟».

ووقف نيكو أولاً، وصاح معترضاً. وللمرة الأولى، بدا القاضي غاضباً من شتيرن.

«يا سيدي، لقد حذّرتك من الخوض في نطاق هذا الاستجواب».

«يا صاحب السيادة، الأمر متصل بموقف الدفاع الذي أوضحتُه في أثناء اجتماعنا». كان يعني نظرية الاتهام الباطل. لقد أوجز شتيرن بهدف عدم كشف محتوى الاجتماع لأعضاء هيئة المحلفين الذين لم يكن يُفترض بهم سماع الحديث. «يجب عليّ إخبار المحكمة بأننا ننوي مواصلة التحقيق في شأن هذا الملف مع هيئة المحلفين، وتوفير الدليل عندما يحين دورنا. في الواقع، إنه دليل ألمحتُ إليه». يقول شتيرن إننا سنوفر دليلاً مرتبطاً بالملف **بي** لدعم التُهمة المضادة بأن القضية ملفّقة. مرة أخرى، لقد صعقني موقفه. وأسند القاضي ظهره إلى الكرسي، ووضع يدَيه على رأسه، ونفخ خدَّيه من شدة الغضب.

«في الوقت الحاضر، سمعنا ما يكفي»، قال.

«هناك سؤالان إضافيان»، قال ساندي بثقة، والتفت إلى هورغان، عِلماً منه أن القاضي سيرفض السؤال التالي.

«هل سألك السيد مولتو يوماً عن ذلك الملف؟».

«كما أذكر، نعم. بعد استقالتي كنائب عام، اطّلع السيد مولتو على كل ما قام به السيد سابيتش في شأن قضية بوليموس».

«وكان السيد مولتو يملك ذلك الملف آنذاك؟».

«أجل».

«وهل تعرف إن كان قد قام بأي تحقيق، إذا حدث، حول المزاعم الموجودة في الملف؟».

«لا أعرف».

«سأجيب عن ذلك»، قال نيكو فجأةً، بعد أن وقف وفقد رباطة جأشه. كان ثائراً، وكانت عيناه مفتوحتَين على اتساعهما. «لم يقم بأي عمل. لم يكن ينوي مطاردة أسماك الرَّنكة الحمراء الخاصة براستي

سابيتش». فهذا الخطاب أمام هيئة المحلفين يُعتبر غير ملائم في العادة إلى حد كبير، ولكنه تحديداً الجواب السريع الغاضب الذي حذّر منه لارين في الرواق، واستفاد ديلاي غارديا من الفرصة تماماً. ولا شك في أنه وتومي قد ناقشا هذا الأمر في طريق العودة إلى قاعة المحكمة، وقررا قيام نيكو بمحاولة الدفاع عن مولتو بجرأة في حضور هيئة المحلفين. ولم يغامر شتيرن بتقديم أي اعتراض، بل التفت ببطء نحو مولتو.

«يا سيد ديلاي غارديا»، قال، «ربما عرفنا كلنا شيئاً ما عن أسماك الرَّنكة الحمراء». وتوقف. «وعن كبش الفداء».

تلك كانت الكلمات الأخيرة التي قالها شتيرن في أثناء استجوابه ريموند.

وأرجأ لارين المحاكمة لمدة أسبوع. ففي أيام الجمعة، يقوم بالاستماع إلى الاقتراحات الرسمية المقدَّمة في شأن قضايا أخرى. وانتظرتُ شرحاً ما من شتيرن حول تكتيكاته الجديدة، ولكنه واصل التقاط الأوراق عن طاولة الدفاع. وتوقف ريموند لمصافحة ساندي فيما كان يغادر قاعة المحكمة، وبقي على مسافة بعيدة مني.

أخيراً، جاء شتيرن لرؤيتي. فمسح وجهه بمنديله، وبدا مسترخياً. لقد جرى استجواب هورغان على نحو جيد جداً باستثناء الجزء النهائي. ومع ذلك، كنت مهتماً جداً بتهنئته.

«ما هذا؟»، سألت. «ظننت أنك قلت لي إننا لن نبلغ مرحلة الاتهام».

«من الواضح يا راستي أنني بدّلت رأيي».

«لماذا؟».

وأطلق شتيرن ابتسامته اللاتينية: العالم مليء بالغموض.

«إنها الفِطرة»، أجاب.

«وما هو الدليل الذي سنقوم بتوفيره؟».

«الآن، أنت ذكّرني»، قال. كان أقصر قامة مني بقليل ولا يستطيع وضع ذراعه حول كتفي، ولكنه استخدم إيماءة واثقة أخرى ولمس

طيّة صـــدر معطفي. «في الوقت الحاضــر، ســيكون عليك الاهتمام بذلك الأمر»، قال واستدار.

30

في تلك الليلة، كان باستطاعتي التذرّع بالشعور بالإرهاق للمغادرة باكراً وترك شتيرن وكمب بمفردهما. ولكن، كان هناك شخص لا بدّ لي من لقائه. لذا، أجريت اتصالاً هاتفيًا، وكما توقّعت كان لايونيل كينيلي موجوداً في مشرب سيكس براذرز. رمقني سائق سيارة الأجرة بنظرة غريبة عندما أنزلني. لا يتعلق الأمر بعدم وجود أشخاص بيض البشرة في الحيّ، بل بالعدد القليل من العائلات الصبورة والصامدة في وجه أسرة ريكان والسود. فأفراد هذه العائلات لا يرتدون بذلات مقلّمة باللونَين الأبيض والأسود ويحملون الحقائب، ومنازلهم ذات الجدران الخشبية مدسوسة بين المستودعات والمعامل التي تغطي واجهة كل مجمّع سكني تقريباً. كانت هناك منشأة لإعداد النقانق في الجانب الآخر من الشارع، والهواء مُثقَل برائحة التوابل والثوم. وكان المشرب مماثلاً للعديد من المشارب الأخرى المنتشرة في المكان؛ مجرد فسحة مع طاولات فورمايكا، وأرض مكسوّة بالفينيل، وأضواء فوق المرايا. وفوق باب المشرب عُلّقت لوحة نيون تحمل كلمة هامس وتُلقي بظلال غريبة على الحُبَيبات البرّاقة العاكسة للشلال المتواصل.

لم ينتظر كينيلي وصولي، بل تحرّك عندما دخلتُ، وتبعتُه إلى غرفة أصغر حجماً تحتوي على أربع طاولات حيث قال إننا لن نتعرض للإزعاج.

«إذاً، ماذا هناك بالله عليك؟». كان يبتسم، ولكن لهجته لم تكن ودّية تماماً: إنه آمر مراقبة يقف برفقة متّهَم بشكل رسمي، عدوّ للولاية، ومجرم جنائي. لم يكن الوضع الأمثل لضابط شرطة عالي المرتبة.

«أقدّر مجيئك، يا لايونيل».

فحرّك يده كما لو أنه يطلب مني عدم المبالاة بذلك، وطلب مني

أن أدخل الموضـوع مباشَـرةً. رفضتُ تناول الشراب في بادئ الأمر، ومن ثم فكرتُ بأنه من الأفضـل لي تناول القليل منه وطلبتُ كأسـاً من الشراب الاسكتلندي. كان لايونيل يحمل كأس الشراب بيده.

«أحتاج إلى طرح بعض الأسئلة التي كان يُفترض بي طرحها عندما خرجتُ للقائك في المقاطعة في نيسان/أبريل».

«في أي شأن؟».

«في شـأن ما حدث في الفرع الشـمالي قبل ثماني سـنوات أو تسـع سنوات».

«ماذا تقصد؟»، وكانت نظرته مركّزة؛ لم يشأ أن يتم تضليله.

«أقصد هل كان أحدهم يتقاضى مالاً؟».

وابتلع كينيلي الشراب وهو يفكر.

«هل تعلم أنك رجل جريء؟»، سأل.

«رأيتُ الأوراق».

ونظر إليّ. «هل ستتم إدانتك؟».

فأطلعته على الحقيقة.

«لا أعتقد ذلك. فشتيرن ساحر. لقد حمل ثلاثة محلفين على التفكير بدعوته للعشاء، ويمكنك رؤية ذلك في نظراتهم. لقد تمكّن من هورغان اليوم».

«يُقال في وسـط المدينة إن نيكو لا يملك الأوراق الرابحة، وإنه تسلّم هذا المنصب باكراً نزولاً عند رغبة مولتو. يقال إنه لو كانت لديه ذرّة دماغ لاستدرجك إلى غرفة مع آلة تسجيل وشخص تثق به، وذلك بـدلاً مـن أن تحملـه مـاك على إطلاعك على مـا لديه». وأدركتُ أن ما ظننت أنه يحدث بفعل الشـراب لم يكن سـوى بفعل الغضـب. لقد سـمع لايونيل كينيلي ما يكفي عن هذه القضـية ليتصـوّر أنه قام بشـيء لا يقوم به كثيراً؛ ألا وهو ارتكاب خطأ في إصدار الأحكام. «شخصياً، أتصوّر أنك ربما تكون متورّطاً في الأمر. لا تقل لي إنك كنتَ هناك في منزلها لتهتمَ بزجاجياتها».

«أتريد أن أقول لك إنني لم أقتلها؟».

«تباً لي إن صدّقتك».

«لم أقتلها».

فحدّق إليّ كينيلي بنظرة غاضبة وثابتة. لقد علمتُ أن حديثي محسوب جيداً لأظهر له مدى ثقتي بنفسي.

«أنت ابن ساقطة غريب»، قال.

ودخلت النادلة وهي تحمل كأسي، مرتديةً أحد تلك القمصان القديمة المجعّدة التي تُظهر صدرها. ووضعت كأساً أخرى أمام لايونيل.

«في الواقع»، قلت لكينيلي في أثناء ارتشاف الشراب، «هناك أمر ما في شأني لم أفهمه قطّ. أعني أن والدتي كانت غريبة مثل أولئك النساء في وسط المدينة اللواتي يحملنَ حقائب التسوّق، وأمضى والدي معظم الحرب العالمية الثانية وهو يتناول لحم أحصنة مَيتة، وقد أثّر ذلك في دماغي، صدّقني. كان كل شيء في حياتي غريباً. وإلى أن حدث هذا الأمر، كنت أظن أنني جو كولدج. هذا ما أردت أن أكونه، وهذا ما ظننت أنني عليه. لقد ظننت في الواقع أنني أقوم بعلاقة حميمة مع بيفر كليفر. والأمر الوحيد تقريباً الذي حصلتُ عليه من هذه الخبرة حتى الآن هو سماعك تقول لي إنني ابن ساقطة غريب، وسماع ذلك الوتر الصغير لتلك القيثارة في صدري عندما يقول شخص ما، حتى ولو كان غير مستقيم جزئياً، إن الأمر صحيح. لذلك أشكرك».

لم أكن واثقاً مما إذا كان ليونيل يستمتع بهذا الحديث. فلقد راقبني لمدة دقيقة من الزمن.

«لِمَ قدمتَ إلى هنا، يا راستي؟».

«لقد قلتُ لك. أَجب عن ذاك السؤال فقط».

فتنهد كينيلي قائلاً: «ألم أقل لك إنك تجسّد القَرَف بحد ذاته. سؤال واحد فقط، اتفقنا؟ وما يقال هنا يبقى هنا. الأمر بيني وبينك. لن أستمع إلى أي قصص نحيب لعينة عن حقوقك الدستورية أو عن ذلك الهراء. لن يطلب مني أحد أن أشهد ضد النائب العام. وإذا حدث ذلك، فسيظن

العالم أنك اعترفتَ الليلة؛ وهنا بالذات».

«لديّ القواعد الإجرائية».

«جوابك القصير هو، لا أعرف بالتحديد. ربما سمعتُ بعض الأمور، اتفقنا؟ ولكن، لا علاقة لي بذلك. والأمور على غاربها إلى حد ما. أتفهم ما أقوله؟ تذكّر، نحن نتحدث عن فِلسك». ففلسك يكفل السجناء ليتم إطلاق سراحهم، وقد اعتاد الاعتناء ببعض رجال الشرطة لتسهيل أعماله. وعندما تم إصلاح قانون إطلاق سراح السجناء بكفالة بحيث بات يُسمح بدفع الكفالات بموجب تعهّد رسمي وتجنّب الحاجة إلى ضمانات خارجية، حافظ فِلسك وشرطيوه على مدخولهم لقاء مساعدة يقدّمونها من حين لآخر. بحيث يقوم رجال الشرطة أحياناً بالتحدث إلى شاهد، طالبين منه عدم الظهور في المحكمة، وينسون أحياناً أخرى أموراً عندما يُدلون بشهاداتهم. من جهة ثانية، تقدّم فِلسك ذات يوم باقتراح مماثل لرجل يضع جهاز تنصّت على صورة دبوس على طيّة صدر سترته. ونقل الشرطي المتورط، المدعوّ غراب، المعلومات للأف بي آي، مُطيحاً بفِلسك وثلاثة رجال شرطة آخرين. حدث ذلك منذ خمس سنوات. «كان المكان مفتوحاً على كل الاحتمالات آنذاك».

«هل كان تومي مولتو أحد الأشخاص الذين سمعتَ أموراً عنهم؟».

«أظن أنك قلتَ سؤالاً واحداً».

«لديّ أسئلة متفرّعة من هذا السؤال».

فلم يبتسم كينيلي، ونظر إلى داخل كأسه.

«في هذا العمل، تتعلّم أنه من الأفضل لك ألا تقول أبداً». وضحك كينيلي. «انظر إلى نفسك. أليس كذلك؟» وضحك ثانيةً. كان لا يزال غاضباً من نفسه. فكل ذلك لا يساعده على إطلاق أحكام صائبة. «ولكن مولتو»، قال. «أبداً. كان يدرس الدين. إنه يحمل المسبحة معه إلى المحكمة. لن يقوم بأي مجازفة».

«هل كانت كارولين متورطة بما يجري هناك؟».

فهز رأسه. لم يكن يجيب بالنفي بل يرفض الإجابة.

«انظر. لا أدين لك بشــيء، يا راســتي. اتفقنا؟ ظننتُ أنك تؤدي عملك كشخص محترف. لقد جئت على مرأى من الناس إلى الضواحي الســكنية التي تنتشــر فيها العصــابات. لقد صدّقتُك. ولكنك تقوم بذلك في منتصف الليل، وأنت متورّط. لا تضغط عليّ، اتفقنا. هؤلاء الأشخاص مدينون لي، أما أنت فلا».

إنه وفاء رجال الشرطة، ولكنه لا يهتم بمشاكل الآخرين. فتناول كأسه ونظر إلى خارج الباب.

«هل كانت كارولين على صلة بمولتو؟ أنت تعرف، هل كان هناك أمرٌ شخصيّ بينهما؟».

«يا الله! لماذا تركز على مولتو؟ الرجل غريب الأطوار كالجميع».

«لنقُل فقط إنه أفضل خيار لي».

«ماذا تعني؟».

فطلبتُ منه أن ينسى السؤال.

«حسناً، لا أتخيّل هذا الرجل يقوم بلمس بوليموس. أنت ترى بادي هاكيت، صحيح؟ كان صديق بوليموس، هذا كل شيء». وتناول كينيلي كأساً أخرى. «لم يكن الشخص الذي قامت بعلاقة معه».

«من كان؟».

«هذا مستحيل»، قال. «لقد حصلتَ على معلومات كافية».

«لايونيل». لم أشــأ التوســل في الواقع. فهو لن ينظر إليّ. «هذه ليست شائعة، حبًّا بالله. إنها حياتي اللعينة».

«الأسود».

«ماذا؟».

«كانت تقيم علاقة حميمة مع الأسود».

لم أستوعب الأمر في البداية.

«أتقصد لارين؟».

«كنتَ في الفرع الشمالي. ولا بدّ من أنك تتذكّر كيف كان الوضع هنــاك. بــدا الأمــر كما لــو أن الجميع اعتادوا العمل فــي غرفة واحدة.

فالأبواب الثلاثة تؤدي كلها إلى مكتب واحد. كان نيك كوستيلو يدوّن أسماء رجال الشرطة القادمين للإدلاء بشهاداتهم، ولديه مكتب هناك يُعتبر نقطة التقاء مكاتب القاضي أيضاً. كان القاضي يغادر كرسي القضاء ظهراً، وتلتقيه بوليموس هناك. لم يجعلا لقاءهما سرًّا.

«تبًا»، قال كينيلي، «لقد أطلعتُك على الأمر عندما التقيتك في المرة الأخيرة. ألا تتذكر؟ أخبرتُك كيف أنها كانت تشق طريقها إلى القمة. لم أكن أتخيّل أن يقوم هورغان بتعيينها لديه. فصديقك القديم، القاضي اللعين هو من حمله على القيام بذلك؛ هناك صلة سرّية بينهما».

«كانا شريكَين قانونيَّين»، قلت. «منذ سنوات».

«أتصوّر ذلك»، قال لايونيل. وهز رأسه، مشمئزاً.

«ولن تخبرني أنّ كارولين قذرة؟».

فرفع إحدى أصابعه قائلاً: «سأغادر»، ثم لزم الهدوء للحظات. «كانت تجيد توظيف الأمور لصالحها، كما قلتُ. لم يكن مولتو والقاضي ينسجمان معاً جيداً. ربما سمعتَ بقصصهما».

«العديد منها».

«في الواقع، كانت صديقة الجميع آنذاك. وكانت تطلب من القاضي أحياناً الكفّ عن ممارسة الضغوط على مولتو، وتحمل مولتو على التراجع خطوتَين. كانت حَكَماً إلى حد ما. ربما أنت مُحق. ربما كان مولتو على علاقة بالقاضي أيضاً. من يعلم؟ اذهب واكتشف الأمر»، قال.

والتقطتُ حقيبتي، ودفعت ثمن الشراب.

«أنت شاذّ جيد، يا كينيلي».

«أنا أحمق لعين، هذا ما أنا عليه. سأقصد وسط المدينة غداً. بماذا أُخبرهم؟».

«لا آبه. قُل ما يحلو لك. قُل لهم الحقيقة. مولتو يعرف ما أبحث عنه».

«أنت لا تصدّق ذلك».

«لا أعلم»، قلت له. «هناك أمرٌ غير واضح».

31

أمضينا يومَي عطلة نهاية الأسبوع بالعمل. كانت مهمتي وضع تصوّر لنهاية قضية الولاية، في حين قام الدفاع كالمعتاد بإعداد اقتراح رسمي لأجل صدور حكم بالبراءة؛ طلب يُنهي به القاضي المحاكمة، معلناً عدم وجود دليل كافٍ تقوم على أساسه هيئة المحلفين بإدانة المتهَم. ويكون هذا الاقتراح بلا جدوى عادةً. ففي أثناء اتخاذ القاضي قراراً في شأن ذلك الطلب، يُطلب منه تقييم الدليل على ضوء مصلحة الولاية، أي أنه يتعيّن على القاضي ليتل قبول شهادة أوجينيا. ومن جهة ثانية، لا يمكن إعادة النظر بطلب القاضي من هيئة المحلفين إعادة حكم صادر؛ قد لا تلجأ الولاية إلى الاستئناف. ونتيجة لذلك، يستخدم بعض القضاة - ولارين بصفة خاصة - هذا الأمر كدليل لفرض النتيجة التي يفضّلونها. وهكذا، في حين يشوب الإبهام توقعاتنا، أراد شتيرن تقديم أقوى عرض ممكن. وتمثلت مهمتي بالعثور على حالات يحكم فيها، بطريقة ما، على غياب الدافع في قضية ظرفية. لقد أمضيتُ ساعات في المكتبة.

في صباح يوم الأحد، التقينا للتحدث عن الاستراتيجية التي يجب اتباعها. كان ساندي لا يزال غير راغب في التحدث بالتفصيل عن قضية الدفاع. فهو لم يُشِر إلى شهادتي أو شهادات آخرين، بل قمنا بتحليل ما تبقى لدى الولاية من أدلّة. وكان يُفترَض بليبرانزر التقدم بشهادته يوم الاثنين، على أن تلي ذلك الأدلّة المادية: الألياف، سجلات الهاتف، بصمتا إصبعيّ (إذا وُجدت الكأس)، والخادمة التي تعتقد أنها رأتني في الحافلة، وكوماغاي.

وشدد شتيرن مرة أخرى على النقطة التي ذكرها لي في ذلك اليوم على الغداء؛ أي حاجتنا إلى إثارة الشك حول كوماغاي بطريقة ما. وإذا لم نتمكن من ذلك، فإن المدعيَين العامَّين قد يصلان إلى نهاية

قضيتهما بزَخم كبير؛ وقد يُجبر هذا الأمر ساندي على تغيير استراتيجيته الدفاعية. وهذا أحد أسباب عدم رغبة شتيرن في الاضطرار لاتخاذ خيارات نهائية في شأن ما يُفترض بنا القيام به. وحاولتُ وكِمب وشتيرن العثور على طرائق لمهاجمة كوماغاي. لقد تفحّص شتيرن وضع بينلس عدة مرات، ووافقَنا الرأي بأن كوماغاي شخص مأجور كريه، ولن تكون هيئة المحلفين متلهّفة لتصديقه. لقد أخبرتهما روايات قديمة عن بينلس، وأشرتُ إلى أنه يمكن لملف الموظفين في قسم الشرطة الذي يعمل لديه - وحيث يمكن التستّر على الأداء السابق لكوماغاي - أن يكون مصدراً جيداً لنا، لذا يجدر بنا تفحّصه.

«ممتاز»، قال شتيرن. «إنّ وجود مدّعٍ عام إلى جانبنا أمر رائع». وطلب من جايمي في الحال إعداد مذكّرة إحضار للملف، ومذكرة إحضار أخرى لسجلات مختبر عِلم المرَضيات، كي نتمكن من التحقق مما يُعِدّ له بينلس في نيسان/أبريل. لم نكن قد أصدرنا معظم استدعاءاتنا بعد، لأن العديد من مساعدي العُمدة الذين يقومون بتسليمها يميلون إلى تنبيه المدّعين العامّين، مانحين النائب العام الفرصة للتشكيك بالدليل المقدَّم، أو - أسوأ من ذلك - استخدامه إذا كان مفيداً للولاية. أما وقد باتت قضية الادعاء كاملة تقريباً، فيُفترض بنا المتابعة. وعاد جايمي إلى ملاحظاته القديمة للتأكد من عدم إغفالنا أيًّا من الأهداف التي قلنا إننا نريد تحقيقها. وقام بإعداد استدعاءات للمثول أمام المحكمة لكل من أطباء كارولين الذين تم التعرف إليهم انطلاقاً من دفتر الهاتف الذي عثرتُ عليه في شقتها.

«وأردتَ توجيه استدعاء لشركة الهاتف»، قال لي كِمب، «كي نتمكن من الاطّلاع على نسخة البيانات التي تتناول سجلات الاتصالات الهاتفية التي أُجريت من منزلك».

«لا تتكبّد عناء ذلك»، قلت بسرعة، ولم أرفع نظري. ولكن، كان باستطاعتي الشعور بوطأة نظرة كِمب المُجفلة إليّ. ومع ذلك، واصل شتيرن عمله.

«إذا لم يكن طرح الأسئلة مُثمراً»، قال ساندي، «ربما يُفترض بنا التفكير مليًا بالنص التوافقي». فالنص التوافقي عبارة عن إفادة يتم التوافق عليها بين الادعاء والدفاع، وتحتوي على ما يقوله الشاهد من دون الاضطرار إلى استدعائه. وبينما كان شتيرن يفكر بهذا الاحتمال بصوت مرتفع، أصبح أكثر اقتناعاً بأنها الطريقة الصحيحة لمواصلة الدفاع. ولا يتم التوافق على شهادة ممثّلي شركة الهاتف فقط، بل على شهادة خبراء الشعر والألياف وعالِم الكيمياء الجنائي أيضاً. وبهذه الطريقة، سنختزل مدة وجود هذا الدليل المُضرّ بين أيدي المحلفين. وقد يرفض ديلاي غارديا الاقتراح. ولكن، من المحتمل أن يقبل به. بالنسبة إلى المدّعي العام، يُعتبر عدم تقديم الدليل خطوة تصبّ في مصلحته.

بعد اتخاذ هذه القرارات، عدتُ وكِمب إلى المكتبة، وهي غرفة اجتماعات قائمة وسط جناح شتيرن حيث تتكدس كتب القانون من الأرض إلى السقف في صناديق من السنديان قاتمة اللون وموضوعة قرب كل من الجدران الأربعة. وعملتُ على إحدى الطاولات، وكِمب على أخرى. وأدركتُ بعد دقائق قليلة أن جايمي يراقبني، ولكنني لم أرفع نظري.

«لا أفهم ذلك»، قال أخيراً بصوت عالٍ من دون أن يمنحني أي خيار آخر. «قلتَ إن هناك خطباً ما في السجلات الهاتفية تلك».

«جايمي، امنحني فرصة. أفكر بذلك مذاك الحين».

«قلتَ إنه يُفترض بنا التأكد إذا كان قد تم تزويرها أم لا».

لم تكن الحدة البادية في عينَيه غضباً في الواقع. وكما هي حاله في قليل من الأحيان، كان كوينتين كِمب يبدو بجزمة راعي البقر وسترة تويد الرياضية مفتقراً إلى الحماية وشاباً. كان يظن أنه مطّلع جداً لدرجة أنه لا يمكن تضليله.

«جايمي، إنه أمر قلتُه. اتفقنا؟ في ظل ظروف معيَّنة. أنت تفهم ذلك».

ولكنني أدركت أنه لم يفهم مطلقاً. كان يزعجني النظر إلى عينَيه

ومعرفة أنه لا يستطيع تصديقي. فثنيتُ مجموعة الورق ووضعتها على معطفي. كان ساندي لا يزال في مكتبه عندما أخبرته أنني لن أعود الليلة. كان يطالع الكتابات المستفيضة عن الدليل العِلمي الذي قدّمه نيكو رداً على اقتراحاتنا الرسمية: الجداول البيانية، والتقرير الكامل حول تشريح جثة كارولين. كان يرتدي ملابس عادية؛ كنزة صوفية جميلة وسروالاً فضفاضاً، ويبدو مسترخياً تحت الظلة الخضراء لمصباحِ مدقِّق حسابات وهو يدخِّن سيجاره النفيس.

* * *

كان صباح يوم الاثنين موعد إدلاء ليبرانزر بشهادته. لقد حرص نيكو على إبعاده عني. وعبَر فريق الادعاء الممر مع ليب في أثناء قيام إرنستين بالإعلان عن انعقاد المحكمة. كان ليبرانزر يرتدي بذلة، وهو أمر يكره القيام به، ولكنه كان لا يزال يبدو شخصاً مُداناً أكثر من كونه شرطيًا مع ذلك الشيء المريع الشبيه بجُعبة السفر، وتسريحة شعره الشبيهة بذنَب بطة. وانتهى بي الأمر وأنا أمسك الباب في أثناء دخول ليب قاعة المحكمة، وقام ليبرانزر بالتلويح لي وغمزني بالرغم من وجود نيكو أمامه ولندنينغ وراءه. لقد شعرتُ بالقوة بمجرد رؤيته مجدداً.

كان نيكو يستفيد من ليب بشكل جيد. فهو أفضل ورقة لديه في المحاكمة حتى ذلك الحين. إنه أمر واقع ويحصل على ما يتعيّن الحصول عليه بسرعة. كان يعرف أن ليب ليس شخصاً مؤاتياً، وأنه سيقول الحقيقة، ولكنه، بخلاف هورغان، ينتظر أي فرصة لعضّ عقبي نيكو. لذلك، كان ديلاي حريصاً على عدم منحه الفرصة لفعل ذلك. فإذا كان محترفاً في أثناء استجوابه، فبالتأكيد سيتصرف ليب بالطريقة نفسها. فكلاهما متكتمان ويحبّان الإيجاز.

«هل قال لك السيد سابيتش إنه كان على علاقة شخصية بكارولين بوليموس؟».

«اعتراض».

«على الأساس نفسه الذي اعتمَد مع السيد هورغان، يا سيد

شتيرن؟»، سأل القاضي.

«بالفعل».

«الاعتراض مرفوض. سيداتي وسادتي، أنا واثق من أنكم تذكرون ما قلته لكم في الأسبوع الماضي عن الأسئلة المستندة إلى افتراضات. فإذا كان السيد ديلاي غارديا يقولها، فهذا لا يجعلها كذلك. يمكنك المتابعة».

لقد تساءلتُ عن كيفية إجابة ليب عن السؤال، ولكنه قال ببساطة، لا. ولم يسأله نيكو إن كنت قد أوحيت بإمكانية وجود علاقة مماثلة، أو إن كان الأمر واضحاً من قِبلنا؛ إنه سؤال لا يستطيع طرحه بالشكل الملائم. لقد سأله إن كنت قد أخبرتُه بذلك، وأجاب ليبرانزر بطريقة صحيحة. ونظراً إلى كونه مقيَّداً بشكليات قواعد الدليل، لا يتيح له نظام إيجاد الحقيقة المتَّبَع إلا الكشف عن نصف المعلومات المُتاحة.

وبطريقة بريطانية مختصَرة، استخلص نيكو أنني طلبت من ليب عدم الحصول على سجلات الاتصالات الهاتفية التي أُجريت من منزلي، كما استخلص المناسبات التي ذكّرني فيها بطلب التحليل الكمبيوتري لبصمات الأصابع الموجودة على الزجاج وفي كل مكان من شقة كارولين. لقد تمّ ذلك بسلاسة غريبة. كنت على ثقة بأن هيئة المحلفين تُدرك وجود خَطب ما، وبأن نيكو ماهر بما يكفي ليمكّنهم من معرفة ما يجري. وعندما حصل من ليبرانزر على المعلومات التي يحتاج إليها، أظهر انحيازه، وسأل عن القضايا التي عملتُ عليها مع ليب.

«هل من المنصف القول إنكما كنتما تشكلان فريقاً ادعائياً وتحقيقياً؟».

«أجل، يا سيدي؟».

«ونتيجة عملكما كفريق، هل قامت صداقة شخصية بينكما؟».

«تماماً».

«صداقة وثيقة؟».

واتجهت عينا ليب نحوي للحظات.

«أفترض ذلك».

«هل تثق به؟».

«أجل».

«وهل يعرف هو ذلك؟».

فاعترض شتيرن قائلاً إن ليب لا يستطيع الإجابة عما أعرفه. لقد سبق للشاهد أن حدد العلاقة. فقبِل لارين الاعتراض.

«حسناً، دعني أُعيد صياغة السؤال على النحو التالي: هل طُلب منك المشاركة في القضية في بادئ الأمر؟».

«لا، يا سيدي».

«من الذي طُلب منه ذلك؟».

«هارولد غرير، وهو تحرٍّ من المقاطعة الثامنة عشرة حيث وقعت الجريمة».

«هل هو محقق منافس؟».

«بنظري؟».

ولزم نيكو الحذر هنا بهدف تجنّب الاعتراضات ومنع ليب من التشويش عليه.

«هل أبدى لك السيد سابيتش يوماً أي تحفظات حول قدرات هارولد غرير؟».

«لا، يا سيدي. كل من أعرفهم يعتبرون هارولد غرير شرطياً من الطراز الأول».

«شكراً لك». وابتسم نيكو، متذوّقاً المكافأة. «ومن قرر، وفقاً لمعلوماتك، جعل هذا الأمر مسألة شخصية وإشراكك في القضية، أيها التحري ليبرانزر؟».

«طلب السيد سابيتش مشاركتي في المهمة، إذا كان هذا ما تعنيه. لقد منحه السيد هورغان سلطة اتخاذ القرار».

«وفقاً لمعلوماتك، أيها التحري ليبرانزر، هل كان المتهَم على علاقة شخصية وثيقة مع أي من أفراد الشرطة؟».

فهز ليب كتفَيه قائلاً: «لم يذكر لي ذلك».

ومشى نيكو باختيال.

مكتبة
t.me/t_pdf

«إذاً، من المنصف القول، أيها التحري، إنك لست الشخص الوحيد في شرطة المدينة الذي يشتبه أقل من سواه بارتكاب السيد سابيتش الجريمة؟».

كان السؤال قابلاً للرفض. وشرع شتيرن بالتحرك، ولكنه كفّ عن ذلك في أثناء إسناده يدَيه على ذراعَي كرسيّه. هذه المرة، كنت أتقدم بخطى ثابتة معه. لقد رأى ليب يتردد ويعلم أن نيكو قد ارتكب خطأه الأول بسبب الارتجال. لقد منح ليبرانزر فرصة مناسبة وسيتلقى الضربة.

«ما كنت لأصدّق ذلك مطلقاً»، قال ليب ببساطة. وشدّد على كلمة مطلقاً. إنه جواب صحيح لا بد من أن يترك انطباعاً جيداً في نفوس أعضاء هيئة المحلفين. لقد حظي بفرصة لإظهار مشاعره.

ونهض ساندي لمباشرة الاستجواب. لقد تحدثنا في الليلة السابقة عن عدم استجواب ليب البتة. إذ لم يرغب شتيرن في التشديد على النقاط التي يحبّذها نيكو، ولكن التوجه كان لصالح الولاية كما يبدو بخلاف ما توقّع شتيرن. لقد فتح توجّه نيكو الباب على لائحة النجاحات التي حققتُها وليب، وذلك بهدف شرح سبب اختياره للمشاركة في القضية. وعرض شتيرن لهذه النجاحات نجاحاً تِلوَ الآخر.

«وفي الحقيقة»، قال شتيرن عندما شارف على نهاية التطرّق إلى هذه النقطة، «كنت والسيد سابيتش تستعلمان عن مسألة أخرى حتى وسط التحقيق في شأن جريمة القتل، أليس كذلك؟».

فشعر ليب بالارتباك.

«ألم يكن هناك ملف موضوع في دُرج السيد هورغان -».

ولم يتمكن ساندي من مواصلة طرح السؤال لأن نيكو وقف على قدمَيه صائحاً. فالتقط لارين مطرقته وأشار بها إلى شتيرن.

«يا سيد شتيرن، لقد قلتُ لك في مناسبات عدة إنني لا أريد سماع المزيد عن ذلك الملف في قضية المدّعي العام. لقد ذهبتَ بعيداً جداً في أثناء قيام السيد هورغان بالإدلاء بشهادته، ولن أتحمّل أي تكرار لهذا

الأمر».

«يا صاحب السيادة، هذا الدليل حاسم جداً بالنسبة إلى دفاعنا، ونعتزم مواصلة تسليط الضوء على مسألة هذا الملف عندما يحين دورنا لتقديم الأدلة».

«حسناً، إذا كان هذا الأمر حاسماً بالنسبة إلى دفاعكم، يمكننا إذاً التحدث عن استدعاء التحري ليبرانزر مرة أخرى للإدلاء بشهادته حيال هذا الموضوع. ولكنني أنصحك، يا سيدي، بالانتقال إلى مجال استعلام آخر لأنني لم أسمع ما يكفي للسماح لك بمطاردة ذلك الأرنب في مختلف أنحاء قاعة المحكمة. هل أنا واضح؟». وحدّق القاضي ليتل بشتيرن من فوق طاولة القضاء، وكانت ملامح وجهه مؤثِّرة.

فحنى شتيرن رأسه وكتفَيه جزئياً، ووجدتُ نفسي مُربَكاً بزلّة ساندي في الحكم على الأمور. لقد حصل على صفعة أمام هيئة المحلفين، وهي نكسة لم يكن بالإمكان توقعها، ولم أفهم ما الذي يحاول تحقيقه. لقد ألقى بظلاله على مولتو بواسطة هذا الملف، فلماذا يركّز عليه باستمرار؟ لقد خاب أمل هيئة المحلفين بالتأكيد، ولا سيما عندما استمر بتقديم وعود بتوفير دليل لا نملكه. لا نستطيع تقديم الرسالة التي عثرنا عليها في الملف بي لأنها بمثابة شائعات. لم أستطع أن أفهم خدعة شتيرن الذي كان يتخذ موقفاً صلِفاً كلما حاولتُ توجيهه في اتجاه الموضوع.

في غضون ذلك، عاد شتيرن إلى طاولة الدفاع.

«الآن، أيها التحري ليبرانزر، طرح عليك السيد ديلاي غارديا بعض الأسئلة حول سجلات المكالمات الهاتفية». ورفع ساندي المستندات. «كما أفهم من شهادتك، أنت من طرح مسألة رقم هاتف المنزل مع السيد سابيتش، هلى هذا صحيح؟».

«أجل، يا سيدي».

«هو لم يطرح هذه المسألة؟».

«لا».

«لم يطلب منك مُسبَقاً عدم الحصول على سجلات الاتصالات

الهاتفية التي أُجريت من منزله؟ هل أنا مُحِق؟».

«هذا صحيح تماماً».

«في الواقع، لقد أعلمك منذ البداية بأنك قد تجد اتصالات من السيدة بوليموس بأحد أرقام هاتفه؟».

«في مكتبه، صحيح».

«لم يطلب منك عدم الحصول على أي سجلات لذلك الغرض، أليس كذلك؟».

«لا، يا سيدي».

كان هناك تشديد متزايد على كل إجابات ليب. فشتيرن يُظهر ما يمكن لمستجوب القيام به مع شاهد مؤات. كان كل شيء واضحاً تماماً، ولا وجود لأي مقاومة، ويسمح ليب تقريباً لشتيرن بإملاء الشهادة، مؤيّداً على الفور اقتراح شتيرن بأن ليرانزر هو من اقترح عليّ عدم الحصول على سجلات الاتصالات الهاتفية التي أُجريت من منزلي، معتبراً إيّاها غير ذات صلة بالموضوع؛ ولقد قبلتُ بالاقتراح كما يفعل الناس عادةً، إنه تجنّب استدعاء المثول أمام المحكمة بأفضل طريقة بما أن الأمر يُغضب زوجتي. وعاد ساندي إلى طاولة المحامي المُرافع للحصول على مستند. فأشار إلى رقمه، وسلّمه لليب للتعرف إليه. إنه الاستدعاء الأصلي لشركة الهاتف.

«الآن، من هو المدعي العام الذي أصدر الاستدعاء؟».

«راستي، السيد سابيتش».

«لقد ظهر اسمه على الصفحة الأمامية كما لو أنه الموقِّع المفوِّض، أليس كذلك؟».

«أجل».

«وهل يُلزم هذا الاستدعاء بتقديم هذه السجلات بالذات؟».

«وفقاً لما ينص عليه؟».

«هذا هو سؤالي».

«الجواب هو أجل. يغطي الاستدعاء هذه السجلات».

«هل يحتوي على أي استثناء لسجلات الاتصالات الهاتفية التي أُجريت من منزل السيد سابيتش؟».

«لا».

«وكلما أردتَ أنت أو أي شخص آخر تفحّص سجلات الاتصالات الهاتفية التي أُجريت من منزل السيد سابيتش، فهل يقضي هذا الاستدعاء بتقديم هذه السجلات؟».

«أجل».

«في الحقيقة - رجاءً لا تُجب إذا كان هذا الأمر يتخطى معلوماتك - عندما قرر السيد مولتو والسيد ديلاي غارديا أنهما يريدان هذه السجلات، فقد استندا إلى التفويض الذي يمنحه هذا الاستدعاء للحصول عليها، أليس كذلك؟».

«أظن أن الأمر صحيح».

«وهكذا، أُحيل السيد سابيتش إلى المحاكمة هنا على أساس الدليل الذي أصدر هو بنفسه مذكرة إحضار في شأنه، أليس كذلك؟».

وهاجت قاعة المحكمة. فاعترض نيكو. «السؤال مثير للجدل».

فهز لارين رأسه برِفق.

«يا سيد ديلاي غارديا، أنت تحاول أن تُظهر هنا أن السيد سابيتش قد أعاق عملية جمع الأدلة، وذلك لتُثبت ذنبه في جمع المعلومات. والادعاء مخوَّل بالقيام بذلك، ولكن الدفاع مخوّل أيضاً بإظهار أن الدليل المقدَّم قد تم توفيره في الواقع من خلال جهوده. لا أعرف طريقة أخرى يقومون من خلالها بالرد على دليلك. الاعتراض مرفوض».

«أكرر»، قال شتيرن، واقفاً أمام ليبرانزر، «يحاكَم السيد سابيتش هنا بسبب دليل أصدر هو بنفسه مذكرة إحضار في شأنه».

«هذا صحيح»، قال ليب، وأضاف بلهفة، «على غرار بصمات الأصابع».

«على غرارها تماماً»، قال ساندي. وانتقل إلى بصمات الأصابع. لقد زار سابيتش شخصياً ماك غراث هول، والتقى لو باليستريري،

وطلب التحقق من البصمات. صحيح أن سابيتش كان مشغولاً بإدارة كل مكتب النائب العام في أثناء حملة هورغان، ولكن جهوده الخاصة هي التي وفرت الدليل المستخدَم في محاولة إدانته.

«هل اعترض سبيلك؟»، سأل ساندي في النهاية.

فاستقام ليب على كرسيّه قائلاً: «لا».

«هل أعاقك؟».

«أبداً».

«في الواقع، أيها التحري، أعتقد أنك أخبرت السيد ديلاي غارديا بأن احترامك ومودّتك للسيد سابيتش بعد زمالة دامت سنوات، حتى وإن كنت تعلم بوجود هذا الدليل، يحولان دون اشتباهك بارتكابه المزعوم لهذه الجريمة. هل هذا صحيح؟».

من خلال طريقة تردد ليب، خشيتُ للحظات من أن يكون شتيرن قد ذهب بعيداً جداً في استجوابه. ولكنني تيقّنت في ما بعد من قيام ليب ببذل جهد خاص مسرحي.

«أبداً»، كرر، وجلس شتيرن. وفي أثناء جلوسه، ابتسم لي خلسة، وعنَت هذه الإيماءة الكثير لهيئة المحلفين. بالرغم من ذلك، انتابني للمرة الأولى شعور بأن المحلفين غير راضين عن أداء شتيرن غير المُقنِع. فهذا العمل الذي يدل على البراعة كان لا يزال مقصّراً عن شرح سبب عدم طلبي من ليب طَوعاً الحصول على المعلومات المرتبطة بسجلات الاتصالات الهاتفية التي أُجريت من منزلي ليلة وقوع الجريمة بصفة خاصة. فاستجواب شتيرن لا يقدّم أي سبب لعدم تمكني من العمل مع هارولد غرير الذي يؤثّر مظهره في هيئة المحلفين أكثر من مظهر ليبرانزر. كما أنه لا يشير إلى البدائل المتوافرة لديّ للّجوء إلى لو باليستريري في حين كان ليبرانزر، إضافةً إلى هورغان يلحّان عليّ للقيام بذلك. فهذا الحوار الأخير كان مجرد هراء ببساطة. فليس هناك أحد لن يصاب بالارتباك بسبب الحقائق المحيطة بسجلات الاتصالات الهاتفية وبصمات الأصابع. وتظهر طبيعة الاستجواب المثيرة للشك

من خلال رد فعل ليب الممتثِل لتوجيهات شـتيرن. فالأمر واضـح جداً: ليبرانزر صديق راغب في أن يتم تضليله، ولن تعجز هيئة المحلفين عن إدراك هذا الأمر، وهذا ما كنت أخشاه على الدوام. فقاعدة ردود الفعل المماثلة والمعاكسة تنطبق في قاعة المحكمة أيضاً. ونظراً لتردده الواضح في جزء كبير من الاستجواب، كان دان ليبرانزر الشاهد الأكثر ضرراً لي حتى ذلك الحين.

استمرت المحكمة على نحو متباطئ بعد الظهر. وأُعدّت النصوص التوافقية وقرئت. ولدى الوصول إلى شهادة ليبرانزر، كان الكشف عن المحتوى الفعلي لسـجلات الاتصـالات الهاتفية سـاحقاً. فقرأ نيكو النص التوافقي بنفسه. لقد تمكن أخيراً من لفت انتباه هيئة المحلفين. فأعضاؤها مجموعة من الأشـخاص اللامعين، ويريدون الوقائع كما هي. واعتمد نيكو لهجة ثابتة ومتحفّظة، ورفع نظره قليلاً عندما أنهى القراءة ليتمكن مـن مراقبـة وَقـع الدليل على المحلفين الذين كانوا يُصـغون إليه بانتباه، وقد شـعرتُ بوطأة حسـاباتهم. واكتشـفتُ كمدّعى عليه بأنكم تختبرون عدم الرضـا في قاعة المحكمة بدقة أكبر من المحامي. واسـتقرّت فترة بعد الظهر على شعور بالوَهَن والقمع والقليل من الغثيان.

كان النصـ التوافقـي في شـأن ألياف السـجاد طويلاً، ولكنه ترك وَقعاً مماثلاً. وبعد الاتفاق على التخلي عن الشهادة، فقد نيكو نظرياً الأثر المثير للعرض الحيّ. ولكن الشهود التقنيين يميلون إلى أن يكونوا جافّين بشـكل مفرط، وتكون الخلاصـات المكتوبة مباشَرة بحيث تترك انطباعاً عميقاً في النفوس. بهذه الطريقة، لم تتسـنَّ لشـتيرن الفرصـة لاستخدام حذقه بهدف التقليل من شأن الوقائع التي تنبثق بصمت مؤلم. والمظهر المؤاتـي الوحيـد – المتمثـل بـأن أيًـا من ملابسـي لا يتطابق مع أي من الألياف التي عُثر عليها – يمكن شـرحه بسـهولة. فالثياب التي ارتديتها في تلك الليلة كانت مرميّة بعيداً مع سلاح الجريمة. فهذه الاستنتاجات، الحتميـة والموجَّهـة بطريقة حسـابية، أثقلت هـواء قاعة المحكمة، وكان باستطاعتي الشعور بوجودها في كل ناحية مع الصمت أو الهدوء السائد

وغير الناجم عن هدأة بعد الظهر. لقد بدا لي أن كل المشاهدين، بمن فيهم المحلفون، قد لاحظوا تبدلاً في مسار المحاكمة. فالمدعيان العامان أمضيا وقتاً أطول مما يُفترض لإعادة التحكم بمسارها.

وكالعادة، بدأ مولتو اللامبالي والتوّاق بشكل مفرط بسحبي من الهوة. فعندما قُرئ النص التوافقي الأخير، طالب بعقد اجتماع منفرد.

«ما الأمر؟»، سأل لارين عندما اجتمعنا كلنا.

«يا سيدي القاضي»، قال، «نحن على استعداد للمتابعة مع خبير بصمات الأصابع، ولكن هناك صعوبة صغيرة».

فنظر إليّ كِمب بسرور ماكر. كانت الصعوبة واضحة لكلينا: لم يعثرا على الكأس. وقوبلت ابتسامة جايمي بالترحاب. إنها الدلالة الأولى على عودة الدفء إلى علاقتنا بعد أكثر من يوم، وجاءت في اللحظة المناسبة لأن أعضاء الدفاع لزموا الصمت بوجوه كالحة طوال فترة بعد الظهر. وفي أثناء استراحة الساعة الثالثة والنصف، صادفتُ شتيرن في بيت الخلاء، ولم نقل أي شيء بصوت مرتفع، بل كان يهز كتفَيه بطريقة لاتينية، وعيناه خائرتان. عرفنا أننا سنبلغ هذه المرحلة، كان يقول لي كما يبدو.

وفي غرفة الانتظار الصغيرة المؤدية إلى مكاتبه، احتجّ القاضي ليتل بشدة. فمولتو لا يزال بنظر القاضي غير قادر على القيام بأي شيء بالشكل الصحيح.

«هل تقول لي إنك أكملت بحثك ولا يمكنك العثور على هذا الشيء البتة؟».

«يا سيدي القاضي -» شرع بالقول.

«لأنها مجموعة واحدة من الوقائع، وعليّ إصدار الحكم على هذا الأساس. ولكن، إذا كنت تقول لي إنك تعتقد أن الأمور ستتبدل وإن الوضع مناسب لك في الوقت الحاضر بدون هذا الدليل، فلدي موقف آخر في هذا الشأن. لن نتحدث عن المتابعة الآن والعثور على الدليل في وقت لاحق. هل أنا واضح؟».

وأمسك نيكو بذراع تومي، وقال للقاضي إنهما يرغبان في الحصول على ليلة واحدة إضافية.

«حسناً إذاً»، قال لارين. «هل أفهم أنكما تطالبان بإرجاء مواصلة المحاكمة حتى نهار غد؟».

فقال نيكو بجزم: «أجل». من الواضح أن النجاح الذي حققه قد عزز موقفه. فباستطاعته تحمّل المحنة بدون كرْب بعد أن استعاد ثقته القديمة بنفسه.

«يا صاحب السيادة»، قال شتيرن. «آمل ألا تكون المحكمة قد قررت السماح للادعاء بمواصلة الاستجواب في شأن دليل بصمات الأصابع بغياب الكأس. بالتأكيد، إذا سمحت سيادتكم، نودّ لو أنكم تسمعون ما لدينا حول تلك المسألة».

«أفهم تماماً»، قال لارين. «ربما تكون راغباً في إجراء بحث حول هذه المسألة، يا سيد شتيرن، وسأكون سعيداً بسماعك. ويمكنني أن أقول لك الآن بالذات إنني لست متلهفاً للسماح لأي شخص بالجلوس في منصة الشهود في قاعة محكمتي وإبداء آرائه حول ما يقول إنه رآه ذات مرة موجوداً على غرض مادي لا يستطيع أحد العثور عليه». وألقى نظرة فظة في اتجاه مولتو. «إذاً، ستُعيد النظر في لائحة التُّهَم الليلة، وسأستمع إليك غداً. ويا سيد ديلاي غارديا، لو كنت مكانك لرفعتُ كمَّي قميصي وانكببتُ على البحث عن ذلك الدليل بنفسي».

«أجل، يا سيدي القاضي»، قال نيكو بامتثال.

ورمقني شتيرن بنظرة ذات معنى من تحت جبينه العريض في أثناء توجهنا إلى قاعة المحكمة. بدا كما لو أنه يستعلم. فالأمر أشبه تقريباً بأنه يعتقد أن باستطاعتي تفسير سبب غياب الكأس. ربما كان شعوره بنجاحنا سبباً لنظراته المعبّرة. فإذا منع لارين المدعيَين العامَّين من العرض لدليل البصمات، فسيكون مصير القضية المرفوعة ضدنا الفشل بالتأكيد. ولم يكن شتيرن واثقاً مما إذا كان يُفترض به أن يكون متفائلاً أم لا، على غراري.

«هل يفكر حقاً بعدم التطرق إلى ذلك الدليل؟»، سأل شتيرن عندما وقفنا وراء طاولة المحامين المرافعين. كنا ننتظر عودة هيئة المحلفين إلى قاعة المحكمة كي يتمكن القاضي من صرفهم لبقية اليوم.

«لقد لفتني أن مسألة الدليل هامة جداً. أليست كذلك؟ علينا دراسة الموضوع الليلة». هذا يعني تمضيتي وكِمب المزيد من الوقت في المكتبة. فأومأتُ برأسي، موافقاً على توجيهات شتيرن الضمنية.

نحو الساعة التاسعة والنصف من تلك الليلة، عاد كِمب إلى مكتبة شتيرن الصغيرة ليخبرني أن هناك اتصالاً هاتفيًا لي. وبقي في المكتبة للاطلاع على سلسلة القضايا التي نسختُها من تقارير المحاكم العليا ومحاكم الاستئناف التابعة للولاية، وذلك في أثناء توجهي إلى طاولة موظفة الاستقبال حيث كان جايمي قد أبقى سماعة الهاتف مرفوعة، وكان الضوء الذي يشير إلى ورود اتصال هاتفي يومض في حالة الانتظار. فافترضت أنها باربارا لأنها تتصل دائماً في هذا الوقت تقريباً أملاً في الاطلاع للحظات على الأدلة التي تمّت مناقشتها خلال اليوم؛ وأواجه كل مساء حالة من التردد والإجابات غير المحدَّدة.

في الحقيقة، لقد بذلتُ قُصارى جهدي لتجنّب باربارا منذ الأيام التي سبقت المحاكمة مباشَرةً. وكنت أقترح عليها كل ليلة الخلود إلى النوم قبل عودتي بسبب تناولي العشاء مع شتيرن وكِمب، ناهياً إيّاها عن ترك وجبة لي. لم أكن أطيق تركيز فضولها على هذا الدليل كضوء قويّ مُسلَط، والعرض لأحداث محاكمتي في وقت متأخر من الليل. فسماعها وهي تقوم بتحليلات في شأن القرارات التكتيكية المتّبَعة في هذه المحاكمة التي تتوقف عليها حياتي يُشعرني بالسقَم على نحو لا يُحتمَل. وفوق كل شيء، لم أكن أتمنى انجراري إلى نقاشات تسبب لي الانزعاج. كنت أعرف الاستنتاجات التي قد تتوصل إليها، ولم أكن أستطيع تحمّل هذه المواجهة في وضعي الحالي؛ التخفيف من الشكوك أو تأكيدها.

ولكن، عندما رفعتُ السماعة، لم يكن صوت باربارا ما سمعتُه.

«كيف كانت شهادتي؟» سأل ليب. «ظننتُ أنهم سيقلّدونك ميدالية

أو ما شابه بسبب كل تلك الأمور المذهلة التي قمنا بها معاً».

«كنتَ رائعاً»، قلت له. لم تكن هناك فائدة من قول الحقيقة.

«تبًا لديلاي»، قال، «قدم شميت لرؤيتي هذا الصباح قبل توجهي إلى المحكمة. قال إن عصفوراً صغيراً أراد التأكد من تلقّيَّ الرسالة القائلة إنني سأقوم بنوبات حراسة ليلية على الأقدام في نورث إند في منتصف الليل إذا عبثتُ على منصة الشهود. هذا الرجل بارع حقاً».

وأصدرتُ صوتاً دلالةً على موافقتي التامة. كنت أوجّه بنفسي رسائل مماثلة من حين لآخر لرجال شرطة تربطهم بمحامي الدفاع المرافع صداقة مميَّزة؛ إنه جزء من العمل.

«كنت أفكر بأن نلتقي الليلة ربما»، قال ليب. «للتحدث عن ذلك الأمر الذي قلتُ إنني سأساعدك به». هو يعني العثور على ليون. «ماذا لو أقللتُك إلى المنزل؟».

«بعد ساعتَين على الأرجح».

«هذا جيد بالنسبة إليّ. لقد حملوني على العمل من الساعة الرابعة وحتى منتصف الليل. سأتناول قهوتي باكراً. في كورنر غراند وكيندل عند الساعة الحادية عشرة والنصف؟ سأصل بسيارة أريس التي لا تحمل أي علامة فارقة».

جرى لقاؤنا كما لو أننا في فيلم سينمائي جاسوسي. بقيتُ في الردهة حتى ظهور السيارة، وتوقف ليب لمدة خمس ثوانٍ فقط قبل أن ينطلق. فبعد أن أدلى بشهادته، خفّت حدة الضغط عليه، ولكن هناك العديد من الأشخاص الذين قالوا له إن الحكمة تقضي بقاءه بعيداً عني. وانعطف عند الزاوية بسرعة لدرجة أن الناحية الخلفية من السيارة انزلقت في اتجاه الرصيف بسبب سقوط مطر خفيف.

وأثنيت عليه مجدداً بسبب شهادته. «كان الأمر جيداً»، قلت، «لأنك قمتَ بالأمر على النحو الصحيح».

«أنا أحاول»، قال، ومدّ يده نحو راديو السيارة التي كانت تُصدر ضجيجاً هائلاً. «رائع»، قال ليب. «نعمل على قضية امرأة مرتبطة

برجال العصابات لمعالجة الإخفاق الذي واجهناه في نيسان/أبريل، ولا يمكن لهؤلاء الظهور معاً علانيةً كي لا يُفتضح أمرهم».

فسألتُ عما يجري.

«الأمر ظريف»، قال ليب. «لقد حصلوا على عميلة جميلة المظهر في معطف من فراء المِنك تم القبض عليها عندما اقتحمت القوة الضاربة مادسن كورفينو. وثبُت أنها تنتمي إلى إحدى العصابات، وكانت على وشك بيع عشرة كيلوغرامات من الكوكايين لشخص ما في نيرنغ».

«إنه أحد جيراني على الأرجح»، قلت. «هناك رجل يقطن في المجمّع السكني يدعى كليف نودلمان وأنفه أكثر احمراراً من أنف رودولف».

ولزمنا الهدوء، مستمعَين إلى حالة حركة المرور على الراديو. شرطة ولصوص. لقد انتابتني كآبة غامضة عندما اعترفتُ بأنني أفتقد ذلك. كان هناك الكثير من التشويش بسبب المطر. من المؤكد أن الرعد والبرق ليسا بعيدَين. لقد ترددتُ في الإشارة إلى ليون في بادئ الأمر، ولكنني سألتُ ليب أخيراً عن سير عمله.

«لم أبدأ بعد»، قال. «سأفعل، وسيكون أول ما أقوم به. ولكن، لا فكرة لديّ عن المكان الذي يتعيّن عليّ البحث فيه. هذا ما أردت أن أعرفه منك. هل لديك أي اقتراحات؟».

«لست أدري، يا ليب. لا يُفترض أن يكون العثور على كرة لحم تُدعى ليون بهذه الصعوبة. اذهب وأجرِ مقابلات مع الندل أو المزيِّنين الداخليين».

«في الواقع، ربما يكون قد انتقل إلى سان فرانسيسكو، أو تُوفِّي بسبب الأيدز أو ما شابه». ورفضتُ الإجابة على ما قاله ليب الذي أشار إلى أنه لا جدوى من جهوده. ولزمنا الهدوء للحظات؛ كان الراديو يُطلق أصواتاً عالية. «هل يمكنني طرح سؤال عليك؟»، قال بعد فترة قصيرة. «هل الأمر بهذه الأهمية؟».

«بالنسبة إليّ؟».

«أجل».

«تماماً».

«هل يمكنني أن أسأل عن السبب؟ أعني، هل تعتقد حقاً أن هذا الرجل سيزوّدك بأي معلومات؟».

فكررتُ له ما قلته في السابق. «أريد العثور على شيء ما، يا ليب. إنها الطريقة الأكثر بساطة التي يمكنني اعتمادها».

«في شأن مولتو؟».

«في شأن مولتو. صحيح. إنها الطريقة التي تمكنت من تخيّلها».

كنا بالقرب من محطة حافلات، وهي مكان موحش في أي وقت؛ ولا سيما في منتصف الليل عندما تُمطر. فنظرتُ إلى الخارج في اتجاه ذلك الشيء الكبير، وشعرتُ بالحزن بسبب تضاؤل ثقة ليب بي. هناك ما يزعجه أكثر من المجازفات التي يتعيّن عليه القيام بها. لقد فهم الأمر انطلاقاً من منظوره الخاص: أريد استخدام هذا الأسلوب مع مولتو لتحويل الانتباه - كما قال نيكو. كان تردد ليب بادياً لكلينا؛ يجب عليّ حثّه بدافع صداقتنا للقيام بما أعلم أنه يرفض القيام به لأجل أي شخص آخر تقريباً. «دعنا نحصل على قطعة ورق على الأقل. يقول برمان، المحقق الخاص الذي استعان به ساندي، إنه لا يستطيع إخراج ورقة بحكم بالسجن من القسم».

«لقد أخبرتك بذلك، يا رَجل، إنهم يمنعون أي تسريبات في هذا الشأن. سوف يواجه كينيلي مشكلة كبيرة معهم لأنه قابلك».

ففكرتُ للحظات.

«كيف علمتَ بذلك؟».

«لا يقصد آمر المراقبة مكاناً لا يلاحظه الناس». وتساقط المطر على النافذة، وأصبح الهواء ثقيلاً. لقد فهمتُ سبب رؤية الجواسيس عند زاوية الطريق.

«بماذا أخبرك؟»، سأل ليب.

«ليس بالكثير. أخبرني أن كارولين ولارين كانا على ألسن الناس

لمدة قصيرة من الزمن. ما رأيك بذلك؟».

«أعتقد أنها تخادع»، قال ليبرانزر، «بالطريقة نفسها كما ظننت دائماً».

«قال إن لارين قد أدخلها مكتب النائب العام عن طريق ريموند».

«لقد اتضح الأمر»، قال ليب.

«هذا ما اعتقدتُه».

«هل أخبرك أي شيء آخر؟».

«المزيد من القصص القديمة. في الواقع، اعتاد الفرع الشمالي أن يكون مكاناً قديماً قذراً، ولكنه يظن أن مولتو نظيف».

«وهل تصدّقه؟ في شأن مولتو؟».

«لا أريد تصديقه».

«لَما أخذتُ بنصيحة ذلك الرجل في شأن النظافة والقذارة. سأقول لك أمراً. الله وحده يعرف من أين يأتي».

«ما الذي يدور بينك وبين لايونيل؟».

«ليس نوع الشرطي المفضَّل لدي»، قال ليبرانزر ببساطة. كنا قد عبرنا جسر نيرنغ ودخلنا الظلمة الفجائية لأحياء الضواحي بعيداً عن سطوع أضواء الكبريت الصفراء في الطريق العام. «في الواقع، كنت أتجنّبه عندما بدأت عملي».

«لم أكن أعرف ذلك».

«أجل»، قال. «كنت أراقبه في أثناء الخدمة. ليس نوع الشرطي المفضَّل لدي».

وقررت عدم طرح المزيد من الأسئلة.

فنظر ليب إلى خارج زجاج السيارة الأمامي. كانت ظلال المسّاحتَين تنتقل بين جانبَي وجهه.

«نتحدث عن ما بين اثنَي عشر عاماً وأربعة عشر عاماً مضت»، قال أخيراً. «كانت الأمور مختلفة. كنت أول من أقرّ بذلك. هل اتفقنا؟ كان الجميع يقومون بأعمال مكتبية آنذاك. هل هذا مفهوم؟ الجميع».

كان ليب ينظر إليّ مباشَــرةً، فعرفتُ ما يعنيه. لقد وجدت الأمر مقلقاً. «كان القوّادون وأصحاب المشارب يدفعون المال. كان أمراً روتينياً. أنا لا أرمي الحجارة، اتفقنا؟

ولكن، ذات ليلة، كنت خارجاً من مكان ما - عند الســاعة الثانية أو الثالثة من بعد منتصف الليل - عندما قدِم شرطي من الشارع بسرعة قصوى وتسمّر في مكانه. ظننت أولاً أنه يسعى ورائي، فاقتربتُ قليلاً، ولكنه لم يرَني. إنه كينيلي. كان رقيباً آنذاك، ونظر عبر الشــارع عند مدخــل البــاب. كانــت هناك مومِس، اتفقنا؟ امرأة ســوداء. في الواقع، كانت ترفع تنورتها، توجهتْ إليه، جارّةً حقيبة يدها كما لو أنه يوجد في داخلها سِندان. وأطلق كينيلي ابتسامة عريضة، وجلس هناك».

واستدار ليب برِفق إلى الطريق المؤدي إلى منزلي، ووضع جهاز نقل الحركة على صــيغة الرَّكن، وأشــعل سيجارة. «ليس نوع الشرطي المفضَّل لدي»، قال مجدّداً.

32

جرت المعركة المحتدِمة الأولى في المحاكمة حول مسألة القانون في اليوم التالي، ودامت طوال فترة الصباح. ووصف نيكو ست ساعات من البحث في غرفة الأدلة التابعة للشرطة من دون أن يعثروا على الكأس. لقد أعدّ الفريقان مذكرات مكتوبة حول ما إن كان بالإمكان الإدلاء بشهادات حول بصمات الأصابع التي تم اكتشافها على الكأس. كان كِمب قد أعدّ الملخصات بعد منتصف الليل، ولا بد من أن مولتو قد شرع بهذه المهمة قبل هذا الوقت لأن نيكو قال إنهما كانا في متاهة غرفة الأدلة عند الواحدة صباحاً. وارتسمت في عيني كل منهما النظرة الضبابية لمحام في أثناء المحاكمة. وانسحب لارين إلى مكاتبه لقراءة ملخصات الفريقَين، ومن ثم عاد لسماع المناقشة الشفهية. في البدء، كان من المفترَض بنيكو وشتيرن فقط أن يخاطبا المحكمة، ولكنهما كانا يوكلان في غالب الأحيان إلى نائبَيهما تولّي هذه المهمة، غير أنهم بلغوا حد المشاركة جميعاً في النقاش مما جعل القاضي يقاطعهم، طارحاً أسئلة افتراضية، ومفكراً بصوت عال في بعض الأحيان. وأوضح شتيرن وجهات نظره بحماسة أكبر من أي وقت مضى في أثناء المحاكمة. ربما شعر بفرصة لتحقيق النصر؛ وربما تراكم اليأس المتهوّر بعد أحداث اليوم السابق. وواصل التشديد على الجَور الكبير الذي يلحق بالمتهَم بسبب إجباره على مواجهة شهادة علمية لا نملك الفرصة لتخمين أساسها. وأعلن نيكو، ومن ثم مولتو، تكراراً أنه لم تتم مناقشة ما يدعى سلسلة الوثائق المرتبطة بالأدلة وفقاً للترتيب الزمني للأحداث. وسواء أكان بالإمكان العثور على الكأس أم لا، فسيتم الاعتراف بشهادة غرير، وليرانزر، وديكرمان، والمشرف على المختبر، لأنه تمّت مطابقة بصمتَي إصبعيَ مع اثنتين من بصمات الأصابع التي تم رفعها عن الكأس في اليوم التالي

للجريمة.

فالمد والجزر بين المحامين غير متناه، وكنت أشعر بمعنوياتي ترتفع على نحو لولبيّ مُغثٍ، وتنهار بعد ذلك من شعور بالجَذَل إلى أسف مرير. من الواضح أن القاضي كان متردداً. إنها إحدى تلك المسائل التي نصادف العديد منها في أثناء المحاكمة؛ إذ يلتزم القاضي بالحدود القانونية مهما فعل. وطريقة قيام لارين بالتعبير عن إهمال الشرطة لنيكو وتومي جعلتني أثق بأنه سيتم حذف الدليل من المحاكمة. ولكن المدعيَين العامَّين كانا صريحَين في شأن الضرر الذي سيُلحقه هذا الأمر بقضيتهما، وألمحا ضمناً إلى أن تعديل أسلوبهما الشهير في الادعاء بسبب إهمال الشرطة أمر غير ملائم. في النهاية، بدت هذه الفكرة مُقنعة، وحكم لارين لصالح الادعاء.

«سأقبل بهذه الشهادة»، قال القاضي بعد قليل من إشارة ساعة المحكمة إلى حلول الظهر. ومن ثم شرح أساس قراره من أجل المحضر كي تتمكن محكمة الاستئناف من تقييم حكمه إذا بلغت المحاكمة تلك المرحلة.

«يجب أن أقول إنني متردد جداً حول القيام بذلك، ولكن أهمية هذا الدليل الواضحة بالنسبة إلى القضية أثّرت في قراري. من الطبيعي أن تلك الواقعة نفسها، ونظراً لطابع بعض الأمور التي حدثت هنا» – ونظر القاضي في اتجاه مولتو – «تدفعني لفهم تشكك الدفاع. هما مُحِقان لأنه لم تتم إتاحة الفرصة لهما لتفحّص الدليل المادي. ومن جهة أخرى، لن يتم تقديم هذا الدليل الذي يُعزى فقدانه إلى غرفة الأدلة التابعة للشرطة. أريد الإشارة لأجل المحضر إلى أن القيّمين على هذه الغرفة مذنبون طوال سنوات بارتكاب هذا النوع من الإهمال في المحافظة على الأدلة وتسليمها. ربما يكون هذا الأمر المثال الأكثر مأساوية، ولكنه بالتأكيد ليس الوحيد الذي علمنا به. ويجب عليّ القول إن تلك المعلومات المستمَدّة من السجل هي التي جعلتني أسمح بالشهادة. في الواقع، إن المدعيَين العامَّين اللذين يملكان أصدق النوايا – وأنا أحكم قَطعاً على نوايا السيد

ديلاي غارديا أو السيد مولتو الذي يبدو أنه كان آخر من يمتلك الكأس -»
وحدّق لارين مجدداً بتومي بعبوس. هل قال غرير ذلك حقاً؟ أتساءل.
«- إنّ المدعين العامّين الذين يملكون أصدق النوايا لا يستطيعون التحكم، كما يبدو، بما يحدث للأدلة عندما تغادر أيديهم. قد يكون لسوء النيّة دور هنا. سوف أستمر بالبحث عن أدلة إضافية على ذلك، وإذا وجدت ذلك النوع من سوء النية، فإن هذا الادعاء سينتهي. نقطة على السطر. ولكن ككل، تتسبب لي تلك الفكرة غير المستساغة بالصدمة لدرجة أنني سأفترض أنها ليست حقيقية. لذلك، سأقبل بالدليل بالرغم من الاعتراض وبعد تسجيل تحفظاتي. ومن جهة ثانية، سأوجّه لهيئة المحلفين تعليمات مشدَّدة بعد التفكير بها مليًّا في ساعة الغداء. سنستأنف المحاكمة عند الساعة الثانية».

وغادر القاضي كرسي القضاء، طالباً من المحامين البقاء للحظات قليلة كي يتمكن من استمزاج آرائهم في شأن التوجيهات التي يريد صياغتها. كان ساندي يتمتع برباطة جأش، ومن الواضح أنه بات يعرف أننا سنفوز. وشرحتُ ما حدث لباربارا التي بدت مستاءة بصفة خاصة من قرار لارين. «الأمر غير مُنصف»، قالت لي. «حتى إنك لم تحظَ بفرصة النظر إليها».

«أفهم ذلك»، قلت. «إنها إحدى الخطوات تلك التي يتعيّن على القاضي القيام بها». لم أكن أحاول ادّعاء البطولة. فلو كنت مكان لارين لاتخذتُ القرار نفسه.

وقصدتُ بيت الخلاء. وعندما خرجتُ، كان نيكو أيضاً يقف قرب المغسلة ويغسل يدَيه، ويحرك رأسه يميناً ويساراً للتحقق من شعره تحت الضوء.

«حسناً، يا راستي»، قال. «هل ستُدلي بشهادتك في الأسبوع القادم؟».

وفقاً لقوانين الولاية، لا شيء يُجبر الدفاع على إطلاع الادعاء على شهوده. فإدلاء المتهَم بشهادته أم لا هو في الغالب السر الذي يتم كتمانه

أكثر من سواه في معسكر الدفاع. وكان يُفترض بالادعاء الاستراحة في اليوم التالي. وإذا افترضنا أن القاضي سيخصص يوماً للمناقشة، فإن قضيتنا ستبدأ مجدّداً يوم الاثنين التالي. وإذا لم يتلقَّ المدعيان العامان أي إيضاح عن نوايانا، فهما لن يعرفا إن كانا سيمضيان نهاية الأسبوع في الإعداد للاستجواب أو لإنهاء المناقشات. وفي معظم الأحيان، ينتهي بهم الأمر عالقين في الاتجاهَين.

«أنا على ثقة تامة بأن شتيرن سيُعلمك بالأمر، يا ديلاي، عندما نعتزم على ذلك».

«أراهن بعشرة دولارات على قيامك بالإدلاء بشهادتك».

كان نيكو يمتحن صبري، وهو أكثر قسوة مما كان عليه عندما التقينا في الأسبوع السابق. إنه ديلاي الماكر كما عهدتُه.

«قد تفوز ربما»، قلت له. «هل أعددتَ الاستجواب؟».

«كنت مضطراً لذلك»، قال. «لم أستطع استجواب باربارا. إنها سيدة لطيفة».

كان نيكو يحاول أن يستبق الأمور مرة أخرى. فهو يريد أن يعرف إن كانت باربارا ستدلي بشهادتها لدعم حجة غيابي. وربما يحاول التحقق مما إذا كنت سأجفل لفكرة قيام مولتو بالتركيز على زوجتي.

«أنت شخص رقيق القلب، يا ديلاي». ونظرتُ إلى نفسي في المرآة. لقد اكتفيتُ من هذا الحديث. فنيكو المتفائل بسير الأحداث في اليومَين الأخيرَين لن يدع المسألة تمر.

«لا تخذلني، يا راستي. أريد حقاً سماع ذلك. في الواقع، أتساءل أحياناً. أقول لنفسي، كيف يمكن للشخص الذي عرفتُه أن يقوم بأمر مماثل؟ أنا أعترف بذلك. أتساءل أحياناً».

«يا نيكو، إذا أخبرتُك بما حدث فعلاً فلن تصدّق ذلك».

«الآن، ما الذي يعنيه هذا الأمر؟».

فاستدرتُ وأمسك مِرفقي.

«حقاً، ما الذي يعنيه ذلك؟»، سأل. «لا علاقة للأمر بذلك الهراء

عن قيام تومي بتلفيق تهمة لك، أليس كذلك؟ أعني، إنه كلام للصحف، يا راستي. أنا ديلاي». ولمس قميصه. «لا يمكنك تصديق ذلك. إنه مجرد هراء. أنا وأنت. هنا بالذات. صديقان قديمان. لن يُفشي أحد أي شيء. أنت تقول لي ذلك الهراء؟».

«أين الكأس؟».

«آه، تبًا للكأس. الشرطة تُضيع كل شيء. كلانا نعلم ذلك».

«لقد بدا لي أنه قام بالتنسيق مع أوجينيا».

«ماذا؟ أتعتقد حقاً أنه طلب منها أن تقول يا عزيزتي؟ هيا. لقد ضغط عليها كثيراً. أُقرّ بذلك. وكان الأمر ضرباً من ضروب الغباء. لقد قلت له ذلك. لقد قلت له ذلك. إنه يعتمد الإكراه. تعرف ذلك. كان متيَّماً بكارولين، ومقرَّباً منها جداً. كان يعتبرها إحدى صديقاته الأكثر قرباً منه، كما لو أنها شقيقته. كان يهتم بأمرها. إنه ملتزم جداً بهذه القضية».

«هل نظرتَ يوماً إلى ذلك الملف يا نيكو؟».

«ذلك الذي أخرجه ريموند من دُرجه؟».

«تحقَّق من الأمر بنفسك. ربما تكون هناك بعض المفاجآت حول الشقيقة الكبيرة والشقيق الصغير».

فابتسم نيكو وهز رأسه تعبيراً عن عدم تصديقه ذلك. ولكن، باستطاعتي القول إن الأمر قد ترك أثراً في نفسه؛ لقد استمتعتُ بهذا الإنجاز. وجففتُ يديّ بالمناديل الورقية، وأنا أزمّ فمي لأُظهر له أنني لن أقول المزيد.

«هكذا إذاً، هَه؟ هذا هو السر الكبير. تومي هو من قام بالأمر. هذا ما أنتظر سماعه؟».

«واصل عملك، يا ديلاي»، قلت بهدوء وأنا أدير ظهري له. «سأزوّدك بعرض تمهيدي. سؤال واحد. هنا بالذات. أنا وأنت، كما قلتَ. من دون تسجيل ذلك. الصديقان القديمان فقط. لن يُفشي أحد أي شيء لأي شخص آخر». ودرتُ حول نفسي، ونظرت إليه مباشَرةً.

«هل قمتَ بذلك؟»، سأل.

لقد عرفتُ أنه سيطرح السؤال. فعاجلاً أم آجلاً، يتعيّن على شخص ما طرح السؤال عليّ. وأنهيتُ تجفيف يدَيّ، واستجمعتُ كل ما أملكه من معلومات تَمُتّ إلى الحقيقة بصلة.

«لا، يا نيكو»، قلت بهدوء، ونظرتُ إلى عينَيه مباشَرةً، «لم أقتل كارولين».

لقد أدركتُ أنني أثّرت فيه. فقد اتّسع بؤبؤا عينَيه، وأصبحت عيناه أكثر قتامةً في الحال، وتبدّل لون وجهه.

«جيد جداً»، قال أخيراً. «ستكون في أحسن حال». وابتسم أخيراً. «إذاً، كل ذلك هراء، هَه؟ تم اتهامك عن طريق الخطأ وكل شيء؟».

«تبًّا لك، يا ديلاي».

«عرفتُ أنني سأسمع ذلك أيضاً».

وخرجنا من بيت الخلاء، ضاحكَين. وعندما رفعتُ نظري، أدركتُ أنني لفتّ انتباه شتيرن وكِمب اللذين كانا واقفَين على مسافة قريبة من الممر وهما يتشاوران مع برمان، المحقق الخاص. إنه طويل القامة جداً، مع بطن كبير وربطة عُنُق فاقعة اللون. وبدت الإثارة في نظرة شتيرن. ربما استاء بسبب رؤيتي مع نيكو. ولكن، يبدو أنه تمّت مقاطعته. فلوّح بيده، متجاهلاً الآخرَين، وعاد إلى قاعة المحكمة. وسار كِمب مع برمان خطى قليلة، ومن ثم عاد إليّ. وراقبنا ديلاي وهو يتبع ساندي إلى الداخل.

«لن أكون هنا بعد ظهر هذا اليوم»، قال جايمي. «طرأ أمر ما».

«أهو أمر جيد؟».

«جيد جداً إذا كانت النتيجة كذلك».

«هل هو سر؟».

ونظر جايمي إلى الخلف في اتجاه باب قاعة المحكمة.

«طلب ساندي عدم مناقشة الأمر في الوقت الحاضر. لا تعلّق آمالاً زائفة. يريد منا أن نلتزم الحذر. أنت تفهم ذلك».

«ليس حقاً»، قلت.

وأخبـر برمـان الـذي يقف على بُعد مسـافة منا جايمـي أن عليهما المغادرة. ولمس كِمب كمّي.

«إذا نجح الأمر، فستكون مسروراً. ثِق بي».

كانـت نظرتـي بائسـة بالتأكيـد ومُربَكة ومُحبَطة بسـبب محاميَّ، ولكنني أعرف أنه لا يمكنني الاعتراض. لقد علّمت جايمي كِمب بنفسي ألا يفرط بثقته، ودرّبتُه على التشكك المِهني وعلى الثقة بأن أفضل حُكم يمكنه الانتظار.

«طرأ أمر ما على أحد الاستدعاءات للمثول أمام المحكمة»، قال. ونادى برمان ثانيةً: لقد أخبرا الشخص بأنهما سيكونان هناك عند الساعة الواحدة. وعاد جايمي. «ثِق بي»، قال مرة أخرى قبل أن يحثّ السير في الردهة.

«سـيداتي وسـادتي»، قرأ لارين لهيئة المحلفين. «أنتم على وشك سـماع شـهادة خبير في بصـمات الأصـابع، موريس ديكرمان، في ما يتعلق بالدليل الذي يدّعي أنه تمّت مطابقته على كأس ما. ولدى التفكير مليًّا بهـذا الدليـل يجب عليكم - أقول يجب - أن تضـعوا نُصـب أعينكم أن الدفاع لم يحظَ بفرصـة لتفحّص الكأس. فالشـهادة صـحيحة، ولكن يعود لكم أمر تحديد الأهمية التي ستولونها للشهادة. لم يحظَ الدفاع بأي فرصـة لمعرفة الشـرح العلمي الذي يمكن ربطه بدليل الادعاء. كما أنه لم يحظَ بأي فرصـة لمعرفة إن كان هناك احتيال من نوع ما. لا أقول إن هناك احتيالاً، ولكنني أقول لكم إن الدفاع لم يحظَ بفرصة الحصول على عالِم خاص به يُبدي رأيه بالدليل. ولم يحظَ بفرصة للتحقق إن كان هنـاك خطـأ ما؛ خطأ غير مقصـود، ولكنه يبقـى خطأ. حتى إنه لم يحظَ بفرصة التحقق من وجود عالِم آخر يتفحّص الكأس ويقول إن البصمتين عائدتان لشخص آخر.

وأطلب منكم باسـم القانون، سـيداتي وسـادتي، عندما تنتهي هذه القضـية وتقومون بمناقشـتها بترَوٍّ أن تفكروا مليًّا بهذه الشـهادة وبعجز الادعاء عن توفير الكأس للدفاع. ويُسمح لكم؛ أنا لا أُملي عليكم ما يتعيّن

عليكم القيام به، ولكن يُسمح لكم في إطار هذا الواقع فقط أن تثيروا في أذهانكم شكاً منطقياً حول تبرئة السيد سابيتش».

«حسناً، تابع».

حدّق مولتو بالقاضي للحظات وراء المنبر. لقد تخلّى الرجلان عن تظاهرهما، وهناك كره تام بينهما، واضح وشديد. في غضون ذلك، تركت قوة توجيهات لارين المحدودة أثرها في قاعة المحكمة. لقد شكك القاضي بدليل بصمتي الإصبعين، وقال إن التبرئة استنتاج مسموح به. واقتراح حدوث خطأ ما هو كجرح حتى العظام بالنسبة إلى محاكمة جنائية.

واعتلى موري ديكرمان منصة الشهود. إنه المهني البَحت. فهذا النيويوركي شديد النحول الذي يضع نظارة ذات إطار قاتم اللون يجد بصمات الأصابع أمراً مثيراً للدهشة. كان معجَباً بي لأنني كنت أجلس هناك وأصغي إليه. وموري صالح بقدر سوء بينلس كوماغاي. كان يحمل صوراً فوتوغرافية وشرائح شفافة، وأجرى عرضاً لهيئة المحلّفين على كيفية استخدامها، وشرح كيفية تظهير الصور، وترْك بعض الأشخاص رواسب من الزيوت في بعض الأحيان. فالبعض لا يتركون بصماتهم، والبعض الآخر يتركون بصماتهم في أوقات محدَّدة؛ يعتمد الأمر على مدى تعرّقهم. ولكن، عندما يتركون بصمة، تكون فريدة. ولا أحد يملك بصمات أصابع مماثلة للآخر. لقد عرض موري لكل ذلك بطريقته التفصيلية، وانتقل في الدقائق الخمس الأخيرة من شهادته إلى صور عن المشرب، والكأس، والعيّنات التي تم رفعها، وصور مكبَّرة لبطاقتي في ملف موظّفي الولاية. وكان قد أشير إلى كل نقاط المقارَنة بأسهم حمراء. لقد استعدّ موري بشكل جيد كالعادة.

لقد أمضى شتيرن بعض الوقت واقفاً على قدمَيه، ومدقّقاً بصورة فوتوغرافية مكبَّرة لإحدى بصماتي التي رُفعت عن الكأس قبل أن يشرع باستجوابه. وأدار الصورة في اتجاه موري.

«في أي تاريخ من نيسان/أبريل أعدّت هذه الصورة، يا سيد

ديكرمان؟».

«لا فكرة لديّ».

«ولكنك واثق من أنها أُعدّت في أول نيسان/أبريل؟».

«لا يمكن تحديد ذلك أيضاً».

«عُذراً؟»، وهبط فم شتيرن تعبيراً عن دهشته المستهزئة. «حسناً، يمكنك أن تخبرنا بالتأكيد أنها أُعدّت في تاريخ قريب من الأول من نيسان/أبريل أليس كذلك؟».

«لا».

«حسناً، كم تدوم بصمات الأصابع؟».

«سنوات»، قال ديكرمان.

«عُذراً؟».

«قد تمضي سنوات قبل أن تختفي الزيوت».

«ما هي أقدم بصمة إصبع قمتَ برفعها طوال مدة عملك في قسم الشرطة؟».

«في قضية اختطاف، رفعتُ بصمة إصبع عن عجَلة قيادة سيارة مهجورة يعود تاريخها لثلاث سنوات ونصف».

«ثلاث سنوات ونصف؟»، وأصدر شتيرن صوتاً. إنها أُعجوبة. فالرجل الذي دمّر ريموند هورغان يتظاهر الآن بالارتباك وبامتثاله للخبير. كان يتصرف كما لو أنه يكشف النقاب عن كل ذلك ببطء. «إذاً، قد يكون السيد سابيتش قد حمل هذه الكأس قبل ستة أشهر عندما كان يقصد شقة السيدة بوليموس كي يعملا معاً على قضية ماك غافن، أليس كذلك؟».

«لا أعرف متى حمل السيد سابيتش الكأس. ولكن، ما يمكنني قوله هو أنها كانت تحمل بصمتَين من بصمات أصابعه. هذا كل شيء».

«لنفترض أن السيد سابيتش قد لمس الكأس لسبب ما - لشرب الماء مثلاً - وأنه تم غسل الناحية الداخلية من الكأس فقط بعد استخدامها، فهل من المحتمَل أن تبقى بصمتاه عليها؟».

«أجل. وبالمناسبة، من الممكن نظرياً أن تكون الكأس قد غُمرت بالماء. عادة، يزيل الصابون والماء الزيوت، ولكن في قضايا منشورة، تمّت مطابقة بصمات أصابع بعد غسل الغرض بالصابون والماء».

«غير معقول!»، قال ساندي شتيرن مندهشاً.

«لم يسبق لي أن صادفت أمراً مماثلاً»، قال ديكرمان.

«حسناً، نعلم على الأقل أن أي شخص آخر لم يحمل الكأس بسبب عدم وجود بصمات أصابع أخرى عليه».

«لا».

وتسمّر شتيرن في مكانه. «عُذراً؟».

«هناك شخص آخر مجهول».

«غير معقول!»، قال شتيرن مجدّداً. كان يتكلم بارتباك وبطريقة مسرحية غير منتظمة. ففي مرحلة مبكّرة من المحاكمة، لم ترَه هيئة المحلفين بما يكفي لتدرك أنه يمثّل. وفي أسبوعنا الثاني، كانت بعض إيماءاته أكثر وضوحاً ولا سيما في ما يتعلق بتعمُّد سلوكه. كان يقول، أنا أعلم وأنتم تعلمون، وهذا يدلّ على الثقة. وهكذا، فهموا أنه لا يحاول في الواقع استبعاد صدور أي موقف منهم. «أتعني أن هناك بصمة أخرى على الكأس؟».

«هذا ما أعنيه».

«هل من الممكن، يا سيدي، أن يكون السيد سابيتش قد لمس الكأس قبل أشهر، وحملها شخص آخر في الأول من نيسان/أبريل؟».

«إنه أمر ممكن»، قال ديكرمان بهدوء. «أي شيء ممكن».

«حسناً، نعلم أن السيد سابيتش كان هناك في تلك الليلة بسبب وجود بصمات أصابعه على العديد من الأغراض في الشقة، ألم تكن موجودة؟».

«لا، يا سيدي».

«حسناً، لا بد من وجود بعض الأمور. على سبيل المثال، كانت مزاليج النافذة مفتوحة. هل كانت هناك بصمات يمكن مطابقتها؟».

«كانت هناك بصمات يمكن مطابقتها، يا سيدي، ولكن صاحبها مجهول».

«إنها بصمات شخص ما غير السيد سابيتش؟».

«أو السيدة بوليموس. لقد استثنيناها».

«ترك شخص ثالث تلك البصمات؟».

«أجل، يا سيدي».

«كما هي حال الكأس تماماً؟».

«هذا صحيح».

واستعرض شتيرن لائحة بالمواقع التي أُخذت منها عيّنات داخل الشقة من دون العثور على بصماتي عليها: الطاولة الصغيرة المقلوبة، أدوات المِدفأة المرتبطة بإمكانيّة أن تكون إحداها سلاح الجريمة، سطح المشرب، طاولات الكوكتيل، النافذة، الباب، وخمسة أو ستة أماكن أخرى.

«ولم تظهر بصمات السيد سابيتش على أي من تلك الأماكن؟».

«لا، يا سيدي».

«فقط على هذه الكأس التي لم يعُد بالإمكان العثور عليها؟».

«أجل، يا سيدي».

«أظهرت في مكان واحد؟».

«هذا كل شيء».

«لو كان هناك لترك بصمات في كل مكان في الشقة، أليس كذلك؟».

«ربما، وربما لا. فالزجاج سطح سريع التقبّل على نحو غير عادي».

كان شتيرن يعرف الجواب بالتأكيد.

«ولكن الطاولة»، سأل شتيرن، «والنوافذ؟».

هز ديكرمان كتفَيه. فهو ليس موجوداً هنا ليشرح بل ليحدد هوية البصمات. وحصل شتيرن على أكبر قدر من المعلومات من ديكرمان،

ونظر إلى هيئة المحلفين مباشَـرةً، وذلك للمرة الأولى منذ بدئنا، سـعياً وراء التأييد.

«يا سيدي»، قال شتيرن، «كم كان عدد البصمات الأخرى العائدة لشخص ثالث غير السيد سابيتش والسيدة بوليموس؟».

«إنهـا خمسـ بصـمات، كما أعتقـد. واحدة على مـزلاج الباب، وواحـدة علـى النافذة، واثنتان علـى الأدوات الزجاجية، وواحدة على طاولة كوكتيل».

«وهل تعود أي من هذه البصمات للشخص نفسه؟».

«لا يمكنني معرفة ذلك».

فانحنى شتيرن إلى الأمام قليلاً، مشيراً إلى أنه لم يفهم، ولم يكن قد غادر جانب طاولة الدفاع بعد.

«عُذراً؟»، قال مرة أخرى.

«ليسـ بالإمـكان معرفة ذلك. باسـتطاعتي أن أطلعك على كل من لم تأخذ المقاطعة بصـماته لأننا أجرينا البحث بواسـطة الكمبيوتر. إنهم لا يملكون سـجلاً جنائياً، ولم يعملوا لصـالح المقاطعة. ولكن قد يكونون خمسـة أشـخاص مختلفين أو الشـخص نفسه. ربما كانت البصمات عائدة إلى عاملة التنظيفات أو إحدى الجارات أو صديق ما. لا يمكنني معرفة ذلك».

«لا أفهم»، قال شتيرن الذي كان يفهم جيداً.

«لدى الأشخاص عشر أصابع، يا سيد شتيرن. لا أعرف إن كانت البصـمة المجهولة أيه للسـبابة، وبي للوسطى. كما أنه لا يمكنني التفريق بين اليد اليسرى واليمنى. لا يمكن معرفة ذلك من دون معطيات».

«حسـناً، بالتأكيد، يا سـيد ديكرمان -» وتوقف شـتيرن. «من هو المدعي العام الذي أشرف على نشاطاتك بعد السيد سابيتش؟».

«مولتو»، قال ديكرمان. ينتابكم على الفور شعور بأن موري لم يكن يُبالي كثيراً بتوم.

«حسـناً، هل طلب منك مطابَقة هذه البصـمات غير محدَّدة الهوية

للتحقق مما إذا كانت اثنتان منها تعودان للإصبع نفسها؟».

جيد جداً، قلت في سرّي. ممتاز. إنه التفصيل الذي أغفلته باستمرار كمدّع عام. أنا أفكر بالمتهَم، والمتهَم يفكر بالجميع تقريباً.

ولكن، عندما أجاب ديكرمان: «لا، يا سيدي، لم يطلب مني ذلك»، أشاح أحد المحلفين بوجهه، وهو منسّق أغانٍ على الكمبيوتر بدوام جزئي، وهز رأسه، ونظر إليّ مباشرةً كما لو أنه يقول لي، هل يمكنك تصديق ذلك؟ لقد صُعقتُ بسبب التقدم الكبير الذي أنجزناه منذ اليوم السابق. والتفت المحلف إلى المرأة الشابة الجالسة بجانبه التي تدير صيدلية، وتبادلا الملاحظات.

«يمكن إجراء المطابقة بين ليلة وضحاها»، قال ديكرمان.

«حسناً»، قال شتيرن، «أنا واثق من أن السيد مولتو قد يتذكر الآن». وهمّ شتيرن بالجلوس. «هل تعرف، يا سيد ديكرمان، سبب عدم طلب السيد مولتو منك إجراء تلك المطابَقة على البصمات الأخرى؟»، إن المحامي المرافع الجيد لا يسأل أبداً عن السبب ما لم يكن يعرف الجواب. فشتيرن يعرف الجواب على غراري. إنه الإهمال. هناك أمور كثيرة يتعيّن القيام بها من دون وجود وقت كافٍ لذلك. إنها مسألة تركيز. فأي إجابة تكون كفيلة بإثارة الشكوك حول مولتو.

«أفترض أنه لم يكن يهتم بذلك»، قال ديكرمان، محاولاً التقليل من أهمية معنى الإغفال، ولكن جوابه كان نذير سوء لأنه بدا للمحلفين أن مولتو لم يكن مهتماً بالحقيقة.

وشتيرن الذي لم يبتعد عن طاولة الدفاع وقف هناك مرة أخرى.

«بهذه البساطة»، قال. «بهذه البساطة».

دنا السيد مولتو من المنبر، واستُدعيت السيدة مايبل بياتريس التي تعمل خادمة في منزل في نيرنغ. لقد شعرتُ بالارتياح عندما رأيت تومي واقفاً هناك مرة أخرى. فبسبب كل ذلك القدْر من الإهمال الذي يتصف به نيكو، بدا الأمر كما لو أن تومي قد وجد مكانه في قاعة المحكمة؛

إنــه أقــل قابلية للتكيّف. ففــي مكتب النائب العام، كان هناك على الدوام تصنيف ثقافي، حاجز اصطدمت به صداقتي مع نيكو في نهاية المطاف. لقد اختار ريموند موظفين من النُّخبة؛ محامين شــباناً تخرجوا من كلّيات الحقــوق بدرجــات تروق لــه، وأوكل إليهم بعد فترة من التدريب مهاماً مرتبطة بالتحقيقات الخاصة. لقد ادّعينا على المُذنِب والثريّ بسبب الرشوة والاحتيال، وأجرينا تحقيقات طويلة الأمد بحضور هيئة المحلفين الكبرى التي تحدد إن كانت هناك أدلة كافية للمحاكمة؛ وتعلّمنا النظر في قضــايا في مواجهة محامين مهمّين من أمثال شتيرن؛ محامين يناقشون القانون مــع القضــاة، والفــوارق الدقيقــة في المعاني مع المحلفيــن. ولم يتناول مولتو - وديلاي غارديا - ســوى قضــايا الادعاء على جرائم الشــارع. لقد تغذّى المزيج الخاص لدى تومي من الاعتداد بالنفس والانفعال من فتــرة طويلــة مــن الزمن أمضــاها في قاعات المحاكــم والمحاكم الفرعية الجنائية. فتلك أماكن لا تُمنَع فيها ممارسة أي وسائل ضغط، ويستخدم فيها محامو الدفاع كل اســتراتيجية ووســيلة رخيصــة، ويتعلم المدّعون العامــون كيفيــة محاكاتهم. وغدا تومــي ذلك النوع من المدعين العامين الذين يُنتجهم مكتب النائب العام؛ فهو محامٍ لا يُجيد اكتشاف الحدود بين الإقنــاع والخــداع، ويعتبــر النظر في دعوى قضــائية سلســلة من الحِيَل البارعة والخِدَع. لقد ظننتُ في البداية أن شخصــيته المتوهّجة هي التي ستكون بمثابة إلهاء للولاية، ولكن عجزه عن تجنّب ما اعتاد القيام به هو العبء الذي أثقل كاهل الادعاء. إنه أكثر براعة من نيكو، ويملك ذكاء حادًا، ويكون على أهبة الاســتعداد دائماً. ولكن، كل شــخص في قاعة المحكمة اشتبه بأن حماسته بلا حدود؛ فهو سيبذل قُصارى جهده ليفوز. وأيًّا تكن المنافسة أو الغيرة القديمة المحيطة بكارولين، فقد اعتبرتُ أنه لا بد لهذه الميزة من أن تكون أيضاً مصدراً جزئياً للكراهية القائمة بين القاضي وبينه.

وهذا هو الأمر نفســه الذي جعلني فضــولياً إلى حد كبير في شــأن ليــون، والملــف **بــي**، وأي ظلال تلوح في ماضــي مولتو. لقد وجدتُ

تعليق نيكو في شأن علاقة مولتو الوثيقة بكارولين مثيراً للفضول. من يعلم بالتحديد كيف قامت بخداعه؟ ووجدت نفسي مقتنعاً أكثر فأكثر – وعلى غرار أي شخص آخر هناك – بأن هناك شيئاً شريراً في شخصيّة مولتو. فمن السهل جداً بالنسبة إلى مولتو أن يبرر سلوكه. وما بدأ كوهم آخر من أوهام شتيرن في قاعة المحكمة تجسّد كما يبدو حقيقة واقعة. لقد تساءلتُ عما إذا كان مولتو هو الهدف. فمع استمرار شتيرن بخدعة محامي الدفاع القديمة المتمثلة بمحاكمة المدعي العام، كان رد فعل مولتو، الذي ارتكب كما يبدو أكبر خطأ باستجوابه خادمة نيرنغ، ضعيفاً.

لقد قالت السيدة بياتريس إنها رأت رجلاً على متن حافلة الساعة الثامنة ذات ليلة، يوم ثلاثاء في شهر نيسان/أبريل. ولم تتمكن من تحديد تاريخ تلك الليلة، ولكنها كانت ليلة ثلاثاء لأنها تعمل حتى وقت متأخر أيّام الثلاثاء، وكان ذلك في شهر نيسان/أبريل لأنها تتذكر أنها تحدثت فيه للمرة الأولى إلى رجال الشرطة الذين كانوا يُجرون مقابلات عشوائية في محطة الحافلات في أيار/مايو.

«الآن يا سيدتي»، قال مولتو، «أطلب منك النظر في أنحاء قاعة المحكمة للتحقق مما إذا كان هناك شخص تعرفينه».

وأشارت إليّ.

فجلس مولتو.

وشرع شتيرن باستجوابه، فحيّته السيدة بياتريس من دون وجَل. إنها امرأة مُسنّة، وشجاعة تماماً، وذات وجه مرِح وأنيس. شعرها مسرّح إلى الوراء على شكل كعكة. وتضع نظّارة ذات إطار سِلكي مستدير.

«يا سيدة بياتريس»، قال شتيرن بمودة، «أفهم أنك من الأشخاص الذين يصلون إلى محطة الحافلات في وقت مبكّر قليلاً». كان شتيرن يعرف ذلك بالتأكيد لأن الوقت مدوَّن في محضر المقابلة التي أجرتها الشرطة معها.

«أجل، يا سيدي، تُقلّني السيدة يانغنر كل ليلة إلى المحطة قبل موعد

انطلاق الحافلة بربع ساعة كي أتمكن من شراء صحيفة وحجز مقعد لي».

«والحافلة التي تستقلينها للذهاب إلى المدينة هي نفسها التي تعود إلى المدينة، أليس كذلك؟».

«أجل، يا سيدي».

«هي تصل إلى نيرنغ وتعود إلى المدينة؟».

«تعود أدراجها من نيرنغ، هذا صحيح».

«وهل تكونين هناك كل ليلة عندما تصل الحافلة قبل ربع ساعة من انطلاقها؟».

«عند الساعة الخامسة وخمسٍ وأربعين دقيقة. كل ليلة تقريباً، أجل، يا سيدي. باستثناء الثلاثاء، كما شرحتُ».

«والعائدون من وسط المدينة إلى منازلهم يترجلون من الحافلة، ويمرّون بجانبك فتتسنى لك فرصة رؤية وجوههم، أليس كذلك؟».

«آه، أجل، يا سيدي. يبدو على العديد منهم الإرهاق والتعَب».

«الآن، يا سيدتي - حسناً، لا يُفترض بي أن أطرح عليك هذا السؤال -» ونظر شتيرن مجدداً إلى تقرير المقابلة التي أجرتها الشرطة. «أنتِ لا تجزمين أن السيد سابيتش هو الرجل الذي رأيتِه على متن الحافلة ليلة الثلاثاء تلك، أليس كذلك؟» لا ضَير من السؤال. لقد ترك أسلوب مولتو المباشَر انطباعاً بأن هذا ما حدث في الواقع. وقطّبت السيدة بياتريس وجهها، وهزت رأسها بتأكيد أكبر.

«لا، يا سيدي. هناك أمر أودّ أن أشرحه».

«افعلي ذلك، رجاءً».

«علمتُ أنني رأيتُ هذا الرجل». وأومأت برأسها في اتجاهي. «لقد أخبرتُ السيد مولتو بذلك عدة مرات. رأيت هذا الرجل عندما توجّهتُ إلى الحافلة للصعود على متنها. الآن أتذكر، كان هناك رجل على متن تلك الحافلة ذات ليلة ثلاثاء لأنني عملت حتى وقت متأخر من تلك الليلة بسبب تأخر السيدة يانغنر بالعودة إلى منزلها في أيام الثلاثاء حتى الساعة السابعة والنصف. وأتذكر أنني رأيت رجلاً أبيض لأننا لا

نصــادف العديد من الرجال البيض الذين يســتقلّون الحافلة للذهاب إلى البلــدة فــي ذلــك الوقــت من الليل. ولكنني لا أســتطيع أن أتذكر إذا كان هــذا هــو الرجــل الذي رأيته أو رجلاً آخــر. أعرف أن هذا الرجل يبدو لي مألوفاً، ولكن لا يمكنني القول إن كنت قد رأيته في المحطة أو على متن الحافلة في تلك الليلة».

«ألديك بعض الشــك في أن يكون الســيد ســابيتش هو من رأيته في تلك الليلة؟».

«هــذا صــحيح. لا يمكننــي القول إنه هــو. قد يكون هو. لا يمكنني الجزم».

«هل تحدثتِ إلى السيد مولتو في شأن شهادتك؟».

«عدة مرات».

«وهل أخبرتِه بكل ما أخبرتنا به للتوّ؟».

«آه، أجل، يا سيدي».

والتفــت ســاندي فــي اتجاه مولتــو، مُلقياً عليه نظــرة مليئة بتعنيف صامت ومتكبّر.

* * *

بعد المحكمة، طلب مني شتيرن العودة إلى المنزل، وأمسك بذراع باربارا وسحبها في اتجاهه.

«اصطحب زوجتك الجميلة إلى العشاء. فهي تستحق بالتأكيد بعض المكافأة على دعمها اللطيف».

فقلــتُ لشــتيرن إننــي كنت آمــل البدء بالتحدث عــن الدفاع، ولكن ساندي هز رأسه.

«راستي، يجب أن تسامحني»، قال. فنظراً إلى كونه رئيس لجنة رابطة المحامين الجنائيين، كان مسؤولاً عن عشاء رسمي من المفترَض إقامته في ليلة اليوم التالي احتفاءً بتقاعد القاضــي ماغناســن الذي شــغل منصــب قاضــي الجنايات طوال ثلاثة عقود. «ويجب عليّ تمضــية ساعة أو اثنتَين مع كِمب»، أضاف بشكل عفوي.

«هل ترغب في إخباري عن مكان وجوده في أثناء المحاكمة؟».

فقطّب شتيرن وجهه.

«راستي، رجاءً، تساهل معي». وأمسك ثانيةً بذراع باربارا وذراعي. «بلغتنا بعض المعلومات. سأطلعك عليها. إنها ترتبط باستجوابي للدكتور كوماغاي غداً. ولكن، لا جدوى من إطلاعك عليها الآن. قد تكون مجرد إساءة فهم. لا أرغب في حملك على بناء آمال زائفة. من الأفضل لك عدم معرفة أي شيء. رجاءً. اقبل نصيحتي في هذا الشأن. لقد عملتَ طوال ساعات، استرح اليوم. يمكننا مناقشة الدفاع في نهاية الأسبوع إذا اضطررنا لذلك».

«إذا اضطررنا لذلك؟»، سألتُ. كان يراوغ. هل يقترح علينا الاستراحة لأن لا دليل لديه؟ أم أن هذه المعلومات الجديدة مثيرة جداً لدرجة إيقاف المحاكمة؟

«رجاءً»، قال ساندي ثانيةً. وقادنا إلى خارج قاعة المحكمة. وتدخلت باربارا، وأمسكت بيدي.

وتناولنا العشاء في رشتنرز، وهو مطعم ألماني قديم الطراز بجانب دار القضاء أحببته على الدوام. وبدت باربارا مسرورة بصفة خاصة بعد التطورات السارة في ذلك اليوم. لقد تأثرت هي أيضاً كما يبدو بأحداث اليوم السابق القاسية، واقترحت تناول الشراب. وبعد فتح زجاجة الشراب، شرعت بطرح أسئلة عليّ في شأن المحاكمة. لقد استمتعت بالفرصة السانحة لتكون على مقربة مني أخيراً. من الواضح أنها كانت تشعر بالإحباط بسبب عدم وجودي معها. لقد طرحت سلسلة من الأسئلة بعينَين كبيرتَين قاتمتَي اللون، ثابتتَين وعازمتَين. كانت مهتمة جداً بالنصوص التوافقية في شأن الشعر والألياف. لماذا اخترنا تلك الصيغة بدلاً من الشهادة؟ وطلبتْ تقريراً كاملاً عن كل ما كشف عنه تقرير المختبر. ومن ثم استعلمتْ بإسهاب عن كوماغاي، وما يُتوقّع من شهادته أن تُظهره. كانت إجاباتي مقتضَبة كما كانت الحال على الدوام. فأجبتُ بإيجاز، طالباً منها تناول وجبتها، في حين حاولتُ احتواء

انزعاجي. وكالمعتاد، وجدتُ اهتمام باربارا مخيفاً. هل فضولها حقيقي حقاً كما يبدو؟ هل الإجراءات والأُحجيات هي التي تجذبها أكثر من وَقعها عليّ؟ وحاولتُ تغيير الحديث، سائلاً إيّاها عما بلغنا من ناتانيال، ولكن باربارا أدركت أنني أتحاشى التكلم في الموضوع.

«في الواقع»، قالت، «أنت تعود إلى حالتك السابقة».

«ما الذي يعنيه ذلك؟» مراوَغة رائعة.

وشرعتْ بالتذمّر. وصبّت جام غضبها عليّ بالرغم من احتسائها الشراب. لقد أصبح وجهي، كما تخيّلتُ، كوجه والدي مع تلك النظرة الغامضة غير المروَّضة. فانتظرتُ حتى انتهت سورة غضبها.

«ليس اختباراً سهلاً، يا باربارا. أحاول الخروج من المأزق يوماً بيوم».

«أريد أن أساعدك، يا راستي»، قالت، «بقدر استطاعتي».

لم أُجب. ربما كان يُفترض بي أن أغضب مرة أخرى، ولكنني تُركت في كهوف حزني الأكثر ظُلمة في حياتي، كما يحدث دائماً بعد سورة غضب.

ومددتُ يدَيّ عبر الطاولة وأمسكت بيدَيها.

«لم أستسلم»، قلت. «أريدك أن تعرفي ذلك. أصبح الأمر صعباً جداً الآن. أحاول فقط معرفة النهاية. ولكنني لا أستسلم أبداً في مواجهة أي شيء. أريد الخروج من هذا الوضع بأسرع وقت ممكن كي أحظى بفرصة للبدء من جديد. اتفقنا؟».

ونظرت إليّ بصراحتها المعتادة، ولكنها أومأت برأسها أخيراً.

وفي أثناء عودتنا إلى المنزل، سألتها مجدداً عن نات، فأخبرتني على غير عادتها بأنها تلقّت عدداً من الاتصالات الهاتفية من مدير مخيّمه. فناتانيال يستيقظ مرتَين في الليل صارخاً بسبب كوابيس تنتابه. والمدير الذي وضع حالة نات في بادئ الأمر في خانة التكيّف مع الأجواء الجديدة قرر مؤخراً أنها حالة حادّة تتعدّى كونها حنيناً إلى العائلة. هناك قلق بارز ومبالَغ فيه حيال مصيري بسبب بُعدي عنه. وأوصى المدير بإعادته

إلى المنزل.

«كيف يبدو نات عبر الهاتف؟».

لقد اتصلت به باربارا مرتَين في أثناء استراحات الغداء، وهو الوقت الوحيد الذي يمكنها الاتصال به. وكنت في المناسبتَين مع شتيرن وكِمب.

«يبدو بخير، ويحاول أن يكون شجاعاً. ولكنه أحد تلك الأمور. أعتقد أن المدير محقّ. سيكون أفضل حالاً في المنزل».

فوافقتُ بدون تردد. لقد تأثرتُ وتشجّعت بسبب عمق قلق ابني عليّ بالرغم من معاناته. ولكنني شعرت مرة أخرى بأنني على شفير الغضب بسبب احتفاظ باربارا بهذا الأمر لنفسها، ولكنني قلت لنفسي إنني غير منطقي. كنت أعرف أنها لا تريد زيادة أعبائي، ومع ذلك، فهي تحتفظ بالأمور لنفسها.

وفي أثناء فتح القفل، رنّ الهاتف. فتخيّلتُ أن كِمب أو شتيرن بات مستعداً أخيراً لمشاطرتي النبأ الكبير أيًا يكن، ولكن المتصل كان ليبرانزر الذي ما زال يمتنع عن ذِكر اسمه.

«أظن أننا حصلنا على شيء ما»، قال. «حول تلك المسألة»، ليون.

«هل يمكنك التحدث الآن؟».

«ليس حقاً. أريد فقط التأكد من أنك حرّ ليلة غد، في وقت متأخر، بعد أن أغادر عملي».

«بعد منتصف الليل؟».

«تماماً. ربما سنقوم بنزهة في السيارة لمقابلة شخص ما؟».

«هل عثرتَ عليه؟» وتسارعت نبضات قلبي. إنه أمر مذهل. لقد عثر ليبرانزر على ليون.

«يبدو الأمر كذلك. سأعرف غداً بالتأكيد. ستحب هذا الأمر أيضاً». وسمعتُ عبر الهاتف شخصاً يتكلم بجانبه. «انظر، عليّ الذهاب. أردت إبلاغك فقط. نلتقي ليلة غد»، قال وضحك، وهذا أمر نادر بالنسبة إلى دان ليبرانزر ولا سيما في هذه الأوقات. «ستحب الأمر»، قال.

33

«أيها الط–بيب كوماغاي»، قال ساندي بلهجة مليئة بالاستهزاء بدءاً بأول مقطع لفظي. بدأت جلسة بعد الظهر عند الساعة الثانية إلاّ خمس دقائق، وكانت تلك أولى كلمات الاستجواب، وقد وعدني كِمب وشتيرن بأن يكون الاستجواب هو الأكثر امتلاء بالأحداث في المحاكمة كلها.

فتاتسوو كوماغاي – تِد كما يدعوه أصدقاؤه – هو شاهد الولاية الأخير، ويواجه شتيرن بلا مبالاة، ويبدو الهدوء واضحاً على وجهه البنّي. لقد قدّم نفسه للحاضرين قائلاً إنه ليس بحاجة لاستخدام كلام معبِّر، وإنه خبير ومراقب لا يتأثر بالوقائع. كان يرتدي بذلة زرقاء، وشعره الأسود الكثيف ممشَّط إلى الوراء على غرار تسريحة بومبادور مرتَّبة. كان استجوابه المباشَر في صباح ذلك اليوم المرة الأولى التي أرى فيها بينلس وهو يُدلي بشهادته بشكل أفضل مما توقعتُ. لقد حملت مصطلحاته الطبية وأنماط كلامه الفريدة مراسِلة المحكمة على مقاطعته عدة مرات والطلب منه تكرار الأجوبة أو تهجئتها. ولكنه يتمتع بحضور لا يمكن إنكاره. وتُرجمت عجرفته الفِطرية في منصة الشهود بثقة بالنفس جعلته يصبح طبيباً خبيراً يتمتع بمؤهلات مثيرة للإعجاب. لقد درس في ثلاث قارات، وقدّم أوراقاً ثبوتية في مختلف أنحاء العالم، وأدلى بشهاداته كمختص شرعي بالمرَضيات في قضايا جنائية في أنحاء الولايات المتحدة.

وانطلاقاً من مؤهلاته هذه كخبير، وبخلاف شاهد العيان الذي يُطلب منه إخبار هيئة المحلفين بما رآه أو سمعه، أوكلت إليه مهمة دراسة الأدلة الجنائية وإبداء رأيه في شأن ما حدث. لقد قُرئت نصوص توافقية متنوعة قبل حضوره، تتناول تحليل عالِم الكيمياء الجنائي، ونتائج اختبار الدم. وعلى المنصة، استخدم بينلس هذه الوقائع وتفحّصه الشخصي للجثة ليقدّم رواية كاملة. في ليل الأول من نيسان/أبريل، أقامت السيدة

بوليموس علاقة حميمة ذات طبيعة توافقية بالإجمال. لقد استند في هذا الرأي إلى وجود كتلة مركَّزة بنسبة 2 بالمئة من نونوكسينول9- الكيميائي وعناصر أساسية متنوعة من الهلام، مما يشير إلى استخدام حجاب منع الحمل. والرجل الذي قامت معه السيدة بوليموس بهذه العلاقة مُفرِز لأجسام من فئة أيه؛ على غراري. وبعد مرور وقت قليل على العلاقة – الوقت النسبي الذي يشير إليه عمق المادة المنوية الرئيسة المترسّبة – ضُربت السيدة بوليموس من الخلف. ومهاجمها أيمن؛ على غراري. ويمكن تحديد ذلك من خلال زاوية الضربة المسدَّدة إلى الجانب الأيمن من رأسها. ولا يمكن معرفة الطول التقريبي لقامته بدون معرفة وِضعتها في أثناء تعرّضها للهجوم، أو طول سلاح الجريمة. ويشير الجِرح الموجود على الجمجمة إلى أنها وقفت على قدمَيها، ولو قليلاً، عندما تلقت الضربة. وأزيل حجاب منع الحمل كما يبدو في ذلك الوقت، وقُيّدت السيدة بوليموس التي كانت قد فارقت الحياة. وبدون أي اعتراض من شتيرن، شهد بينلس بأن وجود مركَّب منوي، والأبواب والنوافذ المفتوحة تحمله على الاعتقاد بأنه تمّت محاكاة عملية اغتصاب بهدف إخفاء هوية القاتل، وأن القاتل يعرف أساليب الكشف عن الجرائم والمسؤوليات الروتينية للسيدة بوليموس في مكتب النائب العام.

وبعد أن أنهى بينلس هذه الخلاصة، سأله نيكو عما إذا كان قد شاطرني رأيه حول كيفية حدوث الجريمة.

«أجل، يا سيدي، التقيتُ السيد سابيتش في 10 أو 11 نيسان/أبريل من هذا العام، وناقشنا القضية».

«أخبرنا بما قاله».

«حسناً، حاول السيد سابيتش إقناعي بأن السيدة بوليموس قد ماتت بشكل عرَضي بسبب نشاط جنسي منحرف قُيِّدت أثناءه طَوعاً».

«وبماذا أجبته؟».

«قلت إن الأمر مثير للسخرية، وشرحت له ما يشير الدليل إلى حدوثه في الواقع».

«وبعد أن أطلعتَ السيد سابيتش على نظريتك حول ما حدث، هل أجريتما حديثاً إضافياً؟».

«أجل. لقد شعر باستياء كبير؛ لقد شعر بالغضب. فوقف وهددني. قال إنه من الأفضل لي أن أحترس وإلا ادّعى عليّ بسبب تحريف التحقيق. هناك المزيد، ولكن هذا أبرز ما قاله».

كان شتيرن وكِمب اللذان يجلسان قربي كل من جهة يراقبان بينلس وهو يقوم بواجبه بهدوء مغتبط. ولم يتكبد أي منهما عناء تدوين أي ملاحظة. لم أكن أعرف ما الذي يحدث، علماً أنه كان خياري.

لقد ارتكب كوماغاي خطأ، قال لي كِمب عندما وصلت إلى مكاتبهما في الصباح. لقد ارتكب خطأ كبيراً.

ما مدى كبره؟ سألتُ.

ضخم، قال كِمب. جسيم.

فأومأتُ برأسي، وقلت في سرّي إنه لو كان الشخص المعني شخصاً آخر غير بينلس لشعرتُ بدهشة أكبر.

هل تريد أن تعرف ما الأمر؟ سألني كِمب.

لقد وجدتُ أن تخمين كِمب صحيح، وأنه من الأفضل لي عدم معرفة التفاصيل. ولدى سماعي بوجود خطأ جسيم، ازدادت حدة غضبي وبلغت أقصى درجاتها. لم أكن راغباً في التطرق إلى حالة الفوضى هذه.

لقد فاجأتني، قلت لكِمب. سأسمع ما لديك في المحكمة.

وانتظرتُ. كان بينلس يجلس هناك بهدوء وعدم انفعال. وفي أثناء تناول الغداء، أخبرني كِمب أنه يعتقد أن مهنة كوماغاي قد تنتهي الليلة.

«أيها الط–بيب كوماغاي»، استهل شتيرن الاستجواب، «لقد شهدتَ هنا كخبير، أليس كذلك؟».

«أجل، يا سيدي».

«أخبرتنا عن وثائقك الثبوتية وشهاداتك، أليس كذلك؟».

«لقد أجبتُ عن أسئلة حول هذا الموضوع، أجل».

«قلتَ إنك أدليتَ بشهاداتك في مناسبات عدة سابقة».

«المئات منها»، قال بينلس، وكان يجيب عن كل سؤال باستهزاء. أراد أن يُثبت أنه أكثر ذكاء وصلابة من أي مستجوِب.

«أيها الطبيب، برأيك، هل تمّ التشكيك يوماً بكفاءتك؟».

قوّم بينلس وِضعته على المنصة. لقد بدأ الهجوم.

«لا، يا سيدي»، قال.

«أيها الطبيب، أليس صحيحاً أن العديد من مساعدي النواب العامين اشتكوا على مَرّ السنين من كفاءتك كمختص شرعي بالمرَضيات؟».

«لم يشتكوا لي».

«لا، ليس لك، بل لرئيس الشرطة، مما أدى إلى إحالة مذكرة واحدة على الأقل إلى ملفك الشخصي؟».

«لا عِلم لي بذلك».

وأظهر ساندي المستند لنيكو أولاً، ومن ثم لكوماغاي الموجود في منصة الشهود.

«لا، لم يسبق لي أن رأيت ذلك»، قال على الفور.

«ألم يكن من المُفترَض عدم إطلاعك على أي إضافة إلى ملفك الشخصي وفقاً لقوانين الشرطة؟».

«هذا ممكن، ولكنك تسأل عمّا أتذكره. لا أتذكر ذلك».

«شكراً لك، أيها الطبيب». وسحب ساندي المستند من بين يدَي كوماغاي. وفي أثناء عودة شتيرن إلى طاولتنا، سأل: «هل تحمل أي ألقاب؟».

فتسمّر كوماغاي في مكانه. ربما كان يتمنى لو أنه اعترف بالرسالة.

«يدعوني أحد الأصدقاء تِد».

«هل هناك ألقاب أخرى؟».

«لا أستخدم ألقاباً».

«لا، يا سيدي، أنت لا تستخدم ألقاباً. ولكن، ما هو اللقب الذي تُعرَف به؟».

«لا أفهم السؤال».
«هل توجّه إليك أي شخص يوماً بلقب بينلس؟».
«إليّ؟».
«إلى من، برأيك؟».
مرة أخرى، تطلبه الأمر لحظات لتقويم وِضعته على الكرسيّ.
«هذا ممكن»، قال أخيراً.
«أنت لا تستمتع بهذا اللقب، أليس كذلك؟».
«لم أفكر بالأمر».
«لقد اكتسبتَ هذا اللقب منذ بضع سنوات من مساعد أعلى سابق للنائب العام السيد سينيت في ظروف غير مشرِّفة، أليس كذلك؟».
«إذا أردتَ ذلك».
«حينها قال لك السيد سينيت وجهاً لوجه إنك أفسدتَ تشريح جثة ما، وإن من يقاسي من العمل معك يا بينلس هو الجثة، أليس كذلك؟».
ودوّى الضحك في قاعة المحكمة، وضحك لارين سرًّا وهو جالس على كرسيّ القضاء. فبدّلتُ وِضعتي على الكرسي، وتخلّى شتيرن عن وقاره الفِطري للمرة الأولى. كان استجوابه على وشك دخول مرحلة قاسية.
«لا أتذكر ذلك»، قال بينلس ببرودة عندما عاد النظام إلى القاعة مجدداً. لقد اكتسب على مرّ السنين مهارة في معرفة قواعد الأدلة. فكل شرطي ونائب عام في مقاطعة كيندل يعرف تلك القصة. وسيكون ستان سينيت سعيداً بالإدلاء بشهادته في هذا الشأن. ولكن، من غير المحتمَل أن يسمح القاضي بهذا الإلهاء الذي يُدعى تشكيكاً إضافياً بكفاءة الشاهد. وحرّك بينلس كتفَيه بشكل دائري، ونظر إلى شتيرن بانتظار المزيد. لقد حصل على بعض الاستمتاع كما يبدو بانتصاره الصغير.
«الآن، إن السيد ديلاي غارديا والسيد مولتو شخصان من مكتب النائب العام عملتَ معهما مع درجة أقل من عدم التوافق، أليس كذلك؟».
«بالتأكيد. هما صديقاي المخلصان». في هذا الشأن، تمّ تدريب

بينلس على نحو جيد كما يبدو. فهو سيُقِرّ بصلته بتومي وديلاي بهدف التقليل من أهميّتهما.

«هل ناقشتَ هذا التحقيق مع أي منهما عندما كان جارياً؟».

«كنت أتحدث إلى السيد مولتو أحياناً».

«ما مقدار حديثك إليه؟».

«نحن نبقى على اتصال. نتحدث إلى بعضنا من حين لآخر».

«هل تحدثتَ إليه أكثر من خمس مرات في الأسابيع القليلة الأولى من شهر نيسان/أبريل؟».

«بالتأكيد»، قال، «إذا قلت ذلك». لم يكن بينلس يجازف. فهو لا يستطيع أن يكون متأكداً من السجلات الهاتفية التي حصلنا عليها.

«وهل كنتما تتحدثان بالتفصيل عن هذا التحقيق؟».

«السيد مولتو صديق لي. يسألني عما أقوم به فأخبره. ونتحدث عن معلومات عامة وليس عن قرارات هيئة المحلفين الكبرى». واستعاد بينلس ابتسامته المتسمة بالرضى. فهذه الإجابات، بالطبع، كانت موضوع نقاش سابق مع المدعيَين العامَّين.

«هل أطلعتَ السيد مولتو على نتائج تحليل عالِم الكيمياء الجنائي قبل تسليمها للسيد سابيتش؟ أتحدّث بصفة خاصة عن العيّنة التي أظهرت الهلام المبيد للنطاف المنوية».

«لقد فهمتُ»، قال بينلس باقتضاب. ونظر إلى تومي مباشَرةً. كان مولتو يضع يده على جزء من وجهه، ولكنه قوّم وِضعته وأبعد يده عن وجهه عندما ألقى عليه كوماغاي نظرة سريعة.

«أعتقد ذلك»، قال كوماغاي.

لم يكد يُنهي إجابته حتى قاطعه لارين قائلاً:

«مهلاً»، قال القاضي. «ثانية واحدة فقط. سيذكر المحضر أن النائب العام مولتو قد قام للتوّ بإيماءة أعتبرها إشارة للشاهد مرتبطة بإجابته الأخيرة. ستكون هناك إجراءات إضافية في شأن السيد مولتو في وقت لاحق. تابع، يا سيد شتيرن».

وغدا وجه تومي قرمزيّ اللون فيما كان يبذل جهداً للوقوف على قدمَيه.

«اعذرني يا صاحب السيادة. لا أعرف عما تتكلم».

ولا أنا أيضاً، وكنت أراقب مولتو. ولكن لارين ثارت ثائرته.

«هيئة المحلفين هذه ليست ضريرة، يا سيد مولتو. ولا أنا أيضاً. تابع»، قال لشتيرن، ولكن غضبه كان كبيراً جداً لدرجة أنه لم يستطع إخفاءه، ووجّه كرسيّه على الفور في اتجاه مولتو وأومأ بالمِطرقة. «لقد حذّرتُك. سبق لي أن قلت لك ذلك. أنا مستاء جداً من سلوكك في هذه المحاكمة، يا سيد مولتو. ستكون هناك إجراءات».

«أيها القاضي»، قال تومي بيأ ٍ .

«عُد إلى مقعدك، يا سيدي. يا سيد شتيرن، تابع».

وتوجّه شتيرن إلى الطاولة. وهو أيضاً لم يلاحظ أي شيء. ولكن شتيرن لم يدَع الحادثة تذهب هباءً، فسأل بلهجة متأنّقة: «هل من المنصف القول، أيها الطبيب كوماغاي، إنك والسيد مولتو قد حافظتما على علاقة جيدة؟».

لقد أثار السؤال القليل من الضحكات الماكرة، ولا سيّما من قسم المراسلين. فطرَف كوماغاي عينَيه ازدراءً وعجز عن الإجابة.

«أيها الطبيب كوماغاي»، سأل شتيرن، «طموحك يا سيدي، هو أن تصبح محققاً جنائياً لمقاطعة كيندل، أليس كذلك؟».

«أحب أن أكون محققاً جنائياً»، قال بينلس بقليل من التردد الملطَّف. «الطبيب راسيل يقوم بعمل جيد الآن. وسوف يتقاعد بعد عامَين، وربما عُيّنت في منصبه لاحقاً».

«وتوصية النائب العام ستساعدك للحصول على ذلك المنصب، أليس كذلك؟».

«من يعلم؟»، وابتسم بينلس. «لا ضَير في ذلك».

كان لا بد لي من الإعجاب بديلاي؛ وإن كنتَ لا أشعر بالرضى. فكوماغاي شاهده، ومن الواضح أنه قدّم له النُصح لجعل الأمور تصبّ

في مصلحته في أثناء الحملة الانتخابية. ويريد نيكو التعويض عن بعض أخطاء مولتو من خلال اعتماد بعض الوضوح الادعائي أمام هيئة المحلفين. لقد بدا لي حكمه على الأمور صحيحاً لولا الحادثة التي حصلت مع القاضي قبل وقت قصير.

«في نيسان/أبريل، هل ناقشتَ والسيد مولتو إمكانية شغلك منصب محقق جنائي، أيها الطبيب كوماغاي؟».

«لقد فهمتُ. أنا والسيد مولتو صديقان. أُخبره بما أريد القيام به، ويخبرني بما يريد القيام به. نتحدث طوال الوقت. في نيسان/أبريل، أيار/مايو، حزيران/يونيو».

«وتحدثتما أيضاً في شهر نيسان/أبريل عن هذا التحقيق عدة مرات قبل أن تتلقى تقرير عالِم الكيمياء الجنائي؟».

«يمكنني قول ذلك».

«الآن، يتعلق هذا التقرير، يا سيدي، بعيّنة السائل المَنوي التي أخذتَها من السيدة بوليموس في أثناء تشريح الجثة، أليس كذلك؟».

«هذا صحيح».

«وظهر أن هذه العيّنة مطابقة لفئة دم السيد سابيتش، وتحتوي على مواد كيميائية تشير إلى استخدام السيدة بوليموس وسيلة لتحديد النسل – حجاب منع الحمل. هل أنا مُصيب؟».

«أنت مصيب».

«ووجود تلك العيّنة من المادة الكيميائية لتحديد النسل؛ مبيد النطاف المنوية، أمر هام برأيك، أليس كذلك؟».

«كل الوقائع هامة، يا سيد شتيرن».

«لكن هذه الحقيقة هامة بصفة خاصة لأنك تريدنا، يا سيدي، أن نصدّق أن هذه الحادثة المأساوية تبدو حالة اغتصاب فحسب، أليس كذلك؟».

«لا أريدك أن تصدّق شيئاً. إنه رأيي».

«ولكن برأيك، حاول السيد سابيتش أن يجعل هذا الأمر يبدو كما

لو أنه عملية اغتصاب، أليس كذلك؟».

«إذا أردتَ ذلك».

«حسناً، أليس هذا ما تحاول الإيحاء به؟ أنت والسيد مولتو والسيد ديلاي غارديا؟ لنكن واضحين مع هؤلاء الأشخاص». وأشار ساندي إلى هيئة المحلفين. «برأيك، هذه الحادثة عملية اغتصاب مدبَّرة، وطريقة تنفيذها توحي بمعرفة الجاني لبعض تقنيات التحقيق وللمهام المعتادة للسيدة بوليموس في مكتب النائب العام، أهذا صحيح؟».

«هذا ما قلتُه».

«وكل ذلك يشير إلى السيد سابيتش، أليس كذلك؟».

«إذا أردتَ ذلك»، قال بينلس في النهايةِ مبتسماً. كان بالإمكان رؤية تردده في تصديق ان شتيرن يورّط موكّله. ولكن ساندي استمر بالتركيز على المسألة، قائلاً ما يعجز كوماغاي عن المجازفة بقوله. كان بينلس يجد سروره الخاص في مصائب الآخرين.

«وكل هذه الاستنتاجات تستند في النهاية إلى وجود هلام مبيد للنطاف المنوية في العيّنة التي أرسلتَها لعالِم الكيمياء الجنائي، أليس كذلك؟».

«تقريباً».

«إنها تستند إلى وجود هذا الهلام أكثر من كونها لا تستند إلى وجوده، أليس كذلك؟».

«يمكنني قول ذلك».

«إذاً، فهذه العيّنة التي تظهر وجود مبيد النطاف المنوية أمر هام برأيك كخبير؟»، قال شتيرن، بالغاً النقطة التي كان فيها منذ لحظات. عندئذٍ، أقرّ بينلس بالأمر، وهز كتفَيه وقال \اتفقنا.

«الآن، هل رأيك كخبير، أيها الطبيب كوماغاي، يأخذ في الحسبان واقع عدم العثور على أي هلام مبيد للنطاف المنوية في شقة السيدة بوليموس؟ هل تلك الشهادة التي أدلى بها التحري غرير مألوفة بالنسبة إليك؟».

«يستند رأيي إلى دليل عِلمي. لا أقرأ النسخات المكتوبة».

«ولكن تلك الشهادة مألوفة بالنسبة إليك؟».

«سمعتُ بها».

«ولا يهمك، كخبير، أن يكون رأيك مستنداً إلى وجود مادة لم يتم العثور عليها بين مقتنيات الضحية؟».

«هل أنا مهتم؟».

«هذا سؤالي».

«أنا غير مهتم. أبني رأيي على دليل مادي».

ورمق شتيرن بينلس بنظرة طويلة.

«جاء مبيد النطاف المنوية من مكان ما، يا سيد شتيرن. لا عِلم لي بالمكان الذي تخبّئ فيه السيدات هذه الأغراض. إنه موجود في العيّنة. لقد أثبت الاختبار ذلك».

«بهذه البساطة»، قال ساندي شتيرن.

«أنت من أعدّ النص التوافقي»، قال كوماغاي.

«الذي ينص على أن مبيد النطاف المنوية موجود في العيّنة التي قمتَ بإرسالها. أجل، يا سيدي، لقد اتفقنا في الرأي حول ذلك». وسار ساندي في أرجاء قاعة المحكمة. لم يكن باستطاعتي أن أحزر ما الذي أغفله كوماغاي. كنت مستعداً للمراهنة على حدوث خطأ في مطابقة مبيد النطاف المنوية لو لم يُشر بينلس إلى النص التوافقي.

«الآن، يا سيدي»، قال شتيرن، «إن انطباعاتك الأولى لدى تشريح الجثة لم تأخذ بعين الاعتبار وجود مبيد للنطاف المنوية، أليس كذلك؟».

«لا أستطيع التذكر الآن».

«حسناً، عُد بالذاكرة إلى الوراء، رجاءً. ألم تكن نظريتك الأصلية تقوم على أن آخر شخص قام بعلاقة حميمة مع السيدة بوليموس عقيم؟».

«لا أتذكر».

«حقاً؟ لقد أخبرتَ التحري ليبرانزر بأن مهاجم السيدة بوليموس

يُفرز كما يبدو نُطَفاً مَيتة، ألم تقم بذلك؟ لقد سبق للتحري ليرانزر أن شهد أمام هيئة المحلفين. أنا على ثقة تامة بأنه لن يجد أي مشكلة في العودة. رجاءً تذكّر، أيها الطبيب كوماغاي، أليس هذا ما قلتَه؟».

«ربما. كان استنتاجاً تمهيدياً».

«حسناً، كان رأيك التمهيدي. ولكنه كان رأيك آنذاك؟».

«أظن ذلك».

«الآن، هل تتذكر النتائج المادية الناتجة عن البحث والتي أوصلتك إلى اعتماد ذلك الرأي؟».

«لا، يا سيدي».

«في الحقيقة، أيها الطبيب، أنا واثق من أنه يصعب عليك أن تتذكر أيّ تشريح للجثة بعد أيام من حدوثه بدون مساعَدة، هل هذا صحيح؟».

«أحياناً».

«كم عملية تشريح تُجري في الأسبوع، أيها الطبيب كوماغاي؟».

«أجري عملية واحدة أو عمليّتين. أحياناً عشر عمليات».

«هل تتذكر عدد عمليات التشـريح التي قمتَ بها في الأيام الثلاثين القريبة من وفاة كارولين بوليموس؟».

«لا، يا سيدي».

«هل ستتفاجأ إذا عرفتَ أن عددها بلغ ثماني عشرة عملية؟».

«يبدو هذا صحيحاً».

«ومع هذا العدد، من الواضح أنك قد تُغفل بعض التفاصيل في أثناء أي استجواب، أليس كذلك؟».

«هذا صحيح».

«ولكنك عندما تحدثتَ إلى ليرانزر، كانت التفاصيل حديثة العهد. ألم تكن كذلك؟».

«ربما».

«وقلتَ له آنذاك إنك تعتقد أن المهاجم عقيم؟».

«أتذكّر ذلك بطريقة ما».

«حسناً، لنراجع لبعض الوقت نتائج البحث تلك التي تتذكر الآن أنها ربما أدت إلى ذلك الرأي التمهيدي».

وعرض ساندي لنتائج البحث بسرعة: تخشُّب الجثة، تخثّر الدم، والأنزيمات الهَضمية التي نشأت إثر الوفاة. لقد أشار الراسب الأولي للسائل الذكوري في الناحية الخلفية من المهبل، وبعيداً عن الفَرْج، إلى أن كارولين قد أمضت القليل من الوقت على قدمَيها بعد العلاقة، مما يعني أن الجماع قد حدث في وقت قريب من مهاجمتها. وهناك غياب لأي نُطَف حية في قناتَي فالوب، وهو أمر يمكن توقعه بعد عشر ساعات أو اثنتَي عشرة ساعة من الجماع إذا لم يتم استعمال أي وسائل لمنع الحمل.

«ولشرح تلك الظواهر، ولا سيما تلك المتعلقة بالنّطف الميتة، أطلقتَ النظرية القائلة إن المهاجم عقيم. لم يتبادر إلى ذهنك في بادئ الأمر، أيها الطبيب، أنه تم استخدام مبيد للنطاف المَنوية، أليس كذلك؟».

«لم يتبادر ذلك إلى ذهني كما يبدو».

«بعد عودتك بالذاكرة إلى الوراء، لا بد من أنك تشعر بالغباء بسبب إغفالك أمراً شديد الوضوح كاستخدام مبيد للنطاف المَنوية مانعٍ للحَمْل؟».

«أرتكب أخطاء»، أقرّ بينلس، ملوِّحاً بيده.

«حقاً؟»، سأل شتيرن. ونظر إلى خبير الولاية. «هل ترتكب الأخطاء بشكل متكرر؟».

فلم يُجب كوماغاي عن ذلك السؤال. لقد أدرك خطأه.

«يا سيد شتيرن، لم أجد في ذلك الحين أي وسيلة لتحديد النسل. ولم يكن هناك حجاب لمنع الحمل. لذا، من الطبيعي أن أفترض أنه لم يتم استخدام أي وسيلة لتحديد النسل».

«ولكن بالتأكيد، أيها الطبيب كوماغاي، لم يكن بالإمكان تضليل خبير بمقامك بهذه السهولة؟».

فابتسم كوماغاي. لقد أدرك أنه يتعرض للسخرية.

«أي حقيقة تُعتبر هامة»، قال. «وتلك الحقائق يعرفها ذلك القاتل».

«ولكنك لم تكن تحاول تضليل التحري ليبرانزر عندما زوّدتَه

بانطباعك الأولي، أليس كذلك؟».

«آه، لا»، وهز بينلس رأسه بقوة. كان مستعداً لذلك السؤال.

«لا بد من أنك كنت مقتنعاً، أيها الطبيب كوماغاي، في ذلك الوقت، بأنه لم يتم استخدام وسيلة لتحديد النسل؛ مقتنعاً جداً لدرجة أنك اعتبرتَ استخدام مبيد للنطاف المَنوية أمراً مُحالاً؟».

«انظر، يا سيد شتيرن، أنا أكوّن رأياً، وعالِم الكيمياء يحصل على النتائج. فالرأي يتبدل، وليبرانزر يعرف ماهية الرأي التمهيدي».

«لنفكر مليًّا ببعض البدائل. على سبيل المثال، أيها الطبيب كوماغاي، ربما تكون مقتنعاً بأن المرأة لا تلجأ إلى استخدام وسيلة لتحديد النسل إذا كانت تعلم أنها غير قادرة على الحَمْل، أليس كذلك؟».

«بالتأكيد»، قال. «ولكن السيدة بوليموس أنجبت ابناً».

«إذاً، لقد ثبُت ذلك بالدليل»، قال شتيرن. «ولكن لنفكر مليًّا بالتفاصيل الخاصة بالسيدة بوليموس. أبقِ مثالي في ذهنك. إذا كانت المرأة تعلم أنها لا تستطيع الحَمْل، فمن غير المنطقي إذاً بالنسبة إليها أن تستخدم مبيداً للنطاف المَنوية، أليس كذلك؟».

«بالتأكيد. الأمر غير منطقي». لقد وافقه بينلس الرأي، ولكن إجاباته غدت أكثر بطئاً، وبدت عيناه مُثقَلتَين. لم يكن يملك أي فكرة عما يريد شتيرن الوصول إليه.

«الأمر منافٍ للعقل؟».

«يمكنني قول ذلك».

«هل باستطاعتك، كخبير جنائي، أن تتخيّل أي سبب يحمل امرأة مماثلة على استخدام حجاب لمنع الحمل أو مبيد للنطاف المَنوية؟».

«هل نتحدث عن سيدة في سنّ اليأس؟».

«نتحدث عن امرأة تعرف قَطعاً أنها غير قادرة على الحَمْل».

«لا سبب لذلك. لا سبب طبّي. لا سبب في ذِهني».

ورفع ساندي نظره نحو لارين. «يا صاحب السيادة، هل يمكن لمراسلة المحكمة وضع علامة بجانب الأسئلة والأجوبة الخمسة الأخيرة

كي تتمكن من قراءتها في وقت لاحق إذا دعتنا الحاجة إلى ذلك؟».

وألقى كوماغاي نظرة بطيئة على أرجاء قاعة المحكمة. فنظر إلى القاضي، وإلى المراسلة، وإلى طاولة المدّعين العامّين أخيراً. كان مقطَّب الجبين في الواقع. لقد نُصب الشرك، أيًا يكن. والجميع يدركون ذلك. وجمعت المراسلة الرزمة الضيّقة للملاحظات المختزَلة بمشبك.

«وفقاً لرأيك كخبير، أيها الطبيب كوماغاي»، سأل محاميَّ، أليخاندرو شتيرن، «أليست كارولين بوليموس امرأة تعرف أنه ليس باستطاعتها الحَمل؟».

فنظر كوماغاي إلى شتيرن، وانحنى فوق الميكروفون الموضوع أمام كرسي الشهود.

«لا»، قال بينلس.

«رجاءً، لا تستعجل في الإجابة، أيها الطبيب. قمتَ بثماني عشرة عملية تشريح في تلك الأسابيع. ألم يكن من الأفضل لك أن تأخذ ملاحظاتك الأصلية بعين الاعتبار؟».

«أعرف أن السيدة تستخدم وسيلة لتحديد النسل. أنتَ من وضع النص التوافقي»، قال ثانيةً.

«وأقول مرة أخرى، يا سيدي، إننا وضعنا النص التوافقي للمطابَقة التي أجراها عالِم الكيمياء للعيّنة التي قمتَ بإرسالها».

وعاد شتيرن إلى طاولتنا. كان كِمب يرفع المستند الذي يريده ساندي. ووضع ساندي نسخة على طاولة الادعاء وسلّم النسخة الأصلية لكوماغاي.

«هل يمكنك التعرّف إلى الملاحظات التي وضعتَها حول تشريح جثة السيدة بوليموس، أيها الطبيب كوماغاي؟».

وقلّب بينلس عدداً قليلاً من الصفحات.

«إنه توقيعي»، قال.

«هلا قرأتَ بصوت مرتفع المقطع القصير المشار إليه بمِشبك الورق؟»، والتفت ساندي إلى نيكو. «الصفحة 2».

وكان على كوماغاي تغيير نظارته.

«قناتا فالوب مربوطتان ومنفصلتان. والأطراف المهدَّبة تبدو طبيعية». ونظر كوماغاي إلى أسفل الورقة التي قرأ منها، وراقب تسلسل الصفحات وفقاً لأرقامها، وقطّب جبينه. أخيراً، هز رأسه.

«هذا غير صحيح»، قال.

«إنها ملاحظاتك الخاصة حول تشريح الجثة، أليس كذلك؟ لقد أمليتَها في أثناء إجراء العملية، أليس كذلك؟ بالتأكيد، أيها الطبيب، أنت لا تقول إنك ارتكبتَ خطأً معاصراً؟».

«هذا غير صحيح»، قال ثانيةً.

وعاد شتيرن إلى طاولة الدفاع لإحضار ورقة أخرى. لقد فهمتُ ما يجري. ورفعتُ نظري إليه في أثناء تسلّمه المستند الثاني من كِمب، وهمستُ:

«هل تقول لي إن قناتَي كارولين بوليموس مربوطتان؟».

فأومأ كِمب برأسه.

كانت الثواني القليلة التالية مُربِكة. وعلى نحو غريب لا يمكن تفسيره، شعرتُ بأنني بمفردي وقد أُغلق عليّ داخل أحاسيسي المترنّحة. لقد تمّت مقاطعة السياق الأساسي، وبدا الأمر للحظات كما لو أنني مررتُ بذلك الوضع من قَبل. لم أتمكن من اكتشاف الأسباب. وما كان يحدث في قاعة المحكمة بدا كما لو أنه يحدث في مكانٍ ناءٍ. لقد أدركتُ بطريقة مشوَّشة أنه تم تدمير بينلس كوماغاي. لقد نفى مرتَين أو ثلاث مرات إضافية أن تكون قناتا فالوب لدى السيدة بوليموس قد فُصلتا جراحياً لتجنّب الحَمل. وسأل شتيرن عما إذا كانت هناك حقائق أخرى قد أثرت في رأيه، ووُضعت بين يدَي كوماغاي سجلات طبيب الأمراض النسائية في وِست إند الذي أجرى لكارولين عملية جراحية لربط قناتَي فالوب قبل ست سنوات ونصف بعد إجهاضها جنينها. لا بد من أنه ذلك الطبيب الذي غادر كِمب للقائه بعد ظهر اليوم السابق.

«أسألك ثانيةً، يا سيدي، هل تُبدّل هذه السجلات رأيك كخبير؟».

فلم يُجب كوماغاي.

«يا سيدي، هل كانت كارولين بوليموس تعلم، وفقاً لرأيك كخبير، أنه ليس باستطاعتها الحمل؟».

«هذا ما يبدو لي». ورفع كوماغاي نظره عن الأوراق. لقد اكتشفتُ في غَمرة ارتباكي أنني أشعر في الواقع بالأسف لأجله. ووجّه بينلس كلامه لمولتو ونيكو وليس لشتيرن أو لهيئة المحلفين. «لقد نسيتُ»، قال لهما.

«يا سيدي، أليس من السخف الاعتقاد بأن كارولين بوليموس قد استخدمت مُبيداً للنطاف المنويّة في ليلة الأول من نيسان/أبريل؟».

فلم يُجب كوماغاي.

«أليس تصديق ذلك غير معقول؟».

ولم يستجب كوماغاي.

«ليس هناك سبب معروف لديك يفسّر سبب قيامها بذلك، أليس كذلك، يا سيدي؟».

ورفع كوماغاي نظره. لم يكن بالإمكان معرفة ما يفكر فيه، أو إن كان الشعور بالخجل قد دمّره. فأمسك بدرابزين منصة الشهود من دون أن يجيب.

«هل أطلب من مراسلة المحكمة قراءة إجاباتك عن الأسئلة التي طرحتُها قبل لحظات؟».

فهز كوماغاي رأسه.

«هل عدم قيام كارولين بوليموس باستخدام مُبيد للنطاف المنويّة في الأول من نيسان/أبريل غير واضح بالنسبة إليك أيها الطبيب كوماغاي؟ هل يمكن ألا يتطابق ذلك مع رأيك كخبير؟ ألا يبدو لك، يا سيدي، كخبير ورجل عِلم، أنه السبب الأكثر وضوحاً لعدم وجود أي أثر لمُبيد النطاف المنويّة في شقتها؟».

وبدا أن كوماغاي يتنهد. «لا أستطيع الإجابة عن أسئلتك، يا سيدي»، قال بقليل من الوقار.

«حسناً، أَجب عن هذا السؤال، أيها الطبيب كوماغاي: أليس من الواضح، على ضوء هذه الوقائع، أن العيّنة التي أرسلتَها لعالِم الكيمياء لم تكن مأخوذة من جثة كارولين بوليموس؟».

فأسند كوماغاي ظهره إلى الكرسي. ودفع نظارته إلى الوراء.

«أتّبع إجراء منتظماً».

«هل تقول لهيئة المحلفين هذه، يا سيدي، إنك تتذكر بوضوح أخذ تلك العيّنة، وتسجيلها، وإرسالها؟».

«لا».

«أكرر: أليس من المحتمَل ألا تكون العيّنة التي تحتوي على مُبيد النطاف المنويّة؛ العيِّنة التي تحتوي على سوائل كما قيل، وتحمل فئة دم السيد سابيتش، قد أُخذت من جثة كارولين بوليموس؟».

فهز بينلس رأسه ثانيةً. ولكنه ليس نفياً. فهو لا يعرف ما الذي حدث.

«يا سيدي، أليس الأمر محتمَلاً؟».

«إنه أمر ممكن»، قال أخيراً.

من حجرة المحلفين، كان باستطاعتي أن أسمع بوضوح أحد الرجال يقول: «حبًّا بالله».

«وأن تلك العيّنة، أيها الطبيب كوماغاي، قد أُرسلت في أثناء قيامك بتلك المحادثات المنتظمة مع السيد مولتو، هل أنا مُحِق؟».

وهكذا، استعاد كوماغاي نشاطه أخيراً. وقوّم وِضعته على الكرسي.

«هل تتهمني، يا سيد شتيرن؟».

ومر وقت قليل قبل أن يجيب شتيرن.

«لدينا ما يكفي من الاتهامات غير المُثبَتة بالوقائع في قضية واحدة»، قال. ومن ثم، وقبل أن يجلس على كرسيّه، أومأ شتيرن في اتجاه الشاهد كما لو أنه يصرفه. «أيها الط-بيب كوماغاي»، أضاف.

بعد المحكمة، جلستُ وجايمي كِمب في غرفة الاجتماعات التابعة لشتيرن، واصفَين استجواب كوماغاي لمجموعة صغيرة من الحاضرين مؤلَّفة من سكرتيرة ساندي، والمحقق الخاص برمان، وطالبَي حقوق يعملان في المكتب كموظفَين كتابيَّين. وأخرج كِمب قنينة من الشراب، وشغَّل أحد الشابَّين جهاز الراديو. وقام كِمب، وهو ممثل جيد، بمحاكاة تهكمية لعب خلالها دورَي شتيرن وكوماغاي. فكرر معظم أسئلة شتيرن المؤذية بإلحاح، ومن ثم ارتمى على الكرسيّ حيث خبط قدمَيه بالأرض وأصدر أصوات شخص ثُبِّت بوتد. وعندما دخل شتيرن الغرفة كنا نطلق ضحكات صاخبة. كان يرتدي بذلة سهرة، أو جزءاً منها، بتعبير أدق: السروال المقلَّم والقميص فقط، ووضع ربطة عُنُق حمراء على صورة فراشة، غير معقودة بعد. فاستشاط غضباً ممّا رآه في المكتب. باستطاعتكم القول إنه كان يناضل لكبح جماح غضبه.

«هذا أمر غير ملائم»، قال لكِمب. «غير ملائم تماماً. نحن في محاكمة. وهذا ليس الوقت المناسب لنهنئ أنفسنا. لا يجب علينا أن نُظهر أي اعتداد بالنفس في قاعة المحكمة. هيئات المحلفين تشعر بهذه الأمور بالحَدس، وهي تمقت ذلك. الآن، نظّفوا المكان من فضلكم. أودّ التحدث إلى موكِّلي. يا راستي»، قال، «عندما يتسنّى لك بعض الوقت».

واستدار شتيرن وتبعتُه إلى مكتبه الذي يمتاز بديكور مريح للنظر، أُنثوي الطابع تقريباً، واشتبهتُ في أن تكون كلارا قد تركت بصماتها عليه. فكل شيء يحمل درجة اللون القِشدية، والنوافذ مغطاة بستائر، والمكتب يعجّ بأثاث منجَّد بقطن هايتي بحيث يبدو الأمر كما لو أنك دُفعت إلى داخل المقعد عندما تجلس عليه. ولدى شتيرن منافض ثقيلة من الكريستال على كل زاوية من طاولته.

«إنه خطئي أكثر من كونه خطأ جايمي»، قلت عندما دخلت.

«شكراً لك، ولكنك لست مكلَّفاً بمهمة إصدار أحكام في هذا الوقت. الأمر غير ملائم أبداً».

«كان انتصاراً عظيماً. لقد بذل جهداً كبيراً. كنا نستمتع بذلك. كان

يحاول بثّ الطمأنينة في نفس موكّلك».

«لستَ بحاجة للدفاع عن كِمب أمامي. إنه محام من الدرجة الأولى وأقدّر عمله. ربما أنا من يجب أن يُلقى اللوم عليه. فكلما شارفت قضية ما على نهايتها أصاب بالتوتر».

«يُفترض بك الاستمتاع اليوم، يا ساندي. لا يحصل أي محامٍ على هذا الكَمّ من الاستجوابات، ولا سيما مع خبير الولاية».

«هكذا إذاً»، قال شتيرن، وحقق رغبتي مُطلقاً ابتسامة وجيزة غير مألوفة. «يا له من خطأ كبير!». وأصدر صوتاً أشبه بالتأوّه، وهز رأسه. «ولكن ذلك أصبح من الماضي الآن. كنتَ شديد الإلحاح، لذلك أردتُ تمضية القليل من الوقت معك لمناقشة الدفاع في القضية. أتمنى لو أننا نملك المزيد من الوقت، ولكنني التزمتُ منذ أشهر بتناول هذا العشاء مع القاضي ماغناسن. سيكون ديلاي غارديا هناك، ولذلك سنكون كلنا في موقف غير مؤاتٍ بالتساوي». وابتسم تقديراً لحس الفكاهة المتحفظ لديه. «على كل حال، دفاعك: إن القرارات حول هذه المسائل تعود للموكّل دائماً. إذا رغبتَ فسأقدّم لك النُصح، وإلا تصرّف كما تشاء. أنا في تصرفك». كما توقّعتُ على الدوام، انتظر ساندي اتضاح كل الأمور قبل أن يسمح لي باتخاذ قراراتي. كنت أعلم ما الذي سيقوم باقتراحه.

«هل تظن أننا سنجد الفرصة لتقديم مرافعتنا الدفاعية؟».

«أتسألني إن كان القاضي ليتل سيرسل لنا قرار المحكمة غداً؟».

«برأيك، هل هذا ممكن؟».

«لتفاجأتُ بذلك لو حدث». ورفع سيجاره عن المنفضة. «من منطلَق واقعي، جوابي هو لا».

«هل لا يزال هناك ما يربطني بالجريمة؟».

«يا راستي، لا حاجة لي لألقي خطبة عليك. ولكن، يجب أن تتذكر أن الاستنتاجات في هذه المرحلة تكون لصالح الادعاء. حتى إن شهادة كوماغاي المباشَرة، أيًّا يكن السخف الذي اتسمت به، لا تُلغي واقع حدوث جريمة. والجواب على سؤالك هو أن الدليل يربطك بمسرح

الجريمة. بصمتا إصبعيك موجودتان هناك. وألياف السجاد الخاص بك قد تكون هناك أيضاً. وسجلات الاتصالات الهاتفية تُظهر أنك كنت على اتصال بها. وقد تم حجب كل ذلك.

على صعيد عمليّ أوسع، لن يكون أي قاضٍ متلهّفاً لاغتصاب دور هيئة المحلفين كصانع قرار في قضية مماثلة. فهو يفسح المجال للانتقاد، وأكثر من ذلك، ربما يترك انطباعاً بأن القضية لم تُحَلّ بشكل مُنصف. أعتبر دليل الادعاء، كما هو، واهياً. والقاضي يراه بالطريقة نفسها على الأرجح، ولكنه يفضّل بلا شك أن تقوم هيئة المحلفين بتبرئتك. وإذا أخفقوا في هذه المسؤولية لسبب لا يمكن تفسيره، فباستطاعته إجراء محاكمة تمهيدية للتبرئة بالرغم من الحكم الصادر. أعتبر ذلك أمراً غير محتمَل في هذه القضية».

إن كلامه منطقي، ولكنني كنت آمل أن يقول شيئاً آخر.

«إذاً، يُعيدنا ذلك إلى مسألة الدفاع»، قال شتيرن. «إذا تابعنا، فيجب علينا توفير بعض المستندات بالتأكيد. نريد أن نُثبت أن باربارا كانت في الجامعة كما ادّعيتَ. إذاً سنقدّم سجلّ الكمبيوتر لنُثبت أنها وقّعت بعد وقت قليل من الساعة الثامنة. ونريد أن نُظهر أن شركات تأجير السيارات وشركات سيارات الأجرة لا تحتفظ بأي سجلات تدعم مقولة أنك انتقلتَ إلى المدينة في ليلة الأول من نيسان/أبريل. ويجب تقديم سجلات الطبيب النسائي الذي تحدّثنا عنه اليوم. وهناك أمور صغيرة أخرى. لقد اعتبرتُ كل ذلك من المسلّمات. وتكمن المسألة في ما إذا كنا سنعجّل بالإدلاء بالشهادات».

«مَن الأشخاص الذين تفكر باستدعائهم؟».

«شهود عيان. باربارا بالتأكيد».

«لا أريدها أن تشهد»، قلت على الفور.

«إنها امرأة جذابة، يا راستي، وهناك ثلاثة رجال في هيئة المحلفين. باستطاعتها دعم حجة غيابك بفعالية تامة. وستكون راغبة في ذلك بلا شك».

«إذا أدليتُ بشهادتي وكانت جالسة في الصف الأول، فبإمكانها أن تبتسم لي، وستعرف هيئة المحلفين أنها تدعم حجةَ غيابي. لا حاجة لإزعاجها».

فأصدر شتيرن صوتاً. لقد أفسدتُ خططه.

«لا تريدني أن أقف هناك، أليس كذلك، يا ساندي؟».

ولم يُجب في بادئ الأمر، ولكنه أزال بقايا رماد السيجار عن قميصه.

«هل أنت متردد بسبب علاقتي بكارولين؟»، سألت. «لا أنفي الأمر، أنت تعرف ذلك».

«أعرف ذلك، يا راستي. ولا أجد الأمر مشجعاً. أظن أن ذلك يعزز موقف الولاية، وهم بحاجة ماسّة إلى ذلك. بصدق، نواجه خطر ظهور الوقائع نفسها في أثناء استجواب باربارا. وقد تحول سرّية الاتصالات دون التحقق من إقرارك لزوجتك بعلاقتك الغرامية، ولكن لا يمكن الجزم بذلك. بصورة عامة، قد لا تكون الفرصة المتاحة جديرة بالمحاولة». وبدا شتيرن غير مُبالٍ بالإقرار بأنني مُحِق بالرغم من كل شيء. قد لا يكون الحديث عن استدعاء باربارا للشهادة ذا أهمية في الواقع. «ولكن الكشف عن هذه المسائل ليس من أهمّ اهتماماتي في شأن شهادتك»، قال ساندي، ووقف على قدمَيه. لقد تظاهر بتمديد عضلاته، ولكنني علمتُ بأنه يريد الجلوس بجانبي على الأريكة، وهي الأريكة التي يجلس عليها ليقوم بإبلاغ موكله كل أنبائه السيئة. وقوّم صورة فوتوغرافية لكلارا وأبنائهما كانت موجودة على خزانة كتب مصنوعة من خشب البتولا وراء طاولته، ومن ثم جلس بجانبي بصورة طبيعية.

«يا راستي، أفضّل رؤية المتهَم على المنصة. فمهما طُلب من المحلفين تكراراً، وبإصرار، ألاّ يتأثر موقفهم بشكل سلبي بصمت المتهَم، فمن المستحيل بالنسبة إليهم العمل بهذا التوجيه. فهيئة المحلفين تريد أن تسمع نفياً، ولا سيما عندما يكون المتهَم شخصاً اعتاد الظهور وسط الناس. ولكنني ضد هذا التوجه في هذه القضية. كلانا نعرف ذلك، يا

راستي. فالأشخاص الذين يُعتبَرون شهوداً جيدين مجموعتان: أولئك الصادقون بصفة خاصة، والكاذبون المتمرسون. أنت شخص صادق في الأساس وتصلح لتكون شاهداً جيداً، ويصب هذا الأمر في صالحك. بالتأكيد، لقد تدرّبتَ طيلة سنوات على كيفية التواصل مع هيئة المحلفين. ولا أشك أبداً في أنه إذا تعيّن عليك الإدلاء بشهادتك حول كل ما تعرفه، فإنك ستقوم بذلك بإقناعٍ، وستتم تبرئتك. وبجدارة، يجب أن أضيف أيضاً».

ورمقني بنظرة سريعة ومعبّرة ونافذة. لم أكن واثقاً مما إذا كانت تعبّر عن ثقته ببراءتي أو تشير إلى ضعف قضية الولاية، ولكنني شعرت بأنه الاحتمال الأول ووجدتُ نفسي متفاجئاً بشكل ممتع. مع شتيرن، بالطبع، من المحتمَل أن يكون قد عبّر عن رأيه في ذلك الوقت لتحلية طَعم حبة الدواء هذه.

«من جهة ثانية»، قال، «أنا مقتنع بعد أن راقبتك طوال عدة أشهر بأنك لن تشهد بكل ما تعرفه. فبعض المسائل تبقى أسراراً خاصة بك. في هذا الوقت الحرج بالتأكيد، لا أرغب في الكشف عن أسرارك، وأعني ذلك بإخلاص. علينا اعتماد وسيلة الإقناع مع بعض الموكّلين، ولا تعرف ما الذي تقوم به مع موكِّلين آخرين. في عدد قليل من القضايا، من الأفضل ترك الأمور على حالها. هذا ما أشعر به هنا. أنا على ثقة تامة بأنك تعمّدتَ اتخاذ هذا الخيار بعد التفكير به مليًّا. ولكن، عندما يتوجه المرء إلى منصة الشهود عازماً على إخبار بعض الحقيقة، يبدو كما لو أنه حيوان في البرّيّة بثلاث قوائم. لستَ كاذباً ماهراً. وإذا دخل نيكو خطأً هذه المنطقة الحساسة، فستسوء الأمور كثيراً بالنسبة إليك».

وتوقف عن الكلام قليلاً، وساد صمت أطول من المطلوب.

«علينا تقييم القضية كما هي»، قال شتيرن. «لم يمرّ علينا يوم سيّئ بعد لنلجأ إلى الدفاع. حسناً، ربما يوم واحد. ولكن، ليس هناك دليل غير مطعون فيه. ولقد وجّهنا ضربة قويّة بعد ظهر هذا اليوم من غير المحتمَل أن تتمكن الولاية من التعافي منها. فنظراً إلى خبرتي أرى

أنك لا يجب أن تشهد. فأيًّا تكن فُرَصك - وأعترف بأنها ستكون جيدة تماماً بعد هذا اليوم كما أعتقد - أيًّا تكن فرصك، فهي ستكون الأفضل إذا اتّبعنا هذه الطريقة.

بعد قول كل ذلك، دعني أذكّرك بأنه قرارك. أنا محاميك وسأستدعيك للشهادة إذا اخترتَ القيام بذلك بثقة واقتناع؛ أيًّا يكن ما اخترتَ قوله. وبالتأكيد، لا حاجة لاتخاذ قرارات الليلة. ولكنني أردت منك أن تبدأ مرحلة التفكير الأخيرة واضعاً نُصب عينَيك وجهات نظري».

وغادر بعد لحظات بربطة عُنُق معقودة، حاملاً سترته الخالية من أي عَيب. وبقيتُ في مكتبه، كئيباً بسبب ملاحظاته. كان شتيرن قريباً مني أكثر من أي وقت مضى، وتحدثنا بصراحة تامة، وصراحته مُقلقة بعد أشهر عديدة من الكتمان بالرغم من صياغتها بطريقة لطيفة ومنمَّقة.

وجلستُ في الرواق مفكراً بتناول كأس أخرى من الشراب. كان المصباح في مكتب كِمب مضاءً؛ فهو ما زال يعمل في مكتبه الصغير. وهناك مُلصَق إعلاني فوق إحدى خزائن الملفات المعلَّقة على الجدار، يظهر فيه شاب يرتدي سترة مكسوّةً بالبَرق وراء خلفية حمراء نابضة بالحياة، ويعزف على قيثارة. لقد التُقطت له الصورة وهو في حركة ناشطة، ويبدو شعره عند الأطراف مشعّثاً. وتمتد كلمة **غالاكتيكس** بين طرفَي المُلصَق بأحرف بيضاء. كنت على ثقة تامة بأن عدداً قليلاً من الأشخاص تمكنوا من تمييز جايمي كِمب في تلك الصورة التي تعود لعقد من الزمن.

«وضعتُك في موقف صعب مع الرئيس»، قلت. «أعتذر».

«تبًّا، إنه خطئي». وأشار إلى كرسي. «إنه الرجل الأكثر انضباطاً الذي عرفتُه يوماً».

«ويا له من محام!».

«أليس كذلك؟ هل سبق لك أن رأيت أمراً مماثلاً لما حدث اليوم؟».

«أبداً»، قلت له. «أبداً طوال اثنَي عشر عاماً. منذ متى تملكان هذه المعلومات؟».

«منذ ليلة الأحد، لاحظ ساندي أثر الجرح في الجثة المشرَّحة، وحصلنا على السجلات من الطبيب النسائي يوم أمس. هل تريد أن تسمع شيئاً ما؟ يعتقد شتيرن أنه مجرّد خطأ. هو يشعر بأن كوماغاي قد قام بكل شيء من دون ابتغاء الدقة في عمله. وعندما تلقى النتائج من عالِم الكيمياء، نسي أمر التشريح. لا أصدّق ذلك».

مكتبة
t.me/t_pdf

«لا؟ ما هو رأيك؟».

«أعتقد أنه تمّ الإيقاع بك».

«حسناً»، قلت بعد لحظات، «لقد فكرتُ بهذا الاحتمال أكثر مما فكرتَ به».

«أصدّق حدوث ذلك»، قال كِمب. «في معظم الأحيان». كنت على ثقة بأنه يفكر بسجلات الاتصالات الهاتفية مرة أخرى، ولكنه لم يذكرها. «هل تعرف من قام بذلك؟».

وفكرتُ للحظات.

«لماذا لم أُخبر محاميَّ؟».

«ما رأيك بمولتو؟».

«ربما»، قلت. «إنه أمر محتمَل».

«ما الذي سيستفيد منه؟ أيريد أن يمنعك من الاطّلاع على ذلك الملف؟ ماذا تدعوه؟ الملف **بي**؟».

«الملف **بي**»، كررتُ.

«إلا إذا كان لا يصدّق أنك لن تشير إلى الملف إذا وقع بين يدَيك».

«أجل، ولكن انظر إلى وضعي. هل تفضّل أن يتّهمك المساعد الأعلى للنائب العام أم رجلاً جامحاً تحاول أن تُلصق به تهمة بالقتل؟ إضافةً إلى ذلك، لا يعرف المدى الذي بلغناه. يريد منع الجميع من المُضيّ قدُماً في تحقيقهم».

«إنّه أمر مثير للدهشة تماماً، ألا تعتقد ذلك؟ هذا غريب؟».

«ربما كان هذا أحد الأسباب التي تحملني على عدم تصديق ذلك».

«ما هي الأسباب الأخرى؟».

فهززت رأسي. «سأكوّن فكرة أفضل الليلة».

«ماذا سيحدث الليلة؟».

وهززت رأسي ثانيةً. لم يكن بإمكاني المجازفة لأجل سلامة ليرانزر. سيكون ذلك سراً بيني وبينه.

«هل هي أمور ستقوم بها بنفسك الليلة؟».

«أجل»، قلت.

«يُستحسَن بك أن تكون حذِراً. لا تبدأ بتَقديم أي خدمات لديلاي غارديا».

«لا تَقلق»، قلت. «أعرف ما أفعله». ووقفتُ، وفكرت مليًّا بمرافعتي الأخيرة، إحدى المرافعات غير القابلة للتصديق التي أعددتُها مؤخراً. وتمنّيتُ لكِمب ليلة سعيدة، وعدت إلى الرواق بحثاً عن شراب.

34

على غرار سانتا، وصل ليبرانزر إلى منزلي بعد منتصف الليل. كان يبدو نشيطاً ورحب الصدر على غير عادته عندما استقبلته باربارا عند الباب بثياب النوم. عندما كنت أنتظر ليب، لم أشعر بأي مَيل إلى النوم؛ فلقد اختلطت عليّ أحداث اليوم لدرجة أنني شعرت للمرة الأولى منذ أشهر بتبدّد الأمل. فالأمر أشبه باستقبال الرموش المطبقة لضوء نهار جديد بارتعاش. وفي مكان ما في داخلي، ساد ذلك الإيمان بأنني سأستعيد حريتي. وأمضيت في ذلك الضياء الشجيّ أمتع وقت مع زوجتي منذ أسابيع. لقد تناولت القهوة مع باربارا لساعات، متحدثَين عن توقف بينلس كوماغاي عن عمله، وعودة ناتانيال المرتقَبة يوم الجمعة، ومتصوّرين أن يكون لذلك أثرُ البلسَم علينا.

«يقولون في وسط المدينة بعض الأمور الغريبة»، أخبرنا ليبرانزر. «قبل خروجي من هول مباشَرةً، تحدثت إلى شخص بلَغته أنباء عن لندنينغ. يقولون إن ديلاي يتحدث عن صرف النظر عن القضية، فيما يُصرّ تومي على التفكير بشيء جديد. هل يمكن أن يكون ذلك صحيحاً؟».

«إنه أمر ممكن»، قلت. ولدى الإشارة إلى قيام نيكو بصرف النظر عن القضية، أمسكت باربارا ذراعي.

«ماذا حدث في قاعة المحكمة اليوم؟»، سأل ليب.

وشرعتُ بإخباره قصة استجواب كوماغاي، ولكن، كان قد سبق له أن سمعها.

«أعرف ذلك»، قال. «أعني، كيف يُعقَل؟ أخبرتُك أن ذلك المغفّل الصغير قال إن الرجل كان يُطلق عيارات نارية فارغة. لا أهتم بعدد المرات التي نفى فيها الأمر. ولكن، هناك أمر واحد أكيد؛ وهو أن تد

كوماغاي أصبح من الماضي. لا يوجد شخص في هول لا يقول إنه سيتم فصله من العمل مؤقتاً في الأسبوع القادم».

كما توقع كِمب. حينئذٍ، شعرتُ بفتور مشاعر التعاطف.

ورافقتنا باربارا إلى الباب. «احترسا»، قالت. وجلستُ وليبرانزر للحظات في سيارة الأريس التي لا تحمل أي علامة فارقة في الطريق المؤدي إلى المنزل. كنت قد تناولت كوباً آخر من القهوة – هذه المرة مع كافيين – عندما وصل ليب، وزوّدتْه باربارا بكوب ثانٍ للطريق، وبدأ بارتشافه عندما جلسنا في السيارة.

«إذاً، إلى أين نحن ذاهبان؟»، سألتُ.

«أريدك أن تحزر»، قال. لقد تأخر الوقت قليلاً، بالطبع، للقيام بزيارات. ولكنني خبرتُ منذ زمن طويل أسلوب رجال الشرطة هذا. فإذا أردتم العثور على أحدهم، فإن أفضل وقت للبحث عنه هو في هدأة الليل عندما يكون الجميع تقريباً في المنزل. «أريد رأيك بِليون»، قال ليب. «في الواقع، أخبرني عنه».

«لا أملك أي فكرة. لديه عمل من نوع ما يريد الاحتفاظ به. الأمر واضح من الرسالة. ربما يجني مقداراً كبيراً من المال، ولكن ما يجنيه لا يكفيه. لست أدري. ربما يملك مطعماً أو مقهى مع بعض الشركاء المستقيمين. ربما يكون شخصاً يتمتع بدرجة معيّنة من الاحترام. ربما كان يدير مسرحاً. ما رأيك، هل أصفه بشكل جيد؟».

«ما كان بإمكانك قطّ أن تصفه أفضل من ذلك. هل هو أبيض؟».

«ربما. مهما يكن».

«هذا خطأ»، قال ليبرانزر.

«لا؟ تباً».

وضحك ليبرانزر.

«حسناً»، قلت، «انتهت الأسئلة العشرون. ما هو النبأ المثير؟».

«تخيّل ذلك»، قال ليبرانزر. «إنه عضو في النايت سينتس».

«أنت تمزح».

«إنه شخص قصير القامة بطول ذراعي، مطّلع على أنواع جرائم العصابات كافة، وهو بمثابة ملازم أول الآن. يدعونه شماس، ويتولى المهام كافة منذ عدة سنوات. لقد ظن كما يبدو أن الآخرين لن يهتموا لأمره إذا اكتشفوا أمر ما قام به مع فتيان بِيض في الغابة العامة. قام موجولسكي، وهو أستاذ في المدرسة الثانوية، بتزويد أستاذ زميل له بمختلف أنواع المعلومات عن العصابات كافّة، ويبدو أنهما راقبا هذه الأمور طوال سنوات. كان هذا الرجل الذي يدعى إدي أستاذ ليون. هناك احتمال بنسبة تسعة على عشرة بأن يكون إدي هو من كتب الرسالة».

«يا لهذا الرجل! إذاً، إلى أين نحن ذاهبان؟ إلى شارع غريس ستريت؟».

«شارع غريس ستريت»، قال ليبرانزر.

كانت الكلمات كافية لإحداث رجفة بجانب قلبي وعمودي الفِقري. لقد أمضيت ولايونيل كينيلي بضع أمسيات هناك، لا بل في الصباح الباكر، في الواقع، بين الثالثة والرابعة من بعد منتصف الليل. إنه الوقت الأكثر أمناً لرجل أبيض.

«لقد اتصلتُ به»، قال ليبرانزر. «إنه شخص ميسور. لديه هاتف وكل شيء باسمه الخاص. قام المحقق الخاص برمان ذاك بعمل رائع. على كل حال، اتصلتُ قبل ساعة تقريباً، وادعيت أنني أوزّع اشتراكات مجانية في الصحيفة. لم يكن مهتماً ولكنه وافق عندما سألتُه إن كان يتحدث إلى ليون وِلز».

عضو في النايت سينتس، قلت في سرّي في أثناء توجهنا إلى المدينة. «عضو في النايت سينتس»، تمتمتُ بصوت عالٍ.

كانت مشاريع شارع غريس ستريت مألوفة لديّ في عامي الرابع كمساعد للنائب العام. لقد انضممت في ذلك العام إلى جماعة ريموند هورغان الذي اختارني لقيادة تحقيق واسع النطاق عن النايت سينتس

بالتعاون مع الشـرطة وهيئة المحلفين الكبرى. وفي الوقت المناسـب، أعلن ريموند عن الهجوم على أكبر عصابة شوارع في المدينة، وقد أصبح هذا الحدث مركز الاهتمام في حملة إعادة انتخابه. بالنسبة إلى ريموند، كانت مسـألةً مرتبطة بالمُثل العليا. فرجال العصـابات السـود لم يكونوا يحظون بشـعبية كبيرة في مقاطعة كيندل، وقد أزال النجاح الذي حققه صورة الرجل الذي ينفطر قلبه شفقة. والتحقيق الذي أجريته عن النايت سينتس هو رحلتي الأولى إلى الأضواء، وكانت المرة الأولى التي عملتُ فيها مع مراسـلين إلى جانبي. لقد أمضـيت أربع سـنوات تقريباً في هذه القضية. وعندما حان موعد خوض ريموند معركة إعادة انتخابه ثانيةً، كنا قد أدنّا 147 عضـواً من العصـابة. وبشّـرت الصـحافة بنصر ريموند هورغان غير المسـبوق، ولم تُشـر قطّ إلى أن أكثر من 700 عضـو من النايت سينتس كانوا لا يزالون في الشارع، ويزاولون أعمالهم القديمة.

وقام أحد علماء الاجتماع الجيّدين بوضـع بحث عن منشـأ النايت سـينتس. كانت في الأصـل جماعةَ الخارجين عن القانون الليليين، وهي عصابة شوارع صغيرة في نورث إند، غير منضبطة بشكل جيد، يقودها ملفين وايت، وهو أميركي حسن المظهر، عَكِر المزاج، لديه عين كفيفة، جوّال، ويضع في أذنه قرطاً فيروزيّ اللون متدلّياً بطول ثلاث بوصات، لتحقيق التوازن ربما. كان يعتمد تسريحة الغورغون التي تجعل الشعر أفعوانيّ الشـكل، ومماثلاً للشـعر الأشعث المتشابك. وملفين لص يسرق أغطيـة دواليـب السـيارات، والمسدسـات، والبريد، ونقـوداً من فئات صـغيرة من ماكينات البَيع، وكل أنواع المركبات السـيارة. ذات ليلة، قتـل ملفيـن وثلاثـة مـن رفاقه مالكاً عربياً لمحطة وقود دنا منهم في أثناء قيامهـم بإفـراغ مسـجِّلة النَّقـد لديه. فادّعوا أنهم قامـوا بقتل غير متعمَّد، وأودع ملفين – الذي لم يُحتجَز حتى ذلك الحين إلا في معسـكر الولاية لليافعيـن – فـي سـجن راديـارد، حيث التقـى ورفاقه الثلاثة أشخاصـاً أعربوا عن إعجابهم بهم. وظهر ملفين بعد أربع سـنوات مُرتَدياً قُفطاناً وحاملاً التمائم، وأعلن أنه أصبح زعيم هاروكان؛ أي قائد جماعة نايتايم

سينتس أند ديمونز. واستقر خمسة عشر شخصاً آخرون يرتدون ملابس مماثلة في الناحية نفسها من البلدة، وبدأوا جميعاً في الأشهر الاثنَي عشر التالية بالانخراط بالمجتمع، كما قالوا. وجمع ملفين أتباعه في صومعته الخاصة، وهي كناية عن مبنى سكني مهجور. كان يبشر بواسطة مكبّر صوت في نهايات الأسبوع والأمسيات، ويعلّم في النهار أولئك الميّالين إلى السرقة.

كان نشاط السينتس منصبًّا في الأساس على البريد. وفي الواقع لديهم أتباع عديدون في مكتب البريد. لم يكونوا يسرقون الشيكات وبطاقات المناسبات فحسب، بل المعلومات المرتبطة بالحسابات المصرفية أيضاً ليتمكنوا من التزوير في أي مصرف. كانت هاروكان تتمتع بالقدرة على اعتماد مبادئ المؤسسة الرأسمالية، فتعيد استثمار أرباحها في عقارات منخفضة الثمن في نورث إند. في النهاية، باتت السينتس تمتلك مجمعات سكنية كاملة، ويقود أعضاؤها سيارات كبيرة، ويُطلقون العنان لأبواقهم وأجهزة الراديو الخاصة بهم، ويُفسدون أخلاق بنات الحيّ ويحوّلون الأبناء إلى رجال عصابات سواء أكانوا راغبين في ذلك أم لا. في غضون ذلك، اتخذت هاروكان طابعاً سياسياً، وشرع السينتس بتوزيع الطعام في نهايات الأسبوع.

وعندما ثبّتوا أقدامهم، وسّع ملفين نشاط السينتس. لقد تحوّلت مبانٍ بأكملها إلى مراكز لمعالجة المخدرات حيث يقوم أشخاص يحملون إجازات في الكيمياء بمزج الهيرويين بالكينين واللاكتوز، في حين يتولى شخصان متأنقان مزوّدان ببنادق أم16- مراقبتهم. وفي منطقة أخرى، كانت هناك ست نساء عاريات تماماً - لمنع تهريب المخدرات في تجاويف أجسادهنّ - يُعددن أكياساً رخيصة الثمن ويُحكمنَ إغلاقها. وفي شوارع المنطقة التي تسيطر عليها السينتس، كان الهيروين عالي الجودة يباع في المنصات، وهناك نوافذ في المرائب يلجأ إليها شبّان بِيض من الضواحي لتسجيل أرقام قياسية في السباقات، ويقوم شخص قوي النفوذ يرتدي قفطاناً ويضع واقياً للعينين بتنظيم حركة المرور في نهايات الأسبوع

عندما يكون هناك ازدحام؛ مستخدماً صفارة وموجّهاً الناس. وحاولت الصحف مرة واحدة أو مرتين الكتابة عما يجري هناك، ولكن رجال الشرطة لم يُعجبهم الأمر. فقد كان هناك رجال شرطة يتعاونون مع السينتس، وهو أمر فضّل القسم تجاهله تقليدياً، وأولئك الذين لم يكونوا يتحدثون عن الأمر كانوا خائفين. فالسينتس يقتلون. إنهم يطلقون النار، ويعدِمون خنقاً، ويسددون الطعنات؛ وهم يرتكبون جرائم قتل، بالطبع، بسبب مشاجرات صبيانية، ولكنهم يقتلون أيضاً بسبب اختلافات صغيرة في الرأي؛ لأن أحدهم تحدّث بطريقة مهينة عن تنجيد مقاعد سيارة شخص آخر مثلاً، أو بسبب تلامس بريء للمناكب في الشارع. هم يطوفون في منطقة تغطي ستة مجمعات سكنية من هذه المدينة، وهي منطقتهم الصغيرة الخاصة حيث يُلقون تحية مرحباً أيها المتأنّق، وتشكل ربع مساحة الأرض التي تحتلها مشاريع غريس ستريت.

لقد سمعتُ الأقاويل في مناسبات عدة عن اعتماد تصاميم مهاجع منامة الطلاب الهندسية نفسها في ستانفورد في هذه المشاريع. ويكفي القول إنه لم يعد هناك أي أوجه شبه. لقد تم فصل الشرفات الصغيرة في الناحية الخلفية لكل شقة بحاجز من الأسلاك لوضع حد للانتحار، ومنع الأطفال والثملين من السقوط على الرصيف. واستُبدلت معظم الأبواب الزجاجية المنزلقة للشرفات بألواح من الخشب الرقائقي، وتتدلى من الشرفات نفسها مجموعة منوّعة وواسعة من المقتنيات؛ بما في ذلك الملابس المعدّة للغسل، وصفائح النفايات، ورايات العصابة، وإطارات قديمة، وقطع سيارات، أو كل ما يمكن الاحتفاظ به بعيداً عن الحرارة في الشتاء. لا يستطيع أي عالِم اجتماع وصف مدى معرفتنا لواقع الحياة في هذه الأبراج الإسمنتية الثلاثة. ليست مدرسة يوم الأحد، إنها عبارة لايونيل كينيلي المفضّلة، وهو مُحِق في ذلك. ولكن، لا يمكن لتهكّم أو تعبير عنصري متطرف أن يصفها. إنها منطقة حرب شبيهة بما وصفه الأشخاص الذين عادوا من نام. إنها أرض لا مستقبل فيها، مكان لا وجود فيه لشرط السبب والنتيجة. مجرّد سفك دماء وغضب

شــديد، اهتياج وهدوء؛ تلك هي التعابير التي يمكن بواســطتها وصــف ما يجــري هنــاك. ولكــن لا يمكنكم أن تطلبوا من أحد الاســتعلام عما يمكن أن يحدث في العام القادم، لا بل في الأسبوع القادم. فعندما كنت أستمع إلى شــهودي وهم يصــفون الأحداث اليومية في المشــروع بطريقة غير مترابطة، كنت أتساءل إذا كانوا يهذون. لقد أخبرني مورغان هوبرلي، نجمي المفضَّــل – وهو عضــو ســابق في الســينتس أصبح شخصاً متديّناً – بأنه نهض من سريره ذات صباح على صوت طلق ناري خارج بابه. وعندما تحقق مما جرى، وجد نفســه عالقاً بين نارَي شخصــين متأنِّقَين يحاول أحدهما إرداء الآخر باســتعمال بندقية قصــيرة. فســألتُ مورغان عما فعله. عدت للنوم. الأمر لا يعنيني. ووضعت وسادتي فوق رأسي.

فــي الحقيقــة، لــم تنجح ســنواتي الأربع التي أمضــيتها في التحقيق إلا بســبب مورغان هوبرلي. فلقد تحول النجاح في الكشــف الكامل عن حياة العصــابة إلى ضــربة حظ، وقد لعبها شــتيرن كورقة رابحة أمام هيئة المحلفين في عشرات المناسبات: العثور على مورغان. فالعضوية في منظمة مماثلة لمنظمة هاروكان يمكن شــراؤها. كان العشــرات من أعضائها مُخبرين للشرطة أو عملاء للوكالات الفدرالية، ولكن ملفين كان ذكياً بما يكفي لحمل عدد قليل منهم على القيام بمهام مكافحة الجاسوســية هناك. لم نكن واثقين قطّ من صــوابية ما نقوم به لأننا كنا نحصــل من مصادرنا على روايتَين أو ثلاث روايات مختلفة.

ولكن مورغان هوبرلي كان في الداخل لا لشيء إلا بسبب استمتاع الســينتس بوجــوده بينهــم. فالجميع يعرفون مورغــان هوبرلي. لقد وُلد هادئ الطباع، ومُنح نعمة كما يُمنح الآخرون نعمة عزف الموســيقى، أو ركوب الجياد، أو ممارسة القفز العالي. وملابسه على مقاسه تماماً، وحركاته رشــيقة. ليس وســيماً بقدر رباطة جأشــه، ولم يتبدل مظهره الخارجي، ويُعتبر دمث الأخلاق أكثر منه متحاشياً للآخرين. إنه يوقظ إيحاءات في نفســي تذكّرني بطريقة ما بمشــاعري حيال نات. وبســبب صوتٍ أخلاقيٍّ، انتقل مورغان للعمل سرًّا لصالح الدولة. فألصقنا جهاز

تسجيل بجسمه، وشاركنا في اجتماعات الزعماء. لقد زوّدنا بأرقام الهواتف. وفي الأيام السبعين التي ساعدَنا فيها مورغان هوبرلي، جمعْنا عملياً كل الأدلة للمحاكمات التي دامت عامَين إضافيَّين.

ولم ينجُ، بالطبع. فالصالح، كما يقولون، لا ينجو أبداً. لقد أخبرني كينيلي بأنهم عثروا على مورغان بعد تلقّي اتصال من قيادة منطقة الغابة العامة، كما قال، ولم تبدُ مشجِّعة. وعندما وصلتُ، كان هناك رجال شرطة مبعثَرون، ومساعدون طبّيون، ومراسلون معتادون على ساحات الجريمة. لم يشأ أحد التحدث إلى أي شخص آخر، ولم يشأ أحد التواجد قرب الجثة. كان الناس منتشرين في أرجاء المكان. لم أستطع تخيُّل مكان وجوده. وكان لايونيل موجوداً هناك، داسًّا يدَيه داخل سترته الجلدية. فرمقني بنظرة الخادم الوضيع المكتئبة. لقد تمادَينا، قال، وأشاح بنظره عني بما يكفي لأحزر مكان وجود الجثة.

لقد مات غرَقاً. وقال المحقق الجنائي راسيل في وقت لاحق: ما كنت لأسمح لكوماغاي بالاقتراب من الجثة. لقد مات غرَقاً، كما تبيّن للمحقق الجنائي، في بركة مياه الصَّرف الصحي لأحد المراحيض العامة. عُثر عليه هناك مقلوباً رأساً على عقِب، ورأسه وكتفاه المكسورتان مدفوعة عبر إطار المقعد الخشبي. كان جسده متيبّساً، وساقاه منفرجتَين كفزّاعة طيور. وكان مرتدياً سروال عمل مصنوعاً من قماش التويل، وزوجاً من الجوارب المشبَّكة المصنوعة من النايلون، ومنتعلاً حذاء أكسفورد بالياً. كانت بشرته – حزام اللحم المرئي حيث لا يلتقي السروال مع زوج الجوارب – أرجوانيّة باللون الملَكي. ووقفتُ في ذلك الكوخ الخشبي الصغير حيث كانت ذبابة واحدة أو ذبابتان لا تزالان تئزّان، بالرغم من كوننا في شهر تشرين الثاني/نوفمبر. وكان الهواء نتناً من دون وجود حرارة الصيف، وتأمّلتُ بمزاج مورغان هوبرلي الغريب وبالأثير الذي طالما ظننت أن باستطاعته الطفو عليه. كنت أعتقد آنذاك بوجود الأشباح بدرجة أقل لأنني ظننتُ بالتأكيد أنه لا يمكن المَسّ بهذا الرجل.

بـدا ليبرانـزر فاتـراً؛ ليس غير عاطفي أو غير ودّي، بل فاتراً في الواقع بالرغم من أن حرارة الليل في آب/أغسطس تناهز السبعين درجة. كانت كتفاه منحنيتين، وسترته الجلدية مُغلَقة بإحكام. كنت أعرفه بما يكفي لأدرك أن هذا يدلّ على الانزعاج إن لم يكن الذُّعر.

«كيف حالك، يا تشارلي تشان؟»، سألتُه في أثناء صعودنا على الدرَج الإسمنتي.

«لستُ مثله، أيها الرئيس»، قال.

في المشاريع، يشبه الدرَج طريقاً عاماً. ونادراً ما تكون المصاعد عاملة، وفي هذه الحالة، لا أحد يستقلّها لأنه لن يجد أي رحمة إذا صودف وجوده مع ملء سيارة من أفراد النايت سينتس. فكل الأعمال التجارية تجري في بيت الدرج حيث تباع المخدرات، ويتم تناول الشراب. كانت الساعة قد بلغت الثالثة من بعد منتصف الليل تقريباً ولا يزال نهر الغانج العمودي ذاك غير مُقفر تماماً. وبالقرب من الطابق الرابع، كان هناك أربعة شبان يشربون شيئاً ما، ويحاولون إغواء شابة تُسند رأسها على كُتل مصنوعة من الإسمنت والفحم الحجري. «كيف حالك، أيها الشقيق؟»، قالوا لرجل أسود صودف صعوده أمامنا. ولم يقولوا شيئاً لليب ولي، ولكن نظراتهم كانت وقحة وباردة، ونقر ليب علبته في أثناء مرورنا بجانبهم. لم يشأ أن يخطئوا الظن بأنه رجل أبيض عادي.

في أعلى بيت الدرج في الطابق الثامن، وضع ليب إصبعه على شفتَيه، وسحب ببطء باب مخرج الحرائق الفولاذي. فتبعتُه إلى الممر، وهو رواق نموذجي في المشروع مُضاء بقوة لإحباط الدخلاء، وتتوزع النفايات أكواماً أكواماً على جانبَيه. وفي منتصف الطريق تقريباً، كان لوح الجص الذي يغطي الجدار مهشّماً كما لو أن رأس أحدهم قد أُقحم فيه. ففي رواق مماثل، كان أحد رجال لايونيل كينيلي قد أطلق النار على ملفين وايت في الليلة التي تلت عودتنا من الجولة الأولى من توجيه التُّهَم. كنت في الخارج أُشرف على الاعتقالات، وبعد عشرين دقيقة

تقريباً من سماع الطلق الناري، سمح لي رجال الشرطة بالدخول. كانت سيارة الإسعاف قد وصلت، وصعدتُ مع مساعدين طبيين أنقذوا حياة ملفين بمساعدة الأطباء الجراحين، ممهّدين له الطريق للعودة إلى راديارد. وعندما رأيته، لم تكن فرص هاروكان بالنجاة كبيرة. كانوا قد مدّدوه في وسط الرواق بجانب بندقيته الآلية، وكان يُصدر صوتاً أشبه بالأنين، ومعدته وذراعاه مصطبغة بالدم، وينتأ من بين يدَيه نسيج أرجوانيّ اللون. كان ستايلتن هوبرلي، الذي بدأ بالتجسس لصالحنا بعد مقتل شقيقه مورغان، واقفاً فوقه. لقد تبوّل ستايلتن على وجه ملفين وايت في أثناء قيام عدد من رجال الشرطة بالاسترخاء على الجدران، مراقبين ما يجري.

ما الذي يُفترض بي قوله إذا مات هذا الرجل غرَقاً؟ سألني أحد المساعدين الطبيين.

وشرع ليب بقرع الباب.

«افتح، يا ليون! استيقظ! إنها الشر-طة. هيا، يا رجل. نريد التحدث فقط».

وانتظرنا. لقد بدا المبنى أكثر هدوءاً، ويصعب تقريباً كشف ما يجري فيه. وقرع ليب الباب مجدّداً براحة يده. لم يكن بالإمكان ركل الباب وفتحه لأنه مصنوع من الفولاذ المقوّى.

فهز ليبرانزر رأسه. وفُتح الباب فجأةً، بهدوء، وبطء شديد. في الداخل، كانت الغرفة سوداء تماماً، وليس هناك ما يشير إلى وجود ضوء. وبطريقة ما، ازداد تدفّق الأدرينالين بطريقة غير طبيعية حتى بلغ الذروة. وفي محاولة مني لمعرفة التفاصيل التي أثارت رد الفعل هذا، سمعت تلك الطقطقة المعدنية الصغيرة، ولكن قبل ذلك، كان هناك شعور فوري بضرورة التنبّه إلى الخطر الذي يمكن تحسّسه في الجوّ كما لو أن للخطر المهدّد رائحة. وعندما سمعت صوت تلقيم السلاح، أدركت أننا هدفان مثاليان نقف مضاءين من الخلف بأضواء الردهة الساطعة. وبالرغم من تيقّني من الخطر الداهم، تسمّرت في مكاني. ولكن ليبرانزر

ابتعد قليلاً وانزلق في اتجاهي ودفعني نحو الأسفل. فسقطتُ على مِرفقي وتدحرجتُ بعيداً. وانتهى بنا الأمر مستلقيَين على بطنَينا على الأرض، ومحدِّقَين بأحدنا الآخر من جانبَي الباب. كان ليبرانزر يمسك مسدسه بكلتا يدَيه.

وأغمض ليب عينَيه وصاح بأعلى صوته:

«يا ليون، أنا من الشر–طة! هذا الرجل من الشر–طة! وإذا لم تُلقِ سلاحك إلى الخارج في غضون عشر ثوان، فسيفجّرون مؤخرتك قبل أن تتمكن من قول تبًّا. الآن، سأبدأ بالعد!». وركع ليب، وألصق ظهره بالجدار. وأومأ لي بذقنه لأقوم بالشيء نفسه. «واحد!»، صاح.

«يا رجل»، لقد سمعنا، «إذا كنتَ من الشر–طة، فكيف سأتأكد من ذلك، هَه؟ كيف أعرف ذلك؟».

فأخرج ليب من سترته الجلدية النجمة وبطاقة الهوية، وتقدّم بوصات قليلة في اتجاه المدخل، وقذفهما إلى الداخل.

«اثنان!»، صاح ليب، وتراجع، وأشار إلى لوحة المخرج المضاءة لنركض في اتجاهها بعد قليل. «ثلاثة!».

«يا رجل، أنا أضيء النور. اتفقنا؟ اتفقنا؟ ولكنني سأحتفظ بسلاحي».

«أربعة!».

«حسناً، حسناً، حسناً». وتدحرج المسدس فوق بلاطات الآجرّ، واستقر عند عتبة الباب. كان أسود ثقيلاً، وظننته جرذاً حتى توقف.

«اخرج، يا ليون»، صاح ليب. «اركع على ركبتَيك».

«آه، يا رجل!».

«اركع!».

«تباً لذلك». وخرج عبر الباب زحفاً على ركبتَيه، وذراعاه ممدودتان أمامه. كان سريعاً وهزلياً. رجال الشرطة، يا رجل، جدّيون إلى حد كبير على الدوام.

وربّت ليب على ملابسه للتحقق من عدم وجود سلاح آخر معه،

ومن ثم أومأ برأسه. ووقفنا ثلاثتنا على أقدامنا. وانتشل ليب أوراقه الثبوتية من يدَي ليون الذي كان يرتدي كنزة قطنية ذات كمَّين أسودَين، وسروال جوكي قصيراً، ويضع عصبة رأس حمراء. إنه رجل ناعم البشرة، وقويّ البنية. لقد أيقظناه كما يبدو.

«أنا التحري ليبرانزر. من قسم القيادة الخاصة. أرغب في الدخول والتحدث».

«ومن هو، يا رجل؟».

«إنه صديقي». ودفع ليب ليون، وكان لا يزال يشهر مسدسه. «الآن، عُد إلى الداخل». ودخل ليون أولاً، ووقف ليب عند مدخل الباب واضعاً المسدس على وجهه، ومتنقّلاً بين جانبَي الباب، محدّقاً في الداخل. ومن ثم دخل لتفقّد المنزل، وظهر بعد لحظات وأومأ لي للدخول. ووضع مسدسه ثانيةً في القِراب الموضوع في الخلف عند الخصر تحت المعطف.

«يا رجل، كدنا نكون عناوين رئيسة في الصحف ونشرات الأخبار»، قلت له، وكانت تلك كلماتي الأولى منذ بدء ذلك. «لو كان يطلق النار، لكنت قد أنقذتَ حياتي ربما».

فقطّب ليب جبينه مستخفًّا بي. «لو كان يطلق النار، لكنت مَيتاً قبل أن أُسقطك أرضاً».

في الداخل، كان ليون بانتظارنا. فشقته كناية عن مطبخ سفينة وغرفتَين. لم يكن هناك أي شخص آخر، وكان جالساً على فراش موضوع على أرض غرفة الجلوس، مرتدياً سروالاً، وعند قدمَيه، ساعة منبّه بلاستيكية ومنفضة.

«نريد أن نطرح عليك سؤالين»، قال ليب. «إذا كنتَ صادقاً، فسنغرب عن وجهك بعد خمس دقائق».

«هيا، يا رجل. تأتيان إلى هنا عند الثالثة من بعد منتصف الليل. هيا، يا رجل. امنحني فرصة. اتصل بتشارلي ديفيد، يا رجل، إنه محاميّ، يا رجل. تحدّث إليه لأنني مُتعَب وسأذهب للنوم». وأسند

ظهره إلى الجدار وأغمض عينَيه.

«لستَ بحاجة إلى محام، يا ليون».

فضحك ليون، مستمراً بإغماض عينَيه. لقد سمع ذلك من قَبل.

«لديك حصانة»، قال له ليبرانزر. «هذا الرجل نائب عام. ألستَ كذلك؟».

وفتح ليون عينَيه، ورآني أومئ برأسي.

«هل رأيتَ، لديك الآن حصانة».

«7-7-2»، قال ليون، «5-8-6-8. هذا هو رقم هاتفه، يا رجل. يدعى تشارلي ديفيس».

«يا ليون»، قال ليب، «قبل ثماني سنوات أو تسع سنوات، دفعتَ ألفاً وخمسمئة دولار لمساعد نائب عام ليحلّ لك بعض المشاكل. هل تعرف عما أتحدث؟».

«لا تحاول، يا رجل. اتفقنا؟ اقتحمتَ منزلي عند الثالثة من بعد منتصف الليل، يا رجل، لتطرح عليّ هذا الهراء. هل أنا غبي، يا رجل؟ هَه؟ هل أنا غبي لعين؟ هل أتحدث إلى شرطي مؤخرته بيضاء عن هذا الهراء. هيا، يا رجل. عُد إلى منزلك. دَعني أنام». وأغمض عينَيه ثانيةً.

فأحدث ليب ضجيجاً. ولسبب ما، ظننت أنه سيستلّ مسدسه، فهممتُ بمنعه من القيام بذلك، ولكنه توجّه إلى ليون بدلاً من ذلك، وببطء، بصق على مقدمة سريره. لقد رآه ليون يقترب، ولكنه أغمض عينَيه بعد أن وصل ليبرانزر إلى مستوى بصره. ووخزه ليب مرتَين بسبابته على جبينه. وبعد ذلك، أشار ليب إليّ.

«هل ترى ذلك الرجل؟ ذلك الرجل هو راستي سابيتش».

وفتح ليون عينَيه. الكابتن قاتل السينتس، في غرفة جلوسه مباشَرةً.

«هراء»، قال ليون.

«أَرِه بطاقتك»، قال ليبرانزر.

كنت بالكاد مستعداً لذلك، وتوجب عليّ إفراغ جَيبَي سترتي

الرياضية. وفي أثناء ذلك، اكتشفت أن الناحية الأمامية من سترتي رمادية اللون على غرار أرض المدخل. كنت قد اصطحبتُ معي المستندات التي حصل عليها ليب منذ أشهر من ملف المحكمة الخاص بليون، ومفكّرة مواعيدي، ومحفظة نقودي حيث وجدت بطاقة مطويّة الزوايا. فأعطيتها لليرانزر الذي سلّمها لليون.

«راستي سابيتش»، قال ليرانزر ثانيةً.

«وماذا لو كان الأمر كذلك؟»، سأل ليون.

«يا ليون»، قال ليب، «كم عدد أشقائك بالدم الموجودين على مفكرته، هَه؟ أعددهم خمسة وعشرون؟ خمسة وثلاثون؟ كم عدد السينتس الذين استخدمهم للوشاية؟ عُد للنوم، يا ليون، وسيتحدث راستي سابيتش عبر جهاز الهاتف غداً صباحاً. سيُخبر كل واحد منهم كيف كنتَ تخرج إلى الغابة للقيام بأمر ما مع الفتيان البِيض. سيذكر لهم الأسماء، والتواريخ، والأماكن. وسيقول لهم كيف يستطيعون اكتشاف كل شيء عن ليون ولِز. اتفقنا؟ هل تعتقد أن هذا الأمر هراء؟ إنه ليس هراء، يا رجل. إنه الذي جعل ستايلتن هوبرلي يتبوّل على وجه هاروكان. هل سمعتَ تلك القصة، هَه؟ الآن، كل ما نريده هو خمس دقائق من وقتك. تُطلعنا على الحقيقة الكاملة وندَعك وشأنك. علينا معرفة بعض الأمور. هذا كل شيء».

ولم يتحرك ليون كثيراً، ولكن عينَيه كانتا مفتوحتَين على وسعهما، وكان يصغي إلى ليرانزر. لقد خلَتْ نظراته من أي مناوَرة.

«أجل، يا رجل، وفي الأسبوع التالي، ستكون بحاجة إلى أمر آخر فتقرع الباب عند الثالثة من بعد منتصف الليل متفوّهاً بهذا الهراء ثانيةً».

«حالما تجيب عن أسئلتنا، سنقول لك في الحال إن كنا سنحتاج إليك في أمر آخر». فما سنكون بحاجة إليه هو مثول ليون أمام المحكمة للإدلاء بشهادته إذا رغب في أن يتم إلقاء القبض على مولتو. ولكن ليب يعرف الإجراءات المتّبَعة؛ لا تقل لهم ذلك إلا بعد حين. «الآن، لا تخدعني يا ليون. إليك سؤالي الأول: هل دفعتَ أم لا ألفاً وخمسمئة دولار لإقفال

تلك القضية؟».

فأصدر ليون صوتاً، وقوّم جلسته.

«ذاك اللعين إدي»، قال. «أنت تعرف ذلك، يا رجل، صحيح؟ إذاً، لماذا تزعجني؟».

«يا ليون»، قال ليب بهدوء. «لقد سمعتَ سؤالي».

«أجل، يا رجل. لقد دفعتُ ألفاً وخمسمئة دولار».

وازدادت نبضات قلبي قوة. لقد توقعتُ رؤية جَيبي يقفز عندما نظرت إلى قميصي.

وتكلمتُ للمرة الأولى.

«هل كان للمرأة أي علاقة بالأمر؟ كارولين؟ ضابطة المراقَبة؟».

فضحك ليون. «أجل، يا رجل. باستطاعتك قول ذلك».

«ماذا؟».

«هيا، يا رجل»، قال. «لا تخدعني. تلك الساقطة هي التي أعدت كل شيء، يا رجل. تعرف ذلك. قالت لي إنه ليس عليَّ التسكع في الأرجاء، وإنها تعرف كيف تعتني بكل شيء. يا لها من متملّقة! يا لها من متملّقة! يا رجل، أراهن على أنها قامت بذلك مئة مرة. قالت لي أين أذهب، وكيف أكسب رزقي، يا رجل. إنها سيدة باردة جداً. هل تسمعني؟».

«أسمعك». وجثمتُ مثل ليبرانزر. «وهل كانت هناك عندما قمتَ بتسليم المبلغ؟».

«كانت هناك. كانت جالسة هناك تماماً. ببرودة تامة، يا رجل؛ كيف حالك. اجلس هناك بالذات. ومن ثم، بدأ المتأنق بالكلام».

«كان خلفك؟».

«أصبتَ. كانت تقول لي متى أدخل. لا تستدِر، افعل ما يطلبه منك الرجل فحسب».

«وطلب منك وضع المبلغ في دُرج طاولته؟».

«لا، يا رجل. في دُرج الطاولة حيث كنت جالساً. طلب مني أن

أضعه في الدُّرج العُلوي».

«هذا ما عنيتُه. كانت طاولة النائب العام، أليس كذلك؟».

«أجل، تلك الطاولة».

«ودفعتَ له، صحيح؟»، سأل ليبرانزر. «أقصد هل دفعت للنائب العام؟».

فنظر ليون إليه بانزعاج.

«لا، يا رجل، لم أكن أعتزم أن أدفع لأي نائب عام. هل أنا مجنون؟ كان سيأخذ رزقي، يا رجل، ويقول، آه لا، لا يمكنني القيام بذلك، أقسمتُ على شرفي في وسط المدينة. لقد سمعتُ قدْراً كافياً من هذا الهراء».

ونظر إليّ ليبرانزر. لم يكن قد فهم الأمر بعد. ولكنني فهمت أخيراً. يا الله! يا لغبائي! يا لغبائي!

«إذاً ما الأمر؟»، سأل ليب.

فلوّى ليون قسمات وجهه. لم يكن يرغب في إخبار شرطي بما لا يعرفه. فأطلعتُه على الأمر.

«القاضي، يا ليب. دفع ليون للقاضي. أليس كذلك؟».

فأومأ ليون برأسه. «يا له من متأنّق أسود! كان هو مشاركاً أيضاً، يا رجل. ورائي؟ باستطاعتي معرفة الصوت عندما أسمعه في المحكمة». وطقطق ليون بأصابعه، محاولاً تذكّر الاسم. ولكن، لم يكن هناك ما يستدعي تكبّده عناء ذلك. فالاسم ظاهر على طلب رفض القضية، وأخرجتُه من جيبي للتحقق. لا يمكن أن يخطئ المرء بقراءة ذلك التوقيع. لقد سبق لي أن رأيته عشرات المرات في الشهرين الأخيرين. إنه مميَّز كأي شيء آخر يقوم به لارين.

«إذاً، ما الأمر؟»، سأل ليب. لقد ناهزت الساعة الخامسة، وكنا لا نزال جالسَين في واليز، وهو مطعم صغير بجانب النهر يفتح أبوابه طوال الليل. كانوا يشتهرون بالكعكات المقلية المثقوبة قبل أن تعتمد سلسلة المطاعم الوطنية هذه الفكرة أيضاً. «لارين يعاشرها ويأخذ المال

ليحافظ على أناقتها؟».
كان ليب لا يزال متوتراً. ففي طريقنا إلى المطعم، توقف عند نافذة صغيرة في الجدار حيث يعمل ضرير يعرفه، وخرج مع نصف باينت من الشراب بنكهة الدراق. لم يكن قد استوعب بعد ما حدث في شقة ليون.
يا الله! قال لي. أحياناً، أكره كَوني شرطياً.
فهززت رأسي رداً على أسئلته. لست أدري. فالشيء الوحيد الذي فهمته بلا شك في الساعة الأخيرة هو الأمر الذي لم يشأ كينيلي إطلاعي عليه عندما رأيته في الأسبوع السابق، وهو أن لارين يرتشي. فهذا ما تسبب بإفساد رجال الشرطة حينذاك.
«ماذا عن مولتو؟»، سأل ليب. «هل تتصوّر أنه مشارك بالعملية؟».
«أتصوّر أنه خارج العملية. لا أرى لارين ليتل في أي ثلاثي. قال نيكو إن مولتو كان يهتم بكارولين. ربما طلبت منه رفض القضايا فأُجبر على القيام بذلك. أنا على ثقة بأنه كان يميل إليها كالآخرين». كل كاثوليكي ومكبوت، بالطبع. فهذا الأمر منطقي أيضاً. إنه الوقود الذي أبقى محرك مولتو عاملاً بأقصى سرعة؛ عاطفة قوية لم يتم إخمادها.
وناقشنا المسألة طوال ساعة تقريباً. وفي النهاية، تقدّم الوقت بما يكفي لتناول طعام الفطور، فطلبنا بَيضاً. كانت الشمس تُشرق فوق النهر، مُحدثةً تلك الوفرة المدهشة من الضوء المصطبغ باللون الوردي.
وفكرت فجأةً بأمر ما وضحكت. لقد ضحكت بقوة بعد أن فقدت السيطرة على نفسي. إنها نوبة من البهجة الصبيانية. فالفكرة التي تبادرت إلى ذهني مثيرة للسخرية وليست هزلية أبداً، ولكنه يوم طويل وغريب جداً.
«ماذا؟»، سأل ليب.
«عرفتُك كل تلك السنوات ولم يبزغ الفجر عليّ قطّ في الواقع».
«ما معنى ذلك؟».
وشرعتُ بالضحك مجدّداً. ومرّت لحظات قبل أن أتمكن من التكلم.
«لم أدرك قطّ أنك تحمل مسدساً».

35

تدحرجت باربارا في أثناء اقترابي من جانب السرير بثياب النوم.

«هل ستنهض الآن؟»، ونظرت شزَراً في اتجاه الساعة. إنها السادسة والنصف. «ما زال الوقت مبكّراً، أليس كذلك؟».

«سأخلد إلى النوم»، قلت لها.

فأجفلتْ، ولكنني لوّحتُ بيدي بما معناه أن المستجدات غير جديرة بالتحدث عنها. لم أكن أعتقد أنني سأنام، ولكنني نمت، وحلمت بوالدي في السجن.

لقد انتظرت باربارا حتى الدقيقة الأخيرة لإيقاظي، وكان علينا التسابق مع الوقت بسبب الازدحام على الجسر. كانت المحكمة مجتمعة للتداول عندما وصلنا، وكِمب والمدعيان العامان مجتمعون أمام القاضي، ونيكو يتحدث. لقد بدا متجهّم الوجه وقلِقاً، ولا يمكن وصف سلوكه في أثناء مخاطبته القاضي إلا بأنه مهتاج.

فجلستُ بجانب شتيرن. كانت باربارا قد اتصلت به لتُبلغه بأننا قد نتأخر، ولكنها أغفلت بطريقة دبلوماسية ذِكر السبب. لقد أمضيت اللحظات الأولى من تداولي مع ساندي مؤكداً له هَمساً أننا في صحة جيدة. وشرح بعد ذلك ما يحدث:

«دخل الادعاء في ساعة اليأس. سأطلعك على الأمر عندما يعلن القاضي الاستراحة. إنهما يريدان أن يُدلي مولتو بشهادته».

فظننتُ أنه الأمر الذي كان يتحدث عنه نيكو. وعندما انتهى من حَضّ القاضي، نظر إليه لارين وقال ببساطة: «لا».

«يا صاحب السيادة -».

«يا سيد ديلاي غارديا، لقد ناقشنا هذا الأمر جيّداً في اليوم الأول من المحاكمة. لا يمكنك استدعاء السيد مولتو».

«أيها القاضي، لم نكن نملك أي فكرة –».

«يا سيد ديلاي غارديا، لو كنت أميل إلى السماح للسيد مولتو بالإدلاء بشهادته، لوَجُب عليّ الإعلان في الحال أن المحاكمة باطلة، لأنّ هذه القضية إن بلغت محكمة الاستئناف في وقت من الأوقات – في وقت من الأوقات، أقول بشكل افتراضي – فسيعيدونها إليّ في الحال. لقد سأل السيد شتيرن في اليوم الأول للمحاكمة عن شهادة السيد مولتو وقلتَ إنك لن تستدعيه للشهادة أبداً، والأمر مستمر على هذه الحال».

«أيها القاضي، قلتَ إننا نملك الحق بهامش من الحرية يمكّننا من الانحراف عن مسار المحاكمة إذا تابع الدفاع بنظرية الاتهام الباطل تلك. لقد قلتَ ذلك».

«وسمحتُ لك بالوقوف أمام هيئة المحلفين وتقديم مرافعة غير ملائمة تماماً في حضورهم. هل تتذكر ما حدث عندما كان السيد هورغان في منصة الشهود؟ ولكن، كان يُفترض بي أن أكون أكثر ثقة بحدة ذكاء السيد شتيرن المهنية بدلاً من الافتراض بأنه سيغامر بسلوك ذلك الطريق بدون سبب. لم أكن أعرف حينذاك، يا سيد ديلاي غارديا، أن الدليل الرئيس للولاية سيختفي، لا سيّما وأن السيد مولتو هو آخر من رآه. لم أكن أعرف أن السيد مولتو والمختص الأعلى بالمَرَضيات سيبتكران دليلاً، أو شهادة؛ وأقول لك، يا سيدي، إنه تفسير منطقي لأحداث الأمس. ما زلت أفكر مليًّا بالسؤال الذي تناول ما يحدث للسيد مولتو. ولكن أمراً واحداً لن يحدث وهو أنه لن يعتلي منصة الشهود ويزيد الأمور سوءاً. الآن، ما هو الأمر الآخر الذي أردتَ مناقشته؟».

فلزم نيكو الصمت، وأحنى رأسه للحظات. وعندما قوّم وقفته، تطلّبه الأمر القليل من الوقت لضبط سترته.

«أيها القاضي، سنستدعي شاهداً جديداً».

«من هو؟».

«الطبيب مايلز روبنسون، الطبيب النفسي للسيد سابيتش. إنه على لائحة الشهود الخاصة بنا. لقد أغفلناه لدى ترتيب الأدلة، ولكنني أبلغت

السيد شتيرن بالتغيير في الليلة الماضية».

فشعرتُ بالتوتر، ووضع شتيرن يده على ذراعي ليحول دون قيامي برد فعل أكثر تهوّراً.

«ما هذا بالله عليك؟»، همستُ.

«كنت سأناقش الأمر معك هذا الصباح»، قال شتيرن بهدوء. «لقد تحدثتُ إلى الطبيب. سأزوّدك بعد لحظات بتخمينٍ في شأن ما يُعِدّ له المدعيان العامان».

«وما المشكلة؟»، سأل لارين. «هل يعترض السيد شتيرن على استدعاء الشاهد بدون إشعار رسمي؟».

فوقف شتيرن. «لا، يا صاحب السيادة. أعترض على شهادة الشاهد وليس على الإشعار الرسمي».

«أوضح اعتراضك، يا سيد شتيرن».

«يا صاحب السيادة، نحن نعترض لسببين. أيًّا تكن الاستنارة التي يوفّرها العلاج النفسي، يستمر العديد من الأشخاص باعتباره وصمة عار. لذلك، هناك مجازفة في أن تؤدي الشهادة إلى تكوين رأي اعتباطي خطر عن السيد سابيتش. والأهم من ذلك، أتوقع من السيد مولتو – الذي سيستجوب الطبيب روبنسون كما أفهم – أن يوضح المادة التي تنتهك السرّية المهنية للطبيب النفسي».

«لقد فهمت»، قال لارين ثانيةً. «هل تعتزم الحؤول دون الإدلاء بهذه الشهادة؟».

فنظر شتيرن إليّ. يدور أمر ما في خلده. وانحنى في اتجاهي، وبدا أنه يفكر بشكل أفضل بالأمر.

«يا صاحب السيادة، قد تتسبب ملاحظاتي بالأذى، وأعتذر عن ذلك. ولكنني أعتقد أنها ملائمة وضرورية لإيضاح مصلحة موكِّلي. أيها القاضي ليتل، أتساءل عن دوافع المدعيَين العامَّين من وراء تقديم هذا الدليل. لا أرى أي أساس مستند إلى وقائع يسمح بالقفز فوق السرية المهنية التي تمنع طبيباً، وطبيباً نفسيًّا بصفة خاصة، من الإدلاء بشهادته

حول المحادثات العلاجية مع المريض. أعتقد أن هذه الشهادة قد أُدرجت بالرغم من عِلم الادعاء بأنه يجب على الدفاع التحرك لمنعها، وبأنه يجب على المحكمة السماح بالإدلاء بالشهادة. وعندما يحدث ذلك، سيكون هناك شخص آخر ليلقي عليه المدعيان العامان اللوم عندما تبلغ القضية نهايتها؛ وهو أمر نعلم جميعاً أنه مقدَّر الحدوث».

فاشتد غضب نيكو، وضرب على المنبر معترضاً على إيحاء شتيرن بأنه ومولتو يخدعان القاضي.

«أنفي ذلك»، قال. «أنفي ذلك! أعتقد أنه انتهاك!». وقام بأحد أعماله الروتينية في الاستدارة والسير بخطى متثاقلة، وانتهى به الأمر عند طاولة المدعين العامين، محدّقاً بشتيرن بغضب في أثناء تناوله كوب ماء.

كان لارين قد التزم الهدوء لمدة طويلة. وعندما تكلم، لم يعلّق قطّ على ما أوحى به شتيرن.

«يا سيد ديلاي غارديا، على أي أساس ستسعى إلى انتهاك السرّية المهنية؟».

وتداول نيكو ومولتو. «يا صاحب السيادة، نتوقع من الدليل أن يُظهر أن السيد سابيتش قد قابل الطبيب روبنسون في مناسبات قليلة. ونتيجة لذلك، نعتقد أن تصريحات السيد سابيتش لا علاقة لها بالمعالَجة وبالسرية المهنية».

لقد سمعتُ كل ما يمكنني تحمّله، فقلتُ بصوت مرتفع: «يا لهذا الهراء!».

ربما سمعني القاضي لأنه نظر في اتجاهي.

«اسمعوا»، قال لارين، «هذه القضية لا تسير لمصلحة الولاية على نحو جيد. أي مغفَّل يعرف ذلك، ولا أحد هنا مغفَّل. ولكن، إذا كنت تظن، يا سيد دلاي غارديا، أنني سأسمح لك بالحصول على شهادة يتمتع صاحبها بالسرية المهنية كي تتمكن من إخراج أرنب من قبّعة، فمن الأفضل أن تكون لديك خيارات أخرى. لا أستطيع السماح بذلك، ولن

أسمح بذلك. الآن، يا سيدي، لن أحول دون الإدلاء بهذه الشهادة. ولا تعليق لديّ على ملاحظات السيد شتيرن؛ فأنا لا أعرف إن كان مُحِقاً. سأقول فقط إنه من الملائم السماح بغضّ الطَّرْف عن السرية المهنية شرط إجراء الاستجواب سؤالاً بسؤال. وإذا كنتَ تريد وضع هذا الشاهد أمام هيئة المحلفين، فأهلاً وسهلاً بك. ولكنني أقول لك في الحال إن موقفك سيكون على المحك على غرار موقفه. لقد كان سلوك أحد المدعيَين العامَّين يُرثى له، وإذا حاول الحصول على معلومات تحميها السرية المهنية بحضور هيئة المحلفين، فستكون قضيتك في خطر كبير. هل تداولتَ مع الطبيب روبنسون في شأن نطاق الاستعلام المسموح به؟».

«رفض الطبيب روبنسون الاجتماع بنا».

«حسناً»، قال لارين. «افعل ما تريده، يا سيد ديلاي غارديا. ولكن، من الأفضل أن يكون لديك الكثير مما تقدمه للمحكمة من خلال هذا الشاهد، لأن باستطاعتي أن أتخيّل الرأي الذي كوّنته هيئة المحلفين عن القضية حتى الآن».

وطلب نيكو القليل من الوقت للتشاور. وسار ومولتو معاً إلى إحدى زوايا قاعة المحكمة. كان تومي محتدًّا ويحرّك يدَيه على نحو تأكيدي، ولم أتفاجأ عندما أعلن نيكو أنهما ينويان المتابعة.

أُعيدت هيئة المحلفين إلى حجرتها، واعتلى مايلز روبنسون منصة الشهود. إنه في أواسط العقد السابع من العمر، ومهندم. شعره أبيض قصير، وهو معسول اللسان، ومحترم إلى حد كبير. ولو كان في منطقة أخرى، لاعتُبر شخصاً أبيض أكثر منه أسود. إنه أكثر وسامة مني، ولكنه أسود البشرة. لقد التقيتُه لمدة وجيزة قبل عدة سنوات عندما استُدعي للإدلاء بشهادته في قضية جنون، وخسر الخبير الوطني الرائد في شؤون الذاكرة. إنه أستاذ بدوام كامل في كلّية الطب في الجامعة، ورئيس مساعد لقسم الطب النفسي. وعندما واجهتُ المتاعب، بدا لي

بوضوح تام أفضل طبيب نفسي يمكنني التفكير به.

«هل تعرف راستي سابيتش؟»، سأل مولتو حالما ذكر روبنسون اسمه، وعنوان عيادته، ومهنته.

والتفت الطبيب روبنسون إلى القاضي.

«هل أنا مُلزَم بالإجابة عن ذلك، يا صاحب السيادة؟».

فانحنى لارين فوقه وتكلم بلطف.

«أيها الطبيب روبنسون، السيد شتيرن هناك» - وأشار - «يمثّل السيد سابيتش. وأيّ شيء يعتقد أنك لستَ مُلزَماً بالإجابة عنه سيعترض عليه. لذلك، يُفترض بك الإجابة عن الأسئلة المطروحة. لا تقلق الآن. إنه يتمتع بكفاءة عالية».

«سبق لنا أن تبادلنا أطراف الحديث»، قال روبنسون.

«جيد جداً. إذاً»، قال القاضي. «أَعيدي قراءة السؤال، رجاءً»، قال لارين لمراسلة المحكمة.

«أجل»، قال روبنسون عندما أُعيد طرح السؤال.

«كيف تعرفه؟».

«كان مريضي».

«كم مرة قابلته؟».

«تحققتُ من سجلاتي في الليلة الماضية. خمس مرات».

«من أي تاريخ وحتى أي تاريخ؟».

«من شباط/فبراير وحتى نيسان/أبريل من هذا العام. كانت المرة الأخيرة في الثالث من نيسان/أبريل».

«الثالث من نيسان/أبريل؟»، سأل مولتو، ووقف في مواجهة أعضاء هيئة المحلفين الذين رفضوا النظر إليه. كان يعتزم لفت انتباههم إلى واقع حدوث جلستي العلاجية الأخيرة بعد يومين من الجريمة.

«أجل، يا سيدي».

«هل ناقش السيد سابيتش يوماً مسألة كارولين بوليموس معك؟».

إن السرية المهنية تحميه من مناقشة علاقة الطبيب بالمريض،

ولكنها لا تحميه من ردود فعله حيال الأسئلة المطروحة. وحتى ذلك الحين، لم يطلب مولتو من روبنسون إفشاء ما قلتُه له. ولدى طرح هذا السؤال، وقف شتيرن بهدوء.

«اعتراض»، قال.

«مقبول»، قال القاضي بطريقة مميَّزة، وشبك ذراعَيه على صدره، وحدّق بمولتو. من الواضح أنه يشاطر ساندي نظرته إلى الدوافع هنا، وأعدّ تسويته السياسية الخاصة: سيسمح للادعاء بوضع روبنسون في منصة الشهود، ولكنه سيساند الاعتراضات على أي أسئلة هامة.

«يا صاحب السيادة، هل يمكنني معرفة أساس هذا القرار؟»، سأل مولتو. ونظر إلى كرسي القضاء بتمرّد. يا الله! كم يكره هذان الرجلان بعضهما! فالأمر يتطلب تنقيباً آثارياً للوصول إلى طبقات الحقد المترسّبة والمتراكمة عبر السنين. ولا بد من أن تكون كارولين أحد أسباب هذا الحقد. فمولتو ساذج جداً كي لا يشعر بالغيرة. هل كان على عِلم، في الأيام الغابرة التي أمضيناها في الفرع الشمالي، بالبُعد الآخر لعلاقة لارين بها؟ لقد أربكني ذلك معظم الليل. من كان على عِلم بأي شيء عن أي شخص في تلك الفترة؟ وما الذي يعرفه مولتو برأي لارين؟ خيوط متشابكة. من الواضح أن لا علاقة لي بالنزاع بين هذين الرجلين.

«يا سيد مولتو، أنت تعرف أساس القرار. لقد تمّت مناقشته قبل دخول هيئة المحلفين. لقد تطرّقتَ إلى علاقة الطبيب النفسي مع المريض. وإذا شكّكتَ بأي من أحكامي بحضور هيئة المحلفين، يا سيدي، فسينتهي استجوابك. تابع».

«أيها الطبيب روبنسون، أليس صحيحاً أن السيد سابيتش قد توقف عن مقابلتك؟».

«أجل، يا سيدي».

«وتوقفت معالجتك له؟».

«أجل، يا سيدي».

«أيها القاضي، أؤكد بأن هذه المحادثات غير خاضعة للسرّية

المهنية».

«أنت لا تحترم المحكمة بشكل صريح، يا سيد مولتو. تابع استجوابك».

ونظر مولتو إلى نيكو، وفكر ملياً بعتاده الحربي، وقرر استخدام القنبلة الذرّية.

«هل أخبرك راستي سابيتش بأنه قتل كارولين بوليموس؟». وترددت في قاعة المحكمة أصوات الناس الذين شهقوا تعجّباً. ولكنني أدركت سبب قيام نيكو بالضرب على المنبر. إنه السؤال الذي أحضرا روبنسون إلى هنا لأجله. لم يشاءا التطرق إلى أمور هامشية كوجود علاقة بيننا، بل قاما بتوجيه طلق ناري عشوائي أخير. ومع ذلك، استشاط القاضي غضباً.

«كفى»، صاح. «كفى! لقد طفح الكَيل، يا سيد مولتو. لقد طفح الكَيل! إذا كانت الأسئلة الأخرى غير خاضعة للسرّية المهنية، فكيف الحال بالنسبة إلى هذا السؤال أيضاً؟».

فهمستُ في أُذن شتيرن، وقال لي: «لا»، وقلت له: «أجل»، وأمسكته بمِرفقه في الواقع، ودفعته للوقوف على قدمَيه. كانت في صوته لهجة غير واثقة عندما تكلم، ونادراً ما كانت تُسمع منه.

«يا صاحب السيادة، لن نعترض على السؤال كما صيغ إذا أُجيب عنه».

وكان رد فعل لارين ومولتو بطيئاً بسبب حُنق القاضي وارتباك مولتو الكلّي. وفهما الأمر أخيراً في الوقت نفسه.

فقال مولتو: «سأسحب السؤال».

ولكن القاضي أدرك ما يجري.

«لا، يا سيدي، لن تطرح سؤالاً اعتباطياً بحضور هيئة المحلفين ومن ثم تسعى إلى سحبه. إن المحضر واضح. يا سيد شتيرن، هل تتخلى عن السرّية المهنية؟».

وتنحنح شتيرن.

«يا صاحب السيادة، السؤال يهدف إلى استخلاص معلومات خاضعة للسرية المهنية. ولكن، من وجهة نظري، يمكن الإجابة عن السؤال من دون التخلي عن السرية المهنية».

«فهمتُ»، قال لارين. «حسناً، أفترض أنه لا بأس بذلك. هل أنت مستعدّ للمجازفة؟».

ونظر إليّ شتيرن للحظات، ولكنه أجاب بوضوح: «أجل، يا صاحب السيادة».

«حسناً، إذاً لنسمع الجواب. ستنكشف لنا نتيجة المسار الجديد. يا مراسِلة المحكمة، يا سيدتي، اقرئي سؤال السيد مولتو، رجاءً».

فوقفتْ حاملةً بيدها الشريط الاختزالي، وقرأت بصوت ثابت.

«السؤال الذي طرحه السيد مولتو: هل أخبرك راستي سابيتش بأنه قتل كارولين بوليموس؟».

ورفع لارين يده في إشارة لمراسلة المحكمة بالجلوس على مقعدها والاستعداد لتدوين الإجابة. بعد ذلك، أومأ القاضي برأسه للشاهد.

«الإجابة عن السؤال»، قال روبنسون بطريقته الإيقاعية، «هي لا. لم يقل لي السيد سابيتش مطلقاً أي شيء من هذا القبيل».

واهتاجت قاعة المحكمة بطريقة لم تشهد لها مثيلاً حتى ذلك الحين مع شعور بالارتياح. وأومأ المحلفون برؤوسهم. وابتسمت لي المدرِّسة.

ولكن مولتو لم يستسلم.

«هل تحدثتما يوماً بأي طريقة عن موضوع قتل السيدة بوليموس؟».

«أعترض على هذا السؤال وعلى كل الأسئلة الإضافية المتعلقة بالصِّلة بين السيد سابيتش والطبيب».

«الاعتراض مقبول. اطرح أي سؤال آخر محظَّر أو خارج عن الموضوع وسأنهي هذا الاستجواب. أيها الطبيب روبنسون، أنت مُعفى من الإجابة».

«يا صاحب السيادة!»، صاح مولتو. ولكن نيكو أمسكه بذراعه على الفور، واقتاده بعيداً عن المنبر، وتبادلا بعض الكلمات. وأومأ

نيكو برأسه لمجاراته، ولكنه بدا ثابتاً على موقفه، وهو عزم لا يتلاءم مع انتهاك مولتو لشروط الاستجواب.

ونظر القاضي إلى نيكو فقط.

«هل أفهم، يا سيد ديلاي غارديا، أن الولاية تستريح؟»، فأجاب نيكو. «أجل، أيها القاضي. نيابةً عن شعب مقاطعة كيندل، الولاية تستريح».

في هذه الحالة، ينبغي أن يقوم لارين بصرف هيئة المحلفين حتى موعد آخر. والتفت إليهم:

«سيداتي وسادتي، في العادة أطلب منكم مغادرة قاعة المحكمة في هذه الحالة، ولكنني لن أقوم بذلك هذه المرّة. فلقد انتهت مهمتكم في هذه القضية -».

لم أفهم هذه الكلمات في بادئ الأمر، ولكن عندما شعرت بذراعَي جايمي كِمب تطوّقانني، وذراعَي شتيرن بعد ذلك، أدركتُ ما حدث. لقد انتهت محاكمتي. وتابع القاضي كلامه، قائلاً للمحلفين إن بإمكانهم البقاء إذا سمحوا. وشرعتُ بالبكاء، ووضعت رأسي على الطاولة للحظات. وتحوّل البكاء إلى نشيج، ولكنني رفعت رأسي لأسمع لارين يطلِق سراحي.

وخاطب هيئة المحلفين:

«لقد فكرت بهذه القضية مليًّا في الساعات الأربع والعشرين الماضية. في هذه المرحلة، يطلب محامي الدفاع عادةً إصدار حكم بالبراءة. وفي غالب الأحيان، يقرر القاضي متابعة القضية. في العادة، يكون هناك دليل كافٍ لتتمكن هيئة محلفين تتحلى بالمنطق من إيجاد المتَهَم مذنِباً. أعتقد أنه من الإنصاف القول إنه يجب أن يكون هناك دليل. لا يجب إحضار أي شخص إلى المحاكمة بدون دليل كافٍ يمكّن بعض الأشخاص غير المتحيّزين من الاستنتاج بأنه مُذنِب بدون أي شك منطقي. أعتقد أن العدالة تقضي بذلك. أفهم أن للمدعيَين العامَّين شُبُهات. فقبل يوم أمس، كنت أقول إن هناك أسساً منطقية للاشتباه،

والآن لست واثقاً من ذلك. ولكن، لا يمكنني السماح لكم بالتداول في شأن دليل مماثل يبدو بوضوح أنه غير ملائم. سيكون ذلك أمراً غير منصف لكم و - الأهم من ذلك - للسيد سابيتش. لا ينبغي محاكمة أي شخص وفقاً لدليل مماثل. لا أشك أبداً في أنكم ستُجمعون على أنه غير مُذنِب. ولكن، لا يُفترض بالسيد سابيتش أن يعيش مع هذا الخوف الملازم مدة أطول. فلا دليل على وجود دافع هنا، ولا دليل مادّي على وجود علاقة حميمة. لم يظهر أي دليل فعلي بعد يوم أمس يحملنا على الاعتقاد أنّه كانت هناك علاقات جسدية بين السيد سابيتش والسيدة بوليموس ليلة وفاتها. وكما رأينا للتوّ، لا وجود لأي دليل مباشَر على قيامه بقتل السيدة بوليموس. ربما كان هناك تلك الليلة، وربما كانت الولاية مؤهَّلة للقفز إلى هذا الاستنتاج. وإذا عثر المدعيان العامان يوماً على الكأس، فربما أكون أكثر ثقة بإمكانية إثبات التُّهمة. ولكن في ظل كل الظروف، لا يمكنني السماح بمتابعة القضية».

«يا صاحب السيادة». ووقف نيكو.

«يا سيد ديلاي غارديا، أفهم أنك مصاب باليأس في هذا الوقت، ولكنني أتكلم وأتمنى عليك أن تسمعني».

«يا صاحب السيادة -».

«لديّ كلمات قليلة أقولها عن السيد مولتو».

«أيها القاضي، أريد صرف النظر عن القضية».

فأجفل لارين، ورجع إلى الوراء في الواقع. وفي قاعة المحكمة، حدث اضطراب أكبر، وسُمعت أصواتٌ متتابعة لأشخاص يتحركون. لقد علمتُ بدون النظر إلى الوراء أن المراسلين يهرعون إلى هواتفهم، وأن فِرَق العمل التلفزيونية تسرع إلى عربات البَثّ المباشَر لإحضار كاميرات التصوير. لم يكن أحد ينتظر هذه المفاجأة. وضرب لارين بمطرقته وطالب بإعادة النظام. ومن ثم فتح كفّه ليشير لنيكو بالمتابعة.

«أيها القاضي، أردت فقط قول بضعة أمور. أولاً، يبدو أن عدداً كبيراً من الناس قد بدأوا يفكرون بأن هذه القضية مكيدة أو اتهام باطل.

أنا أنفي ذلك. أريد أن أنفي ذلك نيابةً عن كل أعضاء الادعاء. أظن أنك كنتَ مُحِقاً بإنهاء هذه –».

«هل لديك اقتراح رسمي، يا سيد ديلاي غارديا؟».

«أجل، أيها القاضي. كنت آمل عندما قدِمتُ إلى المحكمة هذا الصباح أن تسمح لهيئة المحلفين باتخاذ قرار في شأن القضية. بعض القضاة يقومون بذلك كما أعتقد. أظن أنه الأمر الصحيح. ولكن بعض القضاة لا يقومون بذلك على الأرجح. وبما أنك قد اتخذتَ قرارك كما يبدو –».

«لقد اتخذتُ قراري بالتأكيد».

«لأجل السيد سابيتش، لا أعتقد أنه يُفترض التشكيك بما إذا كنتَ تعتبر هذا القرار قراراً قانونياً ملائماً أم لا. أنا لا أوافقك الرأي. نحن لا نوافقك الرأي. ولكنني لا أظن أنه من المنصف التظاهر بأنني أعتقد أنك خرجتَ عن القانون. ولا أريد بالتأكيد أن يظن أحد بأنني أبحث عن أعذار». واستدار نيكو قليلاً، ونظر من فوق كتفه في اتجاه شتيرن. «لتلك الأسباب، أودّ قبول حكمك وصرف النظر عن القضية».

«قُبِل هذا الاقتراح».

ووقف لارين.

«يا سيد سابيتش، لقد أُخلي سبيلك. لا يمكنني أن أعبّر لك عن مدى أسفي بسبب حدوث كل ذلك. حتى إن السرور برؤيتك حراً لا يمكنه التعويض عن هذا العار الذي لحق بالعدالة. بأمان الله».

وضرب بمطرقته. «أقفلت القضية»، قال، وغادر.

36

إنها الفوضى؛ زوجتي، محامِيايَ، المراسلون، المشاهدون، لا أعلم. لقد تمنّوا كلهم لمسي، وأوّلهم باربارا. كان الشعور الذي رافق قيامها بمعانقتي بإحكام مثيراً على نحو مُذهل. ربما كان ذلك هو الدلالة الأولى على تجدّد حياتي.

«أنا سعيدة جداً». وقبّلتني. «أنا سعيدة جداً لأجلك، يا راستي».

ومن ثم عانقت شتيرن.

لقد اخترتُ الخروج للمرة الأولى من قسم التدفئة. لم أشأ مواجهة معمعة الصحافة غير المنظَّمة. فجمعتُ باربارا، وشتيرن، وكِمب، وتوجّهنا إلى نهاية الردهة، وتوارينا عن الأنظار. ولكن، ليست هناك إمكانية للفرار، بالطبع. كانت هناك جماعة أخرى فوضوية في انتظارنا عندما وصلنا إلى مبنى شتيرن. فشققنا طريقنا إلى الطابق العُلوي، مُدلين بعدد قليل من التعليقات. وظهر غداء من العدم في قاعة الاجتماعات، ولكن لم تتسنَّ لنا الفرصة لتناول الطعام. فقد رنّت الهواتف، وسرعان ما أبلغتنا السكرتيرات بأن غرفة الاستقبال قد تحوّلت إلى ساحة يملأها جمهور من الغوغائيين، وأن المراسلين منتشرون داخل القاعات. يجب إطعام المسخ الجائع. ولم يكن باستطاعتي تجاهل شتيرن في تلك اللحظات. فهو يستحق ذلك، ومن نتائج هذا النوع من النجاح في قضية شهيرة، على الصعيدَين الاقتصادي والمهني، توسُّع أعمال شتيرن لسنوات قادمة. لقد أصبح محامياً ذا مكانة وطنية.

وهكذا، وبعد تناول نصف شطيرة من اللحم، نزلنا كلنا إلى ردهة المبنى لمواجهة حشد المراسلين المتدافعين والصائحين، الذين يحملون ميكروفوناتهم ومسجِّلاتهم، والأضواء الساطعة المرتفعة فوقي كما لو أنها عدد كبير من الشموس. فتحدث شتيرن أولاً، ومن ثم أنا. «لا أعتقد أن

أي شخص يمكنه قول أي شيء يفي بالغرض في ظل هذه الظروف، ولا سيما في فترة قصيرة من الزمن. أشعر بارتياح كبير بسبب انتهاء هذا الأمر. لن أفهم أبداً بشكل كامل كيف حدث ذلك. أنا ممتنّ لأن أفضل محام على وجه الأرض قام بتمثيلي». وراوغتُ في الأسئلة التي تناولت ديلايٍ غارديا. كانت الأمور لا تزال غير واضحة تماماً بالنسبة إليّ، وهناك جزء كبير مني مقتنع بفكرة أنه يقوم بواجبه. ولم يسأل أحد عن لارين، ولم أذكر اسمه. وبالرغم من امتناني، شككتُ في تمكّني من الثّني عليه بما يكفي بعد الليلة السابقة.

بعد العودة إلى الطابق العُلوي، كانت بانتظارنا زجاجات شراب تحمل تاريخ الصنع نفسه لتلك التي فتحها كِمب في الليلة السابقة. هل كان شتيرن مستعداً للنصر، أم أنه يحتفظ على الدوام بصندوق مبرَّد؟ كان لا يزال هناك عدد كبير من الزائرين في المكاتب، فوقفتُ وسطهم مع كِمب وشتيرن وشربنا نَخب ساندي. كانت كلارا، زوجة شتيرن، موجودة هناك. ووصلت ماك، وبكت عندما عانقتني من حيث تجلس على كرسيّها.

«لم يكن لديّ أي شك»، قالت.

وقصدتني باربارا لتقول لي إنها مغادرة، وإنها تأمل أن يتم تقديم موعد عودة نات يوماً واحداً. ربما كان بإمكان مدير المخيّم تدبّر مقعد له على متن طائرة دي سي3- التي تقوم برحلات من وإلى سكاجيون. وكان الأمر يتطلب إجراء عدد من الاتصالات الهاتفية. ورافقتها إلى خارج الردهة، وعانقتني ثانيةً. «أشعر بارتياح كبير»، قالت، «أنا سعيدة جداً لانتهاء الأمر على هذا النحو». ولكن، هناك شيء حزين بيننا لا يمكن اختراقه. لم أستطع أن أتخيّل تماماً الحالة النفسية لباربارا، ولكنني ظننت أنها تدرك استمرار وجود شيء ما معلَّق حتى في لحظة الامتنان المنتشي والارتياح تلك. فبعد كل ما حدث، يتطلب تخطي متاعبنا القيام برحلة عبر التباينات الكبيرة في العواطف التي يصعب اجتيازها إلى العفو والتسامح.

واستمر وصول الناس إلى مكاتب شتيرن. كان هناك عدد من رجال الشرطة، ومحامون من مختلف أنحاء البلدة قدموا لتهنئة ساندي وتهنئتي. لقد شعرتُ بالسقَم بين العديد من الغرباء الذين لم أكن أعرف سوى عدد قليل منهم. وزالت غبطتي الأساسية، مفسحةً الطريق أمام كآبة مكبوتة. لقد ظننت في البداية أنني مُنهَك وأشعر بالشفقة على نفسي، ولكنني أدركت في النهاية أن اضطرابي ينبع كما يبدو - كنفط أسود يترشح من الأرض - من أمر استثنائي كفكرة مثلاً يتطلب التفكير بها بعض الوقت، فغادرتُ بأكبر قدْر من الهدوء. لم أقل إنني مغادر، وانسللت إلى الخارج بذريعة الاختلاء بذاتي، وخرجتُ من المبنى. حدث ذلك في وقت متقدّم من بعد الظهر، إذ كانت الظلال أكثر طولاً، وهبّ نسيم عليل من النهر غنيّ برائحة الصيف.

كانت الإصدارات الليلية للصحف على المنصات. لقد احتل العنوان الرئيس للتريبيون مساحة نصف صفحة: القاضي يطلق سراح سابيتش. والكيكر: ينعت الادعاء بالعار. فدفعتُ ربع دولار. «مستهجناً ما لحق بالعدالة من عار أسقط قاضي المحكمة العليا لمقاطعة كيندل، لارين ليتل، اليوم الاتهامات الموجَّهة ضد روزات كيه سابيتش، المساعد الأعلى السابق في مكتب النائب العام في مقاطعة كيندل، منهياً محاكمة دامت ثمانين يوماً. وانتقد القاضي ليتل بشدة القضية المقدَّمة من قِبَل النائب العام في مقاطعة كيندل، نيكو ديلاي غارديا، وأعرب عن اعتقاده بأن بعض الأدلة المقدَّمة ضد سابيتش - وهو منافس سياسي سابق لديلاي غارديا - مُختلَقة من قِبَل الادعاء». وسلكت الصحيفتان الاتجاه نفسه: قضية مختلَقة ضد مناوئ سياسي سابق؛ مكيدة قذرة؛ مكيدة لا مثيل لها. لا بد من أن صديقي نيكو سيعاني من هزيمته هذه لمدة طويلة. ولم تذكر الصحافة التي لا ترى سوى الرمادي أو تدرّجاته اللونية بادرةَ نيكو الأخيرة اللائقة لصرف النظر عن القضية.

وتوجهتُ إلى النهر. كانت المدينة هادئة على نحو غريب في تلك الليلة، وهناك مطعم جديد افتتح حديثاً، ووُضعت طاولاته الخارجية

على ضــفة النهر حيث تناولتُ قنّينتَي شـراب وشـطيرة. ورفعتُ صفحة الرياضــة أمامي، وهي طريقة لتجنّب الرد على النظرات المحدِّقة لعابر ســبيل عرَضــي، ولكنني كنت مسترســلاً في تأمّل خَدِر تقريباً. واتصلتُ بباربــارا نحــو الســاعة السادســة، ولكنها لم تُجــب. فأملتُ أن تكون في طريقها إلى المطار. وأردتُ العودة إلى المنزل لرؤية نات، ولكن قبل ذلك كان عليّ التوقف في مكان ما.

* * *

كان الباب الأمامي مفتوحاً عندما عدت إلى مكتب شــتيرن، ولكن الجناح مُقفِر تقريباً. لم أســمع ســوى صــوت واحد أدركت أنه صــوت ســاندي، فتبعتُه إلى مكتبه الفخم. ووفقاً لما ســمعتُه في الرواق، فهمتُ أنه يناقش دعوى قضائية أخرى. إنها زوجة المحامي، قلت في سرّي، عندما رأيته هناك. لقد فاز ســاندي شــتيرن في الصــباح بأشهر قضية في مهنته، وهو يعمل في المساء. كان هناك ملخَّص دعوى أمامه في أثناء تحدّثه عبر الهاتف، وإصداراتُ بعد الظهر للصحيفتَين مكدَّسة جانباً على الأريكة.

«آه، أجل»، قال، «لقد دخل راستي للتوّ. أجل. قبل العاشرة من صباح الغد». ووضع السمّاعة. «إنه موكِّل»، قال. «إذاً، لقد عدتَ».

«آسف بسبب خروجي».

ورفع ساندي يديه. لا حاجة لأي شرح.

«ولكنني أردت أن أراك»، قلت له.

«هــذا يحــدث»، قال شــتيرن. «هنــاك موكِّلون يعــودون لأيام، ولأسابيع في الواقع، بعد محاكمات مماثلة. يصعب تصديق انتهائها».

«هذا تقريباً ما أريد التحدث إليك عنه»، قلت. «هل تسمح لي؟»، وتناولــتُ ســيجاراً مــن المجموعة التي قدّمها لــي. وقام بالمِثل، واختار ســيجاراً فــي أثنــاء حمله العلبة. فدخنّا، المحامــي والموكِّل. «أردت أن أشكرك».

ورفع ساندي يده بالطريقة نفسها كما في السابق. فأعربتُ له عن

مـدى إعجابـي بدفاعـه عني، وعن قيامي فـي كثير من الأحيان بالتفكير بحلول واسـتراتيجيات مُسبَقة. أنت الأفضـل، قلت. لقد كان وَقع هذا الإطراء عليه كما يبدو كتأثير الاسـتحمام بحليب سـاخن. ومع هذا الثناء الأخير، ضحك ونقر سيجاره، وهي إحدى حركاته المهذَّبة التي لا يتمالك نفسه عن القيام بها أمام الحقيقة.

«كنـت أفكـر أيضـاً ببعض الأمـور، وأودّ أن أعرف ما حدث في قاعة المحكمة اليوم».

«اليوم؟»، سأل ساندي. «لقد بُرّئت اليوم من تُهمة خطرة».

«لا، لا»، قلت. «أريد أن أعرف ما حدث حقاً. لقد شـرحتَ لي بالأمس سـبب رغبة لارين في تحويل القضـية إلى هيئة المحلفين، وها هو يبرّئني اليوم من دون أي طلب رسمي من الدفاع».

«يـا راسـتي، لقـد أجريـتُ تخمينـاً حـول ما قـد يتبـادر إلى ذهن القاضي. هل تعرف محامياً يملك القدرة على التوقع بدقة، وعلى الدوام، بالتوجهات القضـائية؟ قرر القاضـي ليتل عدم تعريضك لحكم غير مُثبَت بالحجج والوقائع يصدر عن هيئة المحلفين ومن شأنه زيادة الضغط عليه للابتعاد عن المنحى الذي يظنّ أنه صحيح. يُفترض بكلينا أن نكون ممتنَّين له بسبب حدة ذهنه وشجاعته».

«في الليلة الماضـية، كان تخمينك أن قضـية الولاية جيدة بما يكفي ليتم تحويلها إلى هيئة المحلفين».

«يا راستي، أنا متشائم بطبيعتي. لا يمكنك الحكم على الأمور من خلال سـلوكي. لو توقعت النصـر وحدث العكس، لَفهمتُ قلقك. أما في هذه الحالة، فأنا لا أفهم قلقك».

«ألا تفهم؟».

«كلانا نعرف أن قضـية الادعاء لم تكن قوية للشـروع بها، وأنها ضعُفت شيئاً فشيئاً. كانت بعض القرارات ملائمة، وناقض بعض الشهود أنفسـهم، ونجحـت بعضـ الاسـتجوابات، ولم يتم الأخـذ بأحد الأدلة، وأُسـيء تشـخيص دليل آخر، وأخفقت الولاية. كلانا رأينا ذلك يحدث

في عدة مناسبات من قَبل، وجرت الأمور من سيّئ إلى أسوأ بالنسبة إليهما اليوم. فكر بشهادة الطبيب روبنسون هذا الصباح. كان الأمر شديد الوضوح».

«هل تعتقد ذلك حقاً؟ لم أخبره بأنني قتلت كارولين. أنا محامٍ. أنا مدّع عام. لا أعترف لأي شخص».

«ولكن زيارة طبيب نفسي بعد يومين من عملية القتل، والاستفادة من هذه العلاقات المهنية الأكثر حميمية من دون تلقّي أي لوم - يا راستي، دليل هام استخلصه الادعاء. لو علمتُ به ربما، لما توقعت ما سبق لي توقعه في الليلة الماضية». وقطّب ساندي جبينه بطريقة ما، وأشاح بنظره قليلاً. «في أثناء التبدّل المفاجئ هذا، يا راستي، رأيتُ أشخاصاً يتصرفون بردود فعل غريبة. لم يكن يُفترض بك السماح لأفكارك بأن تُغشي تقويمك للأمور».

إنّه دبلوماسي جداً. لا تدَع تُهمة القتل الموجَّهة إليك تؤثّر في أحكامك كمحام.

«أنا أعملُ في قاعات المحاكم هذه منذ اثنَي عشر عاماً، يا ساندي. هناك خَطْب ما».

فابتسم شتيرن، ووضع سيجاره من يده، وشبك يدَيه ببعضهما.

«لا يوجد أي خَطْب هنا. لقد بُرّئتَ. هذا هو النظام. عُد إلى منزلك وزوجتك. ألم يعُد ناتانيال بعد؟ يُفترض أن يلتئم شملكم جميعاً الليلة».

ورفضتُ عملية إلهائي. «يا ساندي، ما هو تفسيرك لما حدث اليوم؟».

«الدليل. محاميك. محاميا الجانب الآخر. أخلاقك الحميدة المعروفة جيداً للقاضي. يا راستي، ما الذي تتوقع مني أن أقوله لك؟».

«أعتقد أنك تعرف ما أعرفه»، قلت له.

«وما هو، يا راستي؟».

«عن الملف بي. عن لارين وكارولين. عن حقيقة أنها كانت تحمل له المال».

لم تكن الصدمة - الدهشة الكبيرة - ضمن القاموس العاطفي لساندي شتيرن. فثقته بخبراته الحياتية كبيرة لدرجة أنه لا يسمح لأي شيء بالتأثير فيه. ولكن ما قلته له فاجأه، وأدار سيجاره في اتجاهه وتأمّل الرماد قبل أن ينظر إليّ مجدداً.

«يا راستي، مع كل احترامي، أنا صديقك، ولكنني محاميك. أنا محامٍ. أحفظ أسرارك، ولكنني لا أُطلعك على أسراري».

«باستطاعتي التعاطي مع الوقائع، يا ساندي. أؤكد لك ذلك. لقد تعاطيتُ مع الكثيرِ منها في الأشهر القليلة الماضية. وكما قلتَ لي في الليلة الماضية، أنا أجيد الاحتفاظ بالأسرار. ولكن، لديّ هذا الالتزام غير المألوف بمعرفة الحقيقة».

فانتظرت، ووقف شتيرن على قدمَيه أخيراً.

«فهمتُ المشكلة. نزاهة القاضي تقلقك».

«هناك سبب لذلك، ألا تعتقد ذلك؟».

«لا، لا أوافقك الرأي». واتكأ شتيرن على ذراع الأريكة المصنوعة من قماش أبيض. وتطلبه إرخاء ربطة عُنُقه القليل من الوقت.

«يا راستي، أخبرتك بما أعرفه. ولكنِ الطريقة التي عرفت بها ذلك، ليست من شأنك. لديّ الكثير من الموكَلين، وهم يسعون إلى نصيحة محامٍ من حينٍ لآخر. هذا كل شيء. نحن نتحدث الليلة عن أمور لم أتحدّث إلى موكِّليَّ عنها قطّ. من جهتي، أقول لك الآن إنني لم أتفوّه بأي من هذه الأمور. هل هذا مفهوم؟».

«حسناً».

«أنت تشك بأخلاق لارين. يجب أن تسامحني يا راستي، لحظات من الفلسفة فقط، ولكن ليس كل سوء تصرف بشري نتيجة عيوب فادحة في الأخلاق. فالظروف تلعب دورها أيضاً. التجربة، إذا سمحتَ بكلمة قديمة الطراز. عرفتُ لارين طوال مهنتي، وأقول لك إنه عانى الكثير. لقد تركه طلاقه في حالة من الفوضى. كان يتناول الشراب كثيراً، ويقامر. ودخل هذه العلاقة مع امرأة جميلة ووصولية، وحُطمت حياته

المهنية. تخلى عن عادته عندما أصبح في أوج شهرته وحصل على مكافآت مالية. أنا على ثقة تامة بأنه أراد بهذا التغيير، والتعويض عن الانقلابات التي شهدتها حياته الشخصية، وبدلاً من ذلك، وجد نفسه مقيَّداً بعمل ثأري وسياسي في نطاق قضائي مُغرِق، وفاصلاً في مسائل غير ذات أهمية كبيرة، ولا علاقة لها بما اجتذبه إلى كرسي القضاء منذ البداية. لارين شخص ذو مقدرة عقلية كبيرة، ولكنه لم يسمع طوال سنوات سوى عن محاضر التجارة غير القانونية، وشغَب المشارب، والأمور التي تحصل في الغابة؛ وهي مسائل محيطة بالقضاء العام. وكل تِلك القضايا تنتهي بالطريقة نفسها؛ بإخلاء سبيل المتّهَم. لا شيء سوى: أُقلفت القضية. مراقَبة قبل المحاكمة. مراقبة بعد المحاكمة. ويعود المتّهَم على كل حال إلى منزله. وكان لارين في محيطٍ يعاني فساداً تاماً هو من أسرار المدينة الأكثر خطورة. رجال الكفالات. رجال الشرطة. ضباط المراقَبة. المحامون. كان الفرع الشمالي خليّة نحل من الصفقات المحظورة. هل تعتقد، يا راستي، أن لارين ليتل أول قاضٍ في دار قضاء الفرع الشمالي يقع على قارعة الطريق؟».

«لا يمكنك تقديم الأعذار له»، قلت، وأصبحت نظرة شتيرن صارمة.

«ولا للحظة واحدة»، قال بحدة. «ولا للحظة واحدة. أنا لا أتغاضى ولا للحظة واحدة عما نتحدث عنه. إنه عار. مؤسساتنا العامة تنهار بسبب هذا السلوك. لو كانت هذه المسائل موضع اتهام صحيح بوجود دليل، لكانت الأحكام بالسِّجن مديدة، وربما لمدى الحياة.

ولكن ما حدث قد حدث في الماضي؛ في الماضي البعيد. أقول لك إن القاضي ليتل يفضّل الموت – وأعني ما أقوله بإخلاص – على إفساد مكتبه في المحكمة العليا. هذا الحكم نابع من القلب، وليس من محامٍ يتمتع بالفضيلة ويدافع عن قاضٍ فحسب».

«أظهرت لي خبرتي كمدّعٍ عام، يا ساندي، أن الناس فاسدون قليلاً في العادة. إنه داء مطّرد».

«إنه فصل من الماضي، يا راستي».

«هل أنت واثق من انتهاء الأمر؟».

«جداً».

«هل هناك قصة أخرى أيضاً؟ كيف انتهى الأمر؟».

«يا راستي، يجب أن تفهم أنني لا أملك معلومات مؤرِّخ. لقد سمعتُ روايات تحمل طابعاً شخصياً من بعض الأفراد».

«كيف انتهى الأمر، يا ساندي؟».

ونظر إليّ من موقع مُشرف من حيث يجلس على ذراع الأريكة. كانت يداه على ركبتَيه، ووجهه خالياً من أي حسّ بالفكاهة. فالأسرار جوهر حياة ساندي شتيرن المهنية. وبالنسبة إليه، إنها مسائل خاصة ومبجّلة.

«كما أعرف»، قال أخيراً، «أصبح ريموند هورغان عليماً بما كان يجري وطالب بإيقاف ذلك. وبدأ بعض رجال الشرطة في الدائرة الثانية والثلاثين بجمع الأدلة، وكان لآخرين مخاوف كبيرة من أن يؤدي أي تحقيق حول الفساد في الفرع الشمالي إلى تدمير العديد من الأشخاص إلى جانب القاضي ليتل. بصراحة، لقد سمعتُ هذه الرواية من شخص واحد أو شخصَين مهتمِّين. على كل حال، لقد انتهى بهم الأمر بأنه يُفترض تقديم النُّصح للنائب العام في شأن التحقيق». وأشاح شتيرن بنظره للحظات. «ربما»، قال بابتسامته النادرة، «كانت تلك نصيحة محاميهم. أنا واثق من أن قيام هورغان بإبلاغ صديقه القديم عن المخاطر التي يتعرّض لها أمرٌ منتظر، ونصحه بالتوقف مهما كلف الأمر. وهذا ما حدث كما أعتقد. وأشدّد على أنني لا أعرف إذا كنت دقيقاً أم لا. وكما تلاحظ بدون شك، لست مرتاحاً مع هذا النوع من الحديث، ولم أبذل قطّ أي جهد لتأكيد هذه المعلومات».

كان يُفترض بي أن أتخيّل مشاركة هورغان في هذا الأمر بطريقة ما. وفكرت لمدة دقيقة. ما هذا الشعور. إنه شيء ما بين الخَيبة والاحتقار.

«في الواقع»، قلت، «لقد ظننت في وقت من الأوقات أن ريموند هورغان ولارين ليتل بطلان».

«لقد قاما بالكثير من الأمور البطولية، يا راستي، الكثير منها».

«وماذا عن مولتو؟ هل سمعتَ يوماً أي شيء عنه؟».

فهزّ شتيرن رأسه نافياً.

«لم يكن يشتبه بشيء، على حد عِلمي. يصعب تصديق ذلك حقاً. ربما علِم بشكوك الآخرين ورفض تصديقهم. أعتقد أنه كان بطريقة ما من مستعبَدي كارولين. وأنه كلب حِضن متفانٍ. أنا على ثقة تامة بأنها كانت قادرة على توجيهه. في أميركا اللاتينية، يعتبر أحدهم – أو اعتبر عندما كنت شاباً – أنني لا أملك أي فكرة عما يجري الآن؛ ولكن عندما كنت شاباً، كثيراً ما كنت ألتقي نساء من نوع كارولين؛ نساء ذوات نزعة عدوانية، يسعين لتحقيق رغباتهن في هذا العصر، هناك أمر يسبب قلقاً أكبر في شأن المرأة التي تتّبع منحى قديم الطراز ومراوغاً للوصول إلى السلطة. يبدو الأمر شريراً، ولكنها كانت شديدة البراعة».

«كانت أموراً كثيرة»، قلت. آه، يا كارولين! قلت في سرّي فجأةً، بحزن لا يُطاق. ما الذي كنت أريده منك، يا كارولين؟ وجعلني أمر ما في تلك اللحظة أعتقد بأن شتيرن لم يفهمها بشكل صحيح. ربما كان سبب ذلك المحنة السابقة وانتهاءها الاستثنائي، وربما كان أسبوع العفو العام في مقاطعة كيندل؛ لا يمكن إلقاء اللوم على أحد، وربما كان المزيد من الاستحواذ المُحطّ من القدْر. وأيًّا يكن السبب، وبعد كل ما جرى – كل ما جرى – كنت لا أزال أشعر بها وسط دخان السيجار والأثاث المريح، وأشعر بالمودة أكثر من أي شيء آخر. من المحتمل أن أكون قد أسأتُ الحكم على كارولين بشكل كامل. ربما كانت تعاني من عَيب ما منذ ولادتها، على غرار مولود جديد يُبصر النور مع بعض الأعضاء الناقصة. ربما كانت المشاعر مفقودة لديها، أو عُرضةً لضُمور خِلقي ما؛ المشاعر إن جاز التعبير. ولكنني لا أصدّق ذلك. هي مماثلة، كما أظن، للعديد من المَعوقين والعاجزين الذين صادفتُهم:

المشـابك العصـبية والأعضـاء المستقبلة تسـاعد قلبها ومشاعرها، ولكن حاجتها لمواسـاة نفسـها قد أثقلت كاهلها. كم كانت تتألم! كانت كعنكبوت عالق في نسـيجه الخاص. وفي النهاية، لا بد من أنها شـعرت بالألم. بالتأكيد، لم يحدث لها ذلك صدفة، وأتساءل عن الأسباب؛ أي أتون من القسـوة أثّر فيها، لسـت أدري. ولكن، هناك شـكل من أشكال الإساءة، بعض الحقارة التي تعرّضـت لها طويلاً وأرادت الفرار منها كما يبدو. لقد سعت إلى تغيير نفسها، وقامت بالأدوار البرّاقة كافة: مومس، نجمة، امرأة تدافع عن قضايا، مستهلة الانفعالات غير المِطواعة، مدعية عامة ذكية وعنيدة وعازمة على التغلب على العواقب ومعاقبة أولئك الذين لا يسـتطيعون احتواء نزواتهم العنيفة. ولكن أي تنكّر لم يسـتطع تغييرها. فالإساءة الموروثة تكون أكثر إساءة في غالب الأحيان. وأيًّا تكن القسوة التي قولبتها، فقد جعلتها تستوعب الأمر، وأعادتها للعالم، خادعةً ذاتها ومبتكرة أعذاراً متطرفة، ولكن مع بعض رواسـب الألم المُضـنية كما أعتقد.

«إذاً»، سأل شتيرن. «هل اقتنعتَ؟».

«في شأن لارين؟».

«ومن غيره؟»، لقد أساء تفسير لحظات تأمّلي كما يبدو.

«بالكاد اقتنعتُ، يا ساندي. لا حاجة له للإشراف على هذه القضية. كان يُفترض به الاعتذار عن النظر فيها لحظة تسليمه إياها».

«ربما أنت محق، يا راسـتي. ولكن، دعني أذكّرك بأن القاضـي ليتـل لـم يكـن يملك أي فكرة قبل أن يصـبح ذلك الملف – الملف بي كما تدعوه – مادة للدفاع عنك».

«كانت لديك فكرة عن الملف».

«أنـا؟». ولـوّح شـتيرن بيـده لتبديـد الدخـان، ومـرّر ملاحظة بالإسـبانية لم أفهمها. «هل تذمّرك يسـتهدفني أيضاً؟ أنت لا تظن بالتأكيد أنني خططتُ للتركيز على ذلك الملف منذ البداية؟ وحتى في ذلك الحين، يا راستي، هل كان عليّ التقدم بطلب رسمي للقاضي ليتل للاعتذار عن

النظر في القضية؟ في أي إطار كنتَ لِتضع ذلك إذا حدث؟ المتهَم يطلب من المحكمة إنقاذ نفسها لأن الضحية المزعومة كانت تحبك ذات مرة، يا صاحب السعادة، ولأنك شريك في الجريمة؟ بعض المسائل لا يتم التماسها في قاعة المحكمة. حقاً، يا راستي. لا أقصد أن أبدو متهكماً، وأشاطرك قلقك على المعايير المهنية. ولكنني أقترح مجدداً أن يكون رد فعلك على مستوى الصدمة التي تسببت بها الأحداث. فهذا الاهتمام الشديد بالتفاصيل مثير للدهشة في ظل هذه الظروف».

«لا أقصد أن أكون متزمّتاً، وأعتذر إذا كنت كذلك. ولكنني لست قلقاً على الشكليات أو النقاط القانونية، بل ينتابني شعور بأن الأمور قد خرجت عن نطاقها».

وارتد شتيرن إلى الوراء، واضعاً السيجار في المنفضة. إنها حركة طويلة وبطيئة يُقصَد بها التعبير عن الدهشة. ولكنني بتّ أعرفه جيداً. لقد رأيت أفضل ما لديه عدة مرات ولم أصدّق رد الفعل هذا.

«يا ساندي، لقد فكرتُ كثيراً ببعض الأمور في الساعات القليلة الأخيرة. ستنتهي مهنة لارين ليتل إذا تم التحقق من ظروف الملف **بي** بأكمله، وقد استخدمتَ كل فرصة مؤاتية لتُعلمه بأنك تعتزم لفت انتباهه فقط».

«حقاً، يا راستي. لا بد من أنك تعرف أموراً أجهلها. لم أرَ أي شيء يشير إلى أن القاضي ليتل قد فهم تماماً معنى ذلك الملف. يجب أن تتذكر أنه لم يُكشف عن محتوياته قطّ في قاعة المحكمة».

«يا ساندي، هل ستشعر بالإهانة إذا أخبرتك بأنني ما زلت لا أعتقد بأنك تشاطرني كل شيء؟».

«آه»، قال شتيرن. «لقد عملنا معاً لمدة طويلة على هذه القضية. بدأتَ تشبه كلارا ببعض الأمور، يا راستي». وابتسم، ولكنني رفضتُ العدول عن رأيي.

«يا ساندي، ربما يتطلب الأمر مدة أطول لفهم هذا الأمر. أُقرّ بذلك. لقد ظننتُ لبرهة من الزمن أن الأمر مجرد صدفة غريبة. في

الواقع، قلت لنفسي إنه من حسن الحظ أن تكون قد استغللت هشاشة لارين ليعزف عن ذلك الملف. ولكنني أدرك الآن أن الأمر مستحيل. لقد تعمّدت لفت انتباه القاضي. لم تكن تملك أي سبب للإشارة إلى ذلك الملف بشكل مستمر. عندما قمتَ بذلك للمرة الأخيرة - في أثناء وجود ليب في منصة الشهود - كنا قد انتهينا من مسألة إثارة الشكوك حول تومي. في ذلك الحين، كنتَ تعلم كل شيء عن كوماغاي. كنتَ تعلم أنك ستوجّه ضربة قاضية لمولتو من خلال هذا الأمر. ولكنك خرجتَ عن مسارك مرة أخرى لتخبر القاضي بأننا سنقدّم في الفرصة الأولى دليلاً يتناول الملف. لا بد من أنك أشرت إلى ذلك عشرات المرات بطريقة أو بأخرى. أردتَ من لارين الاعتقاد بأننا عازمون على الكشف عن ذلك الملف على الملأ. لهذا السبب أشرتَ إلى مسألة الاتهام الباطل تلك عندما كان هورغان يخضع للاستجواب. لقد أردتَ حمل لارين على الاعتقاد بأنه لن يستطيع منعك من الاستمرار بمخططك. وعندما جلسنا معاً للتحدث عن الدفاع، لم تُشر إلى الملف قطّ. لم يكن لدينا شيء لنقدمه».

فلزم شتيرن الصمت، ثم قال أخيراً: «أنت محقق جيد، يا راستي».

«وأنت متملّق جداً. في الواقع، تملّكني مؤخراً شعور ببطء الفهم، ولا تزال هناك الكثير من الأمور التي لم أكتشفها بعد. وكما ذكرتَ منذ لحظة، كيف علمتَ بأن لارين سيُدرك أن الملف بي يتعلق بقضية تطاله؟ ماذا هناك أيضاً؟».

فحدّقتُ وشتيرن ببعضنا للحظات. كانت نظرته أكثر عمقاً وتعقيداً من أي وقت مضى. وإذا كان مُربَكاً، فقد نجح في إخفاء ذلك.

«لا شيء إضافي أقوله لك، يا راستي»، قال أخيراً. «قمتُ ببعض الافتراضات، ولا سيما عندما رأيت ردود فعل القاضي حيال هورغان في أثناء وجوده في منصة الشهود. هما مقرَّبان من بعضهما جداً بالطبع. وكما قلتُ، اعتبرتُ أن ريموند سيكون حساساً جداً حيال المعاني الضمنية لذلك الملف. لقد بدا لي أنه من المحتمَل أن يكون ولارين قد تحدثا عنه في الماضي. ولكنني لم أكن أملك أي معلومات عن ذلك. إنه حَدْس

المحامي ليس إلا».

هورغان؛ هذا ما أغفلتُه. لا بد من أن يكون ريموند قد أخبر لارين عن الملف منذ مدة طويلة. فشتيرن دقيق. وأعدتُ للحظات من الزمن النظر في الحسابات الإضافية، ولكن كان عليّ استيضاح أمر هام مع شتيرن.

«إذاً، دعني أرى إذا كنت قد فهمتُ الأمر»، قلت له. «ما كنتَ لِتحلم بتهديد القاضي مباشَرةً بالكشف عن محتويات الملف **بي**. فقد يؤدي ذلك إلى نتائج عكسية، لا بل كارثية أيضاً. كما أنه ليس أسلوب شتيرن ببساطة. كان عليك أن تجد طريقتك المثالية والبارعة للقيام بالأمور. أردتَ إقلاق لارين في شأن الملف ليعتقد أن أحداً غيره لم يلاحظ مشكلته. وهكذا، جعلتَ الأمر يبدو في كل الأوقات كما لو أن الدفاع يلاحق تومي مولتو. لقد أوحيتَ بأنه الشخص السيّئ الذي سيفتضح الملف أمره، وصدّق القاضي ذلك، وبذل قصارى جهده ليضعنا في الاتجاه الخاطئ. وقام بكل ما يستطيع فعله لتبدو حماسة تومي شريرة. لقد سخر لارين من شخصية مولتو، وازدراه، واتهمه باختلاق الأدلة، واستعمال الإشارات للتواصل مع الشهود. ولكن هذا الأمر كان بمثابة سيف ذي حدَّين. فكلما بدا تومي أسوأ، كلما ازدادت حجتك قوة للكشف عن الملف **بي** لأن الأمر بدأ يبدو كما لو أنه اتهام باطل لفّقه مولتو لمنع سابيتش من اكتشاف ماضي تومي الملتوي. وهكذا، ازدادت أهمية إنهاء المحاكمة بالنسبة إلى لارين. لم يكن يستطيع قطّ المجازفة بالسماح لك بالكشف عن ذلك الملف لأنك استمررت بالإشارة إلى رغبتك في القيام بذلك. لم يكن لارين يعلم ما الذي سيتكشف عن الملف، ولكن معرفة الحقيقة هي الأسوأ بالطبع. كان على ثقة تامة بأن تومي لن يحتفظ لنفسه بكل ما يعرفه عن الماضي السيّئ للفرع الشمالي. فقد يتراجع مولتو عن حماية كارولين وأموالها؛ ولكن ليس لإنقاذ لارين على حسابه. وهكذا، وبدون انتظار قيامنا بالتقدم بطلب رسمي، أرسلني القاضي ليتل إلى المنزل. ويا ساندي، كان هناك رجل واحد في قاعة المحكمة على عِلم بما سيحدث.

لقد تصوّرتَ حدوث كل ذلك».

كانت عينا شتيرن كبيرتَين، وصافيتَين، وبلون بنّي قاتم.

«هل تحكم عليّ بهذه القسوة، يا راستي؟».

«لا. أنا أشاطرك وجهة نظر يا شتيرن. لا أحد يستطيع مقاومة الإغراء».

فابتسم ساندي بسبب العبارة الأخيرة، وبحزن إلى حد ما.

«هكذا إذاً»، قال لي.

«ولكن التسامح لا يقتضي غياب المعايير. أعرف أنني أبدو جاحداً من المستوى العالمي. ولكن، عليّ أن أقول لك إنني غير موافق».

«لم أقُم بذلك لمنفعتي الخاصة، يا راستي». ونظر إليّ بتلك الطريقة المألوفة، مخفضاً ذقنه ليتمكن من مراقبتي من تحت جبينه المُرهَق. «لقد وجدتُ، وجدنا أنفسنا في هذا الوضع. وتذكرتُ بعض المسائل في أثناء إشارتك إليها. لقد ركزتُ على مولتو في الأساس لأنه هدف أسهل من ديلاي غارديا. كان من الضروري تطوير موضوع المنافسات القديمة تلك بطريقة ما. فعندما تتبادر إلى الذهن مسائل أخرى، فإنه من الملائم اتّباع الطريقة التي وصفتَها. ولكنني لم أقصد إرغام القاضي على القيام بأي شيء. لهذا السبب، جعلتُ مولتو مذنبنا غير الرسمي كي لا يشعر القاضي ليتل بأنه مُجبَر على القيام بأمر متهوّر. هل كنتُ مُدركاً لإمكانية تسبّب هذا الأمر ببعض الضغوط الخفيّة على لارين أيضاً؟»، وأومأ شتيرن، وابتسم تقريباً. وكانت هناك مجدداً تلك النظرة اللاتينية الغامضة التي استُخدمت هذه المرة بإذعان فلسفي. «كما قلتَ، لقد أخذتُ بعين الاعتبار مسألة الهشاشة. ولكنني أظن عموماً أنك نسبتَ إليّ في تحليلك أمراً ذهنياً معقّداً لا يملكه أي كائن بشريٍ بالتأكيد. لقد أطلقتُ بعض الأحكام الفورية. لم يكن ما فعلته مساراً مخطَّطاً له. إنها مسألة حَدْس وتقدير».

«في الواقع، سوف أتساءل على الدوام عن النتيجة».

«لن يكون الأمر ملائماً، يا راستي. أفهم قلقك الآن، ولكنني متردد

في شــأن الموافقة على وجهة نظرك حيال الحكم النهائي للقاضــي. كان تولّيه هذه القضية حيادياً تماماً كما أعتقد. بالتأكيد، لو كان يسعى لإيجاد طريقة ملائمة لوضع حد للدعوى القضائية، لَمَنع الادعاء مثلاً من تقديم الشهادة المتعلقة ببصمتي إصبعيك في ظل غياب الكأس. حتى إن ديلاي غارديا، ومهما كان مخيَّب الأمل، قد اعترف بأن قرار لارين اليوم لم يتخطَّ نطاق الاجتهاد القانوني المســموح به للقاضــي. هل تعتقد أن نيكو كان لِيقــوم بمبــادرة كريمــة لصــرف النظر عن القضــية إذا اعتقد أنه لا أساس لتقييم لارين؟ لقد اتخذ القاضي ليتل قراراً مناسباً، ولو لم يقم بذلك لكنتُ على ثقة تامة بأنك ستُبرَّأ. أليس هذا ما قاله المحلفون للصحافة؟».

هذا ما ذكرته الصحف في الواقع. لقد أخبر ثلاثة محلفين الصحافة عِند درَجات دار القضــاء بأنهم ما كانوا ليصــوّتوا لصــالح حكم الإدانة لو أُحيلت القضــية إليهم. ولكنني وســاندي كنا نعلم أنه لا قيمة للانطباعات المســتندة على خبرة شخصــية لهؤلاء الأشــخاص الثلاثة غير المختصّين الذين ســمعوا القاضــي يقول إنها قضــية خاســرة، وتكاد لا تؤثّر على كل حال في انطباعات تسعة أشخاص آخرين.

وتابع شتيرن.

«كما قلتُ، لقد أطلقتُ بعض الأحكام. وبالنظر إلى الماضــي، إذا اســتعاد أي منــا الأحــداث الماضــية وتأمّل فيها فســيكون ذلــك عبئاً على ضــميري وليس على ضــميرك. ويتمثل دورك بقبول حُســن طالعك من دون مزيد من التفكير. إنه المعنى القانوني للتبرئة. لقد تمّ التخلص من هذه المســألة كلّياً، وأحثّك على متابعة حياتك. ســوف تتخطى هذا الظل المهيمن على مهنتك. أنت محامٍ موهوب، يا راســتي، وطالما اعتبرتُك أحد أفضــل المدعين العامين لدى هورغان، وربما أفضــلهم جميعاً. لقد شــعرت بالخيبة بســبب عدم تنحّي ريموند في العام الماضــي، ومحاولته القيام بالتدابير السياسية الملائمة كي تتمكن من الحلول مكانه».

فابتســمتُ. وأدركتُ حينذاك أن الأســوأ قد انقضــى في الواقع. لم أسمع ذلك القول المأثور منذ عدة أشهر.

«أعتقد أنك ستكون بخير، يا راستي. أشعر بذلك». من جهتي، شعرتُ بأن شتيرن كان على وشك قول أمر ما يؤسَف له؛ ربما أكون قد استفدتُ من خبرته، ولكنني وفّرت له الفرصة. فالتقطتُ حقيبتي التي كنت قد تركتها هناك، ورافقني شتيرن إلى الباب. ووقفنا عند العتبة، وتصافحنا، متعهّدَين بالتحدث إلى بعضنا، عِلماً منا بأنه لن يكون لدى أحدنا الكثير ليقوله للآخر في المستقبل.

الخريف

37

وحدهم الشعراء باستطاعتهم الكتابة عن الحرية بصدق ، تلك الحرية الجميلة والمبهجة. لم أعرف في حياتي نشوةً عذبة أو تامة بمقدار عذوبة لحظات السرور الذي كنت أشعر به أحياناً ، ويقشعّر له البدن ، عندما أدرك مجدداً أن الخطر الكبير بات ورائي. لقد انتهى الأمر. وأيًا تكن النتائج الجانبية، وابتسامات الرضى عن النفس ، والاتهامات المهموسة ، ومعاملة الآخرين لي وجهاً لوجه ، أو في الخفاء ، بإهانة أو ازدراء ، فقد انتهت حالة الذُّعر؛ لقد مضى أرَق ساعات الصباح الباكر التي كنت أمضيها محاوِلاً الاندفاع بقوة في الزمن إلى الأمام ، ومتخيّلاً حياة كَدح مستمر في النهار وتمضية الليالي على غرار نصف نزلاء السجن الآخرين في انتظار أوامر الجَلب للمثول أمام المحكمة. وأخيراً ، مضت ساعات الخوف الحذِر من نومي المتيقّظ على أحد أسرة السجن في انتظار الرُّعب المعانِد الذي قد يحمله الليل. لقد شعرت بارتياح مستحَق ، وبدا الأمر كما لو أنني كفّرتُ عن كل خطيئة ارتكبتها في حياتي. لقد أصدر مجتمعي حكمه؛ لا أستحق العقاب. وأزيل عبء ضخم عن كاهلي؛ وشعرتُ كما لو أن باستطاعتي الطيران على ارتفاع عشر أقدام على غرار ملايين الجياد الواثبة. لقد شعرتُ بالحرية.

عندئذٍ، أزيح الظل بالطبع ، وفكرتُ بما مررتُ به بغضب شديد ومرارة ، وبانزلاق إلى حالة من اليأس. عندما كنت مدّعياً عاماً ، خسرتُ قضايا أكثر مما توقعتُ ، وهذا أمر طبيعي ، وتسنّت لي فرصة مراقبة المتهَم المبرَّأ في لحظة النصر. كان معظمهم يبكون؛ فكلما كانت التّهَم الموجَّهة لهم أكبر ، بكوا بمرارة أكبر. لقد ظننتُ على الدوام أنّ ذلك نتيجة الشعور بالارتياح والذّنب. ولكنني أقول لكم إنه نتيجة عدم التصديق لأن هذه المحاكمة المحنة تسببت لكم بالعار وبأضرار لا يمكن

محو أثرها.

كانت العودة إلى الحياة بطيئة: جزيرة تهبّ فوقها ريح خفيفة. ففي اليومين الأولين، لم يتوقف الهاتف عن الرنين. لقد صعقتني فكرة أنّ الأشخاص الذين لم يتحدثوا إليّ طوال الأشهر الأربعة السابقة يتخيّلون أنني قد أقبل تهنئاتهم المستفيضة. ولكنهم اتصلوا، واعتبرت أنني قد أكون بحاجة إليهم ثانيةً؛ فقبلتُ تمنياتهم الصادقة بوقار. ولكنني كنت أمضي معظم الوقت بمفردي، وتغمرني الرغبة بالبقاء في الخارج تحت أشعّة الشمس المنحسرة، وفي أحضان الخريف المثير. وذات يوم، اصطحبتُ نات من المدرسة وذهبنا على متن زورق صغير لصيد السمك. مرّ اليوم من دون أن نقول أي شيء تقريباً؛ ولكنني كنت مكتفياً بوجودي مع ابني، وشعرتُ بأنه على عِلم بذلك. وفي أيام أخرى، كنت أسير في الغابة طوال ساعات. وببطء شديد، أبدأ برؤية أمور ألاحظ في ما بعد أنني لم أرها من قَبل. كانت حياتي مليئة بالذهول طوال أربعة أشهر؛ عاصفةً ميؤوساً منها من المشاعر الجامحة، وكل وجه يرتسم في مخيّلتي يكون له وَقع إعصاري في داخلي. ولكنني بدأت أستعيد استقراري الفكري، وأدركت أخيراً أن الأمر يتطلب الدخول مجدداً في حالة اللااستقرار هذه.

لقد لازمتُ المنزل في تلك المرحلة. وقال جيراني إنه يُفترض بي وضع كتاب، ولكنني لم أكن مستعداً بعد للقيام بأي نشاط، واتضح بسرعة أن باربارا باتت تعتبر وجودي مُربِكاً. وعاد إزعاجها لي بطريقة غير مألوفة؛ بعد توقفها عن ذلك لمدة طويلة. من الواضح أنها كانت تشعر بالعجز عن التعبير عن رأيها؛ لا تذمرات صريحة، لا لحظات تهكم بصوت مرتفع وحاد. وبالنتيجة، بدت منطوية على ذاتها أكثر من أي وقت مضى. كنت أجدها تحدّق بي بنظرة انفعالية، ومضطربة، وغاضبة، كما أظن، فأسأل: «ماذا؟». وتظهر غمّازة في ذقنها دلالة على عدم موافقتها، ثم تتنهد، وتنصرف.

«هل ستعود إلى العمل يوماً؟»، سألتني ذات يوم. «لا أستطيع القيام بأي شيء بوجودك في المنزل».

«أنا لا أزعجك».

«أنت تُلهيني».

«بجلوسي في غرفة الجلوس؟ بعملي في الحديقة؟». أُقرّ بأنني كنت أحاول إغضابها.

ورفعت عينيها نحو السماء، وابتعدت. وكفّت عن مضايقتي؛ يجب خوض هذه المعركة بصمت.

صحيح أنني لم أبذل أي جهد لتأمين وظيفة. فقد استمرت الشيكات بالوصول من مكتب النائب العام كل أسبوعين. فلا سبب مبرَّر يدعو ديلاي غارديا لصَرفي من العمل بالطبع، ومن المتوقع أن ينقلب المكتب على رأسه إذا عدت للعمل. فنيكو محاصر من قِبل الصحافة، ورفعت التقارير الوطنية مستوى الشعور المحلي بالإحراج. لقد تمّ تضخيم ما حدث في إدارة شؤون المقاطعة بسبب عدم الكفاءة، واتخذ الأمر شكل فضيحة كبيرة من خلال العدسات المراقِبة بين الساحلَين. لقد جعلَنا نيكو ديلاي غارديا في مقاطعة كيندل ننظر إلى العالم كما لو أننا مهرجون جاهلون في مناطق نائية. وطالب كتّاب الافتتاحيات، لا بل السياسيون المحليون قليلو العدد أيضاً المنتمون إلى الحزب السياسي المنافس، نيكو بتعيين مدّعٍ عام خاص للتحقيق مع تومي مولتو. وفتح الاتحاد المحلي للمحامين تحقيقاً رسمياً لتحديد ما إذا كان يُفترض طرد تومي من الاتحاد. وكان الاعتقاد السائد بأن نيكو - وبسبب طموحه لشغل منصب في مكتب رئيس البلدية - قد مارس ضغوطاً كبيرة على مولتو دفعته لاختلاق أدلة بالتآمر مع بينلس كوماغاي. واعتُبِر قيام نيكو بصرف النظر عن القضية اعترافاً منه بذلك، وكان يشار أحياناً إلى الدوافع الأخرى. لقد قرأتُ يوم الأحد مقالةً لستو دابنسكي أشار فيها إلى الملف **بي** والعطر الذي أحاط بدار القضاء في الفرع الشمالي طوال تلك السنوات. ولكن شيئاً لم ينجم عن المقالة. فأيًّا يكن الرأي العام، لم أكن أميل إلى تصحيحه. فهو لن يبرّئ نيكو أو تومي أو بينلس، وكنت لا أزال غير راغب في الكشف عما أعرفه: وهو أن ما أُخذ من كارولين هو سائلي المنَوي، وأن بصمتيَ

هما اللتان عُثر عليهما على تلك الكأس في الشقة، وأن ألياف السجادة التي تم اكتشافها هي من منزلي، وأن كل الاتصالات الهاتفية المُدرَجة في السجلات قد أجريت من هاتفي. لن أتمكن أبداً من احتمال تكاليف هذه الاعترافات التي تقتضي تطبيق العدالة. فليستمتع تومي مولتو بمحاولة دَحض ما توضحه الظروف. لقد قبلتُ الشيكات.

إن التفاوض حول تاريخ لإيقاف راتبي كان آخر مهمة لماك، بوصفها مساعدة إدارية عليا في مكتب النائب العام، قبل أن تعتلي كرسي القضاء. فاقتُرِحت ستة أشهر، وطالبتُ بعام إضافي كتعويض. وتم التوافق في النهايةِ على تسعة أشهر. وفي حديثنا الأخير حول هذا الموضوع، افتخرت ماك بصداقتنا بقوة، طالبةً مني إلقاء كلمة في احتفال تنصيبها. وكان إلقائي كلمة في احتفال تنصيبها الاعتراف العلني الأوّل بنزاهتي. وقدّمني إِد مامفري الذي يرأس احتفالات قاعة المحكمة بقوله إنني «الرجل الذي يعرف الكثير عن العدالة»، ونهض ما بين ثلاثمئة وأربعمئة شخص تجمّعوا لمشاهدة ماك تنصَّب قاضية للتصفيق لي. لقد أصبحتُ بطلاً محلياً؛ درايفوس مقاطعة كيندل. ربما أسف الناس بسبب فقدانهم المتعة التي شعروا بها في أثناء مشاهدتي أتعرّض للجَلد. كان من المستحيل بالنسبة إليّ أن أتجاهل شعوري بعدم الانسجام في المجتمع، لا سيّما وأن المحاكمة كانت لا تزال تحيط بي كفقوقعة من دون أن أتمكن من الخروج منها.

وبما أنني كنت أحد المتكلمين الثلاثة في الاحتفال، لم يكن نيكو حاضراً. ولكن هورغان لم يستطع إيجاد ذريعة ملائمة لعدم الحضور. فحاولتُ تجنّبه، ولكنني شعرت بيده فوق ذراعي في وقت لاحق، وسط التدافع الحاصل بجانب طاولات المقبّلات في غرفة استقبال الفندق.

وارتسمت على وجه ريموند تلك الابتسامة المتملّقة، ولم يجازف بمدّ يده.

«كيف حالك؟»، سأل بطريقة دافئة.

«بخير».

«يُفترض بنا تناول الغداء معاً».

«يا ريموند، لن أقوم بأي عمل آخر في حياتي تقول إنه يُفترض بي القيام به». واستدرتُ، ولكنه تبعني.

«لقد عبّرتُ عن رغبتي بشكل سيّئ. سأقدّر ذلك كثيراً يا راستي، إن تناولتَ الغداء معي. رجاءً».

ادعاءات قديمة وصِلات قديمة يصعب تجاوزها؛ ماذا لدينا غير ذلك؟ وحددتُ له موعداً وابتعدت.

* * *

التقيت ريموند في مؤسسته القانونية، واقترح - إذا لم أكن أمانع - عدم الخروج. فمن الأفضل لنا نحن الاثنين تجنّب نشر موضوع حاذق في الصحف عن كيفية قيام ريموند إيتش والمساعد الأعلى المبرَّأ بغرس الفأس في الضلع الأساسي لساتيناي. واتصل ريموند طالباً إحضار الغداء إلى مكتبه، وتناولنا القريدس فقط في غرفة اجتماعات كبيرة، على الطاولة الحجرية تلك المؤلفة كما يبدو من حجر واحد هو كناية عن بلاطة بطول ثلاثين قدماً مصقولة وموضوعة هناك كما لو أنها منصة المزاد العلني لروّاد الصناعة. وطرح ريموند الأسئلة الإلزامية عن باربارا ونات، وتحدث عن المؤسسة القانونية، ثم سأل عني.

«لن أكون كما كنت في السابق»، قلت.

«أتخيّل ذلك».

«أشك في أن تكون قادراً على ذلك».

«هل تنتظر مني أن أعرب لك عن أسفي؟».

«ليس عليك أن تأسف. لم يُلحق بي الأمر أضراراً كبيرة، على كلّ حال».

«إذاً، ألا تريد مني أن أُعرب لك عن أسفي؟».

«لقد كففتُ عن تقديم النُّصح لك، يا ريموند، حول كيفية التصرف».

«لأنني كففتُ عن مبادرتك بالمثل».

«يُفترض بك ذلك».

لم ينجُ ريموند من أي لَسعة. كان مستعداً لمواجهة بعض الضغينة.

«أتعرف لماذا أنا آسف؟ لأن نيكو وتومي جعلاني أصدّق الأمر. لم يتبيّن لي قطّ أنهما عبثا بالدليل. لقد تصوّرتُ أنهما سيقومان بما تعلّما القيام به. في الواقع، سيقومون باستدعائه. أقصد ديلاي غارديا؛ سيحاولون. يتم التداول الآن بطلبات رسمية قبل تقديمها إلى المحكمة».

فأومأت برأسي. قرأت ذلك في الصحف. لقد أعلن نيكو في الأسبوع السابق أنه ليس هناك سبب لتعيين مدّعٍ عام خاص، وأعرب عن ثقته بمولتو. فندّدت به الصحف والافتتاحياتُ الإخبارية التلفزيونية مرة أخرى. وألقى عضو في الجمعية التشريعية التابعة للولاية كلمة في قاعة مجلس النواب. وكانت عبارة الأسبوع إخفاء الحقائق.

«أنت تعرف ما هي مشكلة نيكو، أليس كذلك؟ بولكارو. لن يمنحه بولكارو الفرصة ثانيةً. لن يمدّ له أوغي يد العون أيضاً في هذا الاستدعاء. سيكون على نيكو مواجهة الأمر بمفرده. ويشعر بولكارو بأنه عزز موقع نيكو قبل أن يعلم بأن ديلاي غارديا مرشح لمنصب رئيس البلدية. أيبدو الأمر مألوفاً؟».

«أقول: أممم-هممم». أردت أن أبدو سئِماً. أردت أن أبدو نكِداً. قدمت إلى هناك للتخفيف من حدة غضبي. لقد وعدت نفسي بألا أُقلق حيال مدى غوصي في هذه القضية. لو شعرت بالرغبة في التحدث عن شخص ما لَقمت بذلك، ولأطلقت العنان للكماتي، ولَرميت الطعام. لن يكون هناك حدود لتصرفاتي.

«انظر»، قال فجأةً، «ضع نفسك مكاني. كان الأمر صعباً بالنسبة إلى الجميع».

«يا ريموند»، قلت، «ما الذي فعلتَه بي؟ لقد عملت معك بإخلاص طوال اثنَي عشر عاماً».

«أعلم».

«لقد قصدتَ المحكمة لتقطّعني».

«قلت لك، نيكو هو من حملني على تصديق ذلك. متى صدّقتَ

ذلك، ستجد أنني ضحية في كل ما جرى».

«تباً لك ما حييتَ»، قلت، ولكنني لم أقم بأي حركة تشير إلى مغادرتي. إنها البداية فقط. وراقبني ريموند بوجه متورّد تملأه المرارة والذعر. فتنحنح أخيراً وحاول تغيير الموضوع.

«ماذا ستفعل، يا راستي، بمهنتك؟».

«لا فكرة لديّ».

«أريدك أن تعلم بأنني سأساعدك قدر ما أستطيع. إذا أحببتَ، سأبحث عما هو متوافر لدينا هنا. وإذا كان هناك أي عمل آخر في البلدة يثير اهتمامك، أعلمني بذلك. سأبذل قصارى جهدي».

«إن العمل الوحيد خارج مكتب النائب العام الذي بدا لي جيداً على الدوام أمرٌ سبق لك أن ذكرتَه؛ أن أكون قاضياً. هل تظن أنك قادر على ذلك؟ هل تظن أنك قادر على إعادة حياتي السابقة إليّ؟». ونظرت إليه على مستوى نظره لأُعلمه بأنه لا يمكن أبداً إعادة الأمور إلى وضعها السابق. كنت أتكلم بلهجة تهكمية، إذ لا يمكن لأي مرشح لمنصب قضائي أن يكون متهَماً بالقتل. ولكن ريموند لم يجفل.

«حسناً»، قال. «هل تريدني أن أستطلع ذلك؟ وأن أتحقق مما إذا كان باستطاعتي إيجاد مقعد قضائي لك؟».

«لم تعد تملك ذلك النوع من النفوذ، يا ريموند».

«قد تكون مخطئاً في ذلك، يا صديقي. يعتقد أوغي بولكارو أنني أفضل حليف له الآن. فحالما أزاحني من طريقه، قرر أنه باستطاعتي أن أكون مفيداً. كان يتصل بي هاتفياً مرتَين في الأسبوع ليطرح عليّ الأسئلة. لا أمزح. هو يشير إليّ بأنني سياسي محنَّك ومتمرس. ألا يشير هذا إلى شيء ما؟ إذا رغبتَ، فبإمكاني أن أتكلم معه من أجلك. وسأحمل لارين على التكلم معه».

«لا تفعل ذلك»، قلت له بسرعة. «لا أريد مساعدتك ولا مساعدة لارين أيضاً».

«ما خَطب لارين؟ تصوّرتُ أنك تحترم هذا الرجل».

«إنه صديقك من أجل أمر واحد».

وضحك هورغان. «آه، قدِمتَ إلى هنا مع فكرة محدَّدة في عقلك، أليس كذلك؟ أردتَ الاستهزاء بي ليس إلا». ودفع ريموند الطبق جانباً. «تريد أن تمحوِ اثنَي عشر عاماً في خمس دقائق؟ حسناً، قُم بذلك، ولكن أصغِ إليّ. لم أوقع بك. أتريد صبّ جام غضبك على شخص ما؟ تومي يستحق ذلك، ونيكو أيضاً إذا أردتَ رأيي. إذا شئتَ، أنا على ثقة تامة بأنك قادر على الاتصال باتحاد المحامين لاتخاذ الإجراءات المناسبة بحقهما».

«سبق لهم أن اتصلوا، وقلت لهم إنّه ليس لديّ شيء أقوله».

«إذاً، لماذا أنا؟ هَه؟ أعرف أنك لم تُرِد رؤيتي في منصة الشهود، ولكن هل كذبتُ هناك؟ لم أقل أي شيء لم يحدث. وأنت تعلم ذلك، يا شقيقي».

«لقد كذبتَ عليّ، يا ريموند».

«متى؟»، وتفاجأ للمرة الأولى.

«عندما سلّمتني الملف بي. وعندما قلت لي كيف قامت كارولين بطلبه. وعندما قلت لي إنه زَعم باطل».

«آه»، قال هورغان ببطء. وتطلبه الأمر لحظات قليلة للتكيّف مع الوضع، ولكنه لم يضطرب. فريموند هورغان، كما أعرفه دائماً، صلب العود. «حسناً. الآن فهمتُ. كان هناك عصفور صغير يهمس في أُذُنك، هَه؟ من هو؟ لايونيل كينيلي؟ طالما كان صديقَك الغبيّ. كما تعلم، ربما تكون راغباً في سماع بعض الأمور عنه، أيضاً. لا أحد بطل، يا راستي. ألهذا السبب تجهّم وجهك؟ حسناً، أنا لست بطلاً. وهناك أشخاص آخرون لم يكونوا أبطالاً. لم يكن لذلك أي علاقة بتُهمة القتل التي وُجّهت إليك». وأشار إليّ من دون أن يبدو عليه أي ارتباك.

«وماذا عن حصولي على محاكمة عادلة، يا ريموند؟ هل فكرتَ بذلك؟ هل كنتَ تعلم ما إذا كان لارين راغباً في استغلالي أم لا بهدف إبقاء ذلك الأمر طيّ الكتمان؟».

«ليس من ذلك النوع من الأشخاص».

«ليس من ذلك النوع من الأشخاص؟ نحن نتحدث عن شخص باع رداء العدل. توقّف عن ذلك. الأمر الوحيد الذي كان يبالي به – أو تبالي به – هو ضمان عدم قيام أحدهم باكتشاف الأمر. دعني أطرح عليك سؤالاً، يا ريموند. كيف حدث أن بلغت قضيتي لارين؟ من اتصل بإد مامفري؟».

«لم يتصل أحد بمامفري».

«حظ عاثر فحسب، هَه؟».

«هذا ما أعرفه حتى الآن».

«هل طلبتَ منه ذلك؟».

«لم أتحدث ولارين عن قضيتك. مطلقاً. ولا مرة واحدة كما أذكر. كنتُ شاهداً وغير مطّلع على ما يجري بقدْر ما يبدو لك الأمر غريباً، وتصرف كلانا على النحو الملائم. انظر»، قال، «أعرف ما الذي تفكر به. أعرف كيف يبدو لك الأمر. ولكن، يا راستي، أنت تنطق بالهراء. إنه أمر حدث للرجل قبل تسع سنوات عندما كان رأسه مُقحماً في مؤخرته».

«كيف حدث ذلك يا ريموند؟»، سألت، وأصبح فضولي للحظات أكبر من غضبي.

«راستي، لا أعلم ما الذي كان يحدث. لقد تحدثتُ إليه عن الأمر مرة واحدة فقط، ولم يدُم الحديث أطول مما يُفترض. كان ثملاً نصف الوقت في تلك الأيام. وكما تعلم، كانت شرطيةً يُخبرها الرجال قصصهم العاطفية الحزينة. وبدأ القاضي يوصي بها. أنا على ثقة تامة بأنه ظن أن قيامه برفع تنورتها أمر يُسعدها. وذات يوم، زوّدها أحد أولئك الأشخاص الذين قدّمت لهم يد العون بفكرة حول كيفية إيجاد حلّ لمتاعبها. فأطلعت لارين على الفكرة لمعرفة ما يجب القيام به. فاعتبر، على غرارها، أن الأمر غريب. وخرجا، وأعربا عن رغباتهما على مائدة العشاء. وأدّى أمر إلى أمر آخر، وأمضيا وقتاً جميلاً، كما أعتقد.

كان يعتقد على الدوام أن علاقتهما أشـبه بمزحة أخوية. لقد تشـاطرا هذا الاعتقاد».

«وقمتَ باستخدامها بالرغم من علمك بذلك؟».

«يا راسـتي، إليك كيف اسـتخدمتُها. كان لارين يُطلعني على كل ذلـك الهـراء العاطفـي حول عجزها عن تسـديد رسـوم كلّية الحقوق في حين أنها تتقاضى 11 ألف دولار في العام من وظيفتها كشرطية. فقلت، حسـناً، سأضـاعف راتبها، ولكن توقّفْ عن ذلك على الفور. وفكرت بإبقائها هناك كمساعِدة. لم يكن أحد يحب تلك المهام قطّ، وبوجود نائبَين يراقبانها، ما الذي يمكنها القيام به؟ ولكن ثَبُت في النهاية أن باستطاعتها القيـام بالكثيـر. كانت السـيدة تملك ذكاء حـاداً. وفي النهاية، تم تحويل لارين إلى وسط المدينة، وكان أداؤه مميَّزاً. سأذهب إلى قبري مصدّقاً ذلك. لن يستطيع أحد انتقاد نزاهة لارين في هذه القضية الجنائية. وبعد عام، كانا كلاهما جديرَين بالاحترام لدرجة أن أحدهما لم يكن يتكلم مع الآخر. لأذهلني الأمر إن تبادلت مع لارين عشـر كلمات في السـنوات الخمسـ أو السـت الأخيرة. وكمـا تعلم، ومع مرور الوقت، بلغ الأمر حد تمكّني من رؤية ما يراه فيها. وتعرف ما نجم عن ذلك».

إنه بالطبع الجواب الذي حيّرني في الربيع السـابق. لماذا تقرّبت مني كارولين قبل ريموند عندما لاحظت شـغور المنصـب المحتمَل في المكتب. لم يكن ذلك بسبب رجولتي ونظراتي الغامضة. بل لأنني كنت أكثر نشاطاً ولكن أقل حكمة. ربما اعتقدت أن ريموند أكثر نفوذاً. يُفترض بـه أن يكـون كذلـك، وربمـا كان كذلك. فلهذا السـبب ربما لم تحقق ما رغبت في تحقيقه، لا سيّما وأن ريموند لم يُلمِح إلى وجود أيّ مَيل إليها. كان يعرف ما يبحث عنه.

«حسـناً، أليس ذلك جميلاً»، قلت. «لقد سـار كل شـيء على نحو جيد حتى تلقّيتَ رسالة مجهولة المصدر. وهكذا، سلّمتَها ذلك الملف من دون أن تأخذ بعين الاعتبار أي شيء».

«لا، يا سـيدي. هذا مُحال. لقد سـلّمتها إياه من دون أن أعرف

محتـواه. وطلبـتُ منهـا الاطلاع عليه وأن تضـع نُصـب عينَيها أنها لن تعـرف أبـداً مـن الـذي قد يقوم باسـتراق النظر إليه. هـذا كل ما قلتُه. ماذا تريد مني، يا راسـتي؟ كنت أقابل المرأة حينذاك. هل يُفترض بي التظاهـر؟ لـو كنـتُ غير أهل، لما اكترثـتُ بمحتواه كما قلتَ، ولتوجهتُ إلى آلة تقطيع الأوراق وأتلفتُه».

فهززت رأسي. كلانا نعلم أنه أكثر حِرصاً على عدم القيام بذلك. ولا يمكن معرفة من الذي قد يأتي بحثاً عن الرسـالة. إنه نوع الأعمال التـي يعـرف شـخصٌ كريمونـد، أنه يُفترض به تجنّـب التورط فيها مع توجيهات تضمن عدم ارتدادها عليه. وما لم يُعلَن هو أنه إذا كنت ولارين على علاقة بالأمر، فعليكما إزالة الفوضـى بحِرص شـديد. لقد حاولت كارولين بالتأكيد. ولم يعُد عليّ التساؤل عن الشخص الذي حصل على ملف اعتقال ليون من الدائرة الثانية والثلاثين.

«وعندما هدأتْ، هل أسرعتَ لاستعادة الملف؟».

«عندما هدأتْ، كما قلتَ، تلقيتُ اتصـالاً من سـعادته. في الواقع، كنت قد أطلعته على الرسالة عندما حان الوقت لذلك. ولقد اتصل بي يوم عثروا على الجثة. يا لبساطة لارين أيضاً! لقد كان على الدوام غبيًّا يتظاهر بالفضيلة. قال لي إن الملف قد يكون حساساً من الناحية السياسية، فلماذا لا أستعيد ذلك الملف؟»، وضحك ريموند بمفرده، فيما احتفظتُ بنظراتي المتجهّمة. «اسمع، يا راستي، عندما طلبتَ مني الملف، سلّمتُك إيّاه».

«لم يكن أمامك خيار آخر. لقد حاولتَ تضليلي على كل حال».

«انظر»، قال، «إنه صديقي».

إنه مفتاح دعم السـود بالنسـبة إلى ريموند. فلو ادعى ريموند على لاريـن ليتـل، أو سـمح لشـخص آخر بالقيام بذلـك، لتخلى عن خوض الانتخابات. ولكنني لم أذكر ذلك. وحلّ الاشمئزاز أخيراً مكان غضبي نوعاً ما.

فوقفتُ رغبةً مني في المغادرة.

«يا راستي»، قال لي، «لقد عنيتُ ما قلته. أريد مساعدتك. أعطني

إشــارة الموافقة، وســأقوم بكل ما تشــاء. إذا أردت مني أن أقبّل مؤخرة أوغوي بولكارو في ونتهام ســكوير عند الظهر لينصّــبك قاضياً، فسأقوم بذلك. أعرف أنني مَدين لك».

فما عناه هو أن يُبقيني سعيداً في هذا الوقت أكثر من أي وقت مضى. ولكن ركوعه كان لا يزال عاملاً مهدّئاً بطريقة ما. لا يمكنكم الاستمرار بتوجيه ضربات لرجل راكع. فلم أقل شيئاً، ولكنني أومأتُ برأسي.

في طريقي إلى الباب، أشار ريموند مجدداً إلى كل الأعمال الفنية الحديثة المعلّقة على امتداد الجدار. لقد نسي كما يبدو أنه ألقى المحاضرة غير الواضــحة نفســها لشــتيرن ولي. وفي أثناء افتراقنا عند المصعد، مدّ يده في اتجاهي وحاول معانقتي.

«كان أمراً رهيباً»، قال.

وأفلــتُّ منــه. في الواقع، لقــد دفعتُه ببطء بعيداً عني. ولكن، كان هناك أشخاص حولنا، فتظاهر هورغان بعدم ملاحظة وجودهم. ووصل المصعد، فطقطق هورغان بأصابعه. لقد تبادر إلى ذهنه أمر ما.

«أتعلم؟»، قال بهدوء، «هناك أمر واحد وعدتُ نفســي بأن أطلبه منك اليوم».

«ما هو، يا ريموند؟»، سألتُ في أثناء دخولي المصعد.

«منِ قتلها؟ أعني، من قام بذلك برأيك؟».

فلم أجب، ولم أظهر أي تأثّر. وعندما بدأ بابا المصعد بالانغلاق، أومأتُ لريموند هورغان بطريقة تنمّ عن نُبل.

مكتبة
t.me/t_pdf

38

ذات يوم في تشرين الأول/أكتوبر، كنت أعمل في الفناء وشعرت باضطراب غريب. كنت أصلح السياج، وأُزيل الأعمدة، وأغرس أخرى جديدة في الإسمنت. لقد ظننت للحظات أن سبب الاهتزاز هو الأداة التي أستخدمها والتي ورثتها عن والد زوجتي. فبعد وفاته، حملت والدة باربارا كل محتويات فنائه والتجهيزات المنزلية إلى هنا. والأداة قطعة معدنية سوداء مؤلّفة من صليب موضوع بين كلاّبة مطرقة وقضيب حديدي. يمكنكم استخدامها لأي شيء. لقد استُخدمت في ليلة الأول من نيسان/أبريل لقتل كارولين بوليموس.

فبعد المحاكمة مباشَرةً، لاحظتُ وجود قشرة من الدماء، وشعرة شقراء واحدة ملتصقتين بحافة إحدى السنَّين. فحدّقتُ بها لمدة طويلة من الوقت، ومن ثم أخذتها إلى الطابق السفلي وغسلتها في حوض المغسلة. ونزلت باربارا على الدرَج في أثناء قيامي بذلك. وتسمّرت في مكانها عندما رأتني، ولكنني حاولتُ أن أبدو منشرح الصدر. فمددت يدي إلى المياه الساخنة وبدأتُ بالصفير.

كنت قد حملتها عشرات المرات مذاك الحين، واستعملتها في الفناء. وقررت بعد لحظات أن أصوات الأشباح هذه غير صادرة عن الأداة بل عن الورود وأشواكها. وفي أثناء تأمّلي العشب، ومشتل الخضار الذي ساعدت باربارا على زراعته في الربيع، شعرتُ بوجود أمر ما في هذا المنزل وفي هذه التربة المستنفَدة والقديمة بطريقة لا يمكن إنقاذها. وبتُّ أخيراً مستعداً لبعض التغييرات التي فكرت بها مليًّا. وعثرت على باربارا في غرفة الطعام، وكانت ترتّب أوراقاً كدّستْها على امتداد الطاولة على غرار مجلات والدتي وبطاقاتها المفهرَسة العائدة للحقبة التي كانت تُعتبر فيها شخصية إذاعية. فجلستُ على الجانب الآخر.

«يُفترض بنا التفكير بالعودة إلى المدينة»، قلت لها.

وتوقّعتُ، بالطبع، ظهور إشعاع النصر على وجه باربارا نتيجةً لهذا التنازل، فقد أيّدتْ الخطوة منذ عدة سنوات. ولكنها وضعت قلمها بدلاً من ذلك وأمسكت بجبينها، وقالت: «آه، يا الله!».

فانتظرتُ. لقد علمتُ أن أمراً مريعاً سيحدث، ولم أفزع.

«لم أشأ التحدث عن هذا الأمر، يا راستي».

«عمّ؟».

«عن المستقبل»، قالت، وأضافت: «لم أظن أن ذلك سيكون منصفاً لك. ما زال الوقت مبكّراً جداً».

«حسناً»، قلت. «أطلعيني على ما يجول في خاطرك؟».

«يا راستي، لا تكن مُلحًّا».

«لست مُلحًّا. أودّ أن أسمع ما لديك».

وشبكت يدَيها ببعضهما.

«قبلتُ وظيفة للفصل المنتهي في كانون الثاني/يناير في واين ستيت».

لم تكن واين ستيت في مقاطعة كيندل. وواين ستيت ليست على بُعد أربعمئة ميل من المقاطعة. فواين ستيت، كما أذكر، موجودة في مدينة زرتها ذات مرة وتدعى ديترويت.

«ديترويت، صحيح؟».

«هذا صحيح»، قالت.

«هل ستهجرينني؟».

«ليس بهذا المعنى. أنا أستلم عملاً. يا راستي، أكره التسبب لك بهذا القلق الآن، ولكنني أشعر بضرورة القيام بذلك. لقد استخدموني للفصل المنتهي في أيلول/سبتمبر. كنت سأطلعك على الأمر في نيسان/أبريل، ولكن كل ذلك الجنون كان قد بدأ –» وهزّت رأسها، وأغمضت عينيها. «على كل حال، كانوا لطفاء معي بما يكفي لتمديد مدة عقدي. كنت قد بدّلت رأيي عشرات المرات، ولكنني قررت أنه لأجل الأفضل».

«أين سيعيش نات؟».

«معي، بالطبع»، أجابت، وارتسمت حدة المزاج في نظرتها فجأةً. كانت تعني بذلك أنها لن تتراجع أبداً. لقد فكرتُ بطريقة لا إرادية أنّه باستطاعتي الذهاب إلى المحكمة ومحاولة تجنّب ذلك، ولكنني كنت قد اكتفيت من الدعاوى القضائية. وبطريقة غريبة، أوحتِ الفكرة بابتسامة أسف وجيزة، وهو رد فعل حمل الأمل إلى نظرة باربارا.

«ماذا تعنين بقولك إنك لن تهجريني، وستتسلّمين عملاً؟»، سألتُ. «هل أنا مدعوّ إلى ديترويت؟».

«هل تريد أن ترافقني؟».

«ربما. ليس الوقت سيئاً بالنسبة إليّ للبدء من جديد. هناك أمور قليلة غير سارّة تلاحقني هنا».

وحاولت باربارا إعادة تصويب الأمور على الفور. لقد فكرت بكل ذلك لإراحة ضميرها ربما، أو بسبب وجود كل تلك الحسابات في عقلها.

«أنت بطل»، قالت باربارا. «يكتبون عنك في النيويورك تايمز، والواشنطن بوست. أتوقع منك في أي يوم أن تخبرني بأنك ستتولى منصباً».

وضحكتُ عالياً، ولكنها ملاحظة محزنة. فما قالته باربارا يُثبت مدى انجرافها بعيداً. لقد انقطع التواصل بيننا لمدة من الزمن، ولم أخبرها ما يكفي لتَعي مدى اشمئزازي التام مما حدث بسبب السياسة.

«هل أسيء إليك إن انتقلت إلى مكان أقرب من مكان إقامتك كي أتمكن من رؤية ابني؟ مسلّماً بأننا لن نُقيم في المنزل نفسه».

ونظرت إليّ.

«لا»، قالت.

وتأملتُ بالوضع الحرِج للحظات. يا الله! قلت في سرّي، كم من الأمور تحدث في الحياة. وبعد ذلك، فكرت مرة أخرى - كما كانت حالي مؤخراً في غالب الأحيان - بكيفية بدء كل ذلك وانتهائه. آه، يا كارولين! قلت في سرّي. ما الذي أردتُه منك؟ ماذا فعلتُ؟

كدتُ أبلغ الأربعين من عمري، ولم يعد باستطاعتي الادعاء بأنني أجهل العالم، أو أن معظم ما رأيته يُعجبني. أنا ابن والدي. هذا هو إرثي؛ تلطُّخ النظرة المستقبلية حول وجود قسوة في الحياة أكثر مما يستوعبه العقلاء. لا أدّعي أنني تعرضتُ لمقدار كبير من المعاناة، ولكن مرّ عليّ الكثير. لقد رأيت روح والدي العرجاء التي أعطبتها إحدى أكبر الجرائم في التاريخ؛ رأيت العذاب والحاجة، والغضب العشوائي والانفعالي الذي يؤدي إلى سوء تصرف متنوّع ورهيب في شوارعنا. وكمدّع عام، عزمتُ على مكافحة هذه الأمور وإعلان نفسي عدوًّا لدوداً لأولئك الذين يرتكبون كل إساءة بالقوة والسلاح. ولكنني عجزتُ عن ذلك، بالطبع. فمن الذي يستطيع رؤية المقدرة السلبية تلك والاحتفاظ بأي شعور بالتفاؤل؟ لكان ذلك أسهل لو لم يكن العالم مليئاً بسوء الطالع العرَضي. غولان شارف، وهو أحد جيراني، لديه ابن وُلد ضريراً. وماك وزوجها غاصا في النهر في لحظة مرح بعد أن استدارا عند إحدى الزوايا. وحتى إن كان الحظ - والحظ فقط - يجنّبنا الأسوأ، فإن الحياة تُنهك العديدين منا. فالعديد من الرجال الصغار في السنّ من ذوي الكفاءات تفتر هممهم ويتقبّلون الواقع المرير. والنساء الصغيرات في السنّ النشيطات يحمِلنَ أطفالاً، ويصبحن أكثر سمنة عند الوركين، ويتقلّصنَ آملاتٍ في أثناء دنوّهنّ من منتصف العمر. لقد بدت لي كل حياة آنذاك، وعلى غرار كل نُدفة ثلج، فريدة بأشكال بؤسها وبندرة واعتدال مُتَعها. وتنطفئ الأضواء، وتسود العتمة، ولا يمكن للروح أن تتحمل هذا القدْر من الظلام. لقد مددتُ يدي إلى كارولين بتأنٍّ وعن قصد. لا يمكنني الادعاء بأن الأمر كان مجرد حادثة أو اكتشاف أشياء جميلة مصادَفةً. لقد حدث ما أردتُ أن يحدث. لقد حدث ما أردت القيام به. لقد ممدتُ يدي إلى كارولين.

وفي أثناء استمراري بالتحديق في الجدار، شرعتُ بالكلام، قائلاً أشياء بصوت مرتفع كنت قد عاهدتُ نفسي على عدم البَوح بها.

«لقد فكرتُ كثيراً بالأسباب»، قلت. «تلك الأسباب التي لا يمكن

لأحد أن يفهمها تماماً. ومهما دعوتَ ذلك المزيج المجنون من الغضب والحماقة الذي يحمل كائناً بشرياً على قتل آخر، فهو ليس من الأمور التي يسهل فهمها بطريقة حاسمة. أشك في أن يكون بإمكان أي شخص - وليس الشخص الذي يرتكب عملية القتل أو أي شخص آخر - فهم الأمر برمّته. ولكنني حاولت. لقد حاولت حقاً. أعني، هناك أمر واحد يُفترض بي قوله في البداية، يا باربارا، وهو أنني أعتذر منك. أعتقد أن الكثير من الناس يعتبرون ذلك مُضحكاً. ولكنني أعتذر منك.

وعليك فهم أمر إضافيّ آخر. عليك أن تصدّقي ذلك: لم تكن قطّ أكثر أهمية منك بالنسبة إليّ. مطلقاً. وأظن - لأكون صادقاً من دون الشعور بأي ذَنب - أنني كنت واثقاً من وجود أمر ما هناك لم أكن أعتقد أنه باستطاعتي العثور عليه في أي مكان آخر. إنه إخفاقي، وأُقرّ بذلك. ولكن، كما قلتِ لي بنفسك، كانت تستحوذ على عقلي، ويتطلبني الأمر ساعات لشرح السبب. كانت لديها تلك المقدرة، وكان لديّ ذلك الضعف. ولكنني أعرف جيداً أنني لن أتخلص من تأثيرها فيّ لمدة سنوات، وربما لن أتخلّص منها أبداً، ما دمت أشعر بوجودها في الأرجاء. أعني أنه لا مبرِّر لأمر مماثل هنا، أو عُذر. أنا لا أحاول ادعاء وجود مبرِّر، ولكن يُفترض بنا على الأقل الاعتراف بالظروف.

لقد تصوّرتُ على الدوام بأن التحدث عن الأمر لن يُفيد أحداً، وافترضتُ أنك تصوّرتِ الأمر نفسه. فما حدث قد حدث. ولكنني أمضيت الكثير من الوقت وأنا أفكر بكيفية حدوث ذلك، وأكاد لا أتمالك نفسي ولا أستطيع التوقف عن التفكير بالأمر. أظن أن كل مدّعٍ عام يعلم أن تقاربنا يفوق رغبتنا في ارتكاب الآثام. والوهم أكثر خطورة مما يعتقد الناس. ومتى اعتمدتِ هذه الفكرة؛ هذا المخطط المُتقَن والدقيق، فسيكون هناك حافز في الواقع للتفكير بها لأنها تدغدغ مشاعرك وتهزّها، وستطيلين التفكير بها، وتقومين بالخطوة الأولى في اتجاه تنفيذها، وهذا الأمر يهزّ المشاعر ويدغدغها أيضاً، وستستمرين على هذا المنوال. وفي النهاية، عندما تتقدّمين تدريجياً في اتجاهها بهذه الطريقة، مُقنعةً نفسك طوال الوقت بأن أي ضرر

حقيقي لم يحدث، يحتاج الأمر إلى لحظة استثنائية واحدة - عندما تجدين متعة بالغة في الإثارة وتشعرين بأنك تطيرين بحرية - ليحدث برمّته».

ونظرتُ أخيراً إلى الوراء. كانت باربارا واقفة وراء كرسيّها وفي نظرتها خوف وترقّب. لم تكن راغبة قطّ في سماع ذلك كما يبدو، ولكنني تابعتُ كلامي.

«كما قلتُ، لم أفكر قطّ بضرورة التحدث عن هذا الأمر، ولكنني أطرحه الآن لأنني أعتقد للمرة الأخيرة بأنه يجب طرحه بصوت مرتفع. لا وجود لأي تهديد هنا ولا حتى لظله، هل اتفقنا؟ الله يعلم ما يمكن أن يتبادر إلى ذهن شخص في وضعك يا باربارا. ولكن لا وجود لأي تهديد. ما أريده هو كشف الأوراق على الطاولة ليس إلا. لا أريد أن يكون هناك تساؤل حول ما يعلمه أيّ منا، أو يفكر فيه، لأنني أعتقد أن الكلمة المطلوبة هي الرغبة في الاستمرار بالرغم من أنك ربما تكونين مندهشة من سماعي وأنا أقول كل ذلك. هناك أسباب عديدة، ونات أولها بالطبع. وأريد أيضاً الحد من الضرر اللاحق بحياتنا إلى أقصى حد. ولكن أكثر من ذلك، لا أريد أن يكون لذلك العمل المجنون أي نتيجة سيّئة. في الأساس، عندما أحاول أن أشرح لنفسي سبب قتل هذه المرأة، وكيفيّة قتلها - مفكراً بأدق الدوافع المنطقية والشروحات - أفترض أنني ظننتُ على الدوام أن الأمر لصالحنا إلى حد ما. لصالحنا. لخَيرنا. الله يعلم أن الكثير منه لصالحي ببساطة، للتعادل؛ إذا كان باستطاعة الضمير تحمُّل هذه الكلمات. ولكنني أعتقد أن بعضه لصالحنا معاً أيضاً. أردت أن أقول ذلك للتحقق مما إذا كان يعني أي شيء لك أو يُحدث أي فَرق».

وأنهيت كلامي أخيراً، وشعرتُ باكتفاء غريب. لقد احتملتُ ذلك أيضاً بطريقة لم أتخيّلها قطّ. كانت زوجتي باربارا تبكي بشدة وصمت، وتنظر نحو الأسفل في أثناء ذرفها الدموع ببساطة. وتنهّدت والتقطت أنفاسها.

«يا راستي، لا أعتقد أن هناك أسوأ مما تقوله، باستثناء إعرابك عن أسفك. آمل أن تصدّقني ذات يوم. أنا شديدة الأسف حقاً».

«أنا أفهم»، قلت لها. «أصدّقك الآن».

«وكنــت مسـتعدة لقـول الحقيقــة، وفي أي وقت، كاملــةً. ولو تمّ استدعائي للإدلاء بشهادتي، لقلتُ ما حدث».

«أفهم ذلك، أيضاً. ولكنني رفضتُ استدعاءك للشهادة. بصراحة، يا باربارا، ما كانت هذه الشهادة لتؤدي إلى أي نتيجة جيدة. لبدا الأمر كمــا لــو أنــه عذر يائس تريدين به بــذل جهد غير مألوف لإنقاذي. ولما صدّق أحد أنك قتلتِها».

وتسـببت هذه الكلمات بمزيد من الدموع، وسـيطرت على نفسـها أخيراً. لقد قيل ما قيل، وشعرت بارتياح إلى حد ما. ومسحت باربارا عينيها بقفا يدَيها، وتنهدت بعمق، وتكلمت موجّهةً نظرها إلى الطاولة.

«هل تعرف كيف يبدو الأمر عندما تشـعر بالجنون، يا راسـتي؟ الجنـون التـام؟ وعـدم التمكن من معرفة ذاتك؟ لا تشـعر أبداً بالأمان. أشعر في كل خطوة أقوم بها بأن الأرض متقلقلة وأنني سأقع، ولا يمكنني مواصلة السير على ذلك الطريق. لا أعتقد أن باستطاعتي أن أكون شخصاً عادياً مجدداً إذا عشتُ معك. أعرف أن الأمر مريع. ولكنه مريع بالنسبة إلــيّ أيضــاً. لا أهميــة لمــا كنت أفكر فيه، فــلا أحد يعود إلى ما كان عليه بعد القيام بأمر مماثل. فكل ما يمكنني قوله، يا راسـتي، هو أن شـيئاً لم ينتــهِ بالطريقــة التــي توقعتُهــا. لم أفهم قطّ حقيقة أيّ شــيء إلى أن بدأت المحاكمة، وجلست هناك، ورأيت ما يحدث لك، وشعرت أخيراً بمدى رغبتــي بعــدم حــدوث ذلك. ولكن ذلــك جزء مما لا يمكنني تخطّيه. فلا حياة لي هنا باستثناء الشعور بالأسف، والخوف، وبالطبع الخجل ليست الكلمة المناسبة بل الذّنْب؟». وهزت رأسها ببطء، ووجّهت نظرها إلى الأسفل في اتجاه الطاولة. «لا وجود لأي كلمة تعبّر عن واقع الحال».

«يمكننا أن نحاول تشاطر ذلك، كما تعلمين. الملامة»، قلت بطريقة مــا، ورغمــاً عنــي. كانت هذه الملاحظة مفاجئــة. فلهثت باربارا قليلاً، وعضّت شفتها فجأةً، ونظرت إلى الاتجاه الآخر للحظات قليلة، وبكت، زافرةً بشكل آنيّ. ومن ثم، هزت رأسها مجدّداً.

«لا أعتقــد أن الأمــر صــائب»، قالــت. «خرجــت المحاكمــة عن

الطريق الذي يُفترض بها سلوكه، يا راستي».

هذا كل ما قالته. كنت آمل أن تقول المزيد، ولكن ذلك كان كافياً. وهمّت بمغادرة الغرفة، ولكنها توقفت وجعلتني أضمّها للحظات، ولكن هـذه اللحظـات دامـت طويـلاً قبل أن تبتعد عني. وسـمعتها تصـعد إلى الطابق العُلوي. أنا أعرف باربارا. سـوف تسـتلقي على سريرنا وتبكي لفترة طويلة، وستقف على قدمَيها بعد ذلك، وستبدأ بتوضيب الأغراض استعداداً للمغادرة.

39

ذات يوم، بعد مناسبة الشكر مباشَرةً، وعندما قدمتُ إلى البلدة للتسوق بمناسبة الميلاد، رأيت نيكو ديلاي غارديا يسير على جادة كيندل بولفارد. كان يمسك بمعطفه، مُغلقاً إياه بإحكام عند الياقة، وعلى وجهه أمارات القلق، وينظر إلى أنحاء الشارع كافة كما يبدو. كان قادماً في اتجاهي، ولكنني على ثقة تامة بأنه لم يرَني بعد. ففكرتُ بالتواري عن الأنظار داخل أحد المباني، ليس بسبب خوفي من رد فعله أو رد فعلي، بل لأنني ظننت ببساطة أنه من الأفضل لكلينا تجنّب هذا اللقاء. وفي تلك الأثناء، رآني وأكمل طريقه عمداً في اتجاهي. لم يبتسم ولكنه مدّ يده أولاً، فصافحتُه. في تلك اللحظة فقط، شعرت بانفعال رهيب – ألم غاضب وأسى – ولكنه زال بسرعة، ووقفتُ هناك وأنا أنظر بمودة إلى ذلك الرجل الذي حاول سلب حياتي مني. واستدار رجل يعتمر قبّعة من اللِّباد ليحدّق بنا، مُدركاً أهمية اللقاء، ثم تابع سَيره. ولكن، من الواضح أن آراء المشاة قد تباينت في شأننا.

وسألني نيكو عن حالي بلهجة عازمة كان يميل الناس في المرحلة الأخيرة إلى اعتمادها، فعلِمت أنه عرف بما جرى، ولكنني أخبرتُه على كل حال.

«باربارا وأنا قد انفصلنا»، قلت.

«لقد بلغني الخبر»، قال. «أنا آسف حقاً. فالطلاق لعنة. حسناً، كما تعلم، لقد بكيتُ على كتفك من دون أن أحصل على ابني. ربما تمكنتما من إيجاد حلّ لمسألة ابنكما».

«أشك في ذلك. نات معي في الوقت الحاضر، ولكن حتى تستقر باربارا في ديترويت».

«إنه أمر مؤسِف»، قال. «حقاً. أمر مؤسف جداً». ما زال نيكو

السابق، قلت في سرّي، يكرر كل شيء.

واستدرتُ لأسمح له بمتابعة طريقه، ومددت يدي أولاً هذه المرة. وعندما صافحني، دنا مني وارتسمت على وجهه أمارات من يعتزم إخباري بنبأ يعتبره مؤلماً.

«لم أنصب لك فخاً»، قال. «أعرف ما يفكر به الناس، ولكنني لم أطلب من أحد العبث بالدليل. لا تومي، ولا كوماغاي». وأجفلتُ تقريباً لدى تفكيري بيينلس. فلقد استقال من قسم الشرطة، ولا ملاذ له. وكل ما باستطاعته القيام به هو الادعاء بوجود مؤامرة أو عدم الكفاءة، مختاراً أهون الشرَّين. فهو لم يُفسد عيّنة السائل المنَوي بالطبع، ولكنني مقتنع تماماً بأنه ما كان ليتّهم أحداً لو عاد إلى ملاحظاته في شأن تشريح الجثة. ويمكن إلقاء اللوم على تومي أيضاً بسبب الضغط الكبير الذي مارسه للحصول على قضية هامشية. أفترض أن تبرئتي ستبقى مصدر حزن له - أو حسد - أيًا تكن الحالة التي تركته فيها كارولين.

في هذه الأثناء، تابع نيكو كلامه بصفاء نيّة كالعادة. «لم أنصب لك فخاً مطلقاً»، قال. «أعرف ما الذي تفكر فيه. ولكن، عليّ أن أقول لك إنني لم أقُم بذلك».

«أعرف أنك لم تقم بذلك، يا ديلاي»، قلت. عندئذٍ، أطلعته على الحقيقة وفقاً لرأيي. «لقد قمتَ بعملك بالطريقة التي ظننتَ أنه يُفترض بك القيام به فيها. لقد اعتمدتَ على الأشخاص غير المناسبين فحسب».

كان يراقبني.

«حسناً، ربما لن يكون ذلك من شأني بعد الآن. هل سمعتَ بأمر الاستدعاء؟»، سأل. ونظر إلى أنحاء الشارع كافة. «لقد سمعتَ به بالطبع. كل الناس سمعوا به. حسناً، ما الفائدة؟ هم يقولون لي إن مهنتي قد انتهت».

لم يكن يبحث عن التعاطف، بل يريد مني أن أعرف أن موجات الكارثة قد انتشرت وغمرته أيضاً. لقد أغرقتنا كارولين جميعاً. ووجدت نفسي أشجّعه.

«لا يمكنك أن تعرف، يا ديلاي. لن تعرف أبداً ما الذي قد تنتهي إليه الأمور».

وهز رأسه.

«لا، لا»، قال. «لا، أنت البطل. وأنا كبش الفداء. رائع». وابتسم نيكو بطريقة فجائية لتعلموا أنه يجد أفكاره غريبة وغير ملائمة. «منذ عام، كان بإمكانك أن تهزمني في الانتخابات، وبإمكانك أن تهزمني اليوم. أليس ذلك رائعاً؟». وضحك نيكو ديلاي غارديا بصوت مرتفع بسبب تعابيره الساخرة والشاذة التي يستخدمها في مجال اختصاصه. وبسط ذراعَيه هناك وسط جادة كيندل بولفارد وقال: «لا شيء قد تبدّل».

40

في الغرفة الأمامية في المنزل حيث عشت أكثر من ثماني سنوات، كانت هناك فوضى تامة. فالصناديق المفتوحة والموضَّبة جزئياً موجودة في كل مكان، والأغراض مرفوعة عن الرفوف، والأدراج مبعثَرة في كل الاتجاهات، ولا وجود للأثاث. لم أبالِ قطّ بالأريكة والكرسي المزدوج اللذين أرادت باربارا اصطحابهما معها إلى الملكية المشترَكة خارج ديترويت. كنت أعدّ العدة للانتقال إلى شقة في المدينة في الثاني من كانون الثاني/يناير. ليست مكاناً سيئاً. ولقد قال السمسار العقاري إنني محظوظ بالحصول عليها. كانت الشقة برسم الإيجار، فقررت القيام بكل خطوة ببطء.

بعد مغادرة نات، بدت لي عملية التوضيب مَهمة لا نهاية لها. وتنقلتُ بين غرفة وأخرى. كان كل غرض يذكّرني بشيء ما، ويبدو أن كل زاوية تحتوي على بعض الألم والكآبة. وعندما تخطيتُ قدرتي على التحمل، انتقلت إلى مكان آخر. كنت أفكر في غالب الأحيان بوالدي، وبذلك المشهد الذي تذكرتُه أمام مارتي بوليموس وأعادني إلى الماضي عندما كان والدي يحزم أمتعته - بعد أسبوع من وفاة والدتي - من الشقة التي كان قد غادرها قبل سنوات قليلة. كان يرتدي قميصاً داخلياً بدون كمين، ويعمل بطريقة وقِحة في أثناء رميه بقايا فترة البلوغ من حياته داخل سلال وصناديق، راكلاً العلب الكرتونية التي تعترض طريقه في أثناء تنقلّه بين الغرف.

كان مارتي قد أرسل لي في الأسبوع السابق بطاقة معايَدة بمناسبة الميلاد. «أنا سعيد لسماعي أن الأمور قد جرت لصالحك». وضحكتُ عالياً عندما قرأت تلك الرسالة. يا الله! يشعر ذلك الفتى بالوحدة أكثر مما تخيّلتُ. وأمضيت ساعتَين في البحث عن المغلف في صناديق المُهمَلات.

لم أراسل والدي قطّ. فبعد مغادرته أريزونا، لم أره مجدّداً. ولم أكن أتصل به إلا عند الضرورة؛ عندما كانت باربرا تطلب رقم الهاتف وتضع السمّاعة في يدي. كان يتعمّد الإقلال في الكلام بسبب حرصه على تفاصيل حياته، ولم يكن الأمر جديراً مطلقاً ببذل الجهد للاطلاع على تلك التفاصيل. كنت أعرف أنه يقيم مع امرأة ويعمل ثلاثة أيام في الأسبوع في مخبَز محلي. لقد وجد أن طقس أريزونا حار.

واتصلت بي المرأة، واندا، لتخبرني بأنه تُوفّي. حدث ذلك قبل أكثر من ثماني سنوات، ولكن الصدمة التي خلّفتها وفاته كانت ترافقني كل يوم. كان قويّ البنية؛ لذا اعتبرتُ أنه سيعيش حتى يبلغ المئة من عمره، وأن وضع حد لمرارتي سيكون على الدوام هدفاً بعيد المنال. لقد أحرقت جثته، وعثرت واندا على رقم هاتفي في أثناء قيامها بتنظيف العربة المقطورة، وأصرّت عليّ للقدوم إلى الغرب لإنهاء أموره العالقة. كانت باربارا حاملاً في شهرها الثامن آنذاك، واعتبرنا هذه الرحلة إلى الغرب آخر واجب علينا اتجاه والدي. وثبت في النهاية أن واندا من مدينة نيويورك، وفي أواخر العقد السادس من العمر، طويلة القامة، ومعتدلة الجمال. ولم تتردد في التكلم بالسوء عن المتوفّى. في الواقع، قالت لي عندما وصلتُ إنها تخلت عنه قبل ستة أشهر. لقد اتصلوا بها من المَخبَز حيث تعرّض لانتكاسة صحية بسبب الشريان التاجي؛ إذ لم يكونوا يعرفون أحداً سواها. لا أعرف لماذا أقوم بهذه الأشياء. في الواقع، عليّ أن أخبرك، قالت بعد تناول كأسين من الشراب، كان شخصاً لا يُطاق في الغالب.

ولم تعتبر اقتراحي نحت جملتها على ضريحه أمراً غريباً.

وتركتني بمفردي وأنا أبحث داخل العربة المقطورة. كان يوجد على سريره زوج من الجوارب الحمراء. وعثرتُ في خزانة الملابس التي تحتوي على أدراج على ستة أو سبعة أزواج من جوارب الرجال باللون الأحمر والأصفر، مقلّمة، ومرقّطة. لقد حصل والدي أخيراً على الدلال في سنواته الأخيرة.

وقُرع جرس الباب. كنت أتطلّع إلى محادثة وجيزة مع ناقل البريد أو الرجل الذي أرسلته شركة تسليم الطرود.

«ليب»، قلت. ودخل ونفض الثلج عن قدمَيه.

«جميل ومريح»، قال ليب، معايناً الكارثة في غرفة الجلوس. وفي أثناء وقوفه على ممسحة الأقدام، سلّمني رزمة صغيرة لم تكن أوسع بكثير من شريط الساتان المعقود في أعلاها.

«إنها هدية الميلاد»، قال.

«يا للطفك الكبير!»، قلت. لم يسبق لنا أن تبادلنا الهدايا من قبل.

«تصوّرتُ أنك قد تكون بحاجة إلى شراب منشّط. هل رحل نات؟».

فأومأت برأسي. لقد أقللته إلى المطار في اليوم السابق، وأردت مرافقته إلى الطائرة ولكنه لم يسمح لي بذلك. ومن حيث أقف عند المدخل، شاهدته وهو يبتعد وحيداً، وضائعاً في الأحلام، ومرتدياً سترته الجلدية ذات اللون الأزرق الداكن. إنه ابن والده. لم يستدر للتلويح. وقلت في سرّي: أريد حياتي السابقة.

أمضيت وليب لحظات في النظر إلى بعضنا. لم أكن قد أخذت معطفه بعد. يا الله! كم الأمر مُربِك! لقد تبدّل تصرفي مع الجميع، ومع الناس الذين أعرفهم جيداً وألتقيهم في الشارع.

فعرضتُ عليه أخيراً احتساء الشراب.

«حسناً، إذا كنت ستشرب معي»، أجاب، وتبعني إلى المطبخ. هناك أيضاً، كانت نصف أغراض المنزل موضوعة في صناديق.

وفي أثناء إخراجي كأساً من الخزانة، أشار ليبرانزر إلى الرزمة التي حملها معه وكنت قد وضعتُها على الطاولة.

«أريد أن أراك تفتحها. أحتفظ بها منذ مدة قصيرة».

كانت الورقة ملفوفة بإتقان.

«لم أرَ قطّ هديّة ملفوفة على هذا النحو من قَبل».

كان يوجد داخل العلبة البيضاء الصغيرة مغلف من ورق مانيلا

مربوط بشـريط لاصـق باللونيـن الأحمر والأبيض يُسـتخدم للاحتفاظ بالأدلـة. فحللـتُ الشـريط ووجـدت الكأس التي كانت مفقـودة في أثناء المحاكمـة. فوضـعتُ الكأس على الطاولـة ورجعتُ خطوة إلى الوراء. إنه احتمال كنت أعتبر حدوثه صعباً.

ودسّ ليب يده في جَيبه وأخرج قدّاحته. وأضـرم النار في إحدى زوايا مغلف الأدلة، ومن ثم رماه في المغسـلة، وسـلّمني الكأس. كان مسحوق النينيدرين الأزرق لا يزال عليها حيث تظهر بصمات الأصابع الثـلاث الجزئيـة. فرفعـتُ الكأس للحظات في اتجاه الضـوء الداخل من النافذة، محاولاً لأسباب لم أتمكن من تبيانها التمييز بين شبكات الخطوط بالغة الصِّـغر لأعرف موضـع بصـمتي إبهامي الأيمن والإصـبع الثالثة الوسطى اليمنى. كنت لا أزال أنظر إلى الكأس عندما شرعتُ بالتحدث إلى ليبرانزر.

«هنـاك سـؤال حقيقـي هنـا حول مـا إذا كان يُفترض بي أن أكون متأثراً»، قلت، وتلاقت نظراتنا بعد ذلك، «أو غير مكترِث».

«كيف ذلك؟».

«إن إخفـاء دليـل علـى جريمة ما يُعتبـر جناية في هذه الولاية. لقد احتفظتَ بالكأس لمدة طويلة، يا ليب».

«لن يعرف أحد بالأمر». وسكب ليب الشراب من القنينة التي كنت قد فتحتُها للتوّ. «إضـافةً إلى ذلك، لم أقم بأي عمل خاطئ. هما من بدأ بالعبث بالأدلة. هل تتذكر كيف أرسلا شميت للحصول على كل الأدلة؟ لـم تكـن الكأسـ هناك. كنت قـد أخذتها لديكرمان. وفـي اليوم التالي، تلقّيت اتصالاً هاتفياً من المختبر لإبلاغي بانتهاء الاختبار وللطلب مني أن أحضر لأخذ الكأس. وعندما وصلتُ إلى هناك، كان أحدهم قد كتب على الإيصال تُعاد بوصفها دليلاً. في الواقع، كنت أريد تسليمها، ولكنها لم تعُد قضيتي. لذلك، وضعتُها في دُرج، معتبراً أن أحدهم سيسألني عنها عاجلاً أم آجلاً. ولكن أحداً لم يفعل. ومولتو - على غرار كل مساعد - أرعن يوقّع على كل الإيصالات من دون مطابقتها مع الدليل المُرفَق بها. وبعد

ثلاثة أشـهر، وضـع نفسه في سطل قِمامة، ولكنها مشكلته». ورفع ليب كأسـه وشـرب معظم محتوياتها. «لم يتبادر إلى ذهن أيّ منهما مكان وجود الكأس. فرويا قصصاً عن كيفية انشغال مكتب نيكو بجمع الأدلة».

وضحكنا لأننا نعرف تصرفات نيكو. فعندما ينفعل جداً، يمكنكم أن تروا من خلال شعره المتباعد فروة رأسه وهي تحمرّ. وتصبح بقع النمش أكثر بروزاً. وبعد انتهاء نوبة الضحك، ساد الصمت لفترة وجيزة.

«أنت تعرف سبب عدم اكتراثي، أليس كذلك؟»، سألتُ أخيراً.

فهزّ ليب كتفَيه ورفع كأس الشراب.

«أنت تظن أنني قتلتها»، قلت.

كان مستعداً لذلك ولم يرفّ له جَفن. وتجشأ قبل أن يجيب.

«كانت السيدة نبأً سيّئاً».

«مما سيجعل الوضع أفضل إن قتلتُها، أليس كذلك؟».

«هل قمتَ بذلك؟»، سأل ليب.

هـذا مـا توصّـل إليـه بالطبع. فلـو كان يريد فقط أن يكون شـقيق الروح، لأخذ الكأس معه عندما ذهب لصـيد السـمك في المرة الأخيرة وألقاها في شلالات كراون فولز. لقد أظهرَ الكأس لأعرف أننا معاً في القضية.

«أنت تظن أنني قمت بذلك، أليس كذلك؟».

وتناول جرعة من الشراب.

«إنه أمر محتمَل».

«تبًّا. تريد مدّ عُنُقك على هذا النحو بسـبب مجرد احتمال صـغير على غرار احتمال وجود حياة على المريخ؟».

ونظر ليب إليّ مباشَرةً بعينَين واضحتَين ورماديّتَين.

«لا أضع جهاز تنصّت، أنت تعرف ذلك».

«ما كنت لآبه بذلك. لقد خضعتُ للمحاكمة وبُرِّئت. باستطاعتي نشر اعترافـي فـي التريـب غداً من دون أن يحاكمني أحد ثانيةً بسـبب جريمة قتل. نحن فقط نعرف، يا ليب» – وتناولتُ جرعة كبيرة من قنينة شراب

كنت قد فتحتها لنفسي – «أنهم لن يُقِرّوا بذلك أبداً، أليس كذلك؟».

ونظر ليب عبر المطبخ في اتجاه شيء غير موجود.

«انسَ الأمر»، قال.

«لن أنسى الأمر. أريد رأيك فقط، اتفقنا؟ تظن أنني قتلتها. لا يقوم شرطي يزاول مهنته منذ خمسة عشر عاماً بسحب الدليل في أكبر قضية في البلدة لمجرد التسلية. أليس كذلك؟».

«هذا صحيح. ولكنني لم أقم بذلك لأجل التسلية». ونظر إليّ صديقي دان ليبرانزر. «أظن أنك قتلتها».

«كيف؟ أعني، لا بد من أن تكون قد توصلت إلى هذه النتيجة بعد تفكير».

ولم يتردد كعادته.

«أتصوّر أنك وجّهتَ إليها الضربة في لحظة غضب، وقمتَ بالأمور الأخرى لتُبعد عنك الشُّبُهات».

«ولماذا أُصبتُ بسَورة غضب؟».

«لا أعرف. من يعرف؟ لقد تخلت عنك، أليس كذلك؟ لأجل ريموند. إنه سبب كافٍ لتصاب بسَورة غضب».

أخذت الكأس ببطء من يد ليبرانزر. كان باستطاعتي رؤية تخوّفه عندما قمت بذلك. كان مستعداً لتلقّي ضربة بها، ولكنني وضعت الكأس بدلاً من ذلك على طاولة المطبخ بجانب الكأس التي تحمل بصمتيّ. إنهما متشابهتان. ومن ثم توجهتُ إلى الخزانة وأخرجتُ ما تبقى من المجموعة حتى صارت هناك اثنتا عشرة كأساً في صفَّين، إحداها إلى اليسار تحمل آثار الشراب، والأخرى بجانبها تحمل مسحوقاً أزرق. إنها لحظة نادرة عندما لا ترتسم على وجه ليبرانزر نظرة الرجل العليم بالأمور.

وفتحت حنفيّة الماء فوق حوض الغسيل، وغسلتُ الغبار، ومن ثم ملأت الحوض برغوة الصابون. كنت أتكلم في أثناء قيامي بذلك.

«تخيّل امرأة، يا ليب، امرأة غريبة، ذات عقل رياضي دقيق، باطنية جداً، وغاضبة ومكتئبة، ينتابها غضب بركاني في معظم الأوقات

من الحياة، ومن زوجها، ومن علاقته الغرامية البائسة التي حرمتها من كل ما تريده. فهي تريد الاستحواذ على عقله، ولكنه بدلاً من ذلك متعلّق بتلك المرأة الرّثة التي تعتبر علاقتها به نوعاً من أنواع الرياضة. هذه المرأة، يا ليب، الزوجة، مريضة بروحها وقلبها، وربما بعقلها أيضاً، إذا أردنا الكشف عن كل الأوراق.

إنها مُربَكة، وتلتزم جانب الحياد بجدّية في شأن هذا الزواج. تكون في بعض الأيام واثقة من التخلي عنه والمغادرة، وتريد في أيام أخرى البقاء. وفي كلتا الحالين عليها القيام بأمر ما. كان الأمر برمّته يتآكلها ويدمّرها. ولديها رغبة، أمل سرّي جامحٍ في أن تموت المرأة التي يقيم علاقة معها. وعندما بلغ حنق الزوجة الذروة، كانت مستعدة للتخلي عن زوجها والتوجه إلى أماكن غير مطوّقة بحواجز. ولكنها لن تشعر بالرّضى إذا بقيت المرأة الأخرى حيّة لأن الزوج المغفّل سيزحف إليها، وسيحصل على ما تظن زوجته أنه يسعى وراءه.

ولكن، بالطبع، أنتَ تُلحق الأذى على الدوام بالذي تحبه. وفي غمرة كآبتها، كانت تتوق إلى استعادة الأوقات الماضية. ولكن، بدا لها أن الحياة ستكون أفضل إذا لقيت المرأة الأخرى حتفها وكفّت عن الاستحواذ على عقله. ربما يمكنهما حينذاك إعادة معالجة الأمور والبناء على أنقاض حياتهما».

وامتلأ حوض الغسيل بالرغوة، وزال النينيدرين عن الكأس بسهولة، عِلماً أن رائحة كبريتية كريهة فاحت عندما لامست الكأس الماء. بعد ذلك، أنزلتُ منشفة ومسحت الكأس النظيفة. وعندما أنهيت، أحضرت علبة وبدأت بتوضيب المجموعة. وساعدني ليب بفصل أوراق الصحف من دون قول أي شيء.

«ولم تفارق الفكرة مخيّلتها. وما كانت الزوجة تفكر به يوماً بعد يوم هو قتل المرأة الأخرى سواء أكانت في ذُروة غضبها أم في انسحاق تام بسبب إشفاقها على نفسها.

وبالطبع، وبترسّخ الفكرة في عقلها، وجدت أنه يجب على الزوج

أن يعلم. فعندما تكون غاضبة وخارجة من البيت، تعتبر تفكيرها بحاله، وهو محروم ومُدرِك لمن تركه في تلك الحالة، نوعاً من أنواع الثأر اللذيذ. وعندما تكون في مزاج جيد تفكر بإنقاذ هذا الزواج بطريقة ما. فهي تريد منه أن يقدّر التزامها ووفاءها الكبيرَين، ومسعاها لإيجاد العلاج المناسب. لن يشعر بأهمية الحدث إذا ظن أنه مجرد حادث.

وهكذا، أصبح هذا الأمر جزءاً من دافعها الذي لا يقاوَم: أنْ تقتل وتُعلِمه بأنها ارتكبت عملية القتل. ولكن، كيف تُحقق ذلك؟ إنها أُحجية رائعة بالنسبة إلى امرأة تتمتع بالمستويات الفكرية الأكثر تعقيداً. يمكنها إخباره ببساطة. وكانت تكرس نصف وقتها للتخطيط لكيفية مغادرة المنزل. ولكن، هناك إمكانية عدم موافقة زوجها على الأمر. ربما لجأ إلى الثرثرة ونشر الشائعات. كان عليها إزالة هذا الاحتمال. ما هي أفضل طريقة للقيام بذلك؟ لحسن الحظ، يمكن التوقع بأن الزوج هو من سيقوم بالتحقيق في هذه الجريمة. فرئيس قسم الجنايات أصيب بطلق ناري. والرئيس بالإنابة شخص لا يثق به أحد. والزوج هو الابن المفضَّل للنائب العام. سيكون الشخص الذي يجمع الأدلة مع صديقه الشهير ليبرانزر. وبقيام الزوج بمتابعة التحقيق بأدق التفاصيل، سيكتشف أنه المذنب في نظر كل العالم. وسيعرف المذنبَ الحقيقي بسبب وجود شخص واحد فقط في العالم يمكنه الوصول إلى تلك الكأس أو إلى سائله المنَويّ. ولكنه لن يُقنع أحداً آخر بذلك. سيعاني في صمته الموحِش عندما تتخلى عنه، أو سيقبّل يدها الملطخة بالدماء للبقاء معه. وفي عملية القتل نفسها، هناك تطهير واكتشاف: باختفاء المرأة الأخرى، ستتمكن من معرفة ما تريد القيام به.

ولكن، يجب أن تكون جريمةً يعتبرها العالم غير محلولة عندما يعلن الزوج ذلك. يجب أن تكون جريمة يدرك فيها بمفرده ما الذي حدث. لهذا السبب، قررت أن يبدو دافع الجريمة عمليةَ اغتصاب. وتَواصَل المخطط. كان لا بد من استخدام إحدى هذه الكؤوس».

وأريتُ ليب الكأس التي ألُفّها. كان جالساً على أحد كراسي المطبخ،

وهو يُصغي بعينَين مفتوحتَين على اتساعهما، وتعبّران عن رُعب كبير أو اندهاش.

«كانت الكأس التي أمسكها زوجها وبكى فوقها ليلةَ أطلعها على علاقته الغرامية كهذه تماماً. كان المغفّل الأناني جالساً هناك، وقد دمّرها بالحقيقة وبكى لأن كؤوسهما مماثلة لتلك التي تملكها المرأة الأخرى. ستكون هذه هي الطريقة المثالية لإبلاغه. فاحتسى الشراب ذات ليلة في أثناء مشاهدته مباراة في الكرة، وبعد انتهائه خبّأتِ الكأس. باتت لديها بصمات الأصابع.

وبعد ذلك، قامت خلال عدد قليل من الأيام بجمع المادة اللزجة الناجمة عن إخراج حجابها الحاجز(*)، ووضعتها في كيس مصنوع من النايلون، كما أتصوّر، وأبقتها لمدة من الزمن في ثلاجة الطابق السفلي.

وهكذا جرى الأمر في الأول من نيسان/أبريل. ها ها. حدث ذلك لمساعدته على فهم الرسالة الموجَّهة. لقد أجرت اتصالاً هاتفياً من المنزل قبل ساعة من الحدث. كان الزوج في المنزل يجالس الطفل، ولكن، وكما ناقش نيكو مسألةَ ما إذا كان شتيرن قد أشار إلى إمكانية وجود باربارا هنا عندما أجريتُ ذلك الاتصال، يمكنك استخدام الهاتف في مكتب باربارا من دون أن يُسمَع الاتصال في الطابق السفلي».

وأحدث كرسي لِيب صوتاً فجائياً عندما ارتدّ إلى الوراء.

«واو»، قال. «أعد ذلك ثانيةً. من اتصل؟ حقاً. الأمر ليس كما كان ديلاي يعتقد. هي؟».

«هي»، قلت. «في تلك المرة».

«في تلك المرة؟».

«في تلك المرة. وليس في المرة السابقَة».

«أأنت من اتصل في المرة السابِقة؟».

«أنا من اتصل في المرة السابقة».

«حسناً»، قال ليب، وخبت الدهشة في عينيه في أثناء قيامه بالتفكير،

(*) وسيلة من وسائل منع الحمل مطاطية عادة، تتموضع فوق عنق الرّحم.

بدون شك، بذلك اليوم في نيسان/أبريل عندما طلبتُ منه ما بدا بالتأكيد صنيعاً لا ضرر منه، ولم يكن سوى عمل طائش، وهو إغفال الحصول على الاتصالات الهاتفية التي أُجريت من منزلي. «حسناً»، قال ثانيةً، وضحك بصوت عالٍ. لم أفهم في بادئ الأمر، ولكن عندما رأيت نظرته المسرورة بطريقةٍ ما أدركت أنه راضٍ. لا يمكننا أن نكون غير ما نحن عليه. لقد سُرّ التحري ليبرانزر لدى معرفته أنه لم يكن مُخطئاً كليّاً عندما اعتبرني مذنباً عن سوء نيّة إلى حد ما. «إذاً، هي من اتصل في تلك الليلة؟».

«هذا صحيح».

«عِلماً منها بأنك قمتَ بالاتصال قبل ذلك».

«لستَ واثقاً من ذلك. لم يكن باستطاعتها استراق السمع إليّ لأنه لم يكن هناك ما تسمعه. ولكنني أعتقد أنها كانت تعلم. لقد شعرتُ بذلك. ربما تركت دليل الهاتف العائد لمكتب النائب العام مفتوحاً ذات مرة عندما اتصلتُ بكارولين. إنه نوع الأمور التي تلاحظها باربارا. تعرف مدى تعلقها بالتفاصيل، ولا سيما في ما يتعلق بشؤون المنزل. ربما كان ذلك ما دفعها إلى تنفيذ مخططها. ولكنني لا أعرف بالتأكيد. ربما كانت مصادَفة. كان عليها الاتصال بكارولين بطريقةٍ ما. لم يكن باستطاعتها زيارتها ببساطة».

«ماذا قالت لها عبر الهاتف؟».

«من يعلم؟ قالت شيئاً ما. هراء. ربما سألتْ إذا كان بإمكانها زيارتها».

«وقتلتْها»، قال ليب.

«وقتلتْها»، قلت. «ولكن بعد أن توقفتْ في الجامعة أولاً، وسجلت دخولها عبر الكومبيوتر. لم يتحقق أحد من الأمر، ولكنني أراهن على أنها شغّلت برنامجاً ما، وأنا على ثقة تامة بأن الآلة استمرت بإخراج كميات كبيرة من الأوراق طوال ساعتَين. فكل قاتل ذكي بحاجة إلى عُذر غياب، ويمكنك القول إن باربارا فكرت مليًّا بتفصيل واحد أو تفصيلَين.

ومن ثم توجهت إلى منزل كارولين التي كانت تنتظر وصولها. فأدخلتها كارولين. وعندما أدارت رأسها، ضربتها باربارا بهدوء بأداة صغيرة بما يكفي لتتّسع لها حقيبة يد نسائية. وأخرجت بعد ذلك الحبل الذي أخذته معها، وقامت بتقييدها، وتركت الكأس على المشرب، ومن ثم تناولت محقنة وحقنت محتويات كيس زيبلوغ(*) الصغير المليء بسائلي المنوي؛ لقد حصلتْ على هذه المعلومات من مواضيع تتناول التلقيح الاصطناعي. وفتحت أقفال الأبواب والنوافذ قبل أن تغادر.

بالطبع، إن التحقيق الجنائي أكثر تعقيداً مما كانت باربارا تظن. فهناك حقول كاملة من الاستعلام تجهلها. ففي ما يتعلق بتحليل الأنسجة، لقد تركت آثاراً لم يكن بإمكانها الاعتماد عليها قطّ. فالألياف المأخوذة من السجاد في منزلها ملتصقة بهُدب تنورتها، على غرار عدد قليل من شعر رأسها. هل تذكر كيف أن الشعر والأنسجة لم تتطابق مع الشعر الأنثوي المأخوذ من ساحة الجريمة؟ أنا على ثقة من أنها لم تتصور قطّ قيام أحدهم بهذا التحليل المفصّل لعيّنة السائل المنَوي. وأراهن على أن باربارا لم تكن تملك أي فكرة عن سجلات الاتصالات الهاتفية، وصُعقت عندما تبيّن أنه تم تقفّي اتصالها وتبيّن أنه جرى من هاتفنا. لقد تركت أكثر من دليل يشير إليها. والأمر نفسه بالنسبة إلى بصمة الإصبع الثالثة على الكأس؛ ربما كانت لحظة إهمال من قِبَلها. وبالطبع، لم يتصوّر أيّ منا أن كارولين قامت بربط قناتَي الفالوب.

هناك صعوبة، بالطبع. فالحياة لا تتبع كما يبدو قواعد الرياضيات الثابتة. لقد ثبت أن الأمور لم تجرِ وفقاً لمخططها. كان مولتو يلقي بظلاله على التحقيق، وجمَع كل ما لم تقصد أن تتركه وراءها، إضافةً إلى أدلة كبصمات الأصابع التي تخيلتْ ربما أن باستطاعتي إخفاءها تحت السّجادة. وساءت الأمور جداً بالنسبة إلى الزوج، وانهار العالم حوله. وبدا مذهولاً تماماً، حتى إنه لم يكن يعرف من الذي أوقع به. ووجدت نفسها في الوضع الوحيد الذي لم تتصور أنها ستجد نفسها فيه: لقد

(*) كيس زيبلوغ: كيس من النايلون يغلق بواسطة سَحاب.

شعرت بالأسف عليه. وعاني كثيراً مما لم تقصد التسبب له به، واعتراها الخجل على ضوء الواقع البارد. فاعتنت به طوال فترة محنته، وكانت مستعدة في أي وقت لإنقاذه من خلال إطلاعه على الحقيقة. ولكن، ثبت في النهاية أن الأمر غير ضروري لحسن الحظ. ولكن، لا توجد نهايات سعيدة بالطبع؛ فهذه القصة مأساة. وأصبحت الأمور أفضل بين الزوج والزوجة، وعادت مشاعر الحب بينهما. ولكن القضاء والقدر لا يمكن تغييرهما. فهناك أمور لا يستطيع قولها لها، وهناك أمور لا تستطيع قولها له. والأسوأ من كل شيء أنها لم تتمكن من تحمّل ذَنْبها، أو تَذكّر جنونها».

عندما أنهيت كلامي، نظرت وليب إلى بعضنا، وسألته إن كان يريد المزيد من الشراب.

«لا، يا سيدي»، قال. «أنا بحاجة إلى شراب قويّ». ووقف لغسل كأسه، ثم وضعها في العلبة مع الكؤوس الإحدى عشرة الأخرى. وحمل العلبة المغلَقة في أثناء قيامي بوضع الشريط اللاصق.

وسكبتُ له جُرعة من شراب قويّ، وتناولها.

«متى اكتشفت كل ذلك؟»، سأل.

«الصورة الكاملة؟ أظن أنني كنت أجمع أجزاءها كل يوم. لقد مرت أيام، يا ليب، كان فيها نات في المدرسة ولم أجد شيئاً أقوم به سوى الجلوس في الظلام والعمل على التفاصيل مراراً وتكراراً».

«أعني، متى عرفتَ ما حدث؟».

«أتقصد متى عرفتُ أنها قتلت كارولين؟ لقد تبادر ذلك إلى ذهني عندما بلغني أنّه تم إجراء اتصال هاتفي من هنا ليلة مقتلها. ولكنني ظننت أنه لا بد من أن يكون تومي قد زوّر سجلات الهاتف. لم أعرف ذلك في الواقع حتى رأيت الكؤوس مرة أخرى في شقة كارولين وأدركت أن كل كؤوسها موجودة هناك».

فأحدث ليب ضجيجاً تهكمياً لا يمكن دعوته تأوّهاً.

«ما هو شعورك حيال ذلك؟».

«أمر شـديد الغرابة». وهززت رأسـي. «في الواقع، كنت أحب النظر إليها وهي تطهو العشاء لي ولنات، وتلمسني. ومن ثم، كما تعلم، اتضـح لي كل شـيء: لقد فقدتُ صـوابي. لم أصدّق ذلك قطّ. لم أصدّق ذلك قطّ طوال أيام. كنت متيقناً أحياناً من أن تومي قد أوقع بي وجعلني أظن أن باربارا جزء من خداعه. لقد فكرتُ بذلك كثيراً، وكنت أودّ لو أنهـا تسـمع ليـون يُلقي باللائمة على مولتـو. ولكنني في النهاية لم أتفاجأ البتة عندما أدركتُ الحقيقة».

«ألا تريد أن تراها تحترق؟».

فمططتُ شفتيّ، وهززت رأسي ببطء.

«لم أستطع القيام بذلك، يا ليب. لم أستطع القيام بذلك لأجل نات. لقد تعرّضنا لمتاعب جمّة. لم أستطع أخذ الأمر على عاتقي. لا أدين لأي شخص بقدر ما أدين له».

«ألا تقلق على الفتى؟ معها؟».

«لا»، قلـت. «إنـه مـن الأمور التي لا أقلق في شـأنها. تكون في أفضـل حـال معـه. تحتاج باربارا إلى شـخص فـي جوارها يعتني بها، ونـات هـو هـذا الشـخص. لقد عرفتُ على الدوام أنه لا يمكنني الفصـل بينهما؛ سيكون ذلك أسوأ شيء أقوم به للاثنَين معاً».

«على الأقل، لن أتساءل عن سبب قيامك برميها خارجاً». وأصدر ليب ذلك الصوت مجدداً.

وجلستُ على كرسي المطبخ الذي كان ليب يشغله، ووجدتُ نفسي في وسط الغرفة بمفردي في أثناء تكلّمي.

«سأقول لك أمراً سيدهشك: هي من قامت بالمبادرة. لم أطلب منها المغادرة. أفترض أنها لو بقيت هنا، لاسـتيقظتُ ربما ذات صـباح بعد سـتة أشـهر وخنقتها في أثناء نومها. ولكنني كنت مسـتعداً للمحاولة. لقد أردتُ المحاولة حقاً. فمهما كانت مجنونة، وجامحة، وغريبة الأطوار، لا يمكنك أن تنكر قيامها بذلك لأجلي، ليس لأنها لم تعُد تحب، بل لأجل الحصـول على الحب. لا أعتبر أننا متعادلان، ولكن لكل منا مسـاهمته

في الجريمة».

وضحك ليب.

«آه»، قال. «لديك أسلوب مع السيدات حقاً».

«هل تظن أنني فقدت رشدي حين أردت البقاء معها؟».

«هل تطلب رأيي؟».

«يبدو الأمر كذلك».

«أنت بحال أفضل بدونها. تجعل تصرفها موضع فخر كبير. أنت تصدّق قدراً كبيراً من الصّدف».

مكتبة
t.me/t_pdf

«كيف ذلك؟».

«من خلال طريقة نظرتك إلى كل هذا الأمر».

«مثلاً؟».

«بصمتاك. إنهما على الكأس، أليس كذلك؟».

«صحيح».

«وأنت الوحيد الذي يعرف ذلك؟ لا يمكنك مطابقة البصمات بمفردك. يجب أن تدَع المختبر يقوم بذلك. هذا يعني أن يقوم شخص آخر بتحديد اسمك».

«أجل، ولكنني غبيّ كبير. كان يُفترض بي أن أعرف الكأس، وليس أن أطلب رفع البصمات».

«في قضية قتل كبيرة، ألن تقوم بطلب البصمات؟».

ففكرت للحظات. «ربما لم تكن تعرف أن باستطاعتهم القيام بمطابقة البصمات بواسطة الليزر. فبصمتاي موجودتان هناك فحسب لمنعي من رمي عشرة سنتات عليها».

«بالتأكيد»، قال ليب. «وفي غضون ذلك، يقوم المختبر بالكشف عن الوقائع. لقد حصلوا على أنسجة سجادتك».

«لا يمكن لأحد أن يثبت أن هذه الأنسجة تعود لسجادتي».

«ماذا عن سجلات اتصالاتك الهاتفية إذا قام أحد بالاطلاع عليها؟ قلتَ بنفسك إنها ربما كانت تعرف أنك تستخدم هذا الهاتف للاتصال

بكارولين. لماذا اتصلتْ من هاتفها في أثناء وجودك في المنزل؟ لماذا المجازفة بدلاً من استخدام هاتف عمومي؟ ألا تعتقد أن السيدة عرفت من خلال سجلات الاتصالات الهاتفية؟ أو الأنسجة؟ أو البصمات؟ بعد اثني عشر عاماً من استماعها إلى قصصك؟»، وابتلع ليب ما تبقى من الشراب. «أيها البطل، لم تضع تصوّراً صحيحاً لما جرى».

«حقًّا؟ ما هو تصوّرك؟».

«أتصوّر أنها أرادت قتل كارولين وتحميلك المسؤولية. هناك أمران برأيي».

وأمسك ليبرانزر بأحد كراسي المطبخ وجلس عليه بشكل معكوس. لقد أصبحنا جالسَين وجهاً لوجه.

«أراهن على أنها تفاجأت عندما تسلمتَ هذه القضية. فهي لم تتوقع ذلك. أنت المساعد الأعلى ولا تتسلم قضايا جنائية في هذه الأيام. فلا وقت لديك. هناك مكتب عليك إدارة شؤونه في أثناء محاولة هورغان إنقاذ منصبه. والأمر الوحيد الذي تعرفه هو أن ريموند في موقف حرِج ويريد الإشراف على هذه القضية. فالكل يعرفون أن ريموند واثق من أن الشرطة ستسلِّم القضية للقيادة الخاصة. أعتقد أنها تصوّرت أن تحرّياً بارعاً ما سيلقي القبض عليك. وأن شخصاً ما سيلاحظ وجود عدد كبير من الأبواب والنوافذ المفتوحة ويعتبر الأمر مكيدة؛ وسيبحث آخر عن شخص ذكيّ جداً يعرف كيفية القيام بكل هذه الأمور المرتبطة بالجريمة. هذا ما كانت تعتمد عليه؛ كانت تعتمد على وجود شخص ما يعرفك جيداً. شخص رافقك إلى مركز الصليب الأحمر ويعرف فئة دمك، لا بل يعرفك أيضاً بما يكفي ليظن أنك كنت برفقة السيدة المتوفّاة، ويعرف لون السجادة الموجودة في منزلك». وتثاءب ليب فجأةً، وعلى نحو غير ملائم، في أثناء نظره إلى غرفة الجلوس. «أجل»، قال، «عندما أتيتُ لأجلك مع الأغلال، لا بد من أن يكون ذلك قد تسبّب لك بجرح عميق. هذا ما أتصوّره».

ونظر إليّ ليب بحصافة، ومن ثم أومأ برأسه، مُقنِعاً نفسه.

«إنــه أمــر ممكــن»، قلت بعد لحظات. «لقد فكــرتُ بذلك، ولكنها قالت أموراً لا تتماشى مع توقعاتها».

«ما الذي يعنيه ذلك؟»، سأل. «ألم يتسببوا لك بالمتاعب؟ أعني، ما الذي كنت ستسـمعه غير الكلام المعسـول: حبيبي، لجنّبتُك المتاعب لو اضـطررت لذلك. ما الذي كنتَ سـتفعله؟ أكنت سـتقول: تابعي عملك وأبلغي الشرطة عني؟».

«لست أدري، يا ليب». ونظرت إليه، ومن ثم ربّتُّ على كتفه. «منذ خمس عشرة دقيقة، كنت تظن أنني من قتلها».

وردًا على ذلك، أصدر الصوت المعهود.

«لا أعلـم»، قلـت ثانيـةً. «أصـدّق أمرَين. هي مـن قامت بذلك، وشـعرت بالأسـف. سأصـدّق دائماً أنها شـعرت بالأسـف». وقوّمتُ وِضـعتي. «وعلـى كل حــال، ما كان قيامــي بالإبلاغ عنها ليفيدني بأي شيء».

«بمناسـبة الحديـث عـن الإبـلاغ، هل أبلغـتَ محاميَيك بذلك على الأقل؟».

«لا، لـم أخبـر أيًـا منهما. في آخر الأمر، تبادرت إلى ذهني فكرة إمكانية اكتشاف ساندي للأمر. لقد تحدث إليّ ذات ليلة عن وضع باربارا في منصــة الشـهود، وانتابني شـعور واضح بأنه لم يكن مهتماً قطّ بالقيام بذلك حقاً. وكانت لكِمب أيضاً فكرة مبهَمة عن الأمر. كان يعلم بوجود خَطب ما في شـأن سـجلات الهاتف. ولكنني لم أرغب في وضـع أي منهما في هذا الموقف، إذ سـيجدان نفسَـيهما مضـطرَين للاختيار بيني وبيــن زوجتــي. لم أشـأ أن يتم الدفـاع عني بهذه الطريقة. كما قلتُ، لا أستطيع أن أرى ابني وقد تمّ إبعاده عن والدته. وإذا أجرت باربارا كل تلك الحسابات، يا ليب، فهذا يعني أنها كانت تعلم أيضاً. وستكون لدى نيكـو حجـة جيـدة إذا وقفتُ هناك واتهمتها. فهو سـيقول إنها جريمة بكل ما للكلمة من معنى: زواج غير سعيد، مدّع عام يعرف النظام بمُجمَله، رجـل أصـبح عدوًا للمرأة ويكـره كارولين ويكره زوجته، ولكنه يحب

الفتى، وإذا انفصل عن زوجته، فلن يحصل على الوصاية أبداً. سيقول إنني خططت لذلك، وجعلتُ الأمر يبدو كما لو أنها مكيدة، وسينسب إليّ وضع بصمة إصبعها على الكأس أو حَقن السائل المنَوي. ربما سيقول إنني كنت أستغل باربارا، وهي الشخص الذي أحب أن أرى أنه قُبض عليه إذا تم اكتشاف مخططي. هناك عدد كبير من هيئات المحلفين الذين يصدّقون ذلك».

«ولكنّ ذلك غير صحيح»، قال ليب.

فنظرت إليه. باستطاعتي القول إنني تركته مرة أخرى وهو يطفو بقلق في مناطق عدم التصديق السفلية.

«لا»، قلت له، «هذا ليس صحيحاً».

ولكن، كان هناك وميضُ شكٍ عقيم. ما الأكثر صعوبة؟ معرفة الحقيقة أو العثور عليها، أو البَوح بها أو تصديقها؟

انضم إلى مكتبة .. اضغط اللينك t.me/t_pdf

ختـــام

عندما اتصل ريموند، قلت له إن الفكرة سخيفة.

«ردُّ اعتبارٍ فَوري»، قال.

«هذا مستحيل»، أجبت.

«يا راستي»، قال، «امنح ضميراً يشعر بالذَّنب فرصة». لم أكن واثقاً من أنه يشير إلى نفسه أو إلى كل المقيمين في مقاطعة كيندل. ولكنه أصرّ على إمكانية حدوث ذلك، وقلت له أخيراً إنني سأفكر جدّيًّا بالأمر إذا كان بالإمكان تدبّر كل شيء.

وفي كانون الثاني|يناير، ونتيجةً للالتماس المقدَّم، أجاز مجلس المدينة إجراء انتخابات لإقالة نيكو من منصبه، ولكنه أظهر حياداً ملحوظاً في ما يتعلّق بديلاي غارديا الذي قام بحملة ناشطة للاحتفاظ بمنصبه. فطرد تومي مولتو قبل أسبوعين تقريباً من موعد الانتخابات، ولكن قادة مدنيين متنوعين، بمن فيهم ريموند، ولارين، والقاضي مامفري، وقفوا ضده، وفقد ديلاي غارديا منصبه بفارق 2،000 صوت تقريباً. ولكنه لم يستسلم، وقرر خوض الانتخابات للحصول على منصب في مجلس المدينة عن منطقة ساوث إند، وتوقعتُ له الفوز.

وشكل بولكارو لجنة من المدنيين لوضع توصيات في شأن النائب العام الجديد، وكان ريموند عضواً فيها. فهذا ما حمله على الاتصال بي. وسرَتْ شائعة بأن تكون ماك الخيار الأوفر حظاً، ولكنها رفضت مغادرة كرسي القضاء. وبشّرني ريموند بأن الصحف أجرت استطلاعاً عاماً للرأي وبأنني سأحظى بتأييد شامل. لم أستطع التفكير بسبب مُقنِع لرفض الأمر. وفي 28 آذار|مارس، أي قبل أربعة أيام من الذكرى الأولى لمقتل كارولين بوليموس، أصبحتُ النائب العام بالإنابة لمقاطعة كيندل.

وتولّيت المنصب بعد اتفاق مبدئي على عدم خوض معركة إعادة الانتخاب. وقال لي رئيس البلدية مرتَين إنه يعتقد أنني أصلح لأكون قاضياً جيداً، ولكنه لم يدرس ذلك من الناحية النظرية. في الوقت الحالي، أستمتع بوظيفتي. وتشير التقارير الإخبارية إليّ بأنني النائب العام القيّم. وتقوم علاقاتي مع الكثير من الناس على أنواع عديدة من الأساليب الغريبة، ولكن الوضع في العمل ليس أسوأ من خروجي من شقتي لشراء دزينة بيض. لقد سلّمتُ بأن هذه هي الحال التي سأكون عليها عندما لم أغادر مقاطعة كيندل. لا يمكن اعتبار ذلك شجاعة من قِبلي، أو عناداً، ولكنني لم أكن أعتقد أن مشاكل حياة جديدة في مكان آخر ستكون أسهل من التعاطي مع أواجهه هنا. سوف أكون على الدوام تُحفة من نوع ما. راستي سابيتش. أكبر هراء صادفتموه يوماً. لقد أوقع به بدون شك، ومن ثم قام ديلاي غارديا بتغطية مولتو. أمر مثير للشفقة حقاً. لم يعُد الرجل كما كان في السابق.

ويبقى مقتل كارولين بوليموس قضية غير محلولة، بالطبع. فلا أحد يتحدث عن متابعة القضية، ليس معي بالتأكيد، وهناك استحالة عملية على كل حال لمحاكمة شخصين على الجريمة نفسها. فقبل أشهر قليلة، حاول مهووس سجين الإدلاء باعتراف. فأرسلتُ ليبرانزر لأخذ إفادته. وأبلغ ليب القسم بسرعة بأنه شخص معتوه.

لقد ذهبتُ إلى ديترويت أكثر من مرّة في عطلات نهاية الأسبوع. مع هذه الوظيفة، يكون الأمر أصعب مما أخطط له، ولكن عندما لا أستطيع القيام بهذه الرحلة، تقوم باربارا بإرسال ناتانيال لي. وفي رحلتي الثانية إلى هناك، اقترحت عليّ باربارا البقاء معهما. وأدى أمر إلى أمر آخر، وتصالحنا بطريقة ما. فهي لن تعود إلى هنا على الأرجح؛ فعملها يسير بشكل جيد. وفي الحقيقة، هي تستمتع، كما أعتقد، بالمسافة التي تفصلها عني وعن كل ما يذكّرها بتلك المرحلة. ولا يتوقع أحد منا أن يدوم الوضع الحالي. فعاجلاً أم آجلاً سيلتقي أحدنا شخصاً آخر. وعندما أفكر بذلك، آمل أن يكون ذلك الشخص امرأة أصغر سنّاً بسنوات قليلة.

فكلّي رغبة في أن أُرزَق بطفل آخر. ولكن أحداً لا يمكنه التخطيط لهذا النوع من الأمور. في الوقت الحالي، يبدو نات مرتاحاً لجهة كوني ووالدته ما زلنا متزوّجَين ولسنا مطلقين.

ومن حين لآخر، أُقرّ بأنني لا أزال أفكر بكارولين. لم يتبقَّ أيّ من ذلك التَّوق المجنون، أو أيّ من التعلّق المَرَضي بها. أعتقد أنها وجدت أخيراً مكانها لترتاح مني. ولكنني أشعر بالحَيرة أحياناً من هذا الاختبار. ما كان نوعه؟ لا أزال أقول لنفسي. ماذا كنت أريد منها؟ ما الذي بدا ضرورياً جداً لكل ذلك؟ في النهاية، لا بد من أن يكون للأمر علاقة برغبتي في الشعور بالألم، وبالآلام التي تعرّضت لها. لقد ظهر إرث الألم ذاك علناً؛ في أسلوبها العنيد، وسأمها المكتئب، ودفاعها المتلهّف في قاعة المحكمة عن أمثال ويندل ماك غافن الذين يتعرضون للإساءة والمثقَلين بالهموم. لقد عانت بنفسها إلى حد كبير؛ وهي تدّعي من خلال كل مظهر من مظاهر كيانها بانتصارها على تلك الحالة. الأمر غير صحيح. فهي لم تكن قادرة على التخلّص من عبء ماضيها الرهيب بقدْر عجز أولئك الأبطال الإغريق على الطيران قرب الشمس. ولكن، هل هذا يعني أن الأمر مستحيل بالنسبة إلينا جميعاً؟

لقد مددتُ يدي لكارولين. وكان جزء مني يعلم أن عملي سيّئ الطالع. لا بد من أنني لاحظت غرورها المضطرب، وافتقارها إلى المشاعر الذي يؤثّر في سلوكها. لا بد من أنني عرفت أن ما عرضَته لم يكن سوى أوهام. ولكنني لا أزال مُعجبَاً بتلك الأسطورة التي حاكتها حول نفسها، وذلك المجد، وتلك الجاذبية، وتلك الشجاعة، وكل جمالها العازم، وطيرانها فوق عالمِ العذاب الغامض وكونِ الألم الشرير! بالنسبة إليّ، سيكون هناك على الدوام صراع للخروج من الظلمة. لقد مددتُ يدي لكارولين. لقد عشقتها، ولكنني أردت باسترسال مستسلم، وبرغبة عارمة ومتحدّية وجريئة، الدرجة القصوى؛ الاغتباط، العاطفة القوية، النار، الضوء. لقد مددتُ يدي لكارولين بأمل دائم.

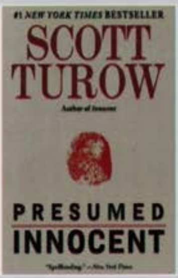

عندما قُتلت محامية جميلة تدعى كارولين بوليموس، وتعمل في مكتب النائب العام بشكل وحشي، عُهد إلى راستي سابيتش، وهو مساعد المدعي العام، بهذه القضية. ولكنه وكارولين كانا أكثر من زميلَين. وأصبح الزميل المتحمّس، تومي مولتو، مقتنعاً بأن سابيتش مُذنِب بارتكاب الجريمة. وسرعان ما وضع هيام راستي بامرأة ليست زوجته كل ما يحبه ويقدره تحت المحاكمة؛ بمن في ذلك زوجته. إنها قصة تكشف عن عالم الخيانة، والقتل، والفساد... إضافةً إلى الأعماق الدفينة للقلب البشري.

«رواية جذّابة مسرودة ببراعة» - كوزموبوليتان

«التشويق لا يتوقف... مفاجأة تلي أخرى... إنه نِتاج كاتب موهوب جداً».
- نيويورك تايمز

«يستحوذ على الانتباه... عمل روائي رائع... وصف دقيق للنظام القضائي الجنائي تقشعرّ له الأبدان». - سان فرانسيسكو كرونيكل

احتلت رواية «البريء المفترض» المرتبة الأولى على قائمة صحيفة «نيويورك تايمز» للروايات الأكثر مبيعاً، وقد بيع منها أكثر من تسعة ملايين نسخة، ثم تحوّلت إلى إنتاج سينمائي ضخم حمل العنوان نفسه من بطولة نجم النجوم هاريسون فورد ونخبة من نجوم هوليوود، وقد حقق الفيلم أرباحاً طائلة بلغت 86 مليون دولار أميركي خلال وقت قصير من عرضه في الصالات الأميركية.

t.me/t_pdf

ISBN 978-614-01-0381-8
9 786140 103818

نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com